الجهاد في سبيل الله

حقيقته وغايته

الدكتور
عبد الله بن أحمد القادري

الجزء الأول

دار المنارة
جدة

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دار المنارة
للنشر والتوزيع
هاتف: ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس: ٦٦٠٣٢٣٨ - المستودع: ٦٦٧٥٨٦٤
جدة ٢١٤٣١ - ص.ب: ١٢٥٠ - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: أبي الحسن علي الحسني الندوي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده.

أما بعد: فلم تكن دعوته ﷺ مقصورة على معرفة الله، المعرفة الصحيحة الكاملة، ولا على العقائد الصحيحة الثابتة، ولا على العبادات (القلبية والبدنية والمالية) المقرِّبة إلى الله، الجالبة لحبِّه ولرضاه؛ بل مع ذلك كله كان الجهاد من خصائص دينه وأركان دعوته وأحبّ الأعمال إليه، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ هو الذي أرسلَ رسولَه بالهُدَى ودِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه على الدين كلِّه، ولو كره المشركون ﴾[1].

ويقول: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله ﴾[2].

يقول العلّامة ابن قيِّم الجوزية في كتابه «زاد المعاد»:

(لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبَّته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة؛ كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، فاستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حقّ جهاده بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفعَ العالمين ذكراً، وأعظمهم عند الله قدراً، ولمّا كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله، والمهاجر من هَجَر ما نَهَى الله عنه»، كان جهاد

(١) التوبة: ٣٣، الصف: ٩.   (٢) الأنفال: ٣٩.

النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له)[١].

وقد كان الجهادُ الإسلامي ـ بشروطه وأحكامه وآدابه ـ مصدرَ خيرٍ كثير وبركة عامة للعالم ورحمة للإنسانية[٢]، وقد حُرِمَ العالم فوائده وبركاته منذ انقطَع وتوقَّف، وحلت مكانه الحروب القومية والوطنية والمادية والسياسية والثورات الداخلية، التي لم يُرَد بها وجه الله، ولم يُقصد بها إعلاء كلمة الله، وإنقاذُ البشرية من الجاهلية وعبادة الطاغوت والنفس، وإسعادها، وذلّ المسلمون وفقدوا قيمتهم ووزنهم حين تركوه، وتحققت عليهم النبوءة النبوية «يوشك الأمم أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأَكَلَة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ، قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاء السَّيل، ولينتزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوَهْن، فقال قائل يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حبّ الدنيا وكراهية الموت»[٣]، وقد صحَّ أنه قال: «إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٤].

وإني أحمد الله على أنه أتاح لي فرصة الاطّلاع على مجهود الأستاذ الفاضل عبد الله بن أحمد قادري حفظه الله، العلمي الضخم (الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته) الذي أعدّه لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وإني رغم أشغالي العلمية والتأليفية استطعت أن أطَّلع على كتابه الكبير ومحتواه، وشكرت له صنيعه في مجال العلم والبحث، فقد استوفى حقها، وهو يستحق ثناء أهل العلم، والباحثين، وأهنئه على هذا النجاح الباهر الملموس.

ومن أبرز سمات الكتاب: الاحتواء والشمول، والبحث في الجهاد الإسلامي، كلامياً وفقهياً وتاريخياً، وفي ضوء العقيدة والتاريخ وعلم النفس، والاستفادة من المراجع القديمة والحديثة حتى الصحف والمجلات.

---

(١) زاد المعاد ص ٢٩٢.

(٢) اقرأ الفصل الرابع الرائع من الباب الثاني من كتاب «الصراط المستقيم» الذي هو مجموع أمالي السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ)، واقرأ فيه منافع الجهاد وبركاته العامة للخلق كله (ص/ ٩٥ ـ ٩٦).

(٣) أبو داود، كتاب الملاحم جـ/٢ ص ٢٥٠.

(٤) أيضاً، ص/١٤٢، وقد تجلّت هذه الحقيقة في ما وقع ببيروت وحدث برجال منظمة تحرير فلسطين ومسلمي لبنان.

وكتابه ليس مقصوراً على البحث العلمي والفقهي فحسب، بل هو متصل بواقع العالم الإسلامي، يستطيع قارئه أن يحدِّد زمن تأليفه، والملابسات التي أُلِّف فيها، وقضايا المسلمين في ذلك العصر، وهو عندي من محاسن الكتاب ومزاياه.

وقد أبديت له بعض ملاحظاتي مع الاعتراف بقيمة الجهد الكبير الذي بذله في البحث والتحقيق، وأرجو أن يكون أولاها ما تستحق من العناية شأن الباحث المحقّق والرائد للحق والإنصاف، وهي كما يلي:

كان من الواجب في عرض نماذج المجاهدين في عصور مختلفة ذكر الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد ورفيقه الإمام محمد إسماعيل الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ) قائدَي أكبر دعوة الإصلاح وحركة الجهاد، وإقامة الحكم الإسلاميّ وتطبيق الشريعة الإسلامية، سياسةً وإدارةً، وقضائياً ومالياً، في شبه القارة الهندية، وقد أُلِّفت في هذه الحركة كتب موسوعية كبيرة باللغة الأردية، وألّف هذا العاجز كتاباً في هذا الموضوع بالعربية بأسلوب قصصي بعنوان (إذا هبَّت ريح الإيمان) ورسالة صغيرة بعنوان (الإمام الذي لم يوفّ حقه من الإنصاف والاعتراف)، وقد كانت الحركة العظيمة الفريدة التي شملت الهند وأفغانستان كلها، وأقامت حكومة إسلامية وطبقت النظام الشرعي فيها، وكانت على الأُسس الشرعية والترتيب الإسلامي الذي جرى عليه العمل في العهد النبوي وعصر الخلافة الراشدة، من تقديم الدعوة إلى الله والدخول في الإسلام، ثم التخيير بين الجزية والحرب، الترتيب الذي تناساه الفاتحون وقادة الجيوش الإسلامية حتى في العهد الأموي، كما تحقّق ذلك من حكاية وفد سمرقند الذي زار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وشكا إليه المهاجمين الفاتحين، وحكاها البلاذري في فتوح البلدان، فوكل الخليفة الأموي الراشد التحقيق في ذلك إلى قاضي المسلمين، فأقرّ ما قاله أهل البلد، وأعاد الأمر جِذْعاً، وكانت نتيجة ذلك أن دخل أهل البلد عن بِكْرة أبيهم في الإسلام.

وفي بعض مؤلفات الكاتب ما يساعد على كشف بعض النواحي الهامة للجهاد الإسلامي مثل: (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) و(ربانية لا رهبانية) و(السيرة النبوية).

وقد لاحظ كاتب هذه السطور اقتصار المؤلف حفظه الله في عرض نماذج المجاهدين على الجانب المعنوي من الجهاد وعلى شخصيات كانت معاناتها من

حكومات المسلمين، أما الشخصيات التي قامت بالجهاد المعنوي والتربية الشاملة الدقيقة مع الجهاد العملي، والقتال الحقيقي كسيدي أحمد الشريف السنوسي، والأمير عبد القادر الجزائري، والسيد شامل داغستاني، والأمير عبد الكريم الريفي، والغازي أنور باشا التركي، وغيرهم ممن هم أمثلة رائعة للجميع بين الدعوة والتربية، والكفاح والجهاد، فلم يذكرها كنماذج تُحتذى، وكان من الأفضل ذكر هذا النوع من المجاهدين أوّلاً، والتنويه بهم تنويهاً يليق بشأنهم، فإنه ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أُولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾، ولا يُوزن مِداد العلماء بدماء الشهداء، وإن نقل فيه حديث لا أصل له.

ولكن هذا لا يعني أن هناك نقصاً في قيام المؤلف بواجب البحث والتحقيق، إلّا أنه يكون قد ازداد جمالاً وشمولاً مع العناية بهذه النواحي، والكمال لله وحده، وجلّ من لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها.

وأشكر المؤلف على العناية ببعض مؤلفاتي المتواضعة والاقتباس منها، وذلك يدلّ على رحابة صدره، وختاماً أسأل الله تعالىٰ له دوام التوفيق وأُعرب مرة أخرى عن إعجابي بهذا العمل العلمي العظيم.

سلخ ذي القعدة الحرام ١٤٠٢ هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

تقـديـم

بقلم الأستاذ منّاع قطّان

تكشف الرسائل الجامعية عن مواهب ذويها، وتعطي صورة صادقة عن قدرات أبناء الأمة المؤهَّلين لقيادتها العلمية، الذين يحملون مشاعل هدايتها، ويُنيرون الطريق أمامها، حتى تنهض من كبوتها، وتَسلُك الجَدَد في نهضتها، آمنة من العِثار والزلل.

وهذه الأمة أمة معطاءة، كلما ادلهمت خطوبها، وتكالبت عليها قوى الشر، تفتحت أمامها بوارق الأمل، فيما تجده لدى أبنائها من وعي. وما تجود به قرائحهم من فكر ورأي، فتستعيد حيويتها، وتستجمع عزائمها، حتى تمضي قُدماً لتحقيق ما تصبو إليه من عزٍ ومجد.

وبين يدي القارىء إحدى الرسائل الجامعية «الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته» وهي رسالة تقدَّم بها الأخ «عبد الله بن أحمد قادري» لنيل درجة الدكتوراه في الفقه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وكان لي حظ الإشراف عليها، فعايشتها طوال سنوات إعدادها، ولمست فيها نبضات الإيمان التي تفيض بمشاعر المسلم نحو ما تعانيه أمته من مكائد وإحَن، وما تكابده من كوارث ومحن، فكان قلم الأخ عبد الله يصف واقع أوضاعنا المريرة، ويعالجها بمبضع النطّاس الماهر، وحرارة المؤمن الغيور.

وقد جعل القرآن الكريم الموت في سبيل الله أرقى صور الحياة ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ﴾ فالحياة الهنيئة الخالدة هي حياة الشهداء في جنّات النعيم، وهذا يعني أن حياة أمتنا الحقة في الجهاد لإعلاء كلمة الله، والجهادُ ماضٍ إلى يوم القيامة، نصرة لدين الله، وحماية لحوزته، وذوداً عن حياضه، وحفاظاً على عزّة أمته ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

والصراع بين الحق والباطل سنّة من سنن الله الاجتماعية، تمحيصاً لأهل الحق ودحضاً للباطل وأهله. وصيانة لمتعبَّدات الدين، حتى تظل راية التوحيد عالية خفَّاقة، يستظل بها المؤمنون بالله، ويجدون في كنفها أمن النفس، وراحة القلب، ومتعة الإيمان.

ومن أخص ما تتميز به أمتنا أنها أمة الجهاد. به رسخت دعائم دعوة الإسلام، وانتشرت في أرجاء المعمورة، واندحرت جحافل الشرك، وبلغت هذه الأمة ذروة المجد، وتسنّمت قمة العزة، ورهبها القاصي والداني، وأقامت شريعة الله في أرضه، وبنت الحضارة المثالية الفاضلة التي لا تعهد البشرية لها مثيلاً.

والجهاد في الإسلام له غاياته السامية، وأهدافه النبيلة في تحرير الناس من قيود العبودية، حتى يكونوا عبيد الله وحده، تربطهم العقيدة برباط أُخوة الإيمان، وأواصر الحب من الله. فالناس جميعاً ينحدرون من أصل واحد، ولا تفاضل بينهم إلاّ بالتقوى وصالح العمل. وبهذا يكون الجهاد قتالاً في سبيل الله. أما ما سوى ذلك من أهداف وطنية أو قومية فإنه من شعار الجاهلية ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾.

وهذه الرسالة لا تتناول أحكام الجهاد في الفقه الإسلامي تناولاً تفصيلياً، فإن مصادر الفقه الإسلامي في أمهات كتبه قد كفت كل باحث مئونة ذلك، ولا يحتاج المسلمون اليوم إلى جديد من هذه الأحكام، ولكنهم يحتاجون إلى إحياء روح الجهاد الإسلامي، وإثارة بواعثه في نفوسهم، إزاء قضاياهم الكبرى، من استرداد أرضهم المغتصبة، وحقوقهم المسلوبة، وكرامتهم المفقودة.

والرسالة تحلل هذا تحليلاً دقيقاً، وتوقظ مشاعر الأمة بروح جهادية وثَّابة، كي تستأنف حياة إسلامية جديدة عامرة بالإيمان، يحدوها الأمل في تحرير أوطاننا، وإعزاز ديننا، واستعادة أمجادنا.

ويجد القارىء للرسالة أنه أمام سِفْر ضخم، قلَّما يُعهد في الرسائل الجامعية ولكنه يستمتع بقراءته، فلا يفرغ من باب حتى يَلجَ باباً آخر، ولا ينتهي من فصل أو مبحث حتى يجذبه الذي يليه، من أسلوب شائق، تذكِّيه روح إسلامية عالية.

وإذا أبصرت أمتنا الطريق، واتَّقدت جذوة الإيمان في صدور أبنائها، واتخذت

الجهاد منهجاً لحياتها؛ فإنها تكون جديرة بأن يصدق فيها وعد الله ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليُمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليُبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأؤلئك هم الفاسقون ﴾.

مناع خليل القطان

المقـــدّمَة

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألاَّ إِلَه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاته ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون ﴾[١].

﴿ يا أيها الناسُ اتَّقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتَّقوا الله الذي تَسَاءلون به والأرحامَ، إنَّ الله كان عليكم رقيباً﴾[٢].

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يُصْلِحْ لكم أعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يُطِعِ الله ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[٣].

أما بعـــد: [٤]

فإن الجهاد في سبيل الله ذِرْوة سنام[٥] الإسلام، وناشر لوائه، وحامي حماه، بل

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

(٣) الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١.

(٤) هذه الخطبة كان الرسول ﷺ يفتتح بها كلامه، ولذلك سميت خطبة الحاجة، وقد أفردها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني برسالة خاصة ذكر فيها رواتها من الصحابة ومن أخرجها من أئمة الحديث، فراجعها إن شئت.

(٥) إشارة إلى ما رواه الترمذي في سُننه من حديث معاذ بن جبل، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. =

لا قيام لهذا الدين في الأرض بدون الجهاد في سبيل الله، وإن المجاهدين في سبيل الله هم صَفْـوة الخلق، وسادتهم، والنـاصحون لهم، والبـاذلون نفـوسهم ومهجهم لإسعادهم في الدنيا بالتمتع بهذا الدين الذي لا سعادة لهم بدونه وفي الآخرة بنيل رضوان الله ودخول جناته.

قوم باعوا نفوسهم وأموالهم لله، ورغبوا في عاجل لقاه؛ لينالوا الحياة الآجلة الأبدية التي لا يصطفي الله لها من خلقه إلا خيارهم الذين يتخذهم شهداء.

قوم ندبهم الله لإعلاء كلمته فانتدبوا، وأمرهم بالدعوة إليه وبذل طاقتهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فأسرعوا ملبين أمره، مشفقين على خلقه، داعين إلى عبادته ونبذ عبادة غيره، يقيمون على دعوتهم الحجة من كتاب الله وسنّة رسوله، فيضمُّون من اهتدى بذلك إلى صفِّهم له ما لهم وعليه ما عليهم، ويرفعون السيف على رقاب من جحد وعاند وحارب الله ورسوله حتى يدخل في دين الله أو يخضع لسلطانه مقيماً الدليل على خضوعه بأداء الجزية والصَّغَار.

قوم يختارون الجوع والعطش والخوف على الشبع والريِّ والأمن في الحياة الدنيا ليسبقوا إلى نعيم الله الدائم في دار كرامته. ينام الناس وهم يسهرون، ويتمتع الناس بملذات الدنيا وطيباتها وهم منها محرومون، إذا تغطَّى القاعدون على سررهم بأنواع الثياب وافترشوا أجود الزرابيِّ وتوسدوا ألين النمارق؛ كان غطاء المجاهدين نقع غبار التحامهم بالأعداء، وكان فرشهم الحصى والشوك، وكانت وسائدهم أسلحتهم التي بها يقارعون الكفار.

لذلك يكرمهم الله إذا انتقلوا إلى دار كرامته بما يتمنَّون أن يحييهم الله من أجله مرات ليقتلوا في سبيله، بل هذا ما تمنَّاه الرسول ﷺ وما ذلك إلا لمكان المجاهد الشهيد الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله.

وتلك التجارة الرابحة التي تتضاءل أمامها كل أنواع التجارات، وتصغر بجانبها كل أنواع الأرباح: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، هل أدلّكم على تجارةٍ تُنْجيكم من عذابٍ أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم

= كتاب الإيمان، الباب الثامن، رقم ٢٦١٦ (ج ٥ ص ١١).

خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومساكنَ طيبةً في جنات عَدْنٍ ذلك الفوز العظيم، وأخرى تُحبُّونها نَصْرٌ من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين ﴾[١].

قوم رفع الله منزلتهم في الدنيا على أعدائهم، وجعلهم قادة البشر ومعلميهم؛ جزاء رَفْعهم لواء الإسلام ونصرهم دين الله: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهَوْن عن المنكر، وتؤمنون بالله ﴾[٢].

* * *

ولقد علم السلف الصالح منزلة الجهاد في سبيل الله، فشمَّروا عن سواعدهم صاعدين إليها غير راضين بالوقوف على ما سَفُل من درج سُلَّمِها، بل طامعين في الوصول إلى ما علا منه، حتى كان أحدهم يرمي التمرات من يده مسرعاً إلى الله بنفسه، وكان المجاهد يشمُّ ريح الجنة قبل أن يلقى ربه شهيداً.

فأنالهم الله من العزِّ والتمكين في الأرض ما كانوا به سادة الدنيا وقادة العالم، ففتحوا قلوب البشر بالقرآن والسنّة والإيمان، وأزاحوا طغاة الكفر وجبابرته بالسيف والسِّنان، حتى دان لهم العالم في وقت قصير، فما بقي في أغلب الأرض إلاّ مسلم أو خاضع لحكم الإسلام.

ولكن الخَلَف أخذ يبتعد عن دين الله رويداً رويداً، ويفرِّط في الدعوة إلى الله شيئاً فشيئاً، ويقعد عن الجهاد في سبيل الله قليلاً قليلاً حتى أضاع الأمانة التي حملها، ففقد العِزَّة التي كانت تصاحبها، ترك طاعة ربه فوكله على نفسه وقعد عن نصر دينه فخذله وأذلَّه لعدوه، فعاد الكفر يصول ويجول، وعاد الإسلام غريباً كما بدأ.

فأصبح المسلمون كقطعان الأغنام التي لا راعي لها تتخطفها الذئاب في الشِّعاب، ويقتلها الظمأ وهي تسعَى إلى ما تظنُّه ماء وهو سراب، وتداعت عليها الأمم كما تدَاعَى الأكلة على قصعتها.

وأصبحوا ـ مع كثرتهم ـ غثاءً كغثاء السيل، نزع الله المهابة من قلوب أعدائهم ووضعها في قلوبهم.

---

(١) الصف: ١٠ ـ ١٣. (٢) آل عمران: ١١٠.

ولكن الأرض لم تَخْلُ من شموس الهدى الذين يضيئون للناس الـدرب، ويهدونهم إلى الصراط المستقيم، ويَحْدُون بهم إلى التمسك بهذا الدين والدعوة إليه وجهاد أعدائه، متّخذين من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ والتطبيق العملي من سلفنا الصالح ما يُعطي الناس التصور الصحيح لهذا الدين وللجهاد في سبيل إعلائه.

ولما كان هؤلاء الروّاد قليلاً عددهم، محصورة وسائلهم التي يبلّغون بها ما عندهم لغيرهم؛ وجب على غيرهم ممّن ضعفت همته وكلّت عزيمته فلم يلحق بهم ركابه أن يُسهم معهم بنقل ما تصوّروا، وما به بشّروا وأنذروا إلى الناس من مسلمين وكفار، حتى يمهّد لجهادهم السبيل ويقيم على العالم الحجة والدليل، ولا يثبّطه قِصَر الباع وقلة العلم والاطّلاع عن أن يدلي بدلوه مع الدلاء، تشبُّهاً بمن دعا إلى الله وحرّض على الجهاد في سبيل الله، ومن تشبّه بقوم فهو منهم وإن بعدت المسافة بينه وبينهم.

* * *

ولقد بدا لي أنَّ من أهم ما يدفع المسلمين للقيام بالجهاد في سبيل الله تجليةُ حقيقته لهم، وبيان الغاية العليا منه وما تفرع عنها من أهداف، والسعي لإعادة الروح الجهاديّة في نفوسهم، وتبصيرهم بثمرات إقامته الطيبة التي تعود إليهم وإلى العالم كلّه بالخير، وبأضرار القعود عنه التي تُشْقي العالم كله في الدنيا والآخرة.

كما بدا لي أن هذه المعاني غير واضحة في أذهان أكثر المسلمين، وأن الضرورة تقتضي إيضاحها وبيانها، فدفعني ذلك إلى اختيار هذا الموضوع الذي أطلقت عليه: «الجهاد في سبيل الله: حقيقته، وغايته».

ولعل القارىء لهذا الموضوع يتصور حقيقة الجهاد في سبيل الله وثمرات القيام به، كما يتصور أضرار القعود عنه، فيدفعه ذلك إلى السعي الحثيث لإقامة هذه الفريضة العظيمة.

* * *

وقد حاولت أن أجمع مادة هذا البحث من المصدرين الأساسيين وهما كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ حسب طاقتي واطّلاعي الضيّق وفهمي القاصر، وحَسْبي أنني أعمل

فكري وأجهد عقلي عند قراءة النص لأخرج منه بحكم أو فائدة في الموضوع الذي يكون فيه البحث، ثم قراءة ما ذكره العلماء في تفسير النص القرآني أو شرح الحديث النبوي، وقد لا أجد ـ فيما قرأت ـ من ينص على ما فهمته من النصوص، ولا أتردد في إثبات ما فهمته لوضوح معناه من حيث اللغة وعدم تعارضه مع قواعد الإسلام ونصوصه الأخرى، ثم أذكر ما تيسَّر لي من نصوص الفقهاء من كتب المذاهب المعتمدة أو غيرها وكتب السيرة والتاريخ الإسلامي من مراجعها الأصلية، وبذلت جهدي في أن أورد لكل حكم أو فكرة دليلاً من الكتاب والسنّة أو ما يؤيد ذلك من استنباط العلماء الأجلاَّء، ولمَّا كان منهج البحث مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بهذا العصر الذي كتب فيه البحث؛ فإنني جُلْت في بعض كتب العلماء المعاصرين لا سيما رجال الدعوة إلى الله ممَّن جاهدوا في سبيل الله، واستفدت منها أفكاراً ونصوصاً رأيت أن الفائدة تقتضي أخذها كاملة أو مختصرة بلفظها، وقد أصوغ معناها اختصاراً، وفي كل حال أُشير إلى مراجعي ولا أُهملها إلا إذا حصل مني سهوٌ أو غفلة، حرصاً مني على الاعتراف بحق السابق والدلالة على المرجع ليستفيد منه القارىء إذا أراد.

وقد أجد نصاً في كتب علماء غير مسلمين مناسباً للموضوع فأذكره، وإذا كان يستحق النقد نقدته.

أما أسلوب البحث فقد آثرت أن يكون سهل التناول لجميع طبقات الناس، لأن الموضوع يعنيهم جميعاً، وتناوله بأسلوب طبقة معينة، كعلماء الفقه ـ مثلاً ـ يحرم غيرهم من الاستفادة المطلوبة، وغالب شباب المسلمين يدرسون دراسات بعيدة عن التخصّصات المتصلة بالدراسات الإسلامية، وكثير منهم عنده رغبة شديدة في هذه الدراسات ولكن الأساليب المعقَّدة بالنسبة لهم تجعلهم ينصرفون عن كثير من الكتب التي تقع بين أيديهم. وقد بعث الله كلَّ نبي بلسان قومه ليتم البيان وتقوم الحجة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (حدِّثوا الناس بما يعرفون)[1] حرصاً على إقامة الحجة وقبول الناس ما يعرض عليهم، ولكن هذا الأسلوب السهل لا يحطُّ من قيمة الرسالة العلمية؛ لأن أحكامها وأفكارها مسندة بأدلتها من مصادر معتمدة ومراجع موثَّقة، وحَسْب الباحث أن يكون بحثه قائماً على الدليل مُدَعَّماً بالحجة.

وهنا أود أن أنبه على ما جرى عليه علماء الفقه في كتبهم، وهو إيراد الأحكام

(١) صحيح البخاري، رقم الباب ٤٩ في كتاب العلم فتح الباري (١/٢٣٥).

المستنبطة إما بالدليل كمغني ابن قدامة الحنبلي ومبسوط السرخسي الحنفي وما ماثلهما، وإما بدونه، وكلها تخلو من العاطفة في أسلوبها، لذلك نرى بعض كتّاب العصر يؤكدون في مقدمات كتبهم التي موضوعها فقهي على خلو أسلوبهم من العاطفة[1]؛ بحجة أن الكتاب علمي يقوم على الحجة وليس على العاطفة. أما أنا فأعترف أنَّ عاطفتي كانت ترافقني في كل موضوع، ولكنها عاطفة المؤمن بالحكم أو الفكرة القائمة على الدليل والبرهان، وعاطفة من يدعو إلى تطبيق الحكم أو الفكرة القائمة على الدليل والبرهان، ولم أذكر أحكاماً أو أفكاراً مبنية على العاطفة.

ولقد كانت خطّة البحث تستهدف إقناع المسلمين بضرورة الجهاد وكل ما يدفع إلى القيام به ويحققه، لذلك تجد كل موضوع يدور على هذا المحور، وإن اختلف مضمونه عن الموضوعات الأخرى، فالكلام على أنواع الجهاد يؤكد ضرورة تحقيقها كلها، والكلام على صفات المجاهدين يحضُّ على توافر تلك الصفات كلها، والكلام على عوامل النصر والهزيمة يدعو إلى السعي لتحقيق الأولى والبعد عن الثانية وهكذا... دواليك. ولعلي قد بلغت ما قصدت من إقناع المسلمين بضرورة الجهاد في سبيل الله مع توضيح حقيقته وغايته.

* * *

وقد اشتمل الكتاب على مقدمة وأربعة أبواب، ويتبع كل باب منها فصول، كما يشتمل كل فصل على مباحث ومطالب وفروع.

وإلى القارىء بيان بأسماء الأبواب والفصول، وأترك ذكر عناوين المباحث والمطالب والفروع نظراً لكثرتها، وسوف يجدها القارىء أمامه في صلب الكتاب، كما سيجد سرداً لها في فهرس الموضوعات في نهاية الكتاب.

الباب الأول (الجهاد في سبيل الله) وفيه خمسة فصول هي:

١ ـ مشروعية الجهاد وبعض أحكامه.
٢ ـ أنواع الجهاد في سبيل الله.

---

(١) راجع آثار الحرب في الفقه الإسلامي، لوهبة الزحيلي ص ٢٢.

٢ ـ بواعث الجهاد في سبيل الله ومعوِّقاته.
٤ ـ صفات المجاهدين في سبيل الله.
٥ ـ عوامل النصر وعوامل الهزيمة.

الباب الثاني (غاية الجهاد في سبيل الله وابتلاء المجاهدين) وفيه فصلان:

١ ـ أهداف الجهاد في سبيل الله.
٢ ـ انتصار الحق على الباطل.

الباب الثالث: (السبيل إلى إعادة الروح الجهاديّة إلى المسلمين) وفيه فصلان:

١ ـ إقتفاء أثر الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله.
٢ ـ السعي إلى إقامة الخلافة الإسلامية التي تجمع شمل المسلمين.

الباب الرابع (ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله وأضرار القعود عنه) وفيه فصلان:

١ ـ ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله.
٢ ـ أضرار القعود عن الجهاد في سبيل الله.

* * *

شكر وتقديـر:

هذا وإني لأتقدَّم بالشكر لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ومسؤوليها، وبخاصة كلية الشريعة ـ قسم الفقه ـ الذين أتاحوا لي الفرصة للانخراط في سلك طلبتها والاستفادة من أساتذتها.

كما أتقدَّم بشكري وتقديري لفضيلة شيخي العلّامة الجليل الشيخ منّاع بن خليل القطّان الذي بذل جهده ووقته في توجيهي وتسديدي في هذا البحث من أوله إلى آخره، ولم يترك ثغرة من الثغرات دون أن ينبّه عليها ويبدي رأيه فيها كتابة أو مشافهة، وإني لأعترف كذلك بأنني لم أحقق له رغبته في الارتقاء بهذا البحث إلى أعلى مستوى، وحسبي أنني حاولت أن ألبِّي رغبته

وبذلت جهدي، ولا يكلف الله نفساً إلا وُسعها، وأسأل الله سبحانه أن يجزل له الثواب ويجزيه عني خير الجزاء.

كما أشكر صاحبيّ الفضيلة الذين اشتركا في مناقشة هذا الكتاب وأبديا توجيهاتهما التي أفدت منهما، وهما: الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والشيخ صالح بن محمد اللحيدان عضو مجلس القضاء الأعلى.

والشكر أولاً وأخيراً لله الذي منَّ عليَّ بفضله وكرمه بما يسَّره لي من وقت وجهد، وأسأله سبحانه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي ما زلَّ به القلم أو ساء فيه التعبير، وأن ينفع المسلمين والعالم كله بهذا البحث الذي ما أردت به إلا بيان الواجب في هذا الباب، والتحذير من الخطر المحدق بالبشرية لفقدها راية الجهاد، كما أرجو من كل من عثر على خطأ أن يحتسب الأجر في تنبيهي عليه مشافهة أو كتابة، وإني لأعِدُ كلَّ من قدم لي نصيحته أن أقبل ما ظهر لي منها من صواب، وأن أثبت الصواب بدل الخطأ، لأن القصد هو الحق.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

عبد الله أحمد قادري

تمهيد

١ ـ ما الإسلام؟ ولماذا يجب الجهاد من أجله:

إن الله سبحانه وتعالى خالق الخلق ومالك المُلك، بيده وحده النفع والضر، رب العالمين، ومالك يوم الدين، وأرحم الراحمين، خلق الخلائق كلها وجعلها قسمين:

القسم الأول:

العوالم كلُّها ـ سوى الإنسان والجان ـ، وهذه تسير وفق سُنَّته الكونية بلا إرادة منها ولا اختيار يتعلَّق بهما التكليف، وهذا يشمل المخلوقات العلوية والسفلية: السموات والكواكب والشمس والقمر والأرض بجبالها وسهولها وأشجارها ونباتاتها، وما ينشأ عن حركة الكواكب من تعاقب الليل والنهار وغير ذلك، ولذلك لم يجر عليها التكليف، لأنه إنما يجري على مَنْ له إرادة واختيار يقدر بهما على الخروج عن القانون الذي رُسم له وكلف سلوكه اختياراً، وهذه العوالم لا قدرة لها على الخروج عن القانون الذي رُسم لها، بل هي تسير وفقه اضطراراً، وفق أمره الكوني: ﴿ إنما أَمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون ﴾[1].

القسم الثاني:

الإنسان الذي جمع الله فيه بين أمرين:

الأمر الأول: أنه يسير مثل العوالم الكونية في بعض أفعاله اضطراراً بلا

(١) يس: ٨٢.

إرادة منه ولا اختيار، كالصحة والمرض وحركته الدموية وجهازه التنفسي وجهازه الهضمي، وكذلك عطشه وجوعه، وهذه الأفعال الاضطرارية تعلّقت بها إرادة الله الكونية لا الشرعية كبقية المخلوقات، لأن الله لم يكلفه إياها شرعاً، وهي تسير على غير إرادة منه ولا اختيار، ومن سنّته سبحانه أنه: ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلا وُسْعها ﴾[١].

الأمر الثاني: أنه سبحانه منح هذا الإنسان إرادة واختياراً يتعلّق بهما تكليفه إياه وإرادته سبحانه شرعاً من هذا الإنسان أن يطيعه في أوامره ويجتنب ما نهاه عنه، وبهذه الإرادة وذلك الاختيار يتقدم الإنسان أو يتأخر، يرتفع إلى أعلى علّيّين أو يهبط إلى أسفل سافلين، ومَنْحه سبحانه إياه الإرادة والاختيار تكريم منه لهذا الكائن حيث أعطاه نوعاً من الحرية التي يتصرف بها في أموره. ولم يتركه الله تعالى بدون تعليم وبيان لما يحبه ويرضاه، أو يسخطه ويأباه، فأرسل إليه الرُسل وأنزل الكتب لبيان الصراط المستقيم الذي يجب عليه أن يسلكه، وكشف سُبل الفساد التي يدعو إليها العدو اللعين إبليس ليبتعد عنها فينجو بذلك من دخول نار جهنم، ويسعد بدخول الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فقامت عليه بذلك الحجَّة ووضحت المحجَّة كما قال تعالى: ﴿ رسلاً مُبَشِّرين ومُنْذِرين لئلاَّ يكونَ للناس على الله حُجّةٌ بعد الرُسل، وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[٢].

وما فتئت البشرية تستقبل الرُسل دُعاة التوحيد ودُعاة الخير والصلاح، وكانت الكثرة الكاثرة من أممهم تجحد وتكذِّب، فلا تكلُّ عزائمهم ولا تفتر هممهم، حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم فتكون العاقبة لهم: ﴿ ثم أرسلنا رُسُلَنا تَتْرا؛ كلَّما جاء أمةً رسولُها كذَّبوه، فأتبعنا بعضَهم بعضاً، وجعلناهم أحاديثَ فبُعْداً لقومٍ لا يؤمنون ﴾[٣].

يتابع كلُّ نبي ما كان عليه مَنْ قَبْله من النبيين من طاعة ربه وتبليغ الناس وحي إلٰهه، حتى كان آخرَهم وأفضلَهم وخاتَمهم نبينا محمدٌ ﷺ الذي قال الله له

---

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) النساء: ١٦٥.
(٣) المؤمنون: ٤٤.

مُذَكِّراً بإعلامهم الذين سبقوه في هذا السبيل وآمراً له باقتفاء أثرهم: ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهداهُم اقْتَدِهْ ﴾[١] وقال له: ﴿ يا أيها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعلْ فما بلَّغتَ رسالَته، والله يعصمك من الناس، إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[٢]. فبلَّغ ﷺ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ولم يفارق هذه الحياة حتى أكمل الله له الدين، وجعله خاتم النبيِّين، وحفظ الله تعالى دينه بحفظ كتابه الذي تولَّى حفظه بنفسه ولم يكِله إلى غيره: ﴿ إنّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون ﴾[٣] وهيأ سبحانه خِيَار أمته لحفظ سنّته والذبِّ عنها فبقيت بذلك صافيةً نقيةً، لا يُروى حديث فيه قادح إلا كشفه النُقَّاد ووضَّحوه، فكان أوضح من تَنْقاد الصياريف، فكانت سنّته ﷺ جديرةً بالاتِّباع والالتزام مثل كتاب الله: ﴿ وما آتاكم الرسول فخُذوه وما نهاكم عنه فانتَهوا﴾[٤].

ولقد جاء ﷺ برسالة ربه في وقت انطمست فيه معالم التوحيد، وطُمرت فيه آيات الرسالات، وحُرِّفت فيه الكتب السماوية السابقة، وكثر فيه الاختلاف بين أهل المِلَّة الواحدة، فانتشر الفساد، وعمَّت الفوضى، واستحكم الجهل، واستُحلَّت الحرمات، وضاق أهل الأرض ذرعاً بطغاة متجبِّرين، وحكام ظالمين، وأنظمة جائرة، ضاع معها الحق وفقد العدل، واستعبد القوي الضعيف، وانقلبت القيم والموازين في كل شيء: في العقيدة التي كثرت فيها الأرباب وتعددت الآلهَة من دون الله، وفي العبادة والأخلاق والمعاملات في السلم والحرب.

عندئذ بزغ فجر الإسلام في شعاب مكة، وكلَّف الله عبده ورسوله وحبيبه وصفيَّه وخليله محمداً ﷺ حمل رسالة هذا الدين إلى العالمين، نبَّأه أولاً دون أن يأمره بالتبليغ ليعدَّه لحمل الرسالة بعد أن يزوده بزاد الدعوة وزاد الصبر على أعباء التكليف، نبَّأه سبحانه بقوله له: ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربّك الأكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم

---

(١) الأنعام: ٩٠.
(٢) المائدة: ٦٧.
(٣) الحِجْر: ٩.
(٤) الحشر: ٧.

يعلم ﴾(١) ثم أمره الله بإنذار قومه فأرسله بقوله: ﴿ يا أيُّها المُدَّثِّر، قُمْ فأَنْذِرْ﴾(٢) وأمره سبحانه بالتقرُّب إليه ليكون له في وظيفته سنداً، فقال: ﴿ يا أيها المُزَمِّل، قِمِ الليلَ إلاَّ قليلاً، نصفَه أو انقُصْ منه قليلاً، أو زِدْ عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً، إنَّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾(٣). وقام ﷺ بالدعوة إلى الله سراً حتى شدَّ الله عضده بالسابقين إلى دين الله، أمثال أبي بكر وخديجة وعلي وبلال، وغيرهم، ثم أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة - وكان الجهر بها حينئذ قمة الجهاد والبلاء في سبيل الله - قال تعالى: ﴿ فاصْدَعْ بما تُؤمر، وأعرض عن المشركين ﴾(٤). فامتثل ﷺ أمر ربه ونادى في الناس بـ«لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» وأجهد نفسه في التبليغ بادئاً بقومه وعشيرته، إذ صعد على جبل أبي قبيس ونادى قريشاً، فعمَّ بندائه وخصَّ صادعاً بالدعوة إلى الله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(٥) دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رَحِماً سأبُلُّها ببلالها»(٦).

وكان أول من وقف في وجهه وبدأ بإيذائه عمه أبو لهب، حيث قال له: (تبّاً لك ما جمعتنا إلا لهذا!!) فنزلت فيه سورة المَسَد: ﴿ تبّت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيَصْلَى ناراً ذاتَ لَهَب، وامرأتُه حمّالةَ الحطب، في جِيدها حَبْل من مَسَد ﴾(٧).

ودأب رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله، ودأب قومه في الجحود والعناد

(١) العلق: ١ ـ ٥.
(٢) المدثر: ١ ـ ٢.
(٣) المزمّل: ١ ـ ٥.
(٤) الحِجْر: ٩٤.
(٥) الشعراء: ٢١٤.
(٦) البخاري رقم ٢٧٥٣، فتح الباري (٣٨٢/٥) ومسلم (١٩٢/١).
(٧) البخاري رقم ٤٩٧١، فتح الباري (٧٣٧/٨).

والتعنُّت، وهو يقيم لهم الحجة تلو الحجة على صدق ما جاء به ويفاصلهم في العبادة والولاء: ﴿ قُلْ إنِّي نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، قُلْ لا أتَّبع أهواءكم قد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين، قل إني على بيِّنة من ربي وكذبتم به، ما عندي ما تستعجلون به، إنِ الحُكْمُ إلا لله يقصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين ﴾[١].

وكان ﷺ يضيق صدراً بما يرى من قومه، يدعوهم إلى الهدى فيأبَوْن إلا الضلال، ويحدوهم إلى الحق فلا يتبعون إلا الهوى والباطل. ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾[٢]. وأمره الله بأداء واجبه، وهو التذكير، وأنَّ حساب القوم إلى الله ﴿ فذكِّر إنما أنت مُذَكِّر، لَسْتَ عليهم بمصيطِر إلا من تولَّى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر، إنَّ إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم ﴾[٣].

وسَلَّاه ربه سبحانه فقال: ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآياتِ الله يجحدون ﴾[٤].

واستمرَّ ﷺ في الدعوة إلى الله، والجدِّ في التبليغ، والصبر على الأذى يصيبه ويصيب أصحابه الذين آمنوا به، فمنهم من قتل ـ كسُمَيَّة ـ ومنهم من عُذِّب ـ كبلال وآل ياسر ـ ومنهم من أخرج من بلده ـ كمهاجري الحبشة، ثم الرسول ﷺ وجُلُّ من آمن به إلى المدينة ـ فارّاً بدينه، وهيّأ الله له جنده الأنصار الذين التقى بهم في موسم الحج وهو يطوف بالناس يدعوهم إلى كلمة التوحيد، فآمنوا به ووعدوه أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أموالهم وأولادهم، فهاجر أصحابه وقويت شوكتهم ولحق هو بهم ﷺ.

وفي المدينة المنوَّرة بدأ ﷺ يؤسس دولة الإسلام، فبنى مسجده الذي كان يقيم فيه بأصحابه الصلاة ويتلو عليهم فيه القرآن، ويعلمهم أمور دينهم ويجهزهم للجهاد في سبيل الله، ويستقبل فيه الوفُود المسلمة وغيرها.

---

(١) الأنعام: ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) الكهف: ٦.
(٣) الغاشية: ٢١ ـ ٢٦.
(٤) الأنعام: ٣٣.

وكذلك ربط أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ المهاجرين والأنصار، فآخى بينهم إخاءً خاصاً، قوّى رابطتهم الإسلامية التي ما كانت تدانيها روابط القرابة والنسب والدم، فقويت بذلك الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية الناشئة.

وعقد مع اليهود معاهدة سُجِّلت في تلك الوثيقة السياسية المشهورة، فكانت سدّاً يقف في وجه القريب من أن يتواطأ على دولة الإسلام مع العدو البعيد، فأمنت الدولة بذلك من الخطر الخارجي.

وبدأت في المدينة مرحلة جديدة هي مرحلة الكفاح المسلَّح الذي بدأ بالإذن للمسلمين في الدفاع عن أنفسهم، وانتهى بقتال المشركين كافة والانطلاق في الأرض كلها إلى العالم كله لإخراجه من الظلمات إلى النور، وتحريره من عبودية بعضه لبعض حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

بذل رسول الله ﷺ نفسه، وبذل ـ معه وبعده ـ أصحابه رضي الله عنهم وأتباعهم أنفسهم إلى أن ارتفعت راية الإسلام، وردَّد العالم تحتها: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله في أغلب المعمورة، فسعد الناس مسلمهم وكافرهم بهذا الدين مدة طويلة، عمّ فيها الرخاء، وثبت العدل، واطمأن الناس في ظل هذا الدين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ثم كان المسلمون في مدٍّ وجزرٍ وإقدام وإحجام حسب عوامل القوة والضعف الناشئة من قوة الإيمان وضعفه.

ولكن ريح المسلمين لم تذهب كلها حتى سقط آخر رمز للخلافة الإسلامية كان يربط بينهم ويشعرون معه أنهم أمة واحدة في كل أنحاء الأرض، سقط في أول هذا العصر الذي اقترب غروب شمسه، فكانت الطامة التي انتثر فيها عقد المسلمين، فأصبحوا شَذَر مَذَر، وتفرقوا أيدي سَبَأ، وهنا اقتحم العدو عليهم الباب بجيوشه فأخذ يصول ويجول، وأتى على الأخضر واليابس، ولكنه أحسَّ بأن لا طاقة له على الصمود أمام المسلمين على رغم تشتتهم وتمزق بلدانهم وضعفهم المادي والمعنوي، فتحول إلى ثعلب خبيث ماكر يهدم بناء العقيدة الإسلامية في نفوس أبناء المسلمين بما وضعه من مناهج للتعليم، وما نشره من مغريات مادية وشهوات هابطة باسم الرقيِّ والتقدم، وبذلك نجح في إعداد جيل من أبناء المسلمين ينفِّذون له كل ما يريد في داخل بلدانهم بقسوة ووحشية

فاق فيها أساتذته الغربيين، فتحقَّق لهم ما أرادوا بهذا الاستعمار الجديد، استعمار الأدمغة والعقول.

وها هي بلدان المسلمين اليوم ترزح تحت وطأة فوضىٰ مجانين السلطة وعشّاق الظلم، يتلقّون مناهج حكمهم من أسيادهم وينفذونها بسرعة تسبق تخطيط أولئك الأسياد، فعاد بذلك الإسلام غريباً كما بدأ، ووُضع للمسلمين أصنامٌ جديدة تحوّل ولاؤهم لها، بعد أن كان ولاء المسلم لله ولرسوله والمؤمنين.

فمن قومية، إلى وطنية، إلى جنس أو لون، إلى مذاهب أخرى، كالرأسمالية، والاشتراكية العلمية... وكلها من سبل الشيطان التي يصد بها عباد الله عن الصراط المستقيم.

ولكن أضواء شمس الصحوة الإسلامية بدأت تخترق الدُّجَى، وتكشف الآفاق المظلمة لتنير الطريق الذي يجب أن يسلكه المسلمون، وستشرق بإذن الله على الكون كله مرة أخرى عندما يقوَى إيمان المسلمين، فينطلقون بهذا الدين مبشّرين ومنذرين، يرفعون راية الحق، يفتحون القلوب بالعلم والإيمان، ويقتحمون القلاع والحصون بالحديد والنار.

معنى الإسلام:

للإسلام ثلاثة معان: معنى عام، ومعنى خاص، ومعنى أخص. فالمعنى العام هو الإذعان والانقياد طوعاً أو كرهاً، بحيث لا يملك المخلوق أن يتأخر عن هذا الإذعان وهذا الانقياد، أي لا اختيار له في ذلك، وهذا المعنى يتصف به جميع المخلوقات، فهي منقادة لله مذعنة له يتصرف فيها كما يشاء: ﴿ إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون ﴾[1].

فالسموات والأرض وما فيهن وما بينهن مسلمة لله، أي مستسلمة، ويدخل في ذلك الإنسان مطلقاً ـ مؤمناً كان أم غير مؤمن ـ فهو منقاد لربه مستسلم له، يمرضه ويشفيه، ويفقره ويغنيه، يخلقه ذكراً أو أنثى، أسود أو

(١) يٓس: ٨٢.

أبيض، طويلاً أو قصيراً، عربي اللسان أو عجميه، يجري دمه في جسمه أو يوقفه، يتنفس بدون إرادته، ويعطش كذلك. . .

والمعنى الخاص، هو الانقياد لله والطاعة له سبحانه وتعالى اختياراً، أي عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى هذا المعنى جميع الأنبياء والرُسل وإليه دعوا الناس كلِّهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: (ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص، وقد عُلِم أنَّ الرُسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام[1] المتضمن لذلك، كما قال تعالى: ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وقال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو مُحْسِن فله أجرُه عند ربه ﴾[4]، وقال الخليل لما قال له ربه أسلم: ﴿ أسلمت لربِّ العالمين، ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بَنِيَّ إن الله اصطَفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾[5].

وقال يوسف: ﴿ توَّفني مسلماً ﴾[6].

والمعنى الأخص هو دين محمد ﷺ الذي بعثه الله به إلى كافة الناس، بجميع تفاصيله التي تضمَّنها كتاب الله وسنّه رسوله ﷺ في العقيدة والعبادة والحكم والسلوك وغير ذلك. والإسلام بصيغته الأخيرة هو أكمل دين منحه الله عباده على وجه الأرض، وجميع الأديان قبله أصبحت في حكم العدم، لأنها كانت موقوتة بزمن، مربوطة بنبي معينً وبقوم معينين، ثم حُرِّفت ولم يَبْقَ منها أي دين سلمت كتبه من التحريف والتغيير والضياع، ولأنها لم تكن ـ حتى في زمن أنبيائها ـ مثل هذا الدين في الكمال.

لذلك أوجب الله على البشر كلِّهم أن يؤمنوا بهذا الدين، وطاعة الله

---

(١) أي بالنسبة لما يأتي بعد هذا، أما بالنسبة لما قبله فهو خاص.
(٢) المائدة: ٤٤.
(٣) يونس: ٨٤.
(٤) البقرة: ١١٢.
(٥) البقرة ١٣١، ١٣٢.
(٦) يوسف: ١٠١، وانظر مجموع الفتاوى (٧/٢٦٣).

ورسوله بامتثال الأمر واجتناب النهي الواردين في الكتاب والسنّة، قال تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيِّين لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدِّقٌ لما معكم، لتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرَنَّه، قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرِي؟ قالوا: أقررنا، قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾(١).

قال ابن كثير رحمه الله: (قال علي بن أبي طالب وابن عمه ـ ابن عباس ـ رضي الله عنهم: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصرُنَّه)(٢).

وقال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾(٣).

فكل الأديان السابقة أصبح هذا الدين مهيمناً عليها، يجب أن يكون هو الحاكمٍ عليها وعلى من كان من أتباعها، وما سوى ذلك إلا الهوى الذي نهى الله عن اتّباعه.

الإسلام دين هداية:

الهداية ضرورة للإنسان أعظم من ضرورات الطعام والشراب والهواء، بل لا نسبة بين الهداية وغيرها من الضرورات المادية التي لا يعيش الإنسان بدونها، لأن كل الضرورات المادية لا يؤثر فقدها إلا في الجسم، وغاية ما يبلغه هذا التأثير هو الموت، والموت أمر حتم، إن لم يكن اليوم فغداً.

أما الهداية ففقدها يؤدي إلى التعاسة والشقاء والفوضى والظلم والعبودية والذل لأنواع شتى من الطواغيت في الحياة الدنيا، ثم إلى الخسران العظيم والحرمان من الجنة ورضا الله في الآخرة، والخلود في نار جهنم ولا ينفع آنذاك

(١) آل عمران: ٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٣٧٨).
(٣) المائدة: ٤٨.

مالٌ ولا ولد ولا جاه ولا سلطان، مما كان يتمتع به فاقد الهداية في الدنيا، وهو بعيد عن الله.

لذلك فرض الله على عباده المؤمنين قراءة سورة الفاتحة في ركعات صلواتهم؛ إعانة لهم على تحقيق هذه الهداية التي لا يزالون يسألونه سبحانه بقاءها ودوامها والمزيد منها لاتِّباع صراطه المستقيم - صراط الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين - أهل العلم النافع والعمل الصالح، المهتدين بهدي الله، والبعد عن سبل الهالكين الزائغين الذين يعبدونه على جهل منهم به وبدينه، مع تمسكهم بما هم عليه من الباطل ورفضهم للحق الذي جاء من عند الله على يد خاتم رُسله، والذين يحرفون كتبه وآياته وتعليمات رسله ويعصونه تعالى على علم، ويقفون في وجه الحق وأهله وهم بذلك عالمون، قال تعالى: ﴿ الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[١].

والهداية ملازمة للتقوى، بل هي من خصائص أهلها، وعليها يترتب الفوز في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ آلم، ذلك الكتاب لا رَيْبَ فيه هُدَىً للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أُنزل مِنْ قَبْلك وبالآخرة هُمْ يوقنون، أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[٢].

وهذه الهداية ترافق المؤمن في حياته كلِّها، فهو مهتدٍ في عقيدته ﴿ هُدَىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ مهتدٍ في عبادته: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هُدَىً للناس وبيِّنات من الهُدَى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾[٣] مهتدٍ إلى الحق عندما يختلف فيه الناس: ﴿ كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشِّرين ومُنْذِرين، وأَنزل معهم الكتاب بالحقِّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم

---

(١) سورة الفاتحة.
(٢) البقرة: ١ - ٥.
(٣) البقرة: ١٨٥.

البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[١] مهتدٍ في اعتصامه بحبل الله وموالاة أولياء الله موالاة تحقق الأخوّة الحقة، وتحول بينهم وبين التفرق المؤدي إلى الذلّة في الدنيا ونار جهنم في الآخرة: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شَفَا حُفْرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبيِّن الله لكم آياتِه لعلكم تهتدون ﴾[٢]. مهتدٍ فيما يصاب به من مصائب، مطمئن القلب متعرِّض لصلوات ربه ورحمته: ﴿ ولَنَبلونَّكم بشيٍء من الخوف والجوع ونَقْص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون ﴾[٣]، آثره الله بهذه الهداية من بين سائر الناس فلا ينالها كافر: ﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[٤] ولا فاسق ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[٥] ولا ظالم ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[٦]، ولا منافق ﴿ أولئك الذين اشتروا الضـلالة بالهُدَى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[٧].

يحسده على هذه الهداية مَنْ فقدها من أهل الكتب السابقة: ﴿ ودّتْ طائفة من أهل الكتاب لو يُضِلُّونكم وما يضلون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ وقالت طائفةٌ من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وَجْه النهار واكفروا آخره لعلَّهم يرجعون، ولا تُؤمنوا إلاَّ لمن تبع دينكم، قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى الله، أن يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم أو يُحاجوكم عند ربكم، قل إنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليمٌ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٨]. ﴿ ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ﴾[٩]. ويحذِّره الله سبحانه من

---

(١) البقرة: ٢١٣.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.
(٤) البقرة: ٢٦٤.
(٥) التوبة: ٢٤.
(٦) البقرة: ٢٥٨.
(٧) البقرة: ١٦.
(٨) آل عمران: ٧٢ ـ ٧٤.
(٩) البقرة: ١٢٠.

أعدائه الذين يحسدونه على هـذه الهداية التي خسروها وفاز بها المؤمن، كما قال سبحانه: ﴿ مَنْ يَهْدِ الله فهو المهتدي، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾(١) يحذِّره الله منهم بقوله: ﴿ وإن تُطِعْ أكثر مَنْ في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يَخْرُصون، إنّ ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾(٢). وما من سبيل يسلكه المؤمن في حياته إلا أضاءته له هداية الله، فلا يلتبس عليه أمر، ولا تنطمس أمامه معالم: ﴿ قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ، يهدي به الله من اتَّبع رِضْوانه سُبُلَ السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾(٣).

وإذا كان هذا شأن هذا الدين لمن تبعه فهل يجوز التفريط فيه ممَّن نال فضل الله منه وهدايته؟ ﴿ هو الذي بعث في الأميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِـه ويزكِّيهم، ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبينٍ، وآخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾(٤).

غاية واحدة واضحة:

لا بدَّ للإنسان من غاية يسعى لتحقيقها، فإن كانت هذه الغاية غير واضحة تاه في حياته دون أن يصل إليها، وإن تعددت غاياته تمزَّق وتشتت دون أن يحققها كلها أو بعضاً منها، ففي انبهام الغاية أو تعددها الشقاء في الدنيا والآخرة، وفي وضوحها ووحدتها السعادة في الدنيا والآخرة، لأن وضوح الغاية يجعل الإنسان يسعَى لتحقيقها وهو مطمئن على عدم ضياع أي خطوة يخطوها إليها أو أي جهد يبذله في سبيلها، ووحدة هذه الغاية تجعل الإنسان يتجه إليها بكل طاقاته وألوان نشاطه دون أن تتبدد جهوده أو تتمزق هنا وهناك.

ولأعداء الله غايات بدَّدت جهودهم وطاقاتهم ومزقتهم وأورثتهم القلق والاضطراب دون أن يصلوا إلى نهاية يستقرون فيها وترتاح نفوسهم، بل كلما

(١) الأعراف: ١٧٨.
(٢) الأنعام: ١١٦، ١١٧.
(٣) المائدة: ١٥، ١٦.
(٤) الجمعة: ٢ ـ ٤.

جدُّوا في الوصول إليها تشعَّبت بهم سُبُلها وضاعوا في متاهاتها، وقد حدَّد الله غاياتهم تلك في قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مَثْوىً لهم ﴾[1].

فغاية الكافر التمتع في هذه الحياة (وخصّ الأكل لأهميته على سواه) والتمتع اسم شامل لكل ما يرغب الإنسان في الانتفاع به، والتلذُّذ به كالأكل، والشرب، واللباس، والمسكن، والمركب، والمال، والجماع، والنظر، والجاه، والمنصب، وغيرها ممَّا ترغب النفس في التمتع والانتفاع به.

وانظر إلى الكافر في تمتعه بهذه الأمور وغيرها أتراه يشبع منها أو من بعضها أو تراه يرضى بما يصل إليه من أنواع المتع؟ كلا: إنه يتناول جميع أنواع الأطعمة المُتاحة له دون أن يشبع منها، ويشرب من كل أنواع الأشربة ولا يروَى، ويركب ويسكن ويلبس ولكنه يرغب في أن يحصل على جديد كل يوم، كل ذلك ليتمتع بالمزيد، ويجمع المال من أي جهة، ثم ينفقه في كل سبيل يريد، ولكن نفسه لا تزال تطلب المزيد من الجمع والمزيد من الإنفاق، وإنه لعبدٌ لكل هذه المتع، مشتَّت القلب، مُتْعب الجسد، مكدود الفكر، وهكذا إذا مُكِّن من اعتلاء منصب تاقت نفسه للتربع على منصب أعلى، وكلما نال جاهاً وحظوة في جهة أحب أن ينال جاهاً عند جهات أخرى، كل ذلك من أجل التمتع.

قد يكون تمتعه في الابتكار والاختراع، فيبتكر ويخترع ثم يظهر له أن مبتكراً آخر قد فاقه، فيجهد نفسه ليكون إمام المبتكرين، ليتمتع بما يرى من ابتكاره أو ليثني عليه الناس، وقد تكون متعته في الشجاعة وثناء الناس عليه بها، وقد تكون متعته في الحيل والمكر والخداع، وهكذا دواليك..

هذه هي غاية الكافر: (إنها التمتع فَحَسْب).

فما الغاية الواحدة الواضحة التي يحدِّدها الإسلام للمسلم؟

إنها «رضا الله».

فالغاية القصوى عند المسلم أن يرضيَ الله سبحانه، ولو أسخط كل

(١) محمد: ١٢.

المخلوقين ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريَّة، جزاؤهم عند ربِّهم جناتُ عَدْن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك، لمن خشي ربه ﴾(١) ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشدَّاء على الكفّار رُحَماء بينهم، تراهم ركَّعاً سُجَّداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾(٢).

لذلك تتجه أعمال المسلم كلُّها لهذه الغاية الواضحة، فلا يطلب شيئاً يسخط الله، وإن اشتدت رغبته فيه، بل لو مُكِّن من منصب أو جاه فيه سخط الله طلَّقه ثلاثاً ولو تهافتت عليه أنفس البعداء عن الله، فهو مطمئن البال، راضي النفس، ولو كان محروماً مما يتمتَّع به سواه، ولقد صوَّر القرآن الكريم هذه الوحدة الواضحة واطمئنان صاحبها، إلى جانب ذلك التمزّق بالنسبة للكافر أبلغ تصوير، قال تعالى: ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون، ورجلاً سَلَماً لرجل؛ هل يستويان مثلاً، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾(٣).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تَعِس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخَمِيصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعْطَ سخط، تعس وانتكس وإذا شِيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يُؤذن له، وإن شُفِّع لم يشفع له»(٤).

فالأول عبد شهواته من متع الدنيا، لا ترضى نفسه ما منع شيئاً منها، وهل ينال كل طالب شهوة كل ما تشتهيه نفسه حتى يرضى؟

والثاني هو الذي يسعَى لرضا الله، فهو يناله أينما اتجه، لا فرق بين أن يكون في عمل ظاهرٍ أو خفي، في منصب رفيع أو وطيء في أعين الناس.

---

(١) البيِّنة: ٧، ٨. (٢) الفتح: ٢٩.
(٣) الزمر: ٢٩.
(٤) البخاري رقم الحديث ٢٨٨٧، فتح الباري (٦/٨١)، (١١/٢٥٣).

ولما كان غاية المسلمين رضا الله تعالى عنهم، وعملهم كله ينصبُّ في سبيل تلك الغاية جاء خطاب الله لهم بعد أن يسكنهم الجنة، ويعطيهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ليبشّرهم سبحانه بحصول هذه الغاية التي سَعَوا لها سعيها في الحياة الدنيا، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضَى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[1].

ولو أن قادة الأرض كانوا من أهل هذه الغاية لحقَّقوا للبشر السعادة في الدنيا والآخرة، ولو أن البشر أدكوا هذا المعنى لاستجابوا لدعوة الله وتعاونوا مع دُعاة الحق لتحقيق هذه الغاية.

وسيلة شريفــة:

لا بدَّ للوصول إلى أي غاية من وسيلة، ولمَّا كانت غاية الكافر التمتع مطلقاً بلا قيود، كانت وسيلته مطلقة كذلك من كل قيد إلا عدم القدرة، ولهذا كانت القاعدة عنده: «الغاية تسوِّغ الوسيلة»، فإذا كانت غايته جمع المال، فالوسيلة إلى هذا الجمع يجوز أن تكون بالبيع والشراء والربا والنهب والغصب والسرقة والغش، وهكذا. وإذا قرر أن تكون غايته المنصب فله أن يصل إليه بالتزوير والدعاية الكاذبة، والقدح في غيره بهتاناً. وإذا قرر أن تكون غايته الانتصار على خصمه فله أن يصل إلى ذلك بنقض العهود والمواثيق، ولو تحقَّق وصفه بأنه شر الدواب: ﴿ إنَّ شر الدوابِّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتَّقون﴾[2].

---

(١) البخاري رقم الحديث ٧٥١٨، فتح الباري (١٣/٤٨٧) ومسلم (١/١٦٧ - ١٧١)، (٤/٢١٧٦).

(٢) الأنفال ٥٥، ٥٦.

ولعل قادة هذه القاعدة الخبيثة هم اليهود الذين نَعَى الله عليهم الاصطياد الذي حرّمه عليهم يوم السبت، فكانوا يرسلون مصائدهم في البحر قبل هذا اليوم الذي حرم عليهم فيه الاصطياد، ثم يأخذونها يوم الأحد، كما قال تعالى: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرةَ البحر، إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرّعاً، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾[(١)].

ولما حرم الله عليهم الشحوم احتالوا بإذابتها وبيعها وأكل ثمنها كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: قاتل الله فلاناً، ألم يعلم أن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حُرِّمت عليهم الشحوم، فجملوها فباعوها» هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: (قال بلغ عمر أن سمرة باع خمراً)، فقال: قاتل الله سمرة ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود حُرِّمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها»[(٢)].

وها هو ذا أحد فلاسفة: (الغايه تسوِّغ الوسيلة): مكيافلّي يقول في كتابه (الأمير) ناصحاً زعماء الحكم الظالمين ـ وقد قبلوا نصيحته وطبقوها ـ: (وعلى الحاكم الذكي المتبصِّر ألّا يحافظ على وعوده، عندما يرى أنَّ هذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي حملته على إعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة ـ إلى أن قال ـ: ولكن يتحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد إخفاءها عن الناس، وأن يكون مداهناً كبيراً ومرائياً عظيماً)[(٣)].

ألا ترى أن سياسة قادة العالم اليوم ـ وقبل اليوم ـ سائرة في هذا السبيل المكيافلي اللئيم، تَظَاهرٌ بحماية الشعوب، وسَعْيٌ في إضعافها، إعلان السخط على أعداء الشعوب وتآمر معهم عليها، دعوى الحرص على حفظ خيراتها مع بعثرتها ونهبها، دعوى القوة الرادعة للأعداء والأمر على عكس ذلك كله.

(١) الأعراف ١٦٣.

(٢) البخاري رقم الحديث ٣٤٦٠، فتح الباري (٤٩٦/٦)، ومسلم (١٢٠٧/٣). ومعنى جملوها: أذابوها.

(٣) الأمير ص ١٢٤ منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت، تعريب خيري حمادي.

ولكن وسيلة المسلم ـ كغايته ـ لا بدَّ أن تكون محققة لرضا الله، فإذا كان الكافر ينقض عهده مرة تلو مرة فإن الإسلام لا يبيح للمسلم أن يعامله نفس المعاملة، بل يوجب عليه إذا خاف خيانة الكافر واتضحت له قرائنها أن يعلمه بأنه يريد إنهاء العهد ونبذه، ويعطيه مهلة كافية ولا يباغته، اقرأ هذه الآيات: ﴿ إن شرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فإما تثقفنَّهم في الحرب فشرِّد بهم من خلفهم لعلهم يذكَّرون، وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذْ إليهم على سَوَآءٍ إن الله لا يحب الخائنين ﴾(١).

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسِيحُوا في الأرض أربعة أشهر ﴾(٢).

ولقد وضع الله للمسلمين قاعدة عامة يظهر فيها سمُّو الإسلام الذي جاء من عند الله وليس من عند البشر، قاعدة تلزمهم بالوسيلة المشروعة مع أعدائهم، كما قال سبحانه: ﴿ ولا يجرمنَّكم شنآن قومٍ على ألَّا تعدلوا، اعدلوا هو أقربُ للتقوى ﴾(٣).

ترى لو أن قادة الأرض كانوا من أهل هذه الوسيلة الشريفة أكان الناس يعانون من هذه الويلات الناشئة عن قاعدة الغاية تسوِّغ الوسيلة، التي بالغ الناس في تطبيقها أفراداً وجماعات وحكومات، فأهلك القوي بها الضعيف في كل مجال من مجالات المعاملات؟

الإسلام دين الإحسان:

المراد بالإحسان ـ هنا ـ الإتيان بالعمل المطلوب من العبد على أحسن وجه في كل حالاته، في سره وعلنه، وهذا لا يكون إلا للمؤمن، لأن في قلبه رقيباً لا يفارقه، وهو خوف الله سبحانه وتعالى، لعلمه أن الله مطّلع على كل ما يخطر

---

(١) الأنفال: ٥٥ ـ ٥٨.
(٢) التوبة: ١ ـ ٢.
(٣) المائدة: ٨.

على قلبه، ويتردَّد في خلجات نفسه، قبل أن يعمله أو يعزم على فعله: ﴿ يَعلم خائنة الأعين وما تُخْفي الصدور ﴾[١]، ﴿ إنَّ الله عليمٌ بذاتِ الصدور ﴾[٢] ﴿ ألاَ يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٣].

لذلك يعمل المؤمن الواجب عليه ـ ولو كرهت نفسه عمله، وكرهه كل الناس ـ لرغبته فيما عند الله، وخشيته من عقابه: ﴿ وأما مَنْ خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى ﴾[٤]، فِعْله وتَرْكه لله لا لسواه. ﴿ إنَّ الأبرارَ يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً، عيناً يشرب بها عبادُ الله يفجِّرونها تفجيراً، يُوفون بالنَّذْر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، ويُطْعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، إنما نُطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قَمْطريراً، فوقاهم اللهُ شرَّ ذلك اليوم ولقَّاهم نَضْرة وسروراً، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾[٥].

ويحسن المؤمن عمله كله لأن الله سبحانه كتب الإحسان على كل شيء كما في حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه، قال: اثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، ولْيُحِدَّ أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته ﴾[٦].

والدين الإسلامي لا يتم إلا بالإحسانِ، وكان أحد الأسئلة المهمة التي أجاب عليها الرسولُ ﷺ جبريلَ الذي جاء يسأله ليعلم الناس دينهم كما في حديث أبي هريرة وحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وفيه: (قال ـ أي جبريل ـ: ما الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٧].

وأي سلطة في العالم تقدر على إيجاد هذا المعنى في قلب الإنسان بحيث

---

(١) غافر: ١٩.
(٢) المائدة: ٧.
(٣) الملك: ١٤.
(٤) النازعات: ٤٠ ـ ٤١.
(٥) الإنسان: ٥ ـ ١٢.
(٦) مسلم (٣/١٥٤٨).
(٧) البخاري، رقم الحديث ٥٠، فتح الباري (١/١١٤)، ومسلم (١/٣٦).

يعمل العمل في أي مكان، رآه الناس أو لم يروه، فيتقنه طمعاً في ثواب من يراقبه وخوفاً من عقابه، هل يوجد أحد غير الله تعالى له هذه الصفة: كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذه الرقابة الذاتية - أي التي لا تفارق المسلم - هي التي جعلت السَّلَف الصالح - الصحابة فمن بعدهم - يُعْلون كلمة الله في الأرض، وينشرون العدل، ويطهِّرون الأرض من رجس الوثنية والظلم والطغيان والمعاصي، وهي التي جعلتهم يقولون: انتهينا ويهرقون الخمر من دِنانها ومن الكؤوس التي كانت مرفوعة بأيديهم إلى أفواههم عندما قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾[١]. أين ذلك مما فعلته أكبر دولة مادية في الأرض من سن قوانين شديدة وعقوبات متعددة من سجن وتغريم ومن استخدام وسائل الإعلام لمنع الناس من شرب الخمر، واستمرت محاولاتها أربعة عشر عاماً قُتلت فيها نفوس وأُنفقت أموال وامتلأت سجون دون جدوى، ثم رفعت هذه الدولة - أمريكا يديها مستسلمة للسكارى، أسيرة بين أيديهم، ملغية قانون تحريم الخمر أمام الجماهير، أين ذاك من هذا أو أين هذا من ذاك؟[٢].

ترى بعد هذا أن ديناً في الأرض غير هذا الدين يحقق للبشر السعادة والطمأنينة وأداء الحقوق وصيانة النفوس والعقول والأموال مثل دين الإسلام، وهل يجوز لأهل هذا الدين أن يقعدوا عن تبليغه ويجاهدوا في سبيل وصوله إلى العالمين، أليس المسلمون آثمين في القعود عن ذلك وعليهم إثم خسارة العالم كله إذا لم يبلِّغوه هذه الرسالة: ﴿ والعصر، إن الإنسان لفي خُسْرٍ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحقِّ وتواصوا بالصبر﴾[٣].

الإسلام يحقق للإنسان معنى وجوده:

كل شيء يوجد ولا يحقق معنى وجوده فعدمه خير من وجوده والمعنى الذي

(١) المائدة ٩٠، ٩١ وراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٩١ - ٩٧).

(٢) راجع كتاب الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي ص ٢٢٤ - ٢٢٧.

(٣) العصر.

وجد من أجله الإنسان أسمى وأجلُّ من أي معنى آخر في هذه الدنيا، لأن تحقيق معنى وجود الإنسان يتحقق به كل معنى مفيد نافع ويقضي على كل معنى فاسد ضار، والمعنى الذي وجد من أجله إنما هو عبادة الله.

فإذا تحقَّق هذا المعنى في الإنسان نالت البشرية السعادة الأبديّة، وإذا غاب هذا المعنى نالت الشقاء والخسران، وتصبح الأرض على سَعَتها كسجن ضاق بأهله من ذوي الإجرام والعدوان، كما هو حال البشرية الشقية ذات الحضارة المادية النكدة المعبودة من دون الله التي لا يزال أهلها في هبوط مستمر إلى دركات الحيوانية والوحشية والهمجية، كما لا يخفى على كل متتبّع أدنى تتبّع لأحوال الناس وحوادث الأيام، وما ذلك إلا لفقد هذا المعنى العظيم ـ على المستوى الذي أراده الله شرعاً من كافة البشر ـ الذي لم يوجد الانسان إلا له، كما قال سبحانه: ﴿ وما خلقت الجنَّ والإنس إلَّا ليعبدون ﴾[١] وقال: ﴿ قل إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لِله ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين ﴾[٢].

وبهذا الفهم الشامل فهم السلف الصالح معنى العبادة، فلم تشذ حركة أو سكنة في حياة المسلم من الواجبات التي تؤدّى وكذلك المندوبات والمباحات ـ مع القصد بها وجه الله ـ والمحرمات التي تترك وكذلك المكروهات عن العبادة التي هي معنى وجود الإنسان، ولهذا كانوا يرجون ثواب الله على نشاطهم كله، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (والله إني لأحتسب نومتي، كما أحتسب قومتي)[٣] وعرّف شيخ الإسلام ابن تيمية العبادة حسب هذا الفهم الواسع بقوله: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)[٤].

فما من أمر ينوي الإنسان فعله من الطاعات أو المباحات قاصداً به وجه الله، ثم يفعله، أو لا يفعله، لعدم قدرته على فعله إلا كتبه الله في ميزان حسناته، فهو عبادة.

---

(١) الذاريات: ٥٦. (٢) الأنعام: ١٦٣.
(٣) البخاري رقم الحديث ٤٣٤٢، فتح الباري (٨/ ٦٠)، ومسلم (٣/ ١٤٥٦).
(٤) مجموع الفتاوي (١٠/ ١٤٩).

وما من أمر ينوي المؤمن تركه من المحرمات والمكروهات والمباحات قاصداً بتركه وجه الله، ثم يتركه إلا كتب الله له تركه في ميزان حسناته فهو عبادة أيضاً، بل إذا هم بسيئة ثم تركها لله كتبها الله له حسنة.

فحياة المؤمن كلها عبادة، ولذلك يستكثر من الطاعات سواء كان في المسجد أو في السوق، في المصنع أو في الدكان، في المنزل أو خارجه، نائماً أو مستيقظاً: (والله إنِّي لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي).

فأيُّ دين في الأرض اليوم له هذه الميزة العظيمة؟

وهل يجوز للمسلمين أن يفرِّطوا في هذا الدين الذي لا يوجد في الأرض سواه تستطيع البشرية أن تنعم به وتستظل بظله الوارف؟

﴿ يا أيها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته﴾[1] ﴿ قُلْ هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾[2]؟ ﴿ لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النَّعَم ﴾[3].

والبشرية التي تفقد هذا المعنى ضائعة ضالَّة في عقيدتها وأخلاقها ومعاملاتها، تتصرَّف تصرُّف الأعمى الذي لا قائد له. والأمة التي تحقِّق هذا المعنى أمة مهتدية متبصِّرة تتصرف تصرفاً حكيماً تُسعد بتصرفها نفسها وتسعد الآخرين: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته، ويزكِّيهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين ﴾[4].

ولقد صوَّر الأستاذ النَّدْوي في كتابه القيِّم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) المجتمع الضال الذي فقد هذا المعنى، والمجتمع المهتدي الذي حقَّق هذا المعنى تصويراً موفقاً يجدر بالباحث أن يقتطف منه ما يناسب المقام هنا.

قال عن الأول: (رأى) ـ يعني النبي ﷺ ـ مجتمعاً هوالصورة المصغَّرة للعالم،

---

(١) المائدة: ٦٧. (٢) يوسف: ١٠٨.
(٣) البخاري، رقم الحديث ٤٢١٠، فتح الباري (٤٧٦/٢)، مسلم (١٨٧٢/٤).
(٤) الجمعة: ٢.

كل شيء فيه في غير شكله، أو في غير محله، وقد أصبح فيه الذئب راعياً، والخصم الجائر قاضياً، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظياً، والصالح محروماً شقياً، لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف، ولا أعرف من المنكر، ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها إلى هوّة الهلاك)[١].

وقال عن الثاني ـ المجتمع الإسلامي الذي حقق معنى وجوده: (بهذا الإيمان الواسع العميق، والتعليم النبوي المتقن، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة؛ بعث رسول الله ﷺ في الانسانية المحتضرة حياة جديدة... عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس غيرها، فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ من عجائب الدهر وسوانح التاريخ... ثم لا يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة ـ يعني العرب ـ التي استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة، وسخرت منها البلاد المجاورة، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشري أحسن منها اتزاناً، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها... تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف، فأنجدتها هذه الأمة الوليدة التي لم يمضِ عليها إلا بعض العقود... برجل من الرجال الأكفاء، فكان منها الأمير العادل، والخازن الأمين، والقاضي المقسط، والقائد العابد، والوالي المتورع، والجندي المتقي... لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوّة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب، أصاب الجاهلية في مقتلها وصميمها، فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله أن ينمو نمواً جديداً ويفتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرَّة في جسد التاريخ...)[٢].

ودين هذا شأنه لا يتحقق معنى وجود الإنسان إلا به هل يجوز التفريط فيه وعدم تبليغه للناس، أو يجوز ترك السدود التي تحول بينه وبين البشر بدون تحطيم؟!.

الإسلام يضع الإنسان في مكانه اللائق به:

وَضْعُ شيء ما في غير مكانه يجعله نَشَازاً غير مستساغ لعدم مناسبته لذلك

(١) ص ٨٩ طبع علي بن علي ـ الدوحة. (٢) ص ١١٨ ـ ١٢١.

المكان، أو عدم مناسبة المكان له.

خُذْ مثلًا: لو جاء الناس لزيارة رئيس دولة، فوجدوا أحد خدمه قد اعتلى عرشه، وطلب من بقية الناس ـ موظفي الملك وخدمه ـ أن يعاملوه معاملة صاحب العرش، ترى بماذا يحكم الناس عليه؟ إنهم يسخرون منه، أو يعدُّونه فقد عقله ويحتاج إلى علاج.

مثال آخر: لو أن شخصاً ما أراد أن يضع القرد مكان الفرس، يضع عليه السرج ويعتليه لملاقاة قرنه في المعركة، ماذا يقول الناس عنه؟ وقِسْ على ذلك.

وعلى الرغم من أن هذين المثالين ليسا واقعَيْن، وكل الناس لا بدَّ أن يسخروا ممَّن صدرا منه، إلا أن الأمثلة الواقعة في حياة الناس أشد غرابة منهما، وهي أولى بالسخرية والاستخفاف مما لم يقع ولو وقع لكان غريباً.

إن الخادم لم يضع نفسه مكان الملك أو الرئيس، ولكن العبد المخلوق وضع نفسه في مكان السيد الخالق!! ألا ترى أن الله سبحانه قد أنزل كتابه ليحكم الناس في الأرض، ويهتدوا به في حياتهم، ألا ترى أن الله هو المعبود وحده الذي لا يجوز الذلُّ والخضوع لسواه؟ ومع ذلك تجد أغلب الشعوب الإسلامية ـ بَلْه غيرها ـ تحكم بغير ما أنزل الله، ويستعبد فيها الناس بعضهم بعضاً، ويتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

لقد وضع العبد نفسه مكان السيد، ووضع المخلوق نفسه مكان الخالق، يُحلُّ ويحرِّم، ويستعبد ويتصرف تصرف السيد المطاع المطلق الذي لا يسأل عما يفعل، ومع ذلك ترى غوغاء الناس ـ لا بل من يُظَن أنهم عقلاء الناس ـ منساقين وراءه وهو يوردهم موارد الهلاك في الدنيا، ويَقْدُمهم إلى نار جهنم يوم القيامة.

ولكنك إذا نظرت إلى الإسلام وجدته يضع الإنسان في موضعه اللائق به.

فالمسلم يعلم ـ من جهة ـ أنه عبد الله وحده، فهو يخضع له ويذل، ويطيعه في فعل أوامره واجتناب نواهيه، لأن الخير فيما أمره به، والشر في ارتكاب ما نهاه عنه، ولو لم يظهر له ذلك ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ

لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١)، ولا يخضع لغير الله ولا يذلُّ مهما كان، لأنه يعلم أنه عبد مثله لا يضرّ ولا ينفع إلا إذا كتب الله على يديه النفع أو الضر، فالمسلم لله وحده ﴿ قل إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أُمرت، وأنا أولُ المسلمين ﴾(٢).

ويعلم ـ من جهة أخرى ـ أنه لا فضل له على سائر الناس، لأنهم يشاركونه في أنهم كلهم لآدم وآدم من تراب، وأن الله خالقهم جميعاً وإلهم ومعبودهم، لا إله لهم سواه، فلا يتكبَّر ـ المسلم ـ على الناس، ولا ينصب نفسه إلهاً لهم يتصرف في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم كما يشاء.

ويعلم ـ من جهة ثالثة ـ أن الله أكسبه في هذه الدنيا ما لم يكسب غيره من المخلوقات الأخرى ـ حتى الجن التي هي مكلفة مثله في العبادة ـ حيواناتها ونباتاتها وجماداتها، فأنعم عليه بالعقل والتفكير في الأمور والقدرة على الاستفادة من الكائنات الموجودة على ظهر الأرض أو في بطنها، وأن الله أوجب عليه أن يحسن التصرف فيها فلا يستعملها إلا فيما يرضي الله سبحانه، لا في معصيته ولا في العلو على خلق الله، بل في إسعادهم وإصلاح أمورهم التي تقربه وتقربهم إلى الله تعالى.

هل ترى ديناً أو نظاماً وضع الإنسان في مكانه كما وضعه الإسلام؟!

هل يجوز التفريط في دين الإسلام الذي لا يوجد غيره له هذه الميزة مع غيرها من الميزات الأخرى؟!

ألَا إن الفوضى والظلم والاضطرابات والحروب والشقاء التي تعيشها البشرية اليوم كلها نتائج طبيعية لوضع الإنسان في غير مكانه اللائق به: ﴿ ولو اتَّبع الحقُّ أهواءَهم لفسدت السماوات والأرض ومَنْ فيهنَّ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾(٣).

---

(١) البقرة: ٢١٦.
(٢) الأنعام: ١٦٣.
(٣) المؤمنون: ٧١.

المســــاواة

وقرر الإسلام المساواة بين الناس في أسمَى صورها في وقت طَغَت فيه المفاضلات على أسس هابطة ظالمة، إذ كان الناس يتفاخرون بالأجناس، والثراء، والغارات المهلكة الجائرة على أقرب المقرّبين:

وأحيانــاً عــلى بكــر أخينــا إذا مــا لم نجــد إلَّا أخــانــا

وكان الناس طبقات، كل طبقة لها مكانها الذي لا ترقَى إليه طبقة أخرى في بلاد العرب وغيرها ـ كالهند التي ما زالت فيها إلى اليوم ـ؛ مع أنَّ هذه الأسس التي كانت تقوم عليها المفاخرات والمفاضلات لا فضل في وجودها لتلك الطبقات، إذ لم يكونوا منها باختيارهم، بل هي مفروضة عليهم فرضاً.

فهل اختار أحد أن يكون من جنس العرب، أو من القبيلة الفلانية، أو أن يكون لونه أبيض أو غير أبيض حتى يفتخر بذلك؟

لذلك لم يُقِم الإسلام لهذه الأمور وزناً، بـل قضى عليها في حيـاة المسلمين، وجعل الناس سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى: ﴿ يا أيها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا، إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم ﴾[١]. وعندما سئل الرسول ﷺ: من أكرم الناس كان جوابه: «أتقاهم»[٢] وقال: «ومَنْ بطّأ به عملُه لم يُسْرع به نسبُه»[٣].

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي نَضْرة قوله: حدّثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: «يا أيها الناس ألَا إنَّ ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألَا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود عـلى أحمر إلا بـالتقوى، أبلغت؟ قـالوا: بلَّغ رسول الله ﷺ . .»[٤] فالأساس الذي يتفاضل به الناس هو تقوى الله، وكلما كان الإنسان أكثر علماً بالله وأكثر تقوى كان أفضل من غيره: ﴿ هل يستوي

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) البخاري رقم الحديث ٣٣٥٣، فتح الباري (٦/٣٨٧).

(٣) مسلم (٤/٢٠٧٤). (٤) المسند (٥/٤١١).

الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[١].

وسرت هذه المساواة في كل شيء وصارت هي القاعدة، فقرَّر الإسلام حرية الاعتقاد، فلا يُكره الكافر على الدخول في الإسلام، مع أن الإسلام هو الحق والكفر هو الباطل، وإنما يُدعى الناس إلى الإسلام وتُبيَّن لهم محاسنه ومساوىء الكفر، فمن دخل في الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن أبَى الدخول فيه وجب أن يقرّ بهيمنة الإسلام في النظام العام والآداب العامة مدلِّلاً على إقراره ذاك بدفع الجزية، فإن أبَى فإنه يُقاتل حينئذ، لا ليكره على اعتقاد الإسلام والدخول فيه، وإنما يخيَّر بين الدخول فيه وأداء الجزية: ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ ﴾[٢].

ولا يرد على هذا إكراه المرتد على الرجوع إلى الإسلام أو قتله، لأن المرتد خرج من النور إلى الظلمات بعد أن ذاق حلاوة الإسلام وتمتع بما فيه من السعادة وعلم أنه هو الدين الحق الذي لا حق سواه، ومن جهة أخرى فإن حماية نظام الإسلام توجب ذلك وإلا فإن كثيراً من أهله سيهدُّون أركانه، وأي نظام في العالم لا يحمي مجتمعه من الخروج عليه فإن مآله التصدُّع، وإلا فلماذا يُحكم بالإعدام على الخارجين على الأنظمة الأرضية التي فرضها البشر، أليس نظام الإسلام أولى؟

كما قرر حرية الكلمة، بل قد تجب، وما كانت هذه الأمة خيراً من غيرها إلا بكلمة الحق ـ بعد الإيمان ـ: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت الناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله ﴾[٣].

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٤] «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[٥].

وقرر المساواة في الحقوق والواجبات بين المرأة والرجل بعد أن كانت المرأة

---

(١) الزمر: ٩.
(٢) البقرة: ٢٥٦.
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) مسلم (١/٦٩).
(٥) أبو داود (٤/٥١٤).

يختلف فيها الناس أهي إنسان أم حيوان، فلا فرق بينها وبين الرجل في الإسلام في العمل وجزائه والملك للمال أو إنفاقه، وإنما جعلت بعض الفروق بينهما نظراً لطبيعة كل منهما، كالقوامة والإرث ونحوهما.

الأمــن:

والإسلام دين أمن، يأمن الإنسان في ظلّه على نفسه من أن يعتدي عليها فرد آخر، وتأمن الجماعة من أن تعتدي عليها جماعة أخرى، ولذلك أوجب القصاص في الحالة الأولى، كما أوجب قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله في الحالة الثانية.

يستوي في ذلك أن يكون الاعتداء من الحاكم أو المحكوم، فالحاكم يجب أن يقام عليه القصاص كما يقام على أحد أفراد رعيته.

ويأمن الإنسان على عرضه، ولذلك أوجب الله بعض الحدود، كحد القذف وحد الزنا.

ويأمن على ماله، ولذلك أوجب الله حدَّ السرقة وحدَّ الإفساد في الأرض.

ويأمن على سره، ولذلك حرَّم الله تعالى التجسس، ويأمن في مسكنِه ولذلك وجب الاستئذان قبل الدخول.

بل إن الأمن يبدأ في داخل الإنسان نفسه عندما يقوى إيمانه فتطمئن نفسه، لأنه لا يتصرف تصرفاً يغضب ربه فيصبح قلقاً وكذلك أسرته، فيسود الأمن في النفس وفي الأسرة وفي المجتمع.

دين الجماعة:

والإسلام دين الجماعة والاعتصام بحبل الله: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ﴾(١).

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

وعندما تكون في الأرض جماعة معتصمة بحبل الله لها القيادة والسلطة التي أذن الله لها بها فإن البشرية كلها تنال السعادة والرخاء، لأن هذه الجماعة تنشر العدل وتقهر الظَّلَمة وتطارد الظلم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعين الضعيف، وتضع مقاليد الأمور بيد من يتصرف فيها حسب قواعد الشرع.

وإن الفترات المضيئة التي حكمت فيها الجماعة المعتصمة بحبل الله لخير شاهد على ذلك، ومن أوضح الأمثلة أن اليهود الذين كانوا مضطهدين في كل العالم لم يجدوا ملجأً يأوون إليه ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم - بسبب مكايدهم وفسادهم الذي علمه الناس من تاريخهم الطويل حتى مع أنبيائهم - لم يجدوا ملجأً إلا عند المسلمين الذين لم يمسُّوهم بأذى؛ إلا إذا أقاموا المؤامرات والدسائس وعاثوا في الأرض فساداً فإنهم يقيمون عليهم حكم الله. وهكذا النصارى استظلوا بمظلة الدولة الإسلامية في كل مكان دون أن يُمَسُّوا بسوء، ولكن عندما يكون العكس فيصبح النصارى أو اليهود أو غيرهم من دول الكفر هم المسيطرين؛ فإنهم يؤذون المسلمين، وينكِّلون بهم، ويجبرونهم على الارتداد عن دينهم كما حصل في الأندلس، بل إن أهل الأديان الأخرى يضطهد بعضهم بعضاً وينكل بعضهم ببعض كما هو الحال بين النصارى الكاثوليك والنصارى البروتستانت، بخلاف المجتمع الإسلامي فإن الأُخوّة تسود أفراده: ﴿ إنما المؤمنون أُخوة ﴾(١) ﴿ أذلّة على المؤمنين أعزَّة على الكافرين ﴾(٢) ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾(٣).

فإذا فقدوا هذه الجماعة المتآخية كانوا وبالاً على أنفسهم وعلى غيرهم، وجعل الله بأسهم بينهم كما هي حالهم اليوم.

منهاج حياة:

وبعد: فإن الإسلام منهاج حياة، فهو عقيدة صحيحة سليمة في الإيمان بالغيب، وهو عبادة سامية شاملة لحياة الإنسان كلِّها، وهو شريعة واضحة عادلة

---

(١) الحجرات: ١٠.
(٢) المائدة: ٥٤.
(٣) الحشر: ٩.

تنظم حياة الأفراد والأسر والمجتمع والدول، وهو الدين الحق الذي لا دين حقّ سواه، بل إنه خاتم الأديان الذي هَيْمن على كل دين سواه، فلا يجوز التفريط فيه، بل يجب أن يُبَلَّغ للناس كلهم، وأن يجاهد المسلمون في سبيل إيصاله إليهم حتى لا تبقى عقبة تحول بين الناس وبين الدعوة إليه، كما يجب أن يدفع الأذى عمَّن أراد سماع الدعوة إليه أو الدخول فيه: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾[1].

وقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ في أول الدعوة بمكة هذا المعنى ممَّا سمعوه من رسول الله ﷺ من مبادىء الإسلام، وما كان نزل من الأحكام والفرائض آنذاك إلا القليل، وكانت الدعوة - في الأصل - تستهدف تعريف الناس بمعنى: «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» إلا أنه كان يعلِّم من آمن به بعض مكارم الأخلاق، ففهموا أن هذا الدين جاء بمنهج جديد للحياة. وها هو ذا جعفر بن أبي طالب يشرح ما جاءهم به محمد ﷺ للنجاشي ملك الحبشة الذي لجؤا إليه فارين بدينهم من فتنة قريش، وقد جاء وفد قريش لإعادتهم إلى مكة لصدِّهم عن هذا الدين وفتنتهم: (وقد دعا النجاشي أساقفته فقال للمسلمين: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من أهل هذه الملل؟).. فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: (أيها الملك كنَّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مِنَّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصِلَة الرحم وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقَذْفِ المُحْصَنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام...[1] فعدَّد عليه أمور الإسلام - فصدَّقناه وآمنَّا به،

(١) الأنفال: ٣٩.
(٢) بعض ما ذكر هنا من أركان الإسلام لم يكن فرض بصيغته الحالية في مكة بل في المدينة كالصيام والزكاة، ولعله كان يأمر أصحابه ببعض هذه العبادات على غير هذه الصيغة على وجه الندب،

واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعَدَا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك)[١].

٢ ـ تعريف الجهاد:

١ ـ تعريفه لغة:

بالرجوع إلى مادة: «جهد» في كتب اللغة يجد الباحث لها أكثر من عشرين معنى، والمعاني اللغوية المناسبة للجهاد من تلك المعاني مناسبة ظاهرة بدون تكلُّف هي: الطاقة، والمشقة، والوُسْع، والقتال، والمبالغة، لهذا تجد العلماء في كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها إذا عرَّفوا الجهاد لغة قالوا: بذل الطاقة، أو الوُسْع، أو هو المشقة[٢].

قال الراغب: (الجهد والجهد: الطاقة والمشقة، وقيل الجَهْد بالفتح المشقة، والجهد: الوسع)[٣]. وقال الفيروزأبادي: (بصيرة في: الجهد بالفتح والضم، وهو: الطاقة والمشقة، وقيل: بالفتح المشقة، وقيل: بالفتح المشقة، وبالضم الوُسْع، وقيل الجُهد ما يجهد الإنسان)[٤].

وقال ابن حجر: (والجهاد بكسر الجيم)، (أصله لغة المشقة)[٥] وقال الشيخ مصطفى السيوطي: (الجهاد مصدر جاهد جهاداً ومجاهدة إذا بالغ في قتل عدوه)[٦].

= لتقوى صلتهم بربهم، ويصبروا على الأذى والفتنة، ويُدَربوا على ذلك، حتى إذا فرض عليهم كان سهلاً عليهم. والله أعلم.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٣٥ ـ ٣٣٦) نشر: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

(٢) يمكن مراجعة هذه المعاني وغيرها في الكتب الآتية: لسان العرب (٤/١٠٧)، تاج العروس (٢/٣٢٩)، المعجم الوسيط (١/١٤٢)، الصحاح (١/٤٥٧)، أساس البلاغة (١/١٤٤)، معجم مقاييس اللغة (١/٤٨٦)، المحكم والمحيط الأعظم (٤/١١٠).

(٣) المفردات ص ٩٩.

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/٤٠١).

(٥) الفتح (٦/٣).

(٦) مطالب أُولي النهي (٢/٤٩٧).

٢ ـ تعريفه شرعاً:

أما تعريف الجهاد شرعاً، فإنه يدور عند أغلب الفقهاء من أهل المذاهب على قتال المسلم الكافر بعد دعوته إلى الإسلام أو الجزية وإبائه.

فعُرِّف في كتب الحنفيين بأنه: (بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله عزّ وجلّ، بالنفس والمال واللسان، أو غير ذلك، أو المبالغة في ذلك)[١] وبأنه: (الدعاء إلى الدين الحق وقتال من لم يقبله)[٢].

وفي كتب المالكية عُرِّف بأنه: (قتال مسلم كافراً غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله تعالى)[٣].

وهو كذلك عند الشافعية، كما قال الحافظ ابن حجر: (وشرعاً بذل الجهد في قتال الكفار)[٤].

وفي كتب الحنابلة: (وشرعاً قتال الكفار)[٥].

ولا فرق بين هذه التعريفات إلا زيادة: (الدعاء إلى الدين الحق) المذكور في كتب الحنفية، وهو وإن لم يذكر في التعريفات الأخرى قَيْد لا بدَّ منه لأن نصوص القرآن والسنّة دلَّت عليه وكذلك سيرة الرسول ﷺ والسَّلَف الصالح، وعدم ذكره لوضوحه فلا يكون القتال إلا بعد الدعوة والامتناع عن قبولها، وسيأتي هذا في محله إن شاء الله.

وكل هذه التعريفات ليست شاملة لكل أنواع الجهاد التي يجب على المسلم أن يحققها في نفسه وفي غيره، كما سيأتي في فصل: أنواع الجهاد.

وأشمل تعريف للجهاد في سبيل الله هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: (والجهاد هو بذل الوُسْع ـ وهو القدرة ـ في حصول محبوب

---

(١) بدائع الصنائع (٤٢٩٩/٩).
(٢) حاشية رد المحتار لابن عابدين (١٢١/٤)، وراجع كتاب فتح القدير (٤٣٦/٥).
(٣) الشرح الصغير على أقرب المسالك للدردير (٢٦٧/٢).
(٤) فتح الباري (٣/٦). (٥) مطالب أولى (٤٩٧/٢).

الحق، ودفع ما يكرهه الحق) وقال في موضع آخر: (وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان)[١].

فهذا التعريف يشمل كل أنواع الجهاد التي يؤدِّيها المسلم، يشمل اجتهاده في طاعة ربه في نفسه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واجتهاده في دعوة غيره لتلك الطاعة، القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم، واجتهاده في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله، وغير ذلك.

والقيد: (في سبيل الله) واضح في قوله: (في حصول ما يحبه الله) وقوله: (من دَفْع ما يكرهه الله)، فإنه لا يكون كذلك إلا إذا كان في سبيله.

وهو يُخرج كل سَعْي لا يقصد به وجه الله، فإنه لا يكون الجهاد الشرعي الذي يثيب الله فاعله، وإن كان قد يحصل صاحبه على مغنم مادي[٢]، ولهذا لا يقبل الله أي عمل من العبد إلا إذا قصد به وجهه، كما قال تعالى: ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصينَ له الدين ﴾[٣].

وفي الحديث: (الأعمال بالنية، ولكل امرىءٍ ما نوى)[٤] وفي هذا الباب - وهو قتال المسلم الكافر - قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العُلْيا فهو في سبيل الله»[٥] جواباً على سؤال عن المرء يقاتل حَمِيّة، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء؛ أيُّ ذلك في سبيل الله؟ وهو نص صريح في تفسير هذا القيد (في سبيل الله) وسيأتي الكلام على هذا المعنى بالتفصيل إن شاء الله في الباب الثاني، عند المقارنة بين أهداف الجهاد في الإسلام وأهداف الحروب الجاهلية.

---

(١) مجموع الفتاوي (١٠/١٩١، ١٩٢).
(٢) راجع الشرح الصغير على أقرب المسالك (٢/٢٦٧): الحاشية.
(٣) البينة: ٥.
(٤) البخاري رقم الحديث ٥٤، فتح الباري (١/١٣٥) ومسلم (٣/١٥١٥).
(٥) البخاري رقم ٢٨١٠ فتح الباري (٦/٢٧)، ومسلم (٣/١٥١٢).

الباب الأوّل

حقيقة الجهاد في سبيل الله

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: مشروعية الجهاد في سبيل الله وبعض أحكامه.
الفصل الثاني: أنواع الجهاد في سبيل الله.
الفصل الثالث: بواعث الجهاد في سبيل الله ومعوِّقاته.
الفصل الرابع: صفات المجاهدين في سبيل الله.
الفصل الخامس: عوامل النصر وعوامل الهزيمة.

الفصل الأوّل

مشروعيّة الجهاد وبعض أحكامه

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: حكم الجهاد في سبيل الله.

المبحث الثاني: أبدية الجهاد في سبيل الله.

المبحث الثالث: فضل الجهاد في سبيل الله.

المبحث الرابع: مراحل الجهاد في سبيل الله.

المبحث الخامس: آداب الجهاد في سبيل الله.

المبحث الأول

حكم الجهاد في سبيل الله

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: ذكر أقوال العلماء وبيان الراجح منها بأدلته.
الفرع الثاني: ذكر الحالات التي يتعينً فيها الجهاد في سبيل الله.
الفرع الثالث: بيان الأعذار المبيحة للتخلّف عن مباشرة الجهاد.

الفـــرع الأول
ذكر أقوال العلماء في حكمه وبيان الراجح منها بأدلته

اختلف العلماء في حكم الجهاد على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه فرض كفاية، وفرض الكفاية هو الذي لا يتعلّق بكل مكلَّف عيناً، وإنما الفرض القيام به قياماً كافياً من طائفة منهم، فإذا قامت هذه الطائفة بهذا الفرض قياماً كافياً سقط عن الباقين، وإن لم تَكْفِ هذه الطائفة وجب على المسلمين أن يُخرجوا من يكفي، ولو لم يَكْفِ إلا جميع المسلمين ـ لقلَّتهم مثلاً ـ وجب عليهم جميعاً، ويأثمون كلهم بتركه، فيصبح في هذه الحال فرض عَيْن.

وعلى هذا القول عامة المذاهب وجمهور علماء المسلمين.

قال السرخسي رحمه الله ـ وهو من علماء الحنفية:ـ (ثم فريضة الجهاد على نوعين: أحدهما عَيْن على كل من يقوى عليه بقدر طاقته، وهو ما إذا كان النفير

عاماً، قال تعالى: ﴿ انفِروا خفافاً وثقالاً ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ ما لكم إذا قيل لكمِ انفِروا في سبيل الله أثّـاقلتم إلى الأرض ـ إلى قولـه ـ يعذبكم عـذاباً أليماً ﴾[٢].

ونوع هو فرض على الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين لحصول المقصود، وهو كسر شوكة المشركين وإعزاز الدين)[٣]. . .

وقال محمد أمين بن عابدين في حاشيته: (هو فرض كفاية: كل ما فرض لغيره فهو فرض كفاية إذا حصل المقصود بالبعض، وإلا ففرض)[٤]. . .

وفي البداية: (الجهاد فرض على الكفاية، إذا قام به فريق من الناس سقط عن الباقين)[٥].

وفي الحاشية: (الجهاد فريضة محكمة وقضية محترمة، يكفر جاحدها، ويُضَلَّل عاندها)[٦].

وقال الكاساني: (فإن لم يكن النفير عاماً فهو فرض كفاية، ومعناه أن يفترض على جميع من هو من أهل الجهاد، لكن إذا قام به البعض سقط عن الباقين)[٧].

وقال في الشرح الصغير ـ على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ـ: (الجهاد في سبيل الله ـ لإعلاء كلمة الله كل سنة كإقامة الموسم بعرفة والبيت وبقيـة المشاهد. . فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي)[٨].

وقال ابن عبد البر: (والقسم الثاني ـ من واجب الجهاد فرض أيضاً على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرة، يخرج معهم بنفسه أو يُخرج من يثق به، ليدعوهم إلى الإسلام، ويرغبهم، ويكف أذاهم، ويظهر دين الله عليهم، ويقاتلهم حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية، فإن أعطوها قبلها منهم،

---

(١) التوبة: ٤١.
(٢) التوبة: ٣٨ ـ ٣٩.
(٣) المبسوط (٣/١٠).
(٤) حاشية ابن عابدين (١٢٢/٤).
(٥) شرح فتح القدير (٤٣٦/٥).
(٦) شرح فتح القدير (٤٣٦/٥).
(٧) بدائع الصنائع (٤٢٩٩/٩).
(٨) الشرح الصغير (٢٦٧/٢).

وإن أبَوا قاتلهم وفرض على الناس بأموالهم وأنفسهم الخروج المذكور حتى يعلم أن في الخارجين من فيه كفاية بالعدو وقيام به، فإذا كان ذلك سقط الفرض عن الباقين وكان الفضل للقائمين على القاعدين أجراً عظيماً، وليس عليهم أن ينفروا كافّة)(١).

وقال في المنهاج للشافعية: (الجهاد في عهد رسول الله ﷺ فرض كفاية وقيل فرض عين)(٢).

وقال النووي رحمه الله: (وأما اليوم ـ أي وليس في عهد الرسول ﷺ ـ فهو ضَرْبان: أحدهما أن يكون الكفار مستقرين في بلدانهم فهو فرض كفاية، فإن امتنع الجميع منه أثموا، وهل يعمهم الإثم أم يختص بالذين يدنوا(٣) إليه؟ وَجْهان قلت : الأصح أنه يأثم كل من لا عذر له كما سيأتي بيان الأعذار إن شاء الله تعالى والله أعلم. وإن قام من فيه كفاية سقط عن الباقين، وتحصل الكفاية بشيئين:

أحدهما: أن يشحن الإمام الثغور بجماعة يكافئون مَنْ بإزائهم من الكفار، وينبغي أن يُحتاط بإحكام الحصون وحفر الخنادق ونحوهما، ويُرتِّب في كل ناحية أميراً كافياً يقلِّده الجهاد وأمور المسلمين.

الثاني: أن يدخل الإمام دار الكفر غازياً بنفسه أو بجيش يؤمر عليهم من يصلح لذلك، وأقله مرة واحدة في كل سنة، فإن زاد فهو أفضل، ويستحب أن يبدأ بقتال من يلي دار الإسلام من الكفار، فإن كان الخوف من الأبعدين أكثر بدأ بهم، ولا يجوز إخلاء سنة عن جهاد إلا لضرورة)(٤).

وقال ابن قدامة الحنبلي: (والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين، معنى فرض الكفاية إن لم يقم به مَنْ يكفي أَثم الناس كلهم، وإن قام به من يكفي سقط عن سائر الناس، فالخطاب في ابتدائه يتناول الجميع كفرض الأعيان، ثم يختلفان في أن فرض الكفاية يسقط بفعل بعض الناس له،

(١) الكافي في فقه أهل المدينة المالكي (١/٤٦٣).
(٢) حواشي تحفة المحتاج على المنهاج (٩/٢١٢).
(٣) كذا، والصواب: يدنون.
(٤) روضة الطالبين (١٠/٢٠٨).

وفرض الأعيان لا يسقط عن أحد بفعل غيره)(١).

وقال مصطفى السيوطي: (وشرعاً: قتال الكفار، وهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط وجوبه عن غيرهم، وإلا أثم الناس كلهم)(٢).

وقال ابن حزم: (والجهاد فرض على المسلمين، فإذا قام به من يدفع العدو ويغزوهم في عقر دارهم ويحمي ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقين، وإلاّ فلا)، قال تعالى: ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ﴾(٣).

وقال ابن رشد: (فأما حكم هذه الوظيفة فأجمع العلماء على أنها فرض على الكفاية، لا فرض عَيْن، إلا عبد الله بن الحسن فإنه قال إنها تطوُّع)(٤).

فقد اتفقت المذاهب الأربعة وغيرها على أن الجهاد في سبيل الله فرض كفاية، إذا قام به طائفة من المسلمين سقط عن الباقين وإلا أثموا جميعاً.

واستدلّ من قال بهذا القول بأدلة من القرآن الكريم والسنّة المطهَّرة وعمل السلف الصالح والقياس.

فأما القرآن والسنّة فإن استدلالهم يأتي من وجهين: الوجه الأول النصوص العامة الآمرة بالجهاد والمحذرة عن تركه المتوعدة على ذلك بالعذاب والذل، وهذه بعض النصوص:

قال تعالى: ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحُرُم فاقتلوا المشركين حيثُ وجدتموهم، وخُذُوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخَلُّوا سبيلهم ، إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ كُتب عليكم القتال وهو كُرْه لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تُحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(٦).

---

(١) المغني (٩/١٩٦).
(٢) مطالب أولي النهي (٢/٤٩٧).
(٣) المحلّى (٧/٢٩١). والآية من سورة التوبة: ٤١.
(٤) بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١/٣٩٦).
(٥) التوبة: ٥.
(٦) البقرة: ٢١٦.

وقال تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثَقِفْتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشدُّ من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين، فإن انتَهَوا فإنَّ الله غفور رحيم، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتَهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفِرُوا في سبيل الله أثَّاقلتم إلى الأرض، أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاعُ الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليلٌ، إلا تنفروا يُعَذِّبْكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضرُّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ انفِرُوا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دينَ الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتى يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ وقاتلوا المشركين كافةً كما يقاتلونكم كافةً، واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين ﴾[٥] وغيرها من الآيات.

أما الأحاديث فكثيرة، ومنها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجهاد واجب مع كل أمير بَرّاً كان أو فاجراً»... أخرجه أبو داود[٦].

---

(١) القرة: ١٩٠ ـ ١٩٣.
(٢) التوبة: ٣٨ ـ ٣٩.
(٣) التوبة: ٤١.
(٤) التوبة: ٢٩.
(٥) التوبة: ٣٦.
(٦) أبو داود (٣/٤٠) إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، وقال: هذا منقطع، مكحول لم يسمع من أبي هريرة، وقال عبد القادر الأرناؤوط: ورجاله ثقات إلا أنَّ أبا العلاء بن الحارث كان قد =

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم»[(١)].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يَغْزُ ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق»[(٢)] وغيرها كثير.

قالوا: هذه النصوص واضحة في أن الجهاد فرض يأثم المسلمون بتركه، لأنها وردت بصيغ لا تحتمل إلا ذلك، كصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾[(٣)]، ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾[(٤)]، ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾[(٦)]، ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾[(٦)]، والكفار لا يكفون عن قتال المسلمين إلا لضعف طارىء عليهم، ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾[(٧)]، ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا.. ﴾[(٨)].

وصيغة التوبيخ والوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفِرُوا في سبيل الله أثَّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ ﴿ إلَّا تنفِروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ﴾[(٩)].

ووجه الاستدلال بهذه النصوص أمر لا يجوز الجدال فيه.

أما الوجه الثاني من الاستدلال بالقرآن والسنّة لهذا القول، فهو أن هذه النصوص العامة الدّالة على فرض الجهاد على المسلمين وردت بإزائها نصوص أخرى من القرآن والسنّة أيضاً تدل على أن هذا الوجوب ليس عيناً وإنما هو فرض كفاية.

= اختلط، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة، لكن للجملة الأولى، وهي «الجهاد...» شاهد عن أبي داود رقم ٢٥٣٣ من حديث أنس تتقوّى به... «جامع الأصول (٢/٥٦٤) حاشية/١.

(١) أبو داود، قال المحشّي: وأخرجه النسائي، والدارمي، وأحمد، وإسناده قوي، وصحّحه ابن حبان... والحاكم في المستدرك، وصحّحه النووي في رياض الصالحين أبو داود (٣/٢٢ - ٢٣) حاشية رقم ١.

(٢) مسلم (٣/١٥١٧) راجع جامع الأصول (٢/٥٦٣) وما بعدها.

(٣) التوبة: ٥.

(٤) البقرة: ١٩٠.

(٥) البقرة: ١٩١.

(٦) البقرة: ١٩١.

(٧) البقرة: ١٩٣.

(٨) التوبة: ٤١.

(٩) التوبة: ٣٨ - ٣٩.

ومن هذه النصوص في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿ وما كان المؤمنون لينفِرُوا كافّةً، فلولا نَفَر من كل فِرْقة منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين، ولينـذروا قومهم إذا رجعـوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾(١).

وجه الدلالة منها من وجهين:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافّة ﴾ أي ما صحَّ ذلك ولا استقام أن يهبَّ جميع أفراد المؤمنين القادرين على الجهاد للغزو، لما في ذلك من ضياع مَنْ وراءهم من العيال، ومن ترك السعي للرزق وحرث الأرض وعمارتها التي لا يتم الجهاد إلا بها.

قال القرطبي: (وفيه ست مسائل: الأولى قولـه تعالى: ﴿ ومـا كان المؤمنون ﴾ وهي أن الجهاد ليس على الأعيان، وأنه فرض كفاية كما تقدَّم، إذ لو نفر الكلُّ لضاع مَنْ وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد ولْيَقُم فريق يتفقهون في الدين ـ هذا على رأي من قال: إن الفريق الباقي هو الذي يتفقه في الدين، وهناك قول آخر رجَّحه ابن جرير الطبري أن الفريق الذي يتفقه في الدين هو الفريق النافر(٢) ـ ويحفظون الحريم)(٣).

وقال السرخسي: (ونوع هو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين لحصول المقصود وهو كسر شوكة المشركين وإعزاز الدين، لأنه لو جُعِل فرضاً في كل وقت على كل أحد عاد على موضوعه بالنقض، والمقصود أن يأمن المسلمون ويتمكنوا من القيام بمصالح دينهم ودنياهم، فإذا اشتغل الكلّ بالجهاد لم يتفرَّغوا للقيام بمصالح دنياهم، فلذلك قلنا: إذا قام به البعض سقط عن الباقين)(٤).

الوجه الثاني قوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقَّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾(٥) فإنه ظاهر بأن الله تعالى كما نفَى أن

---

(١) التوبة: ١٢٢.
(٢) راجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/ ٧٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/٢٩٣).
(٤) المبسوط (١٠/ ٣).
(٥) التوبة: (١٢٢).

ينفر المسلمون كافّة في أول الآية؛ حضَّ في آخرها على أن ينفر من كل جماعة من المسلمين طائفة لتقوم الطائفة النافرة بفرض الجهاد الذي يسقط عن الباقية، وتقوم الباقية بالمصالح التي لا بدَّ منها، وإلا تعطَّل الجهاد وعاد على موضوعه بالنقض كما قال السرخسي.

وقوله تعالى ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً، وكّلاً وعد الله الحسنى، وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾(١).

وجه الدلالة من الآية أن الله تعالى فضَّل المجاهدين على القاعدين بدون عذر ووعدهم جميعاً الحسنى، فالقاعد عن الجهاد بدون عذر لا يأثم إذا قام به غيره وكفى، ولم يستنفر ذلك القاعد.

قال الفخر الرازي رحمه الله: ثم قال: (وكُلًّا وعد الله الحُسْنى، أي وكلا من القاعدين والمجاهدين فقد وعده الله الحسنى. قال الفقهاء: وفيه دليل على أن فرض الجهاد على الكفاية، وليس على كل واحد بعينه، لأنه تعالى وعد القاعدين الحسنى كما وعد المجاهدين، ولو كان الجهاد واجباً على التعيين لما كان القاعد أهلًا لوعد الله تعالى إياه الحُسْنى)(٢).

وقال ابن قدامة ـ بعد أن استدل بالآية ـ: (وهذا يدلُّ على أن القاعدين غير آثمين مع جهاد غيرهم)(٣).

وقال الكاساني ـ بعد أن استدل بنفس الآية: (وعد الله عز وجل المجاهدين والقاعدين الحسنى، ولو كان الجهاد فرض عينْ في الأحوال كلِّها لما وعد القاعدين الحسنى، لأن القعود يكون حراماً)(٤).

وقال في المهذَّب: (وهو فرض على الكفاية إذا قام به من فيه كفاية سقط الفرض عن الباقين، لقوله عز وجل: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ

(١) النساء: ٩٥.
(٢) التفسير الكبير (١١/ ٩).
(٣) المغني (٩/ ١٩٦).
(٤) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠٠).

أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً، وكلاًّ وعد الله الحسنى﴾ ولو كان فرضاً على الجميع لما فاضل الله بين من فعل وبين من ترك، ولأنه وعد الجميع بالحسنى فدل على أنه ليس بفرض على الجميع)[١].

وقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[٢] والجهاد قمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف والنهي المنكر فرض كفاية وليسا فرض عَيْن.

قال السرخسي: (فأما بيان المعاملة مع المشركين فنقول: الواجب دعاؤهم إلى الدين وقتال الممتنعين منهم من الإجابة، لأن صفة هذه الأمة في الكتب المنزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبها كانوا خير الأمم، قال الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[٣] الآية، ورأس المعروف الإيمان بالله تعالى، فعلى كل مؤمن أن يكون آمراً به داعياً إليه، وأصل المنكر الشرك، فهو أعظم ما يكون من الجهل والعناد، لما فيه من إنكار الحق من غير تأويل، فعلى كل مؤمن أن ينهى عنه بما يقدر عليه)[٤].

وقوله: فعلى كل مؤمن... إلخ... أي إذا لم يقم بالأمر والنهي من يكفي فيهما، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليسا فرض عَيْن، وإنما هما فرض كفاية كما مضى.

أمّا السنَّة فإن دلالتها على أن الجهاد فرض كفاية وليس فرض عين من وجهين: الأول في قول الرسول ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً إلى بني لِحْيان من هُذَيل فقال: «لينبعث من كلٍّ رجلين أحدهما، والأجر بينهما» وفي رواية: «ليخرج من كل رجلين رجل» ثم قال للقاعد: «أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج»[٥].

---

(١) تكملة المجموع لمحمد حسين العقبي (١٨/ ٤٧).
(٢) آل عمران: ١٠٤.
(٣) ال عمران: ١١٠.
(٤) المبسوط (١٠/ ٢).
(٥) مسلم (٣/ ١٥٠٧).

فالحديث صريح في أن الجهاد ليس فرضاً على الأعيان، وإلا لما قال ﷺ: «لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما» ثم إنه أشار ﷺ إلى أنه لا بد من وجود من يخلف الغزاة في الأهل والمال.

وفي حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَفه في أهله وماله بخير فقد غزا»[١].

الوجه الثاني من فعله وسيرته ﷺ، وهو أنه كان يخرج في الغزوة تارة، ويبقى تارة، ويؤمِّر غيره على الغزوة أو السرية، ولم يكن يُخرج جميع أصحابه، بل بعضهم، إلا أن يكون الأمر يستدعي النفير العام كما في غزوة تبوك. وهذا دليل أن الجهاد لم يكن فرض عَيْن وإنما فرض كفاية كما في حديث بريدة عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية وصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله..»[٢] الحديث.

قال ابن قُدامة: (ولأن رسول الله ﷺ كان يبعث السرايا ويقيم هو وسائر أصحابه)[٣].

وقال الكاساني: (وكذا النبي عليه الصلاة والسلام كان يبعث السرايا، ولو كان فرض عَيْن في الأحوال كلِّها لكان لا يتوهم منه القعود عنه في حال، ولا أذن لغيره بالتخلُّف عنه بحال)[٤].

أما القياس، فإن الجهاد شُرع لإعلاء كلمة الله، فإذا قامت به طائفة حتى تُحقِّق هذا الهدف، فعلت كلمة الله وقُهر أعداء الله بتلك الطائفة فقد حصل المقصود أو الهدف الذي شرع من أجله الجهاد، فلا محل لفرضه على كل أفراد الأمة.

---

(١) نفس المصدر والجزء والصفحة، وراجع تكملة المجموع شرح المهذب (١٨/ ٤٨).
(٢) مسلم (٣/ ١٣٥٧).
(٣) المغني (٩/ ١٦٩).
(٤) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠٠).

قال الكاساني: (ولأنَّ ما فُرض له الجهاد وهو: الدعوة إلى الإسلام، وإعلاء الدين الحق، ودفع شر الكفرة وقهرهم يحصل بقيام البعض به)(١).

وقال ابن الهمام: (وهو فرض على الكفاية لأنه ما فُرض لعينه إذ هو إفساد في نفسه، وإنما فُرض لإعزاز دين الله ودفع الشر عن العباد، فإذا حصل المقصود بالبعض سقط عن الباقين، كصلاة الجنازة وردِّ السلام)(٢).

تنبيه:

يجب أن يُعلم أن المراد بفرض الكفاية الذي إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين أن تكون تلك الطائفة كافية للقيام به حتى يسقط، وليس المراد مجرد قيام طائفة ولو لم يكن قيامها كافياً، فلا يصح إسقاط فرض الجهاد عن المسلمين كلهم بقيام طائفة منهم به في جزء من الأرض، ولو كفت في ذلك الجزء مع بقاء أجزاء أخرى ترتفع فيها راية الكفر، فإن كل جزء من تلك الأجزاء يجب على المسلمين القريبين منه أن يجاهدوا الكفرة فيه حتى يقهروهم، فإذا لم يقدروا على قهرهم وجب على من يليهم من المسلمين أن ينفروا معهم، وهكذا حتى تحصل الكفاية. قال في حاشية ابن عابدين: (وإياك أن تتوهَّم أن فرضيته تسقط عن أهل الهند بقيام أهل الروم مثلاً، بل يفرض على الأقرب فالأقرب من العدو إلى أن تقع الكفاية، فلو لم تقع إلا بكل الناس فُرض عيناً كصلاة وصوم)(٣).

والذي يتأمل أحوال المسلمين مع الكفار في هذا الزمن يجد أن الجهاد فرض عين على كل فرد قادر من أفراد المسلمين وليس فرض كفاية، لأن بعض طوائف المسلمين الذين يقومون بالجهاد ضد الكفرة لا يكفون في الأجزاء التي هم يجاهدون فيها، فضلاً عن الأجزاء الأخرى التي يغزو العدو فيها المسلمين في عُقْر دارهم ولم توجد طائفة تقوم بفرض الجهاد ضده.

* * *

القول الثاني: في حكم الجهاد ـ أنه فرض عَيْن، وهو رأى لسعيد بن

(١) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠٠).
(٢) فتح القدير (٥/ ٤٣٨).
(٣) حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

المسيِّب[١] رحمه الله، وبه قال بعض الشافعيـة[٢]، وذكره ابن قُـدامة وردَّ عليه[٣]، وذكره ابن رشد عن عبدالله بن الحسن[٤].

واستدل هؤلاء بأدلة فرض الجهاد المطلقة، وقد مضى كثير منها في القول الأول من الكتاب والسنة، ومضى ذكر الأدلة التي تعارض القول بأن الجهاد في سبيل الله فرض عين، لا داعي لإعادة ذكرها أو مناقشتها، وعلى القارىء أن يعود إليها في أول هذا المبحث.



القول الثالث: أن الجهاد في سبيل الله ليس فرضاً لا عَيْناً ولا كفايةً، وإنما هو مندوب فقط، ونُقل عن ابن عمر وعطاء والثوري وابن شبرمة[٥]، ويفهم من عبارات بعض العلماء أن هؤلاء قد يحتجون بدخـول التخصيص على النصوص العامة الموجبة للجهاد، لأن النص إذا دخله التخصيص أصبح ظنيَّ الدلالة فيضعف الاحتجاج به على الوجوب، فيبقى على الندب، ولكن هذا الرأي ضعيف، لأن العام إذا دخله التخصيص عند أهل الأصول قَصُر على بعض أفراده، قال في حاشية فتح القدير: (والتخصص المعتبر عند أهل الأصول قَصُر العام على بعض ما يتناوله بدليل مستقل لفظي مقارن للمعنى، وبهذا ينتفي ما نقل عن الثوري وغيره أنه ليس بفرض وأن الأمر به للندب... ونقل عن ابن عمر، ويجب حمله إن صحَّ على أنه ليس بفرض عيني)[٦].

وعلى هذا المعنى حمله الجصَّاص، فقال: (ومعلوم في اعتقاد جميع المسلمين أنه إذا خاف أهل الثغور من العدو ولم تكن فيهم مقاومة لهم، فخافوا على بلادهم وأنفسهم وذراريهم، أن الفرض على كافة الأمة أن ينفر إليهم من يَكُفُّ عاديتهم عن المسلمين، وهذا لا خلاف فيه بين الأمة، إذ ليس من قول أحد من المسلمين إباحة القعود عنهم حتى يستبيحوا دماء المسلمين وسَبْي ذراريهم، ولكن

(١) فتح القدير لابن الهمام (٥/ ٤٣٩).
(٢) راجع حواشي تحفة المحتاج (٩/ ٤٣٩).
(٣) المغني (٩/ ١٩٦).
(٤) بداية المجتهد ونهاية المقتصدو (١/ ٣٩٦).
(٥) راجع فتح القدير (٥/ ٤٣٧) وأحكام القرآن للجصاص (٣/ ١١٤).
(٦) فتح القدير (٥/ ٤٣٧).

موضع الخلاف بينهم أنه متى كان بإزاء العدو مقاومين له ولا يخافون غلبة العدو عليهم هل يجوز للمسلمين ترك جهادهم حتى يسلموا أو يؤدُّوا الجزية؟ فكان من قول ابن عمر وعطاء وعمرو بن دينار وابن شبرمة أنه جائز للإمام والمسلمين ألاّ يغزوهم وأن يقعدوا عنهم، وقال آخرون على الإمام والمسلمين أن يغزوهم أبداً حتى يسلموا ويؤدوا الجزية...)[١].

وإذا لم يُحمل هذا القول المروي عن هؤلاء على هذا المحمل فلا وجه له، وإذا لم تكن هذه النصوص من الكتاب والسنة وإجماع السلف والواقع التاريخي لسيرة الرسول ﷺ كافية للقول بفرض الجهاد، فأي فريضة بعد ذلك تثبت بنصوص هي أقل من هذه النصوص عدداً ودلالة؟ وينبغي أن يفهم أن هذا الخلاف هو في الجهاد بمعناه الخاص أي القتال والراجح فيه أنه فرض كفاية كما مضى.

أما الجهاد بمعناه الشامل الذي أختير فيه تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فإنه فرض عَيْن في الجملة، بمعنى أن المسلم لا يخلو في وقت من الأوقات من الجهاد الواجب عليه، إذ الجهاد ليس مقصوراً على قتال الكفار، بل هو جهاد للنفس وللشيطان، وللأسرة من أولاد وأهل وغيرهم، وللمسلمين بدعوتهم إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليمهم أمور دينهم وبذل النصح لهم، والإعداد لقتال الكفار بل دعوتهم قبل ذلك، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: (ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرّماً، ثم مأذوناً فيه، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور. والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع)[٢].

ولعل هذا المعنى يفهم من قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حَرَج، مِلّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم

(١) أحكام القرآن (٣/ ١١٤) الناشر دار الكتاب العربي ببيروت.
(٢) زاد المعاد (٢/ ٦٥).

المسلمين من قَبْلُ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾[١].

وإذ قد تبيَّن حكم الجهاد في سبيل الله بأدلته التي لا تقبل الجدال والمناقشة، فأين المسلمون من أداء هذه الفريضة ـ الشاملة ـ على تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية، أو الخاصة على أن المراد به قتال الكفار فقط؟

لقد قعد أغلب المسلمين اليوم عن القيام بهذه الفريضة التي لا حياة لهم بدونها، بل إن كثيراً منهم حاربوها ووقفوا في وجه من أراد القيام بها، وإن ما عليه المسلمون اليوم من البعد عن الله في أنفسهم لأمر يؤسف له، فحياتهم ـ في الغالب ـ حياة جاهلية وغفلة ومعصية للخالق سبحانه.

وما هم عليه اليوم من ترك بعضهم أعداء الله يقتلونهم وينتهكون أعراضهم ويعذِّبونهم في أنحاء الأرض، لهو تعرُّض للإثم وترك للفرض الذي هو فرض عين على كل المسلمين، لعدم وجود طائفة تقوم به قياماً كافياً، بل لعدم وجود أي طائفة تقوم به في بعض أجزاء الأرض بل في أغلبها، وقد أوجب فقهاء المسلمين على الأمة الإسلامية كلِّها أن يخلِّصوا المرأة المسلمة إذا سباها أعداء الله ولو أدخلوها دار الحرب ما داموا قادرين على ذلك.

قال بعض فقهاء الحنفية: (مسلمة سُبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها من الأسر مالم تدخل دار الحرب، وفي الذخيرة يجب على من لهم قوة اتِّباعهم لأخذ مابأيديهم من النساء والذراري وإن دخلوا دار الحرب)[٢].

وهذه بلدان المسلمين تتعرض لغزو أعداء الإسلام والاعتداء على أهلها وانتهاك أعراضهم وسلب أموالهم وتهديم مساكنهم وافساد مصالحهم، فلا يتحرك المسلمون لنجدتها والدفاع عنها، لا بل إن طغاةً في بلدان المسلمين من أبنائها يقفون في وجه الدعوة إلى الله، ويصدون الدعاة عن إبلاغ دعوتهم كما يصدون الناس عن قبولها، لا سيما الدعوة الصادقة الشاملة التي يفقه أهلها دين

---

(١) الحج ٧٨.

(٢) حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٦).

لله ويبلِّغونه بأمانة ويُفهمون الناس أن الإلّه المعبود المطاع الحاكم هو الله تعالى، وأن الناس كلهم يجب عليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يحكِّموا كتابه وسنة رسوله في حياتهم كلها، لا يقدِّمون عليهما هوى ولا رأياً ولا نظاماً أياً كان، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون للناس: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ظلم الحكام إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها).

هذه الدعوة بهذا المفهوم يُطارد دعاتها في أغلب المعمورة، ويُحال بينهم وبين الناس حتى لا يسمعوها فيستجيبوا لها، فيخرجوا على الطغاة المتألّهين عليهم، بل إنَّ ممَّا يؤسف له أن بعض هؤلاء الدعاة يأمنون على أنفسهم في بعض دول الكفر الصريح أكثر مما يأمنون على أنفسهم في بلدانهم.

وقد أمر الله المؤمنين بتبليغ هذه الدعوة للناس كافة بالحسنى عندما لا تعترضهم العقبات، وبتحطيم السدود والقضاء على رؤوس الفتنة عندما تقام أمامهم تلك السدود: ﴿أُدْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[(١)]. ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبعني﴾[(٢)].

وفتح الطريق أمام الدعوة إلى الله لينطلق بها الدعاة إلى العالم هو أحد أهداف الجهاد، وإذا كان هذا الهدف لم يُحقَّق ـ وهو أول مرحلة من مراحل الجهاد ـ فهل يقول عاقل أن الجهاد الآن فرض كفاية؟

إنه ضرورة للمسلمين قبل غيرهم، فكيف والإسلام دين عالميٌّ جاء لتحرير الناس كلِّهم في جميع أنحاء الأرض من عبادة غير الله؟: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[(٣)] ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾[(٤)] ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[(٥)].

---

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) يوسف: ١٠٨.
(٣) الاعراف: ١٥٨.
(٤) الأنبياء: ١٠٧.
(٥) الفرقان: ١.

«كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة»(١).

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام، وهو الدين الحق الذي يجب تبليغه للناس ويجب على الناس كلِّهم أن يدخلوا فيه ليحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة، وليس في الأرض دين يجب عليهم الدخول فيه غير دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٢) وقال: ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(٣). إذا كانت الدعوة إلى هذا الدين مطاردة في الأرض. وأهلها نائمون عن دعمها والجهاد في سبيلها ـ وهذا بلاء ـ فإن البلاء قد إزداد بفتح الباب على مصراعيه لدعوات الكفر التي تنصرها دول قوية، ومؤسسات بالمال والرجال والمرافق المغرية من مدارس وجامعات ومستشفيات ومراكز ثقافية ونوادٍ رياضية وكتب ونشرات علمية، وهي تغزو المسلمين متنافسة على أبنائهم وخيراتهم، لا فرق بين شيوعية وصهيونية، ومسيحية ووثنية وغيرها من المذاهب التي تختلف فيما بينها ولكنها تتّفق على حرب الإسلام والمسلمين.

وها هي المسيحية تنشىء المطارات التي تفوق مطارات الحكومة في أندونيسيا لطائراتها التي خصصتها لمن يُسَمَّون بالمبشرين، يتنقلون بها من مكان إلى آخر في مناطق صعبة لا ينفع من المواصلات فيها إلا الطائرات، في الجبال والغابات والوديان، تراهم يتنقلون من قرية إلى قرية، ومن قمة جبل إلى قمة أخرى، ومن غابة إلى أخرى لتنصير المسلمين على مرأى ومسمع من الحكومة ومن العالم الإسلامي كله وهو يغط في نوم عميق لو صحا منه لكان له شأن آخر مع هذا العالم، لأنه الأمة الوحيدة التي تملك وسائل قيادة العالم بجدارة، وهو القائد الوحيد لسفينة النجاة، ولا توجد في الأرض أمة غير هذه الأمة تستطيع إنقاذ سفينة حياة البشر من أن تغرق في أعماق البحر: بحر الكفر والشرك والفسوق والعصيان ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾(٤).

(١) البخاري، رقم الحديث (٣٣٥) فتح الباري (١/ ٤٣٥) ومسلم (١/ ٣٧٠).
(٢) آل عمران: ١٩.
(٣) آل عمران: ٨٥.
(٤) آل عمران: ١١٠.

وما حصل في أندونيسيا حصل في غيرها من بلدان العالم الإسلامي في أفريقيا وغيرها.

هذا عدا الغزو المسلح الذي تشنُّه دول الكفر على شعوب المسلمين في الشرق والغرب، كما تفعل روسيا الشيوعية في أفغانستان، ويفعل اليهود في البلدان العربية، وتفعل الحبشة في الصومال وأرتيريا، وما يفعله تلاميذ الكفر من زعماء الشعوب الإسلامية في شعوبهم.

فأين المجاهدون الذين يقومون بهذه الفريضة حتى يقال: إن الجهاد فرض كفاية وقد قامت به طائفة من المسلمين فسقط عن الباقين؟ أين دعاة الإسلام الذين قاموا بفرض الكفاية في الدعوة إلى الله؟ وأين أغنياء المسلمين الذين قاموا بفرض كفاية الإنفاق في سبيل الله؟ وأين حكامهم الذين قاموا بفرض كفاية الاستنفار الصادق وقادوا من يسقط عن بقية المسلمين هذه الفريضة؟ أين هم جميعاً من هذا الخطر الداهم الذي يكاد يقضي على كل جزء من أجزاء الإسلام ويفسد كل فرد من أفراد المسلمين ويسيطر على كل شبر من أرضهم؟

إن الداعية المسلم الحق إذا وجد ـ على قلّة ـ في أي شعب من الشعوب الإسلامية لم يجد من يعينه على تبليغ دعوته بالمال، مع أن أموال المسلمين تنفق في الحرام أكثر من إنفاقها في المباح، وتنفق في أنواع الكماليات والترف أكثر مما تنفق في الضرورات، وكل تلك الأموال تُصبُّ في أيدي أعداء الله وهم يصوغونها في قوالب متعددة لتدمير أهلها من المسلمين: تدميرهم في إيمانهم واعتقادهم، وفي شريعتهم وأخلاقهم وعاداتهم بطرق شتى: مناهج تعليم وأجهزة إعلام، ومغريات من المساكن والمراكب والملابس والملاهي، وأسلحة صالحة لضرب بعض تلك الشعوب بعضاً، ولكنها ليست صالحة للدفاع بها إذا ما غزاها العدو الكافر، إضافة إلى بناء المدارس والمستشفيات والملاجىء والكنائس والنوادي والمطارات وإعداد القائمين على هذه المرافق من دعاة الكفر.

فهل الجهاد الآن فرض كفاية وحال المسلمين هي هذه أو هو فرض عيني على كل قادر حتى يقوم به من يكفي في كل صقع من أصقاع العالم الإسلامي؟ وهل ينتظر المسلمون إلا سخط الله ونكاله وخزيه الذي قد حلَّ بهم فأصبحوا

أذلّة بعد أن كانوا أعزّة ومقودين بعد أن كانوا قادة؟

هل قام المسلمون أو بعضهم بالجهاد في سبيل الله حتى علَتْ كلمة الله، فتحقق الهدف الكبير للجهاد؟

وهناك أهداف أخرى للجهاد في سبيل الله، منها رد العدوان عن المسلمين، فهل قام به المسلمون أو بعضهم حتى يقال: الجهاد فرض كفاية وقد قام به بعض المسلمين فسقط عن الباقين؟

هل خَلَتِ الأرض من مسلمين يعذَّبون ويسجنون ويخرجون من ديارهم وأموالهم وأهليهم، ويقتلون ويمثل بهم، كلا، وليس في بلاد الكفر الصريح فقط، بل في داخل ديار المسلمين أيضاً، التي تربَّع على كراسي حكمها من لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا بتحكيم كتابه وسنة رسوله، ولا تسل عما جرى كاتب هذه السطور، ولكن سَلْ من سجن وعُذِّب يجبك عن زملائه كلهم إلى هذه اللحظة التي يذوقون فيها شتى أنواع البلاء والمحنة، وها هو ذا يقول:

«أسمعت بالإنسان يُنفخ بطنه ... حتى يُرى في هيئة البالون
أسمعت بالإنسان يضغط رأسه ... بالطوق حتى ينتهي لجنون
أسمعت بالإنسان يشعل جسمه ... ناراً وقد صبغوه بالفزلين
أسمعت ما يلقى البريء ويصطلي ... حتى يقول أنا المسيء خذوني
أسمعت بالآهات تخترق الدُّجى ... ربّاه عدلك إنهم قتلوني
إن كنت لم تسمع فسَلْ عما جرى ... مثلي ولا ينبيك مثل سجين»[(١)]

هذا ما حصل في شعب عربي مسلم كان قاعدة لانطلاق الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله في يوم من الأيام، وهناك شعوب أخرى من شعوب المسلمين يُعامل فيها حكامها الدعاة إلى الله أشد مما يعامل به جواسيس الكفر، لا بل إنّ جواسيس الكفر ليكرمون بالنسبة لما يلاقيه دعاة الإسلام الذين يُقتلون ويشرّدون، ويحرقون بالنار حتى يموتوا كأصحاب الأخدود وهم يصطرخون وينادون بآيات الله التي توجب على جميع المسلمين أن يهبوا لإنقاذهم ونجدتهم:

(١) نافذة على الجحيم ١٣٨.

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين يقولون ربَّنا أخرجْنا من هذه القريةِ الظالمِ أهلُها، واجعل لنا من لَدُنْكَ وليّاً، واجعل لنا من لَدُنْك نصيراً﴾[١].

فماذا في بلاد الكفر؟ ماذا جرى من اليهود في فلسطين؟ وماذا يجري من النصارى في الفلبين[٢]، وماذا يجري في الدول الشيوعية، وسيأتي بإذن الله ذكر أمثلة لما جرى للمسلمين من جراء تركهم القيام بهذه الفريضة.

فالجهاد ضرورة، وقد فرضه الله على المسلمين في كل زمان، لأنه يعلم سبحانه أن الطواغيت لا يهادنون الدعاة إلى الله ـ ولو حاول الدعاة المهادنة حتى يقضي الله بين الفريقين ـ لأن دين الله خطر عليهم وعلى مصالحهم التي لا تقوم إلا على الكفر بالله واستعباد الناس، فلا تطيق نفوسهم أن يروا هذا الدين ثابتاً في الأرض تدين به جماعة من الناس، ولذلك يقفون له ولأهله بالمرصاد.

ألا ترى أن نبي الله شعيباً ـ عليه السلام ـ الذي اختلف قومه في دعوته آمنت بها طائفة وكفرت طائفة، وهو يدعوهم إلى الصبر حتى يحكم الله بينهم، فيأبى الكافرون إلا أن يخرجوه هو ومن آمن به من ديارهم أو يعيدوهم في ملَّة الكفر، ولا يطيقون وجود فئة تدين بغير دينهم؟ قال تعالى: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه لَنُخرجنَّك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنَّ في ملتنا﴾[٣]. وهنا يقف الداعي إلى الله كالجبل الأشم مجاهداً في سبيل الحفاظ على عقيدته ودينه، والتبري من الكفر الذي نجّاه الله منه، ويلجأ إلى القوة القادرة يستنصرها فيأتيه النصر، ويحكم الله، وهو خير الحاكمين: ﴿أوَلو كُنَّا كارهين، قد افترينا على الله كذباً إن عُدْنا في مِلَّتكم بعد

(١) النساء ٧٥.

(٢) نشرت جريدة المدينة السعودية في عددها (٤٥٢٠) يوم الاثنين ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ ما يلي: «الاحصاءات الرسمية (فقط) أن عشرة آلاف مسلم مدني (مدني فقط) ذبحوا وقتلوا على أيدي القوات الحكومية ومنذ انهيار اتفاق طرابلس ومفاوضات السلام بين الحكومة وجبهة مورو في سبتمبر ١٩٧٧، وبذلك يصل عدد الضحايا المسلمين إلى تسعين ألف شهيد منذ اندلاع الحرب في جنوب الفلبين عام ١٩٦٨» إ هـ من تصريح لرئيس الجبهة. (٣) الأعراف: ٨٨.

إذ نجانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا، وسع ربُّنا كل شيء علماً، على الله توكلنا، ربَّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتُم شُعيباً إنكم إذاً لخاسرون، فأخذتهم الرَّجْفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾[١].

وهكذا يسير الأنبياء والرسل والدعاة إلى الله من أتباعهم يدعون الناس إلى تحكيم شرع الله، ويقيمون الحجج على ما يدعون إليه من الحق، فيقف الكفرة المعارضون يتوعدونهم بالإخراج من ديارهم، ويتهكمون بهم ويسخرون منهم ويستهزؤن بالقيم التي يدعون إليها: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾[٢].

فالجهاد الذي هو ضرورة لازمة لإعلاء كلمة الله وإنقاذ المستضعفين وقهر أعداء الله هو فرض عين اليوم وليس فرض كفاية، حتى تقوم به طائفة من المسلمين إزاء كل عدو، فتكفي لدحره وإذلاله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الظلم إلى العدل، عندئذ فقط يكون الجهاد فرض كفاية.

الفرع الثاني

ذكر الحالات التي يتعينً فيها الجهاد

ويتعين الجهاد عند العلماء في ثلاث حالات:

الحالة الأولى:

إذا هجم العدو على بلاد المسلمين والأعداء اليوم يهاجمون بلاد المسلمين في كل مكان.

---

(١) الأعراف: ٨٧ ـ ٩١.

(٢) الأعراف: ٨٠ ـ ٨٢.

الحالة الثانية:

إذا استنفر الإمام المسلمين ـ عندما يكون للمسلمين إمام ـ كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلَّا قليل، إلَّا تنفروا يُعذبْكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيء قدير﴾(١).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»(٢) قال الحافظ: (وفيه وجوب تعيين الخروج في الغزو على من عيَّنه الإمام)(٣).

وقال الكاساني: (فإذا عمَّ النفير لا يتحقق القيام به إلا بالكل، فبقي فرضاً على الكل عَيْناً بمنزلة الصوم والصلاة)(٤).

الحالة الثالثة:

أن يلتقي الصفّان: صفُّ المسلمين وصفُّ الكافرين للقتال، فإنه يحرم على المسلم الفرار في هذه الحالة، لأنه من تولية الكافر الأدبار الذي نهى الله عنه، وتوعد عليه بالغضب، وجعله من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زَحْفاً فلا تُولُّوهم الأدبار، ومن يُولِّهم يومئذ دبره إلا متحرِّفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنَّم وبئس المصير﴾(٥).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا يا رسول الله: وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم

---

(١) التوبة: ٣٨، ٣٩.
(٢) البخاري رقم الحديث ٢٨٢٥ فتح الباري (٦/ ٣٧) ومسلم (٣/ ١٤٨٧).
(٣) الفتح (٦/ ٣٩).
(٤) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠١).
(٥) الأنفال: ١٥، ١٦.

الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»(١). لكن في الآية الكريمة: ﴿إذا لقيتم الذين كفروا زَحْفاً﴾ استثناء حالتين، إذا فعلهما المجاهد المسلم لا تكونان محرّمتين عليه، وإن كان ظاهرها أنه ولّى عدوه ظهره. الحالة الأولى: التحرّف، وهو أن ينتقل المجاهد من موقع إلى آخر احتيالاً على العدو، وقد يدبر عنه يوهمه أنه هارب ثم يكرُّ عليه. والحالة الثانية: التحيّز إلى فئة، وذلك أن يعلم المجاهدون أن لا طاقة لهم بقتال العدو إما لكثرته أو قوة عدته، فينحازون إلى طائفة من جيش المسلمين لمناصرتهم سواء كانت هذه الطائفة قريبة أم بعيدة، فالتحيز بهذه النية ليس حراماً.

وهناك حالة ثالثة: ذكرت منفصلة في آية أخرى لا تكون أيضاً حراماً، وهي أن يكون العدو أكثر من ضعف المجاهدين المسلمين، كما قال سبحانه: ﴿يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾(٢).

وللعلماء في هاتين الآيتين رأيان:

الرأي الأول: أن آية الضعف هذه ناسخة للآية التي قبلها، فقد كان الواجب على المسلم أن يقف أمام عشرة من أعدائه ولا يجوز له الفرار ﴿إن يكن منكم عِشْرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ ثم خفف الله عن المسلمين فأجاز لهم أن يفرُّوا من العدو إذا زاد عن ضعفهم، فيقف العشرون أمام أربعين من العدو وجوباً، فإذا زاد عدد العدو عن أربعين فللمسلمين أن يفروا منهم كما هو ظاهر الآية الأخيرة، وبعضهم لا يرى في الآيتين نسخاً وإنما هو تخفيف للحكم.

والرأي الثاني: أن العدد غير مقصود لذاته، وأن المسلمين إذا وقفوا في الصف لقتال الكافرين فليس لهم حقّ في الفرار من الزحف مطلقاً، واستدلوا

(١) البخاري رقم الحديث (٢٧٦٦)، فتح الباري (٥/ ٣٩٣) ومسلم (١/ ٩٢).
(٢) الأنفال ٦٥، ٦٦

بنهي الله سبحانه عن أن يولِّي المسلمون أدبارهم عدوَّهم، وبحديث أبي هريرة الذي مضى قريباً وفيه عدَّ الرسول ﷺ التولِّي يوم الزحف من الموبقات.

قالوا: وآخر الآية التي أدّعي نسخها، وهو قوله تعالى: ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يدل على أن انتصار المؤمنين على الكافرين بسبب حسن قصدهم واعتمادهم على ربهم، لأنهم يقاتلون في سبيله راجين أن يرضوه تعالى بإعلاء كلمته ونَيْل الشهادة في سبيله، وهم بهذا الفقه يقدِّمون الموت على الحياة، وهو معهم، بخلاف أعدائهم الكفرة ـ مهما كثر عددهم ـ فليس عندهم فقه يجعلهم يثبتون في المعركة ثبات المؤمنين، والله تعالى في صف عباده المؤمنين، فكثرة الكافرين لا تنفعهم.

وقد أثبتت التجارب التاريخية انتصار العدد القليل من المؤمنين على العدد الكثير من عدوهم، وقد نص الله على ذلك في قوله: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[(١)].

ومن ذلك ما حصل في معركة بدر حيث كان عدد الكافرين ألفاً وعدد المسلمين ثلاثمائة، ينقص قليلاً أو يزيد قليلاً.

وكان عدد جيش المسلمين في مؤتة ثلاثة آلاف مقاتل، وكان عدد عدوهم من الروم وأنصارهم مائتي ألف.

وكان عدد جيش طارق بن زياد في الأندلس سبعمائة وألف مقاتل، وعدد جيش النصارى سبعين ألفاً[(٢)].

وحمل ابن حزم رحمه الله ـ كعادته على من ادّعى النسخ في الآية أو أنه يفهم منها جواز الفرار من العدو المذكور، كما هو الرأي الأول فقال: (وأما الآية فلا تَعلُّق لهم فيها، لأنه ليس لهم فيها لا نص ولا دليل بإباحة الفرار من العدد المذكور، وإنما فيها أن الله تعالى علم أن فينا ضَعْفاً، وهذا حقٌّ إن فينا لضعفاً، ولا قوي إلا وفيه ضعف بالإضافة إلى ما هو أقوى منه إلا الله تعالى وحده، فهو القوى الذي لا يضعف ولا يغلب. وفيها أن الله تعالى خفَّف عنا، فله الحمد

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣٨١).

ومازال تعالى ربنا رحيماً بنا يخفِّف عنا في جميع الأعمال التي ألزمنا. وفيه أنه إن كان منّا مائة صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منّا ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، وهذا حق، وليس فيه أن المائة لا تغلب أكثر من مائتين ولا أقل أصلاً، بل قد تغلب ثلثمائة، نعم وألفين وثلاثة آلاف، ولا أن الألف لا يغلبون إلا الألفين فقط، لا أكثر ولا أقل، ومن ادَّعى هذا في الآية فقد أبطل إذ ادّعى ما ليس فيها منه أثر ولا إشارة ولا نص ولا دليل، بل قد قال عز وجل: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[١] فظهر أن قولهم لا دليل عليه أصلاً.

ونسألهم عن فارس بطل شاكي السلاح قوي لقي ثلاثة من شيوخ اليهود الحربيين هَرْمى، مرضى، رجالة، عزلا أو على حمير أله أن يفر عنهم؟ لئن قالوا: نعم ليأتن بطامَّة يأباها الله والمؤمنون وكل ذي عقل، وإن قالوا: (لا، ليتركن قولهم)[٢].

قالوا: وإذا رأى المؤمنون أنهم لا طاقة لهم بقتال الكافرين لكثرتهم، أو كثرة عدّتهم، فإن الله قد جعل لهم مخرجاً بواحد من أمرين:

الأمر الأول: التحيّز إلى فئة، والأمر الثاني: التحرُّف للقتال، والتحرُّف هو الانتقال من مكان إلى آخر يمكنهم فيه الثبات، ولو وَلُّوا العدوَّ الأدبار في الظاهر، لأنهم إنما يفعلون ذلك ليتمكّنوا من الثبات والمصابرة والمغالبة، والتحيّز إلى فئة يشمل رجوع المجاهدين إلى إمام المسلمين لطلب النجدة فلا يبقى عذر للمسلم أن يفر من عدوه بدون نية أحد هذين الأمرين[٣].

وهذا الرأي قوي، وهو اللائق بعزّة المسلم واستبساله واعتماده على ربه سبحانه وتعالى، وقد يُشْكل عليه كون الآية التي فيها التخفيف جعل عدد العدو المغلوب مائتين، وعدد المسلمين مائة بنسبة واحد من المسلمين إلى اثنين من الكافرين، وهكذا ألف من المسلمين يقاتل ألفين من الكافرين، والآية التي قبلها جعل مائة تقابل ألفاً، ممّا حمل بعض المفسِّرين وعلى رأسهم ابن جرير رحمه

---

(١) البقرة: ٢٤٩.
(٢) المحلّى (٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).
(٣) راجع بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠) والمحلّى (٧/ ٢٩٢).

الله أن يقول بنسخ الآية الثانية للآية الأولى(١).

ولكن إذا حمل ذكر العدد على معنى أقصى ما يستطيع المسلمون مغالبة عدوِّهم عليه سواء كان عدداً أو عدة فلعل الإشكال يزول والله أعلم.

وحَمَل بعض العلماء الآية الأولى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين...﴾(٢) على حال قوة المسلمين، والآية التي تليها: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين...﴾(٣) على حال ضعفهم، فهنا حالتان: حالة قوة يثبت فيها الواحد من المسلمين لعشرة من الكفار وحالة ضعف يثبت فيها الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار فهو تخفيف وليس بنسخ(٤).

وحَمَل بعضهم الآية الأولى على الندب، والثانية على الوجوب(٥)، والذي يظهر رجحانه هو ما قرره أهل الرأي الثاني الذي قوّاه ابن حزم رحمه الله لقوة أدلته، وقد سبق إيراد الإشكال عليه والجواب عنه والله أعلم.

وقد لخَّص ابن قُدَامة مواضع تعيُّن الجهاد فقال: (ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع: أحدها إذا التقى الزحفان وتقابل الصفَّان حرم على من حضر الانصراف وتعين عليه المقام، لقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً﴾(٦) وقوله: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾(٧) وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زَحْفاً فلا تُولُّوهم الأدبار، ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾(٨) الثاني إذا نزل الكفار ببلد تعيَّن على أهله قتالهم ودفعهم. الثالث إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير معه لقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض﴾(٩) والآية التي بعدها، وقال النبي ﷺ: «إذا استنفرتم فانفِروا»(١٠).

---

(١) راجع جامع البيان عن آي القرآن (١٠/ ٤١).
(٢) الأنفال: ٦٥.
(٣) الأنفال: ٦٤.
(٤) روح المعاني (١٠/ ٣١) وفي ظلال القرآن (١٠/ ١٥٥٠).
(٥) تفسير المنار (١٠/ ٩٣).
(٦) الأنفال: ٤٥.
(٧) الأنفال: ٤٦.
(٨) الأنفال: ١٥، ١٦.
(٩) التوبة: ٣٨.
(١٠) البخاري ومسلم المغني (٩/ ١٩٧).

والخلاصة أن جنس الجهاد فرض عَيْن على جميع المسلمين، وأن الجهاد بمعنى قتال الكفار فرض كفاية، إن قامت به طائفة من المسلمين قياماً كافياً لكسر شوكة العدو وإعزاز الإسلام في الأرض، وإلا أثم الجميع حتى يقوم به من يكفي على الوجه المذكور. وأن الجهاد ضرورة لا قيام للإسلام في الأرض بدونه، حتى ليكاد يكون ركناً من أركانه، وما ضاعت الأمة الإسلامية وذلّت إلا بتركها الجهاد في سبيل الله.

قال أبو بكر أحمد بن علي الرازي المشهور بالجصّاص: «وليس بعد الإيمان بالله ورسوله فرض آكد ولا أولى بالإيجاب من الجهاد، وذلك أنه بالجهاد يمكن إظهار الإسلام وأداء الفرائض، وفي ترك الجهاد غلبة العدو ودُروس الدين وذهاب الإسلام؛ إلا أن فرضه على الكفاية كما بينًا»[١].

وانشغال المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، والتأخر عن إعداد العدة له جريمة بحق دينهم وخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ لا سيما في هذه الأزمنة التي أصبح الإسلام فيها محارباً على كل شبر من الأرض، فخسر بترك الجهاد في سبيل الله العالم كله بَلْه المسلمين الذين عليهم إثم تلك الخسارة.

وقد كان المسلمون الأوائل يتساءلون: أيهما أفضل الجهاد في سبيل الله أم تعلم العلم؟ ـ وتعلم العلم جزء من الجهاد ولكنه أريد الجهاد بمعناه الخاص ـ وهذا التساؤل إنما هو في حال قيام بعض الأمة الإسلامية بالجهاد قياماً كافياً، ولكن المسلم الآن يرى أعداء الإسلام قد هيأوا للشباب ميادين كثيرة لتبديد طاقاته وتلهيته، لا عن الجهاد بمعناه الخاص بل عن طاعة الله بعامَّة، أي عن فروض العين كلها.

فهذه الأعداد الهائلة من صفوف الرياضة ـ وحدها ـ في العالم الإسلامي لو ربيت على طاعة الله، وأُعدّت للجهاد في سبيله، وعُلِّمت غايتها في الحياة، لكان هذا الشباب الضائع الممسوخ الذي أصبح في عداد الحيوان يتسلًى بهم الفارغون، كما يتسلًى أهل أسبانيا بنطاح الثيران ـ لكان لهذا الشباب الذي هذه

(١) أحكام القرآن (٣/ ١١٥).

حاله شأن آخر، كما كان لشباب الإسلام في العصور الأولى إذ كانوا يتسابقون قبل سن البلوغ لخوض المعارك ضد الأعداء. لقد أراد أعداء الإسلام بصرف الشباب عن هذا المعنى إلى تلك الأهداف الحيوانية أن يلهوه عن معالي الأمور ومصالح الشعوب، التي لو علمها وانصرف لتحقيقها لحرم أعداء الله وتلاميذهم ما يتمتعون به من خيرات بلاد المسلمين، التي لا يحصلون عليها إلا بجهل أبناء المسلمين وإنحطاط أهدافهم وتفكيرهم.

وهنالك صفوف أخرى لا حصر لها تولّى أعداء الإسلام إعدادها لحمل جراثيم الفساد الخلقي التي تقتحم قلوب أبناء المسلمين فتميتها، وتحوِّلها من قلوب بشرية فطرية إلى قلوب حيوانات شهوانية لا تفكر إلا في البطن والفرج والزي، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ من قال الله فيهم: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾[١].

ومن أمثلة هذه الصفوف صفوف الغناء والرقص والموسيقى وسائر أنواع الملاهي التي لم يبقَ منزل في الأرض ولا مكان إلا وصل فسادها إلى أهله، إما مباشرة في المسارح والمراقص ومراكز الفتنة ونواديها، وإما عن طريق أجهزة الإعلام من مذياع وتلفاز وسينما وفيديو وصحف ومجلات حتى عم الأرض بلاؤها، وصدق قول الله فيها ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[٢] وقوله: ﴿إعلموا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتفاخر بينكم وتكاثُرٌ في الأموال والأولاد﴾[٣] الآية.

أين هذا الانحطاط ـ الذي لم يشهد تاريخ المسلمين مثله ـ من طموح السلف الصالح الذين كانوا يوازنون بين الأعمال عندما يكون لهم الخيار في فعل أي منها أيُّها أفضل ليتسابقوا إليه، ويقدِّموه على غيره طاعة لله سبحانه وتعالى. اقرأ هذه القصة التي حصلت في عهد النبوة:

(عن النعمان بن بشير الأنصاري، قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن

(١) محمد: ١٢.
(٢) آل عمران: ١٨٥.
(٣) الحديد: ٢٠.

أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، قال: ففعل، فأنزل الله عزل وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟! لا يستوون عند الله، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[١].

ويتساءل علماء الإسلام: أي العملين أفضل: تعلُّم العلم، أم الجهاد في سبيل الله؟ ويجيبون :(فإن قيل تعلُّم العلم أفضل أم جهاد المشركين؟ قيل له: إذا خيف معرّة العدو وإقدامهم على المسلمين، ولم يكن بإزائه من يدفعه، فقد تعيَّن فرض الجهاد على كل أحد، فالاشتغال في هذه الحال بالجهاد أفضل من تعلم العلم، لأن ضرر العدو إذا وقع بالمسلمين لم يمكن تلافيه، وتعلُّم العلم ممكن في سائر الأحوال، ولأن تعلُّم العلم فرض على الكفاية، لا على أحد في خاصة نفسه، ومتى لم يكن بإزاء العدو من يدفعه عن المسلمين فقد تعيَّن فرض الجهاد على كل واحد. وما كان فرضاً معيناً على الإنسان غير موسَّع عليه في التأخير فهو أولى من الفرض الذي قام به غيره، وسقط عنه بعينه، وذلك مِثْل الاشتغال بصلاة الظهر في آخر وقتها هو أولى من تعلم علم الدين في تلك الحال، فإن قام بفرض الجهاد من فيه كفاية وغِنىً فقد عاد فرض الجهاد إلى حكم الكفاية)[٢].

وما دامت موازين حياة المسلمين بعيدة كل البعد عن موازين حياة السلف الصالح فإن حكم الجهاد في سبيل الله - وغيره من أحكام الإسلام - ستبقى ليست ذات بال في نفوسهم، بل إن نفوسهم لا تزال نافرة من أحكام الإسلام ولا سيما الجهاد في سبيل الله الذي يقتضي الجدَّ في الأمور وهجر الراحة والترف والاسترخاء والتثاقل إلى الأرض، تلك النفوس ألفت اللهو والخلود إلى الأرض والهزل في الحياة.

---

(١) التوبة ١٩، والقصة في صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٩)، وذكرها ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٤٢).
(٢) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١١٩).

هذه فريضة الجهاد في سبيل الله، وهذه حال المسلمين اليوم، فالإثم عام شامل حتى يقوم علم الجهاد قياماً كافياً.

الفرع الثالث
الأعذار التي تبيح التخلُّف عن مباشرة الجهاد

لم يكلِّف الله تعالى الناس هذا الدين لإنزال الحرج بهم، أو تحميلهم مالا يطيقون من الأعمال، بل كلَّفهم سبحانه هذا الدين لإتمام نعمته عليهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهِّرَكم، وليتمَ نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[(٢)].

وقد مضى أن الجهاد معناه بذل الجهد والطاقة والوسع، فما لم يكن داخلاً في جهد الإنسان وطاقته ووسعه لا يكلفه الله إياه، وقد نفى الله عن المؤمنين الحرج في سياق أمرهم بالجهاد بمعناه الشامل الذي يتضمن كل أنواعه، كما قال تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[(٣)].

وكل نوعٍ من أنواع الجهاد في سبيل الله فيه حرج على الفرد أو الأمة فإن تكليفهم إياه مُنْتَفٍ.

وقال تعالى: ﴿لا نكلِّف نفساً إلا وسْعْها﴾[(٤)].
وقال تعالى: ﴿لا تُكلفُ نفس إلا وُسْعَها﴾[(٥)].
وقال تعالى: ﴿لا يُكلِّف الله نفساً إلا وُسْعَها﴾[(٦)].

---

(١) المائدة: ٦.
(٢) البقرة: ٢٥٧.
(٣) الحج: ٧٨.
(٤) الأنعام: ١٥٢.
(٥) البقرة: ٢٣٣.
(٦) البقرة: ٢٨٦.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله على كل شيء قدير﴾(١)، قال فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الرُّكَب، فقالوا: أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابَيْن من قبلكم: سمعنا وعصينا،(٢) بل قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانَك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في أثرها: آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا: ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾(٣).

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى: فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يُكلِّف الله نفساً إلا وسُعْها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: نعم ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: نعم: ﴿ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ قال نعم ﴿واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾(٤) قال: نعم(٥).

والقائل نعم هو الله تعالى، ومعناه: استجبت دعاءكم، فلا تؤاخذون بما نسيتم أو اخطأتم، ولا أحمل عليكم إصْراً، ولا أحمِّلكم مالا طاقة لكم به، وسأغفر لكم، وارحمكم، وانصركم على القوم الكافرين.

وفي رواية ابن عباس: (قال: قد فعلت)(٦) مكان (قال نعم) التي في رواية أبي هريرة.

---

(١) البقرة: ٢٨٤.
(٢) البقرة: «قالوا سمعنا وعصينا» ٩٣، والنساء: «ويقولون سمعنا وعصينا» ٤٦.
(٣) البقرة: ٢٨٥.
(٤) البقرة ٢٨٦.
(٥) مسلم (١/ ١١٦).
(٦) مسلم (١/ ١١٧) وأنظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٨).

بل إن الله تعالى نهى عباده أن يأتوا من الأعمال ما يشقُّ عليهم، نهاهم على لسان رسوله ﷺ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إياكم والوصال» قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: «إنكم لستم في ذلك مثلي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون»[1].

قال ابن تيمية رحمه الله: (الأمر والنهي الذي يسميه العلماء (التكليف الشرعي) هو مشروط بالممكن من العلم والقدرة، فلا تجب الشريعة على من لا يمكنه العلم كالمجنون والطفل، ولا تجب على من يعجز كالأعمى والأعرج والمريض في الجهاد، وكما لا تجب الطهارة بالماء والصلاة قائماً والصوم وغير ذلك على من يعجز عنه)[2].

وهذا المعنى واضح في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وسبق أن الجهاد فرض كفاية، وقد يكون فرض عين في بعض الأحوال.

وهنالك أعذار قد تُسقط عن صاحبها وجوب مباشرة الجهاد سواء كان النفير عاماً أم لا، وأعذار أخرى تسقطه إذا لم يكن فرض عَيْنٍ وهذه الأعذار هي:

الجنون، والصبا، والأنوثة، والرق، والضعف، والمرض، وعدم سلامة بعض الأعضاء، كالعمى والعرج الشديد، وعدم إذن الأبوين أو أحدهما، والدَّين الذي لم يأذن دائنه، وعدم الراحلة والمال أو أحدهما، وقبل الكلام على هذه الأعذار لا بدَّ من بيان سبب كون الكفر مانعاً من الجهاد في سبيل الله.

أما الكفر فليس عذراً، وإنما هو مانع من صحة أداء أي عبادة لأنه لا يصح معه أي عمل، كما قال سبحانه في أعمال الكفّار: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هَباءً مَنْثوراً﴾[3] وهذا يشمل جميع الأعمال التي يؤديها الكافر ظاناً أنها تنفعه، ولو كانت من أعمال البر كالصدقة وبر الوالدين وغيرها، لأن الإيمان أساس لقبول الأعمال، ولذلك قيَّد الله دخول من عمل صالحاً الجنة

---

(١) البخاري، رقم الحديث ١٩٦٦، فتح الباري (٤/ ٢٠٦) ومسلم (٢/ ٧٧٤).

(٢) مجموع الفتاوي (١٠/ ٣٤٤). (٣) الفرقان: ٢٣.

بكونه مؤمناً، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾[١] وقال: ﴿من عمل صالحاً من ذكراً أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[٢].

والجهاد من أعظم الأعمال الصالحة التي لا تصح من كافر، وهو ملازم لهذا القيد (في سبيل الله) الذي لا ينطبق على عمل الكافر.

وقد سئل الرسول ﷺ عن الأعمال التي ظاهرها الصلاح وهي صادرة من كافر تنفعه أم لا؟ فأجاب أنها لا تنفعه بسبب كفره، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرَّحِم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه. إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[٣] أي لم يؤمن.

ومَنْعُ الرسول ﷺ الرجل المشرك الذي تردد عليه مرتين يستأذنه في أن يقاتل معه ليصيب من المغنم وهو على شركه، ثم إذنه له بعد أن أسلم دليل واضح على ذلك، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قِبَل بدر، فلما كان بحرة الوبَرة أدركه رجل قد كان يُذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله»؟ قال: لا. قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قالت ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ كما قال له أول مرة، قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قال ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له: كما قال أول مرة، «تؤمن بالله ورسوله» قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: «فانطلق»[٤].

وقد اختلف العلماء في التوفيق بين هذا الحديث وبين غيره من الأحاديث التي حصلت فيها الاستعانة بمشركين، قال النووي رحمه الله: (وقد جاء الحديث

(١) النساء ١٢٤.
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) مسلم (١/ ١٩٦).
(٤) مسلم (٣/ ١٤٤٩).

الآخر أن النبي ﷺ استعان بصفوان بن أمية قبل إسلامه، فأخذ طائفة من العلماء بالحديث الأول ـ أي حديث عائشة ـ على إطلاقه، وقال الشافعي وآخرون: إن كان الكافر حسن الرأي، ودعت الحاجة إلى الاستعانة به أستعين به؛ وإلا فيكره، وحمل الحديثين على هذين الحالين)(١).

وهناك أوجه أخرى. والذي يظهر أن الأصل عدم الاستعانة بالمشرك إلا في حالات نادرة يُعلم من حاله فيها أو تدل القرائن على صدقه وعدم خيانته، وتكون الحاجة إليه شديدة لعدم وجود من يقوم مقامه (وإن في الاستعانة به مصلحة للمسلمين، كما استعان الرسول ﷺ بعبدالله بن أريقط، إذ كان دليله في الهجرة إلى المدينة، وكما استعان بصفوان بن أمية في غزوة حنين)(٢).

قال ابن قُدَامة: (ويشترط لوجوب الجهاد سبعة شروط: الإسلام.. وقال: ولأن الكافر غير مأمون في الجهاد...)(٣).

وهل يمنع فجور المسلم من الاستعانة به.

أما الاستعانة بالرجل الفاجر الذي يظهر الإسلام، فقد دلَّت السنَّة على جوازها ووقوعها في عهد رسول الله ﷺ، كما في حديث أبي هريرة الذي ترجم له البخاري بقوله: (باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر) ونص الحديث: شهدنا مع رسول الله ﷺ، فقال لرجل ممَّن يدَّعي الإسلام: «هذا من أهل النار»، فلما حضر القتال قاتل الرجال قتالاً شديداً فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلت إنه من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات، فقال النبي ﷺ: «إلى النار» قال فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك، إذ قيل إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديداً، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأُخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى في الناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(٤).

---

(١) شرح النووي على صحيح (١٢/ ١٩٨) وما بعدها.
(٢) فتح الباري (٦/ ١٢٩) وسيرة ابن هشام (١/ ٤٩١، ٢/ ٤٤٠).
(٣) المغنى (٣/ ١٩٧)، وكذا (٩/ ٢٥٦).
(٤) البخاري، رقم الحديث ٣٠٦٢، فتح الباري (٦/ ١٧٩)، مسلم (١/ ١٠٥).

وقال ابن تيمية رحمه الله: (ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة الغزو مع كل بَرٍّ وفاجر، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم كما أخبر بذلك النبي ﷺ، لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجّار أو مع عسكر كثير الفجور فإنه لا بد من أحد أمرين: إما ترك الغزو معهم فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضرراً في الدين والدنيا، وإما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دَفْع الأفجَرَين وإقامة أكثر شرائع الإسلام وإن لم يُتمكن إقامة جميعها، فهذا هو الواجب في هذه الصورة وكل ما أشبهها، بل كثير من الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين لم يقع إلا على هذا الوجه)[١].

وذكر بعض الكتاب المعاصرين الإجماع على جواز الاستعانة بالمنـافق والفاسق، لخروج المنافقين مع رسول الله ﷺ للقتال[٢].

الجنون

المجنون ليس أهلاً للتكليف، لأن من شرطه القدرة على العلم بما كُلِّفه على أدائه، والخطاب إنما يوجه إلى العاقل، فالمجنون معذور في أصول الإسلام وفروعه، والقلم مرفوع عنه.

قال الآمدي رحمه الله: (اتفق العقلاء على أن شرط المكلَّف أن يكون عاقلاً فاهماً للتكليف، لأن التكليف خطاب، وخطاب من لا عقل له ولا فهم محال، كالجماد والبهيمة)[٣].

وقال صدر الشريعة الحنفي: (باب المحكوم عليه، وهو المكلَّف، ولا بدَّ من أهليته للحكم، وهي لا تثبت إلا بالعقل...)[٤].

---

(١) مجموع الفتاوي (٢٨/ ٥٠٦).
(٢) كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية (ص ٢٢٦ وما بعدها).
(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٣٨).
(٤) شرح التوضيح على التنقيح (٣/ ١٤٣).

الصبا

والصبي أيضاً غير مكلَّف بجميع العبادات، وإن كان يُمَرنَّ على بعضها، كالصلاة بعد أن يميِّز، قال في الهداية: (ولا يجب الجهاد على صبي)[١].

وقال الكاساني: (ولا جهاد على الصبي)[٢].

قال النووي: (ولا جهاد على صبي ومجنون)[٣].

وفي المهذب: (ولا يجب على الصبي والمجنون)[٤].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر» وفي حديث ابن عباس عن علي: (عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل)[٥].

الأنوثة

والمرأة معذورة أيضاً فلا يجب عليها الجهاد لضعفها، قال الكاساني: (ولا جهاد على الصبي والمرأة [٦].

وقال النووي: (ولا جهاد على صبي ومجنون وامرأة)[٧].

وذكر ابن قدامة من شروط وجوب الجهاد الذكوريّة[٨].

وقد دلت السنة على أن المرأة لا جهاد عليها، فقد استأذنت احداهن منه ﷺ في الجهاد فقالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد، فقال ﷺ: «لَكُن أفضل الجهاد حج مبرور»[٩].

---

(١) فتح القدير لابن الهمام الحنفي (٥/ ٤٤٢).

(٢) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠١).

(٣) حواشي تحفة المحتاج (٩/ ٢٣١).

(٤) تكملة المجموع (١٨/ ٥٢).

(٥) الحديثان في سنن أبي داود (٤/ ٥٥٨)، راجع التمهيد لابن عبد البر (١/ ١٠٧ ـ ١١٠) ورمز لهما السيوطي في الجامع الصغير بالصِّحة، وقال المناوي: وقال الحاكم على شرطهما (٤/ ٣٥) وأوردهما الألباني في صحيح الجامع الصغير مصحِّحاً لهما (٣/ ١٧٩).

(٦) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠١).

(٧) حواشي التحفة (٩/ ٢٣١).

(٨) المغنى (٩/ ١٩٧).

(٩) البخاري رقم الحديث ٢٧٨٤، فتح الباري (٦/ ٤).

والمعروف في سيرة الرسول ﷺ ومن عمل أصحابه من بعده أنهم كانوا يخرجون معهم بعض نسائهم في المعارك، وكن يُشاركن في مداواة الجرحى وسقيهم وخدمتهم، وقد تشترك بعضهن في الدفاع عن نفسها أو عن غيرها ـ وهذا قليل ـ ولم يقف الباحث على نص يدل على استنفارهنَّ مثل الرجال، وسورة التوبة التي كان النفير فيها عاماً أنصب اللَّوم فيها على المتأخرين من الرجال، ولو كُنَّ داخلات في النفير العام لوجب على كل قادرة أن تخرج مع الرسول ﷺ: الزوجة مع زوجها، والبنت مع أبيها، والأخت مع أخيها، وهكذا.. بل قد ورد في السنة في هذه الغزوة نفسها ما يدل بوضوح أن الأصل في النساء عدم الاستنفار كما في حديث سعد بن أبي وقاص قال: (خلَّف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان، فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»[١].

هذا هو الظاهر للباحث من الواقع التاريخي في عصر النبوة والخلافة، ولكن العلماء رحمهم الله نَصُّوا على أن المرأة تدخل في النفير العام مستدلِّين بآية النفير وفيها: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً...﴾[٢] قال الكاساني: (فأما إذا عمَّ النفير بأن هجم العدو على بلد، فهو ـ أي الجهاد ـ فرض عيني، يفترض على كل واحد من آحاد المسلمين ممن هو قادر عليه لقوله سبحانه وتعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فيخرج العبد بغير إذن مولاه، والمرأة بغير إذن زوجها، وكذا يباح للولد أن يخرج بغير إذن والديه...﴾[٣].

ولكن العدو هجم على المسلمين في غزوة أحد وفي غزوة الأحزاب ولم يعلم أن النساء خرجنَ كلّهن مع الرجال، بل النصوص تدل على أنه لم يخرج إلا عدد قليل منهن، ففي أحد ذكر منهن: عائشة وأم سُلَيم وفاطمة رضي الله عنهن وكذا أم سليط، وإن وردت أحاديث تدل على مطلق المشاركة مع الرجال في بعض الأعمال[٤]، وقصة صفية بنت عبد المطلب وحسان تدل أن النساء كُنَّ

(١) البخاري، رقم الحديث ٤٤١٦، فتح الباري (٧/ ٧١)، (٨/ ١١٢)، ومسلم (٤/ ١٧٨٠).
(٢) التوبة: ٤١.
(٣) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠١).
(٤) راجع فتح الباري (٦/ ٧٥ ـ ٨١).

في الحصون[١] وقول الكاساني: (بأن هجم العدو على بلد) هذا مثال للنفير العام وليس قاصراً عليه.

والذي يظهر أن المرأة إذا لم تعينَّ للخروج، أو لم يُنص على النساء في النفير العام أنه يجب عليها الخروج، وإذا هجم العدو على البلد وهي في بيتها فإن عليها المشاركة في الدفاع عن نفسها وعن غيرها إذا قدرت.

وقد قال كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ يوم أحد لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم)[٢] وقد كان الرسول ﷺ رأى ما رآه ابن أبيّ من عدم الخروج.

فقوله: (وإن دخلوا قاتلهم الرجاء ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم) يظهر منه أنهن يشاركن في هذه الحالة غير أن مشاركتهن محدودة، ليست مواجهة مع الأعداء مثل مواجهة الرجال هذا هو الأصل، فإذا وجدت امرأة جريئة قوية أحسَّت بقوة على القتال عند الضرورة فلا تمنع من ذلك، كما فعلت نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد من الذب عن رسول الله ﷺ بالسيف والرمي بالقوس حتى خَلُصت إليها الجراح)[٣].

وفي مصنَّف عبد الرزاق الصنعاني: (عن معمر، عن إبراهيم وسئل عن جهاد النساء فقال: كُنّ يشهدن مع رسول الله ﷺ فيداوين الجرحى، ويسقين المقاتلة، ولم أسمع معه بامرأة قُتلت، وقد قاتلن نساء قريش يوم اليرموك حين رهقهم جموع الروم حتى خالطوا عسكر المسلمين، فضرب النساء يومئذ بالسيوف في خلافة عمر رضي الله عنه)[٤].

وقد يُفهم من كلام المفسِّرين لآية النفير دخولهنَّ فيه وإن لم يُنصَّ عليهن،

---

(١) راجع سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٣).
(٣) نفس المصدر (٢/ ١٨).
(٤) المصنف (٥/ ٢٩٠٨).

ففي تفسير ابن جرير الطبري رحمه الله: (قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين بالنفر لجهاد أعدائه في سبيله خفافاً وثقالاً، وقد يدخل في الخفاف كل شيء كان سهلاً عليه النفر لقوة بدنه على ذلك وصحة جسمه وشبابه، ومن كان ذا تيسير بمال وفراغ من الاشتغال وقادراً على الظَّهر والركاب، ويدخل في الثقال كل من كان بخلاف ذلك من ضعيف الجسم وعليله وسقيمه، ومن معسر من المال ومشتغل بضَيْعة ومعاش، ومن كان لا ظهر له ولا ركاب، والشيخ ذو السن والعيال، فإذا كان قد يدخل في الخفاف والثقال من وَصَفْنا من أهل الصفات التي ذكرنا، ولم يكن الله جل ثناؤه خصَّ من ذلك صنفاً دون صنف في الكتاب ولا على لسان الرسول ﷺ، ولا نصب على خصوصه دليلاً، وجب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر المؤمنين من أصحاب رسوله بالنفر للجهاد في سبيله خفافاً وثقالاً مع رسوله ﷺ على كل حال من أحوال الخفة والثقل)(١).

ونص الفقهاء على شمول النفير العام للمرأة، كما قال الكاساني: (فإذا عم النفير لا يتحقق القيام به إلا بالكل، فبقي فرضاً على الكل عيناً بمنزلة الصوم والصلاة، فيخرج العبد بغير إذن مولاه والمرأة بغير إذن زوجها)(٢).

وعلى كلٍ فإن الضرورة تقدَّر بقدرها، فإذا دعت الضرورة إلى مشاركة المرأة في المعركة وجب أن تشارك بما تقدر عليه، وإن كان في النفس شيء من دخولها في النفير العام، لما ذكر من الوقائع في عهد الرسول ﷺ والله أعلم(٣).

عدم إذن الوالدين أو أحدهما

ومن الأعذار الشرعية التي تبيح للرجل التأخر عن الجهاد أن يكون له والدان أو أحدهما ولم يأذنا له بالخروج، لأنه وإن كان قادراً في نفسه إلا أنه غير قادر شرعاً، إذ يجب عليه أن يرعى والديه أو أحدهما، ولا يجوز له الخروج إلا بإذنهما، ففي حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/ ١٤٠). (٢) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠١).
(٣) راجع المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية ١٠٦، ٢١٩ وما بعدها.

النبي ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، ففال: «احيٌّ والداك»؟ قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»[١]، سمّى رسول الله ﷺ القيام بمصالح الوالدين جهاداً، ولم يأذن لابنهما في تركهما لحضور القتال، فلو حضر القتال وتركهما كان عاصياً للرسول ﷺ، فهو إذن غير قادر على الخروج شرعاً، ويحتمل أن الرسول ﷺ لم يأذن له لأن الجهاد لم يكن فرض عَيْن ـ أي ليس النفير عاماً ـ فهو تطوع في حقه بخلاف قيامه بحق والديه فإنه واجب، ويحتمل أنه خشى ضياعهما فلم يأذن له وإن كان الجهاد فرض عين.

وهذا الحديث من النصوص الدالّة على أن الجهاد في الشرع أعمُّ من قتال الكفار لتسمية بر الوالدين جهاداً ويظهر من أقوال العلماء أن الجهاد إذا كان فرض عين فإنه يجب على الولد أن يخرج للجهاد، أذن له الوالدان أم لم يأذنا، وقد استدل ابن حجر على هذا بالحديث الذي أخرجه ابن حبان عن عبد الله بن عمرو من طريق أخرى قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن أفضل الأعمال، قال: «الصلاة» قال: ثم مَهْ؟ قال: «الجهاد» قال: فإن لي والدين، فقال: «آمرك بوالديك خيراً» فقال: والذي بعثك بالحق نبياً لأجاهدن ولأتركنهما، قال: «أنت أعلم» قال الحافظ ـ بعد ذكره ـ وهو محمول على جهاد فرض العين توفيقاً بين الحديثين[٣].

قال الكاساني: (وكذا الولد لا يخرج إلا بإذن والديه أو أحدهما إذا كان الآخر ميتاً، لأن بر الوالدين فرض عين، فكان مقدّماً على فرض الكفاية. . . إلى أن قال: هذا إذا لم يكن النفير عاماً، فأما إذا عم النفير بأن هجم العدو على بلد فهو فرض عيني يفترض على كل واحد من آحاد المسلمين)[٣].

ويرى ابن حزم رحمه الله أنه لا يجوز للولد أن يخرج للجهاد، ولو كان فرض عين إذا كان في ذلك ضياع والديه أو أحدهما، تعارض واجبان قُدِّم حق

(١) البخاري، رقم الحديث ٣٠٠٤، فتح الباري (٦/ ١٤٠) ومسلم (٤/ ١٩٧٥).
(٢) فتح الباري (٦/ ١٤٠).
(٣) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠٠) راجع أيضاً المجموع (١٨/ ٥٧) وحاشية الدسوقي (٢/ ٧٥)، وروضة الطالبين(١٠/ ٢١١).

الوالدين، قال: (ولا يجوز الجهاد إلا بإذن الأبوين إلا أن ينزل العدو بقوم من المسلمين، ففرض على كل من يمكنه إعانتهم أن يقصدهم مغيثاً لهم أذن الأبوان أم لم يأذنا، إلا أن يُضَيَّعا أو أحدهما، فلا يحل له ترك من يُضَيَّع منهما)[١].

والذي يظهر أن خروج الولد للجهاد المفروض عيناً هو الراجح، لأن مصلحته عامة راجحة إذ تشمل المسلمين كلهم، ولو رُجِّح جانب حق الوالدين الذين يُخشى ضياعهما لكان ذلك سبباً في تأخر كثير من المسلمين الذين لهم آباء بهذه الحالة، ووجود الفرد المجاهد في صف قتال المدافعين عن البلد أشد ضرورة من بقائه عند والديه.

قال ابن قدامة: (إذا وجب عليه الجهاد لم يعتبر إذن والديه، لأنه صار فرض عين، وتركه معصية، ولا طاعة لأحدٍ في معصية الله)[٢].

الرق

العبد المملوك مأمور بطاعة سيده ولا يجوز له أن يعصيه، وطاعة العبد سيده شبيهة بطاعة الولد أبويه أو أحدهما، وقد أثبت الرسول ﷺ للمملوك الذي يجمع بين طاعة ربه وطاعة سيده أجرَين كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «للملوك الذي يُحسن عبادة ربه، ويؤدّي إلى سيده الذي له عليه من الحق والنصيحة والطاعة أجران»[٣].

وقد حفز هذا الأجر أبا هريرة رضي الله عنه إلى التطلُّع إليه حتى كان يوُّد أن يكون عبداً لولا أن ذلك يحول بينه وبين حريته الكاملة في أداء طاعة الله، وطاعة أمه، كما قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبد المملوك الصالح أجران. والذي نفسي بيده، لولا الجهاد في سبيل الله والحجُّ وبرُّ أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك»[٤].

---

(١) المحلى (٧/ ٢٩٢). (٢) المغني (٩/ ٢٠٩).
(٣) البخاري، رقم الحديث ٢٥٥١، فتح الباري (٥/ ١٧٧).
(٤) البخاري رقم ٢٥٤٨ فتح الباري (٥/ ١٧٥) ومسلم (٣/ ١٢٨٤).

وقوله: «والذي نفسي بيده..» إلخ هذا من كلام أبي هريرة كما بيَّنه الحافظ في الفتح[1].

وفي كلامه هذا دليل على أن العبد لا يحق له أن يجاهد إلا بإذن سيده قال الحافظ: (وإنما استثنى أبو هريرة هذه الأشياء لأن الجهاد والحج يشترط فيهما إذن السيد)[2].

ولو لم يكن إذن السيد لعبده في حضور الجهاد واجباً لما قال أبو هريرة ذلك ما دام الرقُّ لا يمنعه من الجهاد متى شاء.

وممَّا يستدل به على استئذان العبد سيده حديث عمير مولى آبي اللحم قال: (شهدت خيبر مع سادتي، فكلَّموا فيَّ رسول الله ﷺ، فأمر بي فقُلِّدت سيفاً، فإذا أنا أجره، فأخبر أني مملوك، فأمر لي بشيء من خرثى المتاع)[3].

الدين

والمدين الذي ليس عنده ما يتركه لقضاء دينه الحالِّ ليس له أن يخرج إلى الجهاد في سبيل الله، بل عليه أن يبقى ليعمل ويقضي دينه؛ إلا أن يأذن له صاحب الدين، لأن خطايا المجاهد الذي يقتل في سبيل الله تُكفَّر ما عدا الدين، كما في حديث قتادة عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت في سبيل الله أتكفَّر عنِّي خطاياي، فقال رسول الله ﷺ: «نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر» ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفَّر عني خطاياي،

---

(١) فتح الباري (٥/ ١٧٠٦) نفس الكتاب والجزء والصفحة.

(٢) نفس الكتاب والجزء والصفحة.

(٣) أبو داود (٣/ ١٧١)، قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ١٩): والخرثي أثاث البيت ومتاعه» ومن حديث عمير... «فأمر لي بشيء من خرثى المتاع». قال المحشي على السنن: (وأخرجه الترمذي... والحاكم (٢/ ١٣١) وصحَّحه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وراجع فتح القدير (٥/ ٤٤٢) وحاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٥) وحواشي تحفة المحتاج (٩/ ٢٣١) والمغني لابن قُدامة (٩/ ١٩٧).

فقال رسول الله ﷺ: «نعم وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدَّيْن، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك»(٢).

أما إذا كان عنده ما يتركه لقضاء دينه فلا يدخل في ذوي الأعذار الذين يجوز لهم التخلُّف أو يجب عليهم، ومما يدل على ذلك ما ورد عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أنه كان يقف حين ينتهي إلى الدرب وفي ممر الناس إلى الجهاد، فينادي نداءً يُسمع الناس: أيها الناس، من كان عليه دَيْن ويظن أنه إن أُصيب في وجهه هذا لم يَدَعْ له قضاءً، ولا يتعنَّ فإنه لا يعود كفافاً)(٣).

ومثل الدين في عدم التكفير جميع حقوق الآدميِّين، فإن الجهاد وغيره من الطاعات لا تكفِّرها وإنما تُكفِّر حقوق الله تعالى(٤).

هذا ولا يلزم، من عدم تكفير الجهاد في سبيل الله الدين أنه لا يُكتَب للمجاهد المدين أجر جهاده وشهادته، فذاك شيء وهذا شيء آخر كما قال الشوكاني رحمه الله: (وغاية ما اشتملت عليه أحاديث الباب هو أن الشهيد يُغفر له جميع ذنوبه إلا ذنب الدَّيْن، وذلك لا يستلزم عدم جواز الخروج إلى الجهاد إلا بإذن من له الدَّيْن، بل إن أحب المجاهد أن يكون جهاده سبباً لمغفرة كل ذنب استأذن صاحب الدَّين في الخروج، وإن رضي بأن يبقى عليه ذنب واحد منها جاز له الخروج بدون استئذان)(٥).

نعم ما قاله الشوكاني من أن ذنوبه كلها تُكفَّر إلا ذنب الدين ـ وما في حكمه من حقوق الآدميِّين ـ واضح في نص الحديث. أما استئذان المدين من دائنه فالظاهر أنه واجب عليه، فإذا لم يأذن له وكان الدين حالاً عليه غير مؤجل فالذي يظهر أنه لا يجوز له الخروج حتى يقضي دينه، فإذا خرج وجاهد صح

(١) مسلم (٣/ ١٥٠١).
(٢) مسلم (٣/ ١٥٠٢).
(٣) جامع الأصول (٢/ ٥٨٠) تحقيق الارناؤوط.
(٤) راجع شر النووى على ملم (١٣/ ٢٩).
(٥) نيل الأوطار (٧/ ٢٥١) وراجع تكملة المجموع (١٨/ ٥٦ وما بعدها) وحاشية بن عابدين (٤/ ١٢٦) وحواشي تحفة المحتاج (٩/ ٢٣٢)، وروضة الطالبين (١٠/ ٢١٠).

جهاده وارتكب إثم خروجه بدون إذن دائنه، لكن هذا الإثم لا يمنعه من أن ينال أجر جهاده وشهادته ومغفرة ذنوبه غير ذنب الدَّيْن، فقول الشوكاني: جاز له الخروج بدون إذن غَفْلَةٌ عن الوعيد الذي يحمله قول الرسول ﷺ: «إلا الدَّين» ولو قال صحَّ جهاده بدون استئذان لكان أقرب. والله أعلم.

الضعف البدني، والعجز المالي

ممَّا عذر الله سبحانه وتعالى به عبده المؤمن عن الخروج للجهاد في سبيل الله فَقْدُه القدرة على ذلك بسبب ضعف في بدنه: من مرض، وعمىً، وعرج وشلل، وقطع يد أو رجل، وشيخوخة، ونحوها ممَّا لا يقدر معه على مباشرة الجهاد.

وكذلك الفقر الذي لا يتمكن معه على الإنفاق على نفسه ذهاباً وإياباً وأثناء المعركة، ولا شراء ركوب وسلاح أو النفقة على العيال، فإن ذلك عذر له في تخلُّفه عن الجهاد. ويشترط في ذلك كلِّه ـ أي في كون الضعف البدني والعجز المالي عذراً لا يُؤاخذ المتخلِّف بسببه عن الجهاد في سبيل الله ـ أن يكون المتخلِّف ناصحاً لله ولرسوله وللمؤمنين، نادماً أشد الندم على تخلُّفه، عازماً كلَّ العزم على الخروج لو زال عذره، طالباً من الله تعالى نصر إخوانه المجاهدين وهزيمة أعدائهم من الكفرة والمشركين. فإن لم يكن كذلك، بأن كان مسروراً بعدم خروجه للجهاد، متَّخذاً عذره الظاهر ذريعة لذلك، مُرْجِفاً وراء المجاهدين، غير مبال بنصر المؤمنين، أو يتمنَّى أن ينتصر أعداء الله عليهم، فإنه لا يكون معذوراً لا بضعف بدني ولا بعجز مالي.

قال تعالى: ﴿ليس على الضُّعَفاء، ولا على المرضَى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ إذا نَصَحوا لله ورسولِهِ، ما على المحسنينَ مِنْ سبيل والله غفورٌ رحيمَ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلتَ: لا أجدُ ما أحملكم عليه؛ تولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألَّا يجدوا ما ينفقون﴾[1].

---

(١) التوبة: ٩١، ٩٢.

قال ابن كثير رحمه الله: (ثم بيَّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقر لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَجٌ إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يثبِّطوهم)[١].

وقال الكاساني: (وأما بيان من يُفترض عليه فنقول: إنه لا يفترض إلا على القادر عليه، فمن لا قدرة له لا جهاد عليه، لأن الجهاد بذل الجهد وهو الوسع والطاقة بالقتال أو المبالغة في عمل القتال، ومن لا وسع له كيف يبذل الوسع والعمل؟! فلا يفترض على: الأعمى، والأعرج، والزَّمِن، والمقعد، والشيخ الهرم، والمريض، والضعيف، والذي لا يجد ما ينفق. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج[٢]﴾ الآية. وقال سبحانه: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ إذا نصحوا لله ورسوله﴾[٣] فقد عذر الله جل شأنه هؤلاء بالتخلُّف عن الجهاد ورفع الحرج عنهم)[٤].

وقال في المهذَّب: (ولا يجب على الأعمى لقوله عز وجل: ﴿ليس على الأعمى حَرَج، ولا على الأعرج حَرَج، ولا على المريض حَرَج﴾[٥] ولا يختلف أهل التفسير أنها في سورة الفتح أنزلت في الجهاد، ولأنه لا يصلح للقتال فلم يجب عليه. ولا يجب على الأعرج الذي يعجز عن الركوب والمشي، لأنه لا يقدر على القتال، ولا يجب على الأقطع والأشلّ لأنه يحتاج في القتال إلى يدٍ يضرب بها ويدٍ يتقّي بها. ولا يجب على المريض الثقيل للآية، ولأنه لا يقدر على القتال. ولا يجب على الفقير الذي لا يجد ما ينفق في طريقه فاضلاً عن نفقة عياله لقوله عز وجل: ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَج﴾)[٦].

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٨١).
(٢) النور: ٦١.
(٣) التوبة: ٩١.
(٤) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠١).
(٥) الفتح ١٧.
(٦) المجموع (١٨/ ٥٣) والآية من سورة التوبة ٩١.

وآية النور التي استدل بها الكاساني رحمه الله استدل بها كثير من العلماء على نَفْي الحَرَج عمن ذُكر فيها، لكن منهم من رأى أنها عَنَت التخلُّف عن الجهاد، ومنهم من استدل بعموم النفي، وإن كان السياق بظاهره يدل على نَفْي الحرج عن هؤلاء في أكلهم في بيوت من سمَّى الله في الآية(١).

وقال القرطبي رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء﴾ الآية، أصل في سقوط التكليف عن العاجز، فكل من عجز عن شيء سقط عنه، ولا فرق بين العجز من جهة القوة، أو العجز من جهة المال. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لا يُكلِّف الله نفساً إلا وسُعْها﴾(٢) وقوله: ﴿ليس على الأعمى حَرَج ولا على المريض حَرَج﴾(٣).

ولاختلاف المفسِّرين في تفسير آية النور: أعنَتَ التخلف عن الجهاد بذاته أم يستدل بعموم نَفْيها؟، وعدم اختلافهم في آية الفتح، قال في المهذب: (ولا يختلف أهل التفسير أنها في سورة الفتح أنزلت في الجهاد) كما مضى قريباً.

هذا وقد جمعت بعض النصوص الفقهية تلك الأعذار كلَّها بعبارات وجيزة، منها ما قاله أبو الضياء خليل بن إسحاق المالكي في مختصره: (وسقط بمرضٍ، وصبا، وجنون، وعمىً، وعرجٍ، وأنوثةٍ، وعجزٍ عن محتاج له، ورقٍّ، ودَيْن حَلَّ، كوالدين في فرض كفاية..)(٤)

وهذا سرد للأعذار بدون ذكر أدلتها، كما هو الغالب في المتون الفقهية. أما ذكرها مع أدلتها من الكتاب والسنة فقد عُني بها ابن قدامة رحمه الله، فقال: (ويشترط لوجوب الجهاد سبعة شروط: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والذكورية، والسلامة من الضرر، ووجود النفقة).

فأما الإسلام والبلوغ والعقل فهي شروط لوجوب سائر الفروع، ولأن

---

(١) راجع تفسير ابن جرير الطبري (١٨/ ١٦٧). وما بعدها. (٢) البقرة: ٢٦٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٢٦) والآية من سورة النور ٦١.
(٤) حاشية الدسوقي (٢/ ١٧٥)، وراجع الكتب الفقهية الآتية: فتح القدير لابن الهُمام الحنفي (٥/ ٤٤٢)، حواشي تحفة المحتاج في الفقه الشافعي (٩/ ٢٣١)، وروضة الطالبين للنووي (١٩٠/ ٢٠٨ وما بعدها).

الكافر غير مأمون في الجهاد، والمجنون لا يتأتّى منه الجهاد، وقد روى ابن عمر قال: عُرضت على رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربعة عشرة فلم يُجْزني[١].

وأما الحرية فتشترط لما روي أن النبي ﷺ كان يبايع الحر علىَ الإسلام والجهاد، ويبايع العبد على الإسلام دون الجهاد[٢]، ولأنَّ الجهاد عبادة تتعلّق بقطع مسافة فلم تجب على العبد كالحج.

وأما الذكورية فتشترط لما روت عائشة، قالت: قلت: يا رسول الله، على النساء جهاد؟ فقال: «جهاد لا قتال فيه: الحجُّ والعمرة»[٣]، ولأنها ليست من أهل القتال لضعفها وخَوَرها، ولذلك لا يُسهم لها. وأما السلامة من الضرر فمعناه السلامة من العمى والعرج والمرض، وهو شرط لقول الله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج﴾[٤]، ولأن هذه الأعذار تمنعه من الجهاد. وأما وجود النفقة فيشترط لقول الله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾[٥]، ولأن الجهاد لا يمكن إلا بآلة فيعتبر القدرة عليها[٦].

حَبَسَهم العذر

من رحمة الله بعباده المؤمنين وفضله وإحسانه عليهم، أنه يكتب للعاجز منهم عن العمل أجره إذا علم من نيته الصدق والإخلاص والنصح، كما لو كان قام بالعمل، قال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين ـ غيرُ أولي الضرر ـ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين دَرَجةً، وكُلًّا وعد الله الحُسْنى، وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾[٧].

نفى الله تعالى أن يستوي في القرب منه والحظوة عنده القاعدون

---

(١) البخاري رقم الحديث ٤٠٩٧، فتح الباري (٧/ ٤٩٢) ومسلم (٣/ ١٤٩٠).
(٢)
(٣) راجع ما سبق في ص ٨٧.
(٤) راجع الصفحة التي قبل هذه.
(٥) سبقت في ص ٩٥.
(٦) المغنى (٩/ ١٩٧، ١٩٨).
(٧) النساء: ٩٥.

والمجاهدون، واستثنى من القاعدين أولى الضرر، فجعلهم في عداد المجاهدين، ويُفهم من نَفْي استواء المجاهدين والقاعدين، واستثناء أولى الضرر من هؤلاء أن أولي الضرر يستوون هم والمجاهدون في حصول أصل الثواب والمضاعفة.

ورأى بعض العلماء أنهم يستوون في الأصل، ويزيد المباشرون للجهاد - وغيره من الطاعات - بمضاعفة الثواب.

واحتج أهل الرأي الأول بأمرين:

الأمر الأول: أن المعذورين ما منعهم إلا عجزهم، ولو لم يكن بهم عذر لكانوا مع المجاهدين، وفضل الله واسع، وقد استثناهم هو سبحانه من القاعدين الذين نفى المساواة بينهم وبين المجاهدين، فالقاعدون بعذر مستثنون من نَفْي المساواة.

الأمر الثاني: ما ورد في صحيح السنة مؤكِّداً هذا المعنى، كما في حديث أنس أن النبي ﷺ كان في غَزَاة فقال: «إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حَبَسهم العُذْر..»[١].

وفي حديث جابر: (كنَّا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم حبسهم المرض»)[٢].

قال الحافظ ابن حجر: (قال المهلب: يشهد لهذا الحديث حديث أنس قوله تعالى: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر﴾[٣] الآية، فإنه فاضل بين المجاهدين والقاعدين، ثم استثنى أولى الضرر من القاعدين، فكأنه ألحقهم بالفاضلين، وفيه أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه الضرر عن العمل)[٤].

وقد ورد ما يدل على أن هذا الاستثناء نزل بعد أن شكا إلى رسول الله ﷺ بعض من منعهم الضرر عن اللحاق بالمجاهدين، ونزول نَفْي المساواة بين المجاهدين والقاعدين، فالذي شكا من نَفْى المساواة بين المجاهدين وبينه

---

(١) البخاري رقم الحديث ٢٨٣٩، فتح الباري (٦/ ٤٦).
(٢) مسلم (٣/ ١٥١٨).
(٣) النساء: ٩٥.
(٤) فتح الباري (٦/ ٤٦).

لقعوده بسبب الضرر إنما شكا راجياً أن لا يدخل في هذا النفي، ونزول الاستثناء بعد شكواه يدل أنه أستجيب له فأصبح مساوياً للمجاهدين، كما في حديث البراء بن عازب قال: (لما نزلت الآية: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين﴾؛ دعا رسول الله ﷺ زيداً فجاء بكتف فكتبها، وشكا ابن أم مكتوم ضرارته، فنزلت: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين ـ غير أولى الضرر﴾)[١].

قال القرطبي في تفسير الآية الكريمة ـ بعد أن ذكر بعض النصوص المتقدِّمة: (فهذا يقتضي أن صاحب العذر يُعطى أجر الغازي، فقيل يحتمل أن يكون أجره مساوياً، وفي فضل الله متسع، وثوابه فضل لا استحقاق، فيثيب على النية الصادقة ما لا يثيب على الفعل، وقيل يُعطى أجره من غير تضعيف فيفضله الغازي بالتضعيف للمباشرة، والله أعلم. قلت: والقول الأول أصح إن شاء الله للحديث الصحيح في ذلك«إن بالمدينة رجالا» الحديث)[٢].

واحتج أهل الرأي الثاني القائل بأن صاحب العذر الذي أقعده عن العمل وهو حريص على مباشرته يستوى هو والمباشر في الأصل دون المضاعفة بحديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «إن الله كتب الحسناتِ والسيئاتِ، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة، فإن هو هَمَ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»[٣].

قال الحافظ: (واستدل بقوله حسنة كاملة على أنها تكتب حسنة مضاعفة لأن ذلك هو الكمال، لكنه مشكل يلزم منه مساواة من نوى الخير بمن فعله في أنَّ كلا منهما تكتب له حسنة، وأجيب بأن التضعيف في الآية يقتضي اختصاصه بالعامل، لقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾[٤] والمجيء بها هو العمل.

(١) البخاري رقم الحديث ٢٨٣١، فتح الباري (٦/ ٤٥) ومسلم (٣/ ١٥٠٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٣٤٢).
(٣) البخاري رقم ٦٤٩١، فتح الباري (١١/ ٣٢٣) ومسلم (١/ ١١٨).
(٤) الأنعام: ١٦، والنحل ٨٩، والقصص ٨٤.

وأما الناوي فإنما ورد أنه يكتب له حسنة، ومعناه يكتب له مثل ثواب الحسنة، والتضعيف قدر زائد على أصل الحسنة، والعلم عند الله)(١).

وقال ابن رجب رحمه الله: (فالمضاعفة يختص بها من عمل العمل دون من نواه، ولم يعمله، فإنهما لو استويا من كل وجه لكتب لمن هم بحسنة ولم يعملها عشر حسنات، وهو خلاف النصوص كلها)(٢).

والذي يظهر عدم القطع بالمساواة في كل شيء، لأن المجاهد المباشر للجهاد قد يستوى هو والقاعد في النية الصادقة والحرص الشديد على مجالدة العدو وقهره، وعلى الشهادة في سبيلِ الله، ثم يزيد المجاهد المباشر ببذل المال، والتضحية بنفسه في ساح الوغى وتلقي الضرب والطعان بصدره، ومفارقة أهله وأولاده، والتعرض لشدة البرد والحر والجوع والعطش، ويكفي في نَفْي المساواة بين القاعد بعذر والقاعد بدون عذر أن القاعد بلا عذر لا أجر له مطلقاً، بل قد يكون آثماً إذا كان الجهاد فرض عَيْن، وقد يكون قعوده مباحاً إذا كان الجهاد فرض كفاية، وفي كلتا الحالتين لا يستوي هو والمجاهد في سبيل الله. أما القاعد بعذر مع النية الصادقة والحرص الشديد فله أجر مثل أجر المجاهد، ولا يشترط أن يساويه في كل شيء، بل تكفي المساواة في الجملة، ومع ذلك فإن فضل الله واسع يؤتيه من يشاء.

وممَّا يدل على أن من لم يباشر العمل لا يساوي المباشر من كل وجه حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهلُ الدثور بالدرجات العُلى والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك» قالوا: يصلُّون كما نُصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبِّحون وتكبرون وتحمدون دُبُرَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة» قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا

(١) فتح الباري (١١/ ٣٢٥).
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٣٠٩.

أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١].

وجه الدلالة من هذا الحديث أنَّ فقراء المهاجرين لم يذهبوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه تأخرهم في الأجر عن أهل الأموال الذين يشاركونهم في الصلاة والصوم ويفضلونهم في الصدقة والعتق إلا وهم حريصون على أنهم لو كانوا مثلهم أغنياء لفعلوا مثل فعلهم، ونيتهم ـ لا شك ـ مكتوبة لهم كما مضى؛ ولكنهم يريدون ثواباً مساوياً لثواب من باشر التصدُّق والعتق، فدلَّهم الرسول ﷺ على الذكر، فلما فعل الأغنياء مثلهم شكوا مرة أخرى بأنهم ساووهم في الذكر، ولا زالوا سابقين في الإنفاق والعتق، فأجابهم الرسول ﷺ بما يدل أن التفاضل في العمل أمر لا بدَّ منه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء، ولو كانت نية الطاعة والحرص عليها كافية في المساواة لبيَّن لهم الرسول ﷺ ذلك. والشخصان المستويان في صدق النية والحرص على الطاعة، ثم يزيد أحدهما بأن رزقه الله مالاً يتصدق منه ويعتق ويجهز الغزاة أو يخرج يجاهد بنفسه، والآخر لم يتمكن لفقره هما شبيهان بفقراء الصحابة وأغنيائهم الذين قال رسول الله ﷺ للفقراء: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

لكن بقي هنا النظر فيما قاله ابن حجر رحمه الله في شرحه هذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فإنه قال: (ويظهر أن الجواب وقع قبل أن يعلم النبي ﷺ أن متمنى الشيء يكون شريكاً لفاعله في الأجر، كما سبق في كتاب العلم في الكلام على حديث ابن مسعود الذي أوله: «لا حسد إلا في اثنتين» فإن في رواية الترمذي من وجه آخر التصريح بأن المنفق والمتمني إذا كان صادق النية في الأجر سواء، وكذا قوله ﷺ: «من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من يعمل بها من غير أن ينقص من أجره شيء» فإن الفقراء في هذه القصة كانوا السبب في تعلُّم الأغنياء الذكر المذكور، فإذا استووا معهم في قوله، امتاز الفقراء بأجر السبب مضافاً إلى التمني، فلعل ذلك يقاوم التقرب بالمال)[٢].

---

(١) البخاري رقم ٨٤٣، فتح الباري (٢/ ٣٢٥)، ومسلم (١/ ٤١٦).
(٢) فتح الباري (٢/ ٣٣١).

واللفظ الذي في سنن الترمذي من حديث أبي كَبْشة الأنماري هكذا: (إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي ربه فيه، ويصل به رحمه ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء)[1].

والذي يظهر أنه لا فرق بين المساواة في الأجر بين هذين الرجلين وبين المساواة في الأجر بين المجاهد والقاعد المعذور، وأنهما يستويان في كلٍّ منهما في أن الفاعل والمتمنِّي الصادق كليهما يُؤجران، فهما سواء في أنهما أثيبا بخلاف من لم يفعل ولم ينو نية صادقة فإنه لا أجر له مطلقاً، فالـذي لم يفعل لعـذره وهو ناوٍ الفعل لو مُكِّن منه استوى مع من فعل في أنه أجر عـلى نيته، وليس شرطاً أن تكون المساواة من كل وجه، بل لعل قوله ﷺ فيمن أوتي مالاً وعلماً أنه بأفضل المنازل، وقوله فيمن أوتي علماً ولم يُرزقه مالاً: فأجرهما سواء ما يشير إلى التفريق بين الفاعل المباشر وبين الناوي الصادق، وأن هذا يكتب له أجرُ نيته فقط وذاك يكتب له أجرُ نيته وفعله يدل عليه قوله فهو بنيته، فلا حاجة إذنٍ إلى القول بأن جواب النبي ﷺ لفقراء المهاجرين كان قبل أن يعلم أنَّ متمني الشيء يكون شريكاً لفاعله في الأجر، إذ يحمل على أن الجواب كان مراداً به عدم التساوي الكامل بين الناوي الصادق الذي لم يفعل والناوي الصادق الفاعل، وقد اضطر ابن حجر رحمه الله بسبب عدم جزمه بذلك أن يقرِّب فقراء المهاجرين بأغنياء إخوانهم بشيء آخر، وهو أن فقراء المهاجرين سنُّوا سنَّة حسنة عمل بها الأغنياء، فهم بذلك ينالون أجراً آخر قال فيه: فلعلَّ ذلك يقاوم التقرب بالمال.

وقد يفهم من كلام ابن تيمية رحمه الله مساواة الناوي الصادق الذي لم يفعل لعذر، وهو ما يعبَّر عنه بالمريد إرادة جازمة، بالناوي الصادق الذي فعل، حيث قال: (فالمريد إرادة جازمة مع فعل المقدور ـ مراده مع فعل المقدور لو قدر

(١) سنن الترمذي رقم الحديث ٢٤٢٧، تحفة الأحوذي (٦/ ٦١٥).

عليه ـ بمنزلة العامل الكامل) ولكنه رحمه الله عبَّر بعد ذلك بما يدل أنه لم يرد المساواة الكاملة، أو لم يجزم بذلك، حيث قال: (فالله تعالى نفى المساواة بين المجاهد والقاعد الذي ليس بعاجز، ولم يَنْفِ المساواة بين المجاهد والقاعد العاجز، بل يقال: دليل الخطاب يقتضي مساواته إياه، ولفظ الآية صريح استثنى أولو الضرر من نَفْى المساواة، فالاستثناء هنا هو من النَفْي، وذلك يقتضي أن أولي الضرر قد يساوون القاعدين وإن لم يساووهم في الجميع)(١) فقوله قد يساوون القاعدين وإن لم يساووهم في الجميع يدل أن المساواة الواردة في كلامه أولاً ليست المساواة الكاملة وإنما هي المساواة في الجملة، والله أعلم.

إذا نصحوا الله ورسوله

هذا ويجب أن يعلم ـ هنا ـ أن هؤلاء الذين يَكتب الله لهم الأجر وهم في بيوتهم لعدم قدرتهم على مباشرة الجهاد، إنما هم الناصحون لله ورسوله، الذين تكاد قلوبهم تطير من شدة رغبتهم وقوة حرصهم على الجهاد في سبيل الله في أرض المعركة، الذين اشتدَّ ندمهم وظهر حَزَنهم بسبب عجزهم عن القيام بأمر الجهاد مباشرة، ولهذا قيَّد الله نَفْي الحَرَج عن ذوي الأعذار بقوله: ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾(٢).

وقد ضرب الله لهم مثلاً بالبكَّائين الذين طلبوا من الرسول ﷺ أن يحملهم ليخرجوا معه لجهاد الأعداء، فاعتذر بأنه لا يجد ما يحملهم عليه، فخرجوا يبكون مغمومين بسبب ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه؛ تولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾(٣)، بخلاف من قعد وهو غير عازم، أو لم ينصح لله ورسوله.

قال ابن كثير: (فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثبّطوهم ولهذا قال: ﴿ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم﴾)(٤).

(١) الفتاوي (١٠/ ٧٣١)، راجع أيضاً الفتاوي (١٤/ ١٢٣).
(٢) التوبة: ٩١.
(٣) التوبة: ٩٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٨١).

هتاف الشهادة وريح الجنة

وعلى الرغم من أن الله تعالى عذر عباده المؤمنين الذين قد تحول الأعذار بينهم وبين مباشرة الجهاد إلا بمشقة، ككبار السن وصغار السن أو بعض ذوي العاهات، فإن نفوس أهل الإيمان العميق الحيِّ المتحرك الصادق لم تَرْضَ بالتخلُّف عن الجهاد، بل لقد كان الشيخ الكبير السن، الأعرج الذي عذره الله ينافس أبناءه الشبّان الأقوياء على الخروج للجهاد في سبيل الله حرصاً على أن ينال الشهادة ويدخل الجنة، ففي سيرة ابن هشام: (أن عمرو بن الجموح كان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله عز وجل قد عذَرَك، فأتى رسول الله ﷺ فقال: «إن بَنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أَطأ بعرجتي هذه في الجنة فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك» وقال لبنيه: «ماعليكم ألّا تمنعوه لعلَّ الله أن يرزقه الشهادة فخرج معه فقتل يوم أحد»[1]. وكذلك كان الغلمان يتنافسون في الخروج مع رسول الله ﷺ، ويبذلون كل وسيلة يقدرون عليها لإقناعه ﷺ بأنهم قادرون على الجهاد معه، فإذا فاز أحدهم بصفةٍ أذن له بسببها الرسول ﷺ وثب الآخر محتجاً بصفة أخرى، قال ابن هشام: (وأجاز رسول الله ﷺ يومئذ - أي يوم أحد - سَمُرة بن جندب الفَزَاري ورافع بن خديج أخا بني حارثة وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردَّهما، فلما أجاز رافعاً قيل له يا رسول الله فإن سَمُرة يصرع رافعاً فأجازه، وردّ رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وعبدالله بن عمر بن الخطاب)[2].

وروى ابن جرير في تفسير آية: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾[3] بسنده عن حِبّان بـن زيد الشرعبي، قال: (نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قِبَل الأفسوس إلى الجراجمة، فلقيت شيخاً كبيراً هَمّاً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت عليه فقلت: يا عم لقد

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٩٠).
(٢) السيرة النبوية (٢/ ٦٦).
(٣) التوبة: (٤١).

عذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، من يحبه الله يبتليه ثم يعيده فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله)[١].

والخلاصة: أن غير القادر على مباشرة الجهاد شرعاً أو طبعاً لا حَرَج عليه، بل له ثواب نيته وهو قاعد إذا حسنت نيته ونصح لله ورسوله، وأن قوة الإيمان تنسي صاحب العذر عذره، فيكلف نفسه الخروج والقتال طمعاً في الشهادة ونيل رضا الله ودخول جناته.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/ ١٣٨).

المبحث الثاني

أبدية الجهاد في سبيل الله

وفيه خمسة فروع:

الفرع الأول: أهداف الجهاد تقتضي أبديته.
الفرع الثاني: عالميّة الإسلام.
الفرع الثالث: رد الرسول ﷺ على من ظن توقف الجهاد (حتى تقوم الساعة).
الفرع الرابع: صفقة الجهاد قديمة أبديّة (صفقة دائمة).
الفرع الخامس: تطبيق السَّلَف الصالح للجهاد يقتضي أبديتّه (التطبيق العملي)

الفرع الأول
أهداف الجهاد تقتضي أبديَّته

شرع الله تعالى الجهاد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور من جهة، ولتكون كلمة الله هي العليا من جهة ثانية، ولحماية المسلمين من أن يُفتنوا في دينهم أو تستباح حرماتهم وتحتل أرضهم من جهة ثالثة، وكل هذه الأمور يجب أن تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يمكن استمرار تحقيقها إلا باستمرار الجهاد في سبيل الله.

وقد اقتضت مشيئة الله أن يوجد في الأرض حزبه وحزب الشيطان، وأن يكون بجانب الحق الباطلُ، وأن يعيش على وجه الأرض محقُّون ومُبطلون، وأن

يصطرع هؤلاء وأولئك من أول الحياة إلى آخرها: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينَّكم منِّي هُدى فمَن تبع هُداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون..﴾[١].

﴿ولقد خلقناكم، ثم صوَّرناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبرَ فيها، فاخرج إنَّك من الصاغرين. قال أنْظِرْني إلى يوم يُبعثون. قال إنك من المُنْظَرين. قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين، قال اخرجْ منها مذؤماً مدحوراً لَمَن تبعك منهم لأملأنَّ جهنَّم منكم أجمعين﴾[٢].

فما دام في الأرض مسلمون ـ ولا بدَّ أن يكونوا ـ وما دام في الأرض كافرون ولا بدَّ كذلك أن يكونوا ـ فلا بدَّ من وجود الصراع بين المسلمين والكافرين لتباين طبيعة الإسلام والكفر، فالإسلام يصرٌّ على تحرير الناس من عبادة كل ما سوى الله وتعبيدهم لله وحده، والكفر يصرٌّ على بقاء الناس في الظلمات، بل على إخراجهم من النور إلى الظلمات وتعبيدهم لأرباب متفرقين من دون الله: ﴿الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[٣] ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[٤].

والواقع يؤيد إصرار أعداء الله على صدِّ الناس عن دين الله وغدرهم بالمسلمين وعدم الوفاء بعهودهم لهم، وأنه لا يجدي في تقويمهم إلا القضاء على رؤوس الفتنة من قادتهم وإذلالهم بالجهاد في سبيل الله، وهو أمر دائم ما دام في الأرض كفر وإسلام. ولهذا كانت آخر مرحلة من مراحل الجهاد صريحة صارمة

(١) البقرة ٣٨، ٣٩.
(٢) الاعراف: ١١ ـ ١٨.
(٣) البقرة: ٢١٧.
(٤) البقرة: ٢٧٥.

لا تقبل تأويلاً ولا تحريفاً، كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿كيف يكون للمشركين عَهْدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين. كيف وإن يظهروا عليكم لاَ يَرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذِمَّةً، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبُهم، وأكثرهم فاسقون. اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدُّوا عن سبيله، إنهم ساء ما كانوا يعملون. لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذِمَّة وأولئك هم المعتدون. فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين، ونفصِّل الآيات لقوم يعلمون. وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون، ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمُّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة، أتخشَوْنهم فالله أحقُّ أن تخشَوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يُعذِّبْهم الله بأيديكم ويُخْزِهم وينصُرْكم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويُذهِبْ غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء والله عليمٌ حكيم﴾[(١)].

الفرع الثاني

عالمية الإسلام

وكون الإسلام ديناً عالميّاً يجب على جميع الناس أن يدخلوا فيه ويجب على المسلمين أن يبلِّغوهم إياه ويدعوهم إليه يقتضي أبديّة الجهاد، فقد كان الرسول يُبعث إلى قومه خاصّة وبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى الناس عامّة. والنصوص الدالة على عالمية رسالته ﷺ كثيرة سبق شيء منها في التمهيد.

ففرض على المسلمين أن يبلِّغوا هذا الدين لكافة الناس أينما كانوا ولو وجد أحد على غير الكوكب الأرضي الذي يعيشون عليه، على سطح القمر أو المريخ أو الزهرة أو غيرها. وهذا ما فهمه أصحاب رسول الله ﷺ، كما في قصة فتح أبي عبيدة لمدينة حمص، قال ابن كثير رحمه الله: (لما فتح أبو عبيدة حمصاً بعث خالد بن الوليد إلى قِنَّسرين، فلما جاءها ثار إليه أهلها ومن عندهم من نصارى العرب، فقاتلهم خالد فيها قتالاً شديداً، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فأما

---

(١) التوبة: ٧ ـ ١٥.

من هناك من الروم فأبادوهم وقتل أميرهم «ميناس». وأما الأعراب فإنهم اعتذروا إليه بأن هذا القتال لم يكن عن رأينا، فقبل منهم خالد وكفَّ عنهم، ثم خلص إلى البلد فتحصَّنوا فيه، فقال لهم خالد: (لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا، ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه، ولله الحمـد)[١].

ولو كان طواغيت الكفر يسمحون للدعاة إلى الله بأن يبلِّغوا دين الله إلى الناس في كل مكان أداء للواجب الذي فرضه الله عليهم، ويتركون الناس يسمعون الدعوة إلى الإسلام ويستجيبون له إن شاؤا أو يرفضون باختيارهم، لقيل إنه لا ضرورة ملجئة للقول بأبدية الجهاد، بل لا ضرورة لفرضه على المسلمين، ولكن الأمر بخلاف ذلك كما سبق عند الكلام على حكم الجهاد وكونه ضرورة، وكما سبقت الإشارة في مطلع هذا المبحث من اصطراع الإسلام والكفر على الدوام، وبالرجوع إلى الواقع التاريخي من أوثق مصدر يوجد على ظهر البسيطة، وهو القرآن الكريم، للصراع الذي دار بين الدعاة إلى الله وفي طليعتهم رسل الله وأعداء الله من الطواغيت الذين أرادوا استعباد الناس من دون الله، يتضح بجلاء ضرورة كون الجهاد في سبيل الله أبدياً، وكذلك ما يُشاهد في كل عصر وفي هذا العصر من تجمع أعداء الله ضدَّ المسلمين وضد هذا الدين للقضاء عليهم وعليه، كل ذلك يحتم أبديّة الجهاد في سبيل الله.

الفرع الثالث

رد الرسول ﷺ
على من ظنَّ توقف الجهاد

لقد ظن بعض أصحاب الرسول ﷺ - بعد أن دانت الجزيرة العربية بالإسلام، وارتفعت رايته على أرجائها - أن الجهاد قد انتهى، وأنه لا حاجة إلى الاستمرار في إعداد العدّة، لأن الحرب وضعت أوزارها، فردَّ الرسول ﷺ مكذِّباً ذلك الظن مبيناً أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، لوجود حزب الله في الأرض ووجود أحزاب الشيطان، وأن إعداد العدّة والتدريب على القتال أمر لا بد منه

(١) البداية والنهاية (٧/ ٥٢).

إلى قيام الساعة كما في حديث سلمة بن نُفَيل رضي الله عنه، قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ، فقال رجل: يا رسول الله أذال الناس الخيل[١]، ووضعوا السلاح قالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال: «كذبوا، الآن جاء القتال، ولا تزال من أمتي أمة يقاتلون حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله. الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهو يوحي إلى أني مقبوض غير مُلْبَث، وأنتم تتبعوني، ألا فلا يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين الشام»[٢].

وقوله في الحديث: «حتى تقوم الساعة، إلى يوم القيامة» وتعقيبه على ذلك بقوله: «ألا فلا يضرب بعضكم رقاب بعض» فيه إشارة إلى أن الأمة الإسلامية إذا تركت جهاد أعدائها ضرب بعضها رقاب بعض، وهذه الحال يؤيدها الواقع التاريخي، فما ترك المسلمون الجهاد إلا جعل الله بأسهم بينهم، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين، دلف الآنف» وفي الحديث كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك، قوماً وجوهم كالمجان المطرقة، يلبسون الشَّعَر، ويمشون في الشَّعَر»[٣].

وما دلَّ عليه حديثا أبي هريرة وإن كان قد حصل فعلاً كما ذكر الإمام النووي وغيره[٣] ـ يدل على أبديّة الجهاد واستمراره، لأنه ما من وقت خلا من صراع بين المسلمين والكافرين، وهذا منه.

وهؤلاء اليهود يسرحون ويمرحون في قلب رقعة الأمة الإسلامية، ويتجمَّعون من كل الآفاق، وهم شُذّاذها الذين كتب الله عليهم الذلَّة والمسكنة، ووعد الرسول ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ أن المسلمين سيقاتلونهم قبل قيام الساعة، ويهيىء الله لمن يقاتلهم ما لم يكن في الحسبان، حيث ينطق

---

(١) أذال الناس الخيل، أي امتهنوها، وتوقفوا عن العناية بها، وإعدادها للحرب.

(٢) أخرجه النسائي، وهو في جامع الأصول رقم ١٠٤٨، مطبعة الملاح، قال المحشِّي: أخرجه النسائي في الخيل وإسناده صحيح وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢١٤، ٢١٥).

(٣) مسلم (٤/ ٢٢٣٣). وراجع شرح النووي على مسلم (١٨/ ٣٧).

لهم الحجر والشجر الذي يختفي وراءه اليهودي، فينادي الجماد والنبات ليدل المجاهدين على أعداء الله ليقتلوهم، كما جاء في حديث عبدالله بن عمر وحديث أبي هريرة رضي الله عنهم: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[١].

ولعل الله سبحانه وتعالى الحكيم العليم إنما يجمعهم في بلاد المسلمين في فلسطين لينزل بهم هذا اليوم المنتظر وما يسبقه من الإعداد لهم والتنكيل بهم. ولعلَّ ما يحدث من زعماء بعض الشعوب الإسلامية من مودَّتهم وموالاتهم وتسهيل سبل بقائهم ما هو إلا تقدير سماوي يمهِّد لكتائب شباب الإسلام المجاهدين الطريق إلى قتلهم واستئصالهم هم وأذنابهم من أعداء الإسلام الذين يُسمَّون بأسماء إسلامية، وهذا من الأدلة الصريحة على أبديَّة الجهاد في سبيل الله، وإذا كان قتال الترك قد حصل كما أخبر به النبي ﷺ فإن قتال اليهود سيحصل كما أخبر به النبي ﷺ.

وفي حديث آخر عن حسان بن عطيَّة قال: مال مكحول وابن أبي زكريا إلى خالد بن معدان، وملت معهما، فحدثنا عن جُبَير بن نُفَير، قال: قال لي جبير بن نفير: انطلق بنا إلى بني ذي مخبر - رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - قال فأتيناه، فسأله جبير عن الهدنة، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم فتنصرون وتغنمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع للملحمة، زاد في رواية: ويثور المسلمون إلى أسلحتهم، فيقتتلون، فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة»[٢].

وإن يوماً عصيباً على المسلمين يضطرهم إلى التحالف مع أعدائهم الذين

(١) البخاري رقم الحديث ٢٩٢٥، ٢٩٢٦، فتح الباري (٦/ ١٠٣) ومسلم (٤/ ٢٢٣٨).

(٢) أبو داود (٣/ ٢١٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٦٩)، وهو في جامع الأصول، قال المحشي: وإسناده صحيح (١٠/ ٢٦).

لم يهدؤا لحظة عن حربهم، ضد عدو مشترك ينتصرون عليه ويغنمون، ثم يغدر النصارى بالمسلمين فيقاتلونهم ويكرم الله العصابة المسلمة بالشهادة على أيديهم؛ إن هذا اليوم لم يأتِ بعد وإنه لآتٍ.

ومن أصرح الأحاديث الدالة على أبديّة الجهاد حديث أبي هريرة الذي فيه نزول عيسى بن مريم في وقت تسوية المسلمين صفوفهم وإعداد أنفسهم للقتال بعد اقتسامهم الغنائم في حربهم مع الروم - وفيه أن عيسى بن مريم يقتل الدجال، وعيسى آنذاك من أمة محمد ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق[1]، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافُّوا قالت الروم خلُّوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلِّي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يُفتنون أبداً، يفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يغتنمون الغنائم قد علَّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خَلَفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاؤا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم ﷺ، فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»[2].

فإذا كان المجاهدون المسلمون يقتسمون الغنائم، ويحملون السيوف، ويسوون الصفوف لقتال الدجال وجنده، وينزل عليهم عيسى عليه السلام وهم على تلك الحال، والرسول ﷺ يقول في أحاديث كثيرة: يقاتلون حتى تقوم الساعة، ألا يدلُّ ذلك كله على أبدية الجهاد؟!.

وقد استنبط الإمام البخاري رحمه الله من حديث عروة البارقي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر

(١) دابق:

(٢) مسلم (٤/ ٢٢١).

والمغنم»[١] استنبط منه أبدية الجهاد، إذ بوب له بقوله: «باب الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر».

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وفيه ـ أي في هذا الحديث ـ بشرى ببقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة، لأن من لازم بقاء الجهاد، بقاء المجاهدين وهم المسلمون، وهو مثل الحديث الآخر: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق»[٢] وقال السرخسي: (وهو فرض قائم إلى قيام الساعة، قال النبي ﷺ: «الجهاد ماضٍ منذ بعثني الله تعالى إلى أن يقاتل آخر عصابة من أمتي الدجال»[٣] وقال ابن الهمام: (ولا شك أنَّ إجماع الأمة أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة لم يُنسخ، فلا يتصوَّر نسخه بعد النبي ﷺ)[٤].

الفرع الرابع
صفقة دائمة في الكتب السماوية المنزلة

قال تعالى: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنةَ، يقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون وَعْداً عليه حقاً في التوارة والإنجيل والقرآن، ومن أوْفَى بعَهْده من الله، فاستبشروا ببَيْعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[٥].

لقد تمَّت الصفقة بين الله تعالى وهو مالك الثمن والمثْمن، وعباده المؤمنين على مر العصور والأزمان، وإلى أن تقوم الساعة، صفقة لا إقالة فيها ولا استقالة، سلعتها الجنة، وبائع السلعة الله الخالق المعبود، ومشتريها المؤمنون، وثمنها الأنفس والأموال لمقارعة أعداء الله في كل زمان، سُجِّلت في الكتب السماوية السابقة، ونزل بها القرآن الكريم، وهي باقية ما بقي القرآن الكريم الذي وعد الله بحفظه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[٦].

قال سيد قطب رحمه الله: (إن الجهاد في سبيل الله بَيْعة معقودة بعنق كل

(١) البخاري رقم الحديث ٢٨٥٢.
(٢) فتح الباري (٦/ ٥٦).
(٣) المبسوط (١٠/ ٢).
(٤) فتح القدير (٥/ ٤٣٨).
(٥) التوبة: ١١١.
(٦) الحجر: ٩.

مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله، إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها، ولا تصلح الحياة بتركها: ﴿ولولا دَفْع الله الناس بعضهم ببعضٍ لفسدت الأرض﴾(١) ﴿ولولا دَفْع الله الناس بعضهم ببعض لَهُدِّمت صوامعُ وبِيَع وصلوات ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾(٢).

إنَّ الحق لا بدّ أن ينطلق في طريقه، ولا بدّ أن يقف له الباطل في الطريق، بل لا بدَّ أن يأخذ عليه الطريق، إن دين الله لا بدّ أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردِّهم إلى العبودية لله وحده، ولا بدَّ أن يقف له الطاغوت في الطريق بل لا بدَّ أن يقطع عليه الطريق، ولا بدَّ لدين الله أن ينطلق في الأرض كلِّها لتحرير الإنسان كلِّه، ولا بدَّ للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقاً، وما دام في الأرض كفر وما دام في الأرض باطل، وما دامت في الأرض عبودية لغير الله تذل كرامة الإنسان، فالجهاد في سبيل الله ماضٍ، والبَيْعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء، وإلا فليس بالإيمان: «ومن مات ولم يَغْزُ ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق» رواه أبو داود والنسائي(٣).

وقال في موضع آخر ـ معلِّقاً على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾(٤)، (وإذا كان النص عند نزوله يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة، وهي التي كانت تفتن الناس، وتمنع أن يكون الدين لله، فإن النص عام الدلالة، مستمر التوجيه والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة. ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله والاستجابة لها عند الاقتناع والاحتفاظ بها في أمان، والجماعة المسلمة مكلَّفة في كل حين أن تحطِّم هذه القوة الظالمة.. وتطلق الناس أحراراً من قهرها يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله)(٥).

(١) البقرة: ٢٥١. (٢) الحج: ٤٠.
(٣) في ظلال القرآن (١١/ ١٧٧) طبع دار الشروق، والحديث أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٧) وهو في سنن أبي داود كما قال (٣/ ٢٢)، وفي النسائي (٦/ ٧) طبع الحلبي.
(٤) سورة البقرة: ١٩٣. (٥) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٢).

الفرع الخامس
التطبيق العملي

ولم يقف أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان من المسلمين عن الجهاد في سبيل الله يوماً من الأيام، فقد وجَّه أبو بكر الصحابة بعد القضاء على فتنة الردة إلى بلاد فارس، واستمر بعده الجهاد والفتوحات الإسلامية إلى أن ضعف المسلمون في إيمانهم وعلمهم وتطبيقهم العملي للإسلام، فأذلهم الله عندما توقفوا عن رفع راية الجهاد، قال ابن كثير: (لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة بعث إليه الصديق أن يسير إلى العراق. . . وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم)[1].

ونص الفقهاء أنه يجب على الإمام أن يقوم بالغزو مرة كل عام ـ إذا لم تدع الحاجة لأكثر من ذلك ـ ، قال ابن قُدَامة: (وأقل ما يفعل مرة في كل عام لأن الجزية تجب على أهل الذمة في كل عام، وهي بدل عن النصرة، فكذلك مبدلها وهو الجهاد، فيجب في كل عام مرة إلا من عذر، وإن دعت الحاجة إلى القتال في عام أكثر من مرة وجب ذلك، لأنه فرض كفاية فوجب منه ما دعت الحاجة إليه)[2].

فالجهاد لا يخلو منه عام من الأعوام من أول ما شرع إلى أن تقوم الساعة. والذي يراجع تاريخ المسلمين يرى أنهم لم يتركوا الجهاد في أي زمن من الأزمان، إلا عندما يبتعدون عن الإسلام، ويخلدون إلى الأرض، ويصبحون نَهْباً لأعداء الإسلام.

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٢).
(٢) المغني (٩/ ١٩٨).

المبحث الثالث

فضل الجهاد في سبيل الله

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول	:	فضل الجهاد في القرآن الكريم.
الفرع الثاني	:	فضل الجهاد في السنة النبوية.
الفرع الثالث	:	فضل الجهاد من أقوال السَّلَف.

تمهيد:

سبق الكلام على تعريف الجهاد في سبيل الله، وأنه شامل لنشاط المسلم كله ما دام يبتغي به وجه الله، وسيأتي مزيد بيان لذلك، إن شاء الله في فصل أنواع الجهاد.

وتصوُّر فضل الجهاد في سبيل الله لا يتم إلا بدراسة كل ما يتعلق به من نصوص في الكتاب والسنَّة وأقوال السلف فيه، وتاريخ المجاهدين من الأنبياء والدعاة إلى الله من أتباعهم، ثم بممارسة من أراد تصور فضل الجهاد تصوراً كاملاً لكل أنواعه، حتى يكون ممَّن اختارهم الله شهداء من المجاهدين في سبيله، فيرى ما وعد الله به المجاهدين في كتابه، وفي سنة رسوله ﷺ، فيتمنى أن يحييه الله مرات ليجاهد فيقتل في سبيل الله كل مرة، أنالَنا الله ذلك كله، وألهم شباب الإسلام في كل أنحاء الأرض للسير في طريقه، إنه على كل شيء قدير.

الفرع الأول

فضل الجهاد في القرآن الكريم

لو أراد الباحث استقصاء فضائل الجهاد في القرآن الكريم بحسب شموله لكل نشاط المسلم، لتعذَّر ذلك عليه، لأن كل أمر أمر الله به على هذا هو من الجهاد الذي يسعى المسلم لتطبيقه، وكل نَهْي نَهَى الله عنه فتركه من الجهاد في سبيل الله الذي يسعى المسلم للابتعاد عنه، وهكذا كل صفة حميدة، فالسعي للاتصاف بها من الجهاد في سبيل الله، وكل صفة ذميمة فالاجتهاد في البعد عنها من الجهاد في سبيل الله.

لهذا كان لا بدَّ من ذكر نماذج تتصل بالجهاد بمعناه الخاص، الجهاد في سبيل الله يحقق للأمة الإسلامية الخيرية على الأمم الأخرى، لأنه قمة الأمر بالمعروف والنيه عن المنكر الذي لا فلاح للمسلمين إلا به، بل عاقبة المسلمين بدونه الخسران في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجتْ للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون، لن يضروكم إلا أذىً، وإن يقاتلوكم يُولُّوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾[١].

وقال: ﴿ولْتَكُن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[٢] وقال تعالى: ﴿والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصو بالصبر﴾[٣].

وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة، وجاهدوا في سبيله لعلَّكم تفلحون﴾[٤].

قال السرخسي: (فأما بيان المعاملة مع المشركين فنقول الواجب دعاؤهم إلى الدين، وقتال الممتنعين منهم من الإجابة، لأن صفة هذه الأمة في الكتب المنزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبها كانوا خير الأمم قال تعالى: ﴿كنتم

---

(١) آل عمران: ١١٠، ١١١.
(٢) آل عمران: ١٠٤.
(٣) العصر
(٤) المائدة: ٣٥.

خير أمة أُخرجت للناس﴾ الآية)[1].

وكذلك ـ كما تفضل هذه الأمة الأمم الأخرى بهذه الصفة ـ يفضل المسلم المجاهد المسلم القاعد بهذه الصفة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين ـ غيرُ أولى الضرر ـ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً، وكُلًّا وعد الله الحُسْنى، وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، درجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾[2].

حركات المجاهد كلها يثاب عليها

قال تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومَنْ حولهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظمأ ولا نَصَبُ ولا مَخْمصةُ في سبيل الله، ولا يطـأون موطئاً يَغِيظُ الكفار، ولا ينالون من عدو نَيْلاً إلا كُتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يُضيع أجر المحسنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً ألا كُتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾[3].

حركات المجاهدين في سبيل الله وسكناتهم وجوعهم وظمأهم وتعبهم ونفقاتهم صغرت أم كبرت، وإغاظتهم الكفَّار بأي نوع من أنواع الأذى المشروع الذي يلحقونه بهم، كل ذلك يكتبه الله لهم عملاً صالحاً ويجزيهم أحسن ما كانوا يعملون، لأن المجاهدين في سبيل الله لا يرغبون بأنفسهم عن نفس نبيهم ﷺ التي بذلها طيلة حياته في سبيل ربه، وكذلك لا يرغبون بأنفسهم عن أنفس قادتهم المجاهدين الذي يبذلونها في سبيل ربهم مقتدين بنبيهم محمد ﷺ، لذلك كان لهم هذا الفضل العظيم الذي فضَّل الله كل دقيقة من عملهم وجليلة في سبيل الله ليغريهم بثوابه الشامل وفضله العميم.

---

(١) المبسوط (١٠/ ٢).

(٢) النساء: ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١.

التجارة الرابحة

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تُنجيكم من عذابٍ أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون، يَغْفِرْ لكم ذنوبكم، ويُدخلْكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومساكنَ طيبةً في جنّاتِ عَدْن، ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبُّونها نصرٌ من الله وفتح قريب، وبشِّر المؤمنين﴾[(١)].

هذه التجارة هي التي يتمنّاها أولياء الله المجاهدون لتوصلهم إلى رضا ربهم، ورأسمالها الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله، وربحُها غفران الله ودخول الجنات، يضاف إلى ذلك نصر الله لأوليائه على أعدائه.

وهي الصفقة المعقودة بين الله وبين عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون، وَعْداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[(٢)].

المجاهد تاجر يتعامل مع الله الذي يشتري منه نفسه التي هو خالقها وماله الذي هو مالكه ومعطيه، ويعطيه ثمن نفسه وماله الجنة نقداً لا نسيئة فيه، مضموناً لا خوف من فقده، لأن الله هو المشتري وهو الذي وعد به، وهل توجد تجارة رابحة مثل التجارة التي تكون مع الخالق سبحانه؟

حفظ الحق وغلبة الباطل

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا مَنْ يرتَّد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه، أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومه لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليمٌ، إنما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم

---

(١) الصف: ١٠ ـ ١٣.
(٢) التوبة: ١١١.

راكعون، ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرنَّ اللهُ من ينصره إن الله لقويٌّ عزيزٌ، الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[٢].

فالجهاد في سبيل الله يظهر فضله عند ما تأسن الأرض بكفر الكافرين وردة المرتدين وأفساد المفسدين، فإذا المجاهدون هم الذين يطاردون الكفر ويقضون على الردَّة، ويدفعون عن الحق ويغلبون الباطل، فيقوم في الأرض دين الله ويُؤمر بالمعروف ويُنهَى عن المنكر.

الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحجاج فيه

قال تعالى: ﴿أجعلتم سِقاية الحاجِّ وعِمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟! لا يستوون عند الله، والله لا يهدي القومَ الظالمين، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً عند الله وأولئك هم الفائزون، يُبشرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ، خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم﴾[٣].

فضل عمارة المساجد ـ ولا سيما بيت الله الحرام ـ عظيم عند الله تعالى، ولكنه يفضله الجهاد في سبيل الله، لأنه لولا الجهاد في سبيل الله ما عُمِرت المساجد، بل تُهدَّم ويصد عن سبيل الله فيها.

قال ابن القيم رحمه الله: (فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يستوي عنده عُمّار المسجد الحرام، وهم عُمّارهُ بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن، وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد

---

(١) المائدة ٥٤ ـ ٥٦.

(٢) الحج: ٤٠، ٤١.

(٣) التوبة: ١٩ ـ ٢١.

في سبيل الله، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده، وأنهم هم الفائزون، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعُمّار المسجد الحرام مع أنواع العبادة، مع ثنائه على عُمّاره بقوله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، ولم يَخْشَ إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾[١]، فهؤلاء هم عُمّار المساجد ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم)[٢].

وأي فضل أعظم من عبادة تحقق لصاحبها الرحمة والجنات والرضوان الذي هو غاية المؤمن ومطمح بصره؟

وإذا كانت هذه الآية تبشِّر المؤمن بهذا الفضل العظيم فإن آيات أخرى تنكر على المؤمن طلب هذا الفضل بدون الجهاد في سبيل الله: ﴿أمْ حسبتم أن تدخلوا الجنَّةَ ولَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرين﴾[٣].

فوز على كل حال

قال تعالى: ﴿قل هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحُسْنَيين ونحن نتربَّص بكم أن يُصيبكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا، فتربَّصوا إنا معكم متربِّصون﴾[٤].

المجاهدون في سبيل الله فائزون على كل حال، فإن انتصروا على عدوهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم وسبوا نساءهم وذراريهم، نالوا أجر قتالهم وعُزوا وذَلَّ الكفر وأهله، فكانت حُسْنى لهم.

وإن كانت الأخرى فقُتلوا هم في سبيل الله نالوا الشهادة التي لا يعطيها الله إلا من اصطفاه، فكانت أعظمَ الحُسْنَيين، بخلاف الأعداء الكفرة، فإنهم لا ينتظرون إلا إخزاء الله لهم وإذلالهم بانتصار أوليائه عليهم ـ وذلك وبال عليهم ـ وعذاب الله لهم في نار جهنم وهو أشد وبالاً.

وإذا كان الجهاد في سبيل الله هذه حاله فوز على كل حال؛ فأيُّ فضل

---

(١) التوبة: ١٨.
(٢) طريق الهجرتين ٦٢٣ طبع قطر.
(٣) آل عمران: ١٤٢.
(٤) التوبة: ٥٢.

يوازي هذا الفضل وأيّ خسارة ينالها من يفرط فيه؟

هذا بالإضافة إلى خسارة عدو المجاهدين على كل حال كما مضى.

حياة غالية

قال تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يُرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خَلْفهم ألاَّ خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يُضيع أجر المؤمنين﴾[1].

يحدِّد الله آجال الناس كلِّهم في هذه الحياة، فيفارقونها، وتُوارى أجسادهم في التراب، ولكن المجاهدين الذين يقتلون في سبيل الله لا تنقطع حياتهم، على الرغم أنهم في الظاهر يموتون كغيرهم وتُوارى أجسادهم التراب، بل ينتقلون إلى الحياة الحقيقية الغالية التي يجري عليهم فيها الرزق الحقيقي الذي لا انقطاع له مثل حياتهم، ولا يصيبهم حَزَن ولا هم، بل هم في سرور مستمر واستبشار بمن وراءهم من المؤمنين الذين يتمنون لهم اللحاق بهم واستبشار بنعمة الله وفضله وجزيل أجره ومثوبته.

والناس ـ في الدنيا ـ لا يشعرون بهذه الحياة الغالية، وذلك الرزق الدائم والاستبشار السار، ولكن عدم شعورهم لا يبيح لهم إنكار تلك الحياة، بل لا يبيح لهم أن يقولوا ـ قولاً ـ أن الذين قتلوا في سبيل الله أموات: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾[2].

ويصبح الشهيد في موكب تتطلع نفوس المؤمنين بالله إلى مرافقته موكب الأنبياء والصدِّيقين والصالحين: ﴿ومن يُطِعَ الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً﴾[3]، وكفى بذلك فضلاً.

---

(١) آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١.

(٢) البقرة: ١٥٤.

(٣) النساء: ٦٩.

سوق الملأ الأعلى في الأرض

قال تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّةٌ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألَن يَكفيكم أن يمدَّكم ربُّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين، بلى إن تصبروا وتتقُّوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين. وما جعله الله إلا بُشْرى لكم، ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾(١).

وقال: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمِدُّكم بألف من الملائكة مُرْدِفين، وما جعله الله إلا بُشْرى ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيزٌ حكيمٌ﴾(٢).

وقال: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبِّتوا الذين آمنوا، سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بَنانٍ﴾(٣).

وقال: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حُنَين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ثم وَلَّيتم مُدْبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تَرَوها وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾(٤).

وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيراً﴾(٥).

المجاهد في سبيل الله الذي هو بشر يأكل ويشرب ويجوع ويعطش ويتعب ويطيع ويعصي ويتوب، يلتقي في أرض المعركة مع أخ له جاء من الملأ الأعلى لا يعصي الله ما أمره، ولا يأكل ولا يشرب ولا يعطش ولا يجوع، وما جعلت

---

(١) آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٧.
(٢) الأنفال: ٩، ١٠.
(٣) الأنفال: ١٢.
(٤) التوبة: ٢٥ ـ ٢٦.
(٥) الأحزاب: ٩.

هذه الأرض مأوى له، وما كان في حاجة إلى أن يحيط به غبارها، ولكنه علم أن لهذا المجاهد سوقاً رابحة وأراد ربُّه أن يريه هذا الإنسان المؤمن الذي جعله خليفة في الأرض كيف يصارع الباطل وأهله في سبيل الله، وأن يتعاون أهل الملأ الأعلى مع المؤمنين في الأرض على إحقاق الحق وإبطال الباطل بالقوة والبذل والتضحية، وأي فضل مثل هذا الفضل، يلتقي البشر في الأرض بالملائكة في الأرض متعاونين على طاعة الله مجاهدين في سبيله؟

ألا ما أربحها من سوق لا يتخلّف عنها ملائكة السماء.

شهادة بالدم

قال الله تعالى: ﴿إن يمسَسْكم قَرحٌ فقد مَسَّ القوم قَرْحٌ مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلَم الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين﴾(١).

يطلب الله من عباده أن يشهدوا له بالوحدانية، فيستجيب له عباده المؤمنون، وفي طليعتهم الملائكة وأولو العلم من البشر: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾(٢).

يشهد المؤمنون لله بالوحدانية بأقوالهم وأفعالهم كلِّها: ﴿قُلْ إنّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾(٣).

ومن هؤلاء يصطفي الله لنفسه من يَفْضُل غيره من المؤمنين في أداء هذه الشهادة، أولئك هم المجاهدون الذين يشاركون المؤمنين في أداء الشهادة باللسان والفعل، ويزيدون عليهم فيشهدون بأن هذا الدين حق ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، حتى تراق دماؤهم، فتكتب الشهادة في الأرض ويُبعثون يوم القيامة شاهدين بتلك الدماء، وهي شهادة تثبت لكل ذي شك بأنها حق ﴿ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٤٠.
(٢) آل عمران: ١٨.
(٣) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٤) الحديد ٢١، الجمعة: ٤.

سمو الهدف

قال تعالى: ﴿فَلْيُقاتِل في سبيل الله الذين يَشْرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومَنْ يُقاتل في سبيل الله فيُقْتل أو يَغْلِب فسوف نُؤتيه أجراً عظيماً، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين يقولون ربَّنا أخرجنا من هذه القريةِ الظالمِ أهلُها واجعل لنا من لَدُنْك ولياً، واجعل لنا من لَدُنْك نصيراً، الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[1].

إن فضل الجهاد يكفي في إظهاره سمو هدفه وما يحققه من خير، فالمجاهد يُقاتل في سبيل الله، وعدوه يقاتل في سبيل الطاغوت، وهو يقاتل لدفع الأذى والفتنة عن المستضعفين، وعدوه يقاتل لإنزال الأذى والفتنة عليهم.

الفرع الثاني
الأحاديث الواردة في فضل الجهاد

حِرْصُ الصحابة على معرفة أفضل الأعمال وممارستها:

لقد كان أصحاب رسول الله ـ لشدة حرصهم على الإكثار من طاعة الله والاستزادة منها ـ يسألون رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال التي تُرضي ربهم عنهم، فيجيبهم على أسئلتهم، وقد تختلف إجابته من شخص لآخر، أو من حالة لأخرى، إذ أن السائل قد ينقصه أداء عمل من الأعمال الصالحة، فيذكره الرسول ﷺ حَثًّا على أدائه، وقد يكون المقام يقتضي أداء عمل آخر من الأعمال الصالحة لحاجة المسلمين إليه، فيذكره ﷺ في إجابته حضاً على القيام به.. وهكذا.

سأل ابن مسعود رضي الله عنه الرسول ﷺ، كما روى ذلك هو قال: (سألت رسول الله ﷺ: قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة

(١) النساء: ٧٤ ـ ٧٦.

على ميقاتها» قلت: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين» قلت ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» فسكت رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني)(١).

فقد جعل الرسول ﷺ الجهاد في هذا الحديث في الدرجة الثالثة بعد حق الله، وحق الوالدين.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: دُلَّني على عمل يعدل الجهاد، قال: «لا أجده»، قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟» قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: (إن فرس المجاهد ليستنُّ في طِوَله(٢)، فيكتب له حسنات)(٣).

هذا الصحابي السائل كان يعلم فضل الجهاد، فأراد ـ والله أعلم ـ أن يدلَّه الرسول ﷺ على عمل يساويه يستطيع المداومة عليه في غير وقت الحرب. أو أنه إذا عجز عن مباشرة الجهاد الذي علم فضله يأتي بالعمل الذي يعدله وهو يقدر عليه، وفي كلتا الحالتين هو يدلُّ على حرص الصحابة رضي الله عنهم على زيادة العلم بالأعمال التي لها فضل كبير ليزاولوها وينالوا من الله ثوابها.

وقد أجابه الرسول ﷺ بجوابين، كل منهما يدل على فضل الجهاد العظيم: الجواب الأول: قوله: «لا أجده»، أي لا أجد عملاً يعدل الجهاد وهو واضح في أفضلية الجهاد على ما سواه من الأعمال.

الجواب الثاني: قوله: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر»، وهذا الجواب كذلك يدل على أفضلية الجهاد على ما سواه من الأعمال، لأن القيام المستمر الذي لا فتور معه، والصيام المتواصل الذي لا إفطار معه غير مستطاعَيْن، كما أجاب بذلك السائل رسول الله ﷺ: (ومن يستطيع ذلك؟) وأقره الرسول ﷺ على هذا الجواب. وقد

(١) البخاري، رقم الحديث ٢٧٨٢، فتح الباري (٦/ ٣)، ومسلم (١/ ٨٩).
(٢) أي يذهب ويجيء في مرح ونشاط وهو مربوط في حبله، الفتح (٦/ ٥).
(٣) البخاري، رقم ٢٧٨٥، فتح الباري (٦/ ٤)، ومسلم (٣/ ١٤٩٨).

نهيٍ هو ﷺ عن إجهاد النفس في القيام والوصال في الصيام، وإنما أراد ﷺ أن يبين للسائل أن الاستمرار في القيام بالأعمال الصالحة مجتمعة ـ لـو كانت مستطاعة ـ قد تعدل الجهاد، وفي هذا ما فيه من بيان فضل الجهاد في سبيل الله.

قال الحافظ: (وهذه فضيلة ظاهرة للمجاهد في سبيل الله تقتضي ألَّا يعدل الجهاد شيء من الأعمال)، وقال أيضاً: (قال القاضي عياض: اشتمل حديث الباب على تعظيم أمر الجهاد، لأن الصيام وغيره مما ذكر من فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهاد، حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها، ولهذا قال ﷺ: «لا تستطيع ذلك»)[١].

يضاف إلى ذلك تعقيب أبي هريرة رضي الله عنه: (إن فرس المجاهد ليستنُّ في طِوَله فيكتب له حسنات)، والظاهر أن القاضي عياض يشير إلى هذا بحالات المجاهد وتصرفاته المباحة.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قيل يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله» قالوا: ثم مَنْ؟ قال: «مؤمن في شِعْب من الشِّعاب، يتقي الله ويَدَعُ الناس من شره»[٢].

في هذا الحديث ـ كذلك ـ يبدو حرص الصحابة على التنافس في الأعمال الصالحة التي هي أحب إلى الله، والسؤال هنا عن أفضل الناس، ولا يكون أفضل الناس إلا إذا أتى بأفضل ما يحبه الله ورسوله، وإجابة الرسول ﷺ واضحة في تعظيم الجهاد في سبيل الله حيث جعل المؤمن المجاهد هو أفضل الناس. بخلاف المؤمن المتقي الذي قَصَر نفسه على نفسه ـ أي إن أعماله الصالحة لا تتعداه إلى غيره ـ فإنه جاء في الدرجة الثانية، ثم إن هذا المؤمن المتقي الذي انزوى في شِعْب من الشِّعاب لا يكون له هذه الدرجة الثانية إلا إذا

---

(١) الفتح (٦/ ٥).
(٢) البخاري، رقم ٢٧٨٦، فتح الباري (٦/ ٦)، ومسلم (٣/ ١٥٠٣).

كان لا بد من الانزواء مثل أن يكون الزمن زمن فتنة بين المسلمين[١]، وإلا فإن الاختلاط بالناس ونصحهم مع تقوى الشخص في نفسه أفضل من المتقي المنزوي بدون سبب.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لَكُنَّ أفضل الجهاد، حجٌ مبرور»[٢].

في هذا الحديث دلالة واضحة على فضل الجهاد وتعظيمه من وجوه: الوجه الأول تطلُّع النساء إلى ما سبقهن به الرجال من هذا الفضل. الوجه الثاني قول عائشة رضي الله عنها: نرى الجهاد أفضل العمل وإقرار الرسول ﷺ لقولها. الثالث قوله ﷺ: «لَكُنَّ أفضل الجهاد حج مبرور» قيَّد كَوْن الحج أفضل الجهاد بكونه للنساء: «لَكُنَّ» وفي هذا زيادة تأكيد لكون الجهاد أفضل الأعمال لغير النساء.

وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: (كُنَّا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلالاً صاحب الكِساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصُوَّام وقام المفطرون، فضربوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر»)[٣].

ويظهر في هذا الحديث فضل من قام بالخدمة في الغزو وهو مفطر، على من صام وعجز عن الخدمة لمشقة الصوم.

قال الحافظ رحمه الله: («بالأجر» أي الوافر، وليس المراد نقص أجر الصوم، بل المراد أن المفطرين حصل لهم أجر عملهم ومثل أجر الصوام لتعاطيهم أشغالهم وأشغال الصُوَّام...) إلى أن قال: (قال ابن أبي صُفْرة: فيه أن أجر الخدمة في الغزو أعظم من أجر الصيام: قلت: وليس ذلك على العموم)[٤].

(١) راجع فتح الباري (٦/ ٧).
(٢) البخاري، رقم ٢٧٨٤، فتح الباري (٦/ ٤).
(٣) البخاري، رقم ٢٨٩٠، فتح الباري (٦/ ٨٤)، ومسلم (٢/ ٧٨٨).
(٤) فتح الباري (٦/ ٨٤).

قال الباحث: هو كذلك في كل حالة تشبه هذه الحالة: من قام بأعمال الغزو كان أفضل ممن قام بعبادة لازمة شغلته عن عمل الغزو، لأن الجهاد أفضل العمل لا سيما في مثل هذا الوقت الذي يكون المسلمون أحوج فيه إلى التعاون في أعمال الجهاد. والله أعلم.

درجات المجاهدين:

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال قال النبي ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشِّر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»[١].

بيَّن الرسول ﷺ في هذا الحديث حدّاً أدنى يقف عنده من أراد دخول الجنة غير منافِسٍ في درجاتها العلى، وهو أن يؤمن بالله ورسوله، ويقيم الصلاة ويصوم رمضان، ولو لم يجاهد في سبيل الله، وحدّاً أعلى لمن طمحت نفسه إلى الفردوس والمنافسة في الدرجات العلى.

وعندما سمع الصحابة رضي الله عنهم الشِّقَّ الأول من الحديث فرحوا به وطلبوا من الرسول ﷺ أن يأذن لهم بأن يبشروا الناس بذلك، فانتقل بهم إلى ما هو أعظم وأفضل، وهو بيان درجات المجاهدين التي لا ينالها غيرهم من الصنف الأول.

وليس في الحديث تسوية بين الجهاد وعدمه، كما توهم بعض العلماء من قوله ﷺ: «جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» بل فيه أن أصل دخول الجنة مضمون له جاهد أو لم يجاهد، وهذا هو الحدُّ الأدنى كما مضى، أما الحدُّ الأعلى فقد ذكره بقوله: «إن في الجنة مائة درجة» الحديث،

(١) البخاري رقم ٢٧٩٠، فتح الباري (٦/ ١١).

وهذه علّة لترك التبشير، أي لا تبشِّروهم بما سبق ليتجاوزوه إلى الأفضل وهو أن في الجنة مائة درجة... إلخ....

كما بين ذلك الحافظ مستدلاً برواية الترمذي ونصها: (قلت يا رسول الله ألا أخبر الناس؟ قال: «ذر الناس يعملون، فإن في الجنة مائة درجة») قال الحافظ فظهر أن المراد لا تبشر الناس بما ذكرته من دخول الجنة لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه، فيقفوا عند ذلك ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد(١).

الجنة تحت ظلال السيوف:

عن عبدالله بن أبي أوفَى رضي الله عنه، كتب إلى عمر بن عبيد الله حين خرج إلى الحروريّة: أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس، فقَال: «يا أيها الناس لا تمنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف»(٢).

وأي فضل أكبر من هذا الفضل؟ يصول المجاهد ويجول في حومة الوغى وهو يعلم أنه يتجوَّل في عرصَات الجنة تحت ظل سيفه وسيف عدوه، وما أن يسقط في هذه الأرض حتى يرى مقعده في الجنة وتُظله الملائكة(٣).

فضل الشهداء وكرامتهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «انتدب الله لمن خرج في سبيله، لا يُخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي، أن أُرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خَلْف سريَّة، ولوددتُ

(١) فتح الباري (٦/ ١٢).
(٢) البخاري، رقم ٣٠٢٤، فتح الباري (٦/ ١٥٦) ومسلم (٣/ ١٣٦٢).
(٣) سيأتي هذان المعنيان قريباً.

أني أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أُقتل، ثم أحيا ثم أُقتل»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»[٢].

فالمجاهد ـ كما يظهر من حديث أبي هريرة ـ رابح على كل حال، انتصر على عدوه فعاد إلى بيته غانماً مأجوراً، أم استشهد فدخل الجنة، وهذه الأخيرة هي الكرامة التي ميَّز الله بها الشهيد حيث لا يتمنى أحد غيره أن يحييه الله حياة أهل الدنيا ويخرجه من الجنة ليعود إلى الدنيا ليقاتل في سبيل الله فيقتل مراراً، لما رأى من الخير العظيم المترتب على الشهادة في سبيل الله، لا بل إن رسول الله ﷺ صاحب المقام المحمود الذي ما كان يقعد خَلْف سراياه إلا إشفاقاً على أمته بأن تكلِّف نفسها الخروج في كل سرية مثله فيشق ذلك عليها، إنه ﷺ ليتمنىً أن يقتل ثم يحيا ثم يقتل في سبيل الله حباً في كرامة الشهداء عند الله، قال الحافظ: (قال ابن بطال: هذا الحديث ـ حديث أنس ـ أجل ما جاء في فضل الشهادة)[٣].

أي شيء نشتهي:

عن مسروق قال سألنا عبدالله ـ هو ابن مسعود ـ عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون﴾[٤] قال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خُضْر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل

---

(١) البخاري رقم ٣٦، فتح الباري (١/ ٩٢) ومسلم (٣/ ١٤٩٧).
(٢) البخاري رقم ٢٨١٧، فتح الباري (٦/ ٣٢) ومسلم (٣/ ١٤٩٨).
(٣) فتح الباري (٦/ ٣٣).
(٤) آل عمران ١٦٩.

في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»(١).

وإنه في جنّة الفردوس:

عن أنس رضي الله عنه، قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، قد عرفتَ منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع، فقال: «ويحك أو هَبِلْتِ؟ أَوَ جنةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس»(٢).

اللون لون الدم والريح ريح المسك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «كل كَلْمٌ يكلمه المسلم في سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت تفجَّر دماً، اللون لون الدم والريح ريح المسك»(٣).

ينطلقون في الغُرَف العُلَى من الجنة:

عن نعيم بن همار الغطفاني رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الشهداء أفضل؟ قال: «الذين إن يُلقَوا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك ينطلقون في الغرف العلى في الجنة، ويضحك إليهم ربهم، وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه»(٤).

يعطى الشهيد ست خصال «أو نقد الثمن»:

عن قبس الجُذامي ـ رجل كانت له صحبة ـ قال: قال النبي ﷺ: «يعطى

(١) مسلم (٣/ ١٥٠٢).
(٢) البخاري رقم ٢٨٠٩، ٣٩٨٢، فتح الباري (٦/ ٢٥).
(٣) البخاري رقم ٢٣٧، فتح الباري (١/ ٣٤٤) ومسلم (٣/ ١٤٩٦).
(٤) أحمد (٥/ ٢٨٧) قال البنّا في الفتح الرباني (١٣/ ٣٠): وقال الهيثمي رجال أحمد وأبي يعلى ثقات.

الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكفَّر عنه كل خطيئة، ويُرى مقعده في الجنة، ويُزوَّج من الحور العين، ويُؤمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر، ويُحلَّى حُلَّة الإيمان»(١).

قال الحافظ: (وروى ابن ماجه من طريق شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: ذُكر الشهيد عِند النبي ﷺ، فقال: «لا تجف الأرض من دم الشهيد حتى تبتدره زوجاته من الحور العين، وفي يد كل واحدة منهما حُلّة خير من الدنيا وما فيها». ولأحمد والطبراني من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: (إن للشهيد عند الله سبع خصال - فذكر الحديث، وفيه: - ويُزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين) إسناده حسن، وأخرجه الترمذي من حديث المقدام بن مَعْدِ يكرب، وصحُحه)(٢).

لا يفضله النبيون الا بدرجة النبوة:

عن عُتبة بن عبد السُّلَمي رضي الله عنه - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال: قال رسول الله ﷺ: «القتلى ثلاثة: رجل مؤمن قاتل بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى يقتل، فذلك الشهيد المفتخر» وفي رواية الممتحن(٣) في خيمة الله تحت عرشه، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة. ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا، وجاهد بنفسه وما له في سبيل الله، حتى إذا لقِي العدو قاتل حتى يقتل، مُحيت ذنوبه وخطاياه، إن السيف محّاء الخطايا، وأُدخل من أي أبواب الجنة شاءِ، فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض. ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقى العدو قاتل في سبيل الله في ظاهر أمره حتى يقتل، فإن ذلك في النار، السيف لا يمحو النفاق»(٤).

---

(١) أحمد (٤/ ٢٠٠) قال البُنا في الفتح الرباني (١٣/ ٣٠): أخرجه ابن سعد وسنده جيد.

(٢) فتح الباري (٦/ ١٥، ١٦).

(٣) رجَّح هذه الرواية البنا في الفتح الرباني (١٣/ ٣٢).

(٤) أحمد (٤/ ١٨٥)، قال البنا: واسناده جيد، وانظر الجهاد لابن المبارك (١/ ٣٠).

تُظُلُّه الملائكة بأجنحتها:

عن جابر قال: لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب النبي ﷺ ينهونني، والنبي ﷺ لم يَنْه، وقال النبي ﷺ: «لا تبكِه مازالت الملائكة تظلُّه بأجنحتها حتى رفع»(١).

رضي عنهم وأرضاهم:

عن أنس رضي الله عنه، قال: بعث النبي ﷺ أقواماً من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم، فإن أمَّنُوني حتى أبلِّغهم عن رسول الله ﷺ، وإلا كنتم مني قريباً، فتقدَّم فأمَّنوه، فبينما يحدِّثهم عن النبي ﷺ، إذ أومؤا إلى رجل منهم، فطعنه فأنفذه، فقال: (الله أكبر، فُزْت وربِّ الكعبة) ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجل أعرج صعد الجبل، قال همام - أحد رجال السند - فأراه آخر معه، فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ أنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم، فكُنَّا نقرأ: أن بلِّغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخ بعد. فدعا عليهم اربعين صباحاً على رِعْل وذَكْوان وبني لحيان وبني عُصَيّة، الذين عَصُوا الله ورسوله(٢).

ورضا الله هو غاية ما يسعى إلى حصوله المؤمنون.

أفضل الدور وأحسنها: دار الشهداء:

عن سمرة قال: قال النبي ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتياني، فصعدا بي الشجرة، وأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل، لم أرَ قط أحسن منها، قال: أمَّا هذه الدار فدار الشهداء»(٣).

الأوسمة النبوية للمجاهدين: سيف من سيوف الله:

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ، نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة

(١) البخاري (رقم ٨٠٤٠)، فتح الباري (٧/ ٣٧٤).
(٢) البخاري رقم ٢٨٠١، فتح الباري (٦/ ١٨) ومسلم (٣/ ١٥١١).
(٣) البخاري رقم ٢٧٩١، فتح الباري (٦/ ١١).

للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»(١).

إذا كان من يسمُّونهم بالقواد العظام من عُبَّاد الدنيا والطغاة والجاه والثناء يستبسلون في بعض المعارك مع أعدائهم لينالوا رتباً عسكرية، أو تُخلَّد ذكراهم ـ كما يقولون ـ بإطلاق أسمائهم على بعض الشوارع في المدن أو غير ذلك مما يرونه تكريماً لهم؛ فإن المجاهد المسلم ينال أشرف ثناء وينال أعلى الأوسمة الإلهية والنبوية، ثناء صدق ووسام شرف، وها هوذا أحد أبطال الإسلام وقادته العظام حقاً ينال هذا اللقب النبوي الخالد على مدى الدهر: «سيف من سيوف الله» وهو وسام يناسب العمل الذي قام به خالد رضي الله عنه، لأن وظيفته كانت الجهاد في سبيل الله، فناسب أن يلقب بسيف الله، لأنه أذل أعداء الله وانتصر عليهم بمقارعته لهم بالسيوف فإذا ذكره المسلمون على ألسنتهم لم يذكروا اسمه أولاً، وإنما يذكرون هذا اللقب الذي أكرمه الله به على لسان رسوله ﷺ، فيقولون: سيف الله خالد. ولو لم يكن خالد رضي الله عنه أبلى في سبيل الله بلاءً حسناً وقاد جيوش الإسلام للجهاد في سبيل الله لما حاز هذا الشرف وما نال هذا الوسام الإلهي العظيم.

يا ابن ذي الجناحين:

وينتقل المجاهد إلى جوار ربه وينال رضوانه، وينال أقاربه التكريم من أجله.

وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا سلَّم على ابن جعفر قال له: (السلام عليك يا ابن ذي الجناحين)(٢).

بعد أن هنأه الرسول ﷺ باستشهاد أبيه وما ناله من تكريم الله له بقوله: «هنيئاً لك، أبوك يطير مع الملائكة في السماء»، قال الحافظ: (أخرجه الطبراني باسناد حسن. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت جعفر بن أبي

(١) البخاري رقم ٣٩٥٢، فتح الباري (٧/ ٢٨٧).
(٢) البخاري، رقم ٣٧٠٩، فتح الباري (٧/ ٧٥).

طالب يطير مع الملائكة» أخرجه الترمذي والحاكم، وفي إسناده ضعف لكن له شاهد من حديث علي عند ابن سعد، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مر بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة، وهو مُخضَّب الجناحين بالدم» أخرجه الترمذي والحاكم بإسناد على شرط مسلم، وأخرج أيضاً هو والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: (دخلت البارحة الجنة، فرأيت فيها جعفر يطير مع الملائكة) وفي طريق أخرى عنه إن جعفراً يطير مع جبريل وميكائيل له جناحان عوضه الله من يديه، وإسناد هذه جيد، وطريق أبي هريرة في الثانية قوي إسناده على شرط مسلم)[1].

كانت تزفر لنا القرب يوم أحد:

عن ثعلبة بن أبي مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسَّم مُروطاً بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرْط جيد، فقال له بعض من عنده: (يا أمير المؤمنين، أعْطِ هذا بنت رسول الله ﷺ - يريدون أم كلثوم بنت علي) - فقال عمر: (أم سليط أحقُّ به وأم سليط من نساء الأنصار ممَّن بايع رسول الله ﷺ - قال عمر: فإنها كانت تَزْفُر لنا القِرَب يوم أحد)[2].

فقد قدّم عمر رضي الله عنه أم سليط على زوجه أم كلثوم حفيدة رسول الله ﷺ إكراماً لها على خدمتها في الغزو.

الثناء على القوم بكثرة شهدائهم:

عن قتادة قال: ما نعلم حيّاً من أحياء العرب أكثر شهيداً أغرّ يوم القيامة من الأنصار، قال: (وحدّثنا أنس بن مالك أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون)[3].

---

(١) فتح الباري (٧/ ٧٦).

(٢) البخاري رقم ٤٠٧١، فتح الباري (٧/ ٣٦٦).

(٣) البخاري، رقم ٤٠٧٨، فتح الباري (٧/ ٣٧٤).

وكذلك من شهد بدراً من الملائكة:

عن رافع الزُّرَقي قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: (ما تعدّون أهل بدر فيكم؟) قال: «من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها» ـ قال: «وكذلك من شهد بدراً من الملائكة»[١].

الملائكة الذين اشتركوا في معركة بدر مع المسلمين خيار الملائكة، كما أن الصحابة الذين شهدوها خيار المسلمين كما ورد ذلك صريحاً في بعض الروايات، سأل جبريل النبي ﷺ كيف أهل بدر فيكم؟ قال: «خيارنا» قال: «وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم خيار الملائكة»[٢] فالمجاهدون من الملائكة أفضل ممَّن سواهم.

خير من الدنيا وما فيها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَغدوةٌ في سبيلِ الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها» وفي رواية من حديث أبي هريرة: (خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب)[٣].

يخرج المجاهد في سبيل الله خَرْجة واحدة في أول النهار، أو خَرْجة واحدة في آخره، فتكون خَرْجته الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها، أي عمل يعدل هذا العمل؟ وأي نشاط يقوم به الإنسان ينيله هذا الفضل الكبير؟

وليس المراد من الحديث المفاضلة بين الدنيا وما فيها وبين الغدوة الواحدة أو الروحة الواحدة في سبيل الله، بمعنى أنهما يشتركان في الخير وتفضل الغدوة أو الروحة على الدنيا في الخير، كما قد يتوهَّم ذلك، لأن الدنيا لا تساوي ذرة من الجنة.

قال الحافظ: (قال ابن دقيق العيـد[٤]: يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون

---

(١) البخاري رقم ٣٩٩٢، فتح الباري (٧/ ٣١١).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣١٣).

(٣) البخاري، رقم ٢٧٩٢، فتح الباري (٦/ ١٣)، ورقم ٢٧٩٣ أيضاً، ومسلم (٣/ ١٤٩٩).

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٤/ ٥٠٤) بحاشية العدّة للأمير الصنعاني، وما نقله الحافظ ليس مطابقاً تماماً لنص ابن دقيق العيد وإن كان المعنى واضحاً فيه.

من باب تنزيل المُغَيَّب منزلة المحسوس تحقيقاً له في النفس، لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع، فلذلك وقعت المفاضلة بها، وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي ذرة مما في الجنة).

والثاني: أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها، لأنفقها في طاعة الله تعالى. قلت ـ القائل هو ابن حجر: ويؤيِّد هذا الثاني ما رواه ابن المبارك في كتاب الجهاد[1] من مرسل الحسن، قال: بعث رسول الله ﷺ جيشاً فيهم عبدالله بن رواحة فتأخَّر ليشهد الصلاة مع النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوتهم».

والحاصل أن المراد تسهيل أمر الدنيا، وتعظيم أمر الجهاد، وأن من حصل له من الجنة قَدْرَ سَوْطَ يصير كأنه حصل له أمر أعظم من جميع ما في الدنيا، فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات؟ والنكتة في ذلك أن سبب التأخر عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا، فنبه هذا المتأخر أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما في الدنيا[2].

أمن دائم ورزق مدرار وعمل صالح مستمر:

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباطُ يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضعُ سَوْط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، والرَّوْحة يروحها العبد في سبيل الله والغدوة خيرٌ من الدنيا وما عليها»[3].

وعن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتَّان»[4].

مرابطة المجاهد في ثغر من ثغور المسلمين لحماية البلاد الإسلامية من

(١) الجهاد (١/ ٣٤).
(٢) فتح الباري (٦/ ١٤).
(٣) البخاري رقم ٢٨٩٢، فتح الباري (٦/ ٨٥).
(٤) مسلم (٣/ ١٥٢٠).

الأعداء، أو للانقضاض عليهم عند الحاجة؛ لها منزلة عظيمة عند الله تعالى، فهي خير من الدنيا وما عليها يحوزها المؤمن فينفقها في طاعة الله، لا بل إن رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، يضاف إلى ذلك أن رزقه دائم لا ينقطع، وأمنه مستمر، لا يخاف من موت ولا مرض ولا نَصَب ولا غير ذلك، وهذا جزاء من الله للمجاهد الذي اقتحم المكاره وألقى بنفسه في المخاوف والأتعاب من جوع وعطش وغيرهما.

قال النووي رحمه الله: (هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجَرَيان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد، وقد جاء صريحاً في غير مسلم: (كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمى له إلى يوم القيامة)[١] وقوله ﷺ: «واجري عليه رزقه» موافق لقول الله تعالى في الشهداء: ﴿أحياء عند ربهم يُرزقون﴾[٢]، والأحاديث السابقة أن أرواح الشهداء تأكل من ثمار الجنة)[٣].

وقال ابن قدامة رحمه الله في تفسير معنى الرباط وبيان فضله: (معنى الرباط الإقامة بالثغر مقوِّياً للمسلمين على الكفار، والثَّغْر كل مكان يخيف أهله العدو ويخيفهم. وأصل الرباط من رباط الخيل، لأن هؤلاء يربطون خيولهم، وهؤلاء يربطون خيولهم، كلٌّ يُعِدُّ لصاحبه، فسُمِّي المقام بالثغر رباطاً، وإن لم يكن فيه... وأفضل الرباط المقام بأشد الثغور خوفاً، لأنهم إليه أحوج، ومقامه به أنفع..)[٤].

طوبى لعبد... إن كان في الحِرَاسة كان في الحِرَاسة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «طوبى لعبدٍ آخذٍ بعِنَان فرسه في سبيل الله، أشعثَ رأسُه، مغبرَّةٍ قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن اُستأذن لم يؤذن له، وإن شُفِّع له يُشفَّع»[٥].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٣/٦١).
(٢) آل عمران.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم(١٣/ ١٦).
(٤) المغني (٩/ ٢٠٣) وما بعدها.
(٥) البخاري، رقم ٢٨٨٧، فتح الباري (٦/ ٨١).

أثنى الرسول ﷺ على المجاهد في سبيل الله الذي لزم سلاحه وأعدَّ نفسه لذلك، حتى اغبَّر جسمه، وانتفش شَعَره، لبعده عن الترف والتنعم والراحة، وملازمته لطاعة الله والجهاد في سبيله، إذا رآه الناس لم يهتموا به، لتواضعه ومظهره الذي لا وجاهة فيه، أثنى عليه الرسول ﷺ أينما كان عمله ما دام في سبيل الله، حارساً أم في مؤخرة الجيش، وطوبى اسم للجنَّة ونعيمها[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ سَهِر، فلما قدم المدينة، قال: «ليت رجلاً من أصحابي صالحاً يحرسني الليلة» إذْ سمع صوت سلاح، فقال: «من هذا»؟ فقال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك، ونام النبي ﷺ[٢].

أثنى ﷺ على من يحرسه من أصحابه بصفة الصلاح، والصالح في اصطلاح الشرع من نماذج القدوة الحسنة التي أثنى الله على من رافقها في صراطه المستقيم: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[٣].

قال الحافظ: (ورد في فضل الحراسة عدة أحاديث ليست على شرط البخاري منها حديث عثمان مرفوعاً: (حرس ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة يُقام ليلها ويصام نهارها) أخرجه ابن ماجه[٤] والحاكم[٥]، وحديث سهل بن معاذ عن أبيه مرفوعاً: (من حرس وراء المسلمين متطوِّعاً لم يَرَ النار بعينه إلا تَحِلَّة القسم) أخرجه أحمد[٦].

وحديث أبي ريحانة مرفوعاً: (حُرِّمت النار على عين سهرت في سبيل الله)

---

(١) راجع النهاية في غريب الحديث (٣/ ١٤١).
(٢) البخاري: رقم الحديث ٢٨٨٥، فتح الباري (٦/ ٨١)، ومسلم (٤/ ١٨٧٥).
(٣) النساء: ٦٩.
(٤) (٢/ ٩٢٤) ولكن لفظه: «من رابط ليلة في سبيل الله سبحانه كانت كألف ليلة صيامها وقيامها» واللفظ المقارب لما ذكره الحافظ هو من حديث أنس (٢/ ٩٢٥).
(٥) (٢/ ٨١) ولفظه كما ذكر الحافظ إلا أن فيه «أفضل» بدل «خير».
(٦) (٣/ ٤٣٧) من حديث معاذ بن أنس الجهني.

أخرجه النسائي(١)، ونحوه للترمذي عن ابن عباس(٢)، وللطبراني في حديث معاوية، ولأبي يَعْلَى من حديث أنس، وإسنادها حسن، وللحاكم عن أبي هريرة نحوه(٣).

فداك أبي وأمي:

عن عبدالله بن الزبير قال: كنت يوم الأحزاب جُعِلتُ أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت: يا أبتي رأيتك تختلف، قال: أو هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم: قال كان رسول الله ﷺ قال: «من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم» فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه، فقال: «فداك أبي وأمي»(٤).

لقد كان من النادر أن يجمع الرسول ﷺ لأحد أبويه، فيقول: «فداك أبي وأمي»، وكان الذي يُعطاها يتلذَّذ بها ويذكرها على سبيل الاعتزاز والإكرام، وقد نالها الزبير رضي الله عنه، وهو ينفِّذ رغبة الرسول ﷺ في جمع المعلومات عن العدو، وهذا من الأدلة الواضحة على فضل أي عمل يؤدِّيه المسلم في باب الجهاد في سبيل الله. فليهنأ الزبير بهذا التكريم، وليقتد به من أراد فضل الله وثوابه في أخذ الحذر من العدو وجمع المعلومات عن كيده للمسلمين، وليخسأ من سلك السبيل الأخرى سبيل التجسس على المسلمين لأعداء الله.

والله ما وضعته:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أُصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له حِبّان بن العَرِقة، رماه في الأكحل، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح، واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار،

---

(١) (٦/ ١٣)، ولفظه: «حُرِّمت عين على النار سهرت في سبيل الله».

(٢) الترمذي رقم الحديث ١٦٩٠ تحفة الأحوذي، وقال الشارح وإما حديث ابي ريحانة فأخرجه أحمد ورواته ثقات... والحاكم وقال: صحيح الإسناد كذا في الترغيب» تحفة الأحوذي (٥/ ٢٦٩).

(٣) فتح الباري (٦/ ٨٣).

(٤) البخاري رقم ٣٧٢٠، فتح الباري (٧/ ٨١)، ومسلم (٤/ ١٨٧٩).

فقال: (قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعتُه، اخرج اليهم) قال النبي ﷺ: «فأين»؟ فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فرد الحكم على سعد، قال: (فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذريَّة، وأن تقسم الأموال)(١).

إن عملاً يجتمع عليه أهل السماء بأهل الأرض من عباد الله لإعلاء كلمة الله لهو أفضل الأعمال وأعلاها، وإذا كان جبريل عليه السلام لا يضع سلاحه، بل يواصل التحريض لأولياء الله على أعدائه، ويخوض غمار المعارك حتى يغطي الغبار رأسه فينفضه بيده؛ إذا كان جبريل يفعل ذلك ويحرص على الجهاد في سبيل الله فما بالك بفضيلة هذه العبادة العظيمة؟

من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله:

ومما يُظهر فضل الجهاد في سبيل الله هدفه العام الذي شرع من أجله، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٢).

فالذي يجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، لا لمغنم، ولا لذكر ورياء وإعلاء كلمة الله يتحقق به كل خير ويُقضى به على كل شر الذي يجاهد لذلك لا شك يحوز فضلاً لا يحوزه إلا من سلك سبيله.

الفرع الثالث

ذكر بعض أقوال السلف الصالح في فضل الجهاد والترغيب فيه

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان على علم تام بفضل الجهاد في سبيل الله وعظمته، وذلك ما حدا بهم إلى التسابق إليه والتنافس فيه.

(١) البخاري رقم ٤١١٧، فتح الباري (٧/ ٤٠٧)، ومسلم (٣/ ١٣٨٩).
(٢) البخاري رقم ٢٨١٠، فتح الباري (٦/ ٢٧)، ومسلم (٣/ ١٥١٢).

قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾[١] قال: (فنزلت آية القتال فكرهوها، فلمّا بيّن الله عز وجل ثواب أهل القتال وفضيلة أهل القتال، وما أعدَّ الله لأهل القتال من الحياة والرزق لهم؛ لم يُؤثر أهل اليقين بذلك على الجهاد شيئاً، فأحبوه ورغبوا فيه حتى إنهم يستحملون النبي ﷺ، فإذا لم يجدوا ما يحملهم تولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألا يجدوا ما ينفقون، والجهاد من فرائض الله)[٢].

وقال سيف الله خالد بن الوليد الذي ذاق حلاوة الجهاد في سبيل الله ـ بعد أن ذاق الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ـ وقضى حياته كلها مجاهداً، وأخذ يقارن بين مُتَع الحياة ممِّثلاً لها بعروس هو لها محب، أو بغلام بُشِّر به، والجهاد في سبيل الله، فيرى في هذا متعته وقرة عينه، قال رضي الله عنه: (ما من ليلة يُهدَى إلى فيها عروس أنا لها محب، أو أُبشَّر فيها بغلام، أحب إلي من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد في سرية أصبِّح فيها العدو)[٣].

وقال عمرو بن عتبة بن فَرْقد: (سألت الله عز وجل ثلاثاً فأعطاني اثنتين، وأنا انتظر الثالثة: سألته أن يزهِّدني في الدنيا فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر، وسألته أن يقوِّيني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها)[٤].

تأمل كيف كانوا يسألون الله التوفيق لأداء الشعائر التعبدية وللجهاد في سبيل الله ونيل الشهادة على حد سواء، وقارن بين هؤلاء وأهل الزوايا الذين لا يبالون أرتفعت راية الحق أم راية الباطل؟ ويكتفون بترديد بعض الهمهمات التي يزعمون أنها ذكر لله، وطغاة الباطل يقودون البشر إلى عبادة غير الله، أهؤلاء عُبَّاد لله فعلاً؟!.

انظروا هذا الجهاد فالزموه:

عن جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يقول: (لما حضر الناس باب عمر وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب وتلك الشيوخ من قريش،

(١) البقرة: ٢١٦.
(٢) الجهاد، لابن المبارك (١/ ٦٦).
(٣) نفس الكتاب (١/ ٩١).
(٤) نفس الكتاب (٢/ ١١٢).

فخرجٍ آذنه، فجعل يأذن لأهل بدر، لصهيب وبلال، وأهل بدر، وكان والله بدرياً، وكان يحبهم وكان قد أوصى بهم)، فقال أبو سفيان:

ما رأيت كاليوم قط، إنه يؤذن لهذه العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا!! فقال سهيل بن عمرو ـ ويا له من رجل ما كان أعقله ـ أيها القوم، إني والله لقد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل فيما لا ترون أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تنافسونهم عليه، ثم قال: أيها القوم، إن هؤلاء القوم سبقوكم بما ترون فلا سبيل لكم ـ والله ـ إلى ما سبقوكم إليه، وانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى أن يرزقكم شهادة، ثم نفض ثوبه فلحق بالشام، فقال الحسن: (صدق ـ والله ـ لا يجعل الله عبداً أسرع إليه كعبد أبطأ عنه)[1].

أبت البحوث:

وكان كبار الصحابة رضي الله عنهم يغزون وقد شاخوا، فيشفق عليهم الناس، وينصحونهم بالقعود عن الغزو، لأنهم معذورون، فيجيبونهم أن سورة التوبة تأبى عليهم القعود، ويخافون على أنفسهم من النفاق إذا ما تخلَّفوا عن الغزو:

عن جُبَير بن نُفَير قال: (جلسنا إلى المقداد بن الأسود بدمشق وهو يحدِّثنا وهو على تابوت ما به عنه فضل، فقال له رجل: لو قعدت العام عن الغزو؟ قال: أبت البحوث ـ يعني سورة التوبة ـ قال الله تبارك وتعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾[2] قال أبو عثمان: (بحثت المنافقين))[3].

قال ابن قدامة: (قال الأشرم: قال أحمد: لا نعلم شيئاً من أبواب البر أفضل من السبيل. وقال الفُضَيل بن زياد: سمعت أبا عبدالله ـ وذُكر له أمر العدو ـ فجعل يبكي ويقول: ما من أعمال البر أفضل منه. وقال عنه غيره: ليس بعد لقاء العدو شيء. ومباشرة القتال بنفسه أفضل الأعمال والذين

---

(١) الجهاد (١/ ٨٥، ٨٦).
(٢) التوبة: ٤١.
(٣) الجهاد (١/ ٨٨).

يقاتلون العدو هم الذين يدفعون عن الإسلام وعن حريمهم فأي عمل أفضل منه؟ الناس آمنون وهم خائفون، قد بذلوا مهج أنفسهم)[١].

وقال السرخسي: (وقد كان رسول الله ﷺ تارة يخرج وتـارة يبعث غيره، حتى قال: «وددت ألا تخرج سرية أو جيش إلا وأنا معهم، ولكن لا أجد ما أحملهم ولا تطيب أنفسهم بالتخلف عني»[٢]، «ولوددت أن أقاتل في سبيل الله تعالى حتى أقتل ثم أُحْيَا ثم أقتل»[٣] ففي هذا دليل على أن الجهاد وصفة الشهادة في الفضيلة بأعلى النهاية، حتى تمنى ذلك رسول الله ﷺ مع درجة الرسالة. والآثار في فضيلة الجهاد كثيرة وقد سمّاه الرسول ﷺ سنام الدين)[٤].

وفي حواشي تحفة المحتاج: (والأصل فيه الآيات الكثيرة والأحاديث الصحيحة الشهيرة، وأخذ منها ابن أبي عصرون أنه أفضل الأعمال بعد الإيمان، واختاره الأذرعي، وذكر أحاديث صحيحة مصرِّحة بذلك، أوَّلها الأكثرون بحملها على خصوص السائل أو المخاطب أو الزمن)[٥].

وقال ابن تيمية مشيراً إلى بعض فضائل الجهاد - في سياق دعوته الناس إلى قتال التتار - : (ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا﴾[٦] فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى، ولهذا قال الإمامان عبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر، فإن الحق معهم، لأن الله يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾)[٦].

وفي الجهاد أيضاً حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا، وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة

---

(١) المغنى (٩/ ١٩٩).
(٢) راجع صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٧).
(٣) راجع صحيح مسلم أيضاً (٣/ ١٤٩٧).
(٤) المبسوط (١٠/ ٣) وراجع جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٣٣٦، الطبعة الثالثة - الحلبي.
(٥) حواشي تحفة المحتاج على شرح المنهاج للنووي (٩/ ٢١١).
(٦) العنكبوت: ٦٩.

ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هي العليا.

وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود كما قال تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون﴾(١). والجنة اسم للدار التي حوت كل نعيم أعلاه النظر إلى الله، إلى ما دون ذلك ممّا تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مما قد تعرفه وقد لا تعرفه، كما قال الله تعالى: فيما رواه عنه رسول ﷺ: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(٢).

هذا، ولو أراد الباحث تتبُّع نصوص فضل الجهاد من الكتاب والسنة والواقع التاريخي لكان ذلك جديراً بمؤلف خاص، ولكنه أراد في ختام هذا المبحث أن يحدو بالمسلمين إلى هذا الفضل العظيم والتسابق فيه، فأحس بالعجز عن أن يؤثِّر حُداؤه، لأن الحادي الذي يؤثر حداؤه لا بدّ أن يكون من أهل المعنى الذي يحدو بالناس إليه، والباحث ليس كذلك، ويأبى الله أن يكون هذا من باب التواضع، ولكنه الواقع وما للواقع من دافع، لذلك عاد الباحث إلى أحد أئمة الجهاد فوجد بغيته عنده مما حدا به في زاد المعاد.

قال ابن القيم رحمه الله: (وأخبر سبحانه أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة، وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن. ثم أكَّد ذلك بإعلامهم أنْ لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكَّد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم. فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ماأعظمه وأجلَّه، فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك)..

والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطر جسيم:

---

(١) التوبة: ١١١.

(٢) الفتاوي (٢٨/ ٤٢) والحديث في مسلم (٤/ ٢١٧٤).

قـد هيؤك لأمر لـو فـطنتَ لـه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسَوْم هذه السلعة. بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولاكسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يَرْض ربها لها بثمن دون بذل النفس فتأخر البطّالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[١].

لما كثر المدّعون للمحبة طولبوا بإقامة البيِّنة على صحة الدعوى، فلو يُعطى الناس بدعواهم لادَّعى الخلي حرفة الشجي، فتنوَّع المدّعون في الشهود، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[٢]، فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البيِّنة، وقيل لا نقبل العدالة إلا بتزكية ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافـون لومـة لائم﴾[٣] فتأخـر أكثر المـدّعين للمحبـة وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبِّين وأموالهم ليست لهم فسلموا ما وقع عليه العقد ﴿فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشتري، وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، وعرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البيِّن والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن الفاعل ذلك معدود في جملة السفهاء؛ فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضاء واختياراً من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك.

فلما تمَّ العقد وسلَّموا المبيع قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها: ﴿ولا تحسبن

(١) المائدة: ٥٤.
(٢) آل عمران.
(٣) المائدة: ٥٤.

الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾(١) لم نبتع منكم بنفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجلَّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

تأمل هنا قصة جابر، وقد اشترى منه ﷺ بعيره ثم وفّاه الثمن وزاده ورد عليه البعير، وكان أبوه قد قتل مع النبي ﷺ في وقعة أحد، فذكَّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره أن الله أحياه وكلّمه كفاحاً. وقال: يا عبدي تمنَّ علي، فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق، فقد أعطى السلعة وأعطى الثمن، ووفَّق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجلَّ الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمُثَمَّن، وأثنى عليه ومدحه بهذا العقد، وهو الذي وفقه الله له وشاءه منه:

فحَيَّهلا إن كنت ذا هِمَّةٍ فقد ... حَدَا بك حادي الشوق فاطوِ المراحلا
وقل لمنادي حبِّهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفاً كواملا
ولا تنظرِ الأطلال من دونهم فإن ... نظرتَ إلى الاطلال عُدْنَ حوائلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودَعْه فإن الشوق يكفيك حاملاً
وخُذْ منهمُ زاداً إليهم وسِرْ على ... طريق الهدى والحب تصبحُ واصلاً
وأحي بذكراهم شراك إذا دنت ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملاً
وإما تخافنَّ الكلال فقل لها ... أمامك وِرْدُ الوَصْل فابغي المناهلا
وخُذْ قبساً من نورهم ثم سِرْ به ... فنورهم يهديك ليس المشاعلا
وحيٍّ على وادي العراك فقِلْ به ... عساك تراهم ثم إن كنت قائلا
وإلا ففي نعمانَ عندي معرف الـ ... أحبة فاطلبهم إذا كنت سائلا
وإلا ففي جمع بليلته فإن ... تَفُتْ فمني يا ويح من كان غافلا
وحيٍّ على جنات عَدْن فإنها ... منازلك الأولى بها كنت نازلاً
ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا ... وقفتَ على الأطلال تبكي المنازلا
وحيّ على يوم المزيد بجنة الـ ... خلود فجد بالنفس إن كنت باذلاً
فدَعْها رسوماً دارساتٍ فما بها ... مقيل وجاوزها فليست منازلا

(١) آل عمران: ١٦٩.

رسوماً غَفَتْ ينتابها الخَلْق كم بها … قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا
وخُذْ يمنة عنها على المنهج الذي … عليه سرى وفد الأحبة آهلا
وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة … فعند اللقاء الكد يصبح زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي … ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

لقد حرك الداعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الأبية والهمم العالية، وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية، وأسمع الله من كان حيا، فهزه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به في طريق سيره، فما حطت به رحاله إلّا بدار القرار، فقال: (انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشقَّ على أمتي ما قعدت خَلْف سرية، ولوددت أني أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا)[١].

وساق بعض الأدلة على فضل الجهاد في سبيل الله.

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد (٢/ ٦٦ - ٦٧).

المبحث الرابع

مراحل الجهاد في سبيل الله

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول : المرحلة المكية.
الفرع الثاني : المرحلة المدنية.
الفرع الثالث : حكم المراحل الجهادية.

الفرع الأول
المرحلة المكية

مرت بالبشرية فترة انقطع فيها الوحي، وطُمست معالم الرسالة، وانتشرت رايات الشرك والظلم والطغيان، فاختلّت الموازين والقيم، وبدا الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق.

وأصبح القوي هو الآمر الناهي، والضعيف المنفِّذ المطيع، وكثرت المصائب والفتن والحروب، وغدت الأرض ـ على سَعَتها ـ كسجن ضاق بأهله.

وكانت البشرية في غاية الضرورة لهداية إلٰهية تنقذها ممّا حلَّ بها من بؤس وشقاء، فقد حُرِّفت الكتب السماوية السابقة وكتم أهلها الحق وألبسوه بالباطل، فاستحقوا لعنة الله وغضبه.

وكان العرب في الجزيرة العربية أشد أهل الأرض جهلاً وأعظمهم فرقة وتناحراً، كما كانوا معرَّضين لغزو الفرس والروم والأحباش.

وكان اليهود في يثرب (المدينة المنورة) يؤججون نار الحقد بين الأوس والخزرج الذين لم يلقوا السلاح عن عواتقهم طول حياتهم، كما كانوا - أي اليهود - يهدِّدون الأوس والخزرج بأن نبياً منهم - أي من اليهود - سيبعث قريباً وسيقضون به عليهم.

وفي هذه الفترة ولد محمد ﷺ، ومات أبوه، وهو في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة قبل أن يستكمل سبع سنين، وكفله جده عبد المطلب الذي توفي وعمر محمد ﷺ ثمان سنين، ثم انتقلت كفالته ﷺ إلى عمه أبي طالب الذي طالت به الحياة إلى أن بعث رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة من عمره، فكان يحميه ويدافع عنه أذى قريش، ولكنه لم يدخل في الإسلام، بل مات على الشرك، ولله حكمته في ذلك وفي غيره.

حُبِّب إلى الرسول ﷺ قبل البعثة الخَلَاء، فكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه، ثم جاءه جبريل بسورة اقرأ فنبَّأه الله بها، ثم بعد ذلك أنزل الله عليه سورة المدَّثِّر: ﴿يا أيها المدَّثِّر، قم فأنذِر، وربَّك فكبرِّ، وثيابَك فطهِّر، والرُّجْزَ فاهجُرْ، ولا تَمْنُنْ تستكثرْ، ولربِّك فاصبر﴾[١] أمره الله بالتبليغ فقام ﷺ بما أمره به ربه سبحانه.

وكان ﷺ في أول الأمر يدعو إلى ربه سراً مَنْ يظن أنه يستجيب له، فاستجاب له أبو بكر رضي الله عنه، وأخذ يؤازره في الدعـوة إلى الله، فاستجاب لدعوة أبي بكر عثمان بن عفان، وطلحة بن عبدالله، وسعد بن أبي وقاص.

وكانت خديجة رضي الله عنها من السابقين إلى الإسلام، كما بادر إلى الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ابن ثمان سنوات، وزيد بن حارثة.

ودخل الناس واحداً واحداً في الإسلام وقريش لا تنكر ذلك[٢].

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يجهر بالدعوة: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن

---

(١) المدثر: ١ - ٧.
(٢) راجع زاد المعاد (٢/ ٤٧).

المشركين، إنا كفيناك المستهزئين﴾(١)، وأن يبدأ بعشيرته الأقربين: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾(٢) ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾(٣).

(أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً، ثم أعلن في الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي الموسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم وفي المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز، يدعوهم الى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربِّه، ولهم الجنة، فلا يجد أحداً بنصره ولا يجيبه حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس قولوا لاإلّه إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم، فإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء كذاب، فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد، ويؤذونه ويقولون أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، وهو يدعوهم إلى الله ويقول: اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا)(٤).

ولقد كان الله تعالى يأمر نبيه ﷺ بالدعوة الحكيمة والموعظة اللطيفة والمجادلة بالتي هي أحسن، ويأمره بالصبر، وينهاه عن الأسف والحزن على أولئك القوم الذين يريد لهم السعادة الأبدية ويأبون إلا الشقاء والخسارة، ويطمئنه بأنه معه ومن كان الله معه فالعاقبة له: ﴿أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم، ولا تَكُ في ضَيْق ممّا يمكرون، إن الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون﴾(٥).

ويأمره تعالى أن يبلِّغ الناس أنه جاءهم بالحق لهدايتهم، وأن من استجاب له فقد اهتدى وفائدة اهتدائه عائدة إليه، ومن أبى فقد سلك سبل الضلال وعاقبة ضلاله عليه، وأنه ـ أي الرسول ﷺ ـ ليس وكيلاً عليهم فلا يملك أن

(١) سورة الحجر: ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٥.
(٣) الحجر: ٨٩.
(٤) زاد المعاد (٢/ ٥٥).
(٥) النحل: ١٢٥ ـ ١٢٨.

يهدي الضال إذا لم يهده الله، ثم يأمره الله أن يتَّبع وحي الله في ذات نفسه، ويصبر على أذى قومه حتى يحكم الله: ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها وما أنا عليكم بوكيل، واتَّبع ما يُوحَى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾[١].

ويأمره الله بالتذكير ويحصر مهمته في ذلك، ويخبره بأنه ليس مسيطراً على القوم، أي ليست هدايتهم بيده، وأن حسابهم على الله تعالى: ﴿فذكِّر إنَّما أنت مذكِّر، لست عليهم بمصيطر إلا من تولَّى وكفر، فيعذبه الله العذاب الأكبر، إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾[٢].

ويمضي رسول الله ﷺ في دعوته إلى الله، ويمضي المشركون في رد دعوته والاستهزاء به والسخرية منه، فيسلِّيه ربه بأنه في موكب إخوانه الأنبياء والرسل الذين استهزىء بهم قبله، ثم دارت الدائرة على المستهزئين، فليصبر فإن الدرب واحد والعاقبة له: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن﴾[٣] «ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن﴾[٤] ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور﴾[٥]، ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾[٦].

ويشتد حَزَن الرسول ﷺ من تكذيب المشركين، وهو يعلم أنه صادق، وكانوا هم أنفسهم يسمُّونه الأمين، وقالوا له قبل أن يبادئهم بالدعوة ويجاهرهم بضلال معتقدهم: (ما جرينا عليك كذباً) فيسلِّيه ربه بأن القوم يجحدون الحق وينكرون آيات الله الواضحة وليس ذلك تكذيباً لك، وإذا كذَّبوك فلست أول من كذَّبه قومه من الرسل، بل سبقك إخوانك في نفس الطريق فكذَّبهم قومهم وصبروا حتى نصرهم الله، وعليك أن تقتدي بهم فتصبر كما صبروا، وإذا لم

(١) يونس: ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٢) الغاشية: ٢١ ـ ٢٦.
(٣) الأنعام: ١٠.
(٤) الأنبياء: ٤١.
(٥) فاطر: ٤.
(٦) يس: ٣٠.

تصبر فماذا تستطيع أن تفعل لتأتيهم بما يطلبون من الآيات وما الآيات بجالبة لهم الهدى وإنما الله هو الهادي.

ويخبره أن القوم ليسوا بأحياء حتى يستجيبوا لدعوتك وإنما هم موتى - أموات القلوب - والموتى مرجعهم إلى الله فيجازيهم.

﴿قد نعلم إنه ليحزُنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذِّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، ولقد كذبت رسلٌ مِنْ قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدِّل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين. وإن كانَ كَبُر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكوننَّ من الجاهلين، إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾[١].

ويُطمِع المشركون الرسول ﷺ في إيمانهم بشرط أن يأتيهم بآية كونية، كما جاء الأنبياء قبله بآيات كونية، ويظهر أن الرسول ﷺ لشدة حرصه على إيمانهم كان يتمنَّى لو أنزل الله آياتٍ كما طلبوا، فيخبره ربه أنَّ الآياتِ لا تنفع هؤلاء، وأن الهدى بيد الله، ويقطع طمعه في إيمانهم إلا إذا شاء الله، وأنه ما من نبي إلا ووقف له أعداء من الإنس والجن يُملي بعضهم على بعض زخرف القول غروراً ويأمره بتركهم وما يفترون.

﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون، ولو أننا نزَّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون، وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه فذَرْهم وما يفترون﴾[٢].

ويستمر في الدعوة إلى الله مقيماً على ذلك الحجج الدامغة، لكنهم يصرُّون

---

(١) الأنعام: ٣٣ - ٣٦. (٢) الأنعام: ١٠٩ - ١١٢.

على كفرهم وعنادهم لا ينتفعون بسمعهم ولا أبصارهم ولا عقولهم، ويأمره الله بأخذ العفو وأن يأمر بالمعروف ويعرض عن الجاهلين.

﴿إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين، أَلَهُم أرجلٌ يمشون بها، أم لهم أيْدٍ يبطشون بها، أم لهم أعين يبصرون بها، أم لهم آذانٌ يسمعون بها، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدونِ فلا تُنْظرون، إن وليِّي الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، خُذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين﴾(١).

ويتعنَّت عليه المشركون طالبين منه أن يأتيهم بغير هذا القرآن أو أن يغيِّره، فيجيبهم بلطف أن هذا القرآن من عند الله، وأنه لا يقدر على تغييره، وأنه إنما يتبع وحي الله ويخاف على نفسه إن عصاه، وأنه لولا أن الله شاء أن يتلوه عليهم ما تلاه، ثم يذكرهم بأنه مضى عليه بينهم وقت طويل من عمره ولم يأتهم بشيء من عند نفسه حتى أمره الله بأن يبلِّغ وحيه: ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدِّله، قل ما يكون لي أن أبدِّلَه من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يُوحى إليّ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون﴾(٢).

ويتهمونه بأنه افترى هذا القرآن فيلزمهم الحجة، إنه بلغتكم وأنتم أفصح العرب، وإذا كنت افتريته فإنكم تقدرون أن تفتروا كما افتريت فائتوا بسورة مثله، ثم بيَّن الله أنهم كذبوا بما لم يحيطوا به علماً شأن الجهال الذين يعارضون العلم الحق: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، كذلك كذَّب الذين من قبلهم فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾(٣).

---

(١) الأعراف: ١٩٤ - ١٩٩.
(٢) يونس: ١٥ - ١٦.
(٣) يونس ٣٨ - ٣٩.

ويقص الله عليه نبأ نوح وقومه، ثم يعقِّب على ذلك مسلِّياً له ﷺ بقوله: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾[1].

وهكذا يكرر الله تسلية رسوله ﷺ بإخوانه المرسلين قبله الذين نالهم الأذى كما ناله، ولكن العاقبة لهم والدمار على أعدائهم: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾[2].

وينفي الكافرون أن يكون محمد ﷺ مرسلاً نفياً قاطعاً، ويأمره الله أن يخبرهم بأن الله هو الشهيد بينه وبينهم وشهادته كافية ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾[3].

ويتهمونه ﷺ بالجنون، ويتهكمون به فيطلبون منه أن يأتي معه بالملائكة تشهد له على صدق دعوته، ويجيبهم الله أن الملائكة لا تنزل إلا بالحق لا للاستجابة للأهواء، وأنه تعالى قد تكفَّل بحفظ هذا الكتاب، ويسلِّي رسوله بأنه ما جاء رسول إلى قومه إلا استهزؤوا به: ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون، ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَع الأوَّلين، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهـزؤن﴾[4].

ويأمره بأن يبلِّغ المشركين ما أمره الله به جَهْراً وأنه كافيهُ إياهم، ويأمره بأن يتزوّد في طريق دعوته الشاق الذي يضيق فيه صدره من مواقف قومه بعبادة ربه:

﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين، الذين يجعلون مع الله إلٰهاً آخر فسوف يعلمون، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾[5].

(١) هود: ٤٩.
(٢) الرعد: ٣٢.
(٣) الرعد: ٤٣.
(٤) الحجر: ٦ ـ ١١.
(٥) الحجر: ٩٤ ـ ٩٩.

ويدعو الرسول ﷺ ربه شاكياً قومه الذين هجروا هذا القرآن الذي لم ينزل للهجر وإنما نزل للعمل به والطاعة لله، فيسلِّيه ربه أنه قد قوبل مَنْ قبلك من الأنبياء بما قوبلت به، فدع الأمر لله: ﴿وقال الرسول يا ربِّ إنَّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾(١).

ويبلِّغ المشركين بأن مهمته فقط أن يعبد الله وأن يتلو عليهم كتابه، فمن اهتدى بهذا الكتاب فهدايته لنفسه، ومن ضلَّ فما على الرسول إلا إنذاره، وإذ قد أقام الحجة فهو يحمد ربه الذي سيكشف للناس صدق ما جاء به الرسول ﷺ وسيجازيهم على موقفهم منه:

﴿ إنما أُمرتُ أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المنذرين، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عمّا تعملون ﴾(٢).

وتتطَّلع نفس رسول الله ﷺ إلى أن يرى عمه أبا طالب الذي ربَّاه في صغره وأحاطه بحنانه، وحماه من قريش بعد البعثة ووقف بجانبه فلم يقدروا أن ينالوه بكيدهم الذي كانوا يودُّون تنفيذه، تتطلع نفس رسول الله ﷺ إلى أن يرى عمه أبا طالب مؤمناً برسالته لينال رضا الله وجنته، ولكن الله قد كتب عليه أن يموت على ملَّة قومه فيقول لنبيه:

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين ﴾(٣).

ويضطر عليه الصلاة والسلام أن يترك مكة وهي أحب البقاع إليه، فيولي وجهه شطر المدينة وهو يلتفت إلى البلد الأمين، فيسلِّيه ربه، ويَعدُه بالعودة إلى بلده الحبيب: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد، قُلْ ربِّي أعلم من جاء بالهُدى ومن هو في ضلال مبين ﴾(٤).

---

(١) الفرقان: ٣٠ ـ ٣١.
(٢) النمل: ٩١ ـ ٩٣.
(٣) القصص: ٥٦.
(٤) القصص: ٨٥.

ويشتد العذاب والاعتداء عليه وعلى أصحابه فيأتيه بعضهم شاكياً فيأمرهم بالصبر، وينزل القرآن منكراً على من يظن أنه يكفيه أن يقول إنه مؤمن وتخلو طريقه من الفتنة والابتلاء، مبيِّناً لهم أن المؤمنين قبلهم قد فتنوا فالطريق واحد، وإن هذه الفتنة تميز الصادق من الكاذب. وهنا يسمَّى الثبات على دين الله والصبر على الفتنة جهاداً يعود نفعه لصاحبه: ﴿ آلم، أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون، ولقد فتنَّا الذين من قبلهم فلَيعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين ـ إلى قوله: ـ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾[1].

وتتنوع الفتنة على المؤمنين فتقف الأسرة كلها ـ وعلى رأسها الأم وما أدراك ما الأم ـ ضد المؤمن، فتقسم أمه ألاَّ تأكل ولا تشرب ولا تستظل حتى يكفر بمحمد ﷺ، فيقول لها: لو كانت لك مائة نفس فخرجت الواحدة تلو الأخرى ما رجعت عن ديني، ويُنزل الله في ذلك: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حُسْناً، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، إلي مرجعكم فأُنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[2].

ويخرج أصحاب رسول الله ﷺ من مكة مضطرين وهي حبيبة إلى نفوسهم، خائفين مما ينتظرهم بعد تركهم بلادهم، تاركين منازلهم التي ألفوا الراحة فيها، وأموالهم التي كانوا يتنعمون بها، فيسلِّيهم ربهم أن الأرض أرض الله والمهم أن يقوموا بعبادته في أي أرض كانت، وأن الموت آتٍ لا محالة لا يؤخره البقاء في المنزل ولا يقدمه الخروج من البلد، وأن المنازل الحقيقية هي منازل الجنة التي أعدها الله لعباده العاملين الصابرين، وأن الرزق مضمون لدواب الأرض كلها حتى التي لا قدرة لها على حمل رزقها:

﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون، كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنّهم من الجنة غُرَفاً، تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نِعْم أجر العاملين، الذين

(١) العنكبوت: ١، ٢، ٣، ٦.
(٢) العنكبوت: ٨، وراجع القصة في تفسير ابن كثير (٣/٤٤٥).

صبروا وعلى ربهم يتوكلون، وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾(١).

ويؤكد الله للمجاهدين في سبيله ـ وكان الجهاد آنئذ: جهاد الدعوة والصبر على الأذى والمحنة ـ ليهدينَّهم السُّبُل الموصلة إلى مَرضاته، وهو معهم لأنهم محسنون، ومن كان الله معه فالعاقبة المحمودة له: ﴿ والذين جاهـدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلنا وإنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾(٢).

ويقيم الله الحجج لنبيه على قومه المكذبين ولكنهم لا يلقون للحجج بالاً مثلهم مثل الموتى أو الصم المدبرين: ﴿ فإنك لا تُسمع الموتى، ولا تسمع الصُمَّ الدعاءَ إذا ولَّوا مُدْبرين ﴾(٣) فيسلِّي الله رسوله ﷺ بأنه قد أقام الحجة، وما عليه إلا أن يصبر حتى يأتي وعد الله: ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مَثَل، ولئن جئتهم بآيةٍ ليقولَنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون، كذلك يطبعُ الله على قلوب الذين لا يعلمون، فاصبرْ إنَّ وعدَ الله حقٌّ ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون ﴾(٤).

وفي هذه الفترة التي كانت كلها دعوة إلى التوحيد الخالص من جانب الرسول ﷺ كان الكافرون يراودونه من جانبهم على ترك هذه الدعوة والدخول في دينهم الباطل، ولكن الله يأمره بالمفاصلة التامة مهما كلَّفه ذلك من المشاق وكلَّف أصحابه معه: ﴿ قل أفغير الله تأمرونِّي أعبدُ أيها الجاهلون، ولقد أُوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكونَنَّ من الخاسرين، بل الله فاعبدْ وكُنْ من الشاكرين ﴾(٥) ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾(٦).

ويبشِّر الله رسوله والمؤمنين الذين أعلنوا أُلوهية الله وحده ودعوا الناس إلى ذلك؛ يبشرهم بأن الملأ الأعلى يتنزل عليهم يطمئنونهـم ويبشرونهم بالجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنهم أحسن مَنْ

(١) العنكبوت: ٥٦ ـ ٦٠.
(٢) العنكبوت: ٦٩.
(٣) الروم: ٥٢.
(٤) الروم: ٥٨ ـ ٦٠.
(٥) الزمر: ٦٤ ـ ٦٦.
(٦) الكافرون: ٢.

على وجه الأرض لدعوتهم إلى الله وعملهم الصالحات، ويأمرهم أن يدفعوا بالتي هي أحسن لأنها كفيلة بكسب قلوب الناس، ثم بيّن الله لهم أن تلك الخصلة لا يؤتيها الله إلا الصابرين ذوي الحظ العظيم: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون، نُزُلاً من غفور رحيم. ومن أحسن قولاً ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفَعْ بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميمٌ، وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾(١).

ويأمره بالصفح عنهم ومتاركتهم وتهديدهم بما ينتظرهم من عقاب الله: ﴿ وقِيلِهِ يا ربِّ إنَّ هؤلاء قوم لا يؤمنون، فاصفحْ عنهم وقُلْ سَلاَمٌ فسوف يعلمون ﴾(٢).

وبعد أن يقيم الله على المشركين الحجج ويدحض شبهاتهم يقول الله لنبيّه: ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبِّحه وأدبار السجود ﴾(٣).

ويقول: ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبّار، فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾(٤).

وتنزل سورة البروج مسلِّية للرسول ﷺ وأصحابه بأن المؤمنين قبلهم قد أُوذوا وأحرقوا بالنار بسبب إيمانهم بالله، ويهدد الكفار، الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالعذاب، ويبشّر المؤمنين بالفوز وأن بطش الله شديد، وقد حلَّ بمن قبل أولئك الكفار الذين كذبوا رسول الله ﷺ:

﴿ والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، قتل أصحاب الأُخدود، النارِ ذاتِ الوقود، إذ هم عليها قُعُود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين

---

(١) فصّلت: ٣٠ ـ ٣٥.
(٢) الزخرف: ٨٨ ـ ٨٩.
(٣) ق: ٣٩ ـ ٤٠.
(٤) ق: ٤٥.

شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له مُلك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد، إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنم ولهم عذابُ الحريق، إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير، إنَّ بطشَ ربك لشديدٌ، إنه هو يبدئُ ويعيدُ، وهو الغفورُ الودودُ، ذو العرشِ المجيدُ، فعَّال لما يريد، هل أتاك حديث الجنود، فرعون وثمود، بل الذين كفروا في تكذيب، والله من ورائهم محيط، بل هو قرآنٌ مجيدٌ، في لوحٍ محفوظٍ﴾[١].

ويظهر من تتبع نصوص الكتاب - التي مضى طرف منها - والسنّة، وسيرة الرسول ﷺ أنَّ المرحلة المكيّة كانت مرحلة دعوة إلى التوحيد الخالص، ونبذ عبادة الأصنام ونَفْي الشرك أيّاً كان نوعه، ومرحلة صبر على الأذى والمحنة، وعدم رد الاعتداء الذي كان يقع من المشركين على المسلمين، وفي طليعتهم الرسول ﷺ.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينا النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبي معيط بسَلَى جزور فقذفه على ظهر النبي ﷺ، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره ودعت على من صنع، فقال النبي ﷺ: اللهمّ عليك الملأ من قريش: أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأمية بن خلف... فرأيتهم قُتلوا يوم بدر، فأُلقوا في بئر غير أمية بن خَلَف... تقطعت أوصاله فلم يُلْقَ في البئر...»[٢].

وفي صحيح البخاري أيضاً يقول خباب: «أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بُرْدة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت يا رسول الله: ألاَ تدعو الله لنا، فقعد وهو محمّر وجهه فقال: لقد كان من قبلكم لَيُمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيُشَقُّ باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ الله هذا

---

(١) سورة البروج.
(٢) الحديث رقم ٣٨٥٢، فتح الباري (١٦٤/٧).

الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه)[1].

وكان ﷺ ـ لشدة ما يلقَى أصحابه من أذى المشركين ـ يأمر من أسلم أن يكتم إسلامه خشية عليه، وكتم المسلم السر الذي قد يفتح عليه باب الأذى مطلوب، وكتم السر الذي قد يفتح لأعداء الإسلام الباب للإضرار بالدعوة فرض:

عن ابن عباس قال: (ألا أخبركم بإسلام أبي ذر؟ قال: قلنا: بلى، قال: قال أبو ذر: كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل، كلِّمه وأتني بخبره، فانطلق فلقيه ثم رجع فقلت ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهَى عن الشر، فقلت له: لم تشفني من الخبر، فأخذت جراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد، قال فمرّ بي علي، فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت نعم، قال: فانطلق إلى المنزل، قال: فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه وليس أحد يخبرني عنه بشيء، قال: فمرَّ بي علي فقال: ما أنَى للرجل يعرف منزله؟ قال: قلت لا، قال: انطلق معي، قال: فقال ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة، قال: قلت له إن كتمت علي أخبرتك، قال: فإني أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخي ليكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه فقال له: أما إنك قد رَشَدت، هذا وجهي إليه فاتبعني، ادخُلْ حيث أدخُلُ فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أُصلح نعلي، وامضِ أنت، فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض علي الإسلام فعرضه فأسلمت مكاني، فقال لي: يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل، فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخنَّ بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد وقريش فيه، فقال يا معشر قريش، إني أشهد ألّا إِلَه إلّا الله

(١) الحديث رقم ٣٧٥٢، فتح الباري (١٦٤/٧).

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء، فقاموا فضربت لأموت، فأدركني العباس فأكبَّ عليّ، ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ومتجركم وممّركم على غفار، فأقلعوا عني، فلما أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء، فصُنع بي مثل ما صُنع بالأمس، وأدركني العباس فأكبّ علي وقال مثل مقالته بالأمس، قال: فكان هذا أول إسلام أبي ذر رحمه الله)[١].

وهذا الحديث يصوِّر لنا خوف المسلمين من أذى قريش من وجوه:

الوجه الأول: مكوث أبي ذر مدة مستخفياً يخاف أن يبوح بما عنده.

الوجه الثاني: تصريحه بذلك عندما قال لعلي إن كتمت عليّ أخبرتك.

الوجه الثالث: كون علي رضي الله عنه يرشد أبا ذر كيف يصنع إذا رآهم أحد، وكيف يعمل على نفسه حتى يعمى على من يراهما.

الوجه الرابع: أمر الرسول ﷺ أبا ذر بعد أن أسلم أن يكتم هذا الأمر وما ذلك إلا خشية عليه.

الوجه الخامس: ما وقع فعلاً من أذىً على أبي ذر في اليومين عندما أعلن إسلامه.

ويؤخذ من دعوة النبي ـ في أول الأمر ـ سراً، وفي نصيحته لأبي ذر أن يكتم إيمانه، ومن سيرته في الحروب، أنه يجب على الداعية المسلم والمجاهد في سبيل الله أن يحيط الأمور المهمة التي لو اطّلع عليها أعداء الإسلام لألحقوا ضرراً بالإسلام والمسلمين؛ أن يحيطها بالكتمان، حتى لا يتيح الفرصة للكفرة والمجرمين الذين لا يألون جهداً في الصدّ عن سبيل الله ومحاولة إطفاء نوره.

والذي يظهر من صنيع أبي ذر في إعلان إسلامه بعد أن أمره الرسول ﷺ بالكتمان أن إسلامه لم يكن في وقت السر بالدعوة لأمور:

الأول: أن أمر الدعوة قد انتشر بدليل أن أبا ذر بعث أخاه ليسأل عن

(١) البخاري رقم الحديث ٣٥٢٢، فتح الباري (٦/٥٤٩)، ومسلم (٤/١٩٢٣).

النبي ﷺ ويأتيه بخبره على أثر ما بلغهم عنه.

الأمر الثاني: أنه لو كان أمر الرسول ﷺ لمصلحة الدعوة لما أصرّ أبو ذر على إظهار إسلامه، وقد أمره الرسول ﷺ بكتمانه، لذلك يظهر أن أمره بكتمان إسلامه كان لمصلحة أبي ذر نفسه وللخوف عليه من أذى قريش، ففضّل أن يعلن إسلامه مضحِّياً بنفسه، والذي عنده مقدرة على تحمّل الأذى له أن يصدع بكلمة الحق.

قال الحافظ ابن حجر: (قوله: لأصرخن بها. أي بكلمة التوحيد.

والمراد أنه يرفع صوته جهاراً بين المشركين، وكأنه فهم أن أمر النبي ﷺ له بالكتمان ليس على الإيجاب، بل على سبيل الشفقة عليه، فأعلمه أن به قوة على ذلك، ولهذا أقرّه النبي ﷺ على ذلك، ويؤخذ منه جواز قول الحق عند من يخشى منه الأذية لمن قاله، وإن كان السكوت جائزاً، والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والمقاصد)[١].

الأمر الثالث: نبّه عليه ابن حجر أيضاً:- (وفي الحديث دلالة على تقدم إسلام أبي ذر، لكن الظاهر أن ذلك كان بعد المبعث بمدة طويلة لما فيه من الحكاية عن علي كما قدمناه) والذي قُدِّم هو: (وهذا يدل أن قصة أبي ذر وقعت بعد المبعث بأكثر من سنتين بحيث يتهيّأ لعلي أن يستقل بمخاطبة الغريب ويضيفه، فإن الأصح في سن علي حين المبعث كان عشر سنين، وقيل أقل من ذلك وهذا الخبر يقوي القول الصحيح) ا هـ[٢].

يفهم من تنبيه ابن حجر أن إسلام أبي ذر لم يكن في فترة الدعوة سراً، لأنه لو كان جهره ذلك في وقت السرية لكان كشف لقريش خطّة لا يجوز كشفها، والمعروف أن الفترة السرية لم يكن انتشر فيها خبر الدعوة، وإنما انتشر بعد أن أمره الله بالصَّدْع بها كما مضى، وذلك بعد أن انتهت ثلاث سنين من البعثة العالمية الخاتمة.

---

(١) الفتح (١٧٥/٧).

(٢) لفتح (١٧٤/٧، ١٧٦).

الفـــرع الثاني
المرحلـــة المدنيـــة

يتضح من سيرة الرسول ﷺ في المرحلة المكيَّة أنها كلها كانت جهاد تربية وتزكية للرسول ﷺ وأصحابه، على إخلاص العبادة لله وحده والطاعة الكاملة لأوامر الله سبحانه وتعالى، وترك كل أوضار الجاهلية وعاداتها، والدعوة إلى وحدانية الله تعالى وتسفيه أحـلام المشركـين والصمود أمـام الأذى والمحنة، والتضحية في سبيل الله تعالى بالنفس والمال والأهـل والولد، والانضباط الكامل تحت قيادة الرسول ﷺ؛ فتحقق في أصحابه الركنان الأساسيان في دعوة الرُسل عليهم الصلاة والسلام، وهما التقوى والطاعة، إذ ما من نبي إلا دعا قومه إلى تحقيقهما: ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾[1]، فكوَّن بذلك ﷺ القاعدة الصلبة التي أرسيت عليها دولة الإسلام العظيمة في كل أقطار الدنيا بعد ذلك.

وبعد أن أبلى المؤمنون في مكة بلاءً حسناً، وضُيِّق عليهم الخنـاق، وعلم الله تعالى أنهم ثبتوا على دينه الحق ثبوت الجبال الرواسي؛ قيض الله لهم نواة كتيبة الأنصار في السنة الحادية عشـرة من البعثة المحمـدية، إذ كـان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم ليقبلوا دعوته ويحموه ليبلّغ رسالة ربه، فوجد رهطاً من الخزرج فطلب منهم أن يجلسوا إليه ليسمعوا منه، فشرح لهم الإسلام ودعاهم إليه فأجابوه وقالوا له: (إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه في هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك)[2].

ودعوا قومهم بعد رجوعهم فأجابهم كثير منهم، حتى فشا فيهم الإسلام، فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

وفي العام المقبل وفد اثنا عشر رجلاً من الأنصار، فلقيهم الرسول ﷺ عند العقبة فبايعوه، قال عبادة بن الصامت: (فبايعناه على أن لا نشرك بالله

(١) الشعراء: ١٠٨.

(٢) السيرة النبوية (١/٤٢٩)، الطبعة الثانية ـ الحلبية.

شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف). وقال لهم: «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر»(١).

وبعث ﷺ معهم مصعب بن عمير يقرؤهم القرآن ويصلّي بهم، ويظهر من هذه البيعة تعميق معاني المرحلة المكية في نفوس المسلمين، وهي الإخلاص لله وحده، وتزكية النفوس وصقلها من الأخلاق السيئة التي اعتادها المشركون.

وفي العام المقبل وفدت كتيبة الله من أنصاره إلى مكة في موسم الحج، فواعدهم الرسول ﷺ عند العقبة من أوسط أيام التشريق ليلاً، حيث تسللوا إليه بعد مضي ثلث الليل حتى اجتمعوا عند العقبة، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتان، فتكلم رسول الله ﷺ ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فبايعوه على ذلك، ودار بينه وبينهم حوار واستيثاق، وكان مما قاله أبو الهيثم بن التيِّهان: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حِبالاً وإنّا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»(٢) وأمرهم الرسول ﷺ أن يُخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، ففعلوا، وكان تسعة منهم من الخزرج وثلاثة من الأوس، وكانت شروط هذه البَيْعة تختلف عن شروط بَيْعة العقبة الأولى، وهي كما قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه:

(بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عُسرنا ويُسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأَثَره علينا، وألَّا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنَّا لا نخاف في الله لومة لائم)(٣).

---

(١) السيرة النبوية (١/٤٣٣).
(٢) نفس المصدر (١/٤٤٢).
(٣) السيرة النبوية (١/٤٥٤).

وظهر في هذه البيعة العظيمة معانٍ جديدة تعتبر منطلقاً للمرحلة المدنية الجديدة:

١ ـ فالرسول ﷺ بايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم، ومعنى هذا أنه تارك مكة ومهاجر إلى المدينة، وقد فهم ذلك الأنصار: (فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا).

٢ ـ كانت البيعة ـ أيضاً ـ على السمع والطاعة،في العسر واليسر والمنشط والمكره، والإيثار على أنفسهم، وعدم منازعة الأمر أهله، وقول الحق أينما كانوا، وألا يخافوا في الله لومة لائم.

٣ ـ كان فيها أيضاً توحيد الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، ومقاطعة أعداء الله: «إنَّ بيننا وبين الرجال حبالاً وإنّا قاطعوها».

هذه المعاني مشبعة بالروح الجهادية والتحفز لبذل النفوس والأموال في سبيل نصرة الرسول ﷺ، وإنها لكذلك. وظهرت فيها الدقة في التنظيم حيث جعل على كل طائفة منهم نقيباً يسمعون له ويطيعون، وجعل الموعد بينه وبينهم في ساعة غفلة عن أعين المشركين، تمكن فيها ﷺ من تحقيق إربه دون مضايقة أو أذى له أو للأنصار المبايعين.

كما كان ترتيب لقائهم بالرسول ﷺ دليلاً على الانضباط وكتم السر مع كثرة عددهم وإحاطة المشركين بهم.

ظهرت آثار ذلك كله عندما علمت قريش فأُسقط في أيديها وقد فات الأوان: (فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى إذا أصبحنا غَدَت علينا جلّة من قريش فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينهم منكم. فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه، وقد صدقوا لم يعلموه. قال وبعضنا ينظر إلى بعض)(١).

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٤٤٠ ـ ٤٤٨).

فكان إسلام الأنصار ومبايعتهم الرسول ﷺ على حمايته ومقاطعة أعدائه منطلقاً لإقامة أول مجتمع إسلامي متميز على وجه الأرض بعد البَعْثة النبوية.

وأذِن الرسول ﷺ لأصحابه في الهجرة من مكة إلى المدينة، فخرجوا جماعات وأفراداً، تاركين أشرف بقعة على وجه الأرض، بها ديارهم وأموالهم وأهلوهم، طمعاً فيما عند الله تعالى من إعزاز دينه وإعلاء كلمته وإذلال أعدائه ورضاه عن أوليائه المؤمنين.

واستقبلهم إخوانهم الأنصار فآوَوْهم ووفَوا ببيعة نبيهم ﷺ، والتحمت الكتيبتان: كتيبة المهاجرين وكتيبة الأنصار، وأخذ دين الله ينتشر في أهل المدينة حتى أصبح ذكر الله وتوحيده والإقرار برسالة نبيّه محمد ﷺ يتردد في كل بيت وفي كل مكان، وبلغ الأنصار القمة في الإيثار وتحقيق الأُخوّة الإسلامية.

وبقي رسول الله ﷺ في مكة إلى أن أذِن الله له في الهجرة، وفي أثناء مدة انتظاره ﷺ اشتد خوف مشركي قريش من قاعدة تجمّع المسلمين الجديدة، وأخذوا يتشاورون في أمر رسول الله ﷺ، فمنهم من رأى حبسه حتى يموت، ومنهم من رأى إخراجه من البلاد ونفيه، واستقر أمرهم بعد ذلك على قتله، كما قال تعالى لنبيّه ـ بعد ذلك مذكّراً له وللمسلمين بنعمته تعالى عليهم حيث أنجاه من مؤامرتهم :ـ ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[1].

وخطّط رسول الله ﷺ لهجرته التي رافقه فيها أبو بكر الذي كان يتلهّف للّحاق بإخوانه المهاجرين، ولكن الرسول ﷺ لم يأذن له بالهجرة ليكون معه في أحرج المواقف المكية وآخرها، وهي الهجرة، وأمر الرسول ﷺ علياً رضي الله عنه بالنوم على سريره ليلة الهجرة، وخرج هو وأبو بكر رضي الله عنه، فاختفيا في الغار (غار ثور) ثلاثة أيام والمشركون يبحثون عنهما، وقد خصّصوا مكافآت ثمينة لمن يقبض على رسول الله ﷺ ورفيقه.

ولكن الله كان معهما، ومن كان الله معه فلا غالب له: ﴿ إلّا تنصروه فقد

(١) الأنفال: ٣٠.

نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنتين إذ هما في الغـار، إذ يقول لصاحبه: لا تَحزنْ إن اللهَ معنا، فأنزلَ الله سكينتَه عليه وأيَّده بجنود لم تَروها، وجعـل كلمةَ الـذين كفروا السفـلى، وكلمةُ الله هي العليـا، والله عـزيـز حكيم ﴾[١].

وهاجر رسول الله ﷺ فاستقبله جند الله من المهاجرين والأنصار، وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر، يأمرهم فيستبقون أمره، وينهاهم فيجتنبون ما نهاهم عنه.

وبدأ ﷺ يُرسي دعائم الدولة الجديدة التي لا يدري الناس في الجزيرة العربية، فَضْلاً عن بلاد فارس والروم وغيرهما من ممالك الدنيا، ما كانوا يدرون ماذا يكمن وراء تلك الدولة الناشئة من عواصف قصف لمعاقلهم وحصونهم، وسيوف حتف لرقاب طغاتهم وجبابرتهم، وأنوار هداية لشعوبهم.

المجتمع الإسلامي الأول

وبدأ الرسول ﷺ في بناء مسجده الشريف في عاصمة الإسلام الأولى، شارك في بنائه بنفسه مع أصحابه، وفي مشاركة القائد أصحابه حافز لهم على العمل الجاد، كيف والذي يعمل رسول الله ﷺ الذي يتلقّى الوحي من ربه كل يوم، والسفير بينه وبين ربه جبريل عليه السلام؟ لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يردِّدون في سرور واعتزاز ونشاط:

لئن قعـدنـا والنبي يعمـلُ   لـذاك منّا العمـل المضلَّلُ

وكان المسجد ـ في مظهره ـ في غاية التواضع، فأعمدتـه من جذوع النخل، وسقفه من سَعَفه وجريده، وفرشه من الرمل والحصباء.

ولكنه كان مأوى لجبريل ينزل على الرسول ﷺ فيه بالوحي، وكان محلاً لرفع كلمة التوحيد التي كان ينادي بها بلال خمس مرات في اليوم والليلة.

وكان رسول الله ﷺ يؤم فيه أصحابه في الصلاة، ويقـرئهم القرآن،

(١) التوبة: ٤٠.

ويعلمهم أحكام دينهم التي بدأت تتنزل من السماء ليطهرهم الله بها ويزكيهم، فيعود كل واحد منهم إلى منزله كل يوم بعلم جديد يتلقاه مباشرة من فِي رسول الله ﷺ أو من عمله، والرسول ﷺ يتلقَّاه من جبريل، وجبريل يتلقاه من ربِّه.

وكان المسجد مكاناً لاجتماع أصحاب رسول الله ﷺ لُمدارسة القرآن الكريم والسنّة النبوية وتطبيقهما.

كما كان مقراً للفتوى والسؤال عمّا يُشكل على الصحابة رضي الله عنهم، وكان منطلقاً لبعث الدعاة إلى الله، وساحة للتدريب على الفروسية، ومؤتمراً لمدارسة أمور الحرب والحراسة وبث السرايا وعقد الألوية للغزاة المجاهدين في سبيل الله.

وكان مأوى لمن لا منزل له من أصحاب رسول الله ﷺ، ينامون فيه ويتناولون طعامهم، كما كان رسول الله ﷺ يقبض فيه الأموال من المتصدِّقين بها على المحتاجين، وأموال الغنيمة والفيء، ويقسمها على الناس فيه.

هكذا كان مسجد رسول الله ﷺ مجمعاً لكل أجهزة الدولة الإسلامية الجديدة، وكل ما يفعل فيه كان يعتبر عبادة يقصد بها وجه الله. الصلاة، والتعليم، والنوم، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (أما أنا فأنام وأقوم، وأرجو في نومتي ما أرجو في قَوْمتي)(١) هذا مع صغره وتواضعه في مواد البناء، حيث كان إذا نزل المطر تقاطر على رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يصلُّون، وكان ﷺ يسجد فيه على الماء والطين. ولكنهم كانوا يتزكون فيه بالقرآن والسنة فتمتلىء قلوبهم إيماناً، ويحملون دعوة الله إلى خلقه بالتبليغ والموعظة أو بالسيف والحربة.

فأين مساجد المسلمين اليوم من ذلك المسجد؟ إن مساجد المسلمين التي أصبحوا يتباهون بتشييدها بأغلى مواد البناء، وبنقوشها وزخرفتها وفرشها وقناديل ضيائها ومراوحها ومكيفات هوائها؛ وشبابهم بل وبعض كهولهم لا يدخلها كثير منهم.

---

(١) مسلم (١٤٥٦/٣).

بل إنك لتجد في بعض بلدان المسلمين صفوفاً من البشر مصطفِّين في مساحة قد تصل إلى ميل أو أكثر ينتظرون دخول دور السينما أو المسرح والمرقص، في الوقت الذي يقول فيه المؤذن حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح، وتجد كثيراً من الشباب في الملاعب الرياضية يتبارون كالحُمُر في أوقات الصلاة دون حياء ولا خجل، وحولهم عشرات الآلاف بل مئاتها من المتفرجين تضرب لهم الطبول وهم يرقصون ويصفقون ويتمايلون ههنا وههنا كأنهم سكارى.

أين المسلمون اليوم في مساجدهم من أصحاب الرسول ﷺ في مسجده ذاك؟ إن المصلين في المساجد اليوم ـ في الأغلب الأعم ـ ذوو أرواح خاوية، وقلوب قاسية، ومعاملات خائبة.

قال محمد الغزالي: (وتم المسجد في حدود البساطة: فراشه الرمال، وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح.

هذا البناء المتواضع الساذج هو الذي ربَّى ملائكة البشر ومؤدبي الجبابرة، وملوك الدار الآخرة، في هذا المسجد أذن الرحمن لنبي يؤم بالقرآن خيرة من آمن به، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل. إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي، فهو ساحة للعبادة، ومدرسة للعلم، وندوة للأدب، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام، لكن الناس لمّا أعياهم بناء النفوس على الخلائق الجليلة استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة تضم مصلِّين أقزاماً، أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام)[1].

وبهذا تعلم أن المسجد النبوي كان مجمع الدولة الإسلامية الأول.

المؤاخـــــاة

كانت الأنانية طاغية على العرب في جاهليتهم: القبيلة تترفع عن القبيلة،

(١) فقه السيرة ص ١٩٠.

والبطن يفخر على مثيله، والأسرة تتكبّر على الأسرة، والفرد يتعالى على الفرد، وكان من حصاد هذه الأنانية ظلم القوي للضعيف واستئثاره عليه في كل شيء، ممّا سبَّب الإحن والعداوات والغارات والحروب الدائمة لأتفه الأسباب.

والأمة التي تصاب بالأنانية وما يتبعها أمة تافهة مهيضة الجناح خائرة القوى، تكون دائماً محلاً لمطامع الآخرين واستعبادهم لها.

فلما جاء الإسلام أحدث انقلاباً في نفوس المسلمين هو استسلام المسلم لربِّه وطاعته لقيادته، وفي وحي الله وسنّة رسوله ما يكفي لتواضع المؤمن وذلّه لله تعالى وحبه لإخوانه وإيثاره إياهم على نفسه.

وكان هذا المعنى ثابتاً في نفوس أصحاب رسول الله ﷺ، وهو الذي جعل أبا بكر رضي الله عنه يبذل ماله في شراء المسلمين الذين كانوا عبيداً لبعض المشركين الذين عذَّبوهم وحاولوا صدَّهم عن دينهم، ومن أولئك المسلمين بلال رضي الله عنه، وهو كذلك الذي جعل النفر الذين كانوا أول من لقيهم الرسول ﷺ، وهم من الخزرج، يقولون بعد أن استجابوا لدعوته: (إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك... فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك)[1]، بل هو الذي جعل الأنصار يتسابقون إلى إيواء المهاجرين حتى كانوا يقترعون على المهاجرين.

ولكن مع ثبات هذا المعنى في نفوسهم أراد رسول الله ﷺ أن يعمقه بجعله بيعة وعقداً بين المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهلهم في سبيل الله، والأنصار الذين آوَوهم ونصروهم، فآخى ﷺ بينهم اثنين اثنين، أي كان يجعل رجلاً من المهاجرين أخاً لآخر من الأنصار، وهو إخاء خاص غير الإخاء العام. الإخاء العام: كل مؤمن أخ لكل مؤمن، والإخاء الخاص: فلان أخ فلان، وفَرْقٌ بين الأمرين، فالإخاء العام لا يثمر ما يثمره الإخاء الخاص من الحب العميق.

والتواضع والإيثار إذا قام على القواعد الشرعية فإنه يجعل الأخ يؤثر أخاه

(١) السيرة النبوية ٤٢٩.

فيما لا يطرأ على الخيال، فضلاً عن التفكير فيه، فضلاً عن العزم عليه وتنفيذه.

وإليك الدليل كما في صحيح البخاري: آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدّتها فتزوجها. قال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطٍ وسمن، ثم تابع الغدوَّ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهيم؟» قال: تزوجت[١].

ولهذا أمتن الله على المؤمنين بهذا الإخاء العظيم فقال: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبيِّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾[٢].

ومن المهاجرين والأنصار كوَّن رسول الله ﷺ القاعدة الصلبة التي قامت عليها دولة الإسلام في الجزيرة ثم في شرق الدنيا وغربها، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آوَوا ونصروا أُولئك بعضهم أولياء بعض ﴾[٣].

وقال: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون، والذين تبوَّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممَّا أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[٤].

وقال تعالى فيهم: ﴿ محمد رسول الله، والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركَّعاً سُجَّداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في

(١) البخاري رقم ٣٧٨٠.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) الأنفال: ٧٢.
(٤) الحشر: ٨ ـ ٩.

وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزُرَّاع ليغيظَ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾(١).

ومن هنا يعلم أنه لا بدَّ للدعوة الإسلامية ـ حتى تنطلق في الأرض ـ من قاعدة حصينة تنطلق منها، وهي ما تسمَّى في اصطلاح الفقهاء: «دار الإسلام» ومن قائد قدوة يتصف بكل الأخلاق الفاضلة المبنية على الإيمان العميق، ومن جنود تسود بينهم الأُخوّة والمحبة ويتحقق فيهم الاقتداء بقيادتهم، وهذا ما حصل للرسول ﷺ وأصحابه في المدينة، فتوطَّدت بذلك الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية، وأمنت التصدّع والخلل الذين يستطيع أعداء الله التسلل منهما إلى صفوف المسلمين لصدعها وتفريقها.

تكوين الأمة ووحدتها وحمايتها

أصبح المسلمون في المدينة هم أهل الحل والعقد، وهم الأجدر بقيادة الناس في المدينة وما حولها، لأنهم أهل الحق الرباني الذي كُلِّفوا تطبيقه في أنفسهم ودعوة الناس إليه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنهم أصبحوا يملكون أزمة الأمور في البلاد بنظام وطاعة تحت قيادة واحدة، بخلاف غيرهم من اليهود والمشركين، فقد كانوا يعيشون في فوضى وتطاحن فيما بينهم، وكذلك اليهود لم يكن في استطاعتهم جمع كلمة الناس، بل إنهم كانوا يؤججون بينهم نار الحرب ويبثون بينهم الضغائن، وكان همهم ابتزاز الأموال والسيطرة على الناس عن طريق نشر تلك الفوضى وذلك الحقد.

وكان المشركون من قريش يتربَّصون بالمسلمين للقضاء عليهم قبل أن تتوطد دعائم قوتهم وإحكام سيطرتهم على قاعدتهم الجديدة، ولا زالت الجزيرة العربية تدين بالشـرك وعبادة الأوثان، وينظر سكانها إلى قريش نظر إكبار وإجلال، ويرون في الاقتداء بهم ما يؤهلهم للتقدم والظهور.

ولا زال في المدينة نفسها مشركون، بل ظهر عنصر خبيث ماكر وهم

---

(١) الفتح: ٢٩.

المنافقون الذين أظهروا الإسلام خشية من أن تفوتهم بعض المصالح المادية، وهم في واقع الأمر شر من المشركين.

كما كان بالمدينة يهود الذين كانوا يتوقعون أن يكون الرسول الجديد منهم، فلما بعث من غيرهم امتلأت قلوبهم غيظاً وحقداً، خاصة بعد أن سبقهم إلى الإيمان به الأميّون من أهل يثرب: الأوس والخزرج، الذين كان يهود يهدِّدونهم بأن نبياً سيبعث، فيتبعونه ـ أي اليهود ـ ويقتلونهم قتل عادٍ وإرم[١]، كما قال تعالى عنهم:

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مُصدِّق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنه الله على الكافرين ﴾[٢].

وهكذا كان الشرك مطبقاً على الجزيرة العربية، وكانت قريش تتربص بالمسلمين الدوائر مع وجود المشركين والمنافقين واليهود في المدينة، وفي كل ذلك خطر على المسلمين القليلي العدد والعُدّد، ولا يستبعد اتصال قريش بمشركي المدينة ومنافقيها ويهودها أو العكس للتآمر على المسلمين والقضاء عليهم.

لذلك كان لا بد من الإسراع إلى وضع ميثاق توضَّح فيه معالم وحدة الأمة الإسلامية، وصلة غيرها من مشركين ويهود بها، على أن تكون القيادة للأمة الإسلامية لا لأعداء الله من مشركين ويهود الذين لا يؤمن جانبهم، بخلاف المسلمين فإن الوفاء بالعهد عندهم من الدين الذي أنزله الله على رسوله ﷺ.

فقد جعل الميثاقُ المسلمين أمة واحدة، من أي جنس كانوا:ـ (هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة من دون الناس).

ولكنه أبقى ما كان معمولاً به في القبائل العربية من التكافل والعَقْل وفداء العاني: (يتعاقلون معاقلهم، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين).

(١) تفسير ابن كثير (١/١٢٤).
(٢) البقرة: ٨٩.

ودعا الميثاق إلى إعانة من أثقله الدين وكثر عليه العيال: (وأن المؤمنين لا يتركون مَفْرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف والقسط بين المؤمنين). وألزم المؤمنين الوقوف صفاً واحداً ضد البغاة الظالمين الآثمين ولو كانوا من ألصق قراباتهم (وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم).

وقرر المساواة بين المؤمنين: (وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم) وسدَّ الباب على المشركين في المدينة من أن يتعاونوا مع مشركي قريش: (وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن) وقرر القصاص في القتلى حتى لا يَعتدي أحد على أحد، وحتى لا تعود فوضى الغارات والعداوات والإحن التي كانت ضاربة أطنابها قبل الإسلام بين القبائل:(وأنه من اعتبط[1] مؤمناً قتلاً عن بيِّنة فإنه قَوَد به، إلا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه).

وألزمهم ملاحقة المجرمين وعدم إيوائهم حتى ينال كل خارج عن نظام الدولة الإسلامية جزاءه وليرتدع الناس عن الإجرام: (وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل).

وقرر تبعية اليهود للأمة الإسلامية مع السماح لهم بالبقاء على دينهم، وألزمهم إعانة المسلمين بالمناصرة وبالإنفاق في الحرب، أما في حالة السلم فعلى كل فريق الإنفاق على نفسه: (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود... أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[2] إلا نفسه وأهل بيته...).

(وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم).

وقرر قاعدتَي النصر والمسؤولية، فلم يَبْقَ ذلك العمل الجائر من نصر

(١) أي قتله بدون حق.
(٢) أي يهلك، راجع النهاية لابن الأثير.

القبيلة كلها لأي فرد منها سواء كان ظالماً أو مظلوماً كما قال الشاعر الجاهلي:

وهل أنا إلّا مِنْ غزيَّة أن غوت غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

كما لم يبق ذلك الاعتداء على البريء بجريرة غيره، بل كل واحد مسؤول عن عمله: (وأنه لم يأثم امروء بحليفه، وأن النصر للمظلوم).

وقرر حق الجار: (وأن الجار كالنفس غير مضارٍ ولا آثم).

وقرر حرية البقاء في المدينة أو الخروج منها ما لم يصب الباقي أو الخارج ظلماً: (وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلّا من ظلم وأثم).

وكانت أهم قواعد هذا الميثاق جعل القيادة لرسول الله ﷺ ورد الحكم إلى الله وإلى رسوله ﷺ حيث خاطب المؤمنين بقوله: (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد ﷺ).

ونصَّ في أثناء المعاهدة مع اليهود على ذلك: (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد رسول الله ﷺ)[١].

وبهذا الميثاق العظيم أحاط النبي ﷺ الأمة الإسلامية بسياج قوي منيع داخليّ وخارجيّ، ووطّد دعامة الحكم بما أنزل الله، وأصبحت بذلك دولة الإسلام قائمة على أقوى الدعائم التي يجب توافرها لقيام الدولة العالمية الشرعية الخاتمة. بقيادتها النبوية، وأمتها المطيعة المقتدية، ومنهجها الشامل الواضح.

فإذا أُضيف هذا إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء المسجد النبوي الشريف الذي كان منطلق الدعوة والتعليم والجهاد والمواساة، ومركز التجمع لكل ما يعنِ من أمور الدولة الإسلامية من الشورى وغيرها، مع كونه مقراً لأداء الشعائر العبادية، فإن مقومات الدولة تكون قد اكتملت.

---

(١) النص الكامل لهذا الميثاق في السيرة النبوية (١/٥٠١) وما بعدها.

وأصبح المسلمون أمة تتربص بها قريش وأهل الجزيرة كلِّهم من ورائها، بل تتربص بها دول الكفر في الشرق والغرب.

فماذا بعد؟

الإذن في القتـــال

كان قتال المسلمين أعداءهم الكافرين في مكة دفاعاً عن أنفسهم محرّماً عليهم على الرغم من شدة الاعتداء عليهم كما مضى، وعندما فكَّروا في ردِّ الاعتداء عن أنفسهم أمرهم الله بكفِّ أيديهم، كما قال تعالى: ﴿ألم تَر إلى الذين قِيل لهم كُفُّوا أيديَكم، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشَون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربَّنا لِمَ كتبت علينا القتال؟ لولا أخَّرتنا إلى أجل قريب؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خيرٌ لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين، والصبر إلى حين، وكانوا يتحرَّقون ويودُّون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها قلة عددهم إلى كثرة عدد عدوهم)[2].

فالآية مدنية تحكي ما كان من أمر المسلمين في مكة من تحرقهم واشتياقهم لإذن الله تعالى لهم في قتال عدوهم دفاعاً عن دينهم وأنفسهم وأعراضهم، وتعجب من فريق منهم، وليس كلهـم تقاعس عندما فرض الله القتال في المدينة.

ويعقب سيد قطب على تعجيب الله من هذا الفريق المتحمِّس قبل فرض القتال، المتقاعس بعد فرضه فيقول: (وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه، ولا

(١) النساء: ٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢٥).

يطيق الهوان، وهو ذو عزة فيندفع يطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بدفع الأذى، أو حفظ الكرامة، والرسول ﷺ يتبع في هذا أمر ربه بالتريُّث والانتظار والتربية والإعداد وارتقاب الأمر في الوقت المقدّر المناسب، فلمّا أن أمن هذا الفريق في المدينة ولم يعد هناك أذى ولا إذلال... لم يعد يرى للقتال مبرراً... وقد يكون هذا الفريق مؤمناً فعلاً بدليل اتجاههم إلى الله في ضراعة وأسىً، وهذه الصورة ينبغي أن تكون في حسابنا فالإيمان الذي لم يتضح بعد... ليبلغ بالنفس إلى اخراج ذاتها من الأمر والاستماع فقط إلى أمر الله واعتباره هو العلة والمعلول والسبب والمسبَّب والكلمة الأخيرة، سواء عرف المكلف حكمتها أم لم تتضح له... لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف الذي يصوِّره السياق القرآني هذا التصوير، ويعجب منه هذا التعجب، وينفِّر منه هذا التنفير)[١] إ هـ مع تصرّف واختصار.

حكمة الأمر بكف المسلمين أيديهم عن القتال في مكة

وأمر المسلمين بكف أيديهم عن القتال في مكة ـ على الرغم من تعدي المشركين عليهم وإيذائهم بكل ألوان الأذى ـ كان هو المناسب صدوره من العليم الحكيم وقد أشار ابن كثير رحمه الله إلى ما ظهر له من الحكمة في ذلك: (ولم يكن الحال ـ أي الأمر بالقتال ـ إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة: منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم. ومنها كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لمّا صارت لهم دار ومِنعة وأنصار...)[٢].

وقد تعرض سيد قطب لذلك في كتابه (في ظلال القرآن) ـ بعد أن بيّن أنه يجب على المسلم أن يتأدب مع القرآن فلا يجزم أن هذه هي الحكمة أو تلك وأنها أمور اجتهادية تخطىء وتصيب، فبيّن أن الفترة المكيّة كانت فترة إعداد وتربية للفرد على الصبر وضبط النفس والبقاء ضمن مجتمع منظم وقيادة تُطاع في بيئة كان ذلك مفقوداً فيها. وأن الدعوة السلمية في المجتمع الجاهلي كانت أشد تأثيراً

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٧١٢، ٧١٣) طبع دار الشروق.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٥٢٥).

من الصراع المسلح وأنه لو أذن للمسلمين في القتال لقامت معركة بين القريب وقريبه في كل بيت لعدم وجود سلطة نظامية متميزة، وقد يكون ذلك سبباً في نفور الناس من الإسلام، كما أن الله تعالى قد علم أن كثيراً من المعاندين الذين كانوا يفتنون المؤمنين سيكونون بعد من جنود الإسلام.

يضاف إلى ذلك أنه كان يوجد في المجتمع الجاهلي من ينصر المظلوم وقد كان أبو طالب، بل وغيره من بني هاشم وبني عبد المطلب يحمون رسول الله ﷺ، وفي نقض الصحيفة الآثمة ما يدل على ذلك.

وكان عدد المسلمين قليلاً وعدد عدوهم كثيراً.

وأخيراً فإن المرحلة كانت مرحلة دعوة إلى الله وهي محققة بدون قتال، فقد كان الرسول ﷺ يعرض دعوته على الناس في كل مكان[1] آ هـ.

والخلاصة: أن الفترة المكية كانت مرحلة دعوة وابتلاء وصبر وكان جزء منها مرحلة إعداد لإقامة الدولة الإسلامية، ويبدأ هذا الجزء من بدء إسلام أول فوج من الأنصار في منى. أما القتال فكان في ذلك الوقت محرماً لما سبق ولغيره مما لا يعلمه إلا الله، وفي أول نزول الرسول ﷺ بالمدينة باشر تأسيس قيام الدولة وقد مضى الكلام على ذلك كله مفصلاً.

وبعد أن قامت الدولة الإسلامية أَذن الله للمسلمين المظلومين بأن يُقاتلوا الكافرين الظالمين، الذين أخرجوهم بغير حق سوى أنهم يقولون: «ربنا الله»، ووعدهم سبحانه في الآية بنصره فقال: ﴿أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾[2].

وكون هذا الإذن وقع في المدينة بعد الهجرة هو الصواب، لا كما قال ابن هشام من أن الإذن وقع في مكة وبعده أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة[3].

وقد ردَّ هذا الرأي شمس الدين ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد فقال:

(١) انظر في ظلال القرآن (٥/٥١٣ ـ ٥١٤). (٣) انظر السيرة النبوية (٢/٧٩، ٨٠).
(٢) الحج: ٣٩.

(فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم فمنعه أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر وبذلوا نفوسهم دونه وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج وكان أولى بهم من أنفسهم رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة وصاحوا بهم من كل جانب والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة واشتد الجناح فأذن لهم حينئذ في القتال ولم يفرضه عليهم فقال تعالى: ﴿ أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾[١]. وقالت طائفة: (إن هذا الإذن كان بمكة والسورة مكية. وهذا غلط لوجوه: أحدها أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كانَ لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم فإنه قال: ﴿ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾[٢] وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾[٣]، نزلت في الذين تبارزوا في يوم بدر من الفريقين.

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب بيا أيها الناس فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعمّ الجهاد باليد وغيره ولا ريب في أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة. فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله: ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ﴾ أي بالقرآن ﴿ جهاداً كبيراً... ﴾[٤].

السادس: إن الحاكم روى في مستدركه من حديث الأعمش... عن ابن عباس قال: (لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله

---

(١) الحج: ٣٩.
(٢) الحج: ٤٠.
(٣) الحج: ١٩.
(٤) الفرقان: ٥٢.

وإنا إليه راجعون ليهلكن فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ وهي أول آية نزلت في القتال) وإسناده على شرط الصحيحين[١].

فهذه المرحلة هي مرحلة إباحة الله للمؤمنين بأن يقاتلوا عدوهم لظلمهم إياهم.

فرض القتال على المسلمين

كانت المرحلة الأولى من مراحل القتال ـ الذي هو جزء من الجهاد في سبيل الله ـ هي الإذن والإباحة، كما مضى.

أما المرحلة الثانية، فهي فرض القتال على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثَقِفْتموهم، وأخرجوهم من حيثُ أخرجوكم، والفتنةُ أشدُّ من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاءُ الكافرين، فإن انتهَوا فإن الله غفورٌ رحيم، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدين لله، فإن انتهَوا فلا عدوان إلا على الظالمين. الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والحرماتُ قِصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[٢].

وللعلماء في هذه المرحلة رأيان:

الرأي الأول: إن الله تعالى فرض على المسلمين أن يقاتلوا أعداءهم الكفار إذا بدأ هؤلاء بقتال المسلمين فقط، مستدلين بأدلة من نفس هذه الآيات.

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ أي الذين يبدؤنكم بالقتال.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ والمراد

(١) زاد المعاد (٢/٦٥).
(٢) البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٤.

بالاعتداء المنهى عنه على هذا الرأي أن يبدأ المسلمون بقتال الكافرين الذين لم يقاتلوهم.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ أي إذا انتهى الكافرون من قتال المؤمنين.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ فإن انتهَوا فلا عدوان إلّا على الظالمين ﴾.

وفي الجملة فالآيات تدل بظاهرها على وجوب ردّ العدوان الذي يبدأ به الكافرون على المؤمنين.

وعلى هذا فقد كان القتال فرضاً على المسلمين في حالة بدء الكفار بقتالهم، ومحظوراً عليهم بالنسبة لمن سالمهم ولم يقاتلهم.

ويبني أهل هذا الرأي عليه أن هذه المرحلة ـ التي كان محظوراً فيها قتال من لم يبدأ المسلمين بالقتال ـ نسخت بالآيات التي نزلت بعد ذلك وهي صريحة في الأمر بقتال الكفار حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وهم صاغرون كما في سورة التوبة، وعلى هذا لرأي الربيع وابن زيد وأيده ابن القيم فتكون مراحل القتال عندهم أربعاً:

الأولى: حظره على المسلمين عندما كانوا في مكة.
الثانية: إباحته لهم في أول الأمر بالمدينة.
الثالثة: فرضه عليهم بالنسبة لمن بدأهم بالقتال.
الرابعة: فرضه عليهم مطلقاً وهي المرحلة الأخيرة.

الرأي الثاني: أن فرض القتال كان عاماً في قتال الكفار من بدأ منهم بالقتال ومن لم يبدأ، فكل من كان في حالة من يقاتل المسلمين يجب قتاله، لأن الأصل فيهم عدم المسالمة، بل المقاتلة والفتنة، ولا يقفون عن هذا الأصل إلا إذا عجزوا، وذلك لا يقتضي كف المسلمين عنهم حتى يعدوا العدّة وتقوى شوكتهم على المسلمين.

والدليل على عدم مسالمتهم قوله تعالى: ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى

يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[1].

ويفسر أهل هذا الرأي الاعتداء المنهى عنه بتجاوز المسلمين القادرين على القتال من الكفار إلى غيرهم ممن لا يقاتلون ولا يعينون على القتال كالنساء والصبيان والشيوخ والرهبان الذين انقطعوا للعبادة، فإن قتال هؤلاء لا يجوز كما ورد النهي عنه في نصوص أخرى ستأتي في مكانها. ويفسرون الانتهاء في قوله: ﴿ فإن انتهَوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ بترك الكفر والدخول في الإسلام، أو إعطاء الجزية والكفّ عن محاربة الله ورسوله.

وعلى هذا الرأي لا يوجد نسخ، وإنما زيد حكم الجزية الذي لم تتعرض له سورة البقرة وجاء في سورة التوبة.

وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وعمر بن عبد العزيز، واختاره ابن جرير الطبري وابن كثير في تفسيريهما.

وتكون مراحل القتال عندهم ثلاثاً فقط:

الأولى: الحظر عندما كان المسلمون في مكة.

الثانية: الإباحة في أول الأمر بالمدينة.

الثالثة: فرضه مطلقاً[2].

والذي يظهر أنَّ هذا هو أرجح الأقوال، لأن الاعتداء المنهى عنه في الآيات فسّر بنصوص السنّة التي نهت عن قتل النساء والصبيان والشيوخ والرهبان، والكفار الذين ليسوا من هذه الأصناف هم في حالة من يقاتل المسلمين ولا يكفّون عن ذلك إلا لعجز، وعجزهم لا يسوغ كفّ المسلمين عنهم حتى يستعدوا لقتالهم، بل يجب مبادرتهم لإعلاء كلمة الله وخضد شوكة أعدائه.

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) راجع هذه الأقوال في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢/١٨٩ - ٢٠٠) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٢٣٧ - ٢٦٠) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٢٢٦)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٢/١٨٧) وزاد المعاد لابن القيم (٢/٦٥). الآية من سورة البقرة (١٩٢).

وتتضمن آيات سورة التوبة هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الجهاد وتوضحها أكمل توضيح، قال تعالى: ﴿ براءةٌ من الله ورسولِه إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، واعلموا أنكم غيرُ مُعْجزي اللهِ وأن الله مُخْزي الكافرين. وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن اللهَ بريءٌ من المشركين ورسولُه، فإن تبتم فهو خيرٌ لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ مُعْجزي الله، وبشِّر الذين كفروا بعذاب أليم. إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين. فإذا انسلخ الأشهر الحُرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخُذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلُّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم. وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمعَ كلام الله، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون. كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾[١].

وأُضيفت الجزية في قوله تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، لا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يَدِينون دينَ الحقِّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ صاغرون ﴾[٢].

فأصبَح المسلمون مكلَّفين أن يقاتلوا كفّار أهل الأرض حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية ـ على خلاف في أخذها من الوثنيين .

وقد لخص ابن القيم رحمه الله مراحل الجهاد ـ بمعناه العام ـ من حين بعث الرسول ﷺ إلى أن لقي ربه، فقال: (أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن

---

(١) التوبة: ١ ـ ٧.
(٢) التوبة: ٢٩.

يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿ياأيها المدثر قم فأنذر﴾ فنبّأه بقوله: ﴿اقرأ﴾ وأرسله بـ: ﴿يا أيها المدثر﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره الله أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

ثم بين رحمه الله أقسام الكفار بعد الأمر بالجهاد وأحكامهم في الإسلام مع توضيح آخر مرحلة من مراحل الجهاد، فقال: «ثم كان الكفار معه بعد الجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمر فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم - إلى أن قال -: فاستقر أمر الكفار منه بعد نزول سورة براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به ومسالم له آمن، وخائف محارب»[(١)].

ففرض المسلمين إذاً أن يجاهدوا حتى يحققوا هذه المرحلة من مراحل الجهاد في سبيل الله اقتداء برسول الله ﷺ، وامتثالاً لأوامر الله ولا يجوز لهم الوقوف عند المراحل السابقة عليها.

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٩٠، ٩٢).

قال سيد قطب رحمه الله: «والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام بأمر من الله، لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها، ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم: «فاستقر أمر الكفار معه...»[١] إلى آخر الفقرة الأخيرة التي سبقَ ذكرها في كلام ابن القيم رحمه الله.

الفرع الثالث
حكم المراحل الجهادية

بدأت الدعوة بعد البعثة النبوية سراً، ثم أمر ﷺ بالجهر بها فبلغ ماأمره به ربه، وأمر خلال ذلك بالصبر على الأذى والصفح والكفّ عن القتال إلى أن هاجر هو وأصحابه إلى المدينة، ثم أذِن لهم في قتال الظالمين، ثم فرض عليهم قتالهم ـ إذا بدأوا بالقتال، أو مطلقاً كما مضى ـ وكانت آخر مراحل الجهاد ـ بمعناه الخاص ـ قتال الكفار كافة، ونبذ عهودهم إليهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وهم صاغرون ـ على خلاف في غير أهل الكتاب ـ فما حكم هذه المراحل الجهادية التي مرّت بها الدعوة الإسلامية؟

عندما يمر القارىء بنصوص القرآن المتضمنة للمراحل المذكورة يجد أن كثيراً من المفسرين والمؤرخين، وغيرهم من العلماء ينصون على نسخ المراحل كلها بنصوص المرحلة الأخيرة التي يطلقون عليها آية السيف.

ومعنى هذا أنه يجب على المسلمين أن يقاتلوا كفار الأرض كلهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وهم صاغرون، لأن هذه هي المرحلة الأخيرة وقد نسخت ما قبلها من المراحل، والمنسوخ لا يجوز العمل به.

ولكن رجح المحققون عدم النسخ لأي مرحلة من المراحل الجهادية وهو الظاهر[٢].

---

(١) في ظلال القرآن (١٤٤٦/٩)، ويراجع أيضاً (١٥٨١/١٠) من نفس الكتاب.

(٢) راجع جامع البيان للطبري (٣٤/١٠) والجامع لأحكام القرآن (٣٩/٨)، (٣٧/٢٠) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٢٢/٢).

وعلى ذلك فإن للمسلمين أن يعملوا بحكم أي مرحلة منها إذا كانت ظروفهم فيها مشابهة للظروف التي نزلت فيها آياتها، والقول بغير هذا يؤدي إلى مواجهة الواقع بما لا يكافئه وبالتكليف بما هو فوق الطاقة.

فالمسلمون القادرون على الدعوة سراً فقط لا يجوز تكليفهم الجهر بها كما هو الحال في الدول الشيوعية وغيرها من الدول الكافرة التي لا تأذن بالدعوة إلى الله، بل تنزل العقاب بمن يتصدى لذلك.

وإذا كانت بعض الدول تأذن بتبليغ بعض أُمور الإسلام، كالعبادات الظاهرة، مثل الصلاة والصيام والحج، وتحظر غيرها، كالزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الجهاد، وعدم موالاة الكافرين وتحكيم شرع الله، فيجب على الدعاة إلى الله أن يدعوا جهراً إلى الأمور المأذون فيها، ويدعوا إلى غيرها سراً.

فإذا آذاهم أعداء الله وامتحنوهم بسبب دينهم، فإن كانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم بدون إلحاق الضرر القاضي عليهم وعلى أهليهم فعليهم أن يدافعوا وإذا لم يكونوا قادرين، لقلة عددهم وسيطرة عدوهم على أجهزة الدولة فعليهم أن يصبروا حتى يحكم الله بينهم وبين عدوهم.

فإذا أصبحوا قادرين على قتال الكافرين وإخضاعهم لكلمة الله تعالى، بأن قامت لهم دولة أو ما يشبهها فيجب أن يبدأوا أعداء الله بالقتال وهكذا... كل مرحلة يحتاج المسلمون إلى تطبيقها جاز لهم ذلك. ولكن يجب عليهم السعي المتواصل لتطبيق المرحلة الأخيرة.

قال سيد قطب رحمه الله: (ولكنا فقط نبادر فنقول أن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة، ذلك لأن الحركة في الواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد، عن طريق الاجتهاد المطلق، أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف... مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يُصار إليها، متى أصبحت الأمة

المسلمة في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة، وما بعدها ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت على أساس من هـذه الأحكام الأخيـرة النهائيـة سـواء في معـاملة المشـركـين أو أهـل الكتاب. . .)[١].

(١) في ظلال القرآن (١٠/ ١٥٨٠).

المبحث الخامس

آداب الجهاد في سبيل الله

وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول	:	آداب الجهاد قبل خوض المعركة.
الفرع الثاني	:	آداب الجهاد أثناء المعركة.
الفرع الثالث	:	آداب الجهاد بعد المعركة.
الفرع الرابع	:	بعض آداب الجهاد العامة.

آداب الجهاد في سبيل الله

يمتاز الجهاد في سبيل الله كغيره من فرائض الإسلام وتشريعاته، عن الحروب الجاهلية ونظمها وقوانينها في الأهداف والوسائل وغيرها، لأن فرائض الإسلام ومنها الجهاد في سبيل الله، من عند الله تعالى، ونظم الجاهلية ومنها الحروب، من عند البشر، والفرق بين شريعة الله، وقوانين البشر كالفرق بين الخالق والمخلوق.

وآداب الجهاد في الإسلام ويعنى بها ما يطلب فعله وما يطلب تركه، فمنها ما هو فرض يجب أداؤه، ومنها ما هو محرم يجب تركه، ومنها ما هو مندوب يسنّ الإتيان به.

ثم منها ما يكون قبل المعركة، ومنها ما يكون في أثنائها، ومنها ما يكون بعدها، وعلى هذا الأساس الأخير يرتب هذا المبحث.

الفــرع الأول
آداب الجهاد المشروعة قبل خوض المعركة

١ ـ الإخلاص لله تعالى في أداء هذه الفريضة:

والإخلاص، معناه تصفية العمل من شوائب الشرك كبيره وصغيره، وهو مطلوب من المسلم في كل أعماله، كما قال تعالى: ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[٢].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[٣].

وقال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيّة ولكل امرىءٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٤].

وقال الفُضَيل بن عِياض[٥] في قولـه تعالى: ﴿ ليبلوكم أيّكم أحسن عملا ﴾: أخلصه وأصوبه، قيل: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: أن العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما ابتغي به وجه الله، والصواب ما كان موافقاً لسنّة رسول الله ﷺ، والنصوص في هذا المعنى كثيرة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وأقوال السلف الصالح.

وهي عامّة في كل عمل يتقرب به الإنسان إلى ربه تعالى.

وقد خصّت فريضة الجهاد بالتأكيد على الحرص على إخلاص المجاهد نيته لله تعالى، لأن تسرب الرياء إلى المجاهد أسرع منه إلى غيره، ولهذا عنيت النصوص بذلك غاية العناية.

---

(١) البينة: ٥.
(٢) الكهف: ١١٠.
(٣) مسلم (٤/٢٢٨٩) من حديث أبي هريرة.
(٤) البخاري رقم ٥٤، فتح الباري (١/١٣٥)، ومسلم (٣/١٥١٥).
(٥) الفتاوي لابن تيمية (١٠/١٧٣). والآية في هود: ٧، والملك: ٢.

فالجهاد نفسه يرد في كتاب الله وسنّة رسوله مقيداً بهذا القيد: «في سبيل الله» وسيأتي ذلك مفصلاً إن شاء الله في مبحث: أهداف «الجهاد في سبيل الله» مقارناً بأهداف الحروب الجاهلية.

ويكفي أن يُساق هنا ما كان يوصي به النبي ﷺ أُمراءه وجيوشه إذا جهزهم للجهاد في سبيل الله: ففي حديث بريدة رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية[١] أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً)، ثم قال: «أغزوا باسم الله...»[٢] فالغزو ابتداء يُراد به وجه الله تعالى، لأنه يغزو باسمه لا باسم غيره.

وكذلك جوابه ﷺ عندما سُئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء: أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: فهو في سبيل الله»[٣].

لذلك يجب على المجاهدين في سبيل الله أن يتذكروا هذا الأمر العظيم عند خروجهم حتى تكون جميع أعمالهم وحركاتهم في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حَوْلهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله ولا يَرْغبوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نَصَب ولا مَخْمصة في سبيل الله، ولا يطئون مَوْطئاً يَغِيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نَيْلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجرَ المحسنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم، ليجزيَهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾[٤].

---

(١) الجيش هو الجمع العظيم الذي يجيش بعضهم في بعض، والسرية عدد قليل يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار أ هـ من المبسوط (١٠/٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٥٦/٣) وانظر جامع الأصول (٥٨٩/٢).

(٣) البخاري رقم الحديث ٢٨١٠، فتح الباري (٢٧/٦) ومسلم (١٥١٢/٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وانظر المرجع السابق (٥٨٩/٢).

(٤) التوبة: ١٢٠، ١٢١، وانظر المبسوط للسرخسي (٥/١٠).

٢ ـ الحفاظ على تقوى الله تعالى والازدياد منها:

وقد أمرالله بتقواه عموماً في نصوص كثيرة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، بل مدح التقوى وأثنى على أهلها، وجعلهم أهلاً للاهتداء بكتابه وسنّة رسوله ﷺ دون غيرهم من الناس.

فأمر بها رسوله ﷺ: ﴿ يا أيها النبي اتَّقِ الله ولا تُطِع الكافرين والمنافقين، إن الله كان عليماً حكيماً ﴾[١].

بل إن الله تعالى جعلها وصيته للأوّلين والآخرين، فأمرهم بها جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾[٢].

وكل رسول أمر بها قومه: ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾[٣].

ومدح التقوى، فقال: ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾[٤].

وقال: ﴿ وتزّودوا فإن خير الزاد التقوى واتّقون ياأُولي الألباب ﴾[٥]، وأثنى على أهلها وجعلهم أحقّ بها وأهلها، فقال: ﴿ فأنزل الله سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿ ألم ذلك الكتاب لا رَيْب فيه هُدَىً للمتقين ﴾[٧].

وأمر بها النبي ﷺ أمراً عامّاً، فقال: «اتَّقِ الله حيثما كنت»[٨].

وأوصى بها المجاهدين عند تشييعهم كما سبق من حديث بريدة قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله . . .)[٩].

---

(١) الأحزاب: ١.
(٢) النساء: ١٣١.
(٣) الشعراء: ١٠٨ وما بعدها.
(٤) الأعراف: ٢٦.
(٥) البقرة: ١٩٧.
(٦) الفتح: ٢٦.
(٧) البقرة: ٢٠١.
(٨) الترمذي وقال: حديث حسن (٤ / ٣٣٥) وهو في جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ١٣٦.
(٩) مسلم (١٣٥٦/٣) وهو في جامع الأصول (٥٨٩/٢).

والحد الأدنى من تقوى الله أن يأتي الإنسان بالفرائض التي فرضها الله، وأن يجتنب المعاصي التي حرّمها الله تعالى، وذلك موجب للجنة، كما ثبت في صحيح مسلم في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، فقال: (أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرّمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أدخل الجنة؟ قال: نعم)(١).

وفي حديث أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» قال النووي: (حديث حسن، رواه الدارقطني وغيره)(٢).

والحدّ الأعلى للتقوى أن يصل المسلم في وَرَعه إلى ملازمة نوافل الطاعات واجتناب المكروهات، بل أن يصل إلى ترك بعض المُباحات خشية من الوقوع في المكروهات أو المحرمات، كما في الحديث القدسي الذي رواه البخاري أن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى: قال: من عادَى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»(٣).

وفي حديث عطية السعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتَّقين حتى يدع ما لا بأس به حَذَراً مما به بأس»، قال ابن كثير بعد أن ساق إسناد الحديث ومتنه: قال الترمذي: حسن غريب(٤).

وفي المبسوط للسرخسي: (وإنما يوصيه بتقوى الله تعالى، لأنه بالتقوى ينال

(١) مسلم (١/٤٤) من حديث جابر وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص ١٧٩).
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢٤٢.
(٣) البخاري رقم ٦٥٠٢ فتح الباري (١١/٣٤٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٤٠).

النصرة والمدد من السماء، قال تعالى ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم ﴾[١]، وبالتقوى يجتمع للمرء مصالح المعاش والمعاد)[٢].

وسيأتي مزيد من الكلام على التقوى في بعض الفصول القادمة إن شاء الله ولا سيما فصل عوامل النصر والهزيمة.

والمقصود هنا بيان تذكير المجاهد بما يشرع له قبل بدئه في قتال عدوه بهذا الأمر العظيم الذي لا يصلح للجهاد من فقده.

٣ ـ إجتماع القائد بالجيش للتشاور في الأمور المهمة قبل خوض المعركة:

ومن الآداب التي يجب مراعاتها قبل لقاء العدو اجتماع القيادة بالمجاهدين للتشاور في الأمور التي تهمهم قبل لقاء العدو، كتعيين ميدان المعركة، والموضع الذي يصلح مركزاً للقيادة، والوسائل التي يجب اتخاذها للقضاء على العدو أو ردّ عدوانه كما حصل ذلك في غزوة بدر وأحد والخندق وغيرها من الغزوات[٣].

وسيأتي مزيد بيان لهذا الأدب العظيم في فصل: صفات المجاهدين إن شاء الله، إذ المقصود هنا التذكير به قبل خوض المعركة مع الأعداء.

٤ ـ تشييع الغزاة عند خروجهم للجهاد في سبيل الله:

ومن آداب الجهاد: تشييع المقيمين ـ وعلى رأسهم الأمير إن كان مقيماً ـ الغزاة في سبيل الله، وتشجيعهم بذكر فضل الجهاد والمجاهدين وإظهار إكرامهم لحفز هممهم وهمم المقيمين على الاستعداد لقتال العدو عاجلاً أم آجلاً[٤].

وفي ترتيب المسند: (باب تشييع الغازي، واستقباله، ووصية الإمام له) عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ،

---

(١) آل عمران: ١٢٥.
(٢) المبسوط (١٠/٤)، وبدائع الصنائع (٩ك٤٣٠٤).
(٣) انظر سيرة ابن هشام (٢/١٨٨)، (٣/١٦)، ٣/٢٧) وكذا المغني لابن قدامة (٩/٢١٥).
(٤) انظر سيرة ابن هشام (٤/٨، ٩)، وكذا زاد المعاد (٢/١٧٣).

أنه قال: «لأن أشيع مجاهداً في سبيل الله، فأكفه[١] على راحلة غدوة أو روحة أحب إلي من الدنيا وما فيها»[٢].

وفي الموطأ عن مالك عن يحيى بن سعيد أنّ أبا بكر الصديق بعث جيوشاً إلى الشام، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان، وكان أمير ربع في تلك الأرباع، فزعموا أن يزيد قال لأبي بكر، إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال أبو بكر: (ما أنت بنازل وما أنا براكب إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله...)[٣].

٥ ـ مبايعة الجيش على الثبات وعدم الفرار:

ومن آداب الجهاد أن يبايع أمير الجيش جنده على الثبات قبل الشروع في القتال تذكيراً لهم بحق الله تعالى عليهم من بذل النفس في سبيله، وحضّاً لهم على لقاء عدوه بعزم وتصميم وعدم تردد أو تهيّب. فقد كان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه على أمور كثيرة من أمور الإسلام، ومن ذلك البيعة على عدم الفرار من العدو:

ففي حديث جابر رضي الله عنه قال (كنّا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة)، وقال: (بايعناه على ألّا نفر، ولم نبايعه على الموت)[٤].

قال النووي رحمه الله: (وفي رواية سلمة أنهم بايعوه يومئذ على الموت)[٥] وهو معنى رواية عبد الله بن زيد بن عاصم، وفي رواية مجاشع بن مسعود:

---

(١) قال في الحاشية: «بكسر الكاف أي أخدمه وأُعينه في حوائجه».

(٢) ترتيب مسند الإمام أحمد، المسمّى (بالفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني) لأحمد عبد الرحمن البنا والد الإمام حسن البنا رحمهما الله (الساعاتي (٥١/١٤) وقال في الحاشية: «تخريجه: جه، ك، وفي إسناده ابن لهيعة وشيخه زبان بن فايد، وكلاهما فيه كلام.
وانظر مجمع الزوائد (١٥٨/٦).

(٣) الموطأ (٤٤٨/٢) رقم ١٠.

(٤) حديث جابر في صحيح مسلم (١٤٨٣/٣) وما بعدها.

(٥) البخاري رقم الحديث ٢٩٦٠، فتح الباري (١١٧/٦).

(البيعة على الهجرة، والبيعة على الإسلام والجهاد)[١]، وفي حديث ابن عمر وعبادة: (بايعناه على السمع والطاعة وألّا ننازع الأمر أهله ـ كل هذه الروايات في صحيح مسلم ـ قال: وفي رواية عن ابن عمر في صحيح مسلم البيعة على الصبر)[٢] قال العلماء: (هذه الرواية تجمع بين المعاني كلها وبين مقصود كل الروايات: فالبيعة على ألا نفر معناه الصبر حتى نظفر بعدونا أو نقتل، وهو معنى البيعة على الموت، أي الصبر وإن آل بنا ذلك إلى الموت، لا أن الموت مقصود في نفسه وكذا البيعة على الجهاد، أي والصبر فيه)[٣].

٦ ـ إتفاق الغزاة في سبيل الله على شعار يميّز المسلمين من غيرهم:

ومن آداب الجهاد أن يتفق المجاهدون على كلمة سر لا يعلمها غيرهم تكون شعاراً لهم ليميز بعضهم بعضاً عندما تلتقي صفوفهم بصفوف عدوهم حتى لا يختلطوا بالمشركين، ويختلط المشركون بهم، لأن تميز المسلمين عن المشركين فيه فوائد عظيمة منها: عدم استطاعة المشركين الاختلاط بهم للتجسس عليهم، أو الغدر بهم، ومنها عدم قتل المسلم أخاه المسلم خطأ ظناً منه أنه من أفراد العدو.

وغير ذلك من الفوائد، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه قبل أن يلتقي بهم العدو، شعاراً خاصاً بهم، كما في حديث المهلّب بن أبي صُفْرة رحمه الله عمّن سمع النبي ﷺ يقول: «إن بيَّتكم العدو، فقولوا حم لا ينصرون» وروي عن المهلب مرسلاً عن النبي ﷺ. أخرجه الترمذي[٤] وكان أصحابه رضي الله عنهم يطبقون ذلك في غزوهم.

---

(١) البخاري رقم الحديث ٢٩٦٢ فتح الباري نفس الجزء والصفحة.

(٢) البخاري رقم الحديث ٢٩٥٨، فتح الباري (١١٧/٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣، ٦) وانظر حواشي تحفة المحتاج على المنهاج (٢٣٨/٩).

(٤) جامع الأصول (٥٧٣/٢) رقم الحديث ١٠٥٣، وقال المحشى: الترمذي، رقم ١٦٨٢، في الجهاد، باب ما جاء في الشعار وأبو داود رقم ٢٥٩٧ في الجهاد، باب في الرجل ينادي بالشعار وأخرجه أحمد في مسنده ٦٥/٤٥ و٣٧٧/٥، وذكره ابن كثير في تفسيره عن أبي داود والترمذي، وقال: هذا إسناد صحيح.

وفي حديث سَلَمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: أمَّر علينا رسول الله ﷺ مرة أبا بكر فبيَّتنا ناساً من المشركين نقتلهم، وقتلت بيديَّ تلك الليلة سبعة أهل أبيات من المشركين، وكان شعارنا: أمِتْ وفي رواية أخرى: يا منصور أُمِتْ. أخرجه أبو داود، وانتهت روايته عند أمت الأولى، وفي أخرى لأبي داود أيضاً قال: (غزونا مع أبي بكر زمن النبي ﷺ، فكان شعارنا: أمِتْ... أمِتْ)[١].

ويظهر من الحديثين: حديث المهلب، وحديث سلمة أن الشعار كان مما يداوم عليه في الغزو.

٧ ـ تنشيط المجاهدين في وقت الإعداد للقتال بترديد بعض الأناشيد الإسلامية ورفع الصوت بها:

ومن آداب الجهاد مشاركة القائد جيشه في العمل والإعداد لقتال العدو والترويح عنهم بترديد بعض الأناشيد الإسلامية المشجعة مع رفع الصوت بذلك، لما فيه من جلب النشاط والتشجيع على العمل والتهييج على العدو، وما ورد من كراهة رفع الصوت عند القتال لا ينافي رفع الصوت عند الإعداد.

ففي حديث البراء رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق، وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر وهو يرتجز برجز عبد الله:

اللهمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزِلَنْ سكينةً علينا وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا
إنّ العِدا قد بَغَوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبَيْنا

(١) جامع الأصول (٢/٥٧٣) رقم الحديث: ١٠٥٢، قال المحشي: أبو داود رقم ٢٥٩٦ في الجهاد باب ما جاء في الرجل ينادي بالشعار ورقم ٢٦٣٨، في الجهاد، في البينات من حديث عكرمة بن عمار عن أياس بن سلمة عن أبيه، وسنده حسن، وأخرجه أحمد في مسنده ٤/٦٤، والدارمي في سننه ٢/٢١٩ من حديث ابن عميس عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: بارزت رجلا فقتلته فنفلني رسول الله ﷺ سلبه، فكان شعارنا مع خالد بن الوليد: أمت، يعني أقتل، وإسناده صحيح. وانظر «الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ أحمد بن عبد الرحمن الساعاتي» (١٣/٥٦).

يرفع بها صوته..[1]

قال الحافظ: (وجرت عادة العرب باستعماله ـ أي الرجز ـ في الحرب ليزيد في النشاط، ويبعث الهمم، وفيه جواز تمثل النبي ﷺ بشعر غيره... إلى أن قال: وكان المصنف ـ يعني البخاري ـ أشار في الترجمة بقوله: رفع الصوت في حفر الخندق إلى أن كراهة رفع الصوت مختصة بحالة القتال، وذلك فيما أخرجه أبو داود من طريق قيس بن عباد قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصوت عند القتال).

وقال محمد شمس الحق العظيم آبادي نقلاً عن الشوكاني: (لعل وجه كراهتهم لذلك أن التصويت في ذلك الوقت ربما كان مشعراً بالفزع والفشل بخلاف الصمت فإنه دليل الثبات ورباط الجأش)[2].

٨ ـ تقسيم الجيش إلى مجموعات ونصب عريف على كل مجموعة ليسهل على القائد الضبط ويتحقق النظام:

من الضروري للقائد أن يكون جيشه منضبطاً منظماً تنظيماً يمكنه من تبليغ ما يريد تبليغه إياهم بأقصى سرعة ممكنة، كما أنه قد يحتاج إلى إقناعهم بأمر ما من أمور الحرب ويصعب إقناع كل فرد على حدة لكثرتهم، وقد يظهر بعضهم رضاه بما يأمرهم به القائد فيظن القائد أن الجيش كله قد وافق على ذلك، مع أن بعضهم قد يكون غير راضٍ وفي ذلك ما فيه من الخطر الذي قد يقع ممن لم يرضَ بذلك الأمر في وقت يصعب فيه تدارك الأمر، لذلك يجب أن يقسم القائد المسلم جنده إلى مجموعات طبقاً لما تقتضيه المصلحة ويؤمر على كل مجموعة عريفاً يكون مسؤولاً عنهم وعن طريقه تكون البلاغات والأوامر والمشاورة وغير ذلك من الأمور.

ففي غزوة حُنين جاءه هوازن يطلبون منه ﷺ أن يرد إليهم ما أخذ من أموالهم وسبى من مواليهم ونسائهم، فخطب في أصحابه قائلاً:

---

(١) الحديث في صحيح البخاري، يراجع مع تعليق الحافظ ابن حجر المذكور في الفتح (٦/١٦٠، ١٦١).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٧/٣١٩) ورقم الحديث فيه ٢٦٣٩.

«أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل». فقال الناس: (قد طيبنا ذلك يا رسول الله) فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندري من أذِن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[1].

وقال الحافظ: (وهو ـ أي العريف ـ القائم بأمر طائفة من الناس من عرُفت بالضم وبالفتح على القوم أعرُف بالضم فأنا عارف وعريف أي وليت أمر سياستهم وحفظ أمورهم، وسمى بذلك لكونه يتعرف أمورهم حتى يُعَرِّف بها من فوقه عند الاحتياج[2] أ هـ.

ووجه الدلالة من هذا الحديث أن وجود عرفاء في المعركة بمقتضى تنصيبهم قبل البدء فيها بأن يكون لكل مجموعة منهم عريف يرعى شؤونهم ويبلغهم أوامر القائد وتعليماته ويرفع إليه ما هم في حاجة إليه.

وفي هذا الحديث الشريف تربية عملية من الرسول ﷺ لمن ولي أمور المسلمين ألا يتصرف في حقوقهم بدون إذنهم، فهو ﷺ ولي أمر المسلمين وكان أصحابه رضي الله عنهم يقدمون طاعته على رغبات أنفسهم ويقدمون محبته على محبة أرواحهم يتسابقون لإنفاذ أوامره، وهو ﷺ معصوم من أن يظلم أو يجور أو يتبع هوى أو شهوة، ومع ذلك يطلب من أصحابه أن يردوا سبيٍ هوازن فيلبون طلبه، ولكنه يخشى أن يكون بعض الأفراد غير راضين فلا يبت في الأمر حتى يرد الأمر إلى عرفاء الناس الذين يستطيعون أن يعرفوا رأي كل واحد من جماعاتهم ليستيقن ﷺ أن القوم راضون غير مكرهين ولا محرجين. فأين هذا الأدب النبوي العظيم مما يعمله من ولّاهم الله رقاب المسلمين من الزعماء الذين يغتصبون حقوق الناس بدون حق ويعملون شتى أنواع الحيل للوصول إلى ذلك، إما في صورة قانون جائر، وإما عن طريق بطش ظالم.

---

(١) البخاري رقم ٤٣٢١، فتح الباري (٧/٣٤). (٢) فتح الباري (١٣/١٦٨).

٩ ـ ومن آداب الجهاد اتخاذ الألوية والرايات:

واللواء أو الراية أو العلم يتخذها المجاهدون، وكان الأصل أن يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه رمزاً لرفع كلمة الله التي ينضوي تحتها المؤمنون ويشدون على أعداء الله الذين يريدون إطفاء نور الله وتحطيم راية الإسلام ورفع راية الكفر.

وقد كان إعطاء الرسول ﷺ الراية لأحد أصحابه دليلاً على محبة الله ورسوله له ومحبته لله ورسوله، ولذلك كان أصحاب الرسول ﷺ يتمنى كل واحد منهم أن ينال شرفها.

ففي صحيح البخاري عن أبي حازم قال: أخبرني سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» قال: (فبات الناس يدوكون ليلتهم أيّهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها)، فقال: «أين علي بن أبي طالب». فقيل: هو ـ يا رسول الله ـ يشتكي عينيه)، قال: «فارسلوا إليه» فأُتِيَ به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: (يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟) فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم»(١).

قال الحافظ: (وفي هذه الأحاديث استحباب اتخاذ الألوية في الحروب، وأن اللواء يكون مع الأمير أو من يقيمه لذلك عند الحرب)، وقد تقدم حديث أنس: (أخذ الراية زيد بن حارثة فأصيب، ثم أخذها جعفر فاصيب، الحديث)(٢).

وكما يتنافس المجاهدون في حمل راية الإسلام والإنضواء تحتها فإن عليهم

---

(١) البخاري رقم ٤٢١٠ فتح الباري (٤٧٦/٧) ومسلم (١٨٧١/٤).
(٢) الفتح (١٢٩/٦).

أن يبتعدوا عن رايات الجاهلية، أو الرايات العمياء التي لا يعرف هدفها خشية من أن يقادوا إلى ما يسخط الله، وهم إنما يريدون وجهه ورضاه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية[١]، يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية، فقتل، فَقِتْلَةٌ جاهلية، ومن خرج على أُمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه»[٢].

والظاهر من قوله: (يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، إنه تفسير لهذه الراية العمية، والمراد أنه لا يقاتل لإعلاء راية الإسلام وإنما لإتباع هوى أو نصر ذي هوى، فلا يدخل في ذلك من قاتل تحت راية حاكم جائر ضد احتلال عدو كافر لأرض المسلمين والسيطرة عليهم لأن الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر، كما مضى، إلا أنه يشترط في هذا الفجور ألا يصل إلى الكفر البواح، فإن كان الحاكم كافراً كفراً بواحاً عند المسلمين فيه من الله برهان فعندئذ يجب أن يبدؤوا به فيقاتلوه هو وأعوانه وينصبوا من يحكم فيهم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، لأن الكافر الذي اتضح كفره قد يخدع المسلمين ويتعاون مع أعدائهم ضدهم.

ومن الكفر البواح: تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحلّ الله مثل أن يبيح لنفسه وضع قوانين تخالف أحكام الكتاب والسنّة، أو يعتقد عدم صلاح الحكم بالإسلام، وكذا من أجاز له ذلك من أعوانه ورعيته فإنه كافر بالله تعالى.

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: (أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب). فقال: «يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك» قال: (فطرحته وانتهيت إليه، وهو يقرأ سورة براءة)، فقرأ هذه الآية: ﴿ اتخذوا

(١) قال النووي هي بضم العين وكسرها، لغتان مشهورتان، والميم مكسورة ومشددة، والياء مشددة أيضاً، قالوا هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه، كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور، قال إسحاق بن راهويه، كتقاتل القوم للعصبية إهـ. من شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٢٣٨).

(٢) صحيح مسلم (٣/١٤٧٦).

أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾، قال: (قلت يا رسول الله إنّا لسنا نعبدهم)، فقال: «أليس يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحلّون ما حرّم الله فتحلونه»؟ قال: قلت: (بلى)، قال: «فتلك عبادتهم»[١].

١٠ ـ اللجوء إلى الله تعالى والاستغاثة به:

ومن آداب الجهاد في سبيل الله اللجوء إلى الله لدعائه والاستغاثة به وطلب نصره على الأعداء، وهذه سنة مضى عليها أولياء الله من الأنبياء والرُسل وأتباعهم، كما فعل نوح عليه السلام عندما شعر بقوة قومه المادية: ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾[٣].

وقال عن جنود طالوت: ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله ﴾[٤].

وهكذا كان رسول الله ﷺ يكثر من دعاء الله والاستغاثة به، وبه اقتدى أصحابه كما قال تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾[٥].

وعن طارق بن شهاب قال: (سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ، وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: «فاذهب أنت وربك» ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرّه يعني قوله)[٦].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/١١٤). الآية في التوبة (٣١).
(٢) القمر: ١٠.
(٣) آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٧.
(٤) البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥١.
(٥) الأنفال: ٩.
(٦) البخاري رقم الحديث ٣٩٥٢، فتح الباري (٧/٢٨٧).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وعدّتهم، ونظر إلى أصحابه نيّفاً على ثلثمائة، فاستقبل القبلة، فجعل يدعو ويقول: اللهمّ انجز لي ما وعدتني اللهمّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، وأخذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: كفاك يا نبي الله بأبي وأمي مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك)، فأنزل الله ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين ﴾[١].

وقد دلّ حديث أنس الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي على مداومة الرسول ﷺ على الدعاء إذا غزا، قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال: «اللهمّ أنت عضدي ونصيري، بك أحول ولك أصول، وبك أُقاتل» - هذه رواية أبي داود - وفي رواية الترمذي: «أنت عضدي وأنت نصيري وبك أقاتل»[٢].

وسيأتي مزيد بيان عن الدعاء وفوائده إن شاء الله في فصل عوامل النصر وعوامل الهزيمة.

١١ - دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال:

المقصود من الجهاد في سبيل الله تعالى: رفع راية الإسلام، وهداية الناس إلى الله، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله، والأصل في ذلك أن يبلّغ الناس هذه الدعوة بالوسائل الممكنة ويشرح لهم محاسن الإسلام وأنه فرض على كل الناس أن يدخلوا فيه وأنه لا دين حق في الأرض سواه ﴿ ومن يبتغِ غير

---

(١) جامع البيان عن تأويل اي القرآن لابن جرير الطبري (١٨٩/٩) وهو في صحيح مسلم (١٣٨٣/٣) مع اختلاف في بعض ألفاظه.

(٢) جامع الأصول (٥٧١٢) رقم الحديث ١٠٤٩، قال المحشي: «وإسناده صحيح، وحسّنه الترمذي».

الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾(١) ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(٢).

حكم الدعوة قبل القتال

واختلف العلماء في حكم الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

فذهب الحنفيون إلى وجوبها على المجاهدين في حق من لم تبلغهم الدعوة، وإلى أنها أفضل في حق من بلغتهم الدعوة، وإلى جواز تركها في حق من بلغتهم وخشي تحصنهم إذا أنذروا ، معاجلة المسلمين بالحرب(٣).

وقريب من هذا ما ذهب إليه الشافعيون، إلا أن الحنفيين قالوا إذا قاتل المسلمون الكفار الذين لم تبلغهم الدعوة فقتلوهم لم يضمنوا، وقال الشافعيون يضمنون(٤).

والظاهر من مذهب الحنابلة وجوب الدعوة أيضاً في حق من لم تبلغهم واستحبابها في حق من بلغتهم، وفرق بعضهم بين أهل الكتاب والمجوس فيقاتلون بدون دعوة لأن الدعوة بلغتهم وبين الوثنيين فيجب دعوتهم(٥).

ولا دليل على هذا التفريق، لأن المدار على بلوغ الدعوة وعدمه والأمة التي بلغتها الدعوة الآن، قد يأتي زمان عليها لم تبلغها الدعوة فيه، ومما يدل على عدم صحة هذا التفريق قصة سلمان الفارسي مع قومه «وهم مجوس» كما في الترمذي، عن أبي البحتري (سعيد بن فيروز رحمه الله) أن جيشاً من جيوش المسلمين كان أميرهم سلمان الفارسي، حاصروا قصراً من قصور فارس، فقال المسلمون: (ألا ننهد إليهم)؟ قال: (دعوني أدعوهم، كما سمعت رسول الله ﷺ يدعو، فأتاهم) فقال: (إنما أنا رجل منكم فارسي، وترون أن العرب يطيعونني، فإن أسلمتم فلكم مثل الذي لنا وعليكم مثل الذي علينا، وإن أبيتم إلا دينكم

---

(١) آل عمران: ٨٥. (٢) آل عمران: ١٩.

(٣) انظر المبسوط (١٠/٦، ٣٠) وشرح فتح القدير (٥/٤٤٤).

(٤) انظر حواشي تحفة المحتاج على المنهاج (٩/٢٤٢).

(٥) انظر المغني (٩/٢١٠).

تركناكم عليه وأعطونا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، ورطن إليهم بالفارسية: وأنتم غير محمودين، وإن أبيتم نابذناكم على سواء)، قالوا: (ما نحن بالذي نعطي الجزية، ولكننا نقاتلكم، قالوا: يا أبا عبدالله: ألا ننهد إليهم)، قال: (لا، فدعاهم ثلاثة أيام إلى مثل هذا، ثم قال[١]: انهدوا إليهم، فنهدوا إليهم، ففتحوا ذلك القصر (أخرجه الترمذي).. أما المالكيون فذهبوا إلى وجوب الدعوة قبل القتال مطلقاً، أي سواء بلغتهم أم لم تبلغهم[٢].

ومحصَّل الأقوال أن الحنفيين والشافعيين والحنبليين يرون التفصيل: وجوب الدعوة في حق من لم تبلغهم وعدم وجوبها في حق من بلغتهم وأن المالكيين يرون وجوب الدعوة مطلقاً، إلا أن الذي نص عليه ابن عبد البر في الكافي يوافق ما نص عليه في المذاهب الثلاثة حيث قال: (وكل من بلغته دعوة الإسلام لم يحتج إلى أن يدعى، وكل من لم تبلغه الدعوة لم يقاتل حتى يدعى إلى الإسلام، وكان مالك يستحب ألا يقاتل العدو حتى يدعوا إلى الإسلام بلغتهم الدعوة أو لم تبلغهم إلا أن يعجلوا عن ذلك فيقاتلوا)[٣].

ويحكى قول ثالث وهو عدم الوجوب مطلقاً[٤].

وأرجح الأقوال ـ فيما يظهر ـ التفصيل، وهو وجوب الدعوة إلى الإسلام في حق من لم تبلغهم قبل القتال، لأنهم حينئذ لا يدرون على ماذا يقاتلون وقد يفسرون مقاتلتهم أنها من أجل نهب أموالهم ونحو ذلك، وإقامة الحجة واجبة: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[٥].

ويدل على هذا حديث بريدة: (إذا لقيت عدوك، فادعهم إلى ثلاث

---

(١) جامع الأصول، رقم ١٠٧٥، وقال المحشي: (رقم ١٥٤٨) في السير باب ما جاء في الدعوة قبل القتال، وقال: وفي الباب عن بريدة والنعمان بن مقرن، وابن عمرو وابن عباس، وحديث سلمان حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عطاء بن السائب، سمعت محمداً ـ يعني البخاري ـ يقول أبو البختري لم يدرك سلمان، لأنه لم يدرك علياً، وسلمان مات قبل علي.

(٢) انظر الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك (٢/٢٧٥).

(٣) الكافي (٢/٤٦٦) لابن عبد البر.

(٤) غزوة بني المصطلق لإبراهيم القريبي ص ٥٤.

(٥) الإسراء: ١٥.

خصال. . . ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فكف عنهم واقبل منهم[١]. . .). واستحباب الدعوة إلى الإسلام قبل القتال في حق من بلغتهم قبل ذلك ولم يخش معاجلتهم المسلمين أو فواتهم عليهم مبالغة في الإنذار الذي قد يهدي الله به القوم، ويدل على هذا أن يهود خيبر كانوا قد بلغتهم الدعوة، ومع ذلك فقد سأل علي رضي الله عنه عندما أعطي الراية وأمره النبي ﷺ بقتالهم فقال: (يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟) فأجابه الرسول ﷺ بقوله: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه. .»[٢] الحديث فإن كانوا قد بلغتهم الدعوة ودلت القرائن على أنهم يبيتون للمسلمين شراً أو يجمعون جموعهم لقتال المسلمين فالذي يظهر أنه يجب في هذه الحالة على المسلمين أن يغيروا عليهم دون إنذار سابق، لأن المسلمين على حق والكفار على باطل، والفرصة إذا سنحت للمسلمين وجب عليهم اغتنامها وعدم تفويتها والرسول ﷺ يقول: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله»[٣].

ولعل إغارة الرسول ﷺ على بني المُصْطَلق وهم غارُّون ـ أي غافلون ـ من هذا الباب، لأنهم كانوا ضمن الأحابيش الذين غزوا الرسول ﷺ في غزوة أحد، كما أنهم كانوا يجمعون لقتاله قبل أن يغزوهم[٤].

وكذلك غزوة تبوك إذ كان الروم يتحفزون لغزو المسلمين.

ويحصل بلوغ الدعوة بانتشارها، وعلم النـاس عنها في الجملة، لأن سماعهم بها يلزمهم الاستفسار عنها وتعلمها، وقد كان كثير من المشركين يبعثون من يأتيهم بخبرها أو يسافرون بأنفسهم لسماعها.

وقد توافرت في هذا العصر الوسائل التي يمكن تبليغ الدعوة بها إلى كافة

---

(١) صحيح مسلم رقم الحديث ١٧٣١، وهو في جامع الأصول (٥٨٩/٢) رقم ١٠٧٣.
(٢) البخاري رقم ٤٢١٠، انظر فتح الباري (٤٧٦/٧) ومسلم (١٨٧٢/٤).
(٣) مسلم (٢٠٥٢/٤).
(٤) راجع المبسوط (٣٠/١٠، ٣١) وزاد المعاد (١٢٥/٢)، وغزوة بني المصطلق لابراهيم القريبي مخطوطة ص ٤٨.

الناس بلغاتهم: مثل الإذاعة والتلفاز، والهاتف والأشرطة المسجلة، والكتب المترجمة، والصحف والمجلات وغيرها.

ويكفي أن يبلغ زعماء الأمم تلك الدعوة ويطلب منهم أن يبلغوا قومهم وأن يدخلوا جميعاً في الإسلام وهم يحملون بعد ذلك مسؤولية قومهم إن لم يبلغوهم، كما فعل الرسول ﷺ عندما كاتب الملوك والرؤساء. في كتابه ﷺ إلى هرقل ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين[(١)] ﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[(٢)].

وفي حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ. رواه مسلم[(٣)].

وهكذا فعل أصحاب رسول الله ﷺ:

عن أبي وائل قال: كتب خالد بن الوليد إلى أهل فارس (بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى رستم ومهران في ملاء فارس، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنا ندعوكم إلى الإسلام، فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن أبيتم فإن معي قوماً يحبون القتل في سبيل الله، كما يحب فارس الخمر، والسلام على من اتبع الهدى)[(٤)].

---

(١) الأريسيون: الفلاحون والزارعون والمقصود رعاياه شرح النووي على مسلم (١٢/١٠٩).

(٢) البخاري رقم ٢٩٤٠ فتح الباري (٦/١٠٩) ومسلم (٣/١٣٩٣) وقال النووي: في هذا الكتاب جمل من القواعد وأنواع من الفوائد، منها دعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم وهذا الدعاء واجب، والقتال قبله حرام إن لم تكن بلغتهم دعوة الإسلام، وإن كانت بلغتهم فالدعاء مستحب، هذا مذهبنا وفيه خلاف للسلف سبق بيانه في أول كتاب الجهاد أ هـ. (١٢/١٠٧ - ١٠٩) شرح النووي على مسلم. والآية في آل عمران: ٦٤.

(٣) (٣/١٣٩٧) وهو في مشكاة المصابيح برقم ٣٩٢٦ (٢/٣٨١).

(٤) مشكاة المصابيح (٢/٣٨٣).

الفرع الثاني
آداب القتال أثناء المعركة

١ ـ عدم قتل غير المقاتلين:

الإسلام دين الرحمة والعدل، وهو ـ أي الإسلام ـ يعم بهما ـ أي الرحمة والعدل ـ كل الناس في حالة السلم، وفي حالة الحرب، إلا من حارب الرحمة والعدل فإنه حينئذ من العدل في حقه أن ينال جزاءه من القتل والخزي والعذاب، كما قال تعالى: ﴿ألا تقتلون قوماً نكثوا أيمانهم، وهمُّوا بإخراج الرسول، وهم بـدؤوكم أول مرة، أتَخْشَونهم فالله أحق أن تَخْشَوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذِّبْهم الله بأيديكم، ويُخْزِهم، و ينصُرْكم عليهم، ويَشْفِ صدورَ قوم مؤمنين ويُذْهِبْ غيظَ قلوبِهم، ويتوبُ الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾[١].

أما الكافر الذي لا يقاتل المسلمين، كالنساء والأطفال ونحوهم ـ كما سيأتي بيانهم قريباً ـ فإن قتلهم يعتبر ظلماً واعتداء لا يرضاه الله، وقد ورد بذلك الكتاب والسنة، وطبقه المسلمون في حروبهم.

قال تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[٢].

وقد اختلف العلماء في المعنى المراد بقوله: ﴿ الذين يقاتلونكم ﴾ فرأى بعضهم أن معنى ذلك أن يكف المسلمون عن قتال من لم يقاتلهم من الكفار أي لا يقاتلون إلا من بدأهم بالقتال[٣] ثم من العلماء من رأى أن الآية محكمة وأن بدء المسلمين بقتال المشركين يعتبر اعتداء لا حق لهم فيه، وحمل هؤلاء الآيات التي فيها الأمر بقتال المشركين كافة وبراءة الله ورسوله منهم، كما في سورة التوبة، حملوها على ناقضي العهد الذين يبدأون بالاعتداء على المسلمين[٤].

(١) التوبة: ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥. (٢) البقرة: ١٩٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٤٧/٢)، والمنار لمحمد رشيد رضا (٢٠٨/٢).
(٤) انظر تفسير المنار (١٧٩/١٠، ١٩٩).

ومنهم من رأى أن الآية منسوخة بآيات الجهاد التي نزلت في آخر مراحله في سورة التوبة، مثل قوله تعالى: ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفورٌ رحيم ﴾[١].

وقوله: ﴿ وقاتلوا المشركين كافة، كما يقاتلونكم كافة ﴾[٢].

ومن هؤلاء ابن زيد والربيع[٣].

وعلى هذا فهذا الحكم، وهو عدم بدء المسلمين بقتال من لم يقاتلهم، كان مرحلة من مراحل الجهاد، وقد سبق الكلام على ذلك في مبحث: مراحل الجهاد.

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالآية نهي المسلمين أن يقتلوا من لم يكن من أهل القتال، كالمرأة والصبي ونحوهما، وهي محكمة، وليست منسوخة وعلى هذا ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، والمعنى: (قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان) وشبههم واستدل لهؤلاء بأمرين:

الأمر الأول: إن القتال يفيد المشاركة، والنساء والأطفال ونحوهم لا يقاتلون، فلا يقتلون، ولذلك فحمل الآية على نهي المسلمين عن قتال من لم يقاتلهم متعين.

الأمر الثاني: ما ورد في السنة النبوية مفسراً لهذا المعنى حيث نهى النبي ﷺ عن قتل النساء، ومن أشبههن ممن ليسوا أهلاً للقتال[٤].

والذي يظهر رجحان هذا القول الأخير وقد لخص القرطبي رحمه الله من يدخل في هذا النهي في ست صور:

---

(١) التوبة: ٥.
(٢) التوبة: ٣٦.
(٣) (٢/٣٤٨) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن).
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن (٢/٣٤٨).

١ ـ النساء.
٢ ـ الصبيان.
٣ ـ الرهبَان.
٤ ـ الزَّمنى.
٥ ـ الشيوخ.
٦ ـ العُسفاء والأجراء والفلاحون[١].

١ ـ النساء والصبيان:

ورد النهي صريحاً عن قتل النساء والصبيان كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (إن إمرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان)[٢].

ففي هذا الحديث دليل على عدم جواز قتل النساء والصبيان كما هو واضح.

وفي حديث الصعب بن جثامة ما قد يفهم من ظاهره ما يخالف حديث ابن عمر السابق، ونصه مرَّ بي النبي ﷺ بالأبواء أو بودَّان، وسئل عن أهل الدار يبيتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريهم، قال: (هم منهم)[٣].

وقد حمل العلماء الحديث الأول: حديث ابن عمر على العمد، أي لا يجوز للمسلمين أن يتعمدوا قتل النساء والصبيان، وحملوا الحديث الثاني ـ حديث الصعب ـ على حالة عدم تميز النساء والأطفال، كما في حالة التبييت.

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم عند الكلام

(١) المرجع السابق (٢/٣٤٨).
(٢) البخاري رقم الحديث ٣٠١٤، فتح الباري (٦/١٤٨) ومسلم (٣/١٣٦٤).
(٣) البخاري رقم ٣٠١٢، فتح الباري (٦/١٤٦) ومسلم (٣/١٣٦٤).

على حديث ابن عمر: (اجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم قتل النساء والصبيان ما لم يقاتلوا، فإن قاتلوا قال جماهير العلماء يقتلون)[١].

وقال في شرحه على حديث الصعب: (والمراد إذا لم يتعمدوا من غير ضرورة وأما الحديث السابق ـ أي حديث ابن عمر ـ في النهي عن قتل النساء والصبيان فالمراد به إذا تميزوا)[٢].

٢ ـ الرهبان والشيوخ والزمنى والاجراء:

ذهب الحنفيون والمالكيون والحنبليون إلى أن هؤلاء كلهم لا يقتلون ما لم يقاتلوا[٣].

وذهب الشافعيون إلى أن هؤلاء كلهم يقتلون في أظهر القولين عندهم[٤]، وهذا ما نصره ابن حزم في المُحَلَّى[٥].

أدلة الفريقين:

الدليل الأول: استدل من قال بعدم قتل من ذكر ما لم يقاتلوا بالآية القرآنية السابقة الذكر: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾[٦]، قالوا: فكل من لم يقاتل ولم يبد منه ما يضر المسلمين من رأي يفيد الكفار أو تحريض أو مال ونحوه فإنه لا يجوز قتله.

الدليل الثاني: ما ورد في بعض كتب السنة عن الرسول ﷺ وعن بعض الصحابة من النهي عن قتل بعض من ذكر.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٤٨). (٢) المرجع السابق (١٢/٤٩).

(٣) انظر فتح القدير لابن الهمام، وحواشيه (٥/٤٥٢) فما بعد.

والشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك (٢/٢٧٧) وكذا كتاب الكافي لابن عبد البر (١/٤٦٦). والمغني لابن قدامة (٩/٣١١).

(٤) انظر حواشي تحفة المحتاج على المنهاج (٩/٢٤٠، ٢٤١) وتكملة المجموع للعقبي (١٨/٧٧).

(٥) (٧/٢٩٧). (٦) البقرة: ١٩٠.

ففي حديث رباح بن الربيع رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً، فقال: «أنظر على ما اجتمع هؤلاء»، فجاء فقال على امرأة قتيل، فقال: «ما كانت هذه لتقاتل وعلى المقدمة خالد بن الوليد»، قال: فبعث رجلاً، فقال: قل لخالد «لا تقتلن إمرأة ولا عسيفا» أخرجه أبو داود[1].

واستدل بالحديث من وجهين: الوجه الأول قوله ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل» فجعل ﷺ العلة في النهي عن قتلها كونها لا تقاتل، وهذا يوضح معنى قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾.

الوجه الثاني: النص على العسيف، وهو الأجير، والغالب أنه لا يقاتل كالمرأة والصبي.

وفي حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً، صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا» ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾[2].

الدليل الثالث: وصية أبي بكر رضي الله عنه لأمير له: (لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، إنك ستمر على قوم قد حبسوا أنفسهم في الصوامع، زعموا لله، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له...)[3].

واستدل القائلون بقتل من عدا المرأة والصبي الذي لم يبلغ الحلم بأدلة:

---

(١) جامع الأُصول (٢/٥٩٨) قال المحشي: رقم ٢٦٦٩ في الجهاد، باب في قتل النساء، وإسناده صحيح.

(٢) سنن أبي داود (٣/٨٦)، وهذا سنده: حدّثنا عثمان بن أبي شيبة حدّثنا يحيى بن آدم، وعبيد الله بن موسى عن حسن بن صالح، عن خالد بن الفزر، حدّثني أنس... إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، نشر وتوزيع محمد علي السيد. والآية في سورة البقرة: ١٩٥.
والحديث في جامع الأصول (٢/٥٩٦) رقم ١ الحديث ١٠٧٦ بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط، قال في الحاشية: وفي سنده خالد ابن الغزد، الهادي عن أنس لم يوثقه غير ابن حبان، وبقية رجاله ثقات، وله شواهد يتقوى بها.

(٣) جامع الأصول (٢/٥٩٩) قال المحشي: وفيه انقطاع لأن يحيى بن سعيد لم يدرك أبا بكر.

الدليل الأول:

العموم الوارد في النصوص بقتل المشركين كافة، وبقتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، كقوله تعالى: ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وجدتموهم، وخُذوهم، واحصُروهم، واقعدوا لهم كل مَرْصَد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلُّوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم ﴾[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دينَ الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ﴾[٢].

الدليل الثاني:

الأمر بقتل الشيوخ نصا، كما في سنن أبي داود والترمذي عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ، قال: «اقتلوا شيوخ المشركين، واستحيوا شرخهم»[٣]. أي صغارهم، والحديث قال الترمذي فيه: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

الدليل الثالث:

ما رواه عطية القرظي قال: (عرضت يوم قريظة على رسول الله ﷺ فكان من أنبت قتل ومن لم ينبت خلى سبيله، فكنت فيمن لم ينبت)[٤].

الدليل الرابع:

إقرار النبي ﷺ قتل دريد بن الصِّمَّة وكان شيخاً كبيراً[٥].

الدليل الخامس:

ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه (كتب إلى أمراء الأجناد

---

(١) التوبة: ٥.

(٢) التوبة: ٢٩.

(٣) الترمذي (٤/١٤٥) ومشكاة المصابيح (٢/٣٨٦) والمحلى (٧/٢٩٨).

(٤) مشكاة المصابيح (٢/٣٩٤)، والمحلى (٧/٢٩٩).

(٥) المحلى (٧/٢٩٦، ٢٩٩) وراجع المغني (٩/٣١١) ونيل الأوطار (٧/٢٧٩).

ألا يجلبوا إلينا من العلوج أحداً، ولا تقتلوا من جرت عليه المواسي (كذا ولعله إلا من جرت عليه المواسي) ولا تقتلوا صبياً ولا إمرأة...)[١].

وقد شنع ابن حزم ـ كعادته في التشنيع ـ على القائلين بعدم قتل من عدا النساء والصبيان، وضعف كل الأحاديث التي استدلوا بها، وقال بعد أن ذكر رواية عطية القرظي: (فهذا عموم من النبي ﷺ لم يستبق منهم عسيفاً، ولا أجيراً ولا فلاحاً، ولا شيخاً كبيراً).

وقال بعد أن ذكر كتاب عمر إلى أمراء الأجناد: (فهذا عمر رضي الله عنه لم يستثن شيخاً، ولا راهباً، ولا عسيفاً، ولا أحداً، إلا النساء والصبيان فقط، ولا يصح عن أحد من الصحابة خلافه، وقد قتل دريد بن الصمة وهو شيخ هرم قد اهتر عقله فلم ينكر النبي ﷺ...).

وقد رد القائلون بعدم القتل على استدلال الآخرين بالنصوص العامة الواردة في قتل المشركين بالنصوص المخصصة لهذا العموم، مثل: ﴿ قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾[٢] والحديث الذي سبق إيراده في النهي عن قتل الشيخ الفاني وغيره ممن ذكر، مع مراعاة العلة التي نص عليها الرسول ﷺ في النهي عن قتل النساء: «ما كانت هذه لتقاتل».

أما الأمر بقتل الشيوخ، إذا صح، وكذا إقرار النبي ﷺ قتل دريد بن الصمة، وهو شيخ كبير فقد حملوه على الشيخ الذي يكون ذا رأي أو غيره مما يفيد به المشركين ويضربه المسلمين[٣].

ويؤيد هذا المعنى أن المرأة والصبي الذين سلم ابن حزم وغيره بتحريم قتلهما يقتلان إذا قاتلا عند الجميع.

والذي يظهر هو رجحان ما ذهب إليه أهل القول الأول لأن دلالة ما ساقوه من الأدلة خاصة، ودلالة ما ساقه الآخرون عامة، أو محمولة على معنى خاص، وما ذكره ابن حزم عن عمر رضي الله عنه ليس منافياً لما ذكر عن

---

(١) المحلى (٧/٢٩٩).
(٢) البقرة: ١٩٠.
(٣) المغني (٩/٣١٢).

أبي بكر رضي الله عنه لأنَّ قوله: (وأن يقتلوا كل من جرت عليه المواس) دلالته عامة وقول أبي بكر: (لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً. . .) دلالته خاصة، والذي يظهر من فعل السلف الصالح يؤيد هذا المذهب والله أعلم.

وهناك قول يحكي في جواز قتل المرأة والصبي، وهو قول مردود مخالف للنصوص الشرعية ومذاهب عامة العلماء فلا داعي لمناقشته[١].

٢ ـ الحذر من جواسيس العدو:

يجب على المجاهدين أن يحذروا غاية الحذر من تسلل جواسيس العدو إلى صفوفهم، لما في ذلك من كشف عوراتهم التي يترتب عليها إعداد العدو عدته على ضوئها، فإذا بدا لهم اشتباه في بعض الأفراد ممن هو في صفهم وينتَسب إليهم ـ أي إلى المسلمين ـ أو من غيرهم فالواجب متابعته والحؤل بينه وبين نقل المعلومات العسكرية الإسلامية إلى العدو.

قال البخاري رحمه الله: باب الجاسوس، وقول الله تعالى: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. . .﴾[٢] وساق بسنده إلى علي رضي الله عنه: يقول: (بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود)، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة، ومعها كتاب، فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هٰذا؟» قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة، يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون

(١) انظر بذل المجهود في حل أبي داود (١٢/ ٢٠٠). (٢) الممتحنة: ١.

بها قرابتي وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: «إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: «اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»(١). فقد أمر الرسول ﷺ في هذا الحديث بمتابعة المرأة وأخذ الكتاب منها وفهم المبعوثون لذلك رضي الله عنهم أن لهم الحق في اتخاذ الوسيلة التي يتمكنون بها من الحصول عليه ولو كان في ذلك كشف عورة المرأة، لأن المصلحة الراجحة تقتضي ذلك، وكشف عورتها تعتبر مفسدة ولكن المفسدة التي تترتب على تركها أكبر والقاعدة تقديم أعلى المصلحتين، وارتكاب أخف المفسدتين قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: (وفيه هتك أستار الجواسيس بقراءة كتبهم، سواء كان رجلاً أو امرأة، وفيه هتك ستر المفسدة إذا كان فيه مصلحة، أو كان في الستر مفسدة، وإنما يندب الستر إذا لم يكن فيه مفسدة، ولا يفوت به مصلحة، وعلى هذا تحمل الأحاديث الواردة في الندب إلى الستر..)(٢).

وفي قصة حاطب مشروعية عفو القائد عن بعض أفراد الجيش إذا أساء متعمداً ثم ندم على إساءته واعتذر ودلت القرائن على حسن نيته وكان ذا سابقة طيبة.

هذا في الجاسوس المسلم.

وثبت في الجاسوس غير المسلم ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم عن سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه قال: نزل رسول الله ﷺ منزلاً، فجاء عين المشركين، ورسول الله ﷺ وأصحابه يتصبحون (أي يتناولون طعام الغداء)، فدعوه إلى طعامهم، فلما فرغ الرجل ركب على راحلته، وذهب مسرعاً،

---

(١) البخاري، رقم الحديث: (٣٠٠٧) فتح الباري (١٤٣/٦) ومسلم (١٩٤١/٤) رقم الحديث (٢٤/٤).

(٢) (٥٥/١٦).

لينذر أصحابه قال فأدركته، فأنخت راحلته، وضربت عنقه، فغنمني رسول الله ﷺ سلبه[١].

هذا سياق أحمد، وهو عند البخاري بلفظ: (أتى النبي ﷺ عين من المشركين، وهو في سفر، فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل، فقال النبي ﷺ: «اطلبوه واقتلوه، فقتله فنفله سلبه»)[٢].

وهو يوضح أن سلمة رضي الله عنه طلبه وقتله بأمر من النبي ﷺ، والحديث في صحيح مسلم وفيه: (ثم تقدم يتغذى مع القوم، وجعل ينظر، وفينا ضَعْفَةٌ ورقه في الظهر، وبعضنا مشاة، فأتى جمله، فأطلق قيده، ثم أناخه، وقعد عليه فأثاره فاشتد به الجمل[٣]. . .) إلخ.

وهو بيِّن أن الرجل اطلع على عورة المسلمين، كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح[٤].

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: (وفيه قتل الجاسوس الكافر الحربي، وهو كذلك بإجماع المسلمين. . . وأما الجاسوس المعاهد والذمى فقال مالك والأوزاعي يصير ناقضاً للعهد، فإن رأى استرقاقه أرقه، ويجوز قتله، وقال جماهير العلماء: لا ينقض عهده بذلك، قال أصحابنا، إلا أن يكون قد شرط عليه انتقاض العهد بذلك.

وأما الجاسوس المسلم، فقال الشافعي والأوزاعي، وأبو حنيفة، وبعض المالكية وجماهير العلماء رحمهم الله تعالى: يعزره الإمام بما يرى من ضرب وحبس ونحوهما، ولا يجوز قتله، وقال مالك رحمه الله يجتهد فيه الإمام، ولم يفسر الاجتهاد، وقال القاضي عياض رحمه الله، قال كبار أصحابه يقتل. . »[٥].

---

(١) ترتيب المسند المسمى: (الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١١٢/١٤).

(٢) البخاري، رقم الحديث (٣٠٥١)، وهو في الفتح (١٦٨/٦).

(٣) مسلم (١٣٧٤/٣)، رقم الحديث (١٧٥٤).

(٤) (١٦٩/٦).

(٥) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٦٧/١٢).

والذي يظهر من قصة حاطب رضي الله عنه مشروعية قتل الجاسوس المسلم، لأن النبي ﷺ أقر عمر على إرادة القتل وبين له أن المانع كونه شهد بدراً، وهو أخص من كون المانع هو الإسلام، ولو كان الإسلام هو المانع من قتله لبين ﷺ ذلك، ولم يعلله بأخص منه، وهذا الأخص لا يظفر به أي مسلم كان، بل هو خاص بحاطب أو من هو مثله ممن شهد بدراً(١).

ولو جعل الإسلام مانعاً من قتل الجاسوس لكان في ذلك فتح للباب لضعاف النفوس ومرضى القلوب لكشف عورات المسلمين لأعدائهم الذين لا يألون جهداً في محاولة الاطلاع على أحوال المسلمين قوة وضعفاً ليبنوا خططهم ويعدوا عددهم على ضوء معلومات دقيقة يستطيعون بها انزال الضرر بالمسلمين والانتصار عليهم.

والذي يظهر أن الراجح ما قاله الإمام مالك رحمه الله وهو أن يترك حكمه لاجتهاد الإمام، فإن رأى أن في قتله مصلحة قتله وإن رأى أن المصلحة في تعزيره عزره بما يراه.

ولهذا رأى بعض العلماء أنه يقتل إذا كان التجسس له عادة(٢).

وعلى مجاهدي المسلمين أن يحذروا من تسلل عناصر الفساد إلى صفوفهم بإبداء الولاء لهم، وقصدهم الإطلاع على عورات المسلمين ونقلها إلى عدوهم وقد يظهرون أنهم جواسيس للمسلمين على أعدائهم فينقلون لهم ـ أي للمسلمين معلومات مزيفة، أو ليست ذات بال وعلى المسلمين أن يبتلوا من أراد الدخول في صفوفهم بتكليفهم بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله لأن ذلك هو منهج الله الذي يمحص المنتسبين إلى الإسلام فيظهر الصادق منهم من الكاذب. كما قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾(٤).

(١) راجع فتح الباري (٨/٦٣٥).
(٢) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/٥٣).
(٣) التوبة: ١٦.
(٤) العنكبوت: ١، ٢، ٣.

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية الأخيرة: (يقول الله تعالى ذكره: (لقد اختبرنا الذين من قبلهم من الأمم، ممن أرسلنا إليهم رسلنا فقالوا مثل ما قالته أمتك يا محمد بأعدائهم؟ وتمكيننا إياهم من أذاهم، كموسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتليناهم بفرعون وملئهم، وكعيسى إذْ أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتلينا من اتبعه بمن تولى عنه، فكذلك ابتلينا اتباعك بمخالفيك من أعدائك). ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا﴾ منهم في قيلهم آمنا، ﴿وليعلمن الكاذبين﴾ منهم في قيلهم ذلك.

والله عالم بذلك قبل الاختبار، وفي حال الاختبار وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: (وليظهرن الله صدق الصادق منهم في قيله آمنا بالله من كذب الكاذب منهم بابتلائه إياه بعدوه ليعلم صدقه من كذبه أولياؤه)(١).

وإذا كان يجب على المجاهدين في سبيل الله أن يحذروا من جواسيس العدو، ويقطعوا عليهم كل طريق إلى أخذ المعلومات العسكرية الإسلامية فإن عليهم أن يعدوا الرجال القادرين على جمع معلومات العدو بطرق خفية لا يقدر على كشفها، اقتداء برسول الله ﷺ، الذي كان يبعث عيونه في العدو لأخذ أدق المعلومات والأسرار الحربية من أعلى مستوى فيه مستوى القيادة.

وهذه أمثلة لحرص القيادة النبوية على جمع أسرار العدو عن طريق عيونه الذين كان يبعثهم ﷺ عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال فتى منا، من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبدالله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه، قال: نعم يا بن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون قال: والله لقد كنا نجهد، قال: والله لو أدركنا ما تركناه يمشي على الأرض، ولجعلناه على أعناقنا، قال: فقال حذيفة: ياابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ من الليل هوياً، ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ـ يشترط له رسول الله ﷺ أنه يرجع ـ أدخله الله الجنة، فما قام رجل ثم صلى رسول الله ﷺ هويا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة ـ أسأل الله أن

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن (٢٠/١٢٨ ـ ١٢٩).

يكون رفيقي في الجنة، فما قام رجل من القوم مع شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حذيفة فاذهب، فادخل في القوم، فانظر ما يفعلون، ولا تحدثَنْ شيئاً حتى تأتينا.

قال فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل، لا تقر لهم قدر ولا نار ولا بناء فقام أبو سفيان بن حرب، فقال: يا معشر قريش لينظر أمرؤ من جليسه، فقال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، بلغنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ لا تحدث شيئاً حتى تأتيني، ثم شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرجل، فلما رآني أدخلني إلى رحله، وطرح علي طرف المرط، ثم ركع وسجد وإنه لفيه فلما سلم أخبرته الخبر (وسمعت غطفان بما فعلت قريش وانشمروا إلى بلادهم)[١].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: اشتد الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة، فانطلق الزبير فجاء بخبرهم، ثم اشتد الأمر أيضاً، فذكر ثلاث مرات، فقال رسول الله ﷺ أن لكل نبي حوارياً، وأن الزبير حواري»[٢].

---

(١) المسند (٥/٣٩٢) وهذا سنده: (حدّثنا عبدالله بن أحمد، ثنا أبي، ثنا يعقوب، ثنا أبي عن محمد بن إسحاق، حدّثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرطبي قال...) مع خلاف في بعض الألفاظ. وهو في مسلم (٣/١٤١٤).

(٢) المسند وهو في الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للساعاتي (١٤/٤٩) والبخاري رقم الحديث ٢٧٤٧ فتح الباري (٦/٥٣) مسلم (٤/١٨٧٩)، وفيه ما يفسر قوله ثلاث مرات «ندب رسول الله ﷺ يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير.

وكذلك بعث ﷺ عيناً ينظر عير أبي سفيان، كما في صحيح مسلم عن أنس قال بعث رسول الله ﷺ بسيسة عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان، فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ، قال: فحدثه الحديث، قال فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: «إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا»(١).

ويجب أن يكون عيون المجاهدين في سبيل الله ممن عرفوا بتقوى الله تعالى وقوة الصلة به، وبالصدق والأمانة والقدرة على أداء واجبهم دون أن يكتشف العدو عملهم، وذلك يتطلب ذكاء وحكمة بالغين(٢).

٣ ـ العناية بجرحى المسلمين وموتاهم:

ولا بد للمجاهدين من اصطحاب فرق كافية لخدمة المقاتلين لطهي الطعام ونقل الماء ومداواة الجرحى ونقلهم من المكان الذي يخشى عليهم فيه من إجهاز العدو عليهم إلى مكان لا يخشى عليهم منهم فيه، ونقل الموتى كذلك حتى لا يمثل بهم العدو.

ويستعمل في هذه الأمور من لا يجب عليه القتال فقد كان النساء يقمن بهذه الأعمال في عهد رسول الله ﷺ.

ففي حديث أنس رضي الله عنه، قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً، شديد القدِّ، يكسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك ـ قال ـ ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، وأنهما المشتمرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه

---

(١) صحيح مسلم (٣/١٥٠٩ ـ ١٥١٠) رقم الحديث ١٩٠١.
(٢) انظر الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٢٤٦ ـ ٢٤٧).

القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثاً[١].

ففي هذا الحديث قيام النساء يسقي المجاهدين ونقل الماء لهم، ومثله في الحكم الطعام ونحوه.

وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قيام المرأة بالتمريض ومداواة الجروح ـ والأصل أن يكون الجريح الذي تداويه المرأة محرماً لها، كما هو واضح في الحديث الذي يذكر نصه قريباً، ولكن إذا دعت الضرورة إلى مداواتها غير محرمها فلا مانع من ذلك مع عدم المباشرة[٢] حسب الإمكان.

سئل سهل رضي الله عنه عن جرح النبي ﷺ يوم أحد، فقال جرح وجه النبي ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه فكانت فاطمة عليها السلام تغسل الدم وعلي يمسك، فلما رأت أن الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت حصيراً فأحرقته حتى صار رماداً ثم ألزقته فاستمسك الدم[٣].

وفي حديث الربيع بنت معوذ قالت: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، فنسقي القوم ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة، وفي رواية؛ ونداوي الجرحى[٤].

وقولها: ونخدمهم عام يشمل كل خدمة يحتاج إليها المجاهد في المعركة وفي حديث أم عطية: قالت غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى[٥].

وقال الحافظ: (وأوضح سعيد بن عبد الرحمن عن أبي حازم فيما أخرجه الطبراني من طريقه سبب مجيء فاطمة إلى أحد، ولفظه: لما كان يوم أحد،

---

(١) البخاري رقم ٣٨١١، فتح الباري (١٢٨/٧)، ومسلم (١٤٤٣/٣).
(٢) انظر فتح الباري (٨٠/٦).
(٣) البخاري رقم ٢٩١١، فتح الباري (٩٦/٦) ومسلم (١٤١٦/٣).
(٤) البخاري رقم ٢٨٨٣ فتح الباري (٨٠/٦).
(٥) مسلم (١٤٤٧/٣).

وانصرف المشركون .خرج النساء إلى الصحابة يعينونهم ـ هكذا ـ فكانت فاطمة فيمن خرج)[١].

هذا وليعلم أن الأصل عدم خروج المرأة مع المجاهدين، لا سيما لإرادة القتال، لما في ذلك من مخالفة المطلوب منها، وهو سترها ولهذا لما سأل النبي ﷺ أزواجه أن يأذن لهن في الجهاد قال: «جهادكن الحج»[٢].

وقد كره العلماء أخذ النساء الشواب إلى أرض العدو لأنهن لسن من أهل القتال، وقلما ينتفع بهن فيه لاستيلاء الخور والجبن عليهن ولا يؤمن ظفر العدو بهن فيستحلون ما حرم الله منهن[٣].

ولا ينافي ذلك أخذ الرسول ﷺ من كانت تقع عليها القرعة من زوجاته، لأنها زوجة يأخذها لحاجته إليها[٤].

وفي هذه النصوص الدالة على أن الأصل في المرأة ألا تخرج مع المجاهدين إلا لضرورة مع الحيطه المستطاعة ما يبين فساد ما عليه الآن كثير من جيوش الشعوب الإسلامية التي تجند فيها المرأة في وقت السلم والحرب على السواء، لا للخدمة والإعانة التي كانت تقوم بها نساء الصحابة رضي الله عنهم، وإنما لإفسادهن وإفساد رجولة جيوش الشعوب الإسلامية، إذ يختلط النساء ـ وهن بدون محارم ـ بالرجال مدة طويلة ويختلي الرجل بالمرأة وما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، وهذه احدى المعاصي التي عاقب الله بها المسلمين الذين يرون هذا المنكر وغيره في أبنائهم وبناتهم فلا ينكرونه، فسلط الله عليهم عدوهم فأذلهم واستباح حرماتهم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وليعلم هؤلاء أن الإسلام يقر المرأة عند الضرورة أن تقاتل كالرجال كما في حديث أنس بن مالك أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً فكان معها،

(١) فتح الباري (٧/٣٧٣).
(٢) البخاري رقم الحديث ٢٨٧٥، ٢٨٧٦، وانظر فتح الباري (٦/٧٥، ٧٦).
(٣) المغني لابن قدامة (٩/٢١٤، ٢١٥).
(٤) نفس المرجع السابق (٩/٢١٥) وانظر حواشي فتح القدير لابن الهمام (٥/٤٥٠) فما بعدها وكذا حاشية ابن عابدين (٤/١٢٥).

فرآها أبو طلحة، فقال يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر»؟ قالت اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه فجعل رسول الله ﷺ يضحك قالت: يا رسول الله أقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك، فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»(١).

وإذا دعت الحاجة لخروجها فإن الإسلام لا يمنعها من ذلك ولكنه يصونها عن ذئاب المعاصي والفسق والفجور.

الخيلاء في الحرب

ومن آداب الجهاد الإسلامية: الخيلاء في المعركة، أي تبختر المجاهد المسلم في ساحة القتال إشعاراً للعدو بعلو الهمة، والشجاعة، واستقبال الموت في سبيل الله برباطة جأش وسكينة نفس، وفي ذلك ما فيه من الإغاظة وإرهاب العدو، وإغاظة العدو وإرهابه عبادة يكتبها الله للمجاهدين، ويعدها من إحسَانهم.

كما قال تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومَنْ حولَهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله، ولا يرغبَوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظمأ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيل الله، ولا يطئون موطئاً يَغِيظ الكفار، ولا ينالون من عدوٍّ نَيْلاً؛ إلاَّ كُتب لهم به عملٌ صالحٌ، إن الله لا يُضيع أجر المحسنين﴾(٢).

وللخيلاء صورتان:

الصورة الأولى: إظهار التجلد للعدو، حتى ولو كان المجاهد ضعيفاً لمرض أو جوع أو عطش، أو كبر أو غير ذلك، ليبدو للعدو قوياً فيهابه. يدل على هذا أمر النبي ﷺ أصحابه أن يسرعوا في طوافهم بالبيت عند قدومهم لإداء العمرة في عمرة القضاء، وقد قال المشركون أضعفتهم حمى يثرب ليعلم المشركون أن الصحابة أقوياء وليسوا ضعفاء، كما في حديث ابن عباس رضي

---

(١) مسلم (١٤٤٢/٣).

(٢) التوبة: ١٢٠.

الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم[١].

وقوله: «ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم» يدل على أن الرمل في الثلاثة أشواط كلها من الحجر إلى الحجر هو السنة، وإنما خفف الرسول ﷺ على أصحابه فلم يأمرهم بالرمل بين الركنين، وقد بينت ذلك رواية جابر بن عبدالله لصفة طوافه ﷺ في حجة الوداع، إذ قال جابر: (رمل الثلاثة أطواف من الحجر إلى الحجر)[٢].

قال الإمام النووي رحمه الله في تعليقه على رواية جابر هذه: (فيه بيان أن الرمل يشرع في جميع المطاف من الحجر إلى الحجر، وأما حديث ابن عباس المذكور بعد هذا بقليل، قال: وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط ويمشوا ما بين الركنين فمنسوخ بالحديث الأول ـ يعني حديث جابر ـ لأن حديث ابن عباس كان في عمرة القضاء سنة سبع قبل فتح مكة، وكان في المسلمين ضعف في أبدانهم، وإنما رملوا إظهاراً للقوة، واحتاجوا إلى ذلك في غير ما بين الركنين اليمانيين، لأن المشركين كانوا جلوساً في الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) وكانوا لا يرونهم بين هذين الركنين، ويرونهم فيما سوى ذلك)[٣].

وقول النووي رحمه الله في حديث ابن عباس أنه منسوخ بحديث جابر لا داعي له، لأنه صرح في حديث ابن عباس نفسه أنه ما منع رسول الله ﷺ من أمرهم بالرمل في الطواف كله إلا الإبقاء عليهم، ومعنى هذا أن ضعفهم كان سبباً في التخفيف عنهم، بل إنه يفهم من حديث ابن عباس شيء آخر وهو أن أمرهم بالرمل فيما دون ما بين الركنين مع ضعفهم كان من أجل إظهار قوتهم لعدوهم وإشعار العدو بأن ما توهموه من ضعف الصحابة غير صحيح ولولا ذلك

---

(١) البخاري، رقم الحديث ١٦٠٢، فتح الباري (٣/٤٦٩)، ومسلم (٢/٩٢٣).
(٢) مسلم (٢/٩٢١).
(٣) شرح النووي على مسلم (٩/٩).

لرخص لهم في ترك الرمل أصلاً، وهو مستحب كما صرح النووي بقوله: (باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة)[١].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: (ويؤخذ منه جواز إظهار القوة بالعدة والسلاح، ونحو ذلك للكفار إرهاباً لهم، ولا يعد ذلك من الرياء المذموم)[٢].

وهذا وإن لم يكن أثناء الحرب في المعركة فإن دلالته بإعتبار أن حالة الحرب كانت قائمة بين الإسلام والشرك وهذه العمرة كانت في وقت هدنة ومصالحه.

الصورة الثانية: أن يختال في مشيته أمام عدوه، ويتبختر تبختراً يظهر به عزته على العدو: ﴿أعزة على الكافرين﴾[٣].

ففي حديث جابر بن عتيك أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله، فأما التي يحبها الله عز وجل فالغيرة في الريبة، وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة. وإن من الخيلاء ما يبغض الله، ومنها ما يحب الله، فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال، واختياله عند الصدقة، وأما التي يبغض الله عز وجل فاختياله في البغي»، قال موسى: والفخر[٤].

وقد ذمَّ الله تعالى ورسوله ﷺ الخيلاء في غير الحرب، كما قال تعالى: ﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾[٥].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما، يقول: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) (٦/٩).
(٢) الفتح (٣/٤٧٠).
(٣) المائدة: ٥٤.
(٤) مسند الإمام أحمد (٥/٤٤٥)، وسنن النسائي (٥/٥٨) وسنن الترمذي رقم الحديث ٢٦٤٢ تحفة الأحوذي (٧/٣٢٠)، واللفظ للترمذي ما عدا لفظة: «بنفسه» فهي في المسند والنسائي، ولفظها في الترمذي: «فاختيال الرجل نفسه» بدون باء، وسنن أبي داود رقم الحديث ١١٤ (٣/١١٤).
(٥) لقمان: ١٨.

يقول: «من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان»[١].

وفي سيرة ابن هشام، عن رجل من الأنصار من بني سلمة قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»[٢]

قال في مجمع الزوائد: (وعن خالد بن سليمان بن عبدالله بن خالد بن سماك بن خرشة عن أبيه عن جده، إن أبا دجانة يوم أحد أعلم بعصابة حمراء، فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو يختال في مشيته بين الصفين، فقال: «إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع». رواه الطبراني، وفيه من لم أعرفه)[٣] إ هـ.

وذكر هذا الحديث الضعيف بهذا السند، وكذا الرواية التي قبله المذكورة في السيرة النبوية، المقصود منه تفسير الاختيال المشروع والاختيال الممنوع في حديث جابر بن عتيك.

ومشروعية الاختيال في هذا الموضع مخصِّصة للحظر العام الوارد في النصوص الأخرى مثل الآية السابقة. ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور...﴾، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورأى رجلاً يجر إزاره فجعل يضرب الأرض برجله، وهو أمير على البحرين، وهو يقول: جاء الأمير، جاء الأمير، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى من يجر إزاره بطراً»[٤].

ولقد حفظ عمر بن الخطاب لمن خطر واختال على أعداء الله في المعركة حقه بعد استشهاده، فأكرم من أجل ذلك ابنه، وفضله على غيره معللاً ذلك التفضيل بتلك المزية التي يحبها الله ورسوله في ذلك المقام فعن زيد بن أسلم أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما فرض للناس فرض لعبد الله بن حنظلة ألفي درهم، فأتاه طلحة بابن أخ له ففرض له دون ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين

---

(١) مسند الإمام أحمد (١١٨/٢) وسنده: حدّثنا عبدالله، حدّثنا أبي، حدّثنا يحيى بن اسحاق، أنا يونس بن القاسم الحنفي بحامي سمعت عكرمة بن خالد المخزومي يقول: سمعت ابن عمر يقول، فذكره.

(٢) السيرة النبوية (١٩/٣).

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠٩/٦).

(٤) صحيح مسلم (١٦٥٣/٣).

فضلت هذا الأنصاري على ابن أخي؟ قال: نعم لأني رأيت أباه يستن يوم أحد بسيفه كما يستن الجمل[1].

عدم الخروج من معسكر المجاهدين بدون إذن الأمير

وجوب طاعة الأمير من الأمور البدهية في الإسلام، وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله، في فصل: صفات المجاهدين، وفي فصل عوامل النصر وعوامل الهزيمة، ومن طاعة الأمير عدم الخروج من معسكر المجاهدين بدون إذنه، لما في ذلك من الخروج على طاعته من جهة ولما فيه من المحاذير التي يلحق ضررها بالشخص الذي لم يستأذن وبالجيش الإسلامي من جهة أخرى.

فقد يقع الجندي المسلم في كمين من مقاتلي العدو فيقتلونه أو يأسرونه وقد يعذبونه حتى يدلهم على مواقع الجيش الإسلامي، وعددهم وما عندهم من القوة والعتاد وفي ذلك ضرر عليه وعلى أمته.

وليس الأمر كذلك إذا خرج بإذن فإن القائد سينصحه بما يجب عليه عمله وقد يصحبه من يحميه من كمائن العدو وغير ذلك من الأمور الاحتياطية التي لا تتوافر للفرد وحده.

لهذا كان من أهم صفات المؤمن الدالة على قوة إيمانه عدم ذهابه بدون إذن أميره في الأحوال التي تستدعي ذلك، كما قال سبحانه: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾[2].

فقد أبرز الله تعالى في هذه الآية الكريمة درجة الاستئذان في مطلع الآية بحصر المؤمنين فيمن اتصفوا بالإيمان به وبرسوله وبعدم الذهاب بدون استئذان، كما أبرز ذلك في وسط الآية بجعل الاستئذان علامة على الإيمان به

---

(١) الجهاد لابن المبارك (١/٧٤)، ونقل المحشي عن النهاية (٢/١٨٦) أن معنى يستن يمرح ويخطر.
(٢) النور: ٦٢.

وبرسوله ثم في آخر الآية يجعل الرسول ﷺ مخيراً في الإذن لمن يشاء، مع الاستغفار لمن أذن له، لما في ذلك من تركه الشأن العام الذي تعود مصلحته لعامة المسلمين، بخلاف شأنه الخاص مهما كانت أهميته.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول تعالى ذكره: ما المؤمنون حق الإيمان إلا الذين صدقوا الله ورسوله ﴿وإذا كانوا معه﴾ يقول: وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ ﴿على أمر جامع﴾ يقول على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت، أو صلاة اجتمع لها، أو تشاور في أمر نزل ﴿لم يذهبوا﴾ يقول: لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ..

ثم قال: وقوله: ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ يقول تعالى ذكره: إن الذين لا ينصرفون يا محمد إذا كانوا معك في أمر جامع عنك إلا بإذنك لهم طاعة منهم لله ولك وتصديقاً بما أتيتهم به من عندي أولئك الذين يصدقون الله ورسوله حقاً، لا من يخالف أمر الله ورسوله فينصرف عنك بغير إذن منك له، بعد تقدمك إليه أن لا ينصرف عنك إلا بإذنك[1] إ هـ.

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾: فكان النبي ﷺ بالخيار إن شاء أن يأذن وإن شاء منع. ﴿واستغفر لهم الله﴾ أي لخروجهم عن الجماعة إن علمت لهم عذراً[2] إ هـ.

ويفهم مما مضى أن استئذان الجندي للانصراف لبعض شأنه في حال اجتماع المسلمين لأمور مهمة مكروه وإن أذن له الأمير بدليل أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالاستغفار لمن أذن له.

والمؤمن لا يستأذن أميره في تلك الحال إلا إذا كان له عذر يقتضي الاستئذان لأن المؤمن لا يكذب، بخلاف المنافق، فإنه ينتحل الأعذار ويكذب على قائده من أجل أن يسوغ هربه من القيام بواجبه بإذن أميره كما قال تعالى عن بعض المنافقين في غزوة الأحزاب: ﴿ويستأذنُ فريق منهم النبيَّ، يقولون: إنَّ

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/ ١٧٥، ١٧٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٣٢١).

بيوتَنا عَوْرة وما هي بعَوْرة، إن يريدون إلاَّ فِراراً﴾[١].

وفي مختصر الخرقي: (وإذا غزا الأمير لم يجز لأحد أن يتعلف ولا يحتطب ولا يبارز علجاً، ولا يخرج من المعسكر ولا يحدث حدثاً إلا بإذنه) قال ابن قدامة معلقاً على هذه الجملة: (يعني لا يخرج من المعسكر... إلا بإذن الأمير، لقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾[٢] ولأن الأمير أعرف بحال الناس، وحال العدو ومكامنهم ومواضعهم وقربهم وبعدهم، فإذا خرج خارج بغير إذنه لم يأمن أن يصادف كميناً للعدو فيأخذوه، أو طليعة لهم، أو يرحل الأمير بالمسلمين ويتركه فيهلك، وإذا كان بإذن الأمير لم يأذن لهم إلا إلى مكان آمن وربما يبعث معهم من الجيش من يحرسهم ويطّلع لهم...)[٣].

وقد يعاقب الله تعالى من خرج من جيش المسلمين بدون إذن الأمير بما لا يدور في باله من أنواع العقاب العاجلة مع الإثم الذي سيلقى جزاءه في الآخرة، وتأمل هذه القصة الثابتة من حديث أبي حميد رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ـ الحديث ـ إلى أن قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله (فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء..»[٤]

قال النووي رحمه الله: (هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من أخباره ﷺ بالمغيب وخوف الضرر من القيام وقت الريح، وفيه ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته والرحمة لهم والاعتناء بمصالحهم وتحذيرهم ما يضرهم في دين أو دنيا...)[٥] إهـ.

---

(١) الأحزاب: ١٣.

(٢) النور: ٦٢.

(٣) المغني (٩/٢١٦).

(٤) صحيح مسلم (٤/١٧٨٥).

(٥) شرح النووي (١٥/٤٢) وقال: وجبلاطيء مشهوران. يقال لأحدهما أجاء بفتح الهمزة والجيم وبالهمز، والآخر سلمى، بفتح السين، وطيء، بياء مشددة بعدها همزة على وزن سيد، وهو أبو قبيلة من اليمن إ هـ.

وإذا كان الرسول ﷺ أخبر أصحابه بالغيب الذي فيه عليهم ضرر، فإن الواجب على المسلم أن يحذر ولو لم يعلم هذا الغيب، وخروجه بدون إذن أميره معصية قد يعاقبه الله عليها بما يشاء مما لا يعلمه هذا العاصي ولا أميره.

وهذا جابر بن عبدالله رضي الله عنه ـ وكان مع رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة بعد الغزو ـ تتوق نفسه إلى زوجه، وكان عروساً، فلم يلب رغبتها إلا بعد أن استأذن من الرسول ﷺ ليسرع فأذن له: (فقلت يا رسول الله إني عروس فاستأذنته فأذن لي فتقدمت الناس إلى المدينة...)[1].

الكف عمن أظهر الإسلام أو شعاره من المحاربين

الهدف الأساس من الجهاد هو إعلاء كلمة الله، وسيأتي الكلام على أهداف الجهاد في موضعه من هذا البحث، فإذا أظهر بعض الكفار المحاربين أثناء المعركة كلمة الإسلام، الشهادتين، أو قال: أنا مسلم أو حياهم تحية الإسلام، وجب على المسلمين الكف عنه وعدم قتله أو قتاله، وهذا من محاسن الإسلام الذي يوجب على المسلم أن يكف عن عدوه وهو في حالة غليان عليه في وقت مقارعة السيوف، وقد يكون الذي أظهر الإسلام ممن أعمل سلاحه في المسلمين، وهم يتمنون أن يشفوا صدورهم منه ويجوز أن يكون في واقع الأمر غير معتقد ما أظهره، وإنما أراد أن يخلص نفسه من القتل، ومع ذلك أوجب الله على المسلمين العمل بالظاهر والتثبت من الحقيقة، كما قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[2].

وفي الآية تذكير للمؤمنين بأن نعمة الإيمان هي منة من الله عليهم، وقد كانت هذه النعمة قبل أن يمن عليهم مفقودة منهم، والذي من عليهم بنعمة الإسلام قادر أن يمن على عدوهم في لحظة القتال فلا يستغرب المسلمون أن

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث (٢٩٦٧)، فتح الباري (٦/١٢١).
(٢) النساء: ٩٤.

يهدي الله عدوهم للإسلام في تلك اللحظة.

ولا يجوز لهم أن يتأولوا إن ذلك إنما حصل إتقاء فالهداية بيده سبحانه ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾(١).

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لقي ناس من المسلمين رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فأخذوه فقتلوه وأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً . .﴾ الآية(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وفي الآية دليل على أن من أظهر شيئاً من علامات الإسلام لم يحل دمه حتى يختبر أمره، لأن السلام تحية المسلمين، وكانت تحيتهم في الجاهلية بخلاف ذلك، فكانت هذه علامة، وأما على قراءة السلم ـ على اختلاف ضبطه ـ فالمراد به الانقياد، وهو علامة الإسلام، لأن معنى الإسلام في اللغة الأنقياد ولا يلزم من الذي ذكرته الحكم بإسلام من اقتصر على ذلك وإجراء أحكام المسلمين عليه، بل لا بد من اللفظ بالشهادتين . .(٣)).

وقال الإمام ابن جرير عند تفسير الآية الآنفة الذكر: (فتبينوا: يقول فتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره ولا تعجلوا فتقتلوا من التبس عليكم أمره ولا تقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتموه يقيناً حرباً لكم ولله ولرسوله)(٤).

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: (والمسلم إذا لقي الكافر ولا عهد له جاز له قتله، فإن قال: لا إله إلا الله لم يجز قتله، لأنه قد اعتصم بعصام الإسلام المانع من دمه وماله وأهله، فإن قتله بعد ذلك قتل به. وإنما سقط القتل عن هؤلاء (يعني عن بعض الصحابة الذين قتلوا من ألقى إليهم السلام)

(١) القصص: ٥٦.

(٢) البخاري، رقم الحديث ٤٥٩١ فتح الباري (٨/٢٥٨). ومسلم (٤/٢٣١٩) رقم الحديث ٣٠٢٥. والآية من سورة النساء: ٩٤.

(٣) الفتح (٨/٢٥٩).

(٤) جامع البيان عن آي القرآن (٥/٢٢١).

لأجل أنهم كانوا في صدر الإسلام، وتأولوا أنه قالها متعوذاً وخوفاً من السلاح، وإن العاصم قولها مطمئناً، فأخبر النبي ﷺ أنه عاصم كيفما قالها، ولذلك قال لأسامة: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا. أخرجه مسلم[١] أي تنظر أصادق هو في قوله أم كاذب، وذلك لا يمكن فلم يبق إلا أن يبين عنه لسانه، وفي هذا من الفقه باب عظيم، وهو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر، لا على القطع وإطلاع السرائر[٢].

عدم إفساد الأموال

ليس في الأرض من يعمل صالحاً يرضاه الله ويثيبه عليه إلا المؤمن قال تعالى: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين﴾[٣].

ومهما قدَّم غير المؤمن من الأعمال النافعة المفيدة فإنه لا قيمة له في ميزان الله، لعدم وجود الأساس الذي يكون العمل به صالحاً ﴿ومَنْ يَعْملْ من الصالحاتِ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فأولئك يدخلون الجنةَ ولا يُظلمون نقيراً﴾[٤].

وهم ـ أي المؤمنون ـ وحدهم الذين لا يضيع أجرهم، لأنهم وحدهم المصلحون: ﴿والذين يُمَسِّكون بالكتابِ، وأقاموا الصلاة، إنا لا نُضيع أجرَ المصلحين﴾[٥].

والسبب في ذلك أنهم لا يُقدمون على عمل إلا إذا علموا أن الله تعالى قد أذن فيه أو أمر به، كما أنهم يبتعدون كل الابتعاد عن أي أمر يغضب الله فعله، ملتزمين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ: ﴿وما آتاكم الرسول فخُذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتَّقوا الله إنَّ الله شديدُ العقاب﴾[٦].

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٩٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٣٣٨).
(٣) آل عمران: ٥٦ ـ ٥٧.
(٤) النساء: ١٢٤.
(٥) الأعراف: ١٧٠.
(٦) الحشر: ٧.

وقد ادعى غير المؤمنين لأنفسهم الإصلاح فكذبهم الله وأكد أنهم هم المفسدون: ﴿وإذا قيل لهم لا تُفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾(١).

والمؤمنون يقدمون ما يحبه الله، ولو كرهته نفوسهم لعلمهم أن الخير فيما يحبه الله ﴿كُتب عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾(٢).

لا يختارون غير ما قضى الله فيه من أمرهم هرباً من معصيته والضلال عن سبيله: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولهُ أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم، ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾(٣).

وبناء على ذلك فإن المسلمين حقاً يعتبرون عمارة الأرض وإصلاحها عبادة لله تعالى لأنهم ما خلقوا إلا لذلك: ﴿وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون، ما أُريدُ منهم من رزق وما أُريد أن يُطْعمونْ، إنَّ الله هو الرزّاقُ ذو القوّة المتين﴾(٤) حياتهم كلها لله، كموتهم: ﴿قُلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين﴾(٥).

ولا يقدمون على ما ظاهره الإفساد مما يعيبهم به المفسدون فعلاً إلا إذا كان الله قد أذن لهم فيه، لأنه يؤدي إلى الإصلاح. بل عملهم ذلك يعتبر إصلاحاً: ﴿ما قطعتم من لِينَةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذن الله، ولِيُخْزِيَ الفاسقين﴾(٦).

بعد هذه المقدمة التي لا بد منها والتي تحدد سلوك المسلمين في كل شيء - ولا سيما في معاملة الأعداء في أنفسهم وأموالهم - يسأل هذا السؤال هل يجوز للمجاهدين المسلمين تدمير بيوت المحاربين وإتلاف أموالهم والتمثيل بجثثهم؟

والجواب فيما يلي:

---

(١) البقرة: ١١، ١٢.
(٢) البقرة: ٢١٦.
(٣) الأحزاب: ٣٦.
(٤) الذاريات: ٥٦ - ٥٧ - ٥٨.
(٥) الأنعام: ١٦٣ - ١٦٣.
(٦) الحشر: ٥.

الأصل عدم التخريب والاتلاف

يتضح مما مضى أن الأصل عدم التخريب والاتلاف، لأن المقصود هو القضاء على شوكة أعداء الإسلام وشفاء صدور المؤمنين منهم واغاظتهم فإذا حصل ذلك بدون تخريب ولا إتلاف كان بها، وإلا فإن لجيش المسلمين أن يخرب البيوت، التي يتحصنون بها، ويحرق الأشجار التي يندسون فيها أو توقع الغيظ في قلوبهم فيخرجون من حصونهم للدفاع عنها، فيتمكن المسلمون عندئذ من قتالهم والقضاء عليهم.

فقد ثبت أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطعها.

ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع، وهي البُوَيْرَة، فنزلت: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[1].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية قولين:

القول الأول: إنه لما قطع ﷺ نخل بني النضير عابه بنو النضير واتهموه بأنه ﷺ ينهىٰ عن الفساد ويأتيه، فنزلت الآية.

القول الثاني: إن بعض الصحابة قطع النخل وبعضهم توقف ورأى أنه لا يسوغ القطع، لأنه مغنم للمسلمين، فنزلت الآية مبيحة فعل القاطعين وتوقف الكارهين[2].

وعلى هذا الرأي ـ أي القول بإباحة ذلك ـ الحنفيون والمالكيون في قول والشافعيون وأدلتهم واضحة فيما تقدم.

قال السرخسي: (ولا بأس بأن يحرقوا حصونهم، ويغرقوها، ويخربوا البنيان، ويقطعوا الأشجار ـ إلى أن قال: ـ ثم الدليل على جوازه ما ذكره الزُّهري رحمه الله تعالى أن النبي ﷺ أمر بقطع نخيل بني النضير فشق ذلك

(١) البخاري رقم الحديث ٤٠٣١، فتح الباري (٧/٣٢٩) ومسلم (٣/١٣٦٥) ورقم الحديث فيه ١٧٤٦.

(٢) راجع تفسير ابن جرير الطبري (٢٨/٣٤).

عليهم حتى نادوه ما كنت ترضى بالفساد يا أباالقاسم، فما بال النخيل تقطع؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها﴾(١) الآية).

وذهب الحنبليون، وغيرهم (في المغني: في قول عامة أهل العلم) إلى عدم جواز ذلك. واستدلوا بعموم النهي عن الإفساد كما في قوله تعالى: ﴿وإذا تولى سعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾(٢).

كما استدلوا بنهي أبي بكر رضي الله عنه عندما أوصى يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه فقال: (لا تقطعوا شجراً، ولا تخربوا ولا تفسدوا ضرعاً)(٣).

وأيد ابن حزم الظاهري المذهب الأول ورد على الاستدلال بنهي أبي بكر فقال: (وجائز تحريق أشجار المشركين وأطعمتهم وزرعهم ودورهم، وهدمها، قال الله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ولا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالحٍ﴾(٥) وقد أحرق النبي ﷺ نخل بني النضير. . وقد روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا تقطعن شجراً مثمراً ولا تخربن عامراً ولا حجة في أحد مع رسول الله ﷺ، وقد ينهى أبو بكر عن ذلك اختياراً، لأن ترك ذلك أيضاً مباح كما في الآية المذكورة. . .)(٦).

وهنالك مذهب ثالث يفصل الأمر كما يلي:

إن علم المسلمون أن ديار العدو وأشجاره وغيرها عائدة للمسلمين فليس لهم إحراقها ولا إتلافها، وإن يئسوا منها فلهم ذلك(٧) وهو تفصيل لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه، كما قال ابن حزم في نخل بني النضير: (وقد علم أنها تصير للمسلمين في يومه أو غده)(٨).

وبمراجعة الأدلة السابقة ومناقشتها يظهر رجحان القول الأول، وما أدعي من أن في ذلك إفساداً دعوى مردودة، لأن ما أذن الله في فعله لا يعتبر إفساداً،

(١) المبسوط (١٠/٣١) وحواشي تحفة المحتاج (٩/٢٤٥).
(٢) البقرة: ٢٠٥.
(٣) المبسوط (١٠/٣١). والمغني لابن قدامة (٩/٢٨٩).
(٤) الحشر: ٥.
(٥) التوبة: ١٢٠.
(٦) المحلّى (٧/٢٩٤).
(٧) انظر تفسير القرطبي (١٨/٨).
(٨) المحلى (٧/٢٩٤).

لا سيما إذا كان ذلك لحاجة قتالهم والظفر بهم، ولذلك أتى بمقدمة هذا المبحث.

أما دواب الكفار، كالبقر والغنم، والحمير، والخيل والبغال فقد ذهب المالكية إلى وجوب ذبح ما عجز المسلمون عن الانتفاع به وإحراقه ندباً إن خيف من انتفاع المحاربين من الكفار به لأن في تركه بدون ذبح أو إحراق إعانة لهم، وفي ذبحه وإحراقه حؤل بينهم وبين الانتفاع به(١).

وذهب الشافعية والحنابلة إلى عدم جواز قتل الدواب ـ إلا ما يقاتل عليه الكفار، كالخيل ونحوها ـ لما ورد من النهي عن قتل الحيوان صبراً، ولما ورد من النهي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (ولا تعقرن شجراً مثمراً ولا دابة عجماء، ولا شاة إلا لمأكلة...)(٢).

وذهب الحنفيون إلى وجوب القتل والتحريق معاً حتى لا يتقوى به المشركون، ولما في ذلك من الإغاظة لهم، وهي مطلوبة شرعاً(٣).

والذي يترجح عدم جواز القتل إلا في ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يكون المسلمون في حاجة إلى الأكل فيذبحون ما يحتاجون إليه من الحيوان المباح لهم، كالبقر والإبل والغنم.

الحالة الثانية: أن يكون الحيوان مما يستعين به الكفار على المسلمين في القتال، كالخيل التي يقاتلون عليها فعلاً.

الحالة الثالثة: أن يكون الحيوان مأذوناً في قتله شرعاً، كالخنزير وهذا ما رجحه ابن حزم في المحلى(٤) وساق أدلته.

عدم قتل المشركين بالنار أو التمثيل بجثثهم

الظفر بالعدو أمر تتوق له النفس، والانتقام منه كذلك أمر ينزل البرد على القلب.

---

(١) حاشية الدسوقي (٢/١٨١).
(٢) تكملة المجموع للعقبي (١٨/٧٩)، المغني لابن قدامة (٩/٢٨٩)، والمبسوط (١٠/٣٧).
(٣) المبسوط (١٠/٣٧).
(٤) انظر المحلى (٧/٢٩٤ ـ ٢٩٦).

وعندما يكون الظافر صاحب حق ـ ولا حق سوى الإسلام ـ والعدو صاحب باطل ـ وأعظم الباطل هو الكفر ـ وعندما يكون هذا العدو الكافر قد عاند الحق وجحده وآذى صاحبه ـ المؤمن ـ ولم يرع في حقه عهداً ولا قرابة، عندما يكون الظافر هو المسلم المظلوم، والمظفور به هو الكافر الظالم تكون مسوغات الانتقام في قمة الحجة والبرهان.

وهنا تتوق النفس إلى استعمال أشد الأساليب انتقاماً. أليس للمسلم الحق أن يقتل الكافر المحارب الذي لم يأل جهداً في التنكيل بالمسلم وفتنته وإيذائه؟ وإذا كان للمسلم الحق في قتل هذا الكافر أيقتله بوسيلة سهلة، لا يذوق بها العذاب الذي أذاق المسلم ما قد يكون أشد منه؟

فتتجاوب العواطف طالبة قتله بأشد أساليب القتل، ولعل حر النار أشفى لقلب المسلم عندما يراها تلتهم كل جزء من أجزاء بدن عدوه الكافر، فليكن قتله بالنار.

ولقد تحركت مشاعر رسول الله ﷺ البشرية على رجلين من كفار قريش كانا شديدي العداوة له ـ كما يظهر من العقوبة التي أمر بها في حقهما في أول الأمر ـ والإيذاء والصد عن سبيل الله، فأمر أصحابه ـ إذا وجدوهما أن يحرقوهما بالنار اجتهاداً منه ﷺ فلم يقره ربه على ذلك فرجع قبل التنفيذ ونهى عن الإحراق بالنار معللاً بأن ذلك من شأن الله وليس من شأن خلقه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في بعث، فقال: «إن وجدتم فلاناً وفلاناً، فأحرقوهما بالنار». ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: «إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما»[(١)].

قال الحافظ: (واختلف السلف في التحريق:

فكره ذلك عمر وابن عباس وغيرهما مطلقاً، سواء كان ذلك بسبب كفر أو في حال مقاتلة أو كان قصاصاً.

---

(١) البخاري في الصحيح، الحديث رقم ٣٠١٦، فتح الباري (٦/١٤٩)، وكذا (١٢/٢٧٤).

وأجازه علي وخالد بن الوليد وغيرهما. . . إلى أن قال:

وأما حديث الباب فظاهر النهي فيه التحريم، وهو نسخ لأمره المتقدم سواء كان بوحي إليه أو باجتهاد منه إ هـ)[١].

والذي يظهر أن علياً رضي الله عنه لم يبلغه النهي عن الإحراق بالنار للعدو الكافر، فأحرق بعض الكفار في عهده، كما ثبت أيضاً في الصحيح عن عكرمة، أن علياً رضي الله عنه حرق قوماً فبلغ ابن عباس، فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم، ولقتلتهم كما قال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»[٢].

ولكنه رضي الله عنه عندما بلغه كلام ابن عباس ندم ندماً يدل على رجوعه عن ذلك، حيث جاء في رواية ـ في غير الصحيح ـ (قال فبلغ قول ابن عباس علياً، فقال: ويح ابن عباس)[٣].

والراجح عدم جواز الإحراق بالنار للنهي الصريح الوارد في هذه النصوص فليقتل العدو بما أذن الله فيه، وليصل نار جهنم التي أعدها الله له، والتي ﴿وقودها الناس والحجارة﴾[٤].

هذا في القتل ابتداء، أما إذا حرق العدو الكافر مسلماً، فقد أشار الإمام البخاري رحمه الله إلى أنه يمكن استنباط مشروعية حرق الكافر من حديث العرنيين الذين استاقوا إبل النبي ﷺ وقتلوا راعيها، حيث قال رحمه الله: باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق؟ وأورد حديث أنس رضي الله عنه: (إن رهطاً من عكل ثمانية قدموا على النبي ﷺ، فاجتووا المدينة، فقالوا يا رسول الله أبغنا رسلاً، قال: «ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بالذود، فانطلقوا فشربوا من أبوالها وألبانها حتى صحوا وسمنوا، وقتلوا الراعي، واستاقوا الذود وكفروا بعد

(١) الفتح (٦/١٥٠).
(٢) البخاري رقم الحديث ٣٠١٧، فتح الباري (٦/١٤٩).
(٣) هذا على رأي من قال: أن «ويح» هنا للمدح والتعجب، ومعناه أن علياً قالها رضاً بما بلغه عن ابن عباس حيث حفظ ما نسيه، وانظر فتح الباري (١٢/٢٧١، ٢٧٢) والرواية المذكورة في سنن أبي داود رقم الحديث ٤٣٥١ (٤/٥٢٠)، وفي المسند (١/٢٨٢) وقد أورد الإمام عبد الرزاق الصنعاني الرواية المذكورة في المصنف (٥/٢١٣٠).
(٤) البقرة: ٢٤، والتحريم: ٦.

إسلامهم، فأتى الصريخ النبي ﷺ، فبعث الطلب، فما ترجل النهار حتى أتى بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها وطرحهم في الحـرة يستسقون فما يسقون، حتى ماتوا)[١].

والشاهد في الحديث قوله: (ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها).

قال الحافظ:[٢] (وليس فيه التصريح بأنهم فعلوا ذلك بالرعاء، لكنه أشار إلى ما ورد في بعض طرقه، وذلك فيما أخرجه مسلم من وجه آخر عن أنس، قال: إنما سمل النبي ﷺ أعين العرنيِّين، لأنهم سملوا أعين الرِّعاء)[٣].

وفي شرح النووي على صحيح مسلم[٤]: (قال القاضي عياض رضي الله عنه: واختلف العلماء في معنى حديث العرنيين هذا فقال بعض السلف، كان هذا قبل نزول الحدود وآية المحاربة والنهي عن المثلة، فهو منسوخ، وقيل ليس منسوخاً).

والذي يظهر عدم جواز الإحراق، ولو كان على سبيل القصاص، وذلك لثلاثة أمور:

الأمر الأول: تصريح النبي ﷺ بالنهي عن الإحراق بالنار.

الأمر الثاني: تصريحه ﷺ أن النار لا يعذب بها إلا الله.

الأمر الثالث: أن حديث أنس متأخر عن حديث أبي هريرة رضي الله عنهما، وحديث أبي هريرة فيه جواز الإحراق، ولو جزئياً، وحديث أنس فيه النهي عن الإحراق بالنار مع ذكر العلة وهي أن الإحراق بالنار لا يكون إلا لله، والنهي يأتي بعد الإباحة.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله اختلاف العلماء في المسألة، فقال: (ومال جماعة منهم ابن الجوزي إلى أن ذلك وقع عليهم على سبيل القصاص لما

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٠١٨، فتح الباري (٦/١٥٣) والرسل الدر من اللبن فتح.
(٢) الفتح (٦/١٥٣).
(٣) مسلم (٣/١٢٩٨) رقم ١٦٧١، ونصه «إنما سمل النبي ﷺ أعين أُولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء».
(٤) (١١/١٥٣).

عند مسلم: إنما سمل النبي ﷺ أعينهم لأنهم سملوا أعين الرعاة... وذهب آخرون إلى أن ذلك منسوخ، قال ابن شاهين عقب حديث عمران بن حصين في النهي عن المثلة: هذا الحديث ينسخ كل مثله، وتعقبه ابن الجوزي بأن ادعاء النسخ يحتاج إلى تاريخ، قلت: يدل عليه ما رواه البخاري في الجهاد من حديث أبي هريرة في النهي عن التعذيب بالنار بعد الإذن فيه، وقصة العرنيين قبل إسلام أبي هريرة وقد حضر الإذن ثم النهي)[١].

وأما المُثْلة، فالخلاف فيها كالخلاف في التحريق، وقد وردت في النهي عنها نصوص كثيرة، منها ما لم ينص فيه على الكافر، ومنها ما ورد في سياق قتال المسلمين الكفار.

وهذه طائفة من نصوص النوع الأول:

عن سمرة بن جندب وعمران بن حصين رضي الله عنهما، قالا ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة[٢].

وعن عمران بن حصين، قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً فأمرنا بالصدقة ونهانا عن المُثْلة، قال: وقال: «ألا وإن من المثلة أن ينذر الرجل أن يخرم أنفه ألا وإن من المثلة أن ينذر الرجل أن يحج ماشياً، فليهد هدياً وليركب»[٣].

وعن أنس: كان رسول الله ﷺ يحث في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة[٤].

وأما ما ورد النهي فيه عن التمثيل بالعدو الكافر، ففي صحيح مسلم عن بريدة عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا»[٥] الحديث.

(١) فتح الباري (١/٣٤٠، ٣٤١).
(٢) المسند (٤/٤٣٦).
(٣) المرجع السابق (٤/٣٠٧).
(٤) النسائي (٧/٩٣).
(٥) صحيح مسلم (٣/١٣٥٧) رقم الحديث (١٧٣١)، وقد فات بعض الكتاب المعاصرين هذا الحديث الصحيح، فذكر حديث ابن عباس الذي أخرجه أحمد ولفظه: «أخرجوا باسم الله تعالى، =

ومن الأدلة التي ينبغي إيرادها في هذا الباب حديث أبي يعلي شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته»(١).

وهو عام في كل قتل، سواء كان للكفر أو للقصاص.

قال الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين النووية المسمى بجامع العلوم والحكم: (والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب ازهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأرجاها من غير زيادة في التعذيب، فإنه إيلام لا حاجة إليه، وهذا النوع هو الذي ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث. . .)(٢).

وهذه النصوص ظاهرة في النهي عن المثلة، والأصل في النهي التحريم فلا يجوز التمثيل بالكافر، بل يكتفىٰ بقتله المعتاد في المعارك بضربه بالسيف أو طعنه بخنجر أو رميه بحجر أو قذيفة أو نحو ذلك ولا يزاد على ذلك بقطع بعض أطرافه أو جدع أنفه وما أشبه ذلك.

ولكن هل يجوز أن يمثل به إذا كان هو قد مثل ببعض المسلمين قصاصاً منه وردعاً لبني جنسه من الأعداء؟

يرى بعض العلماء ذلك، وهو الذي يظهر ـ في غير التحريق بالنار الذي مضى البحث فيه قبل هذا.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يردوا العدوان بمثله، كما قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾(٣)، وقال: ﴿وإن عاقبتم

= تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان. وأصحاب الصوامع». ثم قال: رواه أحمد وفي إسناده ابراهيم بن اسماعيل، عن أبي جبيبة، وثّقه أحمد وضعّفه غيره، قال: وعن صفوان بن عسال، قال بعثنا رسول الله ﷺ، فقال: وذكر حديثنا كحديث ابن عباس إ هـ من كتاب الجهاد والفدائية في الإسلام لحسن أيوب، ولو ذكر محل الشاهد من حديث بريدة لكفاه عناء.

(١) صحيح مسلم (١٥٤٨/٣) رقم الحديث (١٩٥٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ١٣١). (٣) البقرة: ١٩٤.

فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾[١].

وإنما فرَّق بين النار وغيرها للعلة الواردة في نصوص النهي عن الإحراق بالنار، وهي أن النار لا يعذب بها إلا الله، بخلاف غيرها فإنه لم يرد فيها ذلك.

وهنا يجب استدراك النار الناتجة عن استعمال الأسلحة التي لا بد للمسلمين من استعمالها، لأن أعداءهم يستعملونها، كالصواريخ والقنابل والمدافع وغيرها، إذ لو ترك المسلمون استعمالها في حال أن عدوهم يستعملها، وهي أفتك من غيرها من الأسلحة الأخرى لكان في ذلك فتحاً لباب انتصار الكافرين على المجاهدين وذهاب الهيبة من قلوب الكفار وقد أمر الله المؤمنين بإعداد العدة التي ترهب عدوهم: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾[٢].

فالنهي عن الإحراق بالنار لا يشمل مثل هذا، لأن المسلمين لم يوقدوا النار مباشرة لإحراق الكفار بها وإنما استعملوا السلاح الذي لا مندوحة لهم عن استعماله فتسبب عنه الإحراق.

وقد تكون في بلاد الكفار مواد قابلة للإشتعال مثل البنزين والغاز، والكهرباء، فتصيبها قذائف المسلمين فتشتعل النار فتدمر كل من في المساكن، فهل يجب على المسلمين الكف عن الهجوم على عدوهم خشية من ذلك حتى يهاجمهم العدو؟ كلا.

وما كان الله ليكلفهم ذلك، وجانب المضرة عليهم فيه واضح. وقد أحسن بعض فقهاء الحنفية في حمل النهي عن المثلة بما بعد الظفر بالعدو والظهور عليهم، أما قبل فلا بأس بها قال في حاشية رد المحتار على الدر المختار:

قوله: أما قبله فلا بأس بها: قال الزيلعي: وهذا حسن، ونظيره الإحراق بالنار، وقيد جوازها في الفتح بما إذا وقعت قتالاً، كمبارز ضرب فقطع أذنه، ثم

---

(١) النحل: ١٢٦.

(٢) الأنفال: ٦٠، وانظر تفسير المنار للأستاذ محمد رشيد رضا (٢/٢١٢).

ضرب ففقأ عينه، ثم ضرب فقطع يده، وأنفه، ونحو ذلك[١]. إ هـ .

عدم إنزال المحاربين على ذمة الله ورسوله أو إنزالهم على حكم الله ورسوله

المراد بذمة الله ورسوله: عهد الله، وعهد رسوله، بأن يقول المجاهـدون المسلمون لعدوهم الكافرين: إنزلوا من حصونكم واستعصامكم ومحاربتكم ولكم عهد الله وعهد رسوله ﷺ بألا نحاربكم أو أن الهدنة بيننا وبينكم كذا وكذا (لمدة محددة).

والمراد بحكم الله ورسوله: أن يقال لهم: إنزلوا على أن ننفذ فيكم حكم الله ورسوله ﷺ.

وقد ورد النهي عن ذلك، من حديث بريدة عن أبيه ـ وفيه ـ: وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا[٢].

وقد علَّل النبي ﷺ النهي عن الأمرين، فعلل نهيه عن إنزالهم على ذمة الله وذمة رسوله ﷺ بقوله: «فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله».

ومعنى إخفار ذمة الله وذمة رسوله نقض عهدهما ومعنى ذلك أن المجاهدين قد يضطرون لنقض العهد لأي سبب من الأسباب كأن يروا أن الكفار يعدون

---

(١) (١٣١/٤).

(٢) صحيح مسلم (١٣٥٧/٣ ـ ١٣٥٨)، وانظر مصنّف عبد الرزاق الصنعاني (٢١٨/٥، الأحاديث رقم ٩٤٢٨، ٩٤٢٩، ٩٤٣١).

العدة لشن هجوم عليهم ـ مثلاً ـ وفي هذه الحال لهم الحق أن يبادروهم بالضربة التي تقضي على قوتهم إما بدون إنذار إذا علموا ـ أي المسلمون ـ إن الكفار مصرون على قتالهم، وإما بإنذارهم ونبذ العهد إليهم إذا ظهرت لهم علامات تدل على عزم الكفار على قتالهم، كما قال تعالى: ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾[1].

وعندئذ يكون المسلمون قد نقضوا عهدهم شرعاً، وقد يقع نقض العهد من بعض المجاهدين المسلمين، إما خطأ، وإما عمداً لسببٍ من الأسباب، والأصل عدم جواز ذلك، فيكون نقض العهد هذا نقضاً لعهد المسلمين أنفسهم وليس نقضاً لعهد الله ورسوله[2].

وكذلك حكم الله ورسوله، فإن المسلمين قد يصيبون حكم الله ورسوله فعلاً، وقد لا يصيبون ذلك، والمجتهد قد يصيب وقد يخطىء وللمصيب أجران وللمخطىء أجر واحد كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث عمرو بن العاص: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[3].

وما دام المسلم معرضاً للخطأ في حكم الله، فليس له أن ينزل أعداءه على حكم الله.

ولقد سنَّ رسول الله ﷺ لأمته سنة الحيطة والحذر من الوقوع في الخطأ أو الحكم في شيء قد يكون ـ في واقع الأمر صواباً، وقد يكون خطأ ـ ثم نسبته إلى الله سبحانه وتعالى، فنبه المتخاصمين على أنه ﷺ يحكم بالظاهر له من الأمر، وقد يكون الواقع مخالفاً لذلك الظاهر لعدم علمه ﷺ به، وإذا كان الأمر كذلك فإن حكمه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، وعلى من غش وخادع أن يتحمل الإثم كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه سمع

---

(١) الأنفال: ٥٦ ـ ٥٨. (٢) انظر نيل الأوطار (٧/٢٦٣).

(٣) البخاري رقم ٧٣٥٢ فتح الباري (١٣/٣١٨) ومسلم (٣/١٣٤٢).

خصومة بباب حجرته خرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وأنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو فليتركها»[١].

وإن أعداء الله ليحاولون أن يجدوا أي عيب في تصرف المسلمين فينسبوه إلى الإسلام نفسه، لذلك يجب الاحتياط وعدم إنزال الكفار المحاربين على ذمة الله وذمة رسوله أو على حكم الله وحكم رسوله ﷺ.

وقد طبق ﷺ ذلك في حياته فأنزل بني قريظة على حكم سعد ابن معاذ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد، وهو ابن معاذ بعث رسول الله ﷺ، وكان قريباً منه، فجاء على حمار، فلما دنا قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ، فقال له: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: «فإني أحكم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية»، قال: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك»[٢].

وقد أخذ بعض الحنفية بظاهر الأحاديث الواردة في النهي عن إنزال الكفار على حكم الله ورسوله، وعليه محمد بن الحسن وقوفاً عند النص.

وأجاز بعضهم إنزال الكفار على حكم الله ورسوله، وعليه أبو يوسف وحملوا هذا النهي على أنه كان في وقت نزول الوحي، والأحكام تتغير ساعة فساعة، فقد ينزل حكم ينسخ الحكم الذي أنزلوهم عليه ولو كان منصوصاً عليه، أما بعد استقرار الحكم بانتهاء الوحي وإكمال الدين فلا مانع من ذلك.

وحكم الله في هذه المسألة هو: دعاؤهم إلى الإسلام، فإن أجابوا خلى سبيلهم وإن أبوا دعوا إلى التزام الجزية، فإن أبوا قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم، وعلى هذا الرأي الحنابلة أيضاً[٣].

(١) البخاري رقم ٢٤٥٨، فتح الباري (٥/١٠٧)، ومسلم (٣/١٣٣٧).
(٢) البخاري رقم ٣٠٤٣، فتح الباري (٦/١٦٥)، ومسلم (٣/١٣٨٨).
(٣) انظر المبسوط (١٠/٧) وبدائع الصنائع (٩/٤٣٢١ فما بعدها). ومطالب أولي النهي في شرح غاية المنتهى (٢/٥٢٩).

وهو مذهب قوي فيما يتعلق بالحكم، فيما فيه نص واضح لا مجال فيه للاجتهاد والخطأ والصواب أما الأمور التي قد يبدو فيها مجال للاجتهاد والحكم فيها يحتمل أن يكون صواباً وأن يكون خطأ فالنهي فيها قائم، وكذلك ذمة الله ورسوله فإنها باقية على الحظر والله أعلم.

دعوة من أسلم من المحاربين إلى الهجرة إلى بلاد الإسلام

خلق الله الإنسان ليعبد الله تعالى في الأرض، وجعل الأرض واسعة وقسم فيها الأرزاق، فإذا ضويق أحد بسبب عبادة الله في بلد فإن عليه أن يهجر هذا البلد ويتحول منه إلى بلد آخر ينجو فيه من المضايقة والصد عن دين الله (وسيأتي الكلام على الهجرة بالتفصيل إن شاء الله في فصل أنواع الجهاد).

والمقصود هنا بيان أن من آداب الجهاد أن يدعو المجاهدون من أسلم من المحاربين إلى ترك بلاد الحرب والتحول إلى بلاد الإسلام ليؤدي شعائر دينه في أمان، وليزداد علماً بدينه من إخوانه المسلمين، ويكثر سوادهم بالجهاد في صفهم.

وقد كان رسول الله ﷺ يوصي بذلك أمراءه عندما يبعثهم للجهاد في سبيل الله، كما في حديث بريدة عن أبيه: «فإن أجابوك ـ أي إلى الإسلام ـ فاقبل منهم وكف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم إنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين»[1].

هذا إذا بقيت البلاد بلاد حرب، أما إذا أصبحت دار إسلام كلها فإن الهجرة حينئذ غير واجبة، وعلى ذلك يحمل قوله ﷺ: «لا هجـرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[2] أي «لا هجرة بعد الفتح من بلد فتح»[3].

(١) صحيح مسلم (٣/١٣٥٦) رقم الحديث (١٧٣١).
(٢) البخاري رقم ١٨٣٤، فتح الباري (٤/٤٦) ومسلم (٢/٩٨٦).
(٣) المغني لابن قدامة (٩/٢٩٤).

الرفق بالأسير، والمن عليه إذا رأى الإمام في ذلك مصلحة

عندما يواجه المسلم الكافر في المعركة يجب عليه أن لا تأخذه فيه رأفة بل عليه أن ينزل به العذاب الذي أمره الله به والذل ليتحقق عليه ـ أي على عدو الله الكافر ـ النصر لعباد الله المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قاتلوهم يُعَذِبْهم الله بأيديكم، ويُخْزِهم ويَنْصُرْكم عليهم، ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين﴾[١].

وقال: ﴿فاضربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كل بَنان﴾[٢]. سواء كان الخطاب للملائكة أو للمؤمنين[٣]، وقال تعالى: ﴿فإذا لقيتُم الذين كفروا فَضَرْبَ الرِّقاب﴾[٤].

فإذا وقع هذا العدو في يد المسلمين أسيراً، فإن الأمر حينئذ يختلف عما كان عليه الحال وقت المعركة:

فقد يكون الأسير يستحق الرفق به والمن عليه، وإطلاق سراحه، وتكون المصلحة في ذلك، والإمام الحريص على المصلحة، المجتهد في ذلك بدون شهوة واتباع هوى أولى بأن يقدر ذلك وينفذه[٥] بعد أن يتشاور مع جنده كما فعل الرسول ﷺ مع هوازن[٦] إذا كان السبي كثيراً أو المسلمون قد حازوا حظوظهم منه أو جمعوه ليقتسموه.

وقد يكون الأسير واحداً ويظهر للإمام عليه بوادر الخير فيبدو له أن يطلق سراحه بدون فداء فله ذلك.

ولقد تجلَّى رِفْق رسول الله ﷺ وحسن معاملته للأسير ثم المن عليه لما رأى فيه من بوادر الخير، لقد تجلى ذلك في قصة ثُمامة ابن أُثال، وهي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَل نَجْد، فجاءت برجل من بني حَنِيفة يقال له: ثُمامة بن أُثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: «ما عندك يا ثمامة» فقال: عندي خير يا محمد إن تقتلني

---

(١) التوبة: ١٤.
(٢) الأنفال: ١٢.
(٣) راجع تفسير ابن جرير (٩/١٩٧).
(٤) محمد: ٤.
(٥) المغني (٩/٢٢٢).
(٦) البخاري رقم ٤٣٢١، فتح الباري (٧/٣٤).

تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، حتى كان الغد، ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة» قال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة»، فقال عندي ما قلت لك، فقال: «اطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى، فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة، قال له قائل: صبوت قال: لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن بها النبي ﷺ[1].

لقد وضع الرسول ﷺ في المسجد أسيراً ليرى بعينه ويسمع بأذنه محاسن دين الإسلام في نبي الإسلام وحملته الأولين أصحاب الرسول ﷺ، وكان مسجده ﷺ مثابة للمصلين والمتعلمين، والمؤتمرين والمتشاورين في أمور الإسلام العامة، ومقراً للوفود الذين يقدمون على رسول الله ﷺ لتعلم الدين الإسلامي أو تلقي الأوامر القرآنية والنبوية لتبليغها إلى الآخرين، كما كان ملجأ للضعفاء والمساكين والطارقين، ومنطلقاً لأولياء الله المجاهدين الذين يعقد لهم الرسول ﷺ الألوية يبعثهم لجهاد أعداء الله من المشركين.

وكان ثمامة يشاهد كل ذلك: فيرى أصحاب رسول الله ﷺ حين يصطفون للصلاة، كأنهم بنيان مرصوص، كما يراهم وهم يتكاتفون ويتعاونون ويتآخون فيما بينهم ويؤثر بعضهم بعضاً ويتأمل في سرعة تنفيذهم أمر الله وأمر رسوله والطاعة الكاملة التي لا خيرة لهم فيها. فيلبون الأذان للصلاة كما يلبون النفير إلى الجهاد.

ويسمع كتاب الله وهو يتلى ويفسر بتلك المعاني الربَّانية في كل جانب من جوانب الحياة.

(١) البخاري رقم ٤٣٧٢، فتح الباري (٨/٨٧) ومسلم (٣/١٣٨٦).

ثم فوق ذلك يرى رسول الله ﷺ القدوة الحسنة الذي يسبق أصحابه إلى تنفيذ ما يأمرهم به ويبتعد كل البعد عما ينهاهم عنه ويشاهده وهو رسول الله ينزل عليه جبريل صباح مساء، وهو يتفقد عدوه الكافر المأسور فضلاً عن أصحابه المؤمنين ويسأله عما عنده كل يوم ويسمع منه، ثم في آخر الأمر يطلق سراحه، فيؤثر كل ذلك في نفسه فما يكون بينه وبين الدخول في الإسلام فعلاً إلا أن يغتسل ثم يعود فيبوح بكل المعاني التي كانت تجيش في نفسه وهو مربوط إلى سارية المسجد فيخبر بها رسول الله ﷺ ويختلف عنده المقياس لما يُحبُّ ويكره فيصبح أبغض الناس إليه أحبهم إليه وأبغض الأرض إليه أحبها إليه وهكذا الإسلام يحول الولاء في لحظة من الولاء للقبيلة أو الأرض أو الجنس أو غير ذلك إلى الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين وإن الكلمات التي صدرت من ثمامة وهو مربوط مثل قوله: (عندي خير) جواباً على قول الرسول ﷺ له: «ما عندك يا ثمامة»، وقوله: «وإن تنعم تنعم على شاكر» إن تلك الكلمات لتبشر بالخير الذي كان في قلبه، وكأن رسول الله ﷺ لحظ فيها معنى قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾[(١)].

وقد يرى الإمام أن المصلحة تقتضي أخذ الفداء على الأسير، وإن ادعى الإسلام بعد الأسر، بأن يفدي به أسيرين مسلمين، وهو إذا كان صادقاً في إسلامه سيجعل الله له مخرجاً وسيعود إلى المسلمين ولكنه مع ذلك يظهر العطف عليه ويتفقده ويعطيه حاجته من الطعام والشراب وغير ذلك، كما ثبت ذلك عن الرسول ﷺ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: (كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، قال: يا محمد فأتاه، فقال: «ما شأنك»، فقال بم أخذتني، وبم أخذت سابقة الحاج[(٢)] فقال: «إعظاماً لذلك» ـ: «أخذتك

---

(١) الأنفال: ٧٠.

(٢) أراد بسابقة الحاج الناقة التي أخذها الصحابة معه «وهي ناقة نجيبة كانت لرجل من بني عقيل ثم انتقلت إلى رسول الله ﷺ تسمى العضباء، راجع حاشية محمد فؤاد عبدالباقي على صحيح مسلم» (١٢٦٢/٣).

بجريرة حلفائك ثقيف»، ثم انصرف عنه، فناداه يا محمد يا محمد، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً، فرجع إليه فقال: «ما شأنك» قال: إني مسلم، قال: «لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح، ثم انصرف»، فناداه فقال: يا محمد فأتاه فقال: «ما شأنك» قال إني جائع فأطعمني، وظمآن فأسقني، قال: «هذه حاجتك، ففدي بالرجلين»[1].

وفي هذا الحديث فوائد: الفائدة الأولى: رحمة الرسول ﷺ ورفقه كما هو ظاهر، وقد أشار إلى ذلك الصحابي، عندما قال: وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً.

الفائدة الثانية: حرصه ﷺ على تفقد أحوال من تحت يده ولو كان عدوه واعطاؤه حاجته.

الفائدة الثالثة: حلمه وصبره وقد ناداه الأسير عدة مرات باسمه يا محمد دون صفته يا رسول الله وهو يجيبه في كل مرة ويأتيه ويقول له: ما شأنك؟

الفائدة الرابعة: إن الرجل لو أسلم قبل الأسر لما كان عليه من سبيل وأفلح كل الفلاح، الفلاح عند الله تعالى بإسلامه طائعاً مختاراً، والفلاح من الأسر الذي حصل له بسبب أنه لم يسلم قبل ذلك.

الفائدة الخامسة: أنه إذا تعارضت مصلحتان قدم أعلاهما فالرجل ادعى الإسلام وهو في الأسر وقبيلته قد أسرت رجلين صحابيين مجاهدين قد ثبتا على الإسلام وجاهدا لإعلائه ففضل الرسول ﷺ أن يفتديهما به وهو إذا كان صادقاً في إسلامه سيلحق بالرسول ﷺ.

هذا مع العلم أنه كان من حق الرسول ﷺ أن يبقيه رقيقاً وإن أسلم بعد الأسر، لأن الإسلام لا يذهب الرق كما هو معلوم وإن كان يحث عليه ويفتح أبوابه على مصراعيها وفداء صحابيين حرين فيهما تلك الصفات، وهما ممن يخشى عليهما من غدر المشركين بهما، وهو لا يخشى عليه ذلك أمر لا بد منه.

وقد يرى الإمام أن المصلحة في تطهير الأرض من الأسير لخبثه وشره الذي

(١) صحيح مسلم (١٢٦٢/٣) رقم الحديث (١٦٤١).

يظهر أنه من طبعه، فله أن يقتله ويريح البشرية منه كما فعل ﷺ ببني قريظة الذين حكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بقتل المقاتلة وسبي الذرية، وكان ذلك هو حكم الله الذي وفق له سعد رضي الله عنه، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد بـن معاذ، بعث رسول الله ﷺ، وكان قريباً منه، فجاء على حمار، فلما دنا قال رسول الله ﷺ. قوموا إلى سيدكم فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ، فقال له: (إن هؤلاء نزلوا على حكمك) قال: «فإني أحكم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية» قال: (لقد حكم فيهم بحكم الملك)، وفي رواية عائشة رضي الله عنها أنه قال: (فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم)[١].

ولقد أثبت واقع اليهود في تاريخهم الطويل، قبل الإسلام وبعده إلى هذه الساعة، أن خير علاج ناجح لوقاية البشرية من شرهم وفسادهم وكيدهم هو هذا الحكم، عندما يكونون جماعة متكتلة منظمة أما عندما يكونون أفراداً مشتتين في الأرض أذلاء لا تجمعهم رابطة متمكنين في الأرض للإفساد فيها، فيمكن أن تكون معاملتهم مختلفة عن هذا.

وإن أي أمة تتساهل في أمر اليهود حتى يتمكنوا من جمع كلمتهم وتنظيم أنفسهم في أرضها لهي ـ في تساهلها ذلك ـ تضع نهاية لوجودها، وهي لا تخلو من أحد أمرين.

فإما أن تكون متواطئة مع اليهود للقضاء على كيانها وإما أن تكون مغلوباً على أمرها، والأمر الثاني أخف لأن الأمة المغلوبة على أمرها، يمكنها في يوم من الأيام أن تثب على جرثومة الفساد فتبيدها وإن طال الزمان وأما الأمر الأول، فهو الخطر الذي يصعب محوه إلا إذا جاء جيل آخر فصب لعائن الله على أسلافه الذين أوقعوه في شباك هذا السرطان ثم صمم على استئصاله فاستأصله.

وقد أجاد الخرقى في مختصره إذ جمع هذه المعاني كلها بالنسبة للأسير

(١) انظر ص ٢٤٨. من هذا المبحث وانظر المغني لابن قدامة (٢٢١/٩).

فقال: (وإذا سبى الإمام، فهو مخير إن رأى قتلهم، وإن رأى منَّ عليهم وأطلقهم بلا عوض، وإن رأى أطلقهم على مال يأخذ منهم وإن رأى فادى بهم، وإن رأى استرقهم، أيُّ ذلك رأى فيه نكاية للعدو وحظاً للمسلمين فعل)(١).

إلا أن النساء والذرية الذين لم يبلغوا لا يجوز قتلهم والأدلة على ذلك كثيرة، ومنها حديث أبي سعيد الخدري، وحديث عائشة اللذان مر ذكرهما قريباً في قصة بني قريظة وفيهما: (وأن تسبى النساء والذرية)(٢). وهل يجوز لغير الإمام قتل الأسير؟

الراجح عدم جواز ذلك إلا لضرورة، كأن يستعصي الأسير ولم يقدر على أخذه بدون قتله، أو أنه قد أثخن بالجراحة فلا يقدر على السير ولم يقدر المسلمون على حمله أو أنه قد بالغ في إيذاء أهل الإسلام ويكون في قتله زجر لأمثاله(٣).

الفرع الثالث
آداب الجهاد بعد انتهاء المعركة

إظهار التجلد للعدو، ولو أحرز انتصاراً على المجاهدين المسلمين.

المسلم عزيز على عدوه الكافر في كل وقت من الأوقات، حتى ولو بدا ذلك العدو منتصراً في بعض الأحيان، فإن عاقبته الذلة والمهانة، لأنه من أولياء الطاغوت والمسلم من أولياء الله، والله عز وجل يقول: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطَّاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إنَّ كَيْدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾(٤).

والكافر يألم كما يألم المؤمن، ولكن ألم المؤمن يخف، لأنه يرجو من ربه النصر في الدنيا والثواب في الآخرة، ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن يظهر الضعف لعدوه، بل عليه أن يتجلد ويريه من نفسه القوة: ﴿ولا تَهنوا في ابتغاء القوم، إن

(١) المغني لابن قدامة (٩/ ٢٢٠) وانظر المبسوط (١٠/ ٦٣).
(٢) المغني (٩/ ٢٢١).
(٣) انظر المغني (٩/ ٢٢٥).
(٤) النساء: ٧٦.

تكونوا تألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً﴾(١).

وقد سبق الحديث المتفق عليه أن المشركين لما قدم الرسول ﷺ وأصحابه إلى مكة لعمرة القضاء، قالوا: أنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم(٢).

فقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يظهروا للمشركين أنهم أقوياء بالإسراع في الطواف في الأشواط الثلاثة التي كانوا يرونهم فيها، وفي الشوط الرابع الذي لا يرونهم فيه راعى ضعفهم فلم يكلفهم الإسراع فيه، كل ذلك من أجل أن يرى المشركون من جند الله قوة وجلداً.

ولقد نهى الله عباده المؤمنين عن الاستسلام وإظهار الضعف والحزن وذكرهم بأنهم الأعلون على عدوهم حتى في حال نيله منهم وانتصاره عليهم، كما قال تعالى: ﴿ولا تَهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين﴾(٣).

قال ابن جرير رحمه الله: (وهذا من الله تعالى ذكره تعزية لأصحاب رسول الله ﷺ ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد، قال ولا تهنوا ولا تحزنوا يا أصحاب محمد، يعني ولا تضعفوا بالذي نالكم من عدوكم بأحد من القتل والقروح عن جهاد عدوكم وحربهم... ولا تحزنوا ولا تأسوا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ، فإنكم أنتم الأعلون، يعني الظاهرون عليهم، ولكم العقبى في الظفر والنصرة عليهم إن كنتم مؤمنين)(٤).

ويذكر الله المؤمنين بأن ما أصابهم يوم أحد قد أصاب أعداءهم يوم بدر، وأصابهم شيء منه كذلك يوم أحد، وأن أيام الله التي يلتقي فيها أولياؤه وأعداؤه دول بين المسلمين وبين المشركين، إذا أخذ المسلمون بأسباب النصر أدالهم على عدوهم كما حصل يوم بدر وإذا فرطوا فيها أدال عليهم أعداءه كما

---

(١) النساء: ١٠٤.
(٢) انظر راجع ماسبق في ص ٢٢٦، ٢٢٧.
(٣) آل عمران: ١٣٩.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٢/٤).

حصل يوم أحد ليميز الله صادق الإيمان من غيره، وليختار من المؤمنين ـ الذين انتهت آجالهم شهداء تكريماً لهم، كما قال تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾(١).

ويصغي جند الله لهذه الآيات التي تثير فيهم عزة الإيمان، فينسون ما أصابهم من قتل وجراح، ويدعوهم الرسول ﷺ والدماء تسيل من أجسادهم لملاحقة المشركين بعد انتهاء معركة أحد فيستجيبون له ويخرجون في أثر العدو حتى بلغوا حمراء الأسد، ليرى الناس أن به ﷺ وبأصحابه قوة: ﴿الـذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾(٢).

ويوحي شياطين الجن إلى شياطين الأنس أن يبثوا إشاعات كاذبة في صفوف المؤمنين لتخويفهم من أعداء الله، فيأتيهم من يقول لهم: إن المشركين قد جمعوا لكم جموعاً لا طاقة لكم بها فيثبتهم الله ويزدادون إيماناً على إيمانهم فلا يخافون إلا الله، بل يعتمدون عليه ويتوكلون عليه وحده:

﴿الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشَوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حَسْبنا الله ونعم الوكيل﴾(٣).

قال ابن جرير رحمه الله: (والناس الأوَّل، هم قوم فيما ذكر لنا كان أبو سفيان سألهم أن يثبطوا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا في طلبه بعد منصرفه عن أحد إلى حمراء الأسد، والناس الثاني هم أبو سفيان وأصحابه من قريش الذين كانوا معه بأحد..)(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي

(١) آل عمران: ١٤٠، وانظر «جامع البيان عن آي القرآن (١٠٣/٤) وكذا الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢١٦/٤ ـ ٢١٧).
(٢) آل عمران: ١٧٢، وانظر: جامع البيان عن آي القرآن (١٧٦/٤).
(٣) آل عمران: ١٧٣.
(٤) جامع البيان (١٧٨/٤).

كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «من يذهب في أثرهم»، فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال كان فيهم أبو بكر والزبير[(١)].

وبعد: فقد رأيتَ من هذه النصوص من الكتاب والسنة أن المؤمنين مهما أصابهم من البلاء، ومهما بدا أن عدوهم انتصر عليهم، حتى لو أصاب نبيهم بالجروح وقتل عمه حمزة وغيره من صناديد الصحابة فإنهم هم الأعلون لا يضعفون ولا يستكينون، بل يظهرون لعدوهم القوة من أنفسهم بمطاردته وإظهاره بمظهر المنهزم في النهاية فأين المنتسبون إلى الإسلام في هذا العصر من هذه المعاني العالية التي سطرها الرسول ﷺ وأصحابه، وفيهم أسوة حسنة؟ إن المنتسبين إلى الإسلام اليوم ليروع قادتُهم شعوبهم ويدخلون عليهم الرعب من قوة أعداء الله ويدعونهم إلى الإستسلام للكافرين ويركع أولئك القادة لأولئك الأعداء ويذلون لهم ناسين هذه المعاني الرفيعة وتلك الصفات الحميدة في الأجداد الأوائل الذين لا يزالون يعيشون على فتَات مائدة جهادهم وتضحياتهم فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الإقامة في أرض المعركة ثلاثة أيام بعد الانتصار على الأعداء

قد ينتصر في أول المعركة أحد الخصمين، وقد يستمر له النصر إلى النهاية وقد لا يستمر بل قد يدال عليه خصمه، وليس النصر هو أن يصاب العدو بالقتل والجروح وأخذ الأموال والغنائم فقط، بل ذلك ومعه شعور ذلك العدو بالهزيمة الساحقة التي ييأس معها من العودة إلى المحاربة، وشعور الغالب بأنه الأعلى الذي أصبح مسيطراً وبيده زمام أمر المعركة السابقة واللاحقة.

ومن علامة الشعور بالهزيمة الساحقة أن يولي العدو هارباً لا يدري ما خلفه، بل لا يهمه إلا أن ينجو بنفسه، وهذا ما حصل في معركة بدر بالنسبة للمشركين فإنهم ولوا فارين مدبرين لا يلوون على شيء.

---

(١) صحيح البخاري رقم الحديث ٤٠٧٧، فتح الباري (٣٧٣/٧).

لا بل إن المشركين في أحد، وكانت الغلبة في ظاهرها لهم على المسلمين ولكنهم لم يحافظوا على ذلك الغلب وذلك الانتصار عندما ولوا مدبرين والرسول ﷺ وأصحابه الذين تسيل أجسادهم دماً من جروح المعركة يتابعونهم، فكان ذلك ضرباً من الهزيمة بخلاف المسلمين فإنهم انهزموا في المعركة فكان منهم سبعون قتيلاً وجرح الكثير منهم حتى نبيهم ﷺ ومع ذلك أخذوا زمام مبادرة النصر بمتابعة المشركين وهم على تلك الحال وفر المشركون عندما علموا بخروجهم إلى حمراء الأسد وقد مضى قريباً في المبحث السابق.

ولكن الرسول ﷺ وأصحابه حافظوا على انتصارهم في غزوة بدر فأقام ﷺ بها ثلاثاً، وكانت تلك عادته إذا غلب عدوه أقام بمكان المعركة ثلاثاً.

كما في حديث أبي طلحة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طُوى من أطواء بدر، خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم، أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها...[١] الحديث.

قال الحافظ في الفتح: (وقال ابن الجوزي: إنما كان يقيم ليظهر تأثير الغلبة، وتنفيذ الأحكام، وقلة الأحتفال، فكأنه يقول: من كانت فيه قوة منكم فليرجع إلينا)[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: (ثم أقام رسول الله ﷺ بعرصتهم ثلاثاً، وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً، ثم ارتحل مؤيداً منصوراً قرير العين بنصر الله له...)[٣].

مواصلة التدريب القتالي وعدم القعود عنه

الجهاد في سبيل الله باق ما بقي في الأرض مسلم وكافر، فإذا أعد المسلمون العدة لمعركة مع عدو وانتصروا عليه، فعليهم أن يواصلوا الإعداد

(١) البخاري رقم ٣٩٧٦، فتح الباري (٧/٣٠٠) ومسلم (٤/٢٢٠٣).
(٢) فتح الباري (٦/١٨١).
(٣) زاد المعاد في هدى خير العباد (٢/١٠٠) وراجع البداية والنهاية لابن كثير (٣/٣٠٣).

لمعركة أخرى مع عدو آخر ـ وسيأتي الكلام على إعداد العدة في فصل أنواع الجهاد إن شاء الله ـ والمقصود هنا التنبيه على أنه لا يجوز للمسلمين أن يكسلوا عن التدريب والتمرين على أساليب القتال وأنواع السلاح ركوناً إلى معركة انتصروا فيها.

وقد ظن بعض المسلمين بعد أن حققوا انتصاراً على الكافرين أن أمر القتال انتهى، وأنه لا حاجة بعد ذلك إلى اقتناء السلاح وإعداد العدة، بل جاء وقت الراحة والرخاء ـ هذا الظن كان بعد تحقيق النصر على العدو، فكيف حال من يزعم ذلك وهو مهزوم والعدو منتصر عليه ـ فكذب الرسول ﷺ هذا الظن، وأمر بالإستمرار في إعداد العدة والتدريب كما في حديث سلمة بن نفيل الكندي رضي الله عنه: قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله، أذال الناس الخيل ـ أي أهانوها واحتقروها ولم يعنوا بها كما كانوا من قبل يهتمون بها استعداداً للحرب ـ ووضعوا السلاح، قالوا لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال: «كذبوا، الآن جاء القتال ولا تزال في أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى يأتي وعد الله، الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وهو يوحي إلى أني مقبوض غير ملبث، وأنتم تتبعوني، ألا فلا يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين الشام»[١].

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى»[٢].

دفن قتلى المسلمين في مصارعهم

والسنة أن يدفن قتلى المسلمين في مصارعهم ـ أي في مكان المعركة ـ ولا ينقلوا إلى المقبرة المعتادة، ولو كانت قريبة.

---

(١) النسائي في كتاب الخيل (١٧٨/٦ مطبعة الحلبي)، وهو في جامع الأصول (٥٧٠/٢ رقم ١٠٤٩) قال المحشي: وإسناده صحيح.

(٢) صحيح مسلم (١٥٢٣/٣ رقم الحديث ١٩١٩).

وقد ظن نساء الصحابة اللاتي قمن بالخدمة ـ من سقي وتمريض وغيرهما ـ في معركة أحد أن نقل الموتى إلى المقبرة ـ اعتباراً بالأصل ـ سنة فنقلن بعض الموتى، مع الجرحى، إلى المدينة، كما ثبت في صحيح البخاري عن الربيع بنت معوذ رضي الله عنها، قالت: كنا نغزو مع النبي ﷺ، فنسقي القوم، ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة[١].

فلما علم النبي ﷺ أمرهم أن يردوا القتلى إلى مصارعهم، كما في حديث جابر قال: أمر رسول الله ﷺ بقتلى أحد أن يردوا إلى مصارعهم، وكانوا نقلوا إلى المدينة[٢].

ولعل من حكم أمره ﷺ بردهم إلى مضاجعهم كون ذلك عبرة للمسلمين الذين يجيئون بعدهم، ويزورون ساحة المعركة فيتذكرون أعلام الجهاد في سبيل الله الذين حملوا على أكتافهم دعوة الإسلام، وضحوا في سبيل الله تعالى من أجل رفع رايتها وهداية الناس لها بكل ما يملكون حتى نفوسهم ورووا بدمائهم تلك الأرض التي ما زالت شاهد صدق على البذل والتضحية.

وكذلك عندما يقف المسلم متأملاً أحداث الغزوة ومواقع حزب الله المجاهدين، وحزب الشيطان المحاربين يأخذ في الدعاء لهؤلاء الذين اختارهم الله شهداء عنده.

وكذلك إرشاد للمسلم بأن يدفن في أي أرض يموت ولا داعي لنقله من مكان إلى آخر فالأرض كلها أرض الله: ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾[٣] وإذا كانت الأرض تشهد لأهل الطاعة بطاعتهم، وعلى أهل المعاصي بعصيانهم فإن خير عمل يقدمه المؤمن ـ بعد الإيمان بالله ـ الموت في سبيله ومضجعه الذي فاضت روحه فيه، وهو يجاهد في سبيل الله أولى به من غيره من بقاع الأرض،

---

(١) صحيح البخاري (رقم الحديث ٢٨٨٣)، فتح الباري (٢/ ٨٠).
(٢) المصنف رقم ٩٦٠٤ (٥/٢٧٨)، أبو داود (٣/٥١٤ رقم ٣١٦٥)، النسائي (٤/٦٥) الترمذي (٥/ ٢٧٩) رقم (١٧٧١)، وانظر نيل الأوطار (٤/ ٢٧) وكذا بدائع الصنائع (٢/ ٨٠٨)، والكافي في الفقه الحنبلي (١/ ٣٥٦).
(٣) لقمان: ٣٤.

كما أن مرقده في ذلك الجزء الذي بلله دمه خير له من بقعة أخرى، وفي تفسير ابن كثير:

عن أبي هريرة، قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾[1]، قال: (أتدون ما أخبارها)، قالوا: الله ورسوله أعلم قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها». ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب[2]. إ هـ .

أما حكم نقل الميت من مكان موته إلى مكان آخر فالذي يظهر في الشهيد عدم جواز نقله من مضجعه إلا لضرورة، كان يقتل وهو في البحر، ولا توجد جزيرة قريبة يمكن دفنه فيها أو لا يتمكن المسلمون المجاهدون من دفنه في مكانه لتغلب الأعداء الكافرين عليه، ونحو ذلك، لأن أمر الرسول ﷺ بردهم إلى مضاجعهم وقد نقلوا إلى المدينة ظاهر في الوجوب فالنقل غير جائز.

وفي تحفة الأحوذي: (والظاهر أن نهي النقل مختص بالشهداء، لأنه نقل ابن أبي وقاص من قصره إلى المدينة بحضور جماعة من الصحابة، ولم ينكروا)[3] وقال الحافظ في فتح الباري[4]: (واختلف في جواز نقل الميت من بلد إلى بلد).

فقيل يكره. لما فيه من تأخير دفنه وتعريضه لهتك حرمته.

وقيل يستحب، والأولى تنزيل ذلك على حالتين: فالمنع حيث لم يكن هناك غرض راجح، كالدفن في البقاع الفاضلة، وتختلف الكراهة في ذلك فقد تبلغ التحريم، والاستحباب حيث يكون ذلك بقرب مكان فاضل كما نص الشافعي على استحباب نقل الميت إلى الأرض الفاضلة، لملة وغيرها والله أعلم. إ هـ .

ولكن ما جرى عليه الرسول ﷺ وأصحابه دفن الميت في مكان موته ـ في الأغلب ـ فالأولى عدم النقل.

---

(١) الزلزلة: ٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٣٩).
(٣) تحفة الأحوذي، بشرح جامع الترمذي (٥/٣٨٠).
(٤) (٣/٣٠٧).

التبشير بالنصر والفتح

الطائفة من الناس التي تشترك في بعض الأمور، كالعقيدة ـ أي عقيدة ـ أو التجارة، أو الأرض، يسر أفرادها إذا انتصروا على عدو لهم ينافسهم في شيء أو يحاول القضاء عليهم، ويحزنون إذا انهزموا وانتصر عدوهم.

وإذا أفرز جيش منهم لمحاربة ذلك العدو، فإنهم يتطلعون لأخباره ويتابعونها، ويودون أن تأتيهم تباعاً وأولاً بأول، لما في نتائج ذلك من السرور أو الحزن، والبقاء أو الفناء.

بل إنهم ليودون أن ينتصر من هو أقرب إليهم في العقيدة أو الفكر أو غير ذلك على من هو أبعد، ويتطلعون لاخباره كما يتطلعون لاخبار جيشهم.

وكان هذا واضحاً في أول الإسلام بمكة عندما انتصرت فارس، وهم وثنيون على الروم، وهم أهل كتاب، ففرح المشركون بذلك، وأخذوا يفتخرون به على المسلمين، لأن أهل فارس والمشركين من العرب أهل أوثان والروم أهل كتاب، كالمسلمين ـ في الجملة ـ، وكان المسلمون يحبون أن تنتصر الروم على فارس، لما في ذلك من الاغاظة للمشركين وإنذارهم بأن الغلبة ستكون للمسلمين عليهم من باب أولى، لأنهم أهل الكتاب الحق، فذكر أبو بكر رضي الله عنه ذلك للرسول ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أما إنهم سيهزمون، فذكر ذلك أبو بكر للمشركين.. فقالوا: أفنجعل بيننا وبينكم أجلاً، فإن غلبوا كان لك كذا، وإن غلبنا كان لنا كذا، فجعلوا بينهم وبينه أجلاً خمس سنين قال فمضت فلم يغلبوا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال له: أفلا جعلته دون العشر.. والبضع ما دون العشر.. فغلب الروم ثم غلبت، فذلك قوله: «ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله[1]...

فقد بشر الله المؤمنين بأمرين الأمر الأول: غلب الروم على فارس كما مضى، والأمر الثاني: نصر الله تعالى إياهم الذي سيفرحون به ولذلك قال

(١) الروم: ١ ـ ٥.

سفيان الثوري الذي روى القصة ـ بسنده إلى ابن عباس ـ بعد ذكر قوله تعالى: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال: فبلغني انهم غلبوا يوم بدر.

لذلك كان من السنة أن يبعث المنتصرون بشيراً يبشر المسلمين بالنصر.

وقد بوب البخاري في صحيحه لحديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه في قصة هدمه وثن خثعم ـ ذا الخلصة ـ فقال:

باب البشارة في الفتوح

وأورد الحديث عن جرير قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا تريحنى من ذي الخلصة؟ وكان بيتاً فيه خثعم، يسمى كعبة اليمانية فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس ـ إلى أن قال: ـ فأتاها، فحرقها بالنار وكسرها... ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يكنى أبا أرطاة إلى النبي ﷺ يبشره بذلك، فلما أتى النبي ﷺ قال يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب قال: فبرك النبي ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات[١].

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (وقد بعث عليه السلام ـ أي بعد بدر ـ بين يديه بشيرين إلى المدينة بالفتح والنصر والظفر على من أشرك بالله وجحده وبه كفر: أحدهما عبدالله بن رواحة إلى أعالي المدينة، والثاني زيد بن حارثة إلى السافلة... قال أسامة: فلما قدم أبي زيد بن حارثة جئته وهو واقف بالمصلى، وقد غشيه الناس، وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعه بن الأسود، وأبو البختري العاصي بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، قال قلت أبــة أحق هذا؟ قال: أي والله يا بُنَي[٢].

وكانت البشارة بما يسر من الأمور التي يسارع أصحاب رسول الله ﷺ بها، بل ويكافىء من بُشِّر بما يسره المُبَشِّر على بشارته وقد بوب البخاري رحمه الله لذلك فقال:

(١) الحديث رقم ٣٠٧٦، ٤٣٥٧، فتح الباري (٦/١٨٩، ٨/٧٠).
(٢) البداية والنهاية (٣/٣٠٣، ٣٠٤).

باب ما يعطى البشير، وأشار إلى قصة كعب بن مالك رحمه الله، فقال: (وأعطى كعب بن مالك ثوبين حين بشر بالتوبة) وقصة كعب في الصحيحين وفيها: (فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت على نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت،سمعت صوت صارخٍ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر قال: فخررت ساجداً، وعَرَفْتُ أن قد جاء فرج - إلى أن قال- : فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالبشارة من حيث هي، كما في الصحيحين عن أبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما: بعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن فقال: «يسرا ولا تعسرا وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا»[(٢)].

استقبال المجاهدين والترحيب بهم

ومن حق المجاهدين في سبيل الله على من بقى من المسلمين في البلد أن يستقبلوهم ويرحبوا بهم ويشعروهم بالاحترام والتقدير، لما نالوه من مشقة في سبيل الله تعالى وما جابهوا من الأتعاب والحروب والجوع والعطش ومفارقة المضاجع والظلال، ولكونهم أدوا الفرض وأسقطوه عن غيرهم، وهكذا كان السلف يعملون وعلى رأسهم أصحاب رسول الله ﷺ، وقد بوب لذلك البخاري رحمه الله فقال:

باب استقبال الغزاة

وأورد فيه حديثين: أحدهما حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال: (ذهبنا نتلقىٰ رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع)[(٢)].

وبينت رواية الترمذي لنفس الحديث أن ذلك كان عند قدومه من غزوة تبوك، وفيه توضيح أكثر للمتلقين (الناس) وهو يدل على كثرتهم وهذا نصه:

(١) البخاري رقم ٤٤١٨، فتح الباري (١١٣/٨) ومسلم (٢١٢٠/٤).
(٢) صحيح البخاري رقم ٣٠٨٣ فتح الباري (١٩١/٦).

(لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك خرج الناس يتلقونه إلى ثنية الوداع، قال السائب: فخرجت مع الناس وأنا غلام)[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وبعض الرواة يَهِمُ في هذا، ويقول: إنما كان عند مقدمه المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام...[٢].

هكذا كان السلف الصالح يعاملون المجاهدين في سبيل الله يودعونهم عند سفرهم داعين لهم بالنصر والشهادة، ويكرمونهم عند قدومهم بالاستقبال والترحيب، لأن المقياس عندهم هو سبيل الله.

وكانوا إذا فرت طائفة من الجيش الإسلامي وتركته ورجعت إلى المدينة بسبب ما رأت تلك الطائفة من كثرة العدو، وغلبة ضعفها البشري عن التحمل والثبات، كانوا يستقبلون تلك الطائفة بالتأنيب وحَثْو التراب عليهم، ويعيرونهم بقولهم لهم: يا فُرَّار فررتم في سبيل الله[٣].

فهل بقي هذا المقياس للتكريم أو التأنيب عند المسلمين؟

لقد انعكست الأمور وانقلبت الموازين واختلت المقاييس وأصبح الخونة الجبناء الذين يبيعون الدين والأرض والشعب للأعداء الكافرين هم موضع التكريم وإذا خضع أحدهم لعدو المسلمين فركع له واستسلم وتآمر على شعبه ودينه وأرضه ثم رجع إلى ذلك الشعب رأيت غوغاء الناس وهم يركضون

---

(١) الترمذي رقم الحديث ٢٧٧٢، تحفة الأحوذي (٥/٢٨١).
(٢) زاد المعاد (٣/١٢).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٨).
والبداية والنهاية لابن كثير (٤/٢٤٨).

لاستقبال الزعيم الخائن والتصفيق له كأنهم قطعان من الحيوان، يهتفون بحياته ويثنون على خطواته ويلقبونه بألقاب الفاتحين الأبطال، وقليل هم الذين يدركون الخيانة ويعرفون الخونة تراهم ينظرون إلى تلك الجموع الضائعة متعجبين مشفقين، يدعون لها بالهداية والانابة إلى الله.

وهؤلاء القليل مغلوبون على أمرهم لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العلي العظيم محاصرون من كل جانب لا يملكون أن يوصلوا إلى تلك الجموع الضائعة الخاسرة كلمة الحق عن طريق أقل وسيلة للإعلام وإذا تجرؤوا فقالوا كلمة حق بأي وسيلة اتهموا بالشذوذ والتآمر على مصالح الشعب والخروج عن الصف، وقيل فيهم ما قال أعداء الله من قبل في ذوي الصلاح والهدى والدعوة إلى الله بأنهم خارجون على النظام مفسدون يريدون القضاء على مكاسب الشعب التي حققها له القادة الأبطال: ﴿قالوا إنْ هذانِ لساحرانِ يُريدان أن يخرجاكَم من أرضِكم بسحرهما، ويذهبا بطريقتكم المُثْلى﴾[1].

وبمقدار ما تُسلط أجهزة الإعلام على أولئك الصالحين لتصفهم بكل أوصاف الذم حتى يظهروا أمام الجموع الضائعة بمظهر الشذاذ المفسدين الذين يجب نبذهم وعدم الإصغاء إلى آرائهم، بمقدار ذلك أو أكثر تكيل تلك الأجهزة المديح والثناء للأبطال المتآمرين حتى يصبحوا هم الملائكة الأبرار الذين لا يريدون إلا الحق ولا يسلكون إلا سبيل الهداية والرشاد، فيرتسم في أذهان الغوغاء أن هؤلاء الضالين المفسدين هم الهداة المهتدون، وأن أولئك المجاهدين ـ فعلاً ـ الأبرار هم أهل الغواية والضلال.

وقد سبق هؤلاء الذين يقلبون الحقائق فيظهرون الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، سبقهم إخوانهم الذين سجل التاريخ عليهم كل تصرفاتهم فلحقتهم لعائن الله في الأرض وتنتظرهم نقمته في الآخرة.

﴿وقال فرعون ذَروني أقتلْ موسى ولْيَدْعُ ربَّه، إني أخاف أن يبدِّلَ دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾[2].

---

(١) طه: ٦٣. (٢) غافر: ٢٦.

قال فرعون ﴿ما أُريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرَّشاد﴾[١].

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فقط، ولا يتعداه إلى التعذيب والإهانة والقتل والتشريد، وسيأتي مزيد بيان لهذا في الباب الثالث إن شاء الله عند الكلام على الابتلاء وأنواعه.

وممن ينالون التكريم والتعظيم أولئك العجول البشرية الذين لا يذكرون الله، بل ربما لو سألت الكثير منهم عن جهة القبلة ما دلك عليها لعدم اتجاهه إليها، أولئك هم نجوم الرياضة وأبطالها الذين أضحوا شغل الناس الشاغل قبل المباراة بالإعلانات عنها في جميع أجهزة الإعلام، وفي وقت المباراة بمراقبتها وتحمس كل طائفة لفريق منها، وبعد المباراة بالحديث عن البطولة والنصر، ورفع بيارق النصر والرقص في الشوارع والتصفيق وإزعاج الناس بأبواق السيارات وترديد علم المنتصر الذي يعرف به، ومما يؤسف له أن يطلق على تلك الفرق أسماء غزوات كانت غرة في جبين التاريخ حقق المسلمون فيها انتصارات رائعة على أعدائهم، والآن تطلق على فرق عمد إلى إلهائها باللعب وتلهية الناس بها حتى أصبحت مثل ثيران أسبانيا تتصارع ليتلهى بها الجمهور[٢].

وهكذا تجد التكريم والتعظيم للراقصات المومسات اللاتي تتألق أسماؤهن وأشباههن من الرجال ويلقبون بالألقاب الرفيعة: النجوم، الرواد العظماء، المبتكرون... وتفتح لهم أبواب الظهور حتى يصبحوا أئمة الشعوب وقادتها في تحطيم الأخلاق والمعنويات والقضاء على الرجولة والشرف، وهكذا.

والسبب في ذلك أن المقياس عند عامة الناس انقلب من سبيل الله إلى سبيل الشيطان، فكان السلف يكرم أهل سبيل الله لأنه المقياس عندهم، وأصبح المنتسبون إلى الإسلام الآن يكرمون أهل سبيل الشيطان لأنه المقياس عندهم.

---

(١) غافر: ٢٩.

(٢) راجع على سبيل المثال جريدة المدينة المنورة، عدد (٤٦٢٠) الصادرة بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٣٩٩ هـ وعدد (٤٢٥٨) بتاريخ ١١ رجب سنة ١٣٩٩ وعدد (٤٦١٥) بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٣٩٩ هـ.

إشعار قادة البلاد المفتوحة بالتكريم تأليفاً لقلوبهم

وينبغي أن يشعر المجاهدون في سبيل الله أهل البلاد التي يتغلبون عليها ويفتحونها بأنهم لم يفتحوا بلادهم ليذلوهم ويهينوهم، وإنما جاهدوهم لإعلاء كلمة الله تعالى وفي ذلك بركة وخير لهم، ومظهر ذلك تكريم بعض قادة البلاد بأي نوع من أنواع التكريم التي تجعلهم يطمئنون إلى الفاتحين ويألفونهم ويرحبون بهم، كما فعل الرسول ﷺ عندما دخل مكة، فإنه أشعر أهلها بأنه لم يأت للقضاء عليهم وتدمير بيوتهم، على رغم ما يعلمون مما عملوه معه ﷺ قبل الهجرة ومع أصحابه من الإيذاء والفتنة والتآمر، لذلك أمر ﷺ أن ينادي في القوم أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن[1].

وفي رواية: فقال أبو سفيان: أداري؟ فقال النبي ﷺ: «نعم»[2].

وفي أخرى، فقال له - أي للرسول ﷺ -: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فلو جعلت له شيئاً قال: «نعم»: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»[3].

وأنت ترى أن هذا الأمر الذي أعطاه ﷺ لا يختلف عن أي دار في مكة، لأن من دخل داره أو دار غيره وأغلق بابه مشيراً بذلك إلى عدم مقاومة الرسول ﷺ وأصحابه فهو آمن، ولكن ذكر أبي سفيان باسمه في ذلك الموقف طيب نفسه وجعله يتعجب ويستفهم: أداري، أداري؟ ثم إن الرسول ﷺ لم يعطه هذا الحق إلا بعد أن أسلم، كما في رواية أبي داود: (فأسلم بمر الظهران، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر...) إلخ....

ولما كان الرسول ﷺ قد عزم على قتل بعض المشركين وعدم تأمينهم

(١) مسلم (٣/١٤٨٠) رقم الحديث ١٧٨٠.
(٢) المصنف (٥/٣٧٦)، رقم الحديث (٩٧٣٩).
(٣) أبو داود (٣/٤١٦) رقم الحديث (٣٠٢١) وانظر المبسوط للسرخسي (١٠/٣٨).

والعفو عنهم، وخشي أن يدخلوا في لفظه العام: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...» استثناهم وأمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة وهم: عكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن خطل، ومقيس بن صبابة وعبدالله ابن أبي السرح، فأما عبدالله بن خطل، فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فقتل، وأما مقيس بن صبابة فأدركوه وهو في السوق فقتلوه أيضاً، وأما عكرمة فقد فر في سفينة في البحر، ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه، وأما عبدالله ابن أبي سرح فقد اختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا الرسول ﷺ الناس إلى البيعة جاء به إلى النبي ﷺ وطلب من النبي أن يبايعه وهو ينظر إليه ولم يبايعه ثلاث مرات، وفي الرابعة بايعه وهو غير راضٍ عنه ثم أقبل ﷺ على أصحابه فقال: «ما كان منكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله، قالوا ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»[١].

الفرع الرابع
بعض آداب الجهاد العامة

سبق الكلام على بعض آداب الجهاد قبل المعركة، وفي أثنائها، وبعدها وهذه بعض الآداب التي لا وقت لها، إذ يجوز أن تكون قبل الحرب، ويجوز أن تكون أثناءها، ويجوز أن تكون بعدها.

عدم قتل الرسل

الناس - كل الناس - مهما حصل بينهم من نزاع، أو حروب، لا بد أن يحتاج بعضهم للاتصال بالآخرين، للتفاوض معهم، أو عرض تنازل، لعدم قدرتهم على الاستمرار في المقاطعة أو الحرب أو غير ذلك.

---

(١) انظر مضمون هذه القصة في البخاري رقم (٤٢٨٦) فتح الباري (١٥/٨)، مسلم (٩٨٩/٢) رقم (١٣٥٧) وأبو داود (١٣٤/٣ رقم ٢٦٨٥) وجامع الأصول (٣٧٣/٨ وما بعدها رقم ٦١٤٨، ٦١٤٩) والمبسوط (٣٨/١٠ ، ٣٩).

والمسلمون أهل حق ودعوة إلى ذلك الحق، وهم حريصون على إيصال ذلك الحق إلى الناس كلهم بالوسائل السلمية، ولا يلجأون إلى القتال إلا مضطرين عندما يقف أعداء دعوتهم في طريقها لصد الناس عنها والحؤول بين الدعاة إلى الله وبين الناس، أو عندما لا ينصاعون لحكم الله تعالى بأن يدخلوا في دين الله، أو يؤدوا الجزية وهم صاغرون، هنالك يكون آخر الدواء الكي، إذ على المسلمين أن يحملوا السلاح لتأديب أعداء الله وفي هذه الحال قد يبدو للمحاربين رأي في الأمر فيحتاجون إلى الاتصال بالمجاهدين في سبيل الله فيرسلون من يبلغ أمرهم منهم إلى المسلمين. وهم الذين يسمون بالرسل، فإذا جاء رسول أو أكثر من المحاربين إلى المسلمين فإنه يكون آمناً على نفسه وماله فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يعتدي عليه حتى يبلغ رسالته ويغادر آخر جزء من بلاد المسلمين.

وهذا الأدب السماوي العظيم جاء في السنة النبوية قولاً وفعلاً وطبقه بعد الرسول ﷺ أصحابه في كل البلدان التي جاهدوا فيها لرفع راية الإسلام.

كما في حديث نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب، قال للرسولين: «فما تقولان أنتما» قالا نقول كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»[(١)] قال ابن قدامة: (ويجوز عقد الأمان للرسول لأن النبي ﷺ كان يؤمن رسل المشركين ولما جاء رسولا مسيلمة قال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما ولأن الحاجة تدعو إلى ذلك، فإننا لو قتلنا رسلهم لقتلوا رسلنا فتفوت مصلحة المراسلة)[(٢)].

وكان ﷺ يشتد غيظه إذا قتل الأعداء أحد رسله فقد بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤته عرض له شرحبيل بن

(١) أحمد في المسند (٣/٤٨٧) أبو داود (٣/١٩١ رقم الحديث ٢٧٦١)، وانظر نيل الأوطار (٨/٣٤) وقال في عون المعبود: «فيه دليل على تحريم قتل الرُسل الواصلين من الكفار، وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام، والحديث سكت عليه المنذري (٧/٤٤٢ عون المعبو). وانظر قصة رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ، وهو في تبوك في البداية والنهاية» (٥/١٥).

(٢) المغني (٩/٢٤٤).

عمرو الغساني، فقتله... فاشتد ذلك عليه وكان ذلك هو السبب في غزوة مؤتة[١].

تأمين من طلب من المحاربين سماع كلام الله وتعلم معنى الإسلام

وإذا طلب بعض المحاربين الكافرين الإذن له بدخول دار الإسلام أو مقابلة من يعلمه الإسلام من المجاهدين فإن على المسلمين أن يؤمنوا من طلب ذلك ويسمعوهم كلام الله ويشرحوا لهم معاني الإسلام ويرغبوهم فيه ويحذروهم من محاربته لأن ذلك هو المقصود الأساس للمجاهدين فإذا فعلوا ذلك فعليهم أن يوصلوه إلى مكانه الذي يأمن فيه على نفسه بأن يحموه من أي اعتداء عليه في بلاد الإسلام أو في معسكر المسلمين المجاهدين، كما قال تعالى: ﴿وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلامَ الله، ثم أبلغْه مأمنَه﴾[٢].

قال ابن قدامة: (ومن طلب الأمان ليسمع كلام الله ويعرف شرائع الإسلام وجب أن يعطاه ثم يرد إلى مأمنه، لا نعلم في هذا خلافاً، وبه قال قتادة ومكحول والأوزاعي والشافعي، وكتب عمر بن عبد العزيز بذلك إلى الناس وذلك لقوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه﴾.

ولكن يجب على المسلمين الحذر من أن يكون إنما فعل ذلك ليتجسس عليهم فيجب أن لا يمكن من معرفة شيء من أسرارهم التي لو اطلع عليها العدو لاستفاد منها)[٣].

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (١٢٨/٢) وفتح الباري (٥١١/٧).
(٢) التوبة: ٦.
(٣) المغني (٤٤/٩).

الفصل الثاني

أنواع الجهاد في سبيل الله

وفيه قسمان:

القسم الأول: الجهاد المعنوي.

وفيه تمهيد وستة مباحث:

المبحث الأول : جهاد النفس.
المبحث الثاني : جهاد الشيطان.
المبحث الثالث : جهاد الفرقة والتصدع.
المبحث الرابع : جهاد التقليد.
المبحث الخامس : جهاد الاسرة.
المبحث السادس : جهاد الدعوة.

القسم الثاني: الجهاد المادي.

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول : إعداد المجاهدين.
المبحث الثاني : الجهاد بالأنفس والأموال.
المبحث الثالث : إنشاء المصانع الجهادية.

القسم الأول

الجهاد المعنوي

تمهيد:

سبق في تعريف الجهاد أنه: (بذل الوسع (والوسع هو القدرة) في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق) وهو أشمل التعاريف وأجمعها، لأنه يشمل كل نشاط الإنسان الذي يبذله في طاعة الله تعالى، سواء في ذلك: تطويع نفسه في أداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات لله تعالى، أو تطويع غيره لربه بالدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والترغيب والترهيب ببيان محاسن هذا الدين وما فيه من خير عظيم للبشرية في الدنيا والآخرة، وبيان مساوىء الكفر بالله ومعصيته، وما في ذلك من بلاء وضنك في الدنيا والآخرة.

وكذلك القيام بجهاد أعداء الله بالنفس والمال لرفع راية الإسلام وغير ذلك مما يدخل في هذا التعريف الجامع المانع وقد استدل بعض العلماء على شمول الجهاد لكل هذه المعاني وغيرها بقوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهاده﴾[1] قال القرطبي في تفسيره: (قيل: عنى به جهاد الكفار، وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه، أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم)[2] واختار هذا المعنى أبو السعود أيضاً في تفسيره، فقال: (وجاهدوا في الله) أي لله تعالى

---

(١) الحج: ٨٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٩٩).

ولأجله أعداء دينه الظاهرة، كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك، فقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[١].

وهذا الحديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: (قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: مجاهدة العبد هواه) من حديث جابر ورمز له بـ «ض» يعني أنه ضعيف[٢]، وقال الشارح: المنـاوي: (من الجهاد الأصغر) وهو جهاد العدو المباين (إلى الجهاد الأكبر) وهـو جهاد العدو المخالط قالوا: وما الجهاد الأكبر قال: (مجاهدة العبد هواه) فهـي أعظم الجهاد وأكبره لأن قتال الكفار فرض كفاية وجهاد النفس فرض عين على كل مكلف في كل وقت ﴿إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌ فاتَّخذوه عدوّاً﴾[٣]. . .) وفي هذا إشارة إلى أن الحديث وإن كان ضعيفاً من حيث السند فإن نصوصاً أخرى من القرآن الكريم تدل على صحة معناه وقد انتقده بعضهم من حيث المعنى أيضاً، لإشعاره في نظرهم بالتهوين من شأن قتال العدو، وهذا الانتقاد غير وارد، وسيأتي أن قتال العدو فرع عن جهاد النفس، لأن الذي لم يستطع جهاد نفسه لا يتوقع منه أن يضحي بها أو بغيرها من الأموال والأهل وغيرهما.

وبهذا يظهر أن الجهاد ينقسم إلى قسمين: **القسم الأول**: الجهاد المعنوي. **والقسم الثاني**: الجهاد المادي، وتحت كل قسم منهما أقسام أيضاً.

وحيث أن الجهاد المعنوي هو أساس الجهاد المادي فإنه يحسن البدء به.

---

(١) تفسير ابي السعود (٤/ ٤٦).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤/ ٥١١) «والحديث ذكره الثعلبي بغير سند وأخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر، قال ابن حجر: هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بن أسلم، والثلاثة ضعفاء» إهـ من تعليقات أستاذي المشرف على البحث الشيخ مناع خليل قطان.

(٣) فاطر: ٦.

المبحث الأول

جهاد النفس

وفيه فرعان:

الفرع الأول: ذكر مخاطر النفس وأدوائها وأعوانها.

الفرع الثاني: جهاد النفس وأعوانها.

الفرع الأول
ذكر مخاطر النفس وأدوائها وأعوانها

وفيه مطالب:

المطلب الأول
بيان أن النفس الإنسانية هي موضوع الكتاب والسنة

إن الله عز وجل الخالق الخبير هو وحده الذي يعلم أغوار النفس الإنسانية والتواءاتها وإن الإنسان ليجهل من نفسه أكثر مما يعلم منها قال تعالى: ﴿ألاَ يعلمُ مَنْ خَلَق وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾(١) وإن الإنسان ليتمنى، بعد أن تحققت له أمنيته من الضلال في الدنيا أن يسلك الطريق المستقيم بعد أن عاين مقر عذابه الدائم بسبب بعده عن الله وتكذيبه بآياته، ولكن الخالق يعلم منه ما خفى على نفسه، كما قال تعالى: ﴿ولو تَرَى إذ وُقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذِّبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين. بل بَدَالهم ما كانوا يُخْفون من قبل، ولو رُدُّوا

---

(١) سورة الملك: ١٤.

لعادوا لما نُهُوا عنه، وإنهم لكاذبون﴾(١) وقد أنزل الله هذا القرآن من أجل هذه النفس التي يصفها تارة بالإيمان والعمل الصالح الذي يترتب عليه الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ألم. ذلك الكتابُ لا رَيْب فيه هُدًى للمتقين. الذين يُؤمنون بالغَيْب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون. والذين يُؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قَبْلك وبالآخرة هم يُوقنون. أولئك على هدىً من ربِّهم، وأولئك هم المفلحون﴾(٢) وتارة بالإطمئنان بالإيمان بالله وبذكره والعمل الصالح له وبما أعد الله لها من الكرامة في الدار الآخرة، والرضا بكل ذلك كما قال تعالى: ﴿يا أيَّتها النفسُ المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيَّةً، فادخلي في عبادي وادخلي جنَّتي﴾(٣).

وتارة بالعناد والصدود وعدم الاستجابة للحق مهما كانت الدعوة إليه واضحة مقنعة، وذلك حين يختم عليها فلا يدخل إليها خير ولا يخرج منها شر: ﴿إنَّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذِرْهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيم﴾(٤) وتارة بأنها أمارة بالسوء أي دأبها الإكثار والإلحاح على صاحبها في أن يعمل المنكر القبيح: ﴿وما أُبرِّىء نفسي، إنَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوء﴾(٥) وتارة يصفها بالخداع والغش والمراوغة والنفاق والمرض والفساد، ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً، ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم لا تُفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون...﴾ الآيات إلى قوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾(٦) وتارة يصفها بأنها كثيرة التحرج من فعل الشر وترك الخير وأنها تلوم صاحبها على ذلك باستمرار، كما قال تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوَّامة﴾(٧) وتارة يذكرها بحقارتها وكبريائها: ﴿أوَلَمْ يَرَ الإنسان

---

(١) الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) البقرة: ١ ـ ٥.
(٣) الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.
(٤) البقرة: ٦ ـ ٧.
(٥) يوسف: ٥٣.
(٦) البقرة: ٨ ـ ٢٠.
(٧) القيامة: ١ ـ ٢.

أنَّا خلقناه من نُطْفة فإذا هو خصيمٌ مُبِين﴾(١).

وتارة يذكر تعالى أنه قد أقام عليها الحجة فلم يبق لها عذر في تمردها وعصيانها ﴿إنَّا هديناه السبيلَ إمَّا شاكراً وإما كفوراً﴾(٢)، ﴿ونَفْسٍ وما سوّاها، فألهمها فجورَها وتقواها﴾(٣) وتارة يصفها بالظلم والجهل: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السمواتِ والأرضِ والجبالِ، فأبَيْنَ أن يحمِلْنَها، وأشْفَقْنَ منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾(٤).

وإذا كان الله هو خالق هذه النفس وهو أعلم بها منها، وقد أراد لها شرعاً أن تقوم بالخلافة في الأرض وبين لها طريق الخير وطريق الشر بما فطرها عليه من معرفة الحسن والقبيح، فإنه لم يدعها لذاتها تتخبط في هذه الحياة دون هداية وبيان، بل أرسل إليها الرسل وأنزل الكتب لبيان ما يصلحها، ويجعلها مصلحة مرشدة تعمر الأرض بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح وآخر كتاب نزل هو أكمل الكتب المهيمن على كل الكتب السماوية السابقة (القرآن)، وآخر رسول هو محمد رسول الله ﷺ أفضل من نزل عليه جبريل في الأرض، وفي هذا الكتاب هداية لأقوم سبيل، وفي هذا الرسول نور هداية وخير، قال تعالى: ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للَّتي هي أقْوَم﴾(٥) ﴿يا أيُّها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً﴾(٦) ولذلك أمرها ونهاها ورغبها ورهبها وبين لها ما ينفعها وما يضرها في الدنيا والآخرة، فالقرآن الكريم والسنة المطهرة في حقيقة الأمر ما موضوعهما إلا النفس الإنسانية في حال انفرادها أو اجتماعها في سلمها وحربها في عسرها ويسرها في حال رضاها وسخطها وفي ثوابها وعقابها وفي كل حالة من حالاتها وليفتح من يريد أن يعلم ذلك علم اليقين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ليرى أن هذه النفس هي المقصودة بكل كلمة وكل أمر وكل نهي وكل توجيه وكل ترغيب أو ترهيب وثواب أو عقاب أو غير ذلك، لذلك فإن خطر هذه النفس عظيم وأمرها جسيم.

---

(١) يس: ٧٧.
(٢) الإنسان: ٣.
(٣) الشمس: ٧ ـ ٨.
(٤) الأحزاب: ٧٢.
(٥) الاسراء: ٩.
(٦) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

المطلب الثاني
أهل القرآن يصفون النفس وعظم خطرها

وإن الذي علم أن هذا القرآن إنما أنزل لهذه النفس: يصفها، ويرشدها ويثيبها ويعاقبها، لهو أولى من يصفها بعد كتاب الله وسنة رسوله، وهو كذلك أدرى ـ بعد الله ورسوله ـ بعللها وأدوائها وعلاجها، وتأمل هذه الجمل التي يصف فيها أحد خبراء النفس هذه النفس:

(فالنفس جبل عظيم، شاق في طريق السير إلى الله عز وجل، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه ليسير لمن يسره الله عليه وفي ذلك الجبل أودية وشعوب وعقبات ووهود، وشوك وعوسج وعليق وشرق ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين لا سيما أهل الليل المدلجين، فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع وتشبثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السير، فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته.

والشيطان على قُلة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه، فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قلته، وضعف عزيمة السائر ونيته، فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع والمعصوم من عصمه الله، وكلما رقى السائر في ذلك اشتد صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قلته انقلبت تلك المخاوف كلهن أماناً وحينئذ يسهل السير وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها ويرى طريقاً واسعاً آمناً يفضي به إلى المنازل والمناهل وعليه الأعلام وفيه الإقامات قد أعدت لركب الرحمن فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب والفضل بيد الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)(١).

ويصفها في مكان آخر بالجهل والظلم وأنها منبع كل شر ومأوى كل سوء، وأن العبد لا خلاص له من شرها إلا باللجوء إلى خالقها، قال:

(١) مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٧) ابن القيم.

(ويفيده نظره إليها ـ أي يفيد الإنسان نظره إلى النفس الأمارة بالسوء ـ أموراً: منها أن يعرف إنها جاهلة، ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها عن وصف الجهل والعمل الصالح الذي يخرجها عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها وأن يؤتيها تقواها ويزكيها فهو خير من زكاها فإنه ربها ومولاها وألا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وكله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه... فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه علم أنها منبع كل شر ومأوى كل سوء وإن كل خير فيها ففضل من الله من به عليها لم يكن منها، كما قال تعالى: ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتهُ ما زَكَى منكم من أحد﴾[١] وقال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾[٢] فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها ولكن هو الله الذي من بهما...)[٣].

ويصف ابن تيمية خطر هواها على صاحبه، وأنه لا يثبت على حال واحدة بل إن ما يزعم أنه حق يدعو إليه ينقلب عنده باطلاً يعارضه ويحاربه، وما يزعم أنه باطل يدعو إلى تركه ويظهر قبحه ينقلب عنده حقاً يدعو إليه ويحارب من يكرهه، قال: (والناس هنا ثلاثة أقسام: قوم لا يقومون إلا في أهواء أنفسهم فلا يرضون إلا بما يعطونه ولا يغضبون إلا لما يحرمونه، فإذا أعطى أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام زال غضبه وحصل رضاه وصار الأمر الذي كان عنده منكراً ـ ينهى عنه ويعاقب عليه ويذم صاحبه ويغضب عليه ـ مرضياً وصار فاعلاً له وشريكاً فيه ومعاوناً عليه ومعادياً لمن نهى عنه وينكر عليه وهذا غالب في بني آدم يرى الإنسان ويسمع ما لا يحصيه وسببه أن الإنسان ظلوم جهول فلذلك لا يعدل، بل ربما كان ظالماً في الحالين، يرى قوماً ينكرون على المتولي ظلمه لرعيته واعتداءه عليهم فيرضى أولئك المنكرين ببعض الشيء

(١) النور: ٢١.
(٢) الحجرات: ٧.
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٢٠).

فينقلبون أعواناً له وأحسن أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه، وكذلك تراهم ينكرون على من يشرب الخمر ويزني ويسمع الملاهي حتى يدخلوا أحدهم معهم في ذلك أو يرضوه ببعض ذلك فتراه قد صار عوناً لهم وهؤلاء قد يعودون بانكارهم إلى أقبح من الحال التي كانوا عليها، وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره)[١].

ويصف النفس بأنها أعظم خطراً من غيرها لأنها ملازمة لصاحبها متصلة به لا تفارقه، فهي تأمره من داخله، وتحول بينه وبين الخير من داخله كذلك، فلا فكاك له منها، قال:

(ولهذا يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيراً لذلك مقهوراً تحت سلطان الهوى أعظم من قهر كل قاهر (أي من المخلوقين) فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه، لا يمكنه مفارقته البتة.. بخلاف كل قاهر ينفصل عن الإنسان فإنه يمكنه مفارقته مع بقاء نفسه على حالها وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه)[٢].

ويصف الإنسان في موضع آخر بأنه عبد هوى نفسه، يوالي من أجله ويعادي من أجله كذلك، قال: (فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ويعادي من يخالفه في هواه، وإنما معبوده ما يهواه ويريده، قال تعالى: ﴿أرأيتَ مَنِ اتَّخذ إلٰهه هواهُ؟! أفأنتَ تكون عليه وكيلاً﴾)[٣].

المطلب الثالث
أعوان النفس الأمارة بالسوء

ومع أن النفس منبع الشر ومأوى السوء في ذاتها فإن لها من الأعوان، والجنود ما يزيدها شراً على شرها وفساداً على فسادها. وإيضاح ذلك في الأمور الآتية:

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ١٤٧).
(٢) الفتاوى (١٠/ ٥٨٧).
(٣) الفتاوى (١٤/ ٣٢٤) والآية من سورة الفرقان ٤٣.

الأمر الأول: الجهل:

والجهل حمأة منتنة يتفجر منها قيح المعاصي من الشرك بالله إلى أصغر معصية، والجاهل يقف أمام الحق معانداً وجاحداً ومستكبراً، ولو كانت حجج هذا الحق أوضح من الشمس في كبد السماء في يوم صحو. قال تعالى: ﴿ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة، وكلّمهم الموتى، وحشرنا عليهم كلّ شيء قُبُلًا، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾[١] والجاهل يحجب جهُله عقلَه أن يفقه أوضح القضايا وأظهرها على الإطلاق، وهي وحدانية الله، ولو كان الداعي إليها نبياً رسولاً بين ظهراني الجهال، قال تعالى: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحرَ فأتَوا على قوم يَعْكُفون على أصنام لهم، قالوا : يا موسى اجعلْ لنا إلٰهاً كما لهم آلهة!! قال: إنكم قوم تجهلون﴾[٢] وقال تعالى عن عاد قوم هود عندما دعاهم إلى توحيد الله وحذرهم من عذابه العظيم: ﴿قالوا أجئتنا لتأفِكَنا عن آلهتنا؟! فأتِنا بما تَعِدُنا إن كنت من الصادقين. قال إنما العلم عند الله وأبلِّغكم ما أُرسلت به ولكنّي أراكم قوماً تجهلون﴾[٣] هذا في الشرك بالله تعالى، وقال تعالى في قوم لوط الذين ارتكبوا أقبح فاحشة من المعاصي بعد الشرك بالله تعالى: ﴿ولوطاً إذ قال لِقومه أتأتُون الفاحشة وأنتم تبصرون. أئنكم لتأتونَ الرجالَ شهوةً من دُون النساء!! بل أنتم قوم تجهلون﴾[٤].

والجهال لا يكتفون بارتكاب معصية الله بأنفسهم، بل إنهم يأمرون بها أهل العلم بالله ويدعونهم إليها، ولذلك أمر الله نبيه أن ينكر عليهم هذا الأمر، وأن يفاصلهم مفاصلة كاملة، كما قال تعالى: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون ـ إلى قوله: ﴿لكم دينُكم وليَ دِينْ﴾[٦].

وقد استعاذ موسى عليه السلام بربه أن يكون من الجاهلين عندما اتهمه

---

(١) الأنعام: ١١١.
(٢) الأعراف: ١٣٨.
(٣) الأحقاف ٢٢ ـ ٢٣.
(٤) النمل : ٥٤ ـ ٥٥.
(٥) الزمر: ٦٤.
(٦) الكافرون.

قومه بأنه يستهزىء بهم ويسخر منهم؛ لأمره إيّاهم بذبح البقرة وضرب قتيلهم ببعضها ليحيا ويخبر بقاتله، ولم يقل أعوذ بالله أن أكون من الساخرين أو المستهزئين بل قال: ﴿أعوذُ بالله أن أكون من الجاهلين﴾(١)، لأن الجهل سبب الهزء والسخرية في مقام يقتضي الجد، قال القرطبي بعد أن فسر هذه الآية: (وفي هذا كله أدل دليل على قبح الجهل وأنه مفسد للدين)(٢).

وعندما يشتد حزن الرسول ﷺ لما يرى من عناد قومه وتعنتهم عليه بأن يأتيهم بآية ليؤمنوا لم ينهه الله عن الجزع والتحسر الشديدين، وإنما نهاه عن منبعهما وهو الجهل(٣) كما قال تعالى: ﴿وإن كان كَبُر عليك إعراضهم فإن استطعتَ أن تبتغيَ نَفَقاً في الأرض أو سُلَّماً في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهُدَى، فلا تكونَنَّ من الجاهلين﴾(٤).

هذا وليس المقصود بالجهل أن الإنسان الموصوف به غير عالم مطلقاً فقد يكون عنده علم بالحق وأدلته مقنعة لعقله، ولكنه لا يستجيب لذلك الحق، بل يعاديه ويرده ويحارب أهله، ولذلك صار بمنزلة من لم يعلم لعدم عمله بعلمه، كما ينفي عن العاقل عقله، لعدم انتفاعه به قال ابن تيمية رحمه الله:

(فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله وقد روي عن أبي حيان التميمي أنه قال: العلماء ثلاثة: فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله وعالم بالله عالم بأمر الله، فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»(٥)، وإذا كان أهل الخشية هم هم العلماء الممدوحين في الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربُّهم لنُهلكنَّ الظالمين، ولَنُسْكِنَنَّكُم الأرض من بعدهم، ذلك لِمَنْ خاف مَقامي وخاف وَعِيدِ﴾(٦) وقوله: ﴿ولِمَنْ خاف مَقام ربه جنتان﴾(٧) فوعد بنصر الدنيا وبثواب

(١) البقرة: ٦٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٤٧).
(٣) أنظر الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤١٨).
(٤) الأنعام: ٣٥.
(٥) البخاري (٧/ ٩٦) ومسلم (٤/ ١٨٢٩) بلفظ آخر مقارب.
(٦) إبراهيم: ١٣ ـ ١٤.
(٧) الرحمن: ٤٦.

الآخرة لأهل الخوف وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ولهذا يقال للفاجر: لا يخاف الله، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾(١). قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل... قال مجاهد: كل عاص فهو جاهل حين معصيته وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدي وغيرهم: إنما سُمُّوا جُهَّالاً لمعاصيهم لا أنهم غير مميِّزين، وقال الزجاج: ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء، لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءاً وإنما يحتمل أمرين: أحدهما أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه والثاني أنهم قدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة وآثروا العاجل على الآجل فسموا جهالاً، لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة. فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل وإما فساد الإرادة، وقد يقال هما متلازمان...

والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله إذ لو تم خوفه من الله لم يعص... وفي الكلام المعروف عن الحسن البصري ويروى مرسلاً عن النبي ﷺ: «العلم علمان فعلم في القلب وعلم على اللسان فعلم القلب هو العلم النافع وعلم اللسان حجة الله على عباده».

وقد أخرجا في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «... ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر...» وهذا المنافق يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه وقد يصدق أنه كلام الله وأن الرسول حق ولا يكون مؤمناً كما أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وليسوا مؤمنين وكذلك إبليس وفرعون وغيرهما لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة... ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه أنه جاهل كما تقدم(٢).

---

(١) النساء: ١٧.

(٢) الفتاوى (٧/ ٢١ - ٢٤) باختصار بعض الجمل، ومن أراد مزيداً من الإيضاح فليراجعه.

وقد جعل رحمه الله الجهل والظلم منشأ جميع السيئات، فقال: (وأما السيئات فمنشؤها الجهل والظلم، فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة **إلا لعدم علمه** بكونها سيئة قبيحة أو لهواه وميل نفسه إليها ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها أو بغض نفسه لها)(١).

وبهذا يتضح خطر الجهل على النفس البشرية التي هي منبع الشر ومأوى السوء في ذاتها.

الأمر الثاني: الغفلة:

والغفلة داء عضال تحجب صاحبها عن النظر إلى أبواب مفتحة من الخير، لولاها لولج كل باب فيها ليحقق رضا الله عنه بفعل طاعته، كما أنها ـ أي الغفلة ـ تحجبه كذلك عن رؤية أضرار لا حصر لها داخل أبواب مغلقة يحطمها بمطارق شهواته فيلجها ليحمل نفسه من عظائم أوزارها، وإن الإنسان الذي يصاب بداء الغفلة لتمر به أيام عمره ولياليه وهو صاد معرض عن كل خير منهمك في معاصي الله وسخطه حتى يأتيه هادم اللذات فينزع منه روحه وهو في غفلة فلا يفيق من غفلته إلا في ذلك الوقت الذي يشعر فيه بالندم ولات ساعة مندم، وها هو القرآن الكريم ينعَى على أهل الغفلة غفلتهم وينذرهم قرب يوم الحساب على ما قدموا وهم سادرون ويرتب على غفلتهم إعراضهم عن ذكر الله وموقفهم منه موقف اللاعب الذي لا يبالي ولا يفكر فيما يضره أو ينفعه: ﴿اقترب للناسِ حسابُهم وهم في غفْلة مُعْرِضون. ما يأتيهم من ذكْر مِنْ ربِّهم مُحْدَثٍ إلَّا استمعوه وهم يلعبون. لاهيـةً قلوبُهم وأسـرُّوا النَّجْوى الـذين ظلموا: هَلْ هذا إلا بَشَرٌ مثلكم؛ أفتأتون السحرَ وأنتم تبصرون﴾(٢).

وتتجسم آيات الله للمتقين فتبهر عقولهم وتملأ قلبوهم إيماناً وتزيدهم علماً بالله ولكن أهل الغفلة يمرون على كل آية وتمر عليهم كل آية دون أن يستفيقوا من غفلتهم، ولذلك نرى كل تصرفاتهم صادرة عن سكون إلى الدنيا وركون إليها وعدم خوف من الله خالقهم وخالق تلك الآيات: ﴿هو الذي جعل

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٢٨٧).

(٢) الأنبياء: ١ ـ ٣.

الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقدَّره منازلَ لتعلموا عددَ السنينَ والحساب، ما خلق اللهُ ذلك إلا بالحقِّ، يُفصِّل الآيات لقوم يعلمون. إنّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآياتٌ لقوم يتَّقون. إن الذين لا يرجون لقاءنا، ورَضُوا بالحياة الدنيا، واطمأنُّوا بها، والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾(١).

وإذا كانت سنة الله تعالى في أكثر الناس أنهم لا يؤمنون: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾(٢) فإن هذه الكثرة هي التي أصيبت بداء الغفلة: ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لَغَافلون﴾(٣).

وقد يكون الغافل مبدعاً في معايش الدنيا ومصالحها المادية البحتة، في الطب والهندسة والكيمياء والفلك وأنواع الصناعات وغيرها، وقد يصل إلى اكتشافات مادية مدهشة يغزو بها الفضاء ويقرب للناس المسافات البعيدة في الأسفار والأصوات والنظر وغير ذلك، كما هو الحال في هذا العصر، ولكن ذلك لا يخرجه عن كونه غافلاً مصاباً بداء الغفلة، لأن الغفلة الحقيقية هي الغفلة عن آيات الله التي تجلب الإيمان به وتعمقه وتلفت النظر وتنبه القلب إلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه من الثواب والعقاب لأوليائه وأعدائه، فلا يخرج عن الغافلين من تعمق في علوم الكون دون أن يستفيد شيئاً من ذلك، لا بل إن من يسمون بالعلماء في هذا العصر ليسوا بعلماء عند الله تعالى بسبب تلك الغفلة التي أفقدتهم التفكر في آيات الله العظيمة، قال تعالى: ﴿وَعْدَ الله لا يخلف الله وَعْدَه، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. أو لم يتفكَّروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى، وإن كثيراً من الناس بلقاء ربِّهم لكافرون﴾(٤).

وقد وصف الله أهل جهنم أنهم لا يستفيدون من قلوبهم ولا من أعينهم ولا من آذانهم وما خلقها الله من أجله وأنهم أكثر ضلالاً من الأنعام وختم تلك

(١) يونس: ٥.
(٢) يوسف: ١٠٣.
(٣) يونس: ٩٢.
(٤) الروم: ٦ ـ ٨.

الصفات بالغفلة بصيغة حصرهم فيها، كما قال تعالى: ﴿ولقد ذَرَأنا لجهنمَ كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ، أولئك هم الغافلون﴾(١).

وعندما أمر الله نبيه ﷺ - وأمره له أمرٌ لأمته - بذكره حذره من الغفلة والكون في عداد أهلها، لأنها تلهي عن ذكر الله المأمور به، فقال: ﴿واذكر ربَّك في نفسك تَضَرُّعاً وخِيفةً ودون الجهر من القول بالغدِّو والآصالِ، ولا تكن من الغافلين﴾(٢).

ويتحسر أهل الغفلة عند دنو وعد الله - يوم القيامة - ويلومون أنفسهم ويقرون أنهم كانوا ظالمين بسبب تلك الغفلة، ولكنه تحسر غير مجد ولوم غير مفيد وإقرار لا يترتب عليه إلا عذاب الله: ﴿حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين. إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾(٣).

ويذكر يوم القيامة الغافل عن أهواله طيلة حياته، يذكر في وقت زالت فيه الغفلة وانقشع غطاؤها فإذا هو يعاين كل شيء: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾(٤).

قال ابن تيمية رحمه الله يصف خطر الغفلة: (فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة، والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف فيبقى القلب مغموراً بما يهواه ويخشاه غافلاً عن الله رائداً غير الله ساهياً عن ذكره قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره قدْ رانَ حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة وعن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة تعس عبد

(١) الأعراف: ١٧٩.
(٢) الأعراف: ٢٠٥.
(٣) الأنبياء: ٩٦ - ٩٨.
(٤) ق: ٢١ - ٢٢.

الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش إن أعطى رضي وإن منع سخط»)[١].

ونهىٰ الله نبيه ﷺ ـ وهو نهيٌ لأمته ـ أن يطيع من أغفل الله قلبه عن ذكره فقال: ﴿ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا، واتَّبع هواه، وكان أمرُه فُرُطاً﴾[٢].

وعزا ابن القيم رحمه الله الزهد عن الحياة العليا حياة الأنبياء والرسل واتباعهم إلى أصلين أحدهما: ضعف الإيمان، والثاني: جثوم الغفلة على القلب، وقال في هذا الأخير: (السبب الثاني: جثوم الغفلة على القلب فإن الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ في الحس نياماً في الواقع...)[٣] وقال شيخه ابن تيمية رحمه الله: (فالغفلة والشهوة أصل الشر، قال تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾)[٤].

ويصف الأستاذ سيد قطب رحمه الله أصحاب الغفلة واللهو في كتابه (في ظلال القرآن) في مطلع سورة الأنبياء فيقول: (مطلع قوي يهز الغافلين هزاً، والحساب يقترب وهم في غفلة، والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى، والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته، وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار واستمعوه وهم هازلون يلعبون: (لاهية قلوبهم) والقلوب هي موضع التأمل والتدبر والتفكر، إنها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجد فتلهو في أخطر المواقف وتهزل في مواطن الجد وتستهتر في مواقف القداسة فالذكر الذي يأتيهم (من ربهم) فيستقبلونه لاعبين بلا وقار ولا تقديس والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال بالقداسة تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال فلا تصلح للنهوض بعبء ولا الاضطلاع بواجب ولا القيام بتكليف، وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة، إن روح الاستهتار التي تلهو بالمقدسات روح مريضة والاستهتار غير الاحتمال فالاحتمال قوة جادة شاعره والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء)[٥].

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٥٩٧).
(٢) الكهف: ٢٨.
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٢٨٤).
(٤) الفتاوى (١٤/ ٢٨٩). والآية في سورة الكهف: ٢٨.
(٥) في ظلال القرآن (١٧/ ٢٣٦٧) طبع دار الشروق.

وبهذا يظهر كذلك خطر الغفلة على صاحبها وعلى البشرية كلها.

الأمر الثالث: الهوى:

(الهوى: ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوى سقوط من علو إلى أسفل)(١). إهـ.

وإذا كانت النفس كما سبق منبع الشر ومأوى السوء فإن هواها قائدها إلى كل شر وكل سوء، وهواها محنة لصاحبها مثلها، كلاهما يوبقه إذا استسلم ولم يقاوم ويسقطه في قعر الخسران وسخط الرحمن.

القرآن الكريم يسلط أضواءه على الهوى فيعريه ليراه صاحبه على حقيقته.

والهوى المردي هو الذي تبرأ منه أولياء الله، لأنه يورث أصحابه الحيرة والقلق في الأرض، والشيطان هو الذي يزينه ويدعو صاحبه إليه، بخلاف أولياء الله فإنهم يدعون إلى هدى الله ويزينونه للناس حتى لا يردوا على أعقابهم وقد أمروا أن يسلموا لربهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أندعو من دون الله ما لا ينفعُنا ولا يضرُّنا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوتْهُ الشياطين في الأرض حَيْرانَ له أصحاب يدعونه إلى الهُدَى ائتنا ، قُلْ إنّ هُدَى الله هو الهُدَى وأُمرنا لنسلمَ لربِّ العالمين﴾(٢).

وفي مقابل استهواء الشياطين من لهم عليهم سلطان ذكر الله تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ إنما هو وحي منه مبرئاً له من أن ينطق بشيء من هوى نفسه فقال: ﴿وما يَنْطِق عن الهَوَى. إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحى﴾(٣).

ويشتط صاحب الهوى حتى يسخر من الحق وأهله وينكر المعروف ويعرف المنكر ويبالغ في ذلك حتى أنه ليحاول أن يثبت للناس أنه صاحب حق أوتي صبراً على التزامه وأن صاحب الحق ـ في الواقع ـ إنما يريد اضلاله، وهو في

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني (ص ٥٧١).
(٢) الأنعام: ٧١.
(٣) النجم: ٣ ـ ٤.

الواقع قد صار إلهه هواه فلا يستحسن إلا هواه ولا ينتفع بأدوات العلم التي منحه الله إياها، لأنه فاق في ضلاله الأنعام: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هُزُواً، أهذا الذي بعث الله رسولاً، إن كادَ ليضلُّنا عن آهتنا لولا أن صبرنا عليها، وسوف يعلمون حين يَرَوْن العذاب من أضلُّ سبيلاً. أرأيت من اتَّخذ إلَهَهُ هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً؟!. أم تحسب أنَّ أكثرهم يسمعون أو يَعْقِلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً﴾[١] وإذا اتخذ الإنسان إلهه هواه فمتى يطمع فيه أن يفرق بين الحق والباطل، بل متى يطمع فيه أن يبقى مستحسناً شيئاً ما دون أن يستقبحه ويستحسن ضده؟

ولهذا اشتد نهي الله عن اتباع الإنسان هوى نفسه أو هوى غيره من أهل الضلال والكذب والجهل والكفر والظلم، لأن كل تلك الصفات سببها الهوى فمن اتبع هواه أو هوى غيره وقع في ذلك ولا بد.

فالهوى سبب في الظلم ومجانبة العدل قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يَكُنْ غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتَّبعوا الهوَى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تُعرضوا فإن اللهَ كان بما تعملون خبيراً﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿بل اتَّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلَّ الله وما لهم من ناصرين﴾[٣] وقال تعالى: ﴿يا داودُ إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقِّ، ولا تتّبعِ الهوى فيضلَّك عن سبيل الله، إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يوم الحساب﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿قل هَلُمَّ شهداءَكُم الذين يشهدون أنَّ الله حرَّم هذا، فإن شهدوا فلا تشهدْ معهم، ولا تتَّبع أهواء الذين كذَّبوا بآياتِنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يَعْدِلون﴾[٥].

ففي الآية الماضية آية سورة ص نهى الله داود عليه السلام عن اتباع

(١) الفرقان: ٤١ ـ ٤٤.
(٢) النساء: ١٣٥.
(٣) الروم: ٢٩.
(٤) ص ٢٦.
(٥) الأنعام: ١٥٠.

الهوى في حكمه بين الناس ورتب على اتباع الهوى أنه يضله عن سبيل الله. وفي هذه الآية (آية الأنعام) نهى الله محمداً ﷺ عن اتباع أهواء المكذبين بآيات الله الذين يحرمون ما شاؤا من عند أنفسهم بدون علم، بل أنهم متبعون للظن، ثم ينسبون شركهم وتحريمهم إلى الله لأنه شاءهما هو.

ومن أعظم النصوص التي وصفت الهوى بالوصف اللائق به آية: (المؤمنون) التي نصت على أن السموات والأرض ومن فيهن يصيبها الفساد لو كان الهوى هو قائد الحق، كما قال تعالى: ﴿ولو اتّبع الحقُّ أهواءهم لَفَسدتِ السمواتُ والأرضُ ومن فيهن، بل أتيناهم بذكرِهم، فهم عن ذكرهم مُعْرِضون﴾[١].

قال ابن كثير: وقوله: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن قال مجاهد وأبو صالح والسدي: الحق هو الله عز وجل والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها...)[٢].

وقال سيد قطب: (فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله ولفسد الناس معه ولفسدت القيم والأوضاع واختلت الموازين والمقاييس وتأرجحت كلها بين الغضب والرضا والكره والبغض والرغبة والرهبة والنشاط والخمول وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات.

وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة ونهج مرسوم لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد، وفي هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءً من الناموس الكوني تتولاه اليد التي تدبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعاً، والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير فأولى أن يشرع

(١) المؤمنون ٧١.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٥٠).

لهذا الجزء من يشرع للكون كله ويدبره في تناسق عجيب. بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن (إنما يخضع للحق الكلي ولتدبير صاحب التدبير)(١).

الأمر الرابع: الشهوات:

(أصل الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده... وقد يسمى المُشْتَهى شهوة)(٢).

والنفس نزاعة دائماً إلى الملذات المعنوية والحسية، وإذا لم تكن هذه النفس مراقبة محكومة بحكم الله عند صاحبها فإنها لا تترك شيئاً مما تشتهيه سواء أكان نافعاً أم ضاراً ـ لها أم لغيرها ـ والشهوات مع كونها مطلوبة للنفس فإن الشيطان يزينها لها ويلح عليها في أن تطلبها وتتمكن منها، بل إنه ليظهر الشهوات المحظورة الضارة في صورة أجمل من الشهوات المباحة النافعة، والشهوة تتحد مع الغفلة فتكونان أصلاً لكل شر(٣). وهي من أشد جنود النفس الأمارة بالسوء قهراً لصاحبها وأسراً له(٤).

والشهوة والهوى تقودان صاحبهما إلى المهالك فيسلس لهما قياده فيصوران له المعروف منكراً والمنكر معروفاً فيتصورهما كذلك(٥).

وشهوات النفس كثيرة، ويكفي أن يذكر منها على سبيل المثال الأنواع الآتية:

الفرع الأول: العلو في الأرض:

المراد بالعلو في الأرض التجبر والطغيان والإفساد، (والنفس مشحونة بحب العلو والرياسة بحسب إمكانها)(٦). وهذه الصفة من صفات أعداء الله، وعلى رأسهم إمامهم إبليس لعنه الله، كما قال تعالى عنه: ﴿وإِذْ قُلْنا للملائكةِ

(١) في ظلال القرآن (١٨/ ٢٤٧٥).
(٢) المفردات ص ٢٧١.
(٣) راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤/ ٢٨٧).
(٤) المرجع السابق (١٠/ ٥٨٧)، ٥٩٤.
(٥) راجع المرجع السابق (ص ٢٨/ ١٤٧).
(٦) الفتاوى (١٤/ ٣٢٤).

اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبَى واستكبر وكان من الكافرين﴾[١]، وقال: ﴿إذ قال ربُّك للملائكة إني خالق بَشَراً من طِين، فإذا سَوَّيته ونفخت فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون. إلاَّ إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال: يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديَّ، استكبرتَ أم كنتَ من العالين؟. قال: أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقتَه من طين﴾[٢].

وقال تعالى عن فرعون: ﴿إنَّ فرعونَ عَلاَ في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً، يستضعفُ طائفةً منهم، يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنَّه كان من المفسدين﴾[٣] وقال: ﴿وإنَّ فرعونَ لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾[٤]، وقال: ﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾[٥] وقال: ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هٰرون بآياتنا وسلطان مُبين. إلى فرعون وملئِه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين﴾[٦] وخصَّ الله جنته بمن لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً، فقال: ﴿تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[٧] وذلك أن مريدي العلو في الأرض يجحدون بآيات الله مع وضوحها، ومع علمهم بأنها حق، ولذلك فإن عاقبتهم شر عاقبة كما أن عاقبة المتقين خير عاقبة: ﴿وجَحدوا بها واستيقنْتها أنفسُهم ظلماً وعلوّاً، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾[٨].

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: (إن فرعون علا في الأرض أي استكبر وتجبر، قاله ابن عباس والسدي، وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية وقيل بملكه وسلطانه فصار عالياً على من تحت يده)[٩].

والمتصف بهذه الصفة يجتهد في أن يحافظ عليها بانكار الحق وجحده، وجمع غوغاء الناس وضلاًّ لهم ممن يطلبون الزلفى عنده حوله ليدلوا بأصواتهم معه شاهدين له بأنه جدير بالعلو وأن استعلاءه على غيره من أهل الحق دليل فلاحه كما قال قوم فرعون: ﴿قالوا: إنْ هذان لساحران يُريدان أن يخرجاكم من

(١) البقرة: (٣٤).
(٢) ص ٧١ ـ ٧٦.
(٣) القصص: ٤.
(٤) يونس: ٨٣.
(٥) الدخان: ٣١.
(٦) المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٦.
(٧) القصص: ٨٣.
(٨) النمل: ١٤.
(٩) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٤٨).

أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثْلى فأجمعوا كيدَكم ثم أْتـوا صفاً، وقد أفلح اليوم من استعلى﴾[١].

قال ابن تيمية: (وطالب الرئاسة ـ ولو بالباطل ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً، وتغضبه الكلمة التي بها ذمُّه وإن كانت حقاً)[٢].

وقال رحمه الله ـ بعد أن ذكر أن الناس في إرادة العلو والفساد أربعة أقسام:

القسم الأول: يريدون العلو على الناس والفساد في الأرض، وهو معصية الله، وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون، كفرعون وحزبه، وهؤلاء هم شرار الخلق، قال الله تعالى: ﴿إنَّ فرعون عـلا في الأرض وجعل أهلهـا شيعاً يستضعف طـائفة منهم، يُذَبِّـح أبنـاءهم ويستحيي نساءهم إنـه كـان من المفسدين﴾[٣]، وروى مسلم في صحيحيه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» فقال رجل: يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسناً فمن الكبر ذاك قال: «لا إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» فبطر الحق دفعه وجحده وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم. وهذا حال من يريد العلو والفساد)[٤].

وكلما يشاهد الآن من فساد في الأرض وظلم وطغيان وقلق واضطراب فإن منشأه من الطغاة ـ أمثال فرعون ـ الذين يريدون في الأرض العلو والافساد من أولئك الرؤساء والملوك الذين لا يرضون بإقامة حكم الله في الأرض خشية على عروشهم، لأنهم بالمحافظة على علوهم وافسادهم ينشرون الفساد في الأرض في كل مجال: في الأعراض والأموال والدماء، ويحطمون بقوتهم ونظمهم الكافرة كل قوة تصدت لعلوهم وافسادهم، وبهذا يظهر أن شهوة العلو في الأرض من أخطر جنود النفس الأَمارة بالسوء لأنها لا تدمر صاحبها فحسب بل تنشر الدمار في الأرض كلها وتحطم البشرية كلها، والسبب في ذلك أن كل شيء يشتهيه، ذو

(١) طه ٦٣ ـ ٦٤.
(٢) الفتاوى (١٠/ ٥٩٩).
(٣) القصص: (٤).
(٤) الفتاوى (٢٨/ ٣٩٢).

العلو في الأرض يفرضه على الناس فرضاً، ولو أزهق بذلك الأرواح وسفك الدماء وانتهك الأعراض، واغتصب الأموال، يفرضه بالقوة التي بيده، كما فعل فرعون وما أكثر الفراعنة في الأرض.

النوع الثاني: النساء:

وشهوة النساء من أشد جنود النفس الأَمارة بالسوء أيضاً، ولذلك لجأ يوسف عليه السلام ـ وهو نبي كريم ـ إلى ربه سبحانه ليصرف عنه كيد النساء، فقال: ﴿وإلَّا تَصْرِفْ عني كَيْـدَهُنَّ أصْبُ إليهنَّ، وأكُنْ من الجاهلين﴾[١] ولبشاعة ما يترتب على هذه الشهوة ـ إذا لم يقتصر على ما أحل الله ـ نهى سبحانه عن قرب الزنا ـ فضلاً عن مواقعته مبيناً سبحانه وتعالى أنه من أقبح الذنوب وأفحشها، وأنه سبيل قبيح مذموم لا يسلكه إلا من استحق الذم والتقبيح، قال تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً﴾[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى ناهياً عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ أي ذنباً عظيماً وساء سبيلاً: أي وبئس طريقاً ومسلكاً)[٣].

وأسباب الزنا كثيرة، منها ما يكون من قبل الأفراد، رجالاً ونساء، ومنها ما يكون من قبل الحكومات وإلى القارىء ذكر شيء منها:

أ ـ النظر المتعمد إلى المرأة ومفاتنها:

فإن النظر سهم من سهام إبليس، وبه ترتسم الصورة في القلب فتفتنه وتهيجه إذا لم يَتَوَقَّها بالإقبال إلى الله وطلب العون على إزالتها، قال ابن القيم رحمه الله: (فأما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق نظره أو رد نفسه موارد الهلاك، وقد قال النبي ﷺ: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الثانية» (قال في الحاشية

(١) يوسف ٣٣.
(٢) الاسراء: ٣٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨).

وليست لك الآخرة)، وفي المسند عنه ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»).

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ما لم يمنع منه مانع[١].

وقال ابن تيمية رحمه الله: (وأما النظر والمباشرة فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة، وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش، فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه، ولهذا قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك، كما قال تعالى: ﴿ومن الناس مَنْ يتَّخذ من دون الله أنداداً يحبُّونهم كحبِّ الله﴾[٢]، ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان والله تعالى إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة وعن قوم لوط المشركين والعاشق المتيم يصير عبداً لمعشوقه منقاداً له أسير القلب له)[٣].

وقال الغزالي رحمه الله في الإحياء: (فإن العين مبدأ الزنا فحفظها مهم، وهو عسر من حيث أنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ، والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها... وقال العلاء بن زياد: لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع في القلب شهوة، وقلما يخلو الإنسان في تردده عن وقوع البصر على النساء)[٤].

ب ـ مخاطبة المرأة لغير حاجة:

ومن وسائل الفاحشة أن يخاطب الرجل امرأة لغير حاجة، فإن الكلمة تجر كلاماً والمخاطبة من الطرفين تفتح باباً لطمع مريض القلب من الجانبين ولهذا

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص ١٢٩ ـ ١٣٠).
(٢) البقرة: ١٦٥.
(٣) الفتاوى (١٥/ ٢٩٣).
(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ١٠٦).

أباح الله تعالى مخاطبتهن للحاجة ـ من وراء حجاب ـ وأمر المرأة إذا تكلمت ان لا يكون في كلامها رقة تطمع فيها المريض القلب بالشهوة، قال تعالى: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهنَّ من وراء حجابٍ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ﴾(١)، وقال: ﴿يا نساء النبي لَسْتُنَّ كأحد من النساء، إن اتقيتن فلا تَخْضَعْنَ بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرضٌ، وقُلْنَ قولاً معروفاً﴾(٢).

وهذا الحكم غير مختص بنساء النبي ﷺ وإن كان السياق فيهن، وتخصيصهن هنا بالخطاب لبيان فضلهن عن غيرهن في التقوى حيث يضاعف الله لهن الأجر. كما يضاعف عليهن العقاب إن أتين بفاحشة مبينة كما نص على ذلك في الآيتين: ﴿يا نساء النبي من يأتِ منكن بفاحشةٍ مبَيِّنَة يُضاعف لها العذابُ ضِعْفَين، وكان ذلك على الله يسيراً. ومن يَقْنُت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نُؤْتِها أجرها مرتين، وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾(٣).

قال ابن كثير: (هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبعٌ لهنَّ في ذلك)(٤).

وقال سيد قطب: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض: ينهاهن حين يخاطبن الأغراب من الرجال، أن يكون في نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذي يثير شهوات الرجال ويحرك غرائزهم ويطمع مرضى القلوب ويهيج رغباتهم. ومن هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؟ إنهنَّ أزواج النبي ﷺ وأمهات المؤمنين اللواتي لا يطمع فيهن طامع ولا يرف عليهن خاطر مريض فيما يبدو للعقل أول مرة، وفي أي عهد يكون هذا التحذير؟ في عهد النبي ﷺ وعهد الصفوة المختارة من البشرية في جميع الأعصار ولكن الله الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول وتترقق في اللفظ ما يثير الطمع في قلوب ويهيج الفتنة في قلوب وأن القلوب المريضة التي تثار وتطمع موجودة في كل عهد وفي كل بيئة وتجاه كل امرأة ولو كانت هي زوج النبي

---

(١) الأحزاب: ٥٣.
(٢) الأحزاب: ٣٢.
(٣) الأحزاب: ٣٠ ـ ٣١.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٢).

الكريم وأم المؤمنين وأنه لا طهارة من الدنس ولا تخلص من الرجس حتى تمنع الأسباب المثيرة من الأساس)(١).

جـ ـ الخلوة بالمرأة الأجنبية:

ومن أعظم الوسائل المؤدية إلى الفاحشة أن يخلو الرجل بالمرأة الأجنبية، ولذلك حذر منه الرسول ﷺ كما في حديث عقبة بن عامر، فقال: «إياكم والدخول على النساء»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ «قال الحمو الموت»(٢) «والحمو أقارب الزوج أو الزوجة غير المحارم».

وفي قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ دليل واضح على النهي عن الخلوة بالمرأة من غير أزواج النبي ﷺ من باب أولى لأنه نهى تعالى عن مخاطبتهن دون حجاب ولا فرق بين أن يكون الذي يخاطبهن مفرداً أو مع غيره فإن الحجاب واجب فكيف بالخلوة؟

قال ابن جرير رحمه الله: (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن يقول تعالى ذكره: (سؤالكم إياهن المتاع إذا سألتموهن ذلك من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من عوارض العين فيها التي تعرض في صدور الرجال من أمر النساء وفي صدور النساء من أمر الرجال وأحرى من ألا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل)(٣).

وقال سيد قطب رحمه الله: (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن فلا يقل أحد غير ما قال الله. لا يقل أحد: إن الاختلاط وإزالة الحجب والترخص في الحجب واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب وأعف للضمائر وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال

(١) في ظلال القرآن (٢٢/ ٢٨٥٩).
(٢) البخاري رقم ٥٢٣٢، فتح الباري (٩/ ٣٣٠)، ومسلم (٤/ ١٧١١).
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/ ٣٩).

المحجوبين، لا يقل أحد شيئاً من هذا والله يقول: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات وأمهات المؤمنين وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق، وحين يقول الله قولاً ويقول خلق من خلقه قولاً فالقول لله سبحانه وكل قول آخر هراء لا يردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقي الذي خلق هؤلاء العبيد. والواقع العملي الملموس يهتف بصدق الله وكذب المدعين غير ما يقول الله والتجارب المعروضة اليوم في العالم مصدقة لما يقول، وهي في البلاد التي بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر في هذا واقطع من كل دليل)[١].

د ـ اختلاط الرجال بالنساء لغير حاجة شرعية:

ومن دواعي فتنة النساء للرجال الاختلاط الذي لا حاجة إليه من الناحية الشرعية أو المعاشية ونحوهما، فالاختلاط المسموح به شرعاً على صفة لا تكون سبباً في الفتنة مثل الحج الذي لا يمكن أداؤه إلا باختلاط الرجال والنساء. لأنهم يؤدون عبادة واحدة في وقت واحد في مكان واحد، كالوقوف بعرفات والمبيت بمزلفة، ورمى الجمار والطواف والسعي، وكذلك في أرض المعركة إذا دعت الحاجة أو الضرورة إلى مشاركة المرأة، فإنها مدعوة للقيام بالتمريض والسقي ونقل الجرحى والعناية بهم، وكذلك مشاركتها في صلاة الجمعة والجماعة، فإنها تختلط بالرجال في ذهابها وإيابها وإن كانت مأمورة بالتحرز والبعد عن الرجال حتى في صف الصلاة: خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها ففي مثل هذه الأحوال يحصل فيها اختلاط الرجال بالنساء ولكن على وجه فيه من التحرز والبعد عن الريبة ما يحول بين الجنسين وبين الفتنة.

أما الاختلاط الضار فهو الاختلاط الذي يقصد منه أصلاً الفتنة والدعوة إلى الفاحشة، كاختلاط الجنسين في الفصول الدراسية، وفي أماكن اللهو كالسينما والمسارح والمراقص، والشواطىء الصيفية ونحوها مما لا يحتاج إلى تفصيل فقد

(١) في ظلال القرآن (٢٢/ ٢٨٧٨).

عرفه القاصي والداني وذاق وباله المسلمون في كل أنحاء الأرض حتى أصبحت الدياثة غالبة على كثير ممن يدعي الإسلام بل ممن يدعي العلم والفقه في الدين. وأن الفساد الذي أحدثه الاختلاط لشباب المسلمين لكاف لتمييعه وتحطيم أخلاقه وجعله في عداد سقط المتاع لا يغار على دين ولا خلق ولا أرض.

والمؤسف أن بعض الجامعات التي كان من الواجب أن تعتبر معاقل للعلم وإشعاعاً للمعرفة في بعض الشعوب الإسلامية تزعمت الدعوة إلى الاختلاط وطبقته حتى أصبحت بؤرة للفساد الذي حل محل الإصلاح والهداية اللذين اعتاد الناس أن يتلقوهما من المعاهد والجامعات[1].

هـ ـ إثارة الغرائز عن طريق أجهزة الإعلام:

ويأتي أثر أجهزة الإعلام في إثارة غرائز الشباب والدعوة إلى الرذيلة بشتى الأساليب وبجميع الأجهزة: الإذاعة، والتلفزيون، والسينما والفيديو والمسجلات والصحف والمجلات والكتب والقصص الغرامية في الكتب والمجلات والتمثيليات، فقد تولى أمر هذه الأجهزة في أغلب الشعوب الإسلامية من تولى تنفيذ توجيهات أسيادهم من اليهود والنصارى والشيوعيين حتى ليراهم الرائي وقد فاقوا في الحماس لنشر الرذيلة في جميع الأجهزة أساتذتهم فحطموا أخلاق تلك الشعوب تحطيماً لم يبق لهم بعده أثر يذكر من آثار رجولة أجدادهم الميامين الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الله ففتحوا الدنيا بالهدى والعتاد، وهذا الأمر كذلك واضح، وما على المرء إلا أن يستعرض واقع الشباب المسلم ليرى إلى أين وصل في الميوعة وعبودية الشهوات ولينظر إلى هذا الشباب الضائع كيف يتسكع في الشوارع: فتياناً وفتيات وفي دور السينما وعلى شاشات التلفزيون وفي الحدائق العامة وأماكن اللهو والفجور وفي شواطىء البحار وقد خلعوا جلباب الحياء من وجوههم وأضحوا مثل الحيوانات لا يبالون ما يحصل منهم أو ما يراهم عليه

---

(١) أنظر: الحجاب للأستاذ المودودي رحمه الله ص ١٠٢، وكذا حصوننا مهددة من داخلها ص ١٠٧ وما بعدها. وأنظر على سبيل المثال: مجلة المجتمع: العد ٣٢ ص ٣، والعدد ٩ ص ١٧، والعدد ١٦ ص ٢٠، والعدد ١٧ ص ٩، ١٢، والعدد ١٨ ص ٤، وراجع الفصل الثاني من كتاب الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي لمؤلفه ماجد كيلاني من ص ٤٧ ـ ٦١).

الناس ولينظر إلى الضفوف المتراصة وقت الصلاة وقد استعدت لدخول تلك الأماكن القذرة كل ينتظر دوره في الشارع وراء منافسه الذي سبقه ليأخذ مكانه والمؤذن يقول الله أكبر.. أشهد ألا إله إلا الله.. حي على الصلاة، حي على الفلاح، فلا يجيبه إلا القليل ممن هدى الله والقوم يسخرون منه ويستهزؤن به، كل ذلك وغيره من أهم أسبابه ما غرسته فيه أجهزة الإعلام التي اعتلى كراسي توجيهها أعداء الإسلام الذين تسببوا في هذا الإنحطاط الأخلاقي القذر، وحدث عن فرق المغنين والمغنيات وما جروه على الشباب من وبال ولا حرج.

بالله عليك هل ترى مثل هذا الجيل الذي وقع في هذا الدنس فلم يستطع انتشال نفسه منه يستطيع أن يقف أمام العدو للدفاع عن نفسه فضلاً عن قيامه بالدعوة إلى الله وابلاغ العالم هذا الدين والجهاد لرفع راية الإسلام؟ كلا وألف كلا. وهؤلاء اليهود والنصارى والشيوعيون يتحدون هذا الجيل وهو لا يزداد إلا جبناً وخوراً وبعداً عن الرجولة والشهامة وانغماساً في الشهوات والرذائل وتزداد وسائل انغماسه كل يوم. إلا من شاء ربك وقليل ما هم[1].

قال ابن تيمية فيمن يحب شيوع الفاحشة: (وقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين يحبُّون أن تشيعَ الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة[2]﴾ الآية، وهذا ذم لمن يحب ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط ويكون مع ذلك باللسان والجوارح وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبة لوقوعها في المؤمنين إما حسداً أو بغضاً وإما محبة للفاحشة وإرادة لها وكلاهما محبة للفاحشة وبغضاً للذين آمنوا فكل من أحب ذكرها ذكرها)[3].

خروج المرأة سافرة متزينة بكل أنواع الزينة المثيرة للغرائز:

ولقد حملت المرأة أكبر قسط من الإثارة الداعية إلى الوقوع في الفاحشة، حيث خرجت عن وظيفتها ومكانها الذي يليق بها، وهو البيت الذي لو قامت بواجبها فيه حق القيام نحو زوجها وأولادها وأسرتها لأسهمت في بناء جيل

---

(١) أنظر كتاب: حصوننا مهددة من داخلها ص ٨١ وما بعدها إلى ص ١٥٦.

(٢) النور: ١٩.

(٣) الفتاوى (١٥/ ٣٣٣).

مثقف قوي لا ينال منه الأعداء إلا ما يسؤوهم كما كانت المرأة المسلمة في العصور الماضية[١]. ويكفي نقل هذا المقطع من كتاب الحجاب لبيان بعض ما قامت به المرأة المعاصرة من الفتنة: (فالذين قد عزموا اتباع هذا الطريق - أي طريق النظام الديمقراطي الغربي الذي تسبب عنه الجهر بالفواحش - في حياتهم بقلب مطمئن مقتنع قد اكتمل الانقلاب - أو كاد - في حياتهم الخلقية والاجتماعية، فعادت نساؤهم يخرجن من بيوتهن في ملابس شفافة عارية يخيل إلى الناظر كأن كل واحدة منهن ممثلة من ممثلات (هوليود) وأصبح يرى فيهن كل الجسارة والصفاقة بل يتبين المرء من ملابسهن الفاضحة وألوانهن البراقة وعنايتهن بالتزين وحركاتهن من التشفي والتغنج أنه لا مطمع أمام أعينهن إلا أن يكن مغنطيساً جنسياً يجذبن الرجال إليهن جذباً. وقد قل الحياء فيهن إلى حد أن عدن لا يستحيين من الغسل مع الرجال شبه عاريات بل من عرض أنفسهن في تلك الحالة لتؤخذ صورهن وتنشر في المجلات. والحياء لم يعد له وجه عندهن حقاً)[٢].

والمرأة عندما تخرج متزينة بما يدعو إلى الفساد تهيج بذلك من في قلبه مرض فيزيد طمعه وتقوى إرادته للفاحشة، بخلاف من احتشمت عند خروجها أو التي لم تخرج حفاظاً على نفسها ووقاية لأمراض القلوب بالشهوات فإن أولئك المرضى لا يطمعون فيها بل قد يصيبهم اليأس الذي يضعف الإرادة فيهم وطلب الفاحشة، كما قال ابن تيمية رحمه الله: (ومن في قلبه مرض الشهوة وإرادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض والطمع الذي يقوى الإرادة والطلب ويقوى المرض بذلك بخلاف ما إذا كان آيساً من المطلوب فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعف الحب فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه فلا يكون مع الإرادة عمل أصلاً بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر ونحو ذلك فيأثم بذلك)[٣].

وبهذا يظهر ما جنته المرأة على المسلمين من فساد ومنكر وتحطيم للأخلاق

---

(١) راجع الباب الرابع من كتاب المسؤولية في الإسلام للكاتب.

(٢) الحجاب للمودودى رحمه الله ص ١٢٩. (٣) الفتاوى (١٠/ ١٣٢).

والرجولة الجهادية في نفوس الشباب إرضاء لدعاة الفساد ومروجيه بشتى الأساليب وأنواع الأجهزة ولقد أخبر الرسول ﷺ عما سيحصل من فتنة النساء للرجال بإثارة غرائزهم باستعمال أنواع الزينة وتحقق فعلاً ما أخبر به عليه الصلاو والسلام ورأته الأعين وهو الآن ماثل للعيان كما في حديث ابي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما»: «قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وأن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1].

و ـ الغناء:

ومن أعظم معاول هدم الأخلاق وافساد القلوب التي استطاع أعداء الله أن يقودوا بها الشباب من ذراري المسلمين إلى طاعة الشيطان ومعصية الرحمن وأن يقتلوا فيه الرجولة والإحساس بالمسؤولية والاعتزاز بدين الله الذي كان أجداده الميامين يعتزون به، من أعظم تلك المعاول: الغناء الذي يعتبر لأجهزة الإعلام المفسدة المعين الذي لا ينضب والمادة التي لا تخلو منها لحظة من اللحظات تلك الأجهزة في بلدان الشعوب الإسلامية، وفيه يجتمع اللفظ القبيح الداعر والمعنى الخبيث القاتل للقلب والصوت الرخيم المفتن من النساء اللاتي أعددن إعداداً خاصاً للإغراء والفتنة وذللت لهن كل الوسائل والأسباب التي تجعلهن يخصصن كل أوقاتهن لهذا الداء العضال ما بين تعلم من شياطين الفساد الذي يسمونه بالفن، وما بين تدرب على كيفية النطق بالألفاظ الملحنة نطقاً فيه من التكسر والتخنث وقلة الأدب مـا لا يرضاه إلا الشيطان الرجيم واتباعه ـ وما أكثر اتباعه.

قال ابن القيم رحمه الله: (فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا وكم من حرٍ أصبح به عبداً للصبيان أو الصبايا، وكم من غيور تبدل به إسماً قبيحاً بين البرايا، وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٠).

المطارف والحشايا وكم من معاق تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا، وكم أهدى للمشغوف به من أشجان وأحزان فلم يجد بداً من قبول تلك الهدايا، وكم جرع من غصة وأزال من نعمة وجلب من نقمة وذلك منه من احدى العطايا، وكم خبأ لأهله من آلام منتظرة وغموم متوقعة وهموم مستقبلة)[١].

وإذا كان هذا الوصف من ابن القيم في زمنه قبل ابتكار أجهزة الإعلام التي لا يخلو منها بيت منها المسموع ومنها المسموع والمرئي، وأسست لها مدارس ومعاهد ضمت جيوشاً من أبناء المسلمين وأصبحوا في سلعتهم أكثر نفاقاً عند أغلب المنتسبين للإسلام من حفظة القرآن الكريم، وأكثر احتراماً من علماء المسلمين لا تتغنى أجهزة الإعلام في أغلب الشعوب الإسلامية إلا بتمجيدهم وإضفاء الألقاب الفخمة عليهم، من تسميتهم بالنجوم تارة والرواد تارة أخرى وبالمناضلين مرة وبالعمالقة مرة ثانية وبالملهمين حيناً وبالقادة حيناً آخر، حتى إنك لتجد قارىء القرآن الذي يذاع صوته من محطة إذاعية يذاع صوت بنته المغنية الناجحة من محطة إذاعية أخرى، فيقفل السامع محطة صوت القارىء ويفتح محطة صوت ابنته المغنية. إذا كان كلام ابن القيم هذا في الغناء في وقته ولم توجد بعد هذه الأدوات وهذا التكريم العام فكيف لو رأى وسمع ما يحدث من الغناء الآن.

ألا ترى أن كلام ابن القيم قد بلغ ذروته الآن فأصبح ما ذكره من أوصاف سامع الغناء مجسماً واضحاً حتى في ابناء البوادي الذين ما كانوا في الأزمنة الماضية إلا رجال شجاعة وبأس يرسل الملوك والرؤساء أبناءهم من المدن إليهم ليكتسبوا الشجاعة والعزة؟ ألا ترى انهم يصدق فيهم قوله: (وكم من حر أصبح عبداً للصبيان والصبايا).

وهل يمكن أن يكون عبيد الصبيان والصبايا قادرين على القيام بالجهاد في سبيل الله قبل أن يتحرروا من تلك العبودية الدنسة إلى عبودية الله وحده.

ويكفي هذا البحث في فتنة النساء وافسادهن للقلوب، لا سيما القلوب

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٢٦٥).

المريضة التي عندها استعداد لذلك.

ولقد حذر رسول الله ﷺ من فتنتهن تحذيراً شديداً كما في صحيح مسلم من حديث زيد بن حارثة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء»(١).

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»(٢).

هذا، ومع كون النفس أمارة بالسوء، وتواقة لارتكاب المحرمات والوقوع في دنس الشهوات، فإن في الناس من تأصل فيهم حب الشهوات حتى أصبحوا عبيداً لشهواتهم يتبعونها ويتخذونها إلٰهاً لهم يعبدونها ويحثون الناس عليها وقد يكونون من أمراء الناس وحكامهم بيدهم وسائل الترغيب والترهيب فيوقعون عامة الناس في حبائل شهواتهم تلك، لانهم لا تهدأ نفوسهم بأن يروا في الأرض ذوي طهر وهم قد وقعوا في أوحال الفواحش والشهوات، كما قال تعالى: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾(٣).

قال ابن جرير رحمه الله ـ بعد أن ساق أقوال المفسرين للآية: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: «معنى ذلك ويريد الذين يتبعون شهوات أنفسهم من أهل الباطل وطلاب الزنا ونكاح الأخوات من الآباء وغير ذلك مما حرمه الله أن تميلوا ميلاً عظيماً عن الحق وعما أذن الله لكم فيه فتجوروا عن طاعته إلى معصيته وتكونوا أمثالهم في اتباع شهوات أنفسكم فيما حرم الله وترك طاعته ميلاً عظيماً») (٤).

وقال سيد قطب رحمه الله: (وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي، يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح من أي لون كان، السعار المحموم

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٤/ ٢٠٩٨).
(٢) صحيح مسلم أيضاً (٤/ ٢٠٩٨). (٣) النساء: ٢٧.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/ ٢٩).

الذي لا يقر معه قلب ولا يسكن معه عصب، ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض ولا تقوم معه أسرة يريدون أن يعود معه الآدميون قطعاناً من البهائم ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة. كل هذا الدمار وكل هذا الفساد وكل هذا الشر باسم الحرية - وهي في هذا الوضع ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة، وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلّهي القويم النظيف وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الإنطلاق البهيمي الذي لا عاصم منه إلا منهج الله حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله)[١].

النوع الثالث: الغنى:

ومن أعوان النفس الأمارة بالسوء على طغيانها كثرة الأموال التي تلهي صاحبها وتشغله عن ربه سبحانه وتعالى. بسبب إقباله عليها وجمعه لها من حلال أو حرام وصرفها وإنفاقها في حلال أو حرام، فإن الأموال الكثيرة عندما تكون بيد صاحب النفس الأمارة بالسوء تمكنه من الحصول على رغبات نفسه التي لا يقدر عليها غيره ممن لا توجد عنده تلك الأموال.

لذلك كان المال من أهم الأسباب المؤدية إلى تكذيب الحق وأهله والاستهزاء بالناس واحتقارهم ومنع الخير والاعتداء على الآخرين والاتصاف بكل صفة ذميمة كما قال تعالى: ﴿فلا تُطِعِ المكذِّبين، ودُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنون. ولا تُطِع كل حلّاف مَهين. همّاز مَشّاء بنميم. مَنّاعٍ للخير معتدٍ أثيم. عُتُلٍّ بعد ذلك زَنِيم. أنْ كان ذا مال وبنين. إذا تُتْلى عليه آياتُنا قال أساطير الأوَّلين﴾[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٦٣٢) طبع دار الشروق. (٢) القلم: ٨ - ١٥.

المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ مِن أساطير الأولين كقوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد...﴾ وساق الآيات إلى قوله: ﴿عليها تسعة عشر﴾(١).

وقال سيد قطب رحمه الله: (ثم يعقب على هذه الصفات الذاتية بموقفه من آيات الله مع التشنيع بهذا الموقف الذي يجزي به نعمة الله عليه بالمال والبنين: ﴿أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ وما أقبح ما يجزي إنسان نعمة الله عليه بالمال والبنين استهزاء بآياته وسخرية من رسوله واعتداء على دينه وهذه كلها تعدل كل ما مر من وصف ذميم)(٢).

ويبطر المال صاحبه حتى يفتخر بكثرة ما ينفقه في معاصي الله من شهوات نفسه ويظن بذلك أنه قد استقل بنفسه واستغنى عن خالقه، لا بل يظن أنه لا أحد يقدر على كبح جماحه وإيقافه عند حده، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كَبَد. أيحسبُ أن لن يقدرَ عليه أحد. يقول أهلكتُ مالاً لُبَداً. أيحسب أن لم يَرَه أحدٌ﴾(٣).

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: (ويطغى - يعني الإنسان - ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه حيث يقول أهلكت مالاً لبداً أي كثيراً بعضه فوق بعض، وسمى الله الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق ولا يعود إليه من إنفاقه إلا الندم والخسارة والتعب والقلة)(٤).

ويبلغ المال بصاحبه من الإلهاء والاغترار إلى أن لا يكون له هم سواه فهو يسعى بكل ما أوتي من قوة لجمعه بأي وسيلة، ثم يأخذ في تعديده باستمرار ليعلم القدر الزائد على ما حصل عليه من قبل وليكاثر به، لا بل أنه من شدة ركونه إلى المال واغتراره به ليظن أن ذلك المال سيخلده في دار الدنيا لكثرة

(١) المدثر: ١١ - ٣٠ وتفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٠٥).
(٢) في ظلال القرآن (٢٩/ ٣٦٦٣). (٣) البلد: ٤ - ٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨/ ٢٤٣).

المساكن والقصور، والمراكب وأنواع المطاعم والمشارب والملابس وغيرها مما سهل له ماله من شهوات الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لكل هُمَزة لُمَزة. الذي جمع مالاً وعدّده. يحسبُ أنَّ مالَه أخلده﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿الذي جمع مالاً وعدَّده﴾ أي جمع بعضه على بعض. وأحصى عدده، كقوله تعالى: ﴿وجمع فأوعى﴾[٢] قاله السدي وابن جرير وقال محمد بن كعب في قوله: (جمع مالاً وعدده) ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة، وقوله تعالى: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ أي يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار)[٣].

ويأتي المال في طليعة أعذار القاعدين عن الجهاد في سبيل الله.

كما قال تعالى: ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾[٤].

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: سيقول لك يا محمد الذين خلفهم الله في أهليهم عن صحبتك والخروج معك في سفرك الذي سافرت ومسيرك الذي سرت إلى مكة معتمراً زائراً بيت الله الحرام إذا انصرفت إليهم فعاتبتهم على التخلف عنك: شغلتنا عن الخروج معك معالجة أموالنا وإصلاح معايشنا)[٥].

وقال سيد قطب رحمه الله: (فالمخلفون من الأعراب... سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم: ﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾ وليس هذا بعذر، فللناس دائماً أهل وأموال، ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها)[٦].

والأموال في طليعة ما يختبر به العبد، لأنها تحول بينه وبين طاعة الله تعالى: إما بجمعها من طرق غير مشروعة، أو صرفها في سبل غير مشروعة

(١) الهمزة: ١ ـ ٣.
(٢) المعارج: ١٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤٨).
(٤) الفتح: ١١.
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦/ ٧٧).
(٦) في ظلال القرآن (٢٦/ ٣٣٢١).

كذلك وإما بالطغيان والتكبر بها على الآخرين وإما بذلك كله وبغيره، قال تعالى: ﴿إنما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه)[٢].

والأموال من أهم المجالات التي يبارز فيها إبليس ابن آدم ويوقعه بها في شباكه، كما قال تعالى: ﴿قال اذهْب فمن تبعك منهم فإن جهنمَّ جزاؤكم جزاءً موفوراً. واستفززْ من استطعتَ منهم بصوتك، وأجلِبْ عليهم بخَيْلك ورَجِلِكَ، وشاركْهم في الأموال والأولاد وعِدْهم، وما يعدُهُم الشيطانُ إلا غروراً﴾[٣].

قال ابن كثير رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ قال ابن عباس: ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى: وقال عطاء: هو الربا، وقال الحسن: هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام وكذا قال قتادة، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم يعني من البحائر والسوائب ونحوها وكذا قال الضحاك وقتادة، وقال ابن جرير، والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله)[٤].

ويتعاظم الفراعنة الطغاة أعداء الله بما يملكون من أموال وأنهار وبساتين على غيرهم ويجعلون ذلك مسِّوغاً لقدرتهم على التصرف في ذلك كله، ويحتقرون الحق وأهله مسِّوغين ذلك بعدم وجود الأموال الطائلة معهم كما قال تعالى: ﴿ونادَى فرعونُ في قومه، قال: يا قوم أليسَ لي ملكُ مصرَ، وهذه الأنهار تجري من تحتِي، أفلا تُبْصرون؟ أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهِين ولا يكاد يُبين، فلولا أُلقي عليه أسْورَة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾[٥].

قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره أنه جمع قومه فنادىٰ فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها ﴿أليس لي

(١) التغابن: ١٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٦).
(٣) الإسراء: ٦٣ ـ ٦٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٠).
(٥) الزخرف: ٥١ ـ ٥٣.

ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿أفلا تبصرون﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك يعني وموسى واتباعه فقراء ضعفاء)(١).

ويكون المال سبباً في بغي صاحبه - إن لم يكن من أولياء الله المؤمنين - وفي فرحه وإفساده ونسيان أن الله الذي خلقه هو الذي رزقه، ويفتخر به على الناس ويتباهى عليهم بما يقدر على تحصيله بماله من أنواع الزينة وغيرها ليشغل الناس بتمني حصولهم على مثل ما حصل عليه، كما قال تعالى: ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لَتَنوء بالعُصْبة أولى القوة، إذ قال له قومه لا تفرحْ إن الله لا يحب الفرحين. وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرَة ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغِ الفساد في لأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أُوتيته على عِلْم عندي، أولَمَ يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون، فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون، إنه لذو حظٍ عظيمٍ﴾(٢).

قال سيد قطب رحمه الله: (ذلك كان المشهد الأول - يعني موقف قارون - من مشاهد القصة يتجلى فيه البغي والتطاول والإعراض عن النصح والتعالي على العظة والإصرار على الفساد والاغترار بالمال والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران ثم يجيء المشهد الثاني - موقف أهل الدنيا وأهل الآخرة من قارون وغناه - حين يخرج قارون بزينته على قومه فتطير لها قلوب فريق منهم وتتهاوى لها نفوسهم ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتي قارون ويحسون أنه أوتي حظاً عظيماً يتشهاه المحرومون)(٣).

ولقد حذَّر رسول الله ﷺ أمته حين خاطب أصحابه رضي الله عنهم فقال: «فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٢٩).
(٢) القصص: ٧٦ - ٧٩.
(٣) في ظلال القرآن (٢٠/ ٢٧١٢).

أهلكتهم»[١] حذرهم رسول الله ﷺ فتنة المال التي أهلكت من قبلهم أن تهلكهم وها هي ـ فعلاً ـ تكاد تدمرهم في هذا العصر الذي بلغت فيه عبادة الناس الدرهم والدينار ذروتها، كما بلغت تعاستهم بسبب ذلك كذلك ذروتها، كما قال ﷺ: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار» الحديث. ولا داعي لذكر الأمثلة على هذا الأمر فكل الناس يعلم ما أحدثه الغنى من بطر وتكبر وارتكاب حرام في كل مجال من مجالات الحياة.

ويكفي هذا القدر من الأمثلة على كون الشهوات من أخطر أعوان النفس على ترك طاعة الله وارتكاب معاصيه، وإن تلك الشهوات تعتبر عقبات في سبيل الجهاد في سبيل الله يحتاج صاحبها إلى إرادة قوية وصبر طويل وعمل متواصل لتخليص النفس من شرورها والوقوع في شباكها.

ولقد شبه الرسول ﷺ الشهوات بالحواجز التي تحول بين المرء ودخول النار، فلا يدخل النار إلا من اقتحم تلك الحواجز وهتكها، فقال ﷺ: «وحفت النار بالشهوات»[٢].

والمراد بالشهوات الملذات المحرمة، قال النووي رحمه الله: (وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهي ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يقسي القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك)[٣].

الفرع الثاني
جهاد النفس وأعوانها

إن مجاهدة النفس وإخضاعها للسير في صراط الله المستقيم، وكبح جماحها من أن تشذ عن طاعته سبحانه إلى معصيته وطاعة عدوه الشيطان الرجيم، إن

(١) البخاري رقم ٣١٥٨ في حديث عمرو بن عوف الأنصاري، فتح الباري (٦/ ٢٥٧) ومسلم (٤/ ٢٢٧٣).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٤). (٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ١٦٦).

تلك المجاهدة أمر شاق ولازم ومستمر: شاق لما جبلت عليه النفس من محبة الإنطلاق غير المحدود لتنهب كل ما أتت عليه من شهوات وملذات وشاق لكثرة تلك الشهوات والملذات التي لا تدع النفس تطمئن لحظة من اللحظات دون أن تهيج إلى هذه الشهوة أو تلك، وشاق لأن أكثر الناس يعين على ارتكاب المعاصي وترك الطاعات، ولأن الشيطان لعنه الله لا يفتر عن الحض على التمرد على الله بشتى الأساليب والوسائل ـ كما يأتي.

وهو أمر لازم أيضاً لأنه لا مندوحة للإنسان ـ إذا أراد النجاة في الدنيا والآخرة من مساخط الله وما يترتب عليها ـ من أن يحارب هذه النفس الأمّارة بالسوء ويقف ضد هواها المردي وإلا لزلَّ عن الصراط المستقيم وتنكب الجادة الهادية إلى طريق الضلال والردى.

وهو أمر مستمر كذلك ما دام الإنسان حياً، لأن النفس ملازمة له وهي تأمره بما تهواه وتصده عما يأمره الله به في كل لحظة فإذا انقطع عن مجاهدتها لحظة أوقعته ولا بد فيما فيه حتفه وهلاكه في تلك اللحظة.

ومجالات مجاهدة النفس لا تحصى كثرة: ولكنها يمكن أن تجمل في مطلبين.

المطلب الأول: تقوية صلة هذه النفس بخالقها وإلهها.
المطلب الثاني: محاسبتها ومخالفتها، وفي كل مطلب أمور.

المطلب الأول
تقوية صلتها بالله تعالى

الأمر الأول: طرد جهلها الذي هو من طبيعتها بالعلم النافع:

وقد سبق أن الجهل من أعوان النفس الأمارة بالسوء، فالعلم النافع من أعظم الأسلحة التي تعين على جهاد هذه النفس.

ومصدر هذا العلم إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. لأن الله تعالى الذي خلق هذه النفس هو أعلم بها منها، وقد أنزل هذا القرآن من أجلها

وبعث رسوله ﷺ مبلِّغاً عنه وحيه الذي يشمل القرآن والسنة معاً، وليكون ﷺ قدوة عملية لمن أراد الإستجابة لداعي الله سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[١] وقال تعالى: ﴿قُلْ أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً﴾[٢] وقال تعالى: ﴿واعلموا أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أنَّ الله غفور رحيم﴾[٣].

فخالق النفس أعلم بها والذي يعلم سرها ونجواها هو الذي يعلم ما يصلحها وما يفسدها ولذلك كان كتابه هو كتاب هذه النفس الذي فيه هدايتها وبه سعادتها قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر. وذكر الله كثيراً﴾[٤]. وقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخُذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إنَّ الله شديدُ العقاب﴾[٥].

والعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو السبيل الوحيد لمعرفة الخلال التي ترضى الله تعالى مما يجب أن يتحلى بها المؤمنون، إما بالأمر بها والدعوة إليها، وإما بمدح أهلها والثناء عليهم بها، كما أن العلم بهما هو السبيل الوحيد كذلك لمعرفة الصفات الذميمة التي تسخط الله تعالى مما يتصف بها أعداء الله من الكافرين والمنافقين والفاسقين: إما بالنهي عنها أو بوصف أهلها بها على سبيل الذم.

ولهذا كان كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما الهادين لعباد الله المتقين إلى صراطه المستقيم. كما بين سبحانه وتعالى ذلك في أول سورة البقرة فقال: ﴿ألَم. ذلك الكتاب لا رَيْب فيه هدى للمتقين﴾[٦] ثم شرع تعالى في بيان صفات المؤمنين مرتباً عليها فلاحهم وهداهم، كما بين بعدها صفات أعدائه الكافرين والمنافقين[٧] مشيراً سبحانه بذلك إلى هذا المعنى العظيم وهو أن هذا الكتاب إنما أنزل لهداية النفس البشرية بما يدعو إليه من العقيدة والشريعة والخلق، وإن من

---

(١) الملك: ١٤.
(٢) الفرقان: ٦.
(٣) البقرة: ٢٣٥.
(٤) الأحزاب: ٢١.
(٥) الحشر: ٧.
(٦) البقرة: ١-٢.
(٧) البقرة: ٦ ـ ٢٠.

لم يستجب له فإنه في شقاء وخسارة كما قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقْوَم﴾(١) وقال: ﴿ومن أعرضَ عن ذكري فإن له معيشةً ضَنْكاً﴾(٢).

وقال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي ألا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(٣) وقال عليه الصلاة والسلام مبيناً ما بعثه الله به من الهدى ونصيب من وفقه الله للتفقه في دينه على ضوء ذلك الهدى، وخسران من حرم الفقه في دين الله والعمل به، قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً. فكان منها نقبه قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعانٌ لا تُمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(٤).

ففي هذا الحديث العظيم قسم الرسول ﷺ الناس في قبول الهدى أو عدمه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: العلماء العاملون، والقسم الثاني: العلماء الذين ينتفع الناس بعلمهم أكثر من انتفاعهم هم به. والقسم الثالث: من لم ينتفع بعلم ولا عمل.

قال الإمام النووي رحمه الله: (أما معاني الحديث ومقصوده فهو تمثيل الهدى الذي جاء به ﷺ بالغيث، ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس، فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحيا بعد أن كان ميتاً وينبت الكلأ فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل به ويعلمه غيره، فينتفع وينفع.

والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس

(١) الإسراء: ٩. (٢) طه: ١٢٤.
(٣) البخاري رقم ٤٩٨١ فتح الباري (٩/ ٣) ومسلم (١/ ١٣٤).
(٤) البخاري رقم ٧٩ فتح الباري (١/ ١٧٥) ومسلم (٤/ ١٧٨٧).

لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظون حتى يأتي طالب محتاج فيعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم.

والنوع الثالث من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذلك النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم، والله أعلم. وفي هذا الحديث أنواع من العلم منها ضرب الأمثال ومنها فضل العلم والتعليم وشدة الحث عليهما وذم الإعراض عن العلم والله أعلم)[(١)].

وقد أثبت الرسول ﷺ الخير لمن وفقه الله ففقهه في الدين ومعنى ذلك أن من لم يفقهه في دينه فقد حرم الخير، وكيف ينال الخير من حرم الفقه في دين الله ففي حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[(٢)].

قال الحافظ رحمه الله: (ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين ـ أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حرم الخير)[(٣)].

والسبب في ربط الخير بالفقه في الدين أنه بالفقه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يتعرف المؤمن بذلك على أسماء الله وصفاته وما يجب له تعالى وما يجب للنفس وللناس من قريب أو بعيد فينطلق الفقيه في الدين في عمله عن علم ومعرفة ويفرق بين الحق والباطل، بخلاف الجاهل في ذلك كله.

وهذا يقتضي من العبد أن يجتهد في تحصيل العلم من الكتاب والسنة وكل علم يعين على فهمهما والفقه فيهما وأن يكون القصد من ذلك تطبيق ما علمه بعمله حتى يكون علماً نافعاً وإلا كان الجاهل بدين الله خيراً منه. قال ابن

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٤٧ ـ ٤٨).
(٢) البخاري رقم ٧١ فتح الباري (١/ ١٦٤). ومسلم (٢/ ٧١٨).
(٣) فتح الباري (١/ ١٦٥).

تيمية رحمه الله: (وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربُّهم لنُهلكنَّ الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾(١) وقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾(٢) فوعد بنصر الدنيا وثواب الآخرة لأهل الخوف، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب، فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب، ولهذا يقال للفاجر لا يخاف الله، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾(٣) قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل.. قال مجاهد: كل عاص فهو جاهل حين معصيته، وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم إنما سموا جهالاً لمعاصيهم لا أنهم غير مميزين. وقال الزجاج: ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءاً، وإنما يحتمل أمرين.

أحدهما أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه. والثاني أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة، وآثروا العاجل على الآجل فسموا جهالاً لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة. فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل وإما فساد الإرادة وقد يقال هما متلازمان. والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله... إلى أن قال (وفي الكلام المعروف عن الحسن البصري ويروي مرسلاً عن النبي ﷺ -: «العلم علمان فعلم في القلب وعلم على اللسان فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان حجة الله على عباده»)(٤).

ومن أعظم ما يعين العبد على نفسه علمه بأدوائها وأعوانها على الشر وعلمه بما يعالج به تلك الأدواء ويدفع به تلك الأعوان من الكتاب والسنة، لأنه بذلك يكون مثل الجندي الذي درب على معرفة عدوه ومعرفة قوة هذا العدو وأسلحته ومواطن ضعفه وميدان انطلاقه، وكذلك زود بالعدة والأسلحة المضادة

(١) إبراهيم ١٣ - ١٤.
(٢) الرحمن: ٤٦.
(٣) النساء: ١٧.
(٤) الفتاوى (٧/ ٢١ - ٢٣).

التي تبطل مفعول أسلحة عدوه وتعطل حركته وتلجئه إلى التقهقر ثم الفشل والهرب من الميدان في آخر الأمر، فهو في حاجة إلى الصبر والمصابرة والمرابطة في ميدان معركة عدوه الكافر، فالنفس هي التي تشح بفعل الخير، وهي التي تجود بالشر ولذلك علق الله فلاح الإنسان بأن يقيه شحها، كما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون﴾[١].

كما بين تعالى أنه لا فلاح للإنسان إلا بتزكية نفسه، وأن الخسران في تدنييسها ﴿قد أفلح من زكَّاها، وقد خاب من دَسَّاها﴾[٢] ونص تعالى على كثير من الطاعات التي تزكي هذه النفس وتكون سبباً في فلاح صاحبها مثل قوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ إلى قوله: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾[٣].

فاجتهاد المسلم في التفقه في دين الله من كتاب الله وسنة رسوله هو محور فلاحه وبعده عن ذلك من أعظم أسباب خسرانه.

الأمـر الثاني: إرغام النفس على العمل الصالح الذي تضمنه المنهج الإسلامي.

لقد خلق الله تعالى الإنسان وفطره على الحركة والعمل في هذه الحياة ليقوم بعمارة الأرض ويحقق استخلاف ربه إياه فيها، كما أنه تعالى زود هذا الإنسان بمنهج لحياته ينير له الطريق ويقوده إلى ما فيه سعادته ودعاه سبحانه إلى سلوكه صراطه المستقيم والبعد عن سلوك سبل الضلال ـ وهي ما عدا ذلك الصراط المستقيم ـ فهو دائماً جاهد متحرك لا يسكن إلا ليتحرك: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[٤] قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره إنك عامل إلى ربك عملاً فملاقيه به خيراً كان عملك ذلك أو شراً)[٥].

(١) التغابن: ١٦.
(٢) الشمس: ٩ ـ ١٠.
(٣) المؤمنون: ١ ـ ١١.
(٤) الإنشقاق: ٦.
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠/ ١١٥).

وقال ابن كثير رحمه الله: (أي إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً «فملاقيه» ثم إنك ستلقىٰ ما عملت من خير أو شر)[١].

وقال سيد قطب رحمه الله: (يا أيها الإنسان انك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحاً تحمل عبئك وتجهد جهدك وتشق طريقك لتصل في النهاية إلى ربك فإليه المرجع وإليه المآب بعد الكد والكدح والجهاد)[٢].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقُها أو موبقُها»[٣] قال النووي رحمه الله: (وأما قوله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها فمعناه كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعها فيوبقها أي يهلكها والله أعلم»)[٤] وقال ابن رجب رحمه الله: (ودلَّ الحديث على أن كل إنسان إما ساع في هلاك نفسه أو في فكاكها، فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله وأعتقها من عذابه ومن سعى في معصية الله فقد باع نفسه بالهوان وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه)[٥].

فظهر مما تقدم أن الإنسان لا بد أن يشغل وقته بعمل وسعي فإن ملأ وقته بمنهاج الله تعالى فقد حافظ على عمره الذي منحه الله إياه من أن يشذ به عن طاعة الله التي خلق من أجلها، وإلا فلا بد أن يملأه بغير ذلك من معاصي الله التي توصله إلى أليم عقابه.

ولعل ذلك من أسباب تعظيم الله تعالى للزمن حيث أقسم به تعالى في عدة مواضع من كتابه على فلاح الإنسان وفوزه بالعمل الصالح أو خسرانه بعمل المعاصي لأن عمر الإنسان محدود بزمن معين له بداية ونهاية وهو يتقلب فيه مفلحاً أو خاسراً قال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خُسَر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر﴾[٦] وقال: ﴿والليل إذا يَغْشى. والنهار إذا تجلَّى. وما خلق الذكر والأنثى. إنّ سعيَكم لشتّى. فأما من

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٨٨). (٢) في ظلال القرآن (٣٠/ ٣٨٦٦).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) من حديث أبي مالك الاشعري رضي الله عنه.
(٤) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠٢). (٥) جامع العلوم والحكم ص١٩٣.
(٦) العصر.

أعطى واتَّقى. وصدَّق بالحُسنى. فسنُيسِّره لليُسْرى. وأما من بخل واستغنى. وكذَّب بالحسنى. فسنيسِّره للعُسْرى﴾[١] وقال: ﴿والشمس وضُحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاّهـا . والليل إذا يَغْشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها. ونَفْسٍ وما سّواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكَّاها. وقد خاب من دسَّاها﴾[٢].

وصرَّح سبحانه وتعالى بأن المقصود من خلق الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر منح عباده المتقين للتذكر والشكر له عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفة لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكوراً﴾[٣].

قال ابن كثير رحمه الله: (أي يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا وإذا جاء هذا ذهب ذاك. . . وقوله تعالى: ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح أن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)[٤]. ولهذا يحاسب الله تعالى أهل النار يوم القيامة على الفسحة في الأعمار التي منحهم الله إياها ليتذكروا حقه عليهم ويتبعوا هداه الذي جاءهم به رسله عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾[٥].

قال ابن كثير رحمه الله: (أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم)[٦].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

---

(١) الليل: ١ ـ ١٠.
(٢) الشمس: ١ ـ ١٠.
(٣) الفرقان: ٦٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٢٤).
(٥) فاطر: ٣٦ ـ ٣٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٥٨).

قال: «أعذر الله إلى امرىء آخر أجله حتى بلغه ستين سنة»(١).

قال الحافظ ابن حجر: (قال ابن بطّال: إنما كانت الستون حداً لهذا لأنها قريبة من المعترك وهي سن الإنابة والخشوع وترقب المنية، فهذا إعذار بعد إعذار لطفاً من الله بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل لكنهم أمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليمتثلوا ما أمروا به من الطاعة وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية)(٢).

وفي سنن الترمذي من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم»(٣). والحديث وإن كان ضعيفاً فإن النصوص الماضية واضحة في أن الإنسان مسؤول عن عمره.

فالزمن الذي يعيش فيه المكلف مسؤول عنه أمام الله تعالى يوم القيامة وذلك يقتضي أن يجاهد الإنسان نفسه باستمرار لملء هذا الزمن بطاعة الله لا بمعصيته.

خطر الفراغ على النفس البشرية:

ولما كان عمر الإنسان كله ـ في حال تكليفه ـ لا بد من تحركه فيه وكسبه وسعيه فإن نجاحه وفلاحه أن يملأه بطاعة الله، وإلا أصيب بمفسدة الفراغ الذي حذر منه الرسول ﷺ وأخبر أن الفراغ نعمة يندم صاحبها إذا لم يستغلها في طاعة الله ـ لأنه سينشغل بمعصية الله، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»(٤).

---

(١) الحديث رقم ٦٤١٩ وهو في الفتح (١١/ ٢٣٨). (٢) فتح الباري (١١/ ٢٤٠).
(٣) الحديث رقم ٢٥٣١، وهو في تحفة الأحوذي (٧/ ٩٩ ـ ١٠٠).
(٤) صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٤١٢، وهو في فتح الباري (١١/ ٢٢٩).

قال الحافظ: (قال ابن بطال: معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص على ألا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون)[1].

ولقد وعى السلف الصالح ـ وعلى رأسهم أصحاب رسول الله ﷺ ـ خطر التفريط في الفراغ وعدم شغله بطاعة الله تعالى، وهذه وصية ابن عمر التي كان يعظ بها الناس ففي صحيح البخاري عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك)[2].

قال ابن رجب رحمه الله: (قوله: وخذ من صحتك لسقمك ومن حياتك لموتك) يعني اغتنم الأعمال الصالحة قبل أن يحول بينك وبينها السقم، و(من) الحياة قبل أن يحول بينك وبينها الموت... وقد روى معنى هذه الوصية عن النبي ﷺ من وجوه (وذكر حديث ابن عباس السالف الذكر) وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك»[3].

ولقد أخبر الله في كتابه أن الذي لا يشغل فراغه في الدنيا يندم يوم القيامة ويتمنى لو يعود إلى الدنيا ليحصل على فراغ يشغله بطاعة الله ولكن ذلك الندم لا ينفعه لأنه قد فوت على نفسه وقتاً كافياً منحه الله إياه فشغله بغير طاعة ربه، قال تعالى: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٣٠).
(٢) البخاري رقم ٦٤١٦، فتح الباري (١١/ ٢٣٣).
(٣) جامع العلوم والحكم (ص ٣٣٦).

لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين، بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾(١) والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال محمد قطب ـ مبيناً خطر الفراغ ـ : (إن الفراغ مفسد للنفس إفساد الطاقة المختزنة بلا ضرورة، وأول مفاسد الفراغ هو تبديد الطاقة الحيوية لملء الفراغ ثم التعود على العادات الضارة التي يقوم بها الإنسان لملء هذا الفراغ، والإسلام حريص على شغل الإنسان شغلاً كاملاً منذ يقظته إلى منامه بحيث لا يجد الفراغ الذي يشكو منه، ويحتاج في ملئه إلى تبديد الطاقة أو الإنحراف بها عن نهجها الأصيل)(٢).

المنهاج العملي لملء الفراغ عند المسلم:

عندما حذر الله عبده من خطر الفراغ والتفريط فيه وملئه بطاعته سبحانه لم يترك هذا العبد يتخبط في وضع منهاج عملي يملأ به ذلك الفراغ من عند نفسه بل تفضل الله سبحانه على عبده بمنهج شامل لحياته من وقت ولادته إلى أن يلقى ربه، فليس عند المسلم مطلقاً وقت فراغ يملأه بغير طاعة ربه وهذا المنهاج الرباني يشمل نشاط قلبه وعقله وجسمه وروحه في كل جزء، من أجزاء حياته. ويطلق على هذا المنهاج: العبادة، أو العمل الصالح أو ما أشبه ذلك من الألفاظ الدالة عليه، كالخير والبر والطاعة، والمعروف. . .

غاية المنهاج العملي:

وقد جعل الله سبحانه لمنهاجه العملي الذي لا يجد الإنسان معه فراغاً يشكو منه أو يشغله بالشر والفساد غاية تجمع كل نشاط الإنسان بحيث لا يتحرك ولا يسكن إلا محققاً لتلك الغاية، وهذه الغاية هي رضا الله الخالق الذي وصف تعالى عباده المؤمنين باتباعه، واتباع رضوانه هو الواقي من اتباع الهوى والنفس الأمارة بالسوء والشيطان، كما قال سبحانه: ﴿الذين قال لهم الناسُ إنَّ

(١) الزمر: ٥٤ ـ ٥٩.

(٢) منهج التربية الإسلامية (١/ ٢٥٣).

الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حَسْبنا الله ونِعْم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفَضْل لم يَمْسَسْهم سوءٌ، واتبعوا رضوانَ الله، والله ذو فضل عظيم﴾[١].

وهو تعالى إنما يرضى الإسلام فمن أسلم لله فقد اتبع رضوانه، كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينَكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾[٢] وهو لا يرضى الكفر والفسوق والعصيان فمن كفر أو فسق أو عصى فقد اتبع ما يسخط الله لا ما يرضيه، كما قال تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يَرْضَهُ لكم﴾[٣] وقال تعالى: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾[٤].

وكما أنه تعالى لا يرضى الكفر والفسوق والعصيان فإنه كَرَّهها إلى عباده المؤمنين وحذرهم منها، كما قال تعالى: ﴿ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون﴾[٥].

والمؤمنون الذين اتبعوا رضوان الله خصهم تعالى برضاه عنهم ورضاهم عنه كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريّة. جزاؤهم عند ربهم جناتُ عَدْن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾[٦].

ولما كان الهدف والغاية من كسب المؤمن في الدنيا هو رضا الله تعالى فإن الله تعالى يذكر به عباده المؤمنين بعد أن يدخلوا الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويظنون أنه لم يبق أي نعيم يمكن أن ينعم به الباري عز وجل عليهم يذكرهم الله بذلك ويبشرهم تعالى بحصوله وإحلاله عليهم إحلالاً لا انقطاع فيه، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة: فيقولون:

(١) آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤.
(٢) المائدة: ٣.
(٣) الزمر: ٧.
(٤) التوبة: ٩٦.
(٥) الحجرات: ٧.
(٦) البينة: ٧ - ٨.

لبَّيك ربنا وسَعْدَيك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك فيقول: ﴿أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً﴾[١].

هل ترى الإنسان الذي حدد غايته برضا ربه تعالى يفسده الفراغ بتبديد طاقته أو شغل وقته بما فيه شر؟

العمل الصالح يستغرق كل جزء من أجزاء عمر الإنسان:

ولقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه لم يوجد الإنسان إلا لعبادته وليس لشيء آخر، كما قال سبحانه: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين﴾[٢].

كما بين تعالى في آيات أخرى أن هذا الإنسان كله لله فحركاته لله وسكناته لله وحياته لله وموته لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريكَ له وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المسلمين﴾[٣].

وقد يشكل على بعض الناس ممن لم تدرك أفهامهم مقاصد الكتاب والسنة ومصطلحات الإسلام، قد يشكل عليهم هذا الشمول في الآيتين فيسألون أما خلق الإنسان إلا لعبادة الله؟ أما يوجد غير عبادة الله من أكل وشرب ونوم ومسكن ومركب وملبس وقيام وقعود غير الصلاة والصيام والذكر...؟ نعم قد يشكل على هؤلاء هذا الشمول لأنهم لم يفهموا معنى العبادة التي لم يخلقهم الله تعالى لغيرها، ولو فهموها كما فهمها السلف الصالح لما حصل لهم هذا الإشكال.

لقد أوضح رسول الله ﷺ لأصحابه ـ وهو إيضاح للأمة كلها ـ إن العبادة عامة شاملة لكل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه ـ ولو كان مباحاً ـ فكما أن أركان

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٦).
(٢) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.
(٣) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

الإيمان ـ وهي من أعمال القلب ـ وأركان الإسلام ـ وهي من أعمال الجوارح ـ وما تفرع عن تلك الأركان، من أنواع العبادة، فكذلك سعى الإنسان لاكتساب رزقه ورزق عياله، إذا قصد به وجه الله والتَقَوِّي على طاعته فإنه عبادة، وتقيد الإنسان في بيعه وشرائه وكل معاملاته بما أحل الله تعالى واجتناب ما حرم فإنه يعتبر كذلك عبادة لا بل أن المسلم لينام على سريره وهو يرجو أن يثيبه الله على نومه، ولهذا كان المؤمن ذاكراً لربه تعالى على كل حالة من حالاته. فيذكر الله إذا أوى إلى فراشه ويذكره إذا استيقظ من منامه ويذكره إذا أغلق باب داره ويذكره إذا أراد الدخول لقضاء حاجته ويذكره إذا خرج من مكان قضائها، ويذكره إذا دخل المسجد وإذا خرج منه ويذكره إذا أراد تناول طعامه أو شرابه وإذا فرغ منهما ويذكره إذا أراد لبس ثوبه ويذكره إذا خرج من بيته مسافراً وإذا ركب على دابته أو سيارته ويذكره إذا رجع من سفره، بل لا يزال لسانه رطباً بذكر الله تعالى محققاً أمر الله بذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبِّحوه بُكْرة وأصيلاً﴾[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «كل سُلامَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين أثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[٢].

قال ابن رجب في شرح هذا الحديث: (وهذه الأنواع التي أشار إليها النبي ﷺ من الصدقة منها ما نفعه متعد كالإصلاح وإعانة الرجل على دابته.. والكلمة الطيبة، ويدخل فيها السلام وتشميت العاطس وإزالة الأذى عن الطريق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودفن النخاعة في المسجد وإعانة ذي الحاجة الملهوف وإسماع الأصم وتبصير المنقوص بصره وهداية الأعمى أو غيره الطريق... ومنه ما هو قاصر النفع كالتسبيح والتكبير والتحميد والتهليل

(١) الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢.
(٢) البخاري رقم ٢٩٨٩، فتح الباري (٦/ ١٣٢)، ومسلم (٢/ ٦٦٩).

والمشي إلى الصلاة وصلاة ركعتي الضحى)[١].

ويحس المسلم أن الضرر الذي يصيبه من جوع أو عطش فيدفعه إذا قدر عليه فإن غيره من الحيوانات العجماء ـ فضلاً عن الإنسان ـ إذا أصابه ذلك الضرر قد لا يقدر على دفعه بنفسه فيسرع المسلم لنجدته ابتغاء وجه ربه فينال بذلك ثواب الله ورضاه لأنه عبده بذلك.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا هوبكلب يلهث يأكل الثرى من العطش»، فقال: «لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفَّه ثم أمسكه بفمه ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كَبِدٍ رَطْبة أجر»[٢].

ويسعى المسلم ليكسب الرزق لعياله وهو يبتغي بذلك وجه الله فيكون في عبادة يثيبه الله عليها، كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ـ وفيه: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك)[٣].

وهذا ما فهمه أصحاب رسول الله ﷺ من معنى العبادة أو العمل الصالح الذي يحقق الغاية وهي رضا الله تعالى، لذلك قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (والله إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي)[٤] أي إني أرجو أن يثيبني الله تعالى على نومي كما أرجو أن يثيبني على قيام الليل مصلياً له تعالى. وفهم هذا المعنى هو الذي جمع طاقتهم ووحدها لتحقيق تلك الغاية فرفعوا بذلك كلمة الله في الأرض في فترة قصيرة من الزمن. كما أنهم بذلك أكثروا من طاعة الله والتقرب إليه إذ غدت أعمالهم كلها طاعة وعبادة وعملا صالحاً ولو كانت في الأصل من المباحات. وهذا ما دعا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن يعرِّف

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص ٢١٦).
(٢) البخاري رقم ٢٣٦٣، فتح الباري (٥/ ٤٠) ومسلم (٤/ ١٧٦١).
(٣) البخاري رقم ٢٧٤٢، فتح الباري (٥/ ٣٦٣) ومسلم (٣/ ١٢٥٠).
(٤) البخاري رقم الحديث ٤٣٤٢، فتح الباري (٨/٦٠)، ومسلم (٣/١٤٥٦).

العبادة هذا التعريف الشامل الذي لا يخرج عنه أي جزء من أعمال القلوب والجوارح المراد بها وجه الله سبحانه، فقال: (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك في الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة)[١].

وعلى هذا فالعمل الصالح هو ما يراد به وجه الله مطابقاً لشرعه سواء كان واجباً أو مندوباً أو مباحاً يعملها العبد، أو محرماً أو مكروهاً يتركهما، وهي الأحكام الخمسة المعروفة في علم أصول الفقه بالأحكام التكليفية.

المحافظة على الفرائض:

أداء الفرائض والمحافظة عليها هو الحد الأدنى الذي كلفه الله المسلم حيث لا يجوز له التفريط فيه، بل يجب عليه أداؤه على الوجه المطلوب شرعاً فيه.

وأول هذه الفرائض الإخلاص في عبادة الله، وهو تصفية العمل وتنقيته من شوائب الشرك بالله سواء كان شركاً أكبر، وهو الذي لا يغفر الله لصاحبه إذا مات عليه، كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[٢] أو شركاً أصغر ـ ومنه إرادة الإنسان بعمله مراءات الناس ـ كما قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[٣].

وفي الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)[٤] وقد أمر الله تعالى بالإخلاص في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ قال عز وجل: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له

(١) الفتاوي (١٠/ ١٤٩).
(٢) النساء: ٤٨ ـ ١١٦.
(٣) الكهف: ١١٠.
(٤) مسلم (٤/ ٢٢٨٩).

الدين﴾(١) وقال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

وقال: «اتق الله حينما كنت»(٣)، ومما يعين على الإخلاص أن يتذكر المسلم عظمة الله تعالى الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وإن المخلوقين لا يقدرون على نفعه بشيء وكذلك لا يقدرون على ضره مهما عظمت منزلتهم، فإن تذكر الأمرين ـ عظمة الخالق وضعف المخلوق من أكبر ما يعين على الإخلاص لله تعالى.

والإخلاص لله تعالى في العمل يربي النفس على الاتجاه إلى بارئها وانصرافها عمن سواه، وهذان الأمران هما العاصمان من الهوى والإنزلاق في مهاوي الشهوات والمعاصي. وهو أساس الخوف من الله تعالى وخشيته التي تحجز المسلم عن تلك الشهوات والمعاصي. كما قال تعالى: ﴿وأما من خاف مقامَ ربِّه ونهى النفس عن الهوى. فإنَّ الجنةَ هي المأوى﴾(٤)، ولكون الإخلاص أساس الأعمال الصالحة كلها ذكر في مقدمتها.

وقد حث الله تعالى العبد على تزكية نفسه بما افترضه عليه في نصوص القرآن والسنة، ويصعب استقصاء تلك الفرائض ونصوصها، وأثر أدائها في تزكية النفس ولكن يكفي ذكر بعضها على سبيل الأمثلة.

والنصوص الدالة على وجوب أداء الفرائض منها ما ورد عاماً في أدائها إجمالاً ومنها: ما ورد في فريضة بعينها.

فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾(٥). وطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ شاملة لكل ما أمر الله به أو أمر به رسوله بأن يفعله المسلم حسب

(١) البينة: ٥.
(٢) البخارى، رقم الحديث ٥٠، فتح الباري (١/١١٤) ومسلم (١/٣٦).
(٣) الترمذي (٤/٣٥٥، ٣٥٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وراجع جامع العلوم والحِكم لابن رجب ص ١٣٦.
(٤) النازعات: ٤٠ ـ ٤١.
(٥) النساء: ٥٩.

طاقته، كما أنها شاملة كذلك لكل ما نهى الله عنه أو نهى عنه رسوله ﷺ بأن يتركه المسلم. وقد رتب الله تعالى على طاعته وطاعة رسوله ﷺ فوز المطيع، وهو شامل لفوزه في الدنيا ـ ومنه الانتصار على الأعداء ـ وفي الآخرة كما قال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾(١).

وفي حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»(٢).

والتقرب إلى الله تعالى بفرائضه أحب إليه تعالى من غيرها كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه﴾(٣).

قال الحافظ: (ويستفاد منه ـ أي من هذا الحديث ـ إن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله، قال الطوفي: الأمر بالفرائض جازم، ويقع بتركها العاقبة، بخلاف النفل في الأمرين وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب، فكانت الفرائض أكمل، فلهذا كانت أحب إلى الله تعالى وأشد تقرباً، وأيضاً فالفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الأمر وتعظيمه بالإنقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية فكان التقرب بذلك أعظم العمل)(٤).

أما النوع الثاني ـ وهو النصوص الواردة في كل فريضة على حدة دالة على وجوب أدائها ومبينة لآثارها في تربية النفوس وتزكيتها ـ فإنها أعظم من أن تحصر، لأن منها ما هو فرض عين يجب على كل مكلف أداؤه، ومنها ما هو

---

(١) الأحزاب: ٧١.

(٢) جامع العلوم والحكم ص٢٤٢ قال الحافظ ابن رجب، هذا الحديث من رواية مكحول عن أبي ثعلبة الخشنى وله علتان: أحداهما أن مكحولاً لم يصح له السماع عن أبي ثعلبة... والثانية أنه اختلف في رفعه ووقفه على أبي ثعلبة ورواه بعضهم عن مكحول عن قوله لكن قال الدارقطني: الأشبه بالصواب المرفوع، قال وهو أشهر وقد حسن الشيخ رحمه الله ـ يعني النووي ـ هذا الحديث وكذلك حسنه قبله الحافظ أبو بكر السمعاني في أماليه.

(٣) البخاري، رقم الحديث ٦٥٠٢، فتح الباري (١١/ ٣٤٠).

(٤) فتح الباري (١١/ ٣٤٣).

فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين قياماً كافياً سقط عن باقيهم، ومنها ما يوجبه المكلف على نفسه.. قال الحافظ في شرحه للحديث الآنف الذكر: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه: ويدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية، وظاهره الاختصاص بما ابتدأ الله فريضته، وفي دخول ما أوجبه المكلف على نفسه نظر للتقييد بقوله: (افترضت عليه) إلا إن أخذ من جهة المعنى الأعم)[١].

ولكثرة تلك الفرائض ونصوصها يكفي ذكر بعضها لمعرفة مدى أثرها في التربية والتزكية.

الصلاة:

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»[٢].

وفي حديث عمر بن الخطاب ـ المشهور بحديث جبريل ـ قال ـ أي جبريل ـ : (يا محمد أخبرني عن الإسلام)، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» قال: (صدقت)[٣] الحديث.

وقد وردت نصوص القرآن التي توجب الصلاة بأساليب متعددة: فمنها الأمر بإقامتها: مثل قوله تعالى: ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون﴾[٤]. ومنها الأمر بالمحافظة عليها، مثل قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوُسْطى﴾[٥]، ومنها الذم والوعيد لمن أضاعها مثل قوله تعالى: ﴿فخَلَف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة، واتَّبعوا الشهواتِ، فسوف يَلْقَون

---

(١) نفس المصدر السابق (١١/ ٣٤٣).
(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١/ ٣).
(٣) مسلم (١/ ٣٧).
(٤) الأنعام: ٧٢.
(٥) البقرة: ٢٣٨.

غَيًّا﴾(١)، ومنها ما يجعلها قرينة لبعض أصول الإيمان التي لا فلاح بدونها، مثل قوله تعالى: ﴿آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هُدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾(٢) وغير ذلك من الآيات القرآنية التي لا يقصد هنا جمعها واستقصاؤها.

أما أثر الصلاة في التزكية والتربية فهو من الأمور التي يمكن أن يعرف من النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة، ولكن العلم الحق بذلك الأثر لا يؤتاه إلا من ذاقه حقاً في نفسه بإقامتها كما كان يقيمها رسول الله ﷺ ويحافظ عليها كما كان يحافظ عليها مع الإقبال على الله وخشيته والإنابة إليه وتدبر آياته وذكره فيها فهي ركن من أركان فلاح المسلم ولا فلاح بدونها كما مضى في آيات سورة البقرة قريباً وكذلك في قوله تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربِّه فصلَّى﴾(٣) فقد علق سبحانه الفلاح بتزكية النفس، وذكر تعالى بعد ذلك ما يتزكى به المؤمن وهما ذكر الله والصلاة، كما ذكرها سبحانه على رأس صفات المؤمنين المفلحين في الدنيا والآخرة بذكر بعض صفاتها، وهو الخشوع فيها، وختم بها كذلك تلك الصفات بذكر بعض صفاتها الأخرى وهي المحافظة عليها مبيناً سبحانه آثارها، وهي: الفلاح ووراثة الفردوس والخلود فيها، كما قال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادُون. والذين هم لأماناتِهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتِهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾(٤)، ويظهر من اكتناف ذكر الخشوع في الصلاة وذكر المحافظة عليها أن الصفات الحميدة التي ذكرت بينها لا تصدر إلا من مقيم الصلاة، ومما يدل على ذلك - وهو من آثار إقامة الصلاة والمحافظة على كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، قوله

(١) مريم: ٥٩.
(٢) البقرة: ١ - ٥.
(٣) الأعلى: ١٤ - ١٥.
(٤) المؤمنون: ١ - ١١.

تعالى: ﴿أتْلُ ما أُوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر. والله يعلم ما تصنعون﴾[١] وهذه من أعظم علامات إقامة الصلاة كما أمر الله ومن أهم ثمارها وأثرها في تزكية نفس المسلم وتربيتها.

ومن آثارها أنها قرينة الصبر في استعانة المؤمن بها على طاعة الله واجتناب معصيته، كما قال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾[٢] وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾[٣].

ومن آثار إقامة الصلاة أنها من أسباب الإحسان إلى الناس ولذلك تجد الإنفاق وإيتاء الزكاة مقترنين بها في أغلب آي القرآن، كقوله: ﴿ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[٤]، وقوله: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فِعْلَ الخيراتِ وإقامَ الصلاة وإيتاء الزكاة﴾[٥].

ولقد أوضح رسول الله ﷺ أثر الصلاة في تزكية النفس البشرية وتطهيرها من أدناس الشهوات والمعاصي فشبهها - في تكفير السيئات ومحو الخطايا - بنهر جار بباب المسلم - وفي قرب النهر منه إغراء على كثرة الإغتسال والتطهر - وهو يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فلا يبقى على جسمه شيء من الأوساخ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نَهَراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك؛ يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيءٌ. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا»[٦].

ولا يزال المؤمن يزكي نفسه بالصلاة حتى تصبح ملجأ له يستريح بها من الهموم والأتعاب كما في الحديث: «يا بلال أقِم الصلاة أرِحْنا بها»[٧].

---

(١) العنكبوت: ٤٥.
(٢) البقرة: ٤٥.
(٣) البقرة: ١٥٣.
(٤) البقرة: ٣.
(٥) الأنبياء: ٧٣.
(٦) البخاري رقم ٥٢٨، فتح الباري (٢/ ١١) ومسلم (١/ ٤٦٢).
(٧) أبو داود (٥/ ٢٦٣) قال في عون المعبود: «والحديث سكت عنه المنذري» (١٣/ ٣٣١) وذكر =

وتتوق نفس المؤمن إلى الطيبات التي أحلها الله له فيحبها، ولكن عينه لا تقر إلا عندما يقف أمام ربه مستقبلاً القبلة مكبراً خاشعاً في صلاته، كما قال ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[1].

والنفس البشرية التي يجاهدها صاحبها حتى تصل إلى هذه الدرجة، فلا ترتاح إلا بطاعة الله تعالى ولا تقر عينه إلا في مناجاة ربه والتقرب إليه جديرة أن تكون نفس من يجاهد في سبيل الله جعلنا الله ممن يصل إلى تلك الدرجة أو يقرب منها.

ولقد كان رسول الله ﷺ ينفذ أمر الله سبحانه بالإستعانة بالصلاة فكان إذا نزل به ما يهمه لجأ إليها مستعيناً بها كما في حديث حذيفة الذي رواه أبو داود: (كان إذا حزبه أمر صلى)[2]. وهذا أمر زائد على الصلاة المفروضة ولكنه يظهر تعلق المؤمن بها تعلقاً يجعله جديراً بأن يكون من المجاهدين في سبيل الله.

الزكاة:

سبق ذكر بعض النصوص الدالة على أن الزكاة ركن الإسلام الثالث، ويكفي ذلك في إثبات وجوب أدائها.

أما أثر أدائها في تزكية المسلم وتطهيره من الذنوب والمعاصي لتسمو نفسه حتى يصبح أهلاً للانخراط في سلك المجاهدين في سبيل الله فمنها ما يأتي:

قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾[3]. وتظهر آثار الزكاة في النفس البشرية من هذه الآية حيث جعل الله تعالى الزكاة سبباً في التزكية والتطهير لتلك

= الحديث صاحب كشف الخفاء (١/ ١٠٨) ولم يزل عنه الالباس.

(١) الجامع الصغير ورمز لمن أخرجه بـ «حم، ن، ك، هق» ولدرجته ب (ح) أي حسن، وذكره الالباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، وقال: صحيح (٣/ ٨٧).

(٢) أبو داود (٢/ ٧٨) صحيح الجامع الصغيرللالباني (٤/ ٢١٥) وقال: «حسن».

(٣) التوبة: ١٠٣.

النفس التي كان من أهداف بعث الله تعالى رسوله إلى الناس تزكيته إياهم وتطهيرهم من كل دنس في حياتهم كلها كما قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[(١)].

قال سيد قطب: (﴿ويزكيهم﴾: وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به رسول الله ﷺ - تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، وتطهير للحياة الزوجية، وتطهير للحياة الاجتماعية، تطهير ترتفع به النفس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح، ويرتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال.. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع، تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه ويتعامل مع الملأ الأعلى ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم)[(٢)].

وإنما كانت الزكاة سبباً في التزكية والتطهير، لأنها دليل على صدق إيمان العبد الذي تغلب على شح نفسه فأخرج من ماله الذي تعب في جمعه ما أمره الله تعالى به، ولأنها دليل على أن المؤمن الذي أداها قد فاز في المعركة مع عدوه الذي يخوفه من الفقر ويأمره بالفحشاء، لما نجح في طاعة ربه الذي أمره بالإنفاق ووعده بالفضل الجزيل من عنده، كما قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾[(٣)].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (أي الصدقة أعظم أجراً؟) قال: «أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم» قلت: (لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان)[(٤)].

---

(١) الجمعة: ٢.
(٢) في ظلال القرآن (٢٨/ ٣٥٦٥).
(٣) البقرة: ٢٦٨.
(٤) البخاري رقم ١٤١٩ فتح الباري (٣/ ٢٨٤) ومسلم (٢/ ٧١٦).

ويظهر من هذا الحديث أن بذل المال وإخراجه طاعة لله تعالى أمر شاق على النفس يحتاج إلى جهادها حتى تسمح به. قال النووي رحمه الله: (فمعنى الحديث أن الشح غالب في حال الصحة فإذا سمح فيها وتصدق كان أصدق في نيته وأعظم لأجره بخلاف من أشرف على الموت وأيس من الحياة ورأى مصير المال لغيره)[1].

وقال الحافظ ابن حجر: (ولما كانت مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام مانع الشح دالاً على صحة القصد وقوة الرغبة في القربة كان ذلك أفضل من غيره)[2].

وفي صحيح مسلم: (والصدقة برهان)[3]، وفي رواية للنسائي: (والزكاة برهان)[4] وفي شرح النووي على مسلم لهذا الحديث: (معناه: الصدقة حجة على إيمان فاعلها فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها، فمن تصدق استدل بصدقته على صدق إيمانه. والله أعلم)[5]. وقال ابن رجب: (فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان، وطيب النفس بها علامة على حلاوة الإيمان وطعمه)[6].

وإذا علم هذا علم أن من لم يجاهد نفسه حتى تسمح بإخراج جزء من ماله لله تعالى فإنه لا يقدر على بذل نفسه في سبيل الله لأن بذل النفس أشق من بذل المال فكيف ترضى نفس أن تتقدم لأسنّة رماح الأعداء انتصاراً لدين الله ورفعاً لكلمته، وهي لا ترضى ببذل جزء من المال؟

صيام رمضان:

صيام رضمان هو الركن الثالث من أركان الإسلام، وقد مضى دليله.

والمقصود هنا بيان أثره في تزكية النفس وتطهيرها وكونها أهلاً لطاعة الله والتضحية في سبيله لقد بيّن الله سبحانه وتعالى أن القرآن العظيم لا ينتفع به

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٢٣).
(٢) فتح الباري (٣/ ٢٨٥).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٢٠٣).
(٤) النسائي (٥/ ٥).
(٥) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠١).
(٦) جامع العلوم والحكم (ص ١٩).

ويهتدي به إلا المتقون، فهو ـ وإن كان نزل لدعوة الناس كلهم إلى الله وإلى طاعته وتقواه ـ إلا أنه في واقع الأمر لا يهتدي بهداه إلا أهل التقوى، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين ﴾(١).

ومن أهم الأسباب التي تكسب الإنسان تقوى الله: الصيام ـ لا سيما صيام شهر رمضان ـ كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾(٢).

وإنما يؤدي الصوم إلى التقوى لما فيه من إلزام الإنسان نفسه بطاعة ربه واجتنابه المباحات التي أصبحت محرمة عليه بعد شروعه في الصيام، فإن حقيقة التقوى امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وكون الإنسان يدع ما تشتهيه نفسه من المباحات ـ في الأصل ـ والطيبات طاعة لربه سبحانه، فإنه يكون أكثر بعداً عما هو محرم عليه في الأصل. ولا يترك ما أمره الله تعالى بفعله، فهو بالصوم يطوّع نفسه على طاعة ربه وترك ما نهاه عنه سبحانه. قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وآمراً لهم بالصيام. وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عزّ وجلّ، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة ـ إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿ لعلكم تتقون ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء)(٣). وقال في تفسير المنار: (لعلكم تتقون: هذا تعليل لكتابة الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته العليا، وهو أنه يعدّ نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة امتثالاً لأمره، واحتساباً للأجر عنده، فتتربى بذلك إرادته على مَلَكة ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، فيكون اجتنابها أيسر عليه، وتقوى على النهوض بالطاعات والمصالح والاصطبار عليها، فيكون الثبات عليها أهون عليه، ولذلك قال ﷺ: «الصيام نصف الصبر» رواه ابن ماجة، وصححه في الجامع الصغير)(٤).

---

(١) البقرة: ١ ـ ٢.
(٢) البقرة: ١٨٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١٣).
(٤) المنار (٢/ ١٤٥).

وقال سيد قطب: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾: (وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم... إنها التقوى فالتقوى هي التي تستيقظ في القلوب وهي تؤدي هذه الفريضة طاعة لله وإيثاراً لرضاه، والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، ولو تلك التي تهجس في البال، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ووزنها في ميزانه، فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم، وهذا الصوم أداة من أدواتها وطريق موصل إليها، ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتجهون إليه عن طريق الصيام): ﴿ لعلكم تتقون ﴾[(١)].

وفي آيات الصوم قال تعالى: ﴿ ولِتُكْمِلُوا العدّة ولِتُكَبِّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾[(٢)].

والارتباط بين هذه الآية وبين قوله تعالى في أول السورة: ﴿ هدى للمتقين ﴾[(٣)] جليٌّ واضح فهو تعالى بعد أن بيّن أن هذا القرآن لا يهتدي به إلا المتقون، وبيّن في مطلع آيات الصيام أن الصيام يؤدي إلى التقوى بيّن سبحانه في آخر الآيات أن الهداية حصلت للصائمين لأن صومهم منحهم الله به التقوى فأصبحت قلوبهم أهلاً للهداية بهدا القرآن ﴿ ولتكبّروا الله على ما هداكم ﴾ يضاف إلى ذلك أن الصيام والتقوى والهداية والتكبير كلها مؤدية إلى الشكر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾. قال ابن كثير رحمه الله: ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ (أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك)[(٤)].

وقال سيد قطب رحمه الله: ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم، ولعلكم تشكرون ﴾ فهذه غاية من غايات الفريضة أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذي يسره الله لهم، وهم يجدون هذا في أنفسهم في فترة الصيام أكثر من كل فترة، وهم مكفوفو القلوب عن التفكير في المعصية، ومكفوفو الجوارح عن إتيانها، وهم شاعرون بالهدى ملموساً محسوساً، ليكبروا الله على هذه الهداية

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٦٨).
(٢) البقرة: ١٨٥.
(٣) البقرة: ٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١٨).

وليشكروه على هذه النعمة، ولتفيء قلوبهم إليه بهذه الطاعة، كما قال لهم في مطلع الحديث عن الصيام: ﴿ لعلكم تتقون ﴾.

وهكذا تبدو منّة الله في هذا التكليف الذي يبدو شاقاً على الأبدان والنفوس، وتتجلى الغاية التربوية منه، والإعداد من ورائه للدور العظيم الذي أخرجت هذه الأمة لتؤديه، أداء تحرسه التقوى ورقابة الله وحساسية الضمير[١].

ولما كانت النفس تتوق إلى تناول ما تشتهيه، وتنفر عن ترك ذلك، فإن من أعظم ما يربيها ويزكّيها ويطوّعها لربها أن تدرب على الصبر عن تناول الطيبات التي أباحها الله تعالى لها إذا أمرها بتركها، ومن أعظم شهوات النفس: الطعام والشراب والجماع، وقد حرّم الله على المؤمن هذه الأمور كلها في نهار شهر رمضان بأكمله فإذا تركها مخلصاً لله في تلك المدة فإنه بذلك يكون جديراً بأن يكون من المجاهدين في سبيل الله لأن الجهاد في سبيل الله ـ بمعناه الخاص، وهو قتال الكفار ـ ليس سهلاً على النفس، بل هو شاق عليها، فإذا لم تروض على طاعة الله بامتثال أمره واجتناب نهيه فيما هو أخف عليها ـ كالصيام مثلاً ـ فإنه من الصعب عليها أن تقف في الصف لمقارعة الأعداء تستقبل بصدرها ونحرها قذائف المدافع ورصاص البنادق وأطراف الرماح وحد السيف، وتأمل الأسلوب الذي فرض الله به القتال على المسلمين تجده نفس الأسلوب الذي فرض الله به عليهم الصيام، إلا أنه بيّن في الصيام أنه أداة لتقواه، وبيّن في فرض القتال أنه فرضه عليهم وهو كره لهم، والتقوى هي التي تعين المسلم على الصبر على ما يكره في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٢].

الحــج:

والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، قال تعالى: ﴿ ولله على

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٧٢).

(٢) البقرة: ٢١٦.

الناس حِجُّ البيتِ من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غنيٌّ عن العالمين ﴾(١) وسبقت الأحاديث الدّالة على كونه خامس أركان الإسلام.

أما أثر الحج في تزكية النفس وتطهيرها فإنه يؤدي بها إلى تقوى الله، كالصيام، مع شيء من التفصيل في امتثال الأوامر المقرّبة إلى الله، واجتناب النواهي المُبعدة عنه سبحانه فالحاج مأمور بذكر الله سبحانه، إذ يدخل في الإحرام بقوله: (لبَّيك اللهمّ لبَّيك. لبَّيك لا شريك لك لبَّيك. إن الحمد والنعمة لك والمُلك. لا شريك لك)(٢).

وهو مأمور بالمداومة على هذا الذكر وغيره أثناء إحرامه(٣)، وله في كل نسك يؤديه ذكر عام أو خاص، كما أنه كذلك، يدرب النفس على طاعة الله تعالى بعدم تعاطي بعض الطيبات والمباحات في الأصل، كالجماع وما يؤدي إليه، والألبسة المعتادة غير ثوبي الإحرام ـ بالنسبة للرجال ـ، والطيب، وتغطيته الرأس، وقص الشعر ونتف الإبط وتقليم الأظافر ونحو ذلك من المحظورات التي وردت بها النصوص وكذلك قتل صيد البر وأكله ـ مطلقاً أو إذا صيد من أجله ولو صاده غيره ـ فالحاج مأمور بترك الرفث ـ وهو الجماع وما يتصل به ـ فتكون زوجه معه في سفره يجمعهما مكان واحد وقت النوم ووقت اليقظة فلا يمد يده إليها إلا لحاجة كما يمد يده لعامة الناس، ولا يتكلم معها بكلام تشم منه رائحة التعريض، بما كان يباح له التصريح به، كما أنه مأمور بترك الفسوق من قول أو فعل ـ وهو مأمور بذلك كل وقت ولكنه في الحج أعظم وآكد ـ، وهو مأمور بترك الجدال إلا إذا دعت الضرورة لمصلحة وبذلك يكون الحاج قد تزود من زاد التقوى، كما قال تعالى: ﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ، فمن فرض فيهنَّ الحج فلا رَفَثَ ولا فُسوقَ ولا جدالَ في الحج، وما تفعلوا من خيرٍ يَعْلَمْه الله، وتزوَّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى، واتقونِ يا أُولي الألباب ﴾(٤).

والحاج أهل لهداية الله بعد أن تزود من تقواه: ﴿فإذا أفضتم من عرفات

---

(١) آل عمران ٩٧.
(٢) البخاري رقم ١٥٤٩ فتح الباري (٣/ ٤٠٨) ومسلم (٢/ ٨٤١).
(٣) راجع البخاري رقم ١٦٧٠، فتح الباري (٣/ ٥١٩) ومسلم (٢/ ٩٣١).
(٤) البقرة: ١٩٧.

فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾(١).

وزاد التقوى الذي يمنحه الله للحاج من حجه يزيده تقرباً إلى الله ودواماً على طاعته حتى تصبح طاعته لربه أحبّ إليه من أي محبوب آخر ولذلك لا يفتأ ذاكراً له: ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾(٢).

والحاج يؤدي ما أمر به من الإنساك في الحج ـ عبادة لربه ـ وهو يعلم أن كل ذلك لا ينفعه عند الله إلا إذا اتجه بقلبه وقالبه إلى الله وامتلأ قلبه بتقوى الله وخشيته: ﴿ لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها، ولكن ينالُه التقوى منكم، كذلك سخَّرها لكم لتكبِّروا الله على ما هداكم وبشِّر المحسنين ﴾(٣).

ويذهب الحاج إلى بيت الله الحرام لتأدية مناسك الحج وقد أثقلته الذنوب والمعاصي ورانت على قلبه محبة الشهوات فيزكّيه حجه ويطهره ويدرب نفسه على طاعة ربه في فترة زمنية معينة فيترك ما نهاه الله عنه من الرفث والفسوق فيعود وقد غفر الله له حتى غدا مثل من ولد لتوّه لا ذنب ولا إثم، بل طاعة وأجر وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه». وكما في حديثه أيضاً أن رسول الله ﷺ: قال «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحجُّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(٤).

ولما كان الحج فيه مشاق النفقة والسفر والتعرّض للمخاطر المتعددة، كالخوف والجوع والعطش والحر والبرد والزحام وغير ذلك جعله ﷺ للنساء بمنزلة الجهاد للرجال، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: «لا، ولَكُنَّ أفضل الجهاد حجٌّ مبرور»(٥).

---

(١) البقرة: ١٩٨. (٢) البقرة: ٢٠٠. (٣) الحج: ٣٧.

(٤) البخاري رقم ١٧٧٣ فتح الباري (٣/ ٥٩٧) ورقم ١٨٢٠ فتح الباري (٤/ ٢٠) ومسلم (٢/ ٩٨٣).

(٥) البخاري رقم الحديث ١٥٢٠، فتح الباري (٣/ ٣٨١).

قال الحافظ: (وسمّاه جهاداً لما فيه من مجاهدة النفس)[١].

والذي وفقه الله تعالى لأداء مناسك الحج يعلم سبب تسمية الرسول ﷺ الحج جهاداً فإن سفر الحج فيه شبه كبير بسفر الجهاد لما يلتزم به الحاج من التقشف ولما يقتضيه أداؤه من الالتزام بالنظام والسير مع عامة الناس في وقت واحد وفي مكان واحد، لا سيما يوم التروية وما بعده. إذ ترى الناس يصعدون إلى منىً في وقت واحد، وينزلون بها لأخذ أماكنهم ويصلون بها الصلوات الخمس: الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم الفجر مستعدين لمغادرتها صبيحة اليوم التاسع كلهم إلى عرفات، وهناك يقفون كلهم بعد أن يصلوا الظهر والعصر قصراً وجمع تقديم في وقت واحد، ثم إذا غربت الشمس تحركوا جميعاً نحو مزدلفة ينزلون بها جميعاً ويصلون المغرب والعشاء بها جمع تأخير قبل أن ينزلوا أثاثهم، ثم ينامون مبكرين استعداداً لأعمال يوم النحر فإذا أصبحوا صلّوا الفجر ودعوا الله وذكروه حتى يسفروا ثم يتجهون جميعاً إلى منىً فيبدءون برمي جمرة العقبة ضحى يوم النحر، ثم يذهب من عليه نحر لينحر ثم يحلقون ثم يطوفون طواف الإفاضة ثم يعودون إلى منىً للبقاء فيها ذاكرين الله تعالى رامين الجمرات في اليومين التاليين ليوم النحر أو الثلاثة، ثم يتجهون إلى بيت الله لطواف الوداع، وفي التزامهم كلهم بذلك النظام ما فيه من المشقة والزحام وغير ذلك والحاج الذي يقوم بذلك كله مع التزامه بطاعة الله في نيته وفي سلوكه لا يعود إلا وقد هذبت نفسه وألفت الطاعة والجندية الإسلامية.

ولعلَّ ذلك يبين شيئاً من حكمة ذكر الجهاد في سبيل الله بعد ذكر الآيات المتعلقة بالحج كما قال تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ يدافعُ عن الذين آمنوا، إنَّ الله لا يحبُّ كل خوَّان كفور. أُذنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاَّ أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصُرَنَّ الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز ﴾[٢].

ولعل الله يأتي باليوم الذي ينطلق فيه حجاج بيت الله الحرام من أول

(١) فتح الباري (٣/ ٣٨٢).

(٢) الحج: ٣٨ ـ ٤٠.

المساجد الثلاثة بعد أداء مناسكهم لتحرير بيته الثالث بيت المقدس لتحقيق هذا الترتيب الرباني في كتابه في واقع المسلمين اللهمّ آمين.

وبهذا يظهر أثر الحج في تزكية النفس وتطهيرها وتضحيتها وأهليتها لتكون مجاهدة في سبيل الله.

صلة الرحم:

المقصود بالرحم ـ هنا ـ القرابة، والمقصود بالصلة البرِّ والإحسان، أي البرِّ بذوي القربى والإحسان إليهم، وهذه الصلة تتفاوت درجات وجوبها بحسب درجة ذي القربى قُرباً وبُعداً، والصلة قد تكون صلة بتعليم ذوي القربى أمور دينهم التي يجهلونها ـ لاسيما الواجبات العينية ـ وقد تكون بالإحسان المادي إليهم أو ما شابه ذلك.

والرجل الذي يقطع رحمه ولا يصلها عاصٍ لله ولرسوله ﷺ مرتكب ما حرّم الله سبحانه وتعالى عليه قاطع ما أمر الله به أنْ يوصل، وقد ذمه الله تعالى ذماً شديداً وأوجب عليه لعنته وجعله معرضاً لطمس بصيرته، كما قال تعالى: ﴿ فهل عَسَيتُم إن تولَّيتم أن تُفْسدوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامَكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم ﴾[١].

وقد أخذت الرحم وعداً من الله تعالى ـ والله لا يخلف وعده ـ بأن يصل من وصلها ويقطع من قطعها، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال لها: مه قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضَيْنْ أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت بلى يا رب. قال: فذاك»[٢].

وفي حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ألا لا يدخل الجنة قاطع»[٣].

(١) محمد: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) البخاري رقم ٤٨٣٠ فتح الباري (٨/ ٥٧٩) ومسلم (٤/ ١٩٨٠).
(٣) البخاري رقم ٥٩٨٤ فتح الباري (١٠/ ٤١٥) ومسلم (٤/ ١٩٨١).

والنصوص الواردة في صلة الرحم والنهي عن قطعها كثيرة منها العام، كما مضى ومنها الخاص بنوع من القرابة، (كبرّ الوالدين) وغيرهما، والمقصود أن الذي لا يجاهد نفسه على صلة أرحامه ليس أهلاً للجهاد في سبيل الله، لأنه عاصٍ لله ولرسوله قاطع لرحمه قد يكون سبباً في منع الله نصر المؤمنين على أعدائهم، وقد يكون غير قادر على الصبر والمصابرة أمام الأعداء، لهذا أمر رسول الله ﷺ من استأذنه في الجهاد معه دون أن يستأذن والديه أن يرجع إليهما ويجاهد في طاعتهما والقيام بحقوقهما كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: جاء رجل النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»[1].

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: (هذا كله دليل لِعِظَم فضيلة برهما وأنه آكد من الجهاد وفيه حجة لما قاله العلماء أنه لا يجوز الجهاد إلا بإذنهما إذا كانا مسلمين أو بإذن المسلم منهما... هذا كله إذا لم يحضر الصف ويتعين القتال وإلا فحينئذ يجوز بغير إذن وأجمع العلماء على الأمر ببرّ الوالدين وأن عقوقهما حرامٌ من الكبائر)[2].

وقد يُعَرِّض عاق والديه نفسه لغضبهما عليه ودعائهما، ودعوة المظلوم مستجابة ولو كان كافراً، والعدل واجب ولو لكافر، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اتَّقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب»[3]. وقال تعالى في وجوب العدل ـ ولو لمن يبغضهم المؤمن في الله وهم الكفار ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين لله، شُهَداء بالقِسْط، ولا يَجْرِمَنَّكم شَنَآنُ قوم على ألَّا تعدِلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾[4].

ولقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بقصة جريج الراهب

---

(١) البخاري رقم ٣٠٠٤، فتح الباري (٦/ ١٤٠) ومسلم (٤/ ١٩٧٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٠٤).

(٣) أحمد في المسند (٣/ ١٥٣) والأحاديث الصحيحة للالباني (٢/ ٤٠٧).

(٤) المائدة: ٨.

ـ وهو رجل من بني اسرائيل محذراً إياهم من عقوق الوالدين، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جُرَيج كان يصلي جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهمَّ لا تُمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً، فقالت: من جريج، فأتوه فكسروا صومعته فأنزلوه وسبُّوه. فتوضأ وصلَّى ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام، قال: الراعي، قالوا نبني صومعتك من ذهب، قال: لا إلا من طين)[١].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاعدة من أهم قواعد الإسلام التي لا قوام لامته إلا بها، وهو عنوان فلاح المسلمين وفوزهم ومنطلق أهليتهم لقيادة البشرية، فإذا حققوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أنفسهم كانوا أهلاً لتحقيقه في سواهم من أمم الكفر والضلال، وإلا كانوا أهلاً لغضب الله وسخطه ولعنته، ومن كان معرضاً لسخط الله وعظيم عقابه، كيف يكون جديراً بالكون في صف المجاهدين في سبيل الله.

فالمؤمنون لا ينجيهم من الخسران أن يقوم كل واحد منهم بما كلفه الله إياه دون أن يتواصى مع غيره من إخوانه المؤمنين بالحق والصبر قال تعالى: ﴿والعَصْر. إنَّ الإنسان لفي خُسْر. إلا الذين آمنوا، وأعملوا الصالحات، وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصَبر﴾[٢].

وكيف يقف الصف المخلخل الذي يبتعد أفراده عن الله بترك طاعته والولوغ في مستنقع معاصيه ولا يوجد فيه من يغضب لله فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كيف يقف هذا الصف في وجه عدوه مجاهداً في سبيل ربه والله تعالى يقول عن المؤمنين: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون

(١) البخاري رقم ٣٤٣٦ فتح الباري (٦/ ٤٧٦) ومسلم (٤/ ١٩٧٦).
(٢) العصر.

الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيزٌ حكيم﴾[١]. وهم الذين قصر الله الفلاح عليهم، كما قال: ﴿ولْتَكُنْ منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[٢].

وأوضح سبحانه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان به هي موجبات قيادة هذه الأمة لغيرها من الأمم قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس؛ تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله ﴾[٣].

يظهر من هذا أن النصر على الأعداء لا يكون إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الخيرية المذكورة لا تتم بدون موجباتها المذكورة بعدها. وقد لعن الله بني إسرائيل الذين لم يتناهوا فيما بينهم عن المنكر، وإذا عملت هذه الأمة مثل عمل بني اسرائيل فحكمها حكم بني اسرائيل، قال تعالى: ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[٤] ومما يدل على ذلك ما أورده ابن كثير في تفسير الآية، قال: (وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدّثنا شريك ـ وساق سنده إلى أن قال ـ: عن أبي عبيدة عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم») قال يزيد وأحسبه قال: (في أسواقهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم) ﴿ ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطُروهم على الحق أطْراً»[٥].

والأمة التي يستشري فيها الشر والفساد مثل السفينة التي ألقى بها في بحر لجى لتمخر عبابه، وهي مخرقة تقذف أمواج البحر بمياهه بداخلها من تلك الخروق فهل يقدر ربانها على قيادتها إلى شاطىء الأمان، وهل يستحق أهلها الذين ألقوها في ذلك البحر اللجي وهم يعلمون ما بها من خروق أن ينالوا

---

(١) التوبة: ٧١.
(٢) آل عمران: ١٠٤.
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) المائدة: ٧٨ ـ ٧٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٢ ـ ٨٣).

النجاة، كيف الأمر لو كانت سليمة قادرة على مصارعة الأمواج فأرادت فئة من ركابها أن تخرقها وهي تمخر عباب البحر وسكت عنهم بقية الركاب؟

والجواب في الحديث الصحيح الذي رواه النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً»[١]. قال الحافظ ابن حجر: (وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[٢]، فأثر القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفوز والقيادة للبشرية وأثر تركه الهلاك والخسران والذل.

المحافظة على نوافل الطاعات:

ما سبق من الكلام يتعلق بالمحافظة على الفرائض وأثر ذلك في تربيته النفس وتزكيتها وتطهيرها، وضربت لذلك ستة أمثلة هي: الصلوات الخمس، وصيام رمضان والزكاة، والحج وصلة الرحم (وهذه الخمس من فروض العين) ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو من فروض الكفاية.

وقد آن الأوان لذكر المحافظة على نوافل الطاعات وأثرها في تزكية النفس وتطهيرها وتأهيل صاحبها للبذل والتضحية بالنفس والمال والولد والجاه والمنصب في سبيل الله تعالى والكلام في النوافل من وجهين: الأول كون النوافل عامة مطلوبة المحافظة عليها وأثرها كذلك في التزكية والتطهير.

الثاني في ذكر بعض النوافل بعينها وبيان أثرها.

الوجه الأول: الحث على المحافظة على النوافل عموماً وبيان أثرها في تزكية النفس وتطهيرها.

---

(١) صحيح البخاري رقم الحديث ٢٤٩٣، فتح الباري (٥/ ١٣٢).
(٢) الفتح (٥/ ٢٩٦).

حثّ الله سبحانه وتعالى في كتابه عباده المؤمنين على فعل الخير والعمل الصالح والتنافس في ذلك ورغب في ذلك كله بوعده من عمله بالثواب الجزيل.

قال تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وما تُقَدِّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، إن الله بما تعملون بصير ﴾(١). فقوله تعالى: ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾ الآية شامل لكل عمل صالح يقدمه العبد طاعة لله، واجباً كان أم تطوعاً. قال ابن جرير رحمه الله: (فإنه يعني جلّ ثناؤه بذلك ومهما تعملوا من عمل صالح في أيام حياتكم فتقدموه قبل وفاتكم ذخراً لأنفسكم في معادكم تجدوا ثوابه عند ربكم يوم القيامة فيجازيكم به. والخير هو العمل الصالح الذي يرضاه الله)(٢).

وقال تعالى: ﴿ ولكل وِجْهةٌ هو مُوَلِّيها، فاستبقوا الخَيْرات.. ﴾(٣).

وهو كذلك أمر بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة والتنافس فيها، كما قال ابن جرير: (فبادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم، وتزودوا في دنياكم لأخراكم)(٤).

وقال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سواء، من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آياتِ الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَروه، والله عليمٌ بالمتقين ﴾(٥).

والشاهد من هذه الآيات ـ هنا ـ قوله: ﴿ ويسارعون في الخيرات ﴾ وقوله: ﴿ وما يفعلوا من خير ﴾ فإن الخيرات والخير المذكورين فيها شاملان لكل عمل صالح يتسابق فيه عباد الله الصالحون. قال ابن جرير: ﴿ ويسارعون في الخيرات ﴾ يقول: ويبتدرون فعل الخيرات خشية أن يفوتهم ذلك قبل معالجتهم مناياهم (إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾: وما تفعل هذه الأمة من خير وتعمل من عمل لله فيه رضا فلن يكفرهم الله ذلك يعني

(١) البقرة: ١١٠.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن (١/ ٤٩١).
(٣) البقرة: ١٤٨.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢/ ٢٩).
(٥) آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥.

بذلك فلن يبطل الله ثواب عملهم ذلك ولا يدعهم بغير جزاء منه لهم عليه ولكنه يجزل لهم الثواب عليه ويسني لهم الكرامة والجزاء)[١].

وقال تعالى: ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلَنُحْيِيَنَّه حياة طيبة، ولَنَجْزِيَنَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٢] وفي هذه الآية وعد من الله تعالى لعبده المؤمن الذي يعمل الصالحات ـ وهي شاملة لكل عمل يرضي الله تعالى ـ بأن يُحييه حياة طيبة، وهي حياة العز والاطمئنان والطاعة والرضا والخير والنصر على الأعداء وغير ذلك من الحياة الموصوفة بأنها طيبة. قال سيد قطب: (وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به وقد لا يكون معها، وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضا والبركة وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة، وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة)[٣].

يظهر من هذه الآية الكريمة أن ثمار العمل الصالح. ومنه التطوع ـ تعود إلى صاحبها في الدنيا والآخرة، ومن أعظم ما تكون به الحياة طيبة بالنسبة للمؤمن أن ترتفع راية الإسلام ويعز أهله، وتهوي راية الكفر ويذل أهله، ولا يكون ذلك إلا لعباد الله الصالحين المحافظين على الأعمال الصالحة، كما أن من أفضل الأجر عند الله أجر الشهيد في سبيل الله الذي يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليقتل مرات لما رآه من الثواب الذي اختصه الله به، وقد مضى.

ولقد جعل الله تعالى التقرّب إليه بالنوافل سبباً في حبه لعبده المتقرب إليه، الحب الذي يصل معه العبد إلى درجة التوفيق والتسديد لقلبه وجوارحه فلا يفكر إلا في طاعة الله ولا يتحرك إلا فيما يرضيه عزّ وجلّ، كما قال ﷺ فيما

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤/ ٥٦ ـ ٥٧).
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) في ظلال القرآن (١٤/ ٢١٩٣).

يرويه عن ربه: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبْصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه»(١).

ولا شك أن الذي يحافظ على نوافل الطاعات لا يحافظ عليها إلا بعد أن يكون قد حافظ على الفرائض من باب أولى، لما يعلم من العقاب على تركها، بخلاف النوافل فإنها يُثاب عليها ولا يعاقب عليها، وقد مضى في نفس الحديث الآنف الذكر قوله تعالى: ﴿ وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضته عليه ﴾. ولذلك فإن نوافل الطاعات بمنزلة الحائط الذي يبنى خارج الدار لسترها وصدّ اللصوص المقتحمين، والفرائض بمنزلة الدار، والذي بنى الحائط من أجل الدار لا يُفرط في الدار وصيانتها وإحكام بنائها. وكذلك فإن الذي يحافظ على النوافل يصدّ عن نفسه الشيطان من أن يوسوس له بترك الفرائض أو النقص منها، لأنه إذا كان ملازماً للنافلة لأجل ثوابها ولا عقاب عليها فإنه يلازم الفرائض ملازمة أشد لما يخافه من العقاب على تركها أو نقصها، ولكنه مع ذلك الحرص وتلك الملازمة بشر قد تحصل له غفلة فيفوته إتمام بعض الفرائض، فإذا فاته شيء من ذلك فإن ربه سبحانه يتفضل فيجبر له ذلك النقص بما قدمه في حياته من تطوع قال ابن حجر رحمه الله: (وأيضاً فإن من جملة ما شرّعت له النوافل جبر الفرائض كما صحّ في الحديث الذي أخرجه مسلم: «انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته» الحديث بمعناه. فتبين أن المراد من التقرّب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخلّ بها)(٢).

ونصّ الحديث الذي أشار إليه الحافظ رحمه الله ـ وهو من حديث أبي هريرة: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضة قال الرب: انظروا هل لعبدي من تطوّع فيُكمِّل بها ما انتقصت من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك)(٣).

(١) البخاري ٦٥٠٢ فتح الباري (١١/ ٣٤٠). (٢) فتح الباري (١١/ ٣٤٣).
(٣) أبو داود (١/ ٥٤٠) والترمذي رقم الحديث ٤١١، تحفة الأحوذي (٢/ ٤٦٢) صحيح الجامع الصغير للالباني (٢/ ١٨٤) هذا ولم يهتد الكاتب إلى الحديث في صحيح مسلم الذي عزاه إليه =

والإكثار من الأعمال الصالحة ـ النافلة ـ مطلوب، ولكنه يجمُل بمن أراد دوام القُرب من ربه أن يداوم على طاعته ولا ينبغي أن يأتي بعمل صالح يرضى به الله تعالى ثم ينقطع عنه لا سيما إذا كان من النوافل المؤكدة والمرغب فيها، لذلك أمر الرسول ﷺ أمته أن يعملوا ما هو في وسعهم حتى يداوموا عليه، ولا يملّوا فينقطعوا عن ذلك، وهذا الانقطاع يحرِم المؤمن من الاتصال الدائم بالله، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان لرسول الله ﷺ حصير وكان يحجره من الليل (أي يتخذه حجرة) فيصلي فيه فجعل الناس يصلون بصلاته، ويبسطه بالنهار، فثابوا ذات ليلة: فقال: «يا أيها الناسُ عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يملُّ حتى تملّوا، وإن أحبّ الأعمال إلى الله ما دُووم عليه وإن قلّ» (وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه)[١].

قال النووي رحمه الله: (وفيه الحثّ على المداومة على العمل وإن قليله الدائم خيرٌ من كثير ينقطع وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى ويُثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة)[٢].

هذه هي ثمار المحافظة على نوافل الطاعات: دوام الطاعة والذكر والمراقبة والنيّة والإخلاص والإقبال على الخالق وزيادة الأجور ومضاعفتها، والذي يجاهد نفسه على ذلك جدير أن يجاهد في سبيل الله.

الوجه الثاني: ذكر بعض النوافل بعينها وبيان أثرها في تزكية النفس وتطهيرها:

طرق الخير التي يثاب المسلم على فعلها لا تحصى كثرةً. وقد عني بها علماء المسلمين في كتبهم مستدلين عليها من الكتاب والسنّة. وقد سبق الكلام على حثّ الكتاب والسنّة على فعل الخير عموماً، وقد ذكر الإمام النووي رحمه الله في

= الحافظ رحمه الله.

(١) صحيح مسلم (١/ ٥٤٠).

(٢) شرح النووي على مسلم (٦/ ٧١).

أول باب: «بيان كثرة طرق الخير» في كتابه رياض الصالحين هذه الآيات: ﴿ وما تفعلوا من خَيْرٍ فإن الله به عليم ﴾(١)، ﴿ وما تفعلوا من خير يَعْلَمْهُ الله ﴾(٢) ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾(٣) ثم ذكر أحاديث شاملة لكثير من أفراد الطاعات(٤)، وهي تعتبر أمثلة وإلا فإن النصوص في ذلك لا تحصى كما سبق، وبمراجعة أبواب رياض الصالحين ـ وحده يظهر للقارىء تلك الكثرة فكيف وهو ـ أي رياض الصالحين ـ قد اختصرت فيه نصوص قليلة من القرآن الكريم وكذلك أحاديث من كتب قليلة من كتب الحديث.

لهذا فإن البحث لا يتحمل التنصيص على كثير من طرق الخير التي تزكي المسلم وتصله بربه فيكون بذلك أهلاً للانخراط في سلك المجاهدين في سبيله، ولكن لا بد من التنصيص على بعض تلك الطاعات وحكم غير ما لم يذكر حكم ما ذكر، وإن تفاوتت الطاعات في الثواب بحسب الوقت والحاجة وما أشبه ذلك.

قراءة القرآن بتدبر وسماعه كذلك:

تلاوة القرآن الكريم مأمور بها عبادة لله، إذ هو أفضل كلام يتعبد به في الصلاة وغيرها لأنه كلام الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأُمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين ﴾(٥) وتلاوته شاملة لقراءته مطلقاً، وإن كان السياق هنا يدل على قراءته على الناس لتبليغهم وإنذارهم(٦).

وإذا كانت تلاوة القرآن وسيلة الدعوة إلى الله فإن كونها وسيلة لتزكية نفس القارىء من باب أولى (٧).

ولقد بيّن رسول الله ﷺ منزلة قارىء القرآن الحاذق في حفظه وقراءته، كما

(١) البقرة: ٢١٥.
(٢) البقرة: ١٩٧.
(٣) الجاثية: ١٥.
(٤) رياض الصالحين ص ٦٨.
(٥) النمل: ٩١ ـ ٩٢.
(٦) أنظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٣٧٨).
(٧) أنظر في ظلال القرآن (٢٠/ ٢٦٧٠).

بيّن الثواب الذي يجزله الله لقارئه الذي يشق عليه، كما في حديث عائشة قالت: (قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه (أي في تلاوته لضعف حفظه أو قراءته) وهو عليه شاق له أجران»[(١)] وفي رواية: «والذي يقرأ وهو يشتد عليه أجران»).

ويكفي قارىء القرآن فضلاً استماع الله لصوته الحسن بكلامه تعالى، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشيء ما أَذِن لنبي أن يتغنى بالقرآن» (يريد يجهر به)[(٢)].

وتأمل الفرق البعيد بين قارىء القرآن (لاسيما العامل به) وغيره في هذا المثال النبوي الذي تضمنه حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن كَمَثَل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومَثَلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذي لا يقرأ القرآن كَمَثَلُ الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»[(٣)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (تعلموا هذا القرآن فإنكم تؤجرون بتلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما أني لا أقول: بألم، ولكن بألف، ولام، وميم، بكل حرف عشر حسنات. . .»[(٤)].

ولقد أدرك أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الفضل العظيم لقراءة كتاب الله فبالغ بعضهم في قراءته ليستكثر من الحسنات فكان يقرؤه كله في ليلة واحدة - فأنكر ذلك رسول الله ﷺ عليه لما فيه من تفويت بعض حقوق نفسه وحقوق

---

(١) البخاري رقم ٤٩٣٧ فتح الباري (٨/ ٦٩١) ومسلم (١/ ٤٥٩).

(٢) البخاري رقم ٥٠٢٣، فتح الباري (٩/ ٦٨).

(٣) البخاري رقم ٥٤٢٧، فتح (الباري (٩/ ٥٥٥) ومسلم (١/ ٥٤٩).

(٤) الدارمي (٢/ ٣٠٨) قال المحشي: الحديث هنا موقوف على عبدالله بن مسعود، وقد روي نحوه الترمذي مرفوعاً، وقال: حسن صحيح غريب، وهو قطعة من حديث طويل، رواه الحاكم عن إبراهيم البري عن أبي الأحوص عنه مرفوعاً، وقال: تفرد به صالح بن عمر عنه، وهو صحيح.

أهله وما ينبني عليه من أثر العجز عنه والاستمرار عليه، وسبق أن أحبّ العمل أدومه وإن قلّ ـ فأمره رسول الله ﷺ أن يقرأه في شهر فقال: إنه يطيق أكثر من ذلك فأمره أن يقرأه في سبع ونهاه عن أن يزيد عليها.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر» قلت: إني أجد قوة... حتى قال: «اقرأه في سبع ولا تزِد على ذلك»(١).

وفي رواية: «قال: وكيف تختم؟ قلت: كل ليلة» الحديث(٢).

ولابد للقارىء أن يتدبر كلام الله ويتفهم مراميه وإلا كان مثل أولئك المنافقين الذين أنكر الله عليهم عدم تدبرهم الذي كان من أثره تغيير أوامر الله ورسوله التي يتعلمونها منه ﷺ قال تعالى: ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبروا آياته، وليتذكّر أُولوا الألباب﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿وإذا قُرىء القرآنُ فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تُرحمون﴾(٦).

وبمداومة أصحاب رسول الله ﷺ على قراءة القرآن وتدبره والإنصات له وتطبيقه وصلوا إلى تلك القمة العالية في التربية والتزكية، قال محمد رشيد رضا رحمه الله: (فتربيته الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكتها تلك التزكية التي أشرنا إليها آنفاً وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وتدبره في غير الصلاة (وفي

(١) البخاري رقم ٥٠٥٤، فتح الباري (٩/ ٩٥) ومسلم (٣/ ٨١٤).
(٢) البخاري (٩/ ٩٤).
(٣) النساء: ٨٢.
(٤) سورة ص ٢٩.
(٥) محمد: ٢٤.
(٦) الأعراف: ٢٠٤.

الصلاة أيضاً من باب أولى) وربما كان أحدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها، وكانوا يقرؤونه في كل حال حتى مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله: ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ (آل عمران: ١٩١) وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه وسُننه في خلقه وأفعاله في تدبير ملكه كما تقدم)(١).

عرض الإنسان نفسه على القرآن ليعلم ما يرضى الله منه فيعمله وما يغضبه فيجتنبه:

وعندما يقرأ المؤمن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى لهداية البشرية في هذه الحياة إلى صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾(٢)، عندما يقرأ المؤمن هذا القرآن، وهو يذكر صفات المؤمنين ويمدحها ويثني عليها ويدعو للاتصاف بها وكذلك يذكر صفات أعداء الله من الكافرين والمنافقين ويذمها ويحذر منها، فإنه بذلك يعلم أهو من عباد الله المؤمنين؟ أهو سائر في طريقهم أم يزوغ عنه هنا وهناك؟ وبذلك يستطيع أن يقوّم نفسه في إيمانه وسلوكه ومعاملاته وفي كل شأن من شؤون حياته. قال العلّامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: (وهذه الآية ـ يعني آية الإسراء التي سبق ذكرها قريباً ـ الكريمة أجمل الله جلّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة)(٣).

ألا ترى ماذا قالت عائشة رضي الله عنها عندما سُئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: قلت: بلى، قالت: (فإن خُلقَ نبي الله ﷺ كان القرآن)(٤) وقال ابن كثير رحمه الله: (ومعنى هذا أنه

(١) الوحي المحمدي ص ١٦٣. (٢) الإسراء: ١٩.
(٣) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٤٠٩).
(٤) صحيح مسلم (١/ ٥١٣) وأورد ذلك ابن كثير في تفسير قوله تعالى: «وانك لعلى خلق عظيم=

عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل)[١].

وفي القرآن الكريم ما يقوي الإيمان ويدعو إلى التضحية ويبيّن صفات المجاهدين التي يجب أن يتحلى بها من يريد أن يقوم بالجهاد في سبيل الله. . . وكلما أكثر الإنسان من قراءة القرآن ازداد علماً وعملاً وحصلت له التزكية التي نزل القرآن الكريم من أجلها وبعث الرسول ﷺ للقيام بها، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي بعث في الأميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه، ويزكِّيهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قَبْلُ لفي ضلال مبين ﴾[٢].

وهذا ما دعا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يقول: (إذا سمعت الله يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأصْغِ لها سمعك، فإنه خيرٌ تؤمر به أو شرٌ تُصرفُ عنه)[٣].

صلاة التطوع:

الصلوات المفروضة فرض عين هي الصلوات الخمس التي فرضها الله على هذه الأمة خمساً وجعل ثوابها خمسين ـ الحسنة بعشر أمثالها، وقد سبق أن عرضنا أنها ركن من أركان الإسلام وهي الركن الوحيد الذي ربط الله به المسلم خمس مرات في يومه وليلته، ولعظم شأن الصلاة وما تشتمل عليه من معانٍ تزكّي المؤمن وتطهره شرّع الله سبحانه للمؤمن غيرها من الصلوات التي ترافقها قبل الفرض وبعده أو قبله فقط وهي التي تسمى بالسنن الراتبة، لتكون القبلية مهيئة صاحبها للإقبال إلى الله تعالى في الفريضة، ولتكون البعدية مذكرة له بدوام ارتباطه به سبحانه ولتكون كلها ـ القبلية والبعدية ـ مكملة لما قد يحصل عليه من نقص في فريضته كما مضى.

= في أحاديث متعددة».

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٠٢).

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) زاد المعاد لابن القيم (١/ ١١٣).

قال ابن قدامة رحمه الله ـ مبيناً السُنن الراتبة ـ (وهي عشر ركعات: ركعتان قبل الظهر وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء وركعتان قبل الفجر)[١]. . .

ورأى بعضهم أن الراتبة قبل الظهر أربع، ورأى بعضهم أن للعصر راتبة وهي أربع ورجح ابن قدامة أن لا راتبة للعصر وإن كان الرسول ﷺ حثّ عليها[٢]، وعلى كلٍّ فهي إما عشر على القول الأول، وإما أربع عشرة أو ست عشرة ركعة على ما ذكر بعده ومن السُنن الراتبة ركعتان أو أربع ركعات بعد صلاة الجمعة.

كما شرّع للمؤمن صلوات أخرى غير الراتبة مثل قيام الليل وصلاة التراويح في رمضان والوتر وسُنّة الضحى وصلاة العيدين وصلاة الاستسقاء وصلاة الكسوف وصلاة الجنازة ـ وهي فرض كفاية ـ ولكنها تصبح في حق من لم تجب عليه تطوعاً وركعتين قبل صلاة المغرب بعد الأذان، وركعتي تحية المسجد لِمَن أراد الجلوس فيه وركعتي صلاة الاستخارة[٣].

ولا حاجة لذكر النصوص الواردة في هذه النوافل ومن أراد أن يطّلع عليها فإن كتب الحديث وكتب الفقه قد فصّلت ذلك تمام التفصيل[٤] وإنما المقصود ذكر تلك النوافل التي شرّعها الله تعالى لعبده المؤمن، منها ما هو متكرر مع الفرض وبعضها آكدُ من بعض ومنها ما يتكرر كل يوم ليلاً أو نهاراً، ومنها ما يشرّع لسبب من الأسباب. ويشمل الجميع وصف التعيين فهي معينة كما ترى.

ولم يقتصر الرسول ﷺ على ذلك، بل حثّ أمته ﷺ على الإكثار من الصلاة ـ غير المفروضة وغير النافلة المعينة ـ وبينّ ﷺ أن الصلاة ترفع الدرجات وتمحو الخطايا وتؤهل المكثر منها لمرافقته ﷺ في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة اليعمري قال: (لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ،

---

(١) زاد المعاد (٢/ ١٠٢) المغنى (٢/ ٩٣).
(٢) نفس الجزء والصفحة من كتاب المغنى.
(٣) أنظر نفس المصدر السابق (٢/ ٩٣ ـ ١٠٠).
(٤) أنظر مثلاً زاد المعاد (٢/ ١٠٢ ـ ١٢١) وكذا (٢/ ١٥٠ ـ ١٥٦).

فقلت أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحبّ الأعمال إلى الله فسكت ثم سألته فسكت ثم سألته الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطّ عنك بها خطيئته»، قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء فسألته فقال لي مثل ما قال لي ثوبان).

وفي حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه، وحاجته فقال لي: «سَلْ» فقلت: أسألكِ مرافقتك في الجنة، قال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود»[1]. ومع ملازمة الرسول ﷺ التقرّب إلى ربه بصلاة النافلة إذ كان يقوم حتى ترم قدماه، كما في الصحيحين من حديث المغيرة قال: إن كان النبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له: فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[2].

ومع ذلك كان ﷺ شديد الحرص على أن ينال أصحابه هذا الفضل العظيم لتزكية نفوسهم وفوزهم بالقرب من الله تعالى وبحبه وتوفيقه فكان يحذرهم من أن يثبطهم الشيطان عن التنفُّل بالصلاة ـ ولا سيما صلاة الليل ـ فقد ذكر عنده ﷺ رجل نام ليله حتى أصبح (أي لم يقم الليل) فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»[3]. وأوضح ﷺ حرص الشيطان على حرمان المسلم من هذا الفضل العظيم فقال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذ هو نام ثلاث عُقَد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضأ انحلَّت عقده، فإن صلّ انحلَّت عُقَدُه، فأصبح نشيطاً طيِّب النفس، وإلّا أصبح خبيث النفس كسلان»[4].

وكان ﷺ لشدة حرصه على أن لا يحول الشيطان بين أصحابه وبين

---

(١) الحديثان في صحيح مسلم (١/ ٣٥٣).
(٢) البخاري رقم ١١٣٠ فتح الباري (٣/ ١٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧١).
(٣) البخاري رقم ٣٢٧٠ فتح الباري (٦/ ٣٣٥) ومسلم (١/ ٥٣٧).
(٤) البخاري رقم ١١٤٢ فتح الباري (٣/ ٢٤) ومسلم (١/ ٥٣٨).

فضل الله العظيم يتفقد أقرب المقربين إليه، ويحثّهم على قيام الليل كما في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة فقال: «ألا تصليان» فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يَرْجِع إلى شيئاً، ثم سمعته وهو مولٍ يضرب فخذه وهو يقول: ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾[١].

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسارعون إلى الإكثار من صلاة التطوع حتى تتعب أجسامهم فيكاد يسقط أحدهم من الإعياء ولكنه يشعر بالراحة والاطمئنان فلا يبالي تعب جسمه فيمد الحبل ليتعلق به عند الإعياء فيشفق عليهم رسول الله ﷺ ويأمرهم بفعل ما يطيقون، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل»؟ قالوا هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت، فقال النبي ﷺ: «لا، حُلُّوهُ، ليُصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد»[٢].

والأحاديث والآثار الواردة في حرص الرسول ﷺ وحرص أصحابه على صلاة النافلة أكثر من أن تحصر فليعد إليها من أراد[٣].

ويتضح مما مضى أن من آثار المحافظة على صلاة التطوع محبة الله تعالى لعبده وتوفيقه إياه لعمل ما يرضيه عنه، وأنها تحقق للعبد شكراً لله سبحانه وترفع درجاته عنده وتمحو خطاياه وتؤهله للنعيم الدائم، الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وإنها من أهم أسباب مرافقة الرسول ﷺ وكفى بذلك وغيره تزكية للنفس وتطهيراً لها وإعدادها للجهاد في سبيل الله ورفع رايته.

هذا وإن من أراد أن ينصب نفسه للجهاد في سبيل الله والدعوة إليه فلابد أن يعلم أنه معرّض للابتلاء وكره الناس ووقوفهم ضده ومحاولتهم إغراءه بشتى

(١) البخاري رقم ١١٢٧، فتح الباري (٣/ ١٠) ومسلم (١/ ٥٣٧). والآية من سورة الكهف رقم: ٥٤.

(٢) البخاري رقم ١١٥٠، فتح الباري (٣/ ٣٦) ومسلم (١/ ٥٤١).

(٣) أنظر مثلاً أول الجزء السادس من كتاب جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ للعلامة ابن الأثير الجزري مطبعة الملاح ١٣٩٢.

أنواع المغريات ليسكت ويعرض عنهم ويتركهم وما يشتهون، فإن لم يفِد معه الإغراء والترغيب فإنهم لا بد منتقلون إلى الوعيد والتهديد ووضع كل العراقيل في سبيله، بل سيعتدون على ماله وعرضه ونفسه فلا يدعونه وشأنه كما كان أمر جميع الأمم مع الأنبياء وكما وقع من كفار قريش والجزيرة العربية مع الرسول ﷺ والصبر على ذلك ليس سهلاً بل هـو أمر شاق، بل إن البشر لا يطيق ـ بدون سند رباني ـ مواصلة الدعوة والجهاد مع تكالب الأعداء عليه، والأعداء دائماً كثير، وأعدى أعداء الإنسان وأقربهم إليه نفسه وهواه وشيطانه ـ وغير ذلك، لذلك لا بد من زاد للصبر وعدّة للسير ووقود للاستمرار، وما ذلك الزاد وتلك العُدّة وهذا الوقود إلا اللجوء إلى الله والاعتماد عليه وطلب العون منه بالتقرّب إليه ولا سيما ـ في جوف الليل ـ عندما يأوي إلى فراشه بعد الأتعاب والهموم والأحزان والعراك المتنوع. في هذا الوقت الذي يأخذ الإنسان يحدِّث نفسه عمّا لاقاه وتحاول تثبيطه وتوهينه لتحول بينه وبين مواصلة الجهاد والكفاح الدائمين حتى يلقى ربه، هنا لا بد له أن يفزع إلى ربه فيقف بين يديه طالباً منه المَدد والعون مستمداً منه القوة والعزم على الجهاد في سبيله ذاكراً له بالتكبير الذي يملأ جوانح نفسه بربه فلا يهاب إلا إياه راكعاً وساجداً له فلا يخضع لسواه مناجياً له بكتابه متدبراً معانيه فاقهاً لأوامره ونواهيه عالماً أسراره وحكمه فيذهب عنه التعب لارتياح نفسه بطاعة مولاه وتنزاح الوحشة عنه لأنسه بمن يناجيه في ذلك الليل الذي سكن فيه الناس إلى مضاجعهم نائمين غافلين عن الله، أو صاخبين فيه على منكراتهم غير مبالين.

عند ذلك تتجدد الهمة وتقوى العزيمة وتخلص النية فيتمثل أمامه أنبياء الله ولسان حالهم جميعاً يقول للأعداء: ﴿ إني أُشهد الله واشهدوا أني بريءٌ مّما تشركون من دونه، فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظِرون إنّي توكّلت على الله ربّي وربِّكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنَّ ربّي على صراط مستقيم ﴾[1].

قال سيد قطب رحمه الله ـ عند قوله تعالى ﴿ إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾[2]: (وإن قيام الليل والناس نيام والانقطاع عن غَبَش الحياة اليومية

---

(١) هود: ٥٤ ـ ٥٦.

(٢) المزمل: ٥.

وسفسافها، والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى، وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة واستقبال إيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي، إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير)[١].

صوم التطوع:

سبق أن ذكرنا أن صيام رمضان أحد أركان الإسلام وأنه ذو أثر عظيم في تزكية النفس وتطهيرها وأنه يؤدي بالصائمين إلى تقوى الله. وأن نفله كذلك، وقد كان الرسول ﷺ يُكثر من صيام التطوع، ففي حديث أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى يظن أنه لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئاً، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته)[٢].

وصام ﷺ يوم عاشوراء وحثّ على صيامه، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا»؟ قالوا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: «فأنا أحقّ بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه»[٣].

وكان ﷺ يكثر الصيام في شهر شعبان، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان)[٤].

---

(١) في ظلال القرآن (٢٩/ ٣٧٤٥).
(٢) البخاري رقم ١٩٧٢ فتح الباري (٤/ ١١٥) ومسلم (٢/ ٨١٢).
(٣) البخاري رقم ٢٠٠٤، فتح الباري (٤/ ٢٤٤) ومسلم (٢/ ٧٩٥).
(٤) البخاري رقم ١٩٦٩ فتح الباري (٤/ ٢١٣) ومسلم (٢/ ٨١٠).

وحثّ ﷺ على صيام ستٍّ من شهر شوال وبيّن أن من صامها بعد رمضان فكأنما صام الدهر، ففي حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من صام رمضان وأتبعه بستٍ من شوال كان كصيام الدهر»[١] كما كان ﷺ يتحرى صيام يوم الاثنين ويوم الخميس كما في حديث عائشة[٢] وكان يأمر أصحابه رضي الله عنهم بصيام أيام الليالي البيض، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر[٣]، وكان ﷺ يقول: «صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله»[٤].

وللصيام أثر كبير في تزكية النفس وتطهيرها، لما فيه من التزام المؤمن وصبره عمّا هو حلال له في الأصل من أجل الله سبحانه، ولذلك أبهم الله أجر الصوم، وكان فضل الصوم عند الله عظيماً، كما أن الصائم القادر على منع نفسه من الطعام والشراب والجماع التي هي من أكثر الأمور التي تتوق إليها نفس المسلم ـ لاسيما عند حاجته إليها ـ قادر كذلك على الصبر على أذى الناس وعدم الرد بالمثل، والصوم يقي صاحبه من الأوضار في الدنيا ومن النار في الآخرة، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جنة، فإذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقُلْ إني صائم مرتين، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشهوته من أجلي الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها»[٥].

وخصّ الله الصائمين في الدنيا بباب في الجنة إكراماً لهم لا يدخله سواهم، فيه لهم جزاء حتى في اسمه: «الريان»، كما في حديث سهل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد»[٦].

(١) مسلم (٢/ ٨٢٢).
(٢) جامع الأصول (ت مس) (٦/ ٣٢٢).
(٣) جامع الأصول (٦/ ٣٢٥) ومسلم (٢/ ٨١٧).
(٤) البخاري رقم ١٩٧٩ فتح الباري (٤/ ٢٢٤).
(٥) البخاري رقم ١٨٩٤ فتح الباري (٤/ ١٠٣) ومسلم (٢/ ٨٠٦ ـ ٨٠٧).
(٦) البخاري رقم ١٨٩٦ وفتح الباري (٤/ ١١١) ومسلم (٢/ ٨٠٨).

ولما في الصوم من تزكية وتطهير وأجر عظيم اشرأبت نفوس أصحاب رسول الله ﷺ إليها أراد بعضهم أن يصوم الدهر كله، فنهاه الرسول ﷺ عن ذلك رفقاً بأصحابه من أن لا يطيقوا ذلك كغيره من العبادات، وبيّن لهم ﷺ أن صوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر كله (أي لأن الحسنة بعشر أمثالها) فلما لم تطِب النفس بذلك ألزمهم بعدم الزيادة على صوم داود: صيام يوم وإفطار يوم وإن ذلك هو أحبّ الصيام إلى الله، ففي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي النبي ﷺ: «إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل»؟ فقلت نعم: قال: إنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين ونفهت له النفس (أي تعبت) لا صام من صام الدهر، «صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله». قلت فإني أطيق أكثر من ذلك، قال: «فصُم صوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى»(١) وفي رواية: «وأحب الصيام إلى الله صيام داود» تأمل كيف ربط النبي ﷺ بين جهاد النفس بالعبادة وجهاد الأعداء في سبيل الله. فقال: «ولا يفر إذا لاقى»، فإن في ذلك تنبيهاً على أن التقرب إلى الله إذا أداه صاحبه على الوجه المطلوب الذي يرضي ربه فإنه يثمر القيام بحق الله في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله مع الثبات وعدم الفرار. وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يبيتون رُكعاً سُجداً مبتلة لحاهم بدموعهم خشية من الله، فإذا أصبح الصباح فلاقوا العدو استبطأ أحدهم أكل تمرات في يده تشوقاً إلى لقاء الله فيرمي تمراته ويدخل في الصف فيقاتل حتى يقتل، والذين كانوا يتزاحمون على الصف الأول في الصلاة كانوا يتزاحمون على الصف الأول عند اللقاء أيضاً.

وفي الصيام ـ كالحج ـ شبه بالجهاد في سبيل الله، لما فيه من الجوع، والعطش، والبعد عن الأهل وغير ذلك مما يحتاج إلى صبر وجهد كثير.

تطوع الحج والعمرة:

فرض الحج على المسلم بشروطه المبينة في كتب الفقه مرة واحدة في

(١) البخاري رقم ١٩٧٩ فتح الباري (٤/ ٢٢٤) ومسلم (٢/ ٨١٤).

العمر، أما العمرة فاختلف في وجوبها، وليس البحث الآن بصدد بيان حكمها، ولكن على القول بوجوبها فإنها كذلك واجبه مرة واحدة في العمر، ويبقى باب التطوع مفتوحاً بالحج كل عام، وبالعمرة في أي وقت من الأوقات ـ وإن كره بعضهم تكرارها في العام وكره بعضهم فعلها في بعض الأوقات، كأيام التشريق مثلاً.

والحديث الصحيح يدل على أن الإكثار من العمرة مُزَكٍّ للنفس مطهّر للذنوب كما يدلّ على أن الحج كذلك مُزَكٍّ ومطهّر وسُلِّم إلى ثواب الله. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[١] وفي حديثه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[٢]. هذا مع ما يشتمل عليه الحج والعمرة من مشاق السفر ومفارقة الأهل والوطن وما يتضمنه كلٌّ منهما من أذكار وطاعات كثيرة. والحديثان شاملان لحج الفرض وحج التطوع لعموم لفظهما، وإذا كانت العمرة إلى العمرة تكفران ما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة والحاج الذي يؤدي حجه كما يرضى ربه يرجع كيوم ولدته أمه ظهر ما للحج والعمرة من التزكية والتطهير للنفس البشرية.

ذكر الله تعالى:

وذكر الله تعالى من أعظم الطاعات التي تجعل العبد متصلاً بربه في كل أوقاته وليس المقصود به تحريك اللسان بالأذكار الواردة شرعاً فقط بل ذلك مع تأمل الأذكار بالقلب وتفهم معانيها والاستفادة منها بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وامتلاء القلب من خوف الله ومحبته سبحانه.

وقد لا يتحرك اللسان بالذكر، ولكن القلب لا يغفل عن الله، وعلامة ذلك أن يتقيد المسلم في كل أعماله بما شرع الله. فإذا حدثته نفسه بترك واجب

---

(١) البخاري رقم ١٧٧٣ فتح الباري (٣/ ٥٩٧) ومسلم (٢/ ٩٨٣).

(٢) البخاري رقم ١٨١٩ فتح الباري (٤/ ٢٠) ومسلم (٢/ ٩٨٣).

ذكر الله فأدى ذلك الواجب، وإذا حدثته نفسه بارتكاب محرم ذكر الله فأقلع عن ذلك المحرم، وهكذا تجده ذاكراً لله في كل أحيانه ولعل هذا من معاني قوله تعالى: ﴿واذكرْ ربَّك إذا نَسِيتَ﴾(١).

ولهذا أمر الله تعالى المؤمنين بالإكثار من الذكر، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبِّحوه بُكْرة وأصيلاً. هو الذي يصلِّي عليكم وملائكتُه ليخرجَكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمؤمنين رحيماً﴾(٢).

وأنظر كيف ينقلب من يذكر ربه من حالة مرتكب للفاحشة إلى حالة مطيع عامل مستغفر مغفور له مثاب عند ربه، قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنةٍ عرضها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين. الذين ينفُقون في السَرَّاء والضَرَّاء والكاظمين الغيظ والعافِين عن الناس والله يحب المحسنين، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا اللهُ ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤ هم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونِعْم أجرُ العاملين﴾(٣).

وكلما ذكر المؤمن ربه ذكره ربه، وأين ذكر العبد المخلوق الفقير إلى الله ربه من ذكر الله الخالق الغني عبده قال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فاذكروني أذْكُرْكم، وأشكروا لي ولا تكفرون﴾(٤).

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ يقول الله تعالى: ﴿أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم. وإن تقرَّب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة﴾(٥).

---

(١) الكهف: ٢٤.
(٢) الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣.
(٣) آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦.
(٤) البقرة: ١٥٢.
(٥) البخاري برقم ٧٤٠٥، فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) ومسلم (٤/ ٢٠٦١).

وذكر الله تعالى يلين قلوب المؤمنين ويجعلها ساكنة مطمئنة إلى ربها، كما أنه يذكرها عظمته فتخافه ويترتب على ذلك المسارعة بطاعته والبعد عن معصيته. قال تعالى: ﴿الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشَوْن ربَّهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هُدَى الله يهدي به من يشاء، ومن يُضْلِلِ الله فما له من هادٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين. الذين إذا ذُكِر الله وجِلَت قلوبُهم، والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللهُ وجلتْ قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبهم بذكر الله، ألاَ بذِكْرِ الله تطمئنُ القلوب﴾(٤).

وكما حث الله تعالى على ذكره عموماً في الآيات السابقة وأمثالها مثل قوله: ﴿إنَّ في خَلْق السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكَّرون في خلق السموات والأرض: ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانَك..﴾(٥) فإنه سبحانه قد حث على ذكره في عبادات كثيرة مثل الحج كما قال تعالى: ﴿وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فَجٍّ عميق، ليشهدوا منافعَ لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾(٦) وقال: ﴿فإذا أفضتم من عرفاتٍ فاذكروا الله عند المَشْعَر الحرام، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾(٧) وقال: ﴿فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً﴾(٨)، ومثل الجهاد في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿يا أيها

(١) الزمر: ٢٣.
(٢) الحج: ٣٤ ـ ٣٥.
(٣) الأنفال: ٢.
(٤) الرعد: ٢٨.
(٥) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.
(٦) الحج: ٢٧ ـ ٢٨.
(٧) البقرة: ١٩٨.
(٨) البقرة: ٢٠٠.

الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلّكم تُفْلحون﴾[١].

وَذِكْرُ الله تعالى من أهم أسباب طلب مرضاة الله ومغفرته ومن أعظم ما يدفع العبد إلى الإكثار من طاعة الله والبعد عن معصيته ولذلك فهو من أعظم العبادات تزكية للنفس وتطهيراً لها وعوناً عليها وعلى أعوانها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإن وجدوا قوماً يذكرون الله تنادَوا هَلُمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: فيقول: هل رأوني، قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألوني قال: يسألونك الجنة قال: يقول: وهل رأوها قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها. قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها، قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم قال: يقول: ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»[٢] والذكر رافع للدرجات محّاء للخطايا والذي ترفع درجاته وتمحى خطاياه باستمرار مفلح مزك نفسه ومطهرها، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[٣].

وفي حديثه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: ﴿لا إلّه إلا الله وحده

(١) الأنفال: ٤٥.
(٢) البخاري رقم ٦٤٠٨ فتح الباري (١١/ ٢٠٨) ومسلم (٤/ ٢٠٦٩).
(٣) البخاري رقم ٦٤٠٥ فتح الباري (١١/ ٢٠٦) ومسلم (٤/ ٢٠٧١).

لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾ في كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[١].

وهنالك أذكار كثيرة شرع للمؤمن المحافظة عليها منها المطلق ومنها المقيد بعدد أو وقت أو بهما كالذكر عند النوم والاستيقاظ منه وأذكار الصلاة كالتكبير والذكر بعد الصلاة أو عند دخول المسجد أو الخروج منه أو عند دخول المرحاض أو عند الخروج منه وعند السفر وعند الرجوع منه وعند النزول بمكان في السفر وعند لبس الثوب وعند تناول الطعام والشراب أو الفراغ منهما. وعند مباشرة الزوجة وعند دخول المنزل وركوب الدابة أو نحوها وفي مناسك الحج من وقت الإحرام إلى الانتهاء منه وهكذا لو أراد الإنسان أن يجمع تلك الأذكار ويحفظها ويعمل بها لما وجد وقتاً يخلو من ذكر الله، مع أن ذلك ميسر وسهل لا يقتضي منه ترك عمله وإذا مل من الذكر باللسان فإنه يستطيع أن يذكر الله في كل حين بقلبه وسلوكه[٢].

والذاكر الصادق النية هو رجل الجهاد في سبيل الله. قال ابن القيم رحمه الله: (وفي الترمذي أيضاً عن النبي ﷺ عن الله عز وجل أنه يقول: ﴿إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه﴾)[٣].

وقد عنى ابن القيم رحمه الله ببيان فوائد الذكر في كتابه المذكور، ويكفي أن تذكر منه هذه الجملة قال: (الخامسة والثلاثون أن الذكر ييسر للعبد وهو في فراشه وفي سوقه وفي حال صحته وسقمه وفي حال نعيمه ولذته وليس شيء يعم الأوقات والأحوال مثله حتى أنه ييسر للعبد وهو نائم على فراشه فيسبق القائم مع الغفلة فيصبح هذا وقد قطع الراكب وهو مستلق على فراشه ويصبح ذلك

(١) البخاري رقم ٣٢٩٣ فتح الباري (٦/ ٣٣٨) ومسلم (٤/ ٢٠٧١).
(٢) يرجع في هذه الأذكار إلى الأمهات الست وغيرها من كتب الحديث حيث يفرد لها أبواب خاصة، وهناك كتب عنى مؤلفوها بجمع الأذكار خاصة مثل الأذكار للنووي والكلم الطيب لابن تيمية والوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم وغيرها.
(٣) الوابل الطيب ص ٥٠.

القائم الغافل في ساقة الركب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)[١].

وقال رحمه الله: (ومن منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة الذكر وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائماً يترددون والذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب ـ وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، به يزول الوقر عن الأسماع والبكم عن الألسن وتقشع الظلمة عن الأبصار، وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان قال بعض السلف إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان فيجتمع عليه الشياطين يقولون ما لهذا فيقال قد مسته الأنس وهو روح الأعمال الصالحة فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه)[٢].

المطلب الثاني
محاسبة النفس ومخالفتها

وذلك بالأمور الثمانية الآتية:

الأمر الأول:

محاسبتها على ما منحها الله تعالى من النعم العظيمة التي توجب عليها شكره والبعد عن معصيته. إن نعم الله سبحانه على عبده لا يحصيها إلا هو سبحانه. فمنه تعالى كانت نعمة خلق هذا الإنسان وإيجاده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر كما بين له طريق الخير والشر وحثه على سلوك الأولى وحذره من الثانية.

(١) نفس الكتاب ص ٦٤.
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٢٣).

قال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنّا خلقنا الإنسان من نُطْفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً﴾(١) ومنه سبحانه نعمة الرزق حيث سخر له السماوات والأرض والنباتات والحيوانات في البر والبحر، ومنحه الأدوات التي تعينه على تناول ذلك الرزق ـ المنفصلة عنه كالآلات الزراعية وآلات الصيد وآلات الطهي وغيرها ـ والمتصلة به، وهي جوارحه وأجهزة جسمه كاليدين والرجلين والجهاز الهضمي والجهاز الدموي والجهاز التنفسي والجهاز الإخراجي وغيرها، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرَّك بربِّك الكريم. الذي خلقك فسوَّاك فعدَلَك. في أيِّ صورة ما شاء ركَّبك﴾(٢) وقال تعالى: ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء بناها. رفع سَمْكَها فسوَّاها. وأغْطَش ليلَها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دَحَاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾(٣) وقد شمل ذلك وغيره من نعم الله التي لا تُحصى قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله..﴾(٤) وقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدُّوا نعمة الله لا تُحصوها إن الإنسان لظلوم كفّار﴾(٥) وأعظم نعمة على الإنسان إنزال الكتب وإرسال الرسل لهدايته وبيان الهدى والضلال له ودعوته إلى الهدى وتحذيره من الضلال، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾(٦).

فعلى الإنسان أن يحاسب نفسه على ما أنعم الله به عليه وأن يحملها على شكره سبحانه ويحذرها من معصيته التي تكون سبباً لكفران تلك النعم، قال تعالى: ﴿افبنعمة الله يجحدون﴾(٧) وقال: ﴿أفبالباطل يؤمنون، وبنعمةِ الله هم يكفرون﴾(٨).

وعليه أن يذكرها أنها إن استمرت على معاصي الله فإن الله سيزيل عنها كثيراً من تلك النعم قال ابن القيم رحمه الله: (ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل

(١) الدهر: ١ ـ ٣.
(٢) الانفطار: ٦ ـ ٨.
(٣) النازعات: ٢٧/ ٣٣
(٤) النحل: ٥٣.
(٥) إبراهيم: ٣٤.
(٦) النحل: ٣٦.
(٧) النحل: ٧١.
(٨) النحل: ٧٢.

النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة، وقد قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وقال تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[(١)]).

الأمر الثاني:

تذكير النفس بأن الله تعالى لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء وإن كل شيء يعمله العبد فإنه محصي عليه مكتوب يحاسب عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تُوسوس به نفسُه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقَّى المتلقِّيان عن اليمين وعن الشمال قَعِيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[(٢)] وقال: ﴿وإنَّ عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا، أحصاه الله ونَسُوه، والله على كل شيء شهيد﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يَرَه، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يَرَه﴾[(٥)] وفي حديث جبريل المشهور: (الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[(٦)] ولهذا أمر الرسول ﷺ بتقوى الله في كل مكان لأنه تعالى حاضر: ﴿اتَّق الله حيثما كنت﴾[(٧)].

الأمر الثالث:

تذكيرها بالموت وبأهوال يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص٦٢ طبع محمد علي صبيح والآية في سورة الأنفال ٥٣.
(٢) ق ١٦/ ١٨.
(٣) الأنفطار: ١٠ ـ ١٢.
(٤) المجادلة: ٦.
(٥) الزلزلة: ٧ ـ ٨.
(٦) البخاري رقم ٥٠، فتح الباري (١/ ١١٤)، ومسلم (١/ ٣٦).
(٧) الترمذي (٤/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وراجع جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ١٣٦.

والآخرين وفيه تكشف الأسرار وتوزن الأعمال فمن غلبت حسناته فاز ونجا ومن غلبت سيآته خسر وندم ولات ساعة مندم، قال تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت. وإذا الكواكب انتثرت. وإذا البحار فُجِّرت. وإذا القبور بُعْثرت. علمتْ نفسٌ ما قدَّمت وأخَّرت﴾(١) وقال تعالى: ﴿فأما من ثَقُلَت موازينُه. فهو في عيشة راضية. وأما من خَفَّت موازينُه. فأُمُّه هاوية. وما أدراك ماهِيَهْ. نارٌ حامية﴾(٢).

وقال: ﴿فإذا جاءت الطَّامة الكبرى. يوم يتذكَّر الإنسان ما سعى. وبُرِّزت الجحيمُ لمن يرى. فأما من طَغَى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنَّة هي المأوى﴾(٣) ويجب كذلك أن يوقظها من غفلتها وإعراضها ولعبها ولهوها وظلمها بأن قيام الساعة كذلك قريب وهو أمر يجب أن يعد له العدة، قال تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذِكْر من ربهم مُحْدَث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا...﴾(٤) وعليه أن يصف لها أهوال هذا اليوم فيطلعها على قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتَّقوا ربَّكم إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم تَرَوْنها تذهل كل مرضعة عمَّا أرضعت، وتضع كلُّ ذات حَمْلٍ حملها، وترى الناسَ سُكارى وما هم بسُكارى، ولكن عذابَ الله شديدٌ﴾(٥).

وعليه دائماً أن يوقظها من غفلتها أن الموت على الرقاب فيجب أن يعد له العدة قبل أن يدهمه وهو على سخط الله تعالى وقد أعذر الله إليه بما أعطاه من الفسحة في العمر كما قال تعالى: ﴿ أوَ لمْ نعمِّرْكم ما يتذكر فيه من تَذَكَّر، وجاءكم النذير﴾(٦) وقال تعالى: ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخُلْد أفإنْ مِتَّ فهم الخالدون. كلُّ نفس ذائقةُ الموت، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾(٧) وقال: ﴿ألهاكم التكاثرُ حتى زُرْتُم المقابر﴾(٨).

(١) الانفطار: ١ ـ ٥.
(٢) القارعة: ٦ ـ ١١.
(٣) النازعات: ٣٤ ـ ٤١.
(٤) الأنبياء: ١ ـ ٣.
(٥) الحج: ١ ـ ٢.
(٦) سورة فاطر: ٣٧.
(٧) الأنبياء ٣٤ ـ ٣٥.
(٨) التكاثر: ١ ـ ٢.

وبقوله ﷺ - كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رَشْحه إلى أنصاف أذنيه»(١) وقوله في حديث أبي هريرة: «يَعْرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقُهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»(٢).

وكذلك يذكرها بالقبر ووحشته وعذابه الذي لا ينجو منه إلا صاحب العمل الصالح ويذكر لها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل (لمحمد ﷺ) فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله فيقال له: أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً»(٣).

وهذا يدعو المؤمن أن يذهب بنفسه إلى القبور فيزورها ليتذكر الحياة وابتلاءه فيها والموت وما بعده كما قال الرسول ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»(٤) وفي رواية في غير مسلم: (فإن زيارتها تذكرة)(٥) وفي رواية: (فزوروا القبور فإنها تذكر بالموت)(٦).

الأمر الرابع:

توجيهها إلى الإقتداء بأصحاب السمو والرفعة الذين ارتفعت نفوسهم عن شهوات الدنيا وسفسافها حباً لله وطمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه. حتى يكون ممن تشمله رحمة الله ومغفرته، إذ يحقق بذلك محبة الله ومحبة رسوله وعباده الصالحين والمرء مع من أحب، فإن أحب أهل الكفر والفسوق والعصيان فهو معهم في الدنيا والآخرة، وإن أحب أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين كان

(١) البخاري رقم ٤٩٣٨، فتح الباري (٨/ ٦٩٦) ومسلم (٤/ ٢١٩٥).
(٢) البخاري رقم ٦٥٣٢ فتح الباري (١١/ ٣٩٢) ومسلم (٤/ ٣١٩٦).
(٣) البخاري رقم ١٣٧٤، فتح الباري (٣/ ٢٣٢) ومسلم (٤/ ٢٢٠٠).
(٤) مسلم (٢/ ٦٧٢).
(٥)(٦) أبو داود (٣/ ٥٥٧).

معهم في الدنيا والآخرة، ألا ترى أن المسلم يجب أن يقرأ الفاتحة في كل ركعة يصليها لله فرضاً كانت أو نفلاً. وهو يدعو فيها بهذا الدعاء: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين...﴾(١) فمن هُدي إلى صراط الله المستقيم مع المنعم عليهم كان معهم يوم القيامة حيث يمر على الصراط مثلهم أو قريباً منهم، ومن ترك هذا السبيل واتبع سبُلاً أخرى متفرقة كان مع أهل تلك السبل وهم المغضوب عليهم والضالون. وتذكير النفس بهذا الأمر من أعظم الدواعي لتزكيتها وتطهيرها وإعدادها للجهاد في سبيل الله. قال ابن تيمية رحمه:

(ومن هذا الباب - أي مما تستلزمه محبة الله ورسوله - ما استفاض عنه ﷺ من حديث ابن مسعود وأبي موسى وأنس ان النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»(٢) وفي رواية أنه سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم - أي ولما يعمل بأعمالهم - فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن يجعلني الله معهم وإن لم أعمل عملهم. وهذا الحديث حق، فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريباً من ذلك كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه إذا كان المحب قادراً عليها، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك، وإن كانت موجودة.

وحب النبي وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، مع العلم بالمضاد، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ والموادة من أعمال القلوب)(٣).

وليذكر المسلم نفسه بقصة يوسف عليه السلام التي يتضح بها التطبيق

---

(١) الفاتحة: ٦.

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٣٢) وما بعدها.

(٣) الفتاوى (١٠/ ٧٥٢). والآية في سورة المجادلة: ٢٢.

العملي لقول الرسول ﷺ: «المرء مع من أحب». فقد توافرت كل دواعي الإغراء والترغيب لوقوعه في معصية الله، ثم كل وسائل التهديد والترهيب، ومع ذلك كان مع من أحب ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ فلم تستهوه دواعي الإغراء والترغيب، ولم تخضعه وسائل التهديد والترهيب، بل لجأ إلى ربه مستغيثاً به فأغاثه: ﴿قال: ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه، وإلَّا تَصْرِفْ عنِّي كيدَهنَّ أصْبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربُّه فصرف عنه كيدهن، إنه هو السميع العليم﴾[١] ولا يقال إن هذه المنزلة لا يبلغها إلا الأنبياء لأنهم معصومون، فإن الذي يقتدي بالأنبياء في مجاهدة نفسه وصبره ودعاء ربه واستعانته به يوفقه الله ويعينه ويحول بينه وبين معصية الله وييسر له تزكية نفسه.

وفي هذا تذكر قصة الثلاثة أهل الغار الذين فرج الله عنهم بتوسلهم إليه بأحسن أعمالهم التي تقربوا بها إليه مخلصين ومنهم ذلك الرجل الذي اجتهد في الوقوع في المعصية حتى تمكن منها فلما ذكر بالله ذكر وخاف وترك لله: (وقال الآخر: اللهمّ إن كنت تعلم إني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء فقالت: لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجليها، قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم إني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا فرجة، قال ففرج عنهم الثلثين)[٢].

فليقتد المؤمن في مجاهدة نفسه بعباد الله الصالحين حتى يكون في ركبهم.

الأمر الخامس:

تذكير النفس بمعنى الحرية الحقة ومعنى الرق والعبودية المذلين لأن النفس دائماً تحب أن تنطلق في مهب شهواتها وتكره أن يقيدها أحد عن تلك الشهوات ـ مهما كانت ـ وتظن أن في ذلك حريتها، وأن في تقييدها عبودية وخضوعاً لمن يقيدها عن شهواتها، وهي لا تريد الخضوع لأحد، وإنما تريد الحرية الكاملة، ولم يمر زمان من الأزمان ـ فيما يظهر ـ اشتهر فيه النداء بالحرية ـ وإن كان الناس ينطلقون في كل الأزمنة وراء شهواتهم كما يشاؤون وذلك يكثر ويقل حسب تربية

---

(١) يوسف: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) البخاري رقم ٢٢١٥، فتح الباري (٤/ ٤٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٩).

الناس وتوجيه قادتهم ـ لم يمر زمان مثل هذا الزمان انتشرت فيه الدعوة إلى الحرية ـ بهذا اللفظ ـ والسبب في ذلك أن أعداء الله ممن يحبون إشاعة الفاحشة وتدنيس النفوس وبعدها عن الله تعالى فسروا لها الحرية بعكس معناها والعبودية ـ كذلك ـ بعكس معناها، وعندما يسوء الإدراك والتصور يسوء السلوك والتصرف. ففسر أعداء الله الحرية بأنها الانطلاق الكامل من كل قيد ـ حتى ولو كان هذا القيد صادراً من خالق السموات والأرض ـ وبنوا على ذلك بأن للإنسان أن يغشى كل ما تشتهيه نفسه وتهواه مالاً أو جنساً، أو منصباً أو غير ذلك، وله أن يدوس على حريات الناس كلهم ما دام يستطيع الوصول إلى بغيته وكل واحد عليه أن يباري غيره فمن عزَّ بَزَّ ومن غلب استلب وتسمية الأشياء بغير أسمائها للتضليل ليست جديدة، وإن اختلفت أساليبها ووسائلها. ألا ترى هذه العبارة الخبيثة التي أطلقها إبليس لإغراء آدم وتحريضه على معصية الله ﴿فوسوس إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أدلُّك على شجرة الخُلْد ومُلْكٍ لا يَبْلَى﴾[1] وعلى الرغم من ترغيب الله وتحذيره لآدم فإن قلب الحقائق عمل عمله: ﴿وعصى آدمُ ربَّه فغوى﴾[2].

ولقد كذب عدو الله ـ الشيطان ـ وكذب أتباعه الكفرة الفجرة، فليس ما زعموه حرية بحرية، بل أنه الرق لا لجهة واحدة، بل لجهات لا تحصى ولا تعد إلا إذا أحصيت شهوات النفس وملذاتها التي يشتهيها ويهواها البشر ومن يستطيع أن يحصي ذلك غير الخالق، فإن الإنسان لا يهوى شيئاً من الملذات جنساً أو مالاً أو جاهاً أو غيرها إلا ريثما يمله ويهوى غيره من جنسه وهكذا يظل طول عمره وهو يهوى شيئاً ويمله ويهوى غيره ويمله فتبقى نفسه في طمع وهلع، طمع فيما تهوى ولم تحصل عليه وهلع من مفارقة ما حصلت عليه أن يذهب من بين يديها. والذي يهواه الإنسان يهواه غيره فينافسه فيه وقد يرغب في شيء ويكره الآخر حصول ذلك الراغب عليه فيقف ضده ويحول بينه وبينه والنفس في كل ذلك أسيرة رقيقة لتلك الأشياء كلها حصلت عليها أو لم تحصل.

والحرية الحقة إنما هي حرية من حقق عبوديته لله وحده فأطاعه في أوامره

---

(١) طه: ١٢٠. (٢) طه: ١٢١.

وازدجر عن نواهيه، ولو كره الناس منه طاعة ربه وازدجاره عن معاصيه، بل ولو كرهت نفسه ذلك، عندئذ فقط يكون حراً لا تخضع نفسه لمال ولا لجنس ولا لمنصب أو جاه ولا لشيء إلا لله الخالق الذي لا يستحق أحد غيره الخضوع المطلق والحب المطلق والطاعة المطلقة وها هو القرآن كلام الله يصور ذلك ويوضحه أعظم توضيح قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾[١]. كما بين الرسول ﷺ أن الرق والأسر أن تصير النفس مستعبدة للملذات والشهوات كما قال: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم»[٢].

واقرأ هذه الجمل لأحد عمالقة الحرية، وهو يبين معناها ومعنى الأسر والرق بياناً شافياً وهو ابن تيمية رحمه الله قال: (فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب. وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب فإن المسلم لو أسره كافر واسترقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك. وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ولو كان في الظاهر ملك الناس. فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس. قال النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، وإنما الغنى غنى النفس»[٣] وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها مستعبداً لها اجتمع له من أنواع الشر

(١) الزمر: ٢٩.
(٢) البخاري رقم ٢٨٨٧ فتح الباري (٦/ ٨١).
(٣) البخاري (٦٤٤٦) فتح الباري (١١/ ٢٧١) ومسلم (٢/ ٧٢٦).

والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه)(١).

فالذي يسترق قلبه لغير الله، بل قل الذي لا تخلص عبوديته لله يكثر أسياده الذين يتشاكسون فيه، ويصير كل واحد منهم يأمره بتنفيذ ما ينهاه عنه الآخر، فهل تراه قادراً على تنفيذ أمر وضده في وقت واحد. ولقد تعمق ابن تيمية رحمه الله في معنى الحرية والعبودية فأبان أن قادة الشعوب الذين لا يتمتعون بالحرية الحقيقية هم عبيد لعبيدهم وخدمهم، قال رحمه الله: (وكذلك طالب الرياسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم، والتحقيق أن كلاهما ـ كذا ـ فيه عبودية للآخر وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله. وإن كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر)(٢).

ومجاهدة الإنسان نفسه على إدراك هذا المعنى للحرية والعبودية معينة له عليها في خضم جموع البشرية الضالة المضلة، واقرأ هذه القطعة التالية لأحد عمالقة الحرية في هذا العصر، وهو سيد قطب رحمه الله، قال: (ويغرق المجتمع في شهواته الهابطة، ويمضي مع نزواته الخليعة، ويلصق بالوحل والطين حاسباً أنه يستمتع وينطلق من الأغلال والقيود، وتعز في مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة وكل طيبة حلال، ولا يبقى إلا المشرع الآسن وإلا الوحل والطين وينظر المؤمن من عل إلى الغارقين في الوحل اللاصقين بالطين وهو مفرد وحيد فلا يهن ولا يحزن ولا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيف الطاهر وينغمس في الحمأة وهو الأعلى بمتعة الإيمان ولذة اليقين)(٣).

(١) الفتاوى (١٠/ ١٨٦).
(٢) الفتاوى (١٠/ ١٨٩).
(٣) معالم في الطريق ص ١٦٥.

وبين في كتابه القيم (في ظلال القرآن) إن الذي ينحل من عبوديته لله يقع في أحط أنواع العبوديات المتعددة لغير الله، فقال: (إن العبودية لله وحده هي العاصم من العبودية للهوى والعاصم من العبودية للعباد، وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه. إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله وحده يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى، يقعون من فورهم عبيداً لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص الله بها نوع الإنسان من بين سائر الأنواع، وينحدرون في سلم الدواب، فإذا هم شر الدواب، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل، وإذا هم أسفل سافلين، بعد أن كانوا، كما خلقهم الله، في أحسن تقويم)[1].

الأمر السادس:

غرس حب الله وخوفه في النفس البشرية.

الذي لا يحب الله مطلقاً ليس بمؤمن، لأن المؤمن لا بد أن يحب الله، كما يحبه الله. كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يـأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه﴾[2]. والمؤمن يحب ما يحبه الله ورأسه الإيمان، ويبغض ما يبغضه الله ورأسه الكفر كما قال تعالى: ﴿ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم، وكرّه إليكم الكفر والفُسوق والعصيان﴾[3]، بخلاف الكافر فإنه يحب ما يبغضه الله ويبغض ما يحبه الله قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾[4] وقال: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهُدَى﴾[5]، وقد يحب الكافر ربه كما يحب غير ربه ولكنها ليست المحبة المقصودة هنا، لأن هذه المحبة محبة شركية، مثل أن يصلي إنسان لله ويصلي للوثن وهكذا، وإنما المقصود العبودية

---

(١) في ظلال القرآن (١٠/ ١٥٢١).
(٢) المائدة: ٥٤.
(٣) الحجرات: ٧.
(٤) التوبة: ٢٣.
(٥) فصلت: ١٧.

التي تستلزم الذل الكامل والخضوع المطلق والطاعة التامة للمحبوب، والمؤمن الذي يذكر نعم الله عليه وأعظمها هدايته للإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه يجب أن يجتهد ويبذل كل ما في وسعه أن يكون الله تعالى أحب إليه من كل شيء، وإلا كان في إيمانه دَخَن. ففي حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[١] وكل من يحبه الله ـ مثل الرسول ﷺ ـ وما يحبه الله ـ مثل الإيمان ـ فمحبته إنما هي تابعة لمحبة الله سبحانه، ولهذا قال ﷺ: كما في حديث أنس أيضاً: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢]. لأن الرسول ﷺ أحب إلى الله من الناس أجمعين.

قال ابن القيم مبيِّناً مقام حب الله: (وأما المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده، ومتى أحب العبد بها غيره كان شركاً لا يغفره الله فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً، وهي التي سوّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها، كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتَّخذ من دون الله أنداداً يُحبونهم كحبِّ الله، والذين آمنوا أشدُّ حباً لله﴾[٣]. وأصح القولين أن المعنى يحبونهم كما يحبون الله. وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب، ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾، فإن الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوه لله والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة وهي أول دعوة الرسل وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة اعترافه واقراره بهذه المحبة وأفراد الرب بها، فهو أول ما يدخل به في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله، وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها وجميع المقامات وسائل إليها وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل فهي قطب رحا السعادة وروح الإيمان وساق شجرة الإسلام ولأجلها

(١) البخاري رقم ١٦ فتح الباري (١/ ٦٠) ومسلم (١/ ٦٦).
(٢) البخاري رقم ١٥ فتح الباري (١/ ٥٨) ومسلم (١/ ٦٧).
(٣) البقرة: ١٦٥.

أنزل الله الكتاب والحديد، فالكتاب هاد إليها ودال عليها ومفصل لها والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره ولأجلها خلقت الجنة والنار فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم لها والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسوى بينه وبين الله كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿ تاللهِ إنْ كنّا لفي ضلالٍ مبينٍ إذ نسويكم بربِّ العالمين ﴾[١].

وغرس محبة الله تعالى في القلب بهذا المفهوم الشامل الذي وضحه ابن القيم ـ إذ يعني العبادة بأكملها ـ يثمر في العبد الذي جاهد نفسه على محبة الله أن يستجيب لكل أوامر الله فيمتثلها ولكل نواهي الله فيجتنبها فلا يراه تاركاً طاعة ولا آتياً معصيته، لأن تمكن محبة الله من القلب يأبى على صاحبه أن يدع ما يحبه الله أو يقدم على فعل ما لا يحبه الله، ولهذا كان دليل محبة الله طاعته وطاعة رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تُحبون الله فاتَّبعوني يُحْبِبْكم الله ويغفرْ لكم ذنوبَكم﴾[٢].

قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ولهذا قال: «إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول)[٣].

وقال سيد قطب في ظلال هذه الآية: (إن حب الله ليس دعوى باللسان ولا هُياماً بالوجدان؛ إلا أن يصاحبه الأتباع لرسول الله والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة، وأن الإيمان ليس كلمات تقال ولا مشاعر تجيش ولا شعائر تقام ولكنه طاعة الله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول)[٢].

---

(١) الشعراء ٩٧/ ٩٨، طريق الهجرتين ص ٢٢٥.
(٢) آل عمران: ٣١.
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٨).
(٤) في ظلال القرآن (٣/ ٣٨٧).

فوصول العبد بنفسه إلى تقديم محبة الله على محبة غيره مهما كان ذلك الغير من أعظم ما يطوع النفس لخالقها سبحانه ويزكيها ويجعلها مهاجرة إليه سبحانه في جميع أوقاتها، وعلى قدر كمال المحبة لله ونقصها تكون طاعته تعالى وموافقته في محبوباته. قال ابن القيم: (وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم، قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ قال الحسن: قال قوم على عهد النبي ﷺ: إنا نحب ربنا فأنزل الله تعالى هذه الآية)[1].

ولا بد ـ مع محبة الله تعالى ـ من تمرين النفس على الخوف منه وحده، وليس المراد الخوف الطبيعي، كالخوف من السبع ونحوه، وإنما المقصود خوف العبودية خوف الخضوع الكامل والذل المطلق من جبار السموات والأرض الذي إذا أراد شيئاً كان، وهذا الخوف يجلبه تأمل المسلم في أسماء الله وصفاته وآثارها في الكون في الدنيا، ثم في الآخرة.

فمثلاً إذا تأمل المسلم اسمه «القدير» في مثل قوله تعالى: ﴿ولو شاء اللهُ لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾[2] وهي واردة في المنافقين يمتلىء قلبه خوفاً ورعباً من الله سبحانه وتعالى الذي ليس قديراً فقط على إذهاب ما أنعم به على الإنسان من نعم، كالسمع والبصر، بل إنه على كل شيء قدير.

كذلك إذا تأمل نفس الاسم في سياق تهديد أعداء الله الذين يسعون جادين في الأضرار بأوليائه حتى أنهم ليكرسون جهودهم متمنين أن يحرموهم أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم وهي نعمة الإسلام كما قال تعالى: ﴿ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونَكم من بعد إيمانكم كفاراً حَسَداً من عند أنفسهم من بعدِ ما تبين لهم الحقُّ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾[3] يرتجف قلبه من خشية الله وخوفه سبحانه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ولكلٍّ وِجْهةٌ هو مُوَلِّيها، فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأتِ بكم الله جميعاً، إن الله على كل شيء قدير..﴾[4] ترى من غير الله

(١) طريق الهجرتين ص ٥٣٥/ ٥٣٦.
(٢) البقرة: ٢٠.
(٣) البقرة: ١٠٩.
(٤) البقرة: ١٤٨.

القدير يجرؤ أن يقول لخصمه أو لمن يريد أن يهدده هذه العبارة إلا إذا كان أعمى البصيرة قابلاً لأن يكون محل سخرية الناس. فكيف إذا اجتمع مع هذا الاسم العظيم اسم العليم في مثل قوله تعالى: ﴿يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾(١). كذلك إذا تأمل المسلم اسمه الملك واسمه المهيمن واسمه العزيز، واسمه الجبار واسمه المتكبر عظم في نفسه خوف الله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إلّه إلا هو، الملك، القُدُّوسُ، السلامُ، المؤمنُ، المهيمنُ، العزيزُ، الجبّار، المتكبِّر، سبحان الله عمَّا يشركون﴾(٢).

واقرأ هذه الآية بتدبر وتأمل ثم سل قلبك عما اعتراه: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد، والله عزيز ذو انتقام﴾(٣) فإذا لم يهتز اهتزازاً شديداً فاقرأ عليه الآية التي تليها وهي قوله: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في ا لسماء﴾(٤) وكذلك قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممّن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾(٥).

وعلامة خوف الله سبحانه أن يذكره العبد في الوقت الذي تحدثه نفسه بارتكاب ما نهى الله عنه وليس عنده غير الله تعالى فيقلع عن ذلك خوفاً منه، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تنالُه أيديكُم ورماحكُم، ليعلمَ اللهُ من يخافه بالغيب، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم﴾(٦)، ولما كان الملائكة يخافون الله تعالى خوفاً تاماً لا نقص فيه كان أثر ذلك أن يطيعوه طاعة تامة ولا يعصونه مطلقاً، قال تعالى: ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة، والملائكة وهم لا يستكبرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾(٧)، وقال: ﴿لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾(٨) ونهى الله تعالى المؤمنين أن يستجيبوا لتخويف أعداء الله عندما يخوفهم الشيطان وأمرهم بخوفه وحده لأن ذلك هو مقتضى الإيمان

(١) الروم: ٥٤.
(٢) الحشر: ٢٣.
(٣) آل عمران: ٤.
(٤) آل عمران: ٥.
(٥) السجدة: ٢٢.
(٦) المائدة: ٩٤.
(٧) النحل: ٤٩ - ٥٠.
(٨) التحريم: ٦.

فقال: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾[(١)].

والذي يخاف الله في الدنيا يأمن في الآخرة جزاءً وفاقاً: ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾[(٢)]. ومن خوف الله خوف عذابه الذي لا يقدر على مثله المخلوقون: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد﴾[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله: (وقد أمر الله سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾[(٤)] فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان ـ إلى أن قال ـ والمعنى إن كنتم مؤمنين فخافوني)[(٥)] فخوف الله تعالى من أعظم الأمور التي تحول بين النفس ومعصية الله سبحانه وتعين المؤمن على تزكية نفسه وتطهيرها، وخشية الله وقاية للمسلم من دخول النار كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلجُ النارَ رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم» قال الترمذي: (هذا حديث صحيح)[(٦)].

وها هو هذا الرجل يسيء الظن بعمله، ويسيىء الفهم في قدرة الله عليه، فيلقى ربه فيسأله عما حمله على فعله فيجيب أن الحامل له مخافة الله فينال مغفرته سبحانه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه به أحداً، قال ففعلوا ذلك، فقال للأرض: أدي ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب، أو قال مخافتك، فغفر له بذلك)[(٧)].

---

(١) آل عمران: ١٧٥.

(٢) الدهر: ١٠ ـ ١١.

(٣) الفجر: ٢٥ ـ ٢٦.

(٤) آل عمران: ١٧٥.

(٥) طريق الهجرتين ٥٠٢.

(٦) سنن الترمذي رقم الحديث ٢٤١٣ تحفة الأحوذي (٦/ ٦٠٠).

(٧) صحيح مسلم (٤/ ٢١١٠) النسائي (٤/ ٩١) وأنظر صحيح البخاري رقم الحديث ٣٤٧٨ (فتح الباري ٦/ ٥١٤).

ومن دعاء رسول الله ﷺ، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «اللهم اقسِمْ لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[١] وقال الشارح ـ المبارك فوري ـ: وأخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري.

فإذا جاهد المؤمن نفسه على محبة الله المحبة الحقة، وعلى خوفه الخوف المطلق فإنه بذلك يحول بين نفسه وبين شهواتها الموبقة ويرغمها على طاعة الله سبحانه وسينتصر على نفسه وأعوانها، بل ستصبح نفساً مطمئنة بإذن الله.

الأمر السابع:

التوبة إلى الله تعالى.

ومن أعظم الأمور التي تزكى بها النفس وتُطهِّر حَمْلُها على ترك الذنب والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى واستغفاره فإن الإنسان بشر والبشر يخطىء ويصيب ويطيع ويعصي وليس العيب في الخطأ والمعصية مع التوبة وإنما العيب في الاستمرار على المعصية، فقد أذنب آدم عندما عصى ربه فأكل من الشجرة ولكنه تاب فتاب الله عليه وغفر له، وأذنب إبليس عندما امتنع من السجود لآدم وقد أمره الله به ولم يتب إلى الله فلعنه الله وأبعده من رحمته وأطال عمره ليتحمل أوزاره وأوزار من يضلهم إلى يوم القيامة والتوبة من الذنوب واجبة أمر الله بها في كتابه، فقال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلَّكم تُفلحون﴾[٢] ويجب أن تكون التوبة خالصة لله تعالى متضمنة الرجوع الصادق إلى الله عز وجل قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا تُوبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾[٣].

وأمر بها رسوله ﷺ وكان هو ﷺ يداوم عليها، ففي حديث الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»[٤] وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(١) الترمذي تحفة الأحوذي (٩/ ٤٧٥) وقال الشارح: وأخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري.

(٢) النور: ٣١.

(٣) التحريم: ٨.

(٤) مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(١).

وباب التوبة مفتوح فلا يقنط العاصي مالم تظهر علامات الساعة القريبة من وقوعها، كطلوع الشمس من مغربها، ومالم يستيقن الإنسان الموت كأن يغرغر، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

وفي حديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد مالم يغرغر»(٣).

والتوبة النصوح هي ما توافرت شروطها التي ذكرها العلماء، قال الإمام النووي رحمه الله: (قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط أحدها أن يقلع عن المعصية، والثاني أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبداً، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها)(٤).

وتوبة العبد يفرح بها ربه لرحمته إياه، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»(٥).

وقد كان رسول الله ﷺ يشتد فرحه ويعظم سروره لتوبة بعض أصحابه، كما في قصة كعب عندما نزلت توبة الله عليه قال رضي الله عنه: فلما سلمت

(١) البخاري رقم الحديث ٦٣٠٧، فتح الباري (١١/ ١٠١).
(٢) مسلم (٤/ ٢١١٣).
(٣) الترمذي رقم ٣٦٠٣ تحفة الأحوذي (٩/ ٥٢١) وقال الترمذي حديث حسن غريب.
(٤) رياض الصالحين (١٠).
(٥) مسلم (٤/ ٢١٠٥).

على رسول الله ﷺ قال: «وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك من يوم ولدتك أمك»[١].

وهكذا كان أصحابه رضي الله عنهم يفرح بعضهم بتوبة الله على بعض، وفي قصة كعب قال: (فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا).

وكان التائب منهم يفرح بتوبة الله عليه فرحاً لا يعدله فرح في الدنيا ويدلل على صدق توبته بعمله، فهذا كعب يقول: يا رسول الله إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، ويقول: (يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ويقول: والله ما تعمدت كذبه منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي)[٢].

فإذا ذكر المسلم نفسه بوجوب التوبة من الذنب ـ فعلاً كان أو تركاً ـ وإذا ذكرهابفرح الله بتوبتها وبفرح رسوله ﷺ وبفرح عباد الله الصالحين فإن ذلك يكون من دواعي رجوعها إلى الله وتزكيتها بالتوبة إليه سبحانه.

وقد يكون التائب من الذنب أكثر حذراً من الوقوع فيه مرة أخرى لأنه قد ذاق مرارته بالوقوع فيه وذاق حلاوة التوبة إلى الله بالبعد عن معصيته، كما أنه يحرص على الفضل العظيم الذي منه كون الله يبدل سيئاته حسنات، قال ابن تيمية رحمه الله (فالعبد المؤمن إذا تاب وبدل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له، والاعتبار بكمال النهاية، لا بنقص البداية... والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع والخشوع والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة، كمن ذاق الجوع

(١) مسلم (٤/ ٢١٢٠) وما بعدها.
(٢) كل النصوص التي أشير إليها من حديث كعب تراجع في مسلم (٤/ ٢١٢٠) رقم الحديث ٢٧٦٩.

والعطش والمرض والفقر ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه والحذر أن يقع فيما حصل أو لا ما لم يحصل بدون ذلك. . وينبغي أن يعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله ويزول عنه كل ما يكره إلا بها)(١).

الأمر الثامن:

واجب الأمة في محاسبة النفس عن طريق الحسبة والعقوبات الشرعية:

١ ـ الحسبة:

كل ما مضى من مجاهدة النفس يتعلق بالإنسان نفسه فهو الذي يجاهدها ويحاسبها ويخالفها حتى يطوعها لربها سبحانه وتعالى، ولكن مجاهدة النفس ليست من واجب الأفراد فحسب، بل هي من واجب المجتمع أيضاً، لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ومن مستلزمات هذه الولاية التعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا فلاح للأمة بدون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إذا فقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقق فيهم الخسران في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعض، يأمرون بالمعروف وينْهَون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله إن اللهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾(٣) وقال: ﴿كنتم خير أمة أُخرجتْ للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(٤) وقال تعالى: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾(٥) وقال:

---

(١) الفتاوي (١٥/ ٥٥).
(٢) التوبة: ٧١.
(٣) آل عمران: ١٠٤.
(٤) آل عمران: ١١٠.
(٥) المائدة: ٢.

﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾(١).

ومن أعظم الأحاديث النبوية الزاجرة للأمة الإسلامية عن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدالة على أنه لا عافية ولا نجاة بدونهما، بل يكون بفقدهما هلاك الأمة كلها حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(٢) ترى هل يقدر المسلمون الآن أن يحصوا خروق سفينتهم؟

٢ ـ العقوبات الشرعية (الحدود والتعزيرات)

إذا قصر الفرد المسلم في حق نفسه فلم يجاهدها على طاعة الله وترك معصيته وإذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فأصر على عناده وتمادى في طغيانه فإنه يجب هنا أن يؤخذ على يده من قبل السلطة أو الحكومة الإسلامية فتنفذ فيه أحكام الله سبحانه وتعالى. فإن ارتكب معصية فيها عقوبة محددة في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ، كالسرقة والزنا، والقتل ونحوها أقيم عليه ما قدره الله من العقوبات، ليكف ويتوب ويرتدع غيره ممن تسول له نفسه، فإن لم يكن الذنب الذي ارتكبه قد حددت له عقوبة مقدرة فإن في باب التعزير مجالاً لردع الآثم المذنب، فإن إقامة الحدود والتعزيرات من أعظم الوسائل الرادعة للعصاة عن الاستمرار في جريمتهم التي إذا تركوا وشأنهم فيها انتشرت فاحشتهم في المجتمع وصعب بعد ذلك إقلاعه عنها أو متابعته من قبل الحكومة.

وقد كانت الجرائم في المجتمع الإسلامي في عصوره الأولى نادرة بسبب التربية النبوية وإقامة حدود الله الشرعية، وكلما كانت العقوبات الشرعية قائمة

---

(١) سورة العصر.

(٢) البخاري رقم الحديث ٢٤٩٣، فتح الباري (٥/ ١٣٢).

في بلد ما قلت فيه الجرائم وكلما كانت مهملة معطلة كثرت في البلد الذي تهمل فيه وتعطل الجرائم، والرحمة كل الرحمة في إقامة شرع الله لا في التساهل والتهاون فيه. قال ابن تيمية رحمه الله: (وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرضى القلوب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم الداخلة في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلا الخير إذ هو في ذلك جاهل أحمق، كما يفعله بعض النساء والرجال والجهال بمرضاهم وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير رأفة بهم فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم)(١).

وقال الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله: (تعتبر الشريعة الأخلاق الفاضلة أولى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع، ولهذا فهي تحرص على حماية الأخلاق بحيث تكاد تعاقب على كل الأفعال التي تمس الأخلاق، أما القوانين الوضعية فتكاد تهمل المسائل الأخلاقية إهمالاً تاماً ـ إلى أن قال ـ: والعلة في اهتمام الشريعة بالأخلاق على هذا الوجه أن الشريعة تقوم على الدين وأن الدين يأمر بمحاسن الأخلاق ويحث على الفضائل ويهدف إلى تكوين الجماعة الصالحة الخيرة، ولما كان الدين لا يقبل التغيير والتبديل ولا الزيادة والنقص، فمعنى ذلك أن الشريعة ستظل ما بقي الدين الإسلامي حريصة على حماية الأخلاق آخذة بالشدة من يحاول العبث بها.

والعلة في استهانة القوانين الوضعية بالأخلاق أن هذه القوانين لا تقوم على أساس من الدين، وإنما تقوم على أساس الواقع وما تعارف الناس عليه من عادات وتقاليد، والقواعد القانونية الوضعية يضعها عادة الأفراد الظاهرون في المجتمع بالاشتراك مع الحكام، وهم يتأثرون حين وضعها بأهوائهم وضعفهم البشري ونزعاتهم الطبيعية إلى التحلل من القيود، كذلك فإن هذه القواعد قابلة للتغيير والتبديل بحسب أهواء القائمين على أمر الجماعة، فكان من الطبيعي أن

---

(١) الفتاوي (١٥/ ٢٩٠). الآية من سورة الأنبياء: ١٠٧.

تهمل القوانين الوضعية المسائل الأخلاقية شيئاً فشيئاً وأن يأتي وقت تصبح فيه الإباحية هي القاعدة والأخلاق الفاضلة هي الاستثناء، ولعل البلاد التي تطبق القوانين الوضعية قد وصلت إلى هذا الحد الآن.

ويترتب على هذا الفرق بين الشريعة والقوانين الوضعية أن يزيد عدد الأفعال التي تكون الجرائم الأخلاقية ويتسع مداها في البلاد التي تُطَبِّق الشريعة وأن يرتفع مستوى الأخلاق والقيم الروحية إلى أعلى درجات في هذه البلاد أما البلاد التي تطبق القوانين فإن مستوى الأخلاق فيها ينحط إلى أدنى دركاته وترتفع القيم المادية بينها تنحط القيم الروحية وتتفشى الإباحية البهيمية وتنكمش الإنسانية، وتقل الأفعال التي تعتبر جرائم أخلاقية حتى لتكاد تنعدم[١].

وإهمال إقامة العقوبات على مستحقيها يعمق كثرة الجرائم واستساغتها، وينغص على الناس حياتهم ويقلق مجتمعهم ويسبب الفوضى والإضطراب ويقضي على الأمن بكل أنواعه: الأمن على المال والأمن على الأرواح والدماء والأمن على الأعراض والحرم، وإقامة العقوبات تحول بين المجتمع، وكل ما ذكر من الشر والفساد، وتأمل هذه الجمل من الأستاذ القانوني الكبير عبد القادر عودة رحمه الله: (ولقد كان الحجاز في يوم مضرب الأمثال في اختلال الأمن والنظام والجرأة على ارتكاب الجرائم وترويع الآمنين والحجاج والمسافرين وقطع الطريق عليهم لنهب ما لهم ومتاعهم، ولعل الحالة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز الآن ـ لعله يقصد الأيام الأولى من حكم الملك عبد العزيز رحمه الله ـ ليست خيراً منها يوم كان الفساد مستشرياً في الحجاز، والفرق بين الحجاز قديماً وحديثاً هو نفس الفرق بين مصر والحجاز اليوم، هو وجود العقوبة الرادعة في الحجاز الآن وانعدامها قديماً، وهو انعدام هذه العقوبة في مصر اليوم فهذه العقوبة الرادعة هي التي وطدت الأمن في الحجاز وقضت على السلب والنهب وقطع الطريق وجعلت الأمن فيه مضرب الأمثال، فلا يسقط من مسافر شيء إلا وجده في دار الشرطة، ولا يضيع لأحد شيء إلا رد عليه حيث كان، ولو لم يبلغ بضياعه ما دام مع المال ما يدل على اسم صاحبه)[٢].

(١) التشريع الجنائي الإسلامي (١/ ٧٠ ـ ٧١).
(٢) التشريع الجنائي الإسلامي (١/ ٧٤٠).

وبهذا يكتفى في جهاد النفس البشرية، وهو كما ترى لو طبقه الإنسان على نفسه، فجاهدها في الله حق الجهاد وحملها على طاعته سبحانه بما مضى في هذا البحث، وتعاون المسلمون فيما بينهم فإئتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر وأقام حكام المسلمين شرع الله في رعيتهم فطبقوا الحدود الشرعية والعقوبات الزاجرة - لو تم ذلك - لعادت البشرية إلى الله سبحانه وتطهرت النفوس من أدرانها واتجهت شاكرة إلى بارئها.

المبحث الثاني

جهاد الشيطان

وفيه فرعان: الفرع الأول: بيان خطره على النفس
الفرع الثاني: وسائل مجاهدته

الفرع الأول
بيان خطر الشيطان على النفس البشرية

خطر الشيطان له جوانب كثيرة عني بها القرآن الكريم عناية فائقة وكذلك السنة النبوية، وعلماء المسلمين الفقهاء في دين الله من الكتاب والسنة، وعداؤه للإنسان قديم، إذ لم يوجد الإنسان إلا كان الشيطان بجانبه يحسده على الخير الذي آتاه الله ويدبر له المؤامرات ويغريه بالمعاصي ويزين له الابتعاد عن طاعة الله ورضاه، وهو يزهو بعنصره الذي خلقه الله منه على عنصر الإنسان، وهو مصر على مواصلة العداء والاضلال وهو ملازم للإنسان ملازمة مستمرة في كل مكان وزمان، وله أساليب متنوعة في الإضلال، الإغراء وقلب الحقائق حتى يرى الإنسان الحق باطلاً والباطل حقاً، والتهديد والتخويف الذي يرعب الإنسان فيثنيه عن طاعة الله ويوقعه في معصيته. وهذه أمثلة من النصوص التي توضح خطر الشيطان على الإنسان.

قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى. فقلنا: يا آدمُ إنَّ هذا عدوٌ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إنَّ لك ألَّا تجوع فيها ولا تَعْرَى. وأنَّك لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى. فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخُلْد ومُلْك لا يبلى. فأكلا منها فبدت لهما

سوآتهما، وطفقايَخْصِفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغَوَى. ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌ، فإما يأتينكم مني هُدَى فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يَشْقَى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضَنْكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسَى﴾[1].

فأنت ترى أن إبليس عصى أمر ربه، وأن الله حذر آدم وزوجته منه لأنه عدو لهما ولا يريد لهما البقاء في رحاب طاعة الله والنعيم الذي منحهما الله إياه ويصعب عليه أن يبقى مطروداً من رحمة الله وآدم وزوجه في رضوان الله ونعيمه وأن الشيطان على الرغم من ذلك التحذير الذي حصل لآدم وزوجه استطاع أن يغويهما ويوقعهما في معصية الله، ولولا رحمة الله بهما وتوبته عليهما لكانا ـ وكذلك ذريتهما ـ مطرودين مثله من رحمة الله..

وقال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم، ثم صوّرناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألاّ تسجدَ إذ أمرتُك؟ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين. قال أنظِرْني إلى يوم يُبعثون. قال إنك من المنظَرين. قال فبما أغويتني لأقعدَنَّ لهم صراطَك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خَلْفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين. قال اخرج منها مَذْءوماً مَدْحوراً لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنمَّ منكم أجمعين. ويا آدم اسكن أنت وزوجُك الجنةَ فكُلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطانُ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملَكَين أو تكونا من الخالدين. وقاسَمهما إني لكما لمن الناصحين. فدلاَّهما بغُرور، فلما ذاقا الشجرةَ بدت لهما سوآتُها وطفقا يَخْصِفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربُّهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌ

(١) طه: ١١٦ ـ ١٢٦.

مبين؟! قالا ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾(١)

فانظر كيف يطلب أن يطيل الله عمره إلى أن يموت الناس كلهم ويبعثوا ليضمن ملازمته لهم واضلالهم حتى لا يفلت منه أحد إذا مات قبل ذلك. ثم تأمل كيف يقسم على ألا يدع أحداً يستقيم على أمر الله تعالى لأنه سيبقى على صراط الله صاداً عنه وأنهم أينما ذهبوا سيجدونه أمامهم وخلفهم وعن إيمانهم وشمائلهم ليحول بينهم وبين شكر الله مولاهم، ثم أنظر كيف يحذر الله تعالى آدم وحواء منه وكيف يتسلل إليهما بوسوسته وتزيين طاعته ومعصية الله تعالى ويقلب لهما الحقائق بأن الله لا يريد لهما الملك والخلود ويقسم لهما الأيْمان على نصحه لهما حتى يقعا فيما دعاهما إليه فإذا هما نادمان على ما حصل ولولا رحمة الله لكانا مطرودين مثله.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الناسُ كُلُوا ممَّا في الأرض حلالاً طيباً، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾(٢)، فالله عز وجل يأمر عباده بأن يختاروا الحلال الطيب ويفهم منه أنهم لا يجوز لهم أن يختاروا الحرام الخبيث لأكلهم، لأن ذلك مما يدعو له العدو لعنه الله، ولذلك حذر الله تعالى منه ومن اتباعه وطرقه وأساليبه وذكر تعالى أنه لا يأمرهم إلا بما يسخط الله من الإثم والفواحش والقول على الله بلا علم، ففي الآية تحذير من الوقوع في الشهوات التي حرمها الله ومن التشريع الذي لم يأذن به سبحانه، والشيطان يدعو لذلك كله ويزينه.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة، ولا تتَّبعوا خطواتِ الشيطان إنه لكم عدوٌ مبينٌ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه فذَرْهم وما يفترون﴾(٤).

---

(١) الأعراف: ١١ ـ ٢٣.
(٢) البقرة: ١٦٩.
(٣) البقرة: ٢٠٨.
(٤) الأنعام: ١١٢.

وإذا كان الشياطين ـ شياطين الأنس والجن ـ يتعاونون على الأنبياء بتزيين الباطل والاغترار به فما بالك بغير الأنبياء؟ إن ما يشاهد الآن من تزيين الباطل والاغترار بشتى الوسائل وفي كل المجالات، وما نتج عنه من آثار سيئة في العالم كله، ولا سيما العالم الإسلامي ليعتبر نذيراً من الواقع الذي تعيشه البشرية ومن الأنصياع للشياطين وزخرفهم وغرورهم قال الأستاذ سعيد حوا: (إن كل دعوة تعارض دعوة الأنبياء بردها أو بنقضها أو برفضها عندما تحقق في مجموع أقوالها تجدها تتصف بهاتين الصفتين الرئيستين: الزخرفة والـغرور، فهي تنميق من القول لا طائل تحته، وإن كل دعوة تقطع الطريق على دعوة الأنبياء بتبنيهالبعض مضمونات دعوة الأنبياء ورفضها للبعض الآخر أو بخلط الحق والباطل لا تخرج كذلك عن هاتين الصفتين)[١].

وقال تعالى: ﴿ولقـد أرسلنا إلى أمم من قبلك فـزيَّن لهم الشيطان أعمالهم، فهو وليُّهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾[٢].

فوقوف الأمم الطاغية ضد دعوة الأنبياء من أعظم أسبابها تزيين الشيطان لتلك الأمم مواقفهم من الأنبياء ودعوتهم.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتَّبعوا خطواتِ الشيطان، ومن يتَّبع خطواتِ الشيطانَ فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حقٌّ فلا تغرنَّكم الحياةُ الدنيا، ولا يغرنَّكم بالله الغَرور، إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبَه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألَّا تعبدوا الشيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جبلًّا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[٥] وهل بعد هذا الخطر من خطر على النفس البشرية من

---

(١) من أجل خطوة إلى الامام على الطريق الجهاد المبارك ص ٨٤.
(٢) النحل: ٦٣.
(٣) النور: ٣١.
(٤) فاطر: ٥ ـ ٦.
(٥) يس: ٦٠ ـ ٦٢.

الشيطان هذه النفس التي لم يخلقها الله في هذه الحياة الدنيا إلا لعبادته فيأتي الشيطان العدو المبين فيحرفها عن الهدف الذي خلقت لتحقيقه وهو عبادة الله إلى ما يضاد ذلك الهدف ويباينه وهو عبادة الشيطان نفسه، ومع ذلك فإن أكثر الناس يطيعونه فينحرفون من عبادة الله إلى عبادته هو كأنهم لا عقول لهم.

وقال تعالى: ﴿ولا يصدنَّكم الشيطان إنه لكم عدوٌ مبينٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾(٢).

فالشيطان هو الذي يسعى بشتى الوسائل والأساليب للافساد بين الناس وإحداث الخلاف والفرقة بينهم وجعل المبطل يقف من المحق موقف المعاند المكابر وبذلك يصبح الناس في خلاف دائم وشقاق مستمر.

قال ابن جرير رحمه الله: ((ينزغ بينهم) يقول: يفسد بينهم ويهيج بينهم الشر)(٣) وها هو يفرق بين صفوة المجتمع ويفرق كلمتهم ويحدث الشقاق بينهم، قال تعالى: ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، قال يا بنيَّ لا تَقْصُصْ رُؤياك على إخوتِك، فيكيدوا لك كَيْداً، إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌ مبينٌ﴾(٤) فهو ينفق مما عنده والذي عنده كل صفة ذميمة ومنها الحسد الذي يحب أن يتصف به كل إنسان لما فيه من إرواء غليله، وها هو قد تحقق ما خافه يعقوب من الشيطان من النزغ بين أولاده، قال تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البَدْو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، إنّ ربي لطيفٌ لما يشاء، إنه هو العليمُ الحكيمُ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿إن الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾(٦)، فأنت ترى أن الشيطان يغري بالانهزام في

(١) الزخرف: ٦٢.
(٢) الإسراء: ٥٣.
(٣) جامع البيان (١٥/ ١٠٢).
(٤) يوسف: ٤ ـ ٥.
(٥) يوسف: ١٠٠.
(٦) آل عمران: ١٥٥.

معركة النفس البشرية مع معصية الله في حالة السلم وكذلك يغريها بالانهزام في المعركة الحربية ضد العدو الواضح.

والشيطان لا يقنع بما دون التفريق بين أقرب المقربين، كما في حديث جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم انت ـ قال الأعمش: فيلتزمه»[1].

فهو كما ترى في حرب دائمة ولذلك لا يفتأ يبعث جيوشه المخربة في تلك الحرب الدائمة المفتنة، ولا يحظى بالقرب منه ورضاه إلا من حقق أقصى مبتغاه وغايته.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها ما يدل على أنه لا يخلو أحد من قرين يحاول اضلاله إلا رسول الله الذي أعانه الله على شيطانه فأسلم وهذا نصه: «إن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال مالك يا عائشة أغرت؟ فقلت ومالي لا يغار مثلي على مثلك، فقال رسول الله ﷺ أقد جاءك شيطانك؟ قالت يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: نعم قلت ومع كل إنسان؟ قال: نعم، قلت ومعك يا رسول الله؟ قال نعم ولكن ربي أعانني عليه فأسلم»[2].

قال النووي رحمه الله: (وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان)[3].

وقال ابن القيم ـ مبيناً خطر الشيطان ومكايده ـ: (قال الله تعالى إخباراً عن عدوه إبليس لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم واحتجاجه بأنه خير منه وإخراجه من الجنة أنه سأله أن ينظره فأنظره، ثم قال عدو الله فبما أغويتني

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٦٧).
(٢) نفس المصدر (٤/ ٢١٦٨).
(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٥٨).

لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين)قلت: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه وتارة على شماله وتارة أمامه وتارة يرجع خلفه فأي سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه ويقطعه أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له وخادماً ومعيناً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك)[١] وما كان ابن القيم رحمه الله يعلم أن الإنسان سيصعد إلى السماء ويهبط على بعض الكواكب ويهبط من الجو بالمظلات ويغوص في أعماق ظلمات المحيطات والشيطان معه أيضاً في تينك الجهتين العلو والسفل كما كان معه من الجهات الأربع التي ذكرها الله على سبيل الشمول والاستغراق.

وبيّن ابن القيِّم رحمه الله أن خطر الشيطان أعظم من خطر النفس فقال: (هذا الباب[٢] من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعاً، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها فإنهم توسعوا في ذلك وقصروا في هذا الباب. ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾[٣] واللوامة في قوله: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) وذكرت النفس المذمومة في قوله: (ونهى النفس عن الهوى)[٤] وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع وأفردت له سورة تامة فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس وهذا هو الذي لا ينبغي غيره فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته فهي مركبه وموضع شره ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها

(١) اغاثة اللهفان (١/ ١٢١ - ١٢٤). وأنظر الآيات من سورة الأعراف: (١٦ - ١٧).
(٢) وهو «الباب الثاني عشر في علاج مرضى القلب بالشيطان».
(٣) سورة يوسف: ٥٣.
(٤) ما ذكره ابن القيم رحمه الله مسلم في ذكر النفس بلفظ النفس صراحة، أما إذا نظر إلى معنى النفس كذكر الإنسان، أو الناس، أو ذكر أي صفة مذمومة في الإنسان فإن ذلك لا يحصى كثرة.

في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا» كما تقدم ذلك في الباب الذي قبله، وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت قال: «قل اللهم عالم الغيب والشهادة»، إلى أن قال: «أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه»(١).

وقال سيد قطب: (وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة، إنها بين عهد الله وغواية الشيطان بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل بين الهدى والضلال، والإنسان هو نفسه ميدان المعركة، وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها، وفي هذا الباب إيحاء دائم له باليقظة وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان)(٢).

ومن خبث الشيطان أنه يدرس الإنسان الذي يريد إغواءه دراسة نفسية عميقة حتى يعرف اتجاهاته، فإن رآه مثلاً يميل إلى اللين والرحمة والرأفة، وهي صفات حميدة إذا استعملت في مكانها، حسن له هذا الجانب وتابعه فيه وبالغ في تعميقه في نفسه حتى يصل إلى حد الإفراط فيه فيستعمل هذه الصفات في غير مكانها، إذ قد يكون من الحكمة الشدة في بعض المواضع ولكن الشيطان ينفره من استعمال الشدة ويزين له ما يميل إليه طبعه فيكون بذلك كأنه غير متصف بتلك الصفات لأنه وضعها في غير موضعها ووضع الشيء في غير موضعه جهل وخرق، وقد يكون عكس ذلك فيميل إلى الشدة فيحسن له الشدة في كل شيء فيستعملها في موضع تكون الرحمة هي الجديرة بالاستعمال فيكون الإنسان في كلتا الحالتين عاصياً وهو يظن أنه مصيب بسبب تزيين الشيطان له ذلك.

قال ابن تيمية رحمه الله: (والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها فإن رآه مائلاً إلى الرحمة زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ولا

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨).
(٢) في ظلال القرآن (١/ ٧٢).

يغار لما يغار الله منه، وإن رآه مائلاً إلى الشدة زين له الشدة في غير ذات الله حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ويتعدى في الشدة فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله، فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والإحسان وهو مذموم مذنب في ذلك، ويسرف فيما أمر الله به ورسوله من الشدة حتى يتعدى الحدود، وهو من إسرافه في أمره، فالأول مذنب والثاني مسرف ﴿والله لا يحب المسرفين﴾ فليقولا جميعاً: ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾)[١].

الفرع الثاني
وسائل مجاهدة الشيطان

أولى هذه الوسائل:

العلم بخطره ومكره وكونه لا يدعو حزبه إلا إلى ما فيه هلاكهم وخسارتهم، وفيما مضى في هذا البحث تنبيه على ذلك وعلى المسلم أن يكثر من قراءة كتاب الله وسنة رسوله ويعلم أن كل خير دعا الله إليه ورسوله ﷺ مما فيه سعادة المسلم في الدنيا والآخرة فإن الشيطان يدعو إلى ضده، وسيجد كثيراً من مكر الشيطان وكيده للإنسان. كذلك على المسلم أن يكثر من قراءة كتب علماء المسلمين لا سيما الذين عنوا بطب القلوب وعلاجها، وبيان أسباب موتها ومرضها وغير ذلك مما يطول ذكره ويصعب استيعابه.

الثانية:

أن يجاهد المسلم نفسه على أن يسير على صراط الله المستقيم ويكون على حذر من أن يزيغ عنه، لأن الشيطان قد أقسم أنه لا يغادر هذا الصراط لا ليسلكه ولكن ليضل سالكيه كما مضى. وأنظر إلى رحمة الله تعالى بالمسلم حيث

(١) الفتاوى (١٥/ ٢٩٢).

بين له هذا الصراط بياناً شافياً وبين له السبل المضلة كذلك، ثم شرع له قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة سواء كانت فرضاً أو نفلاً وفيها هذا الدعاء: ﴿إهدنا الصراط المستقيم، صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوب عليهم ولا الضَّالين﴾(١).

الثالثة:

أن يحقق عبوديته لربه سبحانه، فإنه إذا حقق هذه العبودية نجا من عدوه وحال الله بينه وبين الشيطان، لأنه ولي الله والله تعالى لا يجعل لأعدائه إلى أوليائه سبيلاً قال تعالى: ﴿وإذْ قُلْنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً. قال: أرأيتَك هذا الذي كرَّمتَ عليَّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً. قال اذهبْ فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً. واستفزز من استطعتَ منهم بصوتك، وأجْلِب عليهم بخيلك ورَجِلِك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعِدْهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾(٢).

الرابعة:

الاستعانة به سبحانه على أداء هذه العبادة وتحقيق العبودية الكاملة له فإنه لولا فضله سبحانه ما قدر المسلم على ذلك لكثرة مغريات الشيطان وتهديده وتخويفه، ولذلك جمع الله سبحانه بين أخبار المسلم بأنه يعبده وحده ويستعين به فقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتَّبعوا خطواتِ الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زَكَى منكم من أحد أبداً، ولكن الله يزكِّي من يشاء، والله سميع عليم﴾(٣).

(١) الفاتحة: ٦.
(٢) الإسراء: ٦١ ـ ٦٥.
(٣) النور: ٢١.

الخامسة:

الاستعاذة به سبحانه والتوكل عليه وقوة الصلة به لتقوية الإيمان به، لأن قوة الإيمان به تصد عدو الله عن الطمع في إضلال المؤمن المستعيذ المتوكل على ربه، قال تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولَّونه والذين هم به مشركون﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وإما ينزغنَّك من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾[٢] وقال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس...﴾[٣] السورة وقال عن أمِّ مريم: ﴿وإني سميتُها مريمَ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾[٤].

الخامسة:

أن يتذكر حق ربه عليه ورحمته به وقدرته عليه وعذابه الأليم، فإنه من أعظم الأسباب الداعية إلى طرد الشيطان ووساوسه وإضلاله، قال تعالى: ﴿وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. إن الذين اتَّقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مُبْصرون﴾[٥] تأمل قوله تعالى: ﴿تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ تجد الآية تصور من وسوس لهم الشيطان ودعاهم إلى الضلال كأنهم عمي ولكنهم إذا تذكروا ذهب العمى عقب التذكر مباشرة وانفتح بصرهم قارن هذا بقوله تعالى: ﴿اللهُ وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوتُ يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾[٦]. نعم هذه الآية في الكافرين، وتلك في المؤمنين المتقين ولكن المعاصي من شعب الكفر كما أن الطاعات من شعب الإيمان، فالكفر ظلمات كاملة، والكافر أعمى عمى مطبقاً، والمعاصي ظلمات والعاصي يكون في ظلمة بقدر معصيته فإذا لجأ إلى مولاه وذكره واستعاذ به انقشعت عنه تلك الظلمة وزال عنه ذلك العمى.

(١) النحل: ٩٨ - ١٠٠.
(٢) فصلت: ٣٦.
(٣) سورة الناس.
(٤) آل عمران: ٣٦.
(٥) الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١.
(٦) البقرة: ٢٥٧.

السادسة:

أن يذكر المسلم مواقف الشيطان بمن يضلهم في الدنيا والآخرة فإنه قبل استجابة الإنسان لدعوته الضالة يظهر النصح والعون والوقوف بجانب من يدعوه فإذا استجاب له ضحك عليه وتبرأ منه، كما فعل مع المشركين يوم بدر قال تعالى عنه: ﴿وإذْ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم، وقال لا غالبَ لكم اليوم من الناس، وإني جارٌ لكم، فلما تراءت الفئتان نَكَصَ على عقبيه وقال إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترَوْن، إني أخاف الله، والله شديد العقاب﴾[١]. وقال تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾[٢].

ولقد سجل الله لنا في كتابه موقف إبليس من أوليائه يوم القيامة في الوقت الذي يكونون أمام ربهم قد حاسبهم على أعمالهم وقضى عليهم سبحانه قضاءه العدل فيندمون على ما فرطوا فيأتي أستاذهم اللعين ليزيدهم ندماً فيقف بينهم خطيباً مذكراً لهم بأن طاعة الله كانت أولى من طاعته وأن وعد الله حق ووعده باطل وأنه لم يكرههم على اتباعه وإنما دعاهم فاستجابوا له، وأنه في هذا اليوم لا أحد يقدر على نصر أحد وأن عبادتهم إياه ما كانت إلا باطلاً ولذلك فهو يكفر بها، قال تعالى: ﴿وقال الشيطانُ لَمَّا قُضِي الأمر إن الله وعدكم وَعْدَ الحق ووعدتكم فأخلفتكُم، وما كان لي عليكم من سُلْطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي، إني كفرتُ بما أشركتموني من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾[٣].

السابعة:

أن يقارن الإنسان بين ما يعد الله به ويأمر به وما يعد به الشيطان ويأمر

(١) الأنفال: ٤٨.
(٢) الحشر: ١٦ ـ ١٧.
(٣) إبراهيم: ٢٢.

به، قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾(١).

فالشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء، والذي يخاف الفقر يكون بخيلاً شحيحاً لا ينفق من ماله ما يجب أن ينفقه، والذي يفعل الفحشاء يكون بذلك بعيداً عن طاعة الله ورضاه. أما الله فإنه يأمر بالطاعة والابتعاد عن المعصية ويعد على ذلك المغفرة ويأمر سبحانه بالإنفاق في سبيله ويعد المزيد من الرزق فأين هذا من ذاك؟(٢).

الثامنة:

أن يملأ المسلم قلبه بخوف الله تعالى. فإنه إذا امتلأ قلبه بخوف الله لم يجد الشيطان وأولياؤه إلى قلبه سبيلاً لا بخوف منهم ولا برغبة فيما عندهم، قال تعالى: ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾(٣).

التاسعة:

أن يوطن نفسه دائماً على مخالفة الشيطان في كل ما يدعو إليه أو يوسوس به، بل ويفكر في كل عمل يقدم على فعله أو يعزم على تركه ويعرض ذلك على شرع الله ليعلم أهو مما يرضي الله أم مما يرضي الشيطان، فإن كان مما يرضي الله فعله أقدم على فعله، وإن كان مما يرضي الله تَرْكه تَرَكه، وإن كان الفعل أو الترك مما يرضي الشيطان خالف ما يرضي الشيطان وأقدم على ما يرضي الله تعالى فإن المعركة مع الشيطان تقتضي منه ذلك حتى يكون ولياً لله لا للشيطان قال سيد قطب رحمه الله: (وشعور الإنسان بأن الشيطان عدوه القديم هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية يثير في نفسه - على الأقل - الحذر من الفخ الذي ينصبه العدو، وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان، ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في

---

(١) البقرة: ٢٦٨.

(٢) أنظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٢١).

(٣) آل عمران: ١٧٥.

الأرض والوقوف تحت راية الله وحزبه في مواجهة الشيطان وحزبه، وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه وطرده والمؤمن لا يغفل عنها ولا ينسحب منها وهو يعلم أنه إما أن يكون ولياً لله وإما أن يكون ولياً للشيطان وليس هنالك وسط، والشيطان يتمثل في نفسه وما يبثه في النفس من شهوات ونزوات ويتمثل في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة والمسلم يكافحه في ذات نفسه كما يكافحه في أتباعه، معركة واحدة متصلة طوال الحياة ومن يجعل الله مولاه فهو ناج غانم ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك: ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾(١).

وكما حذر القرآن من الشيطان ودعا إلى جهاده ومخالفته وبين الأدوية النافعة لطرده فإن السنة كذلك مملوءة بالتحذير منه وبجهاده ومخالفته وبيان ما يصده عن إضلال المؤمن، وقد أورد الإمام البخاري أحاديث كثيرة تحت عنوان: باب صفة إبليس وجنوده(٢) هذه بعضها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقده مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلَّى انحلت عقدهِ كلها، فأصبح نشطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»(٣) وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلته حتى أصبح، قال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أما إن أحدكم إذا أتى أهله وقال: باسم الله، اللهمَّ جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فرُزقا ولداً لم يضره الشيطان»(٥).

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢١١).
(٢) الفتح (٦/ ٣٣٤).
(٣) البخاري رقم ٣٢٦٩.
(٤) البخاري رقم ٣٢٧٠.
(٥) البخاري ٣٢٧١.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه. قال رسول‌الله ﷺ: «إذا دخل رمضان فتِّحت أبواب الجنة، وغلِّقت أبواب جهنم، وسُلسلت الشياطين»[١].

وعن سليمان بن صُردَ قال كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد»، فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: «تعوّذ بالله من الشيطان»، فقال: (وهل بي جنون)[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة فقال: «إن الشيطان عرض لي فشدَّ عليّ بقطع الصلاة عليّ فأمكنني الله منه»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا نودِي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قُضِي أقبل فإذا ثُوِّب بها أدبر فإذا قُضِي أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه» فيقول: «أذكر كذا وكذا حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعاً، فإذا لم يدر ثلاثاً صلى أو أربعاً سجد سجدتي السهو»[٤].

والأحاديث المذكورة واضحة في بيان خطر الشيطان ومكره وما يجاهد به من الطاعة لله وذكره تعالى والمخالفة لعدوه.

---

(١) البخاري ٣٢٧٧.

(٢) البخاري رقم ٣٢٨٢.

(٣) البخاري رقم ٣٢٨٤.

(٤) البخاري رقم ٣٢٨٥. وهذه الأحاديث كلها في فتح الباري (٦/ ٣٣٤)، وما بعدها.

المبحث الثالث

جهاد الفرقة والتصدع

إن اجتماع كلمة المسلمين ووحدتهم، وحماية صفهم من الفرقة والخلاف والتصدع من أعظم الواجبات المفروضة على المسلمين، والسعي في حصول ذلك من الجهاد المأمور به والتقصير في ذلك، أو السعي في إيجاد الخلاف والتفرق من أعظم المعاصي التي يجب على المسلمين أن يحاربوها ويحولوا بينها وبين وجودها في الجماعة الإسلامية في أي بقعة على وجه الأرض.

وقد عنى القرآن الكريم والسنة النبوية وعلماء المسلمين قديماً وحديثاً بالدعوة إلى جمع كلمة المسلمين واعتصامهم بحبل الله والتنفير من الفرقة والخلاف وبيان مضارهما، كما دل الواقع التاريخي على أن المسلمين بخير ما اجتمعت كلمتهم وأن الخلاف شر عليهم وخطر على وجودهم وكيانهم.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تُتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هُدِي إلى صراط مستقيم. يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون. واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شَفَا حُفْرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولْتَكُنْ منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون على المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقُّوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[1].

(١) آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٥.

في هذه الآيات تحذير من الله لعباده المؤمنين من أن يستجيبوا لأعدائه وأعدائهم الكافرين الذين منهم أهل الكتاب، لأنهم لا يقر لهم قرار وهم يرون المؤمنين مستقيمين على صراط الله، بل يسعون جادين في صرفهم عنه إلى الكفر بالله تعالى وليس من اللائق بالمسلمين وقد أكرمهم الله بهذا الكتاب الذي بين لهم ما فيه سعادتهم في الدارين ودعاهم إليه، كما أوضح لهم ما فيه شفاؤهم في الدارين وحذرهم منه، ليس من اللائق بهم أن يستجيبوا لدعوة أعدائهم إلى عصيان الله والكفر به، ولما كانت أساليب أعداء الله في الصد عن دينه متنوعة إغراءً وتهديداً فإنه لا عاصم للمسلمين من الاستجابة لهم إلا ربهم فإنه هو القادر على تثبيتهم على صراطه المستقيم الذي يحتاج سالكه إلى التزام طاعة الله إلى أن يلقى ربه.

ولما كان المسلمون ليسوا على درجة واحدة في الاستقامة والصبر على طاعة الله فإنه يخشى عليهم من التفرق والاختلاف فيستجيب بعضهم لأعداء الله ويبقى آخرون على صراطه أمرهم الله بالاجتماع على كلمته والاعتصام بحبله ونهاهم عن التفرق، ولقد كان المسلمون عند نزول القرآن حديثي عهد بفرقة واختلاف وثارات، وكان بعض ذلك الخلاف من أهم أسبابه بعض أهل الكتاب وهم اليهود الذين كانوا يورون نار الخلاف والاقتتال بين الأوس والخزرج فما كانوا يضعون سلاحهم إلا ليحملوه، للاعتداء أو الدفاع، لذلك ذكرهم الله بتلك الحالة التي كانوا فيها قبل الإسلام وبنعمة الله عليهم بالإسلام حيث غدوا إخواناً متحابين بعد أن كانوا أعداء متقاتلين. وإذ قد لا يستجيب المسلمون كلهم لنداء الله تعالى في الاجتماع والاعتصام والقضاء على الفرقة وأسبابها فإنه لا بد من أن تكون في المسلمين طائفة هادية داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر تأخذ على يد السفيه وتعين صاحب الحق على صاحب الباطل لأنه بدون ذلك لا فلاح، بل خسران ووبال، كما كان ذلك حاصلاً فيمن قبل هذه الأمة من أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا فأنزل الله بهم عقابه جزاء لهم على تفرقهم واختلافهم وقد أنعم عليهم بآياته الهادية.

كما حذر الله تعالى المسلمين من التنازع والاختلاف ورتب على تنازعهم

واختلافهم فشلهم وذهاب هيبتهم، فقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم، واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[١].

وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب حيث تفرقوا واختلفوا بعد أن جاءهم من عند الله الحق مبيناً في وحيه الذي أنزله على أنبيائه الذين بلغوهم رسالته قال تعالى: ﴿وما تَفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾[٢]. وأمر الله تعالى المؤمنين بإصلاح ذات بينهم إذا حصل بينهم خلاف، فقال: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾[٣].

قال في المنار: (أي أصلحوا نفس ما بينكم وهي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض، وهي رابطة الإسلام وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الأثرة والتفرق ـ إلى أن قال ـ : وأمرنا في الكتاب والسنة بإصلاح ذات البين، فهو واجب شرعاً يتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها)[٤].

وقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون﴾[٥].

فقد أوجب الله في هذه الآيات أن يقوم المسلمون بالصلح بين أي طائفتين منهم حصل بينهم خلاف بالعدل، فإذ لم يقبلوا الصلح بالعدل فإنه عندئذ يجب على المسلمين أن يقاتلوا الباغية حتى تعود إلى صف المسلمين وفي هذا اهتمام عظيم بالقضاء على أسباب الخلاف والشقاق بين المسلمين.

قال القرطبي رحمه الله: (قال العلماء لا تخلو الفئتان من المسلمين في

---

(١) الأنفال: ٤٦.
(٢) البينة: ٤.
(٣) الأنفال: ١.
(٤) المنار: (٩ ـ ٥٤٢).
(٥) الحجرات: ٩ ـ ١٠.

اقتتالهما إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً أولا، فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلتهما، وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل، فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق، فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين)[١].

وهنا تنبيهان:

التنبيه الأول: وجوب الإصلاح بين طوائف المسلمين بالعدل ومن لم يستجب للصلح بالعدل قوتل وأجبر على الانصياع للحق. وهذا الفرض يكاد الآن يكون مفقوداً بين المسلمين من جهتين: الجهة الأولى أنه إذا حصل خلاف بين دولتين من الدول المنتسبة إلى الإسلام لا تقوم الدول الأخرى بالصلح بالعدل، وإنما تحاول الصلح ـ إن حصلت محاولة ـ الذي لا يتحقق فيه العدل حيث يكون الحل المطروح إما في جانب القوي على الضعيف، ولو كان ظلماً صريحاً أو فيه ظلم، لأن الضعيف مضطر لقبول ذلك لعدم قدرته على الحصول على حقه بالعدل، ولأن القوى قد أخذته العزة بالإثم وقد وقع الضعيف في قبضة يده وهو لا يريد الفرصة أن تضيع، ولأن من نصب نفسه مصلحاً لم يدخل بنية صادقة لله تعالى، وإنما دخل ـ في الغالب رياء ليقال عنه: إنه مصلح ـ أو دخل بنية إضعاف طائفة وتقوية أخرى، لأن تلك على غير مذهبه، وهذه على مذهبه أو أقرب إلى مذهبه.

الأمر الثاني: أن كثيراً من طوائف المسلمين تقتتل فيما بينها لمدة طويلة ويظهر حكام بعض الشعوب الإسلامية تحمساً للصلح الذي سبق الحديث عنه في التنبيه الأول، ثم يفترقون والدماء تسفك والأعراض تنتهك والحقوق تغتصب

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣١٧).

دون أن يحركوا ساكناً ولا يعينوا ضعيفاً أو يقفوا مقاتلين كما أمرهم الله طائفة البغي، عذرهم في ذلك أنهم لا يرغبون في التحزب أو في التدخل في شؤون الغير، وهو عذر من أقبح الأعذار وهو أعظم فظاعة من احتجاج بعض الناس بقول الرسول ﷺ: «قتال المؤمن كفر» على منع قتال الطائفة الباغية إذا كانت من المسلمين، وقد شنع عليه علماء المسلمين، مع أنه، فيما يظهر إنما رأى هذا الرأي من باب الورع الذي وسوس له فيه الشيطان، قال القرطبي رحمه الله: (في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد المسلمين، وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين واحتج بقوله عليه السلام: «قتال المؤمن الكفر»، ولو كان قتال المؤمن الباغي كفراً لكان الله تعالى قد أمر بالكفر تعالى الله عن ذلك، وقد قاتل الصديق رضي الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة وأمر ألا يتبع مول ولا يجهز على جريح، ولم تحل أموالهم بخلاف الواجب في الكفار وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ولا أبطل باطل ولو جد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم وذلك مخالف لقوله عليه السلام: خذوا على أيدي السفهاء)(١).

قال الكاتب: كأن الطبري في هذه الجمل يصف حالة المسلمين الآن حيث تتكتل طائفة في أي شعب من الشعوب الإسلامية وتطلق على نفسها الحزب الفلاني وتحتل مناصب الدولة وتحمل السلاح وتتفق مع أحد المعسكرين الكافرين على التعاون على قتل الشعب المسلم باسم الشعب نفسه والمسلمون يذوقون أصناف العذاب والحرمان والهتك لأعراضهم وأخذ أموالهم وسفك دمائهم وقد يجد الحزب الحاكم من علماء السوء الضالين من يمجده ويفتي بسداد طريقته والشعب كله في غفلة وفي نوم عميق دون أن يثأر لنفسه من الحاكم الكافر الخارج على الإسلام، فإذا وفق الله طائفة في شعب من الشعوب الإسلامية فقامت تدافع

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣١٧).

عن ذلك الشعب وترفع يدها في وجه الطاغي قائلة له: قف عند حدك سلط عليها زبانيته فأخذ يقتل ويسجن ويعذب ويشرد وبقية الشعب تتفرج لا تمد يد العون لا بالنفس ولا بالمال والصالح من يقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ مثل العجائز والأغلب ينتقد ويقول: لماذا يلقى هؤلاء الناس بأنفسهم إلى التهلكة، وحكام الشعوب الإسلامية الأخرى ساكتون كان الأمر لا يعنيهم يخشون أن يقال عنهم أنهم متحزبون أو متعصبون لجهة أو لطائفة، هذا إذا كان أولئك الحكام ممن يسكت ولم يؤيد الحكام المحاربين لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

لا بل إن شعوباً إسلامية يعتدي عليها كافرون ملحدون بالقوة، ويحاولون استئصال جذور الإسلام من تلك الشعوب، وأهلها يذبحون وتستحل حرماتهم وهم يقاتلون أعداء الله، ولم يجدوا من يمدهم من المسلمين بالسلاح الكافي والأغذية والملابس، والسبب في ذلك كله انطماس جذوة الإيمان في قلوب المدعين للاسلام الساكتين عن المنكر.

وما اعتذروا به من التحزب أو التحيز، أو عدم التدخل أمر يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهم علماء الإسلام، وما مضى من آيات الحجرات ومن كلام القرطبي والطبري واضح في هذا ولكن لا بد من زيادة بيان ليأخذ به مريد الحق، وليخرس لسان ذي العذر القبيح.

القاعدة في الإصلاح أن يكون بالعدل وهذا هو الواجب على المصلح رضي من رضي وسخط من سخط، وإذا لم يصلح بالعدل فهو معين على البغي، قال ابن تيمية رحمه الله: (وأكثر سبب الأهواء الواقعة بين الناس في البوادي والحواضر إنما هو البغي وترك العدل فإن إحدى الطائفتين قد يصيب بعضها بعضاً من الأخرى دماً أو مالاً أو تعلو عليهم بالباطل ولا تنصفها ولا تقتصر الأخرى على استيفاء الحق فالواجب في كتاب الله الحكم بين الناس في الدماء والأموال وغيرها بالقسط الذي أمر الله به ومحو ما كان عليه كثير من الناس من حكم الجاهلية، وإذا أصلح مصلح بينهما فليصلح بالعدل كما قال الله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما

بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾[١].

أما الاعتذار بالتحزب أو التحيز فلا يقول به إلا جاهل بالإسلام وواجباته أو عدو خفي له يريد أن يدلس على غيره بذلك، فنصر الحق وأهله واجب والانضمام مع أهل الحق ضد أهل الباطل فرض. والناس كلهم ينقسمون إلى قسمين أو حزبين. الحزب الأول: حزب الله، وهم أهل طاعته واتباع رسوله، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والثاني: حزب الشيطان أو حزب الكفر وهم أعداء الله الكافرون أتباع الشيطان، ولا ثالث لهما ـ إلا المنافقين وهم من الحزب الثاني وإن كانوا قد يظهرون في بعض الأوقات بمظهر حزب الله لأغراض دنيوية قال تعالى: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضُوا عنه، أولئك حِزْبُ الله، ألا أن حزبَ الله هم المفلحون﴾[٢] فهذا هو حزب الله الذي شرفه الله بالانتساب إليه سبحانه. وقد بين قبل ذلك عدوه سبحانه وعدو حزبه ونسبه إلى الشيطان بلفظ: (حزب) كما قال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزبُ الشيطان، ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[٣]، فالذي يحجم عن نصر الحق وأهله خوفاً من أن يتهم بالتحزب إنما يفر من الانتساب إلى حزب الله والذي يفر من الانتساب إلى حزب الله لم يبق له ما ينتسب إليه إلا حزب الشيطان ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[٤].

نعم التحزب المذموم هو الذي يكون المقصود منه التناصر على الحق والباطل أو يكون المقصود به صدع المسلمين وتشتيت شملهم وإضعافهم فإن ذلك لا يجوز بحال من الأحوال أما حينما يكون الهدف منه مناصرة الحق ضد

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٣٧٧). سورة الحجرات: ٩ ـ ١٠.
(٢) المجادلة: ٣٢.
(٣) المجادلة: ١٩.
(٤) المجادلة: ١٩.

الباطل فإنه متعين على المسلمين ليكونوا كلهم صفاً واحداً ضد الكافرين وأتباعهم.

وقد بين علماء الإسلام ذلك بياناً شافياً فقد ذكر ابن تيمية رحمه الله تعالى أن التآخي والتحزب بين المسلمين من أجل التعاون على البر والتقوى إذا كان ذلك في مجتمع قد تحققت فيه الأخوة الإيمانية العامة التي عقدها الله ورسوله بينهم في الكتاب والسنة، بين رحمة الله أن فيها نزاعاً فقال: (وإنما النزاع في مؤاخاة يكون مقصودهما بها التعاون على البر والتقوى بحيث يجمعهما طاعة الله وتفرق بينهما معصية الله كما يقولون. تجمعنا السنة وتفرقنا البدعة فهذه التي فيها النزاع، فأكثر العلماء لا يرونها استغناء بالمؤاخاة الإيمانية التي عقدها الله ورسوله فإن تلك كافية محصلة لكل خير فينبغي أن يجتهد في تحقيق أداء واجباتها إذ قد أوجب الله للمؤمن على المؤمن من الحقوق ما هو فوق مطلوب النفوس ومنهم من سوغها على الوجه المشروع إذا لم تشتمل على شيء من مخالفة الشريعة)[1].

وبين في موضع آخر معنى حزب الحق، ومعنى حزب الباطل فقال: (وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب أي تصير حزباً. فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون لهم مالهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والإئتلاف ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان)[2].

فهل بقيت بعد هذا حجة لمن يرى المسلمين يتناحرون ثم يقعد عن القيام بالإصلاح بينهم أو قتال الطائفة الباغية التي ظهر بغيها جلياً؟

ولقد حث الرسول ﷺ أمته على الاجتماع والائتلاف وحذرهم من الفرقة والاختلاف وبين المضار المترتبة على الفرقة.

---

(١) الفتاوى (٣٥/ ٩٦).
(٢) الفتاوى (١١/ ٩٢).

ففي حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه(١).

ولقد جعل ﷺ التنادي بالشعار الإسلامي الذي وصف الله به أصحابه: «المهاجرين، والأنصار» من أجل العصبية التي تحدث الفرقة والخلاف من دعوى الجاهلية، كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري يا لَلأنصار وقال المهاجري: يا لَلمهاجرين، فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى جاهلية»؟ قالوا يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دعُوها فإنها مُنْتنة»(٢).

وقد جعل ﷺ السباب الذي يقع بين المسلمين شعبة من شعب الفسوق كما جعل القتال الذي ينشب بينهم شعبة من شعب الكفر لما يفضي إليه السباب والقتال من الأحقاد والفرقة، ففي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٣).

وفي حديث جرير رضي اللهعنه أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: «استنصت الناس» فقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(٤).

ولحرصه ﷺ على اجتماع كلمة أمته والحؤول بينهم وبين الخلاف والفرقة أمرهم أن يصبروا على الأئمة الظالمين ذوي الجور ما لم يأتوا الكفر الصريح. كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة في مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا وعُسْرنا ويُسْرنا وأثرة علينا، وألا نُنازع الأمر أهله؛ إلا أن تَرَوا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان(٥).

(١) البخاري رقم ٤٨١، فتح الباري (١/ ٥٦٥) ومسلم (٤/ ١٩٩٩).
(٢) البخاري رقم ٤٩٠٥ فتح الباري (٨/ ٦٤٨)، ومسلم (٤/ ١٩٩٨).
(٣) البخاري رقم ٤٨ فتح الباري (١/ ١١٠) ومسلم (١/ ٨١).
(٤) البخاري رقم ١٢١ فتح الباري (١/ ٢١٧) ومسلم (١/ ٨١).
(٥) البخاري رقم ٧٠٥٥، فتح الباري (١٣/ ٥) ومسلم (٣/ ١٤٧٠).

وفي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر) قال: أي رسول الله ﷺ - : «نعم دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها» قلت: يا رسول الله صِفْهم لنا، فقال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»(١) الحديث.

ولما كان الاجتماع والإئتلاف من دعائم قوة المسلمين التي بها يرتفع شأنهم وتعلو كلمتهم على كلمة أعدائهم جعل ﷺ إصلاح ذات البين أفضل من الصيام والصلاة والصدقة، ولما كان فساد ذات البين من أعظم الأمور التي تضعف المسلمين وتبعدهم عن رضا الله ونصره جعل ذلك ﷺ حالقاً للدين بمنزلة الموسى الذي يحلق الشعر كما في حديث أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة».

وفي رواية: (هي الحالقة لا أقول هي تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)(٢) وقد حذر رسول الله ﷺ أمته من كل أسباب الخلاف والفرقة، كالحسد والبغضاء والهجر والغيبة والنميمة وغيرها كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»(٣).

كما نهى عن تجسس المسلم على المسلم وتتبع عوراته وسوء الظن به دون دليل واضح، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسَّسُوا، ولا يَغْتَب بعضكم بعضاً، أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾(٤).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم

---

(١) البخاري رقم ٣٦٠٦، فتح الباري (٦/ ٦١٥) ومسلم (٣/ ١٤٧٥).
(٢) أبو داود (٥/ ٢١٨).
(٣) البخاري رقم ٦٠٦٥ فتح الباري (١٠/ ٤٨١) ومسلم (٤/ ١٩٨٣).
(٤) الحجرات: ١٢.

والظن فإن الظن أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسُوا ولا تجَسَّسوا» الحديث[١] ومن ذلك نهيه ﷺ أن يتناجىٰ اثنان دون الثالث حتى يختلطوا بالناس حشية أن يقع في نفس الثالث شيء فيظن بهما ظناً سيئاً وذلك من أسباب الخلاف، كما في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج رجلان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس أجل أن يحزنه»[٢].

وفسر ﷺ الغيبة المنهى عنها فقال: «أتدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[٣].

وقال البخاري رحمه الله: باب النميمة من الكبائر.

ثم ساق حديث ابن عباس قال: (خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما ـ وفيه: (وكان الآخر يمشي بالنميمة)[٤].

ولقد جد إبليس لعنه الله في إحداث الفرقة والاختلاف بين المسلمين وظفر في ذلك بما لم يظفر به في غيره ودخل عليهم من كل باب وأغراهم بكل سبل الإغراء، فإن رأى أن باب الدنيا أيسر له في التفريق بين قوم منهم دخل من باب الدنيا: المال، الجاه، المنصب، القبيلة والعشيرة الأرض، النساء وغيرها.

وإن رأى أن باب التدين والعبادة والعلم أيسر له في التفريق بين آخرين دخل عليهم من هذا الباب فأغرىٰ بعضهم بالاجتهاد وأغرى الآخرين بالتقليد، وأغرى هؤلاء بالتشديد وأغرى غيرهم بالتيسير، أغرى قوماً بكتب الفقه وحضهم على الالتزام بها لأنها قرائح علماء عظماء خدموا الإسلام خدمة عظيمة، فالخروج على أقوالهم زندقة وإلحاد وطعن في السلف الصالح، وأغرى آخرين

(١) البخاري رقم ٦٠٦٦ فتح الباري (١٠/ ٤٨٤) ومسلم (٤/ ١٩٨٥).
(٢) البخاري رقم ٦٢٩٠، فتح الباري (١١/ ٨٢) ومسلم (٤/ ١٧١٨).
(٣) مسلم (٤/ ٢٠٠١).
(٤) البخاري رقم ٦٠٥٥، فتح الباري (١٠/ ٤٧٢).

بكتب الحديث وحضهم على البعد عن كتب الفقه لأنها أفكار بشر يخطئون ويصيبون والاقتراب منها يضل ويبعد عن السنة والمنبع الصافي الذي جاء به الكتاب والسنة وأن في مقدور كل مسلم متعلم أن يأخذ أحكام دينه من كتاب الله وسنة رسوله مباشرة دون حاجة إلى أقوال الآخرين التي هي سبب في قفل باب الاجتهاد الذي سما بالمسلمين عندما كانوا يلجونه إلى أوج المجد ولم تعترضهم مشكلة من المشكلات إلا وجدوا لها حلاً في الكتاب والسنة والإجماع. وأغرى قوماً بالقياس وحثهم على المبالغة فيه لكثرة النظائر واعتبار النظير بالنظير وحضهم على الالتزام به ولو خالف بعض النصوص الظنية الدلالة أو الثبوت لأنه أضمن، كما أغرى آخرين بالابتعاد عنه وذمه وعدم الاعتبار به لأنه من أهم أسباب معصية إبليس وخروجه عن طاعة الله، وأغرى قوماً بالمبالغة في التكفير فكل من ارتكب كبيرة يجب أن يحكم عليه بالكفر ولو أتى بما أتى من أحكام الإسلام الأخرى، كما أغرى آخرين بالبعد عن تكفير الناس ماداموا على معرفة بالله تعالى ولو لم يستجيبوا لأي أمر من أوامره أو لم ينتهوا عن أي شيء نهاهم الله عنه، وهكذا دخل إلى الآباء والأبناء والأسر والجماعات والأحزاب. فأغرى بعضهم بمذاهب المعسكر الغربي وأغرى آخرين بمذاهب المعسكر الشرقي: السياسية والاجتماعية والعسكرية وغيرها حتى لم يبق بيت أو أسرة أو شعب أو حزب إلا كان فيه انقسام واختلاف لسبب من الأسباب، وهكذا الدول المتجاورة والمتباعدة على السواء لا تجد دولة على وفاق تام مع أخرى.

وهذا أحد كتاب المسلمين المعاصرين يلح في الشكوى من هذا التمزق والاختلاف فيقول: (إن عملية التمزيق والتشتيت التي ورثها العالم الإسلامي من مرحلة التجزئة والضعف وزادها الكافرون في مرحلة الاستعمار عمقاً وبعداً قد بلغت الآن ذروتها. والأفظع من هذا أن الكافرين المستعمرين راعوا خلال مرحلة الاستعمار وقبل الجلاء أن يجعلوا في كل قطر جيوب مشاكل سياسية تستنفذ طاقة القطر من ناحية ومن ناحية أخرى تؤثر على سير الإسلام سياسياً بمشاكل حدود جوار، مناطق وضعها الطبيعي أن تكون لأقطار وضعت بيد أقطار أخرى، أقليات يوضع في يدها الحكم، إقامة دول غير عادية، تقوية الاتجاهات الممزقة لوحدة المسلمين... كما روعى في عملية التمزيق وإقامة الحكومات أن

يعمق في العالم الإسلامي الصراع بين الأقطار المتجاورة والتفكير العازل بين هذه الأقطار مع ملاحظة عدم إعطاء الآمال الشعبية محتوياتها وآمادها، صنعوا دولاً ليست لها مقومات الحياة المستقلة وجعلوا بين الكيانات عقداً وأطلقوا قضية المصلحة من عقالها وعملوا على إيجاد الأنظمة المختلفة المتجاورة نظام رأسمالي يجانبه نظام اشتراكي، نظام ملكي يجانبه نظام جمهوري، يجانبه نظام ديكتاتوري)[1] إلخ. . . .

ولقد أحس علماء الإسلام الذين رزقهم الله الفقه في دينه خطر الفرقة والاختلاف بين المسلمين فأنذروهم من ذلك وحذروهم كل التحذير وحثوهم على الإئتلاف ونبذ الفرقة وعدوا ذلك من أعظم الجهاد في سبيل الله، قال عبد الرحمن ابن ناصر السعدي رحمه الله: (الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الإلفة واتفاق الكلمة، قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ وقال: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾[2]. وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله» وقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد» إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على هذا الأصل العظيم. فإن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية في جميع أفرادهم وشعوبهم وفي ربط الصداقة والمعاهدات بين حكوماتهم بكل وسيلة.

ومن أنفع الأمور أن يتصدى لهذا الأمر جميع طبقات المسلمين من العلماء، والأمراء والكبراء وسائر الأفراد منهم، كل أحد بحسب إمكانه.

(١) جند الله ثقافة وأخلاقاً لسعيد حوى ص ١٧ ـ ١٨.
(٢) الحجرات: ٩ ـ ١٠.

فمتى كانت غاية المسلمين واحدة، وهي الوحدة الإسلامية وسلكوا السبل الموصلة إليها ودافعوا جميع الموانع المعوقة والحائلة دونها فلا بد أن يصلوا إلى النجاح والفلاح.

ومما يعين على هذا الإخلاصُ وحسن القصد فيما عند الله من الخير والثواب وأنْ يعلموا أنَّ كل سعي في هذا الأمر من الجهاد في سبيل الله ومما يقرب إليه وإلى ثوابه وأن المصلحة في ذلك مشتركة، فالمصالح الكليات العامة تقدم على المصالح الجزئيات الخاصة، ولهذا يتعين عليهم ألا يجعلوا الاختلاف في المذاهب (يعني الفقهية) أو الأنساب أو الأوطان داعياً إلى التفرق والاختلاف، فالرب واحد والدين واحد والطريق لا صلاح الدين وصلاح جميع طبقات المسلمين واحد والرسول المرشد للعباد واحد، فلهذا يتعين أن تكون الغاية المقصودة واحدة فالواجب على المسلمين السعي التام لتحقيق الأخوة الدينية والرابطة الإيمانية. فمتى علموا وتحققوا ذلك وسعى كل منهم بحسب مقدوره واستعانوا بالله وتوكلوا عليه وسلكوا طرق المنافع وأبوابها ولم يخلدوا إلى الكسل والخور واليأس نجحوا وأفلحوا فإن الكسل والخور واليأس من أعظم موانع الخير فإنها منافية للدين وللجهاد الحقيقي فمن استولى عليه الكسل والخور لم ينهض لمكرمة ومن أيس من تحصيل مطالبه إنشلت حركاته ومات وهو حي.

وهل أخر المسلمين في هذه الأوقات إلا تفرقهم والتعادي بينهم وخورهم وتقاعدهم عن مصالحهم والقيام بشؤونهم حتى صاروا عالة على غيرهم.

ودينهم قد حذرهم عن هذا أشد التحذير وحثهم على أن يكونوا في مقدمة الأمم في القوة والشجاعة والصبر والمصابرة والمثابرة على الخير والطمع في إدراكه وقوة الثقة بالله في تحقيق مطالبهم ودفع مضارهم[١].

كما بين رحمه الله بعد ذلك الفرق العظيم بين علماء الإسلام المجاهدين الذين يدعون إلى وحدة الكلمة والتصدي لنصر دين الله بشتى أنواع الجهاد ومن يدعون العلم وهم حرب على الإسلام والمسلمين مقتدين في ذلك بأعداء الله المنافقين، بل هم منهم، لانطباق صفاتهم عليهم، فقال: (الفرق العظيم بين

(١) رسالة (وجوب التعاون بين المسلمين) ص ٥/ ٦.

رجال الدين وبين المخذلين والمرجفين، قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾[١].

هذا نعت رجال الدين: الصدق الكامل فيما عاهدوا الله عليه من القيام بدينه وإنهاض أهله ونصره بكل ما يقدرون عليه من مقال ومال وبدن وظاهر وباطن. ومن وصفهم الثبات التام على الشجاعة والصبر والمضي في كل وسيلة بها نصر الدين فمنهم الباذل لنفسه ومنهم الباذل لماله ومنهم الحاث لإخوانه على القيام بكل مستطاع من شؤون الدين والساعي بينهم النصيحة والتأليف والاجتماع ومنهم المنشط بقوله وجاهه ومنهم الفذ الجامع لذلك كله... وأما الآخرون وهم الجبناء المرجفون فبعكس حال هؤلاء لا ترى منهم إعانة قولية ولا فعلية ولا جدية قد ملكهم البخل والجبن واليأس وفيهم الساعي بين المسلمين بإيقاع العداوات والفتن والتفرق فهذه الطائفة أضر على المسلمين من العدو الظاهر المحارب بل هم سلاح الأعداء على الحقيقة قال تعالى فيهم وفي أشباههم: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلَّا خبالاً ولأوضَعُوا خلالَكم يبغونكم الفتنة، وفيكم سمَّاعون لهم﴾[٢] أي يستجيبون لهم تغريراً أو إغتراراً فعلى المسلمين الحذر من هؤلاء المفسدين فإن ضررهم كبير وشرهم خطير وما أكثرهم في هذه الأوقات التي اضطر فيها المسلمون إلى التعلق بكل صلاح وإصلاح وإلى من يعينهم وينشطهم. فهؤلاء المفسدون يثبطون عن الجهاد في سبيل الله ومقاومة الأعداء ويخدرون أعصاب المسلمين ويؤيسونهم من مجاراة الأمم في أسباب الرقي...)[٣].

فأين هذا الفهم الثاقب والنصح الخالص والنظر البعيد مع الفقه في الدين من سعى كثير ممن يدعي العلم والتدين في تثبيط همة المسلمين وإيقاع الفرقة والاختلاف بينهم والوقوف ضد كل صلاح وإصلاح وجد واجتهاد وجهاد في سبيل الله؟ أين أمثال هذا العملاق المجاهد من أولئك الخفافيش والجعلان وبهذا يظهر أن من أعظم الجهاد في سبيل الله جمع كلمة المسلمين على الحق ودعوتهم إلى نبذ الفرقة والاختلاف والوقوف صفاً واحداً ضد الأعداء.

(١) الاحزاب: ٢٣.
(٢) التوبة: ٤٧.
(٣) نفس الرسالة السابقة ص ٧.

المبحث الرابع

جهاد التقليد

المقصود بالتقليد هنا الاقتداء الأعمى، أي اتباع فرد أو جماعة اتباعاً مطلقاً في الحق والباطل على السواء والوقوف ضد كل مذهب لا يأتي من قبل ذلك الفرد أو تلك الجماعة حقاً كان أم باطلاً وهذا هو الذي سار عليه أعداء الله الكافرون في كل الأزمان حيث يتبعون ما جاء عن آبائهم الأقدمين وأعيانهم المعاصرين رافضين ما جاء به الأنبياء والمرسلون، كما قال تعالى عنهم: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مُتْرفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمَّة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أو لو جئتكم بأهدَى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبةُ المكذِّبين﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبعوا ما أنزل الله قالوا، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾(٢).

والتقليد المذموم قد يكون تقليداً في الكفر كما هو واضح من الآيات السابقة، وكما هو حال كثير من أبناء المسلمين في العصور المختلفة ولا سيما في هذا العصر الذي وجد فيه من ألحد فكفر وأنكر وجود الله وما يتبعه من الغيب كالملائكة والكتب الإلّهية والجنة والنار وكما هو حال من يرى أن الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ لم يعد صالحاً لهذا الزمان مفضلاً على ذلك قوانين الكفر القديمة والحديثة وغير ذلك من أمثال الدعاة إلى تقليد الغرب في كل شيء دون

(١) الزخرف: ٢٣ ـ ٢٥.　　(٢) البقرة: ١٧٠.

استثناء في الحكم والقانون والأخلاق والاقتصاد والاجتماع والسياسية والصناعة ويرفضون أن يؤخذ النافع وحده كالصناعات ويترك الضار كالأخلاق السيئة والنواحي الأخرى التي تخالف أصول الإسلام وفروعه(١).

وها هي جيوش أبناء المسلمين يقلدون اليهود والنصارى في كل شيء، وينفرون من الإسلام ومبادئه، ويحاربونه حرباً لا هوادة فيها تقليداً لأسيادهم الأصليين.

وقد يكون تقليداً في الفسق والمعاصي التي لا تبلغ حد الكفر ولكنها بريده كشرب الخمر والزنا وما يدعو إليه كالسفور والاختلاط ومنكرات وسائل الأعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

وكل ذلك تجب على المسلمين مجاهدته وصده والحؤول بينه وبين أبناء المسلمين، فإن كان في العقائد والأحكام والقوانين وما أشبه ذلك فإن مجاهدته تكون ببيان فساد ما يخالف الإسلام وإقامة الحجة على ذلك والإقناع بها، وإن كان تقليداً في الفسق والمعاصي كانت مجاهدته كذلك ببيان مضاره ومخالفته للإسلام ووجوب الابتعاد عنه. فإن نفع ذلك البيان في الأمرين وإلا كان واجباً على المسلمن أن يقيموا أحكام الإسلام على المقلد فإن كان تقليداً في الكفر استتيب المقلد فإن تاب وإلا قتل كما هو المعروف بحكم المرتد. وإن كان في الفسق والمعاصي أقيمت على من يستحق الحد وعزر من لم تتوافر فيه شروط الحدود وهكذا.

وهنالك تقليد في الأحكام الفقهية الإسلامية كحال أتباع الأئمة الأربعة.

وهذا التقليد ينقسم إلى قسمين: أحدهما تقليد مباح وهو أن يتبع المسلم العامي مذهباً من المذاهب الأربعة، بل هو في الحقيقة يقلد أحد علماء المذهب الذي عاصره، فإذا علم أن هذا العالم مشهور بالتقوى والورع وخشية الله تعالى واشتهر بين الناس بعلمه فإن له أن يقلده ولكن ينبغي أن يعلم بأن تقليد هذا المذهب أو هذا العالم ليس واجباً عليه، بل إذا عرف عالماً آخر أغزر علماً وأكثر

---

(١) أنظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٢٨٨) فما بعدها.

تقوى فإن تقليده له أولى من تقليده لذاك،وعليه أن يعتقد أن هذا التقليد إنما هو لعجزه عن معرفة حكم الله مباشرة لعدم أهليته، لا لأن اتباع ذلك المذهب أو هذا العالم أمر لازم لذاته.

ثانيهما: تقليد مذموم وهو أن يعتقد المسلم أنه يجب عليه اتباع مذهب معين يتقيد به على كل حال ولا يجوز له الخروج عنه كما هو رأى أغلب المتمذهبين من أتباع الأئمة الأربعة ولا سيما الغلاة منهم حيث يقلدون في الصواب والخطأ على السواء دون أن يجتهدوا في معرفة الحكم بدليله الذي يرجحه مع أن كثيراً منهم مؤهلون للبحث والترجيح.

قال ابن تيمية رحمه الله: (قد ذم الله تعالى في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نشأ عليه من دين آبائه وهذا هو التقليد الذي حرمه الله ورسوله وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق والرسول طاعته فرض على كل أحد من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان في سره وعلانيته وفي جميع أحواله)[1].

وقال بعد ذلك: (وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور)[2].

وقال في موضع آخر: (ومن نصب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو ﴿من الذين فرقُّوا دينهم وكانوا شِيَعاً﴾[3] الآية. وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل أتباع الأئمة والمشايخ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم..)[4].

ومجاهدة هذا التقليد تكون بدعوة أكابر علماء المسلمين من أتباع المذاهب وغيرهم إلى الاجتماع والتشاور في السبل النافعة المفيدة التي تخفف من حدة

---

(١) الفتاوى (١٩/ ٢٦٠).
(٢) نفس الكتاب (١٩/ ٢٦٢).
(٣) سورة الأنعام: ١٥٩.
(٤) الفتاوى (٢٠/ ٨).

التعصب الأعمى وأن يبينوا لأتباعهم بأن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما المرجع والحكم في كل خلاف يحصل بين المسلمين وأن الأئمة رحمهم الله لم يختلفوا حباً في الخلاف ولا نصب أحد منهم نفسه إماماً ليقلده الناس وإنما اختلفوا لأسباب تسوغ لهم ذلك الاختلاف كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته القيمة: رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

قال رحمه الله: (واصل الدين أن الحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله وليس لأحد أن يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله قال الله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُّبُلَ فتفرَّق بكم عن سبيله﴾ وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه خط خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه سبيلي وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُّبَل، فتفرق بكم عن سبيله﴾»[(١)].

وقد حذر ابن القيِّم رحمه الله من التقليد المذموم وبين أنه يخالف الأدب مع الرسول ﷺ، فقال:

(وأما الأدب مع الرسول ﷺ فالقرآن مملوء به، فرأس الأدب معه كمال التسليم له والإنقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولاً أو يحمله شبهة أو شكاً أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والإنقياد والإذعان كما وحد المرسِل سبحانه بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبيد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسِل وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره وإلا فإن طلب السلامة أعرض عن أمره

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٨٨). والآية من سورة الأنعام: (١٥٣).

وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه تأويلاً وحملاً، فقال: نؤوِّله ونحمله. فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الاطلاق ـ ما خلا الشرك بالله ـ خير له من أن يلقاه بهذه الحال... ومن الأدب معه ألا يستشكل قوله بل يستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتُتَلَقَّى نصوصه ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ وهو عين الجرأة)[١].

وقد أفاض رحمه الله في الرد على المقلدين وذم التقليد في كتابه القيم: (أعلام الموقعين عن رب العالمين في مواضع متفرقة لا سيما في فصل خاص عقده بعنوان: (في عقد مجلس مناظرة بين مقلد وبين صاحب حجة منقاد للحق حيث كان، إذ بلغت أوجه إبطال التقليد أكثر من ثمانين وجهاً فراجعه)[٣].

هذا ومع أنه يجب جهاد التقليد المذموم ومنه التمذهب المتعصب الجامد فإنه لا يجوز أن يكون التقليد الفقهي المذهبي مسوغاً للخلاف والفرقة كما مضى.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٧، ٣٩٠).

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٠١ ـ ٢٧٩). الناشر مكتبة الكليات الأزهرية.

المبحث الخامس

جهاد الأسرة

ومن أعظم أنواع الجهاد جهاد الأسرة بتعليم أفرادها أمور دينهم وحثهم على العمل الصالح وحسن الخلق وطاعة الله ورسوله والبعد عن المعاصي كل ذلك بالحكمة واللين والوعظ الحسن والقدوة الحسنة، وتأديب من يستحق التأديب على مخالفته لشرع الله وآدابه مع الاستمرار في ذلك وعدم التهاون وهذا النوع من أنواع الجهاد شاق وطويل، لأن المجاهد مسؤول عن هذه الأسرة في جميع الأوقات وهي معه في منزله فكل شيء وجب على أي فرد من أفرادها وجب على المجاهد أن يعلم ذلك الفرد بما وجب عليه كما أنه كذلك يجب عليه أن يدعو ذلك الفرد إلى عمل ذلك الواجب وأن يتابعه حتى يطمئن أنه فعله واستمر على فعله، وإذا لم يفعله فإن عليه أن يزجره ويأمره ويؤدبه بما يليق به وقد يجب عليه أن يهجره إذا كان الهجر نافعاً وإذا قصر في شيء من ذلك فإنه مسؤول عن تقصيره معاقب عليه عند ربه سبحانه، ولذلك أمر الله المؤمن أن يقي نفسه نار جهنم ويقي أهله كذلك، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهليكم ناراً وقُودها الناس والحجارة، عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله: (وقال مجاهد: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ قال: (اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله)، وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصيـة الله وأن تقوم عليهم بأمر الله وتأمرهم به وتساعدهم عليه

(١) التحريم: ٦.

فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها، وهكذا قال الضحاك ومقاتل حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه، وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبـو داود والترمذي من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها»(١).

وإذا لم يقم المسلم بجهاد أسرته بحملها على الطاعة وعلى ترك المعصية فإنه قد يتعرض لقيام الأسرة أو بعض أفرادها بفتنته إما بوقوعهم في المعصية وسكوته عنهم ثم رضاه بها بعد ذلك فيكون عاصياً مثلهم ولو لم يقارف المعصية وإما بحمله على الاستجابة لمطالبهم كلها التي قد يكون منها المحرم الذي لا يجوز له فعله. ولذلك حذر الله سبحانه المسلم من الأسرة ونهاه أن يتلهى بها عن طاعة الله قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فأحذروهم، وإن تَعْفُوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم، إنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ والله عنده أجر عظيم﴾(٣).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية: المنافقين: (يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهياً لهم عن أن يشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من التلهِّي بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة)(٤).

وقال في تفسير آية التغابن: (يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو للزوج والوالد بمعنى أنه يتلهى به عن العمل الصالح كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٩١).
(٢) المنافقون: ٩.
(٣) التغابن: ١٤/ ١٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٣).

يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿فاحذروهم﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم، وقال مجاهد: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبِّه إلا أن يطيعه»[١].

ومن المشقات التي ينالها المجاهد في هذا الباب أنه يجب عليه أداء حق الله الذي قد يعاديـه عليه بعض أفراد أسرته وحق أسرته الذي أوجبه الله تعالى عليه، وعليه أن يؤدي هذا وذاك في اعتدال وطاعة لله سبحانه وتعالى وكثير من الناس إما أن يبالغ في حق الله تعالى ويترك حق الأسرة أو بعض أفرادها وإما أن يبالغ في إرضاء الأسرة أو بعض أفرادها ويضيع حق الله والواجب هو اتباع أمر الله وهو قد أمر بطاعته وعدم اتباع غيره فيما يخالف أمره وأمر كذلك بأداء الحقوق وألا يحمله شنآن الأسرة على عدم إعطائها حقها قال تعالى: ﴿ووصَّينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكـر لي ولوالديك إلى المصير، وإن جاهداك على أن تشركَ بي ما ليس لك به علم فلا تُطْعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتَّبع سبيل من أناب إليّ، ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾[٢].

ومن أجل هذه المشقة يجب على المجاهد أن يصبر وأن يحتسب وأن يسأل الله له العون على تربية أسرته ومجاهدتهم، ولعل شيئاً من حكم الحديث الشريف تظهر في هذا السياق وهو الحديث الذي يقول فيه ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[٣] فكونه ﷺ جعل التفاضل بـين المسلمين تـابعاً لتفاضلهم في معاملة الأهل يدل على أن الناجح مع أهله رجل عظيم لأنه لا يكون كذلك إلا إذا أدى كل واجباته من تعليم وتربية وزجر عن معصية الله وصبر وتحمل على ما يناله من مشقات في سبيل ذلك مضافاً إلى ذلك طول الصحبة واستمرارها لأنهم في منزله أو قريبون منه فإذا كان المجاهد يعيش في

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٦).
(٢) لقمان: ١٤ ـ ١٥.
(٣) الترمذي رقم الحديث ٣٩٨٦، تحفة الأحوذي (١٠/ ٣٩٤) قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح إ هـ وهو من حديث عائشة عن النبي ﷺ.

محيط يغلب فيه الفساد والمفسدون في المدارس والجامعات والأندية والمحافل والأسواق. وفي المسكن وأماكن العمل وغير ذلك فإن مشقته تتضاعف، لأن الأسرة لا بد محتكة بالمحيط عالق بها شيء قل أم كثر والنفوس تميل إلى التقليد والمحاكاة أو التنافس والمجاراة، فكيف إذا توافرت مع ذلك وسائل الاتصال السمعية والبصرية والسفرية وكانت الأرض ماخوراً للفساد والشر، فإن الأسرة عندئذ ستكثر أمامها أبواب الفساد في داخل البلاد، بل في داخل البيت عن طريق الأفلام التلفازية والسينمائية والإذاعية والمجلات المنحطة والجرائد والهاتف والسيارات والطائرات وهكذا في خارج البلاد لمن يتمكن من الأسفار، وسيكون المجاهد في كل ذلك كمن يسبح ضد التيار، وأن أعداء الله ليعز عليهم أن يروا أسراً نظيفة طاهرة متجهة إلى الخالق سبحانه بعيدة عن المستنقعات الآسنة ولذلك فإنهم يترصدون لتلك الأسر أو بعض أفرادها بكل الوسائل ليخرجوهم من النور إلى الظلمات إما بالعقائد الفاسدة والمذاهب الهدامة وإما بالشهوات والمحرمات وإما بذلك كله.

وها هي الأرض الآن يرى فيها الابن الفاسق أو الكافر والبنت الفاجرة والأخ المستهتر المتمرد، لأب صالح وأم طاهرة وأخ ناسك، لا بل أنك لترى الأب والأم والعم والخال وقد يكون الجد والجدة وكلهم ملحدون أو فاسقون فجار لابن صالح، وعلى المجاهد في كل ذلك ألاّ يكل ولا يمل ولا يفتر ولا ييأس لأنه ناجح إما بثواب الله وهداية أسرته وإما بثواب الله وحده وأمر أسرته إلى ربه لأنه تعالى أعلم حيث يجعل هدايته وعليه أن يتأسى إذا فشل في هداية الأسرة أو بعض أفرادها بنوح عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى الناس في الأرض حيث كان ابنه في حزب أعداء الله الكافرين وكذلك زوجته، وبإبراهيم حيث كان أبوه ألد أعدائه عليه، وبلوط حيث كانت زوجته من أعدائه، وبإمرأة فرعون حيث كانت صالحة وزوجها من أكبر أعداء الله الكافرين وبمحمد ﷺ الذي كان عمه أبو لهب يسبه وينفر الناس من دعوته، بل إن عمه أبا طالب الذي أحاطه وحماه مات على كفره وكان ﷺ يتمنى لو مات على كلمة التوحيد. ﴿إنك لا تهدي من أحببتَ، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين﴾[١].

(١) القصص: ٥٦.

هذا. ولو أن أرباب الأسر جاهدوا في إصلاح أسرهم لكانت مجتمعات المسلمين مجتمعات صالحة متماسكة طاهرة لأن الأسر تتكون من الأفراد والمجتمعات تتكون من الأسر.

وكل تقصير في جهاد إصلاح الأسرة يصيب ضرره الأسر الأخرى وإثم التقصير وإثم ضرره الذي يصيب الأسر الأخرى يتحمله المقصر ويكون عليه وزره إلى يوم القيامة فكيف بمن سعى في إفساد أسرته وأسر الآخرين بما يملكه من وسائل الإفساد والتدمير.

﴿ولَيَحْمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالهم، ولَيُسْأَلُنَّ يوم القيامة عمّا كانوا يَفْتَرون﴾[1].

(١) العنكبوت آية: ١٣.

المبحث السادس

جهاد الدعوة إلى الله

إن المسلم الذي ينعم الله عليه بالفقه في الدين والعمل به في نفسه، ويوفِّقه لتربية أسرته على مبادئه وأحكامه وأخلاقه فيذوق حلاوته وينعم بهديه، إن هذا المسلم لا ينبغي أن يستقر له قرار حتى يسعى جاهداً في تبليغ هذا الدين إلى الآخرين ليتمتعوا به كما تمتع به هو وأسرته وتطمئن به قلوبهم وأنفسهم كما اطمأن به، وهل يظن عاقل في الأرض أن رجلاً عاقلاً سليم الفطرة أعمى البصر وله زملاء عمى الأبصار ثم تيسر له من قام بعلاجه فأنعم الله عليه بنعمة الإبصار فرأى عجائب هذا الكون من سموات وأرض وحيوان ونبات وجبال وأنهار وغير ذلك مما لم يكن يتوقع أن يراه في يوم من الأيام، هل يظن عاقل في الأرض أن يتردد هذا الرجل الذي أبصر بعد عمى في أن يدل زملاءه العمى على ذلك الطبيب ليعالجوا أنفسهم عنده فينعموا بما نعم به هو؟ كلا.

وهكذا فإن المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان واستظل في ظلال الإسلام لا يمكن أن يقر له قرار أو تطمئن نفسه إلا إذا بلغ الناس هذا الدين وشرح لهم محاسنه وبين لهم مفاسد الكفر وأخذ بأيديهم إلى جنات النعيم.

قال تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾[1].

ولهذا كان الرسل الذين بعثهم الله للدعوة إليه يجاهدون غاية الجهاد بتبليغ الناس دين الله وتحبيبهم فيه وتنفيرهم من الكفر به وتخويفهم عذاب ربهم

(١) فصلت: ٣٣.

إن هم بقوا على كفرهم: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾(١).

والقرآن الكريم مملؤ بدعوة الرسل وجهادهم في ذلك من نوح إلى محمد ﷺ والمقام مقام تنبيه على نوع من أنواع الجهاد واضح وهو لا يحتمل التفصيل. إلا أنه لا بد من الإشارة إلى ما عاناه رسول الله ﷺ من الجهاد في سبيل نشر الدعوة.

قال ابن كثير رحمه الله: (قال ابن إسحاق ثم قدم مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم - إذا كانت - على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به)(٢).

وبينما كان ﷺ يعرض دعوة ربه على الناس في المواسم كانت قريش تحاول صده بكل وسيلة: وسيلة الإغراء بالسيادة والملك والمال ووسيلة التشكيك في صحة عقله ﷺ، فقد جاءه وفد منهم فخاطبوه قائلين: (فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك.. بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وأن تردوه عليَّ أصبر على أمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»)(٣).

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) البداية (٣/ ١٣٨).

(٣) سيرة ابن هشام - الروض الأنف (٣/ ١٢٣).

وعندما لم ينفع الإغراء اتبعوا وسيلة التهديد والإيذاء ولكنهما أيضاً باءا بالفشل كذلك، لأن الرسالة أعظم من أن ينحني صاحبها أمام أي وسيلة وهكذا كان رجال الدعوة أيضاً يقومون بتبليغ رسالة الله وينالهم ما ينالهم وهم صامدون لا يلتفتون يسرة ولا يمنة عن صراط الله المستقيم، فهذا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه يأتي إلى رسول الله ﷺ في مكة فيتدسس حتى يلقاه ويسمع منه فيسلم وتتحرك مشاعر لا إله إلا الله محمد رسول الله في نفسه في نفس اللحظة التي نطقت بها لسانه فيخرج إلى مجتمع قريش وهو رجل غريب بينهم بعيد الدار والقبيلة فيصدع بكلمة التوحيد وينال ما ينال من الأذى في سبيل الله ثم يعود مرة أخرى مستعذباً صراخه بها بين أعداء الله وإيذاءهم إياه في سبيلها، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ وفيه ـ: (حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه (أي مع علي رضي الله عنه) فسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» قال: (والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس فأكب عليه قال ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأنه طريق تجارتكم إلى الشام فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه...))(١).

ما سبب هذه السرعة في الصدع بلا إله إلا الله بين ظهراني المشركين من رجل دخل توا في الإسلام غريب الديار بعيد عن الناصر من القبيلة ولم يؤمر بما فعل من قبل الرسول ﷺ، بل إنه ﷺ أمره بالرجوع إلى قبيلته لإخبارهم بالإسلام حتى يأتيه أمر رسول الله ﷺ، ولكنه بمجرد إبصاره الشمس أخذ يصرخ في العميان ليبصروها كما أبصرها. هذا هو المسلم الحق الذي لا يقر له قرار حتى يدعو إلى إسلامه الضالين دون مبالاة بما يناله منهم لشدة رغبته في هدايتهم وإشفاقه عليهم ورجائه ثواب الله على جهاد دعوته.

ومن أعظم أنواع جهاد الدعوة نصح زعماء المسلمين، لا سيما أهل الجور

(١) البخاري رقم ٣٨٦١، فتح الباري (٧/ ١٧٣) ومسلم (٤/ ١٩٢٣).

منهم الذين يستضعفون الناس ويظلمونهم ويستبدون بالأمر دونهم فإن في نصحهم مخاطرة لا يقدم عليها إلا ذوو العزم من الرجال الذين بذلوا نفوسهم لله سبحانه، إذ قد يتعرض الناصح لأذاهم من سجن وتعذيب بل وقتل وانتهاك عرض واغتصاب أموال وغير ذلك، وهذا دأب أمراء السوء الذين لا يتقيدون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولهذا جاء عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» أو «أمير جائر»[١] قال الامام الغزالي رحمه الله: (ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله)[٢].

وعلى المجاهد في سبيل الله ـ إذا وقف أعداء الله في طريق دعوته ولم يستجيبوا له ومنعوه من إبلاغ الدعوة إلى الناس جهراً ـ عليه أن يسلك بدعوته مسلك الدعوة السرية في تربية الرجال المستجيبين وإعدادهم بعيداً عن أعين الصادين المكابرين حتى لا يشعروا بتربيته وإعداده قبل أن تنتشر في صفوف المستجيبين له انتشاراً يجعل أعداء الله عاجزين عن الوقوف في وجهها بل يجعل دعاة الخير قادرين على القضاء على أعداء الله وتشتيت شملهم وإسقاط عروشهم كما فعل الرسول ﷺ الذي كان يدعو قريشاً ويؤذى في سبيل الله ويمتحن هو وأصحابه ولكنه يعد جنود الجهاد في صمت وسكوت. قال ابن القيم رحمه الله: (وقال أبو الزبير عن جابر ان النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ: من يُؤَمِّنِي ومن يؤويني ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه حتى أن الرجل ليرحل من مصر أو اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك ويمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام وبعثنا

(١) أبو داود (٤/ ٥١٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٤٣).

الله إليه فأتمرنا واجتمعنا وقلنا حتى متى رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا بيعة العقبة فقال له عمه العباس: يا ابن أخي ما أدري ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك، إني بمعرفةٍ بأهل يثرب، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا قال هؤلاء قوم لا نعرفهم هؤلاء أحداث، فقلنا يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: «على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على أن تقوموا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»[١].

ولقد ضاق مفهوم الدعوة عند كثير من الناس فأصبحوا لا يفهمون منها إلا أنها وعظ وإرشاد في المساجد أو في الاجتماعات الطارئة، أو توزيع بعض الكتب والرسائل. وهذا لا شك من الدعوة إلى الله وكان يفعله الرسول ﷺ كما مضى من عرضه نفسه على الناس في المواسم وكذلك بعثه الكتب إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الله تعالى، ولكن ذلك كما مضى جزء من الدعوة وليس كل الدعوة.

ومن تأمل سيرة الرسول ﷺ علم أنه كان يتخذ لكل موقف ما يناسبه في دعوته، فإذا كان الموقف يستدعي الحجة والبرهان أعطاه الحجة والبرهان وإذا كان الموقف يقتضي الموعظة الحسنة أدى ذلك في ذلك الموقف ولكنه عليه السلام كان يعلم أن ذلك لا يكفي وحده في كل المواقف لأن أعداء الله لا يمكن أن يقفوا عن معارضة الدعوة وصد الدعاة وإيذائهم وأنهم لو قدروا على القضاء عليهم لما ترددوا لحظة من اللحظات ولذلك كان يواجه تلك المواقف كلها بما يكافئها وكان في الوقت الذي لا يقدر على المواجهة يعد رجاله للمواجهة كما مضى فيما ساقه ابن القيم قريباً عن جابر.

وقال سيد قطب رحمه الله: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان

(١) زاد المعاد (٢/ ٥٦).

والجدل بالحجة، فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازاً لكرامة الحق ودفعاً لغلبة الباطل على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتقطيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال ودين السلم والمسالمة إنما يدفع عن نفسه البغي ولا يبغي: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ وليس ذلك بعيداً عن دستور الدعوة فهو جزء منه. والدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها فلا تهون في نفوس الناس، والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد ولا يثق أنها دعوة الله فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها، والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة لله، والعزة لله جميعاً، ثم إنهم أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس وقيادة البشرية إلى الطريق القويم فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقبون فلا يعاقبون ويُعتدى عليهم فلا يردون...)[١].

ولعل هذا القدر يكفي في الجهاد المعنوي، وفيما ذكر دلالة على ما لم يذكر.

---

(١) في ظلال القرآن (١٤/ ٢٢٠٢). الآية من سورة النحل: ١٢٦.

القسم الثاني

الجهاد المادي

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول : إعداد المجاهدين.
المبحث الثاني : الجهاد بالأنفس والأموال.
المبحث الثالث : إنشاء المصانع الجهادية

تمهيد: الإعداد:

إن ما مضى من الكلام على النوع الأول من أنواع الجهاد، وهو الجهاد المعنوي يتعلق بإعداد الفرد المؤمن إعداداً توجيهياً، وتزكيته تزكية ربانية تجعله قوي الصلة بربه يحبه أكثر من محبته لنفسه وولده ووالده والناس أجمعين، وذلك يقتضي أن يقدم طاعته على طاعة نفسه وطاعة غيره من الناس أجمعين، لأنه عندئذ تحقق فيه ما كان يبعث الله به أنبياءه ورسله وينزل عليهم كتبه من أجل دعوة الناس إليه وهو تقوى الله وطاعة رسله، كما قال تعالى على لسان رسله ـ كل رسول ـ مخاطبين قومهم: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾[1] وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليُطاع بإذن الله﴾[2].

والنفس المؤمنة عندما تصفو وتزكو وتقوى صلتها بربها تشرئب للمزيد من الارتقاء بصاحبها في سلم طاعة الله بالتكاليف الربانية التي يرضي بها المؤمن ربه في كل مجال، وفي كل مرحلة من مراحل الجهاد.

---

(١) الشعراء: ١٠٨. (٢) النساء: ٦٤.

فإذا كان قد أذل نفسه لله في ركوعه وسجوده، وكبح جماح نفسه وألزمها الصبر على طاعته بالتزام المأمور واجتناب المحظور فيما بينه وبين الله وذاق حلاوة الإيمان وعلم أن هذا الدين لم ينزله الله له فقط وإنما للبشرية كافة لتستضيء بنوره وتنعم بخيره وتتمتع بميزان عدله وتنال حريتها منه بعبوديتها لله وحده. إذا كان المؤمن كذلك فإنه يتطلع إلى قيادة سفينة حياة البشرية إلى رحاب إيمانه لتذوق ما ذاق، وتستضيء بما استضاء، وتنعم بما نعم، وتتمتع بما تمتع من خيرات هذا الدين.

لذلك تجده في حركة دائبة ودعوة دائمة جادة لإقناع الضالين بدينه وهدايتهم إليه لا يهدأ له بال ولا يستقر له قرار حتى يوصل نداء الله إلى كل نفس مرغباً ومرهباً، مبشراً ومنذراً مسروراً غاية السرور بهداية المهتدي، ومشفقاً كل الاشفاق على الجاحد الشارد عن الله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عنتم، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾(١). ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ. قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين. قال يا قوم ليس بي ضَلالةٌ ولكِني رسولٌ من ربِّ العالمين. أبلِّغُكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾(٢).

ولو أن البشرية تقف موقفاً سلبياً من الدعوة إلى الله، تسمع النداء وتجيب أو لا تجيب حسب اقتناعها أو عدم اقتناعها، ولم تستعمل القوة ضد الدعاة إلى الله تعالى لكان الأمر سهلاً على دعاة الإسلام يجوبون الآفاق ويدعون إلى الله بالحجة والموعظة والحكمة، ولكن البشرية لا تقف ذلك الموقف بل إنها لتتجمع على ما بينها من خلاف في الدين والسلوك لتقف كلها في صف واحد للقضاء على الدعوة الإسلامية والدعاة إلى الله، تقف بعقائدها الملحدة وشبهاتها المشككة وأخلاقها الفاسدة، وأنظمتها الجائرة وقواتها المسلحة في كل زمان ومكان: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾(٣) ﴿ذلك بأنهم

---

(١) التوبة: ١٢٨.
(٢) الأعراف: ٥٩ ـ ٦٢.
(٣) يس: ٣٠.

كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون﴾(١) ﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾(٢) ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حـرقوه﴾(٣) ﴿قالوا يا شُعَيب ما نفقه كثيراً مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾(٤) ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملَّتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾(٥).

﴿قال أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنتهِ لأرجمنَّك واهجرني مَلِيّاً﴾(٦) ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوحُ لتكوننَّ من المرجومين﴾(٧) ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم، لئن لم تنتهوا لنرجمنَّكم وليمسنَّكم منا عذابٌ أليمٌ﴾(٨).

﴿وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهَّرون﴾(٩) ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنَّك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنَّ في ملتنا، قال أَوَ لَوْ كنا كارهين﴾(١٠) ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنَّكم من أرضنا أو لتعودُن في ملتنا، فأوحى إليهم ربُّهم لنهلكنَّ الظالمين﴾(١١) ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوكَ أو يقتلوك أو يخرجوكَ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾(١٢).

هذا هو موقف الأكثرية من البشر في كل الأزمنة: كفر وجحود وصد عن سبيل الله واعتداء على الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وتعذيب وتهديد بكل أنواع التعذيب: حرق وإخراج من البلد، ورجم وسجن وقتل وتجمع على ذلك كله.

فهل يكفي المؤمن أن يتعلم من دين الله ما يقدر عليه ثم يلقي بنفسه في زاوية من مسجد أو منزل أو شعب ليصلي ويصوم، ويحج ويعمل ما يقدر عليـه

---

(١) البقرة: ٦١.
(٢) الأنبياء: ٦٨.
(٣) العنكبوت: ٢٤.
(٤) هود: ٩١.
(٥) الكهف: ٢٠.
(٦) مريم: ٤٦.
(٧) الشعراء: ١١٦.
(٨) يس: ١٨.
(٩) الأعراف: ٨٢.
(١٠) الأعراف: ٨٨.
(١١) إبراهيم: ١٣.
(١٢) الأنفال: ٣٠.

من العبادة التي تكون بينه وبين ربه دون أن يقوم بدعوة الناس إلى الله؟ وإذا دعاهم فهل يدَعونه وشأنه أو يُكرهونه على أن يعود في ملتهم؟ وهل يليق به أن يكون ضعيفاً وهم أقوياء يسخرون منه ومن دعوته ويذيقونه أنواع النكال هو وأتباعه وهم عزل لا يملكون شيئاً؟

لذلك كله لا بد للمسلمين من إعداد العدة التي ترهب أعداء الله وتردهم إلى الصواب أو تردعهم عن الاعتداء وتجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وإعداد العدة يتم بأمرين:

الأمر الأول: إعداد الرجال إعداداً شاملاً.

الأمر الثاني: إعداد المال والعتاد.

المبحث الأول

إعداد المجاهدين

الفرع الأول
ضرورة الإعداد

إنه إذا كان موقف أغلب البشرية في كل زمان من الدعاة إلى الله الأنبياء واتباعهم هو ذلك الموقف الجاحد المحارب المهدد فلا بد أن يعد دعاة الإسلام إعداداً قوياً يترقب ذلك الموقف الظالم، للصبر عند المحنة والإعداد للمجابهة والمجاهدة الرادعة، وإذا لم يعد المؤمن لذلك فإنه سيفاجأ به على غرة، والصبر عند الصدمة الأولى ليس سهلاً على كل الناس ألا ترى أن ورقة بن نوفل عندما عرض عليه الرسول ﷺ ما جاءه من الوحي كيف أشار لرسول الله ﷺ إلى ما سيواجهه من أذى قومه وتعجب الرسول ﷺ من ذلك في أول الأمر: «فانطلقت به ـ أي بالرسول ﷺ ـ خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل. . . وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له خديجة يا بن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[1].

ولعل الله سبحانه نبه عبده إلى هذا المعنى ـ وهو يعده ـ لمواجهة الناس بدعوته إليه، الدعوة التي تكلف حاملها من المشاق ما يحتاج إلى تنبيه وتهيئه،

(١) البخاري من حديث عائشة رقم ٣، فتح الباري (١/ ٢٢).

لأنها دعوة تواجه عقائد وتصورات، وتواجه أذى وفتنة، وتواجه قوة وحرباً ضروساً، قال تعالى: ﴿يا أيها المزمِّل. قُمِ الليل إلا قليلاً. نصفَه أو أنقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً. إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾(١).

قال سيد قطب رحمه الله: (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف، والقرآن في مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسر للذكر، ولكنه ثقيل في ميزان الحق، ثقيل في أثره في القلب لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله فأنزله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه، وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل. . . وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات يحتاج إلى استعداد طويل)(٢).

وهكذا كان رسول الله ﷺ يهيىء أصحابه ويعدّهم لمواجهة أي موقف بما يناسبه.

فقد آذى المشركون أصحابه ـ كما آذوه ـ إيذاء شديداً، فشكا ذلك بعضهم إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يدعو لهم الله ويستنصره، فاشتد غضبه من تلك الشكوى وذكرهم بإيذاء من سبقهم على دربهم من أولياء الله ووعدهم خيراً، وما كان ذلك منه ﷺ إلا حَفْزاً لهمم أصحابه وإعداداً لهم وتهيئة لنفوسهم ليستقبلوا الشدة والضيق وتجمع العدو عليهم وهم صامدون يجاهدون في الله لا يخافون فيه لومة لائم.

ففي حديث خباب بن الأَرت رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت يا رسول الله: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المبشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا

(١) المزمل: ١ ـ ٥.
(٢) في ظلال القرآن (٢٩/ ٣٧٤٥).

الله. . والذئب على غنمه»(١).

وقد نفع هذا التوجيه وهذه التهيئة من الرسول ﷺ لأصحابه نفعهم ذلك حيث ابتلوا في المال والولد والدار والنفس فضحوا بها كلها في سبيل الله، وهذا ما حفزهم أن يقولوا يوم الخندق عندما تجمع عليهم أحزاب الكفر من كل جانب وبلغ الحصار مبلغه أن يقولوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وعدنا اللهُ ورسولهُ، وصدق اللهُ ورسولُه، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾(٢).

ومن أهم ما هيأ به رسول الله ﷺ أصحابه للجهاد في سبيل الله فراق الأهل والولد والدار: «الهجرة» فإن الذي لا ترضى نفسه بفراق أحبته وداره حيث يجد الأنس والراحة والألفة يصعب عليه أن يلقي بنفسه في ساحة القتال مضحياً بها والذي يؤثر ما عند الله على ذلك كله فيهجر المال والولد والأهل والدار ابتغاء وجه الله جدير أن يلقى ربه في ساح الوغا راضياً مطمئناً، قال أبو وائل: (عدنا خباباً فقال: هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه الله، فوقع أجرنا على الله فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد وترك نمرة، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه، ونجعل على رجليه شيئاً من أذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها(٣).

وفي قصة أبي سلمة عندما هاجر إلى المدينة تاركاً زوجه، وهي تبكي وطفله الصغير، حيث حال المشركون بينه وبينها عبرة في هذا المقام(٤). لذلك كان أول المهاجرين وحضر أول معركة فاصلة في الإسلام(٥).

ومن الأمور التي هيأ بها رسول الله ﷺ أصحابه للجهاد في سبيل الله ذلك

---

(١) البخاري رقم الحديث ٣٨٥٢ فتح الباري (٧/ ١٦٤).
(٢) الأحزاب: ٢٢.
(٣) البخاري، رقم الحديث ٣٨٩٧، فتح الباري (٧/ ٢٢٦).
(٤) أنظر سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٨).
(٥) أنظر نفس المصدر السابق (١/ ٦٨٢).

الإخاء الذي ربطه بينهم بعد أن هاجر هو وأصحابه إلى المدينة، إذ آخى بين المهاجرين والأنصار، وهو ربط خاص يشعر كل أخ بأن أخاه مثله في الحقوق التي يملكها فيؤثره بماله، بل بما لم يخطر بالبال الإيثار به، وفي ذلك إعداد لهم رضي الله عنهم ليبذلوا ويؤثروا ما عند الله على ما عند أنفسهم، وهذا ما كان.

قال أنس رضي الله عنه: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف، وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ـ وكان كثير المال ـ: فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين ولي امرأتان فأنظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها؛ فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك، فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئاً من سمن واقط فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضر من صفرة. فقال له رسول الله ﷺ: «مهيم» قال: تزوجت امرأة من الأنصار قال: «ما سقت فيها» قال: وزن نواة من ذهب أو نواة من ذهب، فقال: «أَوْلِمْ ولو بشاة»(١).

أرأيت مثل هذا الجندي المسلم الذي يتنازل لأخيه في الله عن أعجب زوجتيه لتعتد منه ويتزوجها أخوه إيثاراً منه له في سبيل الله، أرأيت مثله يتأخر عن بذل ما يملك من مال ونفس في سبيل الله إذا دعاه الداعي لقتال أعداء الله إعلاء لكلمة الله؟

ولا غرو فقد كان من نقباء بيعة العقبة الثانية وممن شهد أول معركة فاصلة «معركة بدر»(٢) وكان ممن قتل يوم أحد وفاضت روحه وهو يوصي من عنده بأمرين: الأمر الأول يتعلق برسول الله ﷺ قال: «فابلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته. والأمر الثاني يتعلق بأصحاب رسول الله ﷺ، قال: «وابلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف»(٣).

---

(١) البخاري رقم الحديث ٣٧٨١، فتح الباري (٧/ ١١٢).
(٢) أنظر سيرة ابن هشام (١/ ٤٤٣، ٦٩١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٥).

(التعرف على الأرض والمسالك التي يغشاها العدو لمعرفة تحركاته وإرهابه والحؤول بينه وبين ما يحقق له أي مكسب يضير المسلمين).

وبعد أن يعد الرجال المجاهدون ويهيأوا تهيئة جهادية عالية لا بد أن يفسح لهم المجال العملي المرحلي الذي يترقون به في سلم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ويكون ذلك بأمور:

الأمر الأول: التعرف على الأرض التي يحتمل أن تكون مجالاً للمعارك الحربية، أو مسالك للعدو يستفيد منها في تجارته أو غير ذلك.

الأمر الثاني: التعرف على الذين يسكنون في تلك المناطق لاستطلاع ما هم عليه من ميل إلى الإسلام أو إلى محاربته أو مهادنته.

الأمر الثالث: معرفة تحركات العدو، ومعرفة مقاصده من تلك التحركات، أهي تجارية، أم استطلاعية لمعرفة أحوال المسلمين أو محاولة ضم أهل تلك الأرض إلى صفوفه لمحاربة المسلمين أو غير ذلك.

الأمر الرابع: التضييق على العدو وقطع الطرق عليه حتى يصبح خائفاً غير آمن على نفسه وماله، لما في ذلك من إلقاء الرعب في قلبه فيجعله يكف عن البدء بحرب المسلمين أو يخفف من ذلك.

الأمر الخامس: جمع المعلومات المفيدة عن العدو وذلك ييسر على القيادة الإسلامية رسم الخطط وتنفيذها مستقبلاً.

الأمر السادس: تمرين الجيش الإسلامي على الفدائية وأساليب الحرب القصيرة والطويلة وغير ذلك.

الأمر السابع: التدريب على الكتمان.

الأمر الثامن: التدريب على الطاعة.

وكان هذا ما عمله الرسول ﷺ بعد الهجرة حيث بعث السرايا وقاد الغزوات ابتداء من السنة الأولى للهجرة النبوية. فكان مجموع الغزوات في أقل

من سنتين ـ قبل معركة بدر ـ أربعاً: ومجموع السرايا كذلك كان أربعاً تحققت فيها الأهداف السابقة.

والغزوات الأربع هي: غزوة ودان، وغزوة بواط، وغزوة العشيرة، وغزوة صفوان، وهي بدر الأولى والسرايا الأربع هي: سرية عبيدة بن الحارث، وسرية حمزة بن عبد المطلب، وسرية سعد بن أبي وقاص وسرية عبدالله بن جحش(١).

وقد جاب الجيش الإسلامي في تلك الغزوات والسرايا المناطق الحجازية من المدينة ألى قرب الطائف في الجبال والسواحل، فكانت مقدمات لمعركة الفرقان التي ارتفعت فيها راية الإسلام وسقطت راية الكفر.

الفرع الثاني
مجالات إعداد المجاهدين وشمولها

ولا يقتصر إعداد الرجال على تدريبهم ـ فقط ـ على وسائل الحرب وأساليبه ومعداته المباشرة للقاء العدو، لأن هذا المجال يعتبر واحداً من مجالات إعداد الرجال. وهي كثيرة شاملة.

فالأمة الإسلامية يجب أن تتفوق على الأمم الأخرى في كل مجال نافع لأنها أخرجت للناس لتهديهم وتقودهم إلى الله سبحانه، وهذه القيادة تقتضي تفوقهم على غيرهم، تفوق أفرادهم على أفراد الأمم الأخرى، كل في اختصاصه وتفوق مجتمعهم على المجتمعات الأخرى في العلوم الإنسانية: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وغيرها، وفي العلوم الكونية: الطبية، والفلكية، والتجارية، والصناعية والجغرافية وغيرها لأن هذه المجالات كلها يكمل بعضها بعضاً، ولا يمكن أن تنهض أمة وتفوق غيرها، أو تلحق بركاب الأمم المتقدمة في مضمار الحياة ما لم تكن حائزة على قدر كاف من العلوم الإنسانية والعلوم الكونية، والفرق بين الأمة الإسلامية والأمم الأخرى أن الأمة الإسلامية تأخذ

---

(١) راجع هذه الغزوات والسرايا في سيرة ابن هشام (١/ ٥٩٠ ـ ٦٠١).

توجيهها في علومها الإنسانية من الله الخالق الذي آمنت به وبكتابه ورسوله وأيقنت أن كل توجيه يخالف توجيه الخالق فيه الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة كما أنها تبني علومها الكونية على إيمانها بخالقها فتستغل كل طاقاتها في طاعة الله سبحانه، بخلاف الأمم الأخرى فإنها تضع لعلومها الإنسانية أصولاً وقواعد من عند نفسها ولا تخضع لتوجيه الباري سبحانه، كما أنها تبني علومها الكونية على الفصل بين الإيمان بالله وتلك العلوم فتستغل طاقاتها وما سخره الله لها فيما ترسمه لها أهواؤها بعيداً عن توجيه الله.

وبهذا يظهر أن الأمة الإسلامية يجب أن تجاهد وتكافح في كل مجال من مجالات الحياة، ولا تقتصر على مجال دون مجال، وإن كان بعض هذه المجالات قد يكون أولى بالاهتمام من غيره في بعض الأوقات على حسب الظروف والأحوال.

فلا بدَّ من إعداد رجال مهرة في السياسة الشرعية، وهي السياسة التي رسمها الكتاب السنة، وشرحها علماء الإسلام قديماً وحديثاً على ضوء المبادىء الإسلامية، مع تعمقهم في أصول سياسات الأمم وما يوافق منها الإسلام وما يخالفه ومعرفة عيوب تلك السياسات لفضحها وبيان أضرارها، وكذلك لا بد من معرفتهم بالقوانين الدولية المتعلقة بحالة السلم وحالة الحرب، وما فيها كذلك من موافقة ومخالفة للإسلام وما فيها من عيوب تعود بالضرر على المجتمع الدولي لتعرية ذلك الضرر وكشفه.

ولا بدّ كذلك من إعداد رجال مهرة في علم الاقتصاد الإسلامي ليرسموا للأمة الإسلامية السبيل الناجحة في استغلال خيراتهم واستثمار أموالهم وتصريفها والحؤول بينها وبين استغلال أعداء الله لها مع اجتناب جمع الأموال من مصادر محرمة، أو إنفاقها في مصارف محرمة، ويجب أن يكونوا على اطلاع واسع على علوم الاقتصاد الأجنبية لمعرفة ما يقره الإسلام منها وما لا يقره ليكون التعامل مع غير المسلمين مبنياً على ما أحله الله ورسوله لا على ما حرمه الله شرعاً أو حرمه رسوله ﷺ.

ولا بدَّ من إعداد رجال مهرة في التربية والتعليم يضعون خططاً ومناهج

مرحلية مفيدة للمسلمين تكون مبنية على أصول الإسلام محققة للأهداف التي يصبو إليها المسلمون تكتشف بها مواهب الناشئة من أبنائهم التي يوجهون على ضوئها للتخصصات المختلفة النافعة بعد أخذهم جميعاً ما يجب عليهم عيناً تعلمه في أمور دينهم.

ولا بدّ من إعداد رجال مهرة في توجيه وسائل الأعلام يشرفون على الأجهزة الإعلامية من إذاعة مسموعة ومرئية وصحافة وغيرها ليقوموا بوضع خطط تحقق مناهجها إشباع الرغبات المتنوعة للأمة الإسلامية في حدود الآداب الإسلامية. تتعاون مع أجهزة التعليم والمجتمع على تربية الناشئة على الحقائق الإيمانية والأعمال الصالحة وتكون وسيلة لتعليم كل أفراد الأمة على اختلاف مستوياتهم وتخصصاتهم وتبث فيهم روح الجهاد والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل الله وتعرفهم على تاريخ أسلافهم الصالحين الذين حملوا راية الإسلام عالية حتى سلموها إليهم، مع بيان الثغرات التي حصلت في هذا التاريخ فشوهته أو حطمت بعض معالمه، وتبث في روح أطفاله حب الله وحب رسوله والرغبة في دخول الجنة والبعد عن النار مع بيان ما يحقق ذلك كله وترغبهم في حفظ كتاب الله والإكثار من قراءته والعمل به، وتختار لهم بعض أحاديث رسول الله ﷺ التي تحث على الخلق الفاضل والفروسية والرجولة والشجاعة، وتلهب مشاعرهم بالشعر الحماسي والأناشيد الإسلامية الخفيفة وهكذا.

ولا بدَّ من إعداد رجال مهرة في الطب بكل أنواعه وتخصصاته كما أنه لا بد من إعداد رجال مهرة في جميع الصناعات والمهن التي لا يستغنى عنها، وأي تقصير في أي مجال من هذه المجالات وغيرها فإنه يؤثر على الأمة الإسلامية ويضربها وإن كانت متفوقة في غيره.

ويأتي بعد ذلك إقامة المصانع الحربية وتدريب الرجال على جميع أنواع الأسلحة قريباً إن شاء الله والمقصود هنا إيضاح شمول الجهاد لكل مجالات حياة المسلمين.

قال الشيخ طنطاوي جوهري: (ولقد جاء الإسلام وأمرنا الله بالجهاد،

وأمر نبينا نفسه أن يجاهد فكانت حياته كلها جهاداً، فعلينا أن نقتدي به، علينا أن تكون حياتنا كلها جهاداً يحرم علينا التواني والكسل.

والجهاد يستلزم جميع العلوم والصناعات، يستلزم علم الرياضيات والطبيعيات والالاهيات، ويستلزم علم السياسات وعلم الاقتصاد وعلوم الحروب كلها واستخراج المعادن من الأرض وعلم الزراعة وعلوم العالم قاطبة. إن العلوم كلها والصناعات أشبه بحلقة مفرغة لا يدري طرفاها، فإذا اطلعت على ما كتبته «في سورة البقرة» عند قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ وإن العلوم كلها والصناعات لا ينفك بعضها عن بعض عرفت أن الجهاد يكون بها كلها وأن الأمم عليها أن تخص كل امرىء في الصناعة أو العلم الذي هو أليق به فالجهاد في الإسلام يشمل جميع دوائر الحياة، ألا ترى إلى رسول الله ﷺ كيف قال لنعيم بن مسعود لما جاءه وقد أسلم سراً: «إنما أنت فينا واحد فخذل عنا فخصصه بما هو أقوى عليه وهو التخذيل وقد نفذ الأمر فذهب إلى بني قريظة وإلى قريش وغطفان وأوقع بينهم الفشل. أليس هذا بعينه هو علم السياسة، أليس علم السياسة اليوم هو هذا بعينه»[١]. أليست الأمم تفتح المدارس لتربية الشباب لأمثال هذا، أليس هذا من الجهاد لا بل هو سر الجهاد، أو ليس صانع المدفع وسائق القطر وسفير الدولة وكاتب الجيش وأمثالهم مجاهدين، إن الجهاد يشمل سائر فروع الحياة ومتى بطل فرع منها بطلت كلها فإذا لم يكن قطرات تسير بالجنود لم يكن جهاد، ولا قطرات إلا بالحديد، ولا حديد إلا بالتجارة، ولا تجارة إلا الزراعة، ولا زراعة إلا بالأمن، ولا أمن إلا بحكومة منظمة ولا حكومة منظمة إلا بعلاقاتها مع الأمم ولا علاقة لها مع الأمم إلا بحفظ كيانها والذب عن حياضها)[٢].

ويشمل ذلك كله القوة التي أمر الله المسلمين بإعدادها لإرهاب أعداء الله الظاهر منهم والخفي، كما قال تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم، وآخرين مِنْ دونهم لا تعلمونهم،

(١) من حيث الدهاء في الجملة، لا الخداع والغش المستمر في السياسة الظالمة كما هو الحال الآن.
(٢) الجواهر في تفسير القرآن الكريم (١٦/ ٢٤).

الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[١].

تعتبر هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قاعدة الإعداد الحربي الذي يجب على المسلمين أن يقوموا به لمجاهدة أعداء الله الكافرين.

فقد اشتملت على الأمر بإعداد العدة المستطاعة، والأمر يقتضي الوجوب والإعداد للجهاد ـ كالجهاد ـ فرض كفاية إذا قام به من يكفي من المسلمين سقط عن الباقين وإلا بقي فرض عين على الجميع. وإذا عرفنا شمول الجهاد لجميع مجالات الإسلام كما مضى علمنا أن الإعداد له لا يطيقه إلا المسلمون جميعاً، وكل طائفة منهم أو فرد إذا قام بشيء منه سقط عن الباقين ولكن يبقى ما لم تقم به هذه الطائفة أو هذا الفرد يجب أن تقوم به طائفة أخرى أو فرد آخر، وهذا الإعداد يعم تدريب المجاهدين على القتال ووسائله في كل عصر، كما يعم إيجاد كل وسائل الحرب التي لا غنى للمسلمين عنها، ويجب أن يكون تدريب المقاتلين ووسائل قتالهم بالغة من القوة حداً يرهب أعداء الله الظاهرين والمستترين.

وتشمل الآية الحث على البذل والإنفاق في سبيل الله على التدريب وعلى وسائل القتال وتجهيز الغزاة وغير ذلك مما يقتضيه الجهاد في سبيل الله.

قال في المنار: (ومن المعلوم بالبداهة أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الرباني به باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان بحسبه)[٢].

وعلى هذا فإن المسلمين إذا لم يعدوا العدة التي ترهب أعداء الله وكان ذلك في مقدورهم فإنهم آثمون معرضون لعقاب الله في الدنيا والآخرة ويترتب على إهمال المسلمين لهذا الأمر وعدم تنفيذه سيطرة الكفار وإذلال المسلمين ونفور الناس من الدخول في الإسلام وهم يرون أهله مستضعفين مهانين ولا يرون الجوانب المشرقة في الإسلام مطبقة في الأرض لصد أعداء الله أهل الإسلام عن تطبيقها، كما أنه يترتب على إعداد القوة المستطاعة تنفيذاً لأمر الله ورد عدوان

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) تفسير المنار (١٠/ ٧١).

أهل الكفر على المسلمين وإرهاب أهل الكفر وتحطيم قوى البغي في الأرض.

قال سيد قطب رحمه الله: (﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان، وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يصدوا عنها ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.

والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين، فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة.

والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها.

والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده، ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه[١].

ومما يدل على ضرورة وجود هذه القوة لأولياء الله ضد أعدائه أن بعض الأنبياء عندما اعتدى عليه قومه تمنى أن تكون له قوة مادية تردعهم، كما قال تعالى: ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً، وقال هذا يومٌ عصيبٌ. وجاءه قومه يُهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال يا قومِ هؤلاء بناتي هُنَّ أطهر لكم، فاتقوا الله ولا تُخْزُونِ في ضَيْفي، أليس منكم رجلٌ رشيدٌ. قالوا لقد علمتَ مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى رُكْنٍ شديد﴾[٢].

ولقد ارتدع قوم شعيب فلم يقدروا على الاعتداء عليه لوجود قوة مادية أخافتهم كما قال تعالى: ﴿قالوا يا شُعيبُ ما نفقه كثيراً مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولولا رَهْطُك لرجمناك وما أنت علينا بعزيزٍ. قال يا قوم ارهطي أعزُّ عليكم من الله، واتخذتموه وراءكم ظِهْرياً، إن ربي بما تعملون محيط﴾[٣].

---

(١) في ظلال القرآن (١٠/ ١٥٤٣).
(٢) هود (٧٧/ ٨٠).
(٣) هود: ٩١ ـ ٩٢.

والقوة المادية ـ كالقوة المعنوية ـ فرض على المسلمين تحقيقها لأنهم بدونها لا يمكن أن يعبدوا الله حق عبادته دون فتنة وأذى من أعداء الله ولا يمكن أن يبلغوا دعوة الله على الوجه المطلوب بدون إعداد تلك القوة.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي رحمه الله: (وجوب الاستعداد للأعداء بكل قوة وأخذ الحذر منهم قال تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ﴾[1] تضمنت هاتان الآيتان جميع ما يلزم المسلمين في مدافعة الأعداء ومقاومتهم وذلك بالاستعداد بالمستطاع من قوة عقلية وسياسية ومعنوية ومادية فدخل في ذلك تعلم أنواع الفنون الحربية والنظام السياسي والعسكري والاستعداد بالقواد المحنكين المدربين وصناعة الأسلحة وتعلم الرمي والركوب بما يناسب الزمان وبأخْذ الحذر من الأعداء بالتحرز والتحصن وأخذ الوقاية من شرهم ومعرفة مداخلهم ومخارجهم ومقاصدهم وسياساتهم وعمل الأسباب والاحتياطات للوقاية من شرهم وضررهم وأن نكون منهم دائماً على حذر في وقت السلم فضلاً عن وقت الحرب فإن جهل المسلمين بشيء من المذكورات نقص كبير فيهم وقوة لعدوهم وإغراء له بهم، فعلى المسلمين الأخذ بكل معنى من معاني الحذر وبكل وسيلة من وسائل القوة والاستعداد عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا فإن جهل المسلمين بشيء من ذلك وكسلهم عن العمل ضرره كبير وبذلك يكونون عالة على غيرهم وهذا عنوان الذل فإن لله سنناً كونية جعلها وسائل للعز والرقي من سلكها نجح ودين الإسلام يحثّ عليها غاية الحث)[2].

الفرع الثالث
التدريب

إن إعداد الرجال يقتضي تدريبهم المستمر في وقت السلم والحرب معاً حتى يكونوا دائماً في حالة استعداد تام لأي معركة مع أي عدو في أي وقت.

---

(١) النساء: ٧١.

(٢) وجوب التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني هذا.

ولهذا التدريب درجتان: الدرجة الأولى ما يتحقق به الحد الأدنى من الاستعداد لكل فرد من أفراد المسلمين ليستطيع ـ على الأقل ـ أن يدافع عن نفسه ووطنه وعرضه عند اللزوم، وأن يلبي نداء النفير العام عندما يناديه الأمير الشرعي للحرب. وهذا التدريب يجب أن يقوم به كل فرد أو يجبره الأمير على القيام به، لأن الضرورة تقتضيه، وهي حفظ النفس. .

الدرجة الثانية درجة عليا، وهي التدريب المتخصص للجيش الإسلامي المعد للجهاد في سبيل الله، إذ يجب أن يدرب تدريباً يفوق به أعداءه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يتحمل بـه الأتعاب والمشقـات ويحمل السـلاح ويستعمله بكل أنواعه.

وهذا يستلزم تنوع التدريب وتقسيم الجيش الإسلامي المقاتل إلى فرق بحيث تتقن كل فرقة منه نوعاً من أنواع التدريب أكثر من غيرها وتجيد استعمال نوع من أنواع السلاح كذلك أكثر من الفرق الأخرى.

فـرقة تـدرب على اكتسـاب الخبرة في البحث عن المعـادن ـ مثلاً ـ لاستغلال المعادن والطاقات الموجودة في أرض المسلمين.

وفرقة تدرب على كيفية استغلال تلك المعادن والطاقات وإقامة المصانع بأنواعها ولكل صنعة فيها مختصون.

وفرقة تدرب على ركوب الطائرات وقيادتها وكل أسلحة الحرب الجوية وفرقة تدرب على قيادة الدبابات والمصفحات وعربات النقل وكل الأسلحة البرية.

وفرقة تدرب على قيادة السفن الحربية والغواصات وكل الأسلحة البحرية.

وفرقة تدرب على حرب الغابات والجبال والصحراء، وأخرى تدرب على الحرب في داخل المدن في الشوارع الواسعة والضيقة ووضع الحواجز أمام العدو وإزالة الحواجز التي يضعها العدو لعرقلة المجاهدين المسلمين وفرقة تدرب على الانقاذ: انقاذ الجرحى في المعركة أو الغرقى إن كانوا في البحر أو من أحاطت بهم النيران، وكذلك على نقل الموتى ودفنهم وإسعاف المجاهدين بالطعام والشراب والدواء وإمدادهم بالمؤن والذخائر.

وفرقة تدرب على استعمال أجهزة الاتصال السلكي وغير السلكي، وأخرى تدرب على العدو السريع لمسافات طويلة للاستعانة بأفرادها عند الحاجة، كأن تنقطع الاتصالات الصناعية لسبب من الأسباب فيقومون بنقل المعلومات والأوامر والخطط من القيادة إلى فرق الجيش أو نقل المعلومات إلى القيادة أو نقل بعض الأسلحة أو بعض الأغذية والأدوية وما شابهها.

وفرقة تدرب على كل أنواع الطب ولا سيما إجراء العمليات المستعجلة ويجب أن يدربوا جميعاً على المشي واحتمال الحر والبرد والجوع والعطش وحمل الأثقال وغير ذلك مما تدعو له الضرورة في ساحات القتال لأن ذلك كله ونظائره مما يتوقف عليه أداء واجب الجهاد.

الفرع الرابع
نهج الرسول ﷺ
في تدريب أصحابه قدوة

لقد درب الرسول ﷺ أصحابه على كل ما كانوا في حاجة إليه في عصرهم مما كان متيسراً الحصول عليه.

تقوية الأجسام:

فقد عني ﷺ بتقوية الأجسام وحث عليها قولاً وفعلاً وتقريراً وقبل ذكر ما ورد عنه ﷺ في ذلك ينبغي التنبيه على أن الآية الكريمة شاملة لذلك ولغيره كما مضى، وهو قوله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...﴾ فإن هزيل الجسم خامله ليس من القوة في شيء.

قال ﷺ ـ كما في حديث أبي هريرة: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله»[1] وتقوية البدن مما ينفع ويجب الحرص عليه ويشمل ذلك تقويته بالغذاء أو تمرينه على الفتوّة بأنواعها، وعلى الصبر عن الطعام والشراب لمدة معقولة، كصوم التطوع الذي كثُر الحثّ عليه إما مطلقاً أو في أوقات محددة، كصوم يوم

---

(١) مسلم (٤/٢٠٥٢).

الإثنين ويوم الخميس من كل أسبوع وصوم الأيام الثلاثة البيض من كل شهر، وصوم يوم عاشوراء مع يوم قبله أو يوم بعده[١] وهكذا صوم ستة أيام من شوال[٢].

ومن العبادات التي تدرب المسلم على الصبر وتحمل الأتعاب والمشاق: الحج لما فيه من مفارقة الأهل والمنزل بما يشتمل عليه من وسائل الراحة وانفاق أموال، وللأسفار التي هي قطعة من عذاب حيث لا يجد أغلب الناس فيه وسائل الراحة في المنام والمطعم والمشرب، وحيث يسير المسلم وفق تعليمات معينة ينتقل فيها من مكان إلى آخر مع عامة الناس في وقت واحد يحصل به من الزحام والمضايقة ما لا يحصل مثله إلا في الجهاد في سبيل الله، ولهذا سماه الرسول ﷺ جهاداً لغير الأقوياء كالنساء والذي يبذل ماله ويترك منزله وأهله ويخاطر بنفسه في أسفار الحج الشاقة ويؤدي ما شرعه الله فيه على الوجه المطلوب وهو راض محتسب غير ساخط ولا مخاصم جدير أن يكون من الذين هيئت نفوسهم ودربت أبدانهم على تحمل مشاق الجهاد في سبيل الله.

ولقد كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يتحرك أصحابه لعبادة الله ويحثهم على الصبر على المشي وإن بعد عنهم المسجد الذي يصلون فيه صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم والليلة، قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه، كانت ديارنا نائية عن المسجد فأردنا أن نبيع بيوتنا فنقترب من المسجد فنهانا رسول الله ﷺ، فقال: «إن لكم بكل خطوة درجة»[٣].

ووقع ذلك موقعه في نفوس أصحابه، فكان أحدهم يفضل بعد داره عن المسجد على قربها من بيت رسول الله ﷺ ويأبى أن يركب دابة توصله إلى المسجد بل يحرص على المشي مهما كلفه ذلك، كما في حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه قال: (كان رجل من الأنصار بيته أقصى بيت في المدينة فكان لا تخطئه الصلاة مع رسول الله ﷺ قال فتوجعنا له، فقلت له: يا فلان لو أنك اشتريت حماراً يقيك من الرمضاء ويقيك من هوام الأرض، قال: أم والله ما أحب أن بيتي مطنب ببيت محمد ﷺ قال فحملت به حملاً حتى أتيت نبي الله ﷺ

---

(١) مسلم (٢/ ٨١٨).
(٢) نفس المصدر (٢/ ٨٢٢).
(٣) مسلم (١/ ٤٦١).

فأخبرته، قال فدعاه فقال له مثل ذلك وذكر له أنه يرجو في أثره الأجر فقال له النبي ﷺ: «لك ما احتسبت»[١] والذي يكون مشيه إلى الصلاة عبادة ومشيه إلى الجهاد في سبيل الله عبادة يحرص كل الحرص على تدريب نفسه على المشي والسعي اللذين لا يستغنى عنهما في المعركة.

وهكذا حرص رسول الله ﷺ أن يدرب أصحابه على قيام الليل والصبر على ما فيه من مشقة مفارقة الفراش وقت اشتداد الحاجة إليه ومغالبة النوم وقت شدته ـ وإن أمر أن يستجم إذا غلبه ـ وشرع لهم فيه تطويل القراءة والقيام والركوع والسجود وكان يمرن على ذلك صغار السن من صحابته، كما في حديث ابن عباس قال: بت ليلة عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ من الليل فأتى حاجته، ثم غسل وجهه ويديه، ثم نام، ثم قام، فأتى القربة فأطلق شناقها، ثم توضأ وضوءاً بين الوضوءين ولم يكثر وقد أبلغ ثم قام فصلى فقمت فتمطيت كراهية أن يرى أني كنت أنتبه له فتوضأت فقمت عن يساره، فأخذ بيدي فأدارني عن يمينه فتتامت صلاة رسول الله ﷺ ثلاث عشرة ركعة..»[٢].

وفي هذا تدريب للجسم على تحمل المشقة وعلى السهر الذي هو ضروري للمجاهد في سبيل الله للحراسة وغيرها من أغراض الجهاد. وهو عبادة في كلتا الحالتين.

ودربهم ﷺ على المسابقة على الأقدام وكان هو قدوتهم في ذلك، قال ابن القيم رحمه الله: (فأما مسابقته بالأقدام ففي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود من حديث عائشة قالت: سابقني النبي ﷺ فسبقته، فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال: «هذه بتلك»، وفي رواية أخرى أنهم كانوا في سفر فقال النبي ﷺ لأصحابه: «تقدموا» ثم قال: «سابقيني فسبقته ثم سابقني وسبقني»، فقال: «هذه بتلك»).

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يُسبق أبداً، فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من

---

(١) مسلم (١/٤٦١).

(٢) مسلم (١/٥٢٥).

مسابق؟ فقلت: أما تكرم كريماً وتهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ذَرْني أسابق الرجل، فقال: «إن شئت، فسبقته»[(١)].

وفائدة التدريب على المسابقة بالأقدام، والعدو ظهرت جلية عندما أخذت غطفان لقاح رسول الله ﷺ، فأدركهم سلمة بن الأكوع العداء الذي أكرمه رسول الله ﷺ فأردفه على ناقته، قال سلمة: (خرجت قبل أن يؤذن بالأولى، وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قرد قال فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، فقال: أخذت لقاح رسول الله ﷺ، قلت من أخذها، قال غطفان قال فصرخت ثلاث صرخات يا صباحاه فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم وقد أخذوا يستقون من الماء فجعلت أرميهم بنبلي وكنت رامياً وأقول: انا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع وأرتجز حتى استنقذت اللقاح منهم واستلبت منهم ثلاثين بردة قال وجاء النبي ﷺ والناس فقلت يا نبي الله قد حميت القوم الماء وهم عطاش فابعث إليهم الساعة فقال: «يا بن الأكوع ملكت فأسجح» قال ثم رجعنا ويردفني رسول الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة»[(٢)].

ودربهم ﷺ على المصارعة، كما صارع ﷺ ركانة بن عبد يزيد[(٣)] وجعل السبق في المصارعة مسوغاً للإذن بالانخراط في الجيش الإسلامي لصغار السن، قال ابن هشام: (وأجاز رسول الله ﷺ يومئذ ـ أي يوم أحد ـ سمرة بن جندب. . ورافع بن خديج. . وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردّهما، فقيل له يا رسول الله: إن رافعاً رامٍ، فأجازه، فلما أجاز رافعاً قيل له يا رسول الله فإن سمرة يصرع رافعاً، فأجازه)[(٤)].

وركب ﷺ جميع المركوبات وركبها أصحابه كذلك، ودربهم على المسابقة عليها ـ لا سيما الخيل والإبل.

(١) الفروسية ص ٣.
(٢) البخاري رقم ٤١٩٤، فتح الباري (٧/٤٦٠) ومسلم (٣/١٤٣٢).
(٣) الفروسية ص ٣.
(٤) السيرة النبوية (٢/٦٦).

اقتنوا الخيل وتدربوا على ركوبها ودربوها على تحمل المشاق وحثوا على استدامة اقتنائها والمحافظة على قدرتها القتالية، ففي حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفياء، وأمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق وإن عبدالله بن عمر كان فيمن سابق «بها»[١] وفي حديثه أيضاً: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: (وفي الحديث مشروعية المسابقة، وأنه ليس من العبث بل من الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو والانتفاع بها عند الحاجة، وهي دائرة بين الاستحباب والاباحة بحسب الباعث على ذلك قال القرطبي: لا خلاف في جواز المسابقة على الخيل وغيرها من الدواب وعلى الأقدام وكذا الترامي بالسهام، واستعمال الأسلحة، لما في ذلك من التدرب على الحرب.

وفيه جواز اضمار الخيل، ولا يخفى اختصاص استحبابها بالخيل المعدة للغزو)[٣].

وركبوا الإبل وسابقوا بها وسابق رسول الله ﷺ بناقته «العضباء»[٤]. وركبوا البغال، كما قاتل ﷺ يوم حنين على بغلته العضباء[٥]، وكذلك ركبوا الحمر وركبها الرسول ﷺ[٦].

وقد ذكر الله هذه المركوبات في سياق تعداد نعمه على عباده واتبعها بما يدل على كونه سينعم على عباده بغيرها من المركوبات المستحدثة مما يمكن الله عباده من استغلاله قال تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم، فيها دِفْءٌ ومنافعُ، ومنها تأكلون، ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تَسْرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ

(١) البخاري رقم ٤١٨، فتح الباري (٥١٣/١) ومسلم (١٤٩١/٣).
(٢) البخاري رقم ٢٨٤٩ فتح الباري (٥٤/٦) ومسلم (١٤٩٢/٣).
(٣) فتح الباري (٧٢/٦).
(٤) البخاري رقم الحديث ٢٨٧١، ورقم ٢٨٧٢، فتح الباري (٧٣/٦).
(٥) البخاري رقم ٢٨٧٤، فتح الباري (٧٥/٦).
(٦) البخاري رقم ٥٩٦٧، فتح الباري (٣٩٧/١٠) ومسلم (٥٨/١).

لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس، إن ربكم لرؤوفٌ رحيمٌ، والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾(١).

وإذا كان الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم امتطوا كل مركوب في عهدهم واتقنوا ركوبه، وإذا كان الله سبحانه قد أشار إلى وجود مركوبات أخرى غير ما كان موجوداً، وقد وجدت فعلاً في هذا العصر مركوبات مدهشة برية وبحرية وجوية، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمر المؤمنين بإعداد ما يستطيعون إعداده لإرهاب عدوهم فإنه يؤخذ من ذلك كله أنه يجب على المؤمنين السعي الجاد في إيجاد كل مركوب يوجد على ظهر الأرض فيما فيه فائدة لهم وإرهاب لعدوهم وأن عليهم أن يتدربوا على ركوب كل مركوب كذلك ابتداء من الدراجة العادية التي تساق بالقوة البدنية وانتهاء بالمراكب الفضائية والبحرية العملاقة، فقد يحتاجون إلى الصغير من المركوبات كما يحتاجون إلى الكبير منها.

ولم يغز الرسول ﷺ في البحر، ولكنه أوضح لأصحابه أن أمته ستغزو في البحر مع ثنائه عليهم في ذلك(٢).

واستعمل الرسول ﷺ جميع الأسلحة الموجودة في عهده وكذلك أصحابه رضي الله عنهم وحرضهم على التدرب على الخطير منها والاستمرار في ذلك مع التهديد لمن فرط فيما تعلمه حتى نسيه.

فقد فسر ﷺ القوة التي أمر الله بها بالرمي، كما في حديث عقبة بن عامر سمعت رسول الله ﷺ ـ وهو على المنبر ـ يقول: «وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة» ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي(٣).

وهدد ﷺ من تعلم الرمي فتركه، فكان لذلك أثره في استمرار أصحابه على التدرب على الرمي حتى كبار السن الذين يشق عليهم التدريب والحركة، عن عبد الرحمن بن شماسة إن فقيما اللخمي قال لعقبة بن عامر تختلف بين

(١) النحل: ٥/٨.
(٢) البخاري رقم ٢٧٨٨ فتح الباري (١٠/٦) ومسلم (١٥١٨/٣).
(٣) البخاري رقم ٢٧٨٨ فتح الباري (١٠/٦) ومسلم (١٥١٨/٣).

هذين الغرضين وأنت كبير يشق عليك، قال عقبة: لولا كلام سمعته عن رسول الله ﷺ لم أعانيه، قال الحارث فقلت لابن شماسة وما ذاك قال: أنه قال: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى»[١].

ويلزم من هذا تعاهد الرمي وغيره من أنواع التدريب، وهو شبيه بالأمر بتعاهد القرآن بالحفظ وذم من فرط في حفظه ولا غرو فالكتاب والحديد هما قوام الإسلام ولا بقاء له مهيمناً بدونهما[٢].

وقوله ﷺ: «ألا إن القوة الرمي» تنبيه منه على خطر الرمي وكونه أهم من غيره في كل عصر وقد ظهرت أخطاره في هذا العصر، وليس المراد حصر القوة فيه، بل هو من باب قوله ﷺ: «الحج عرفة» ونحوه فلم يقصد حصر الحج في عرفة وإنما بيان أنه الركن الأهم. والرمي عمدة فرق الجيوش البرية والبحرية والجوية.

وكان ﷺ يشجع أصحابه على الرمي ويحضهم على مواصلة التدرب عليه والتنافس فيه، ففي صحيح البخاري من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: «ارموا بني اسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان، قال فامسك أحد الفريقين بأيديهم فقال رسول الله ﷺ: ما لكم لا ترمون قالوا: كيف نرمي وأنت معهم، فقال النبي ﷺ: ارموا فأنا معكم كلكم»[٣]، وسبق قريباً قول سلمة بن الأكوع العداء: وكنت رامياً.

واستعمل الرسول ﷺ وأصحابه السيف كما في حديث أنس رضي الله عنه كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عري وفي عنقه السيف وهو يقول: لم تراعوا لم تراعوا ثم قال: «وجدناه بحراً أو قال إنه لبحر»[٤].

---

(١) مسلم (١٥٢٢/٣).
(٢) يراجع كتاب اللؤلؤ والمرجان (١٥١/١).
(٣) رقم الحديث ٢٨٩٩، فتح الباري (٩١/٦).
(٤) البخاري رقم ٢٩١٨ فتح الباري (٩٥/٦).

وقال أبو أمامة: (لقد فتح الفتوح قوم ما كانت حلية سيوفهم الذهب ولا الفضة، إنما كانت حليتهم العلابيّ والآنك)[(١)]. واستعمل أصحابه الخناجر كما في حديث أنس قال جاء أبو طلحة يوم حنين يضحك رسول الله ﷺ من أم سليم قال يا رسول الله ألم تـر إلى أم سليم معها خنجر فقال لها رسول الله ﷺ: «ما تصنعين به يا أم سليم؟ قالت أردت إن دنا منّي أحد طعنته به»[(٢)].

وكان أصحابه يتدربون على الحراب في مسجده ﷺ كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (رأيت رسول الله ﷺ يوماً على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد ورسول الله ﷺ يسترني بردائه أنظر إلى لعبهم) وفي رواية: «يلعبون بحرابهم»[(٣)].

ولما أراد عمر رضي الله عنه منعهم قال له النبي ﷺ: «دَعْهم يا عمر»[(٤)] قال الحافظ: (واللعب بالحراب ليس لعباً مجرداً بل فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو، وقال المهلب: المسجد موضوع لأمر جماعة المسلمين فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه)[(٥)]. أين هذا المعنى الذي فهمه سلفنا الصالح لوضع المسجد وما يحاول كثير من الناس وضعه لإقامة الصلاة والذكر في أوقات معينة فقط وكأنه أصبح لا فرق بينه وبين الكنيسة إلا أنه يفتح في اليوم والليلة خمس مرات وتقام فيه الصلوات المشروعة أما الكنيسة فتفتح يوماً واحداً في الاسبوع والعبادات التي تقام فيها ليست مشروعة.

واستعملوا الرماح كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان ببعض طريق مكة مع أصحاب له محرمين وهو غير محرم فرأى حماراً وحشياً فاستوى على فرسه فسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا

---

(١) البخاري رقم ٢٩٠٩ فتح الباري (٩٥/٦).
(٢) المسند للإمام أحمد (١١٢/٣).
(٣) البخاري رقم ٤٥٤، ٤٥٥ فتح الباري (٥٤٩/١).
(٤) البخاري رقم ٢٩٠١ فتح الباري (٩٢/٦).
(٥) الفتح (٥٤٩/١).

فسألهم رمحه فأبوا فأخذه ثم شد على الحمار فقتله. . .[١] وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم»[٢].

واستعمل الرسول ﷺ وأصحابه كل أنواع الوقاية في المعارك المجن أو الترس، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان أبو طلحة يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد. . .)[٣] وكذلك استعملوا الدرق كما في حديث عائشة، وفيه (وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب)[٤] كما استعملوا البيضة وقد هشمت على رأس رسول الله ﷺ يوم أحد[٥] واستعملوا الدروع كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ وهو في قبة: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله فقد ألحت على ربك، وهو في الدرع فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولّون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر»[٦].

وإذا كان الرسول ﷺ وأصحابه قد استعملوا كل ما وجدوه في عصرهم من السلاح وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[٧] الآية فإن الواجب على المسلمين في كل عصر استعمال كل ما يوجد في عصرهم مما يقدرون على استعماله سواء ما صنعوه بأنفسهم أو ما غنموه من عدوهم، أو ما حصلوا عليه بالشراء: يدخل في ذلك الأسلحة الثقيلة والخفيفة الجوية والبرية والبحرية، الهجومية والدفاعية لا

---

(١) البخاري رقم ٢٩١٤ فتح الباري (٦/٩٨).
(٢) مسند الإمام أحمد (٢/٥٠).
(٣) البخاري رقم ٢٩٠٢، فتح الباري (٦/٩٣).
(٤) البخاري رقم ٢٩٠٧، فتح الباري (٦/٩٣).
(٥) انظر صحيح البخاري رقم ٢٩١١، فتح الباري (٦/٩٦).
(٦) البخاري رقم ٢٩١٥، فتح الباري (٦/٩٩).
(٧) الأنفال: ٦٠.

يبقى أي نوع من أنواع السلاح غير داخل في كونه فرضاً على المجاهدين المسلمين التدرب عليه تدرباً عالياً مستمراً حتى لا يتفوق عليهم عدوهم.

وكل نوع من أنواع الأسلحة يتعين حيث لا يغني عنه غيره أو يكون هو الأفضل من غيره، قال ابن تيمية رحمه الله: (وهذه الأعمال كل منها له محل يليق به هو أفضل فيه من غيره فالسيف عند مواصلة العدو، والطعن عند مقاربته، والرمي عند بعده، أو عند الحائل كالنهر والحصن ونحو ذلك، فكل ما كان أنكى في العدو وأنفع للمسلمين فهو أفضل. وهذا يختلف باختلاف أحوال العدو وباختلاف حال المجاهدين في العدو. ومنه ما يكون الرمي فيه أنفع ومنه ما يكون الطعن فيه أنفع وهذا مما يعلمه المقاتلون)[١].

الفرع الخامس
استمرار تدريب المجاهدين

ولا يليق بالمسلمين أن ينقطعوا عن التدرب على الجهاد ووسائله من تقوية أجسامهم بالمشي والعدو وجميع أنواع الرياضة البدنية النافعة المقصود بها طاعة الله سبحانه، وركوب الخيل وما شابهه وقيادة السيارات والطائرات والسفن ونحوها، والرمي بالبنادق والمدافع والقنابل ونحوها والتمرين على كيفية الضرب بالسيوف والطعن بالخناجر وما شابه ذلك كل ذلك وغيره ينبغي ألا يغفل المسلمون عنه ليكونوا على استعداد دائم للجهاد في سبيل الله، لأن أعداءهم من الكفار من الشيوعيين واليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم لا يهدؤون ولا يفترون عن التدرب والاستعداد لمحاربة المسلمين، والمسلم أولى بالاستعداد، لأنه صاحب حق والله سبحانه يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: (يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله)[٣].

---

(١) الفتاوي (٢٨/١٢).
(٢) النساء: ٧٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٥٢٤).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم من استعمال الحصون والخنادق وتعلم الرمي والركوب وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم والنفير في سبيل الله)(١).

وقال الأستاذ الإمام ـ محمد عبده ـ: (ويدخل في ذلك الاستعداد والحذر معرفة الأسلحة واتخاذها واستعمالها)(٢).

وأخذ الحذر واجب على المسلمين في كل وقت والتدريب المستمر يدخل في ذلك لأن ترك التدريب فيه غفلة وتراخ عن الاستعداد للعدو، والتدريب والتدرب ينبهان المسلم لكيد عدوه المتربص به ويبقيان الروح الجهادية مشتعلة في قلبه.

ولذلك قال ﷺ محذراً من انقطاع التدريب والتدرب: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا» وقد مضى قريباً(٣).

ومما يوضح حرص الرسول ﷺ على استمرار استعداد أمته للجهاد بجميع وسائله، ومنها التدريب والتدرب ـ قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق)(٤).

قال النووي رحمه الله (والمراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف، فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق)(٥).

والأمة التي تترك الجهاد مع أعدائها حالة الحرب، أو الاستعداد له بالتدرب والأخذ بأسبابه حالة السلم لا بد أن تخلد إلى الأرض ويصبح هدفها التنافس في المال ومتع الحياة الدنيا وفي ذلك هلاكها وسيطرة عدوها عليها، ففي حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتنزلنَّ طائفة من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٤٦).
(٢) تفسير المنار (٥/٢٥١).
(٣) انظر ص ٤٦١.
(٤) مسلم (٣/١٥١٧).
(٥) شرح النووي على مسلم (١٣/٥٦).

أمتي أرضاً يقال لها البصرة، يكثر بها عددهم ويكثر بها نخلهم، ثم يجيء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار العيون حتى ينزلوا على جسر لهم يقال له دجلة، فيتفرق المسلمون ثلاث فرق، فأما فرقة فيأخذون بأذناب الإبل وتلحق بالبادية وهلكت، وأما فرقة فتأخذ على أنفسها فكفرت فهذه وتلك سواء، وأما فرقة فيجعلون عيالهم خلف ظهورهم ويقاتلون، فقتلاهم شهداء ويفتح الله على بقيتها»[١].

وفي حدث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»)[٢].

وخير الأمم هي الأمة الإسلامية التي لا يلهيها عن سلاحها متاع ولا جاه ولا غرور، بخلاف تلك الأمة الضائعة التي تلهو بمتع الحياة الدنيا وزخرفها وتغفل عن مكائد عدوها فيذيقها الله ذلك الذل الذي لا يرفعه عنها إلا بعودتها إلى دينها تنصره وتجاهد لإعلاء كلمته ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم جلوس فقال: «ألا أحدثكم بخير الناس منزلة» فقالوا بلى يا رسول الله قال: «رجل ممسك برأس فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يقتل أفأخبركم بالذي يليه» قالوا: نعم، قال: «امرؤ معتزل في شعب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل شرور الناس»[٣].

وحذر النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم من التوقف عن التدريب بعد أن يفتح الله عليهم اغتراراً بالنصر، فقال: «ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه»[٤].

وفقه ذلك عنه خلفاؤه الراشدون فكانوا يأمرون باستمرار التدريب كما أمر عمر رضي الله عنه أبا عبيدة بن الجراح: (أن علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم ـ يعني كباركم ـ الرمي)[٥].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/٤٥).
(٢) سنن أبي داود (٣/٧٤٠).
(٣) مسند الإمام أحمد (١/٢٣٧).
(٤) مسلم (٣/١٥٢٢).
(٥) مسند الإمام أحمد (١/٤٦).

ويجب أن يحيط المسلمون المجاهدون بكل الوسائل والأساليب القتالية المستحدثة سواء استحدثت من قبلهم أم من قبل عدوهم، لأن عدم الإلمام بالوسائل المستحدثة يكون سبباً في الأخذ على غرة، والابتكار والأخذ بالوسيلة المستحدثة يكون سبباً في مفاجأة العدو بما لم يكن في الحسبان: إما بالهجوم عليه بشيء جديد عليه، وإما بإبطال خططه والقضاء عليها، وفي كل ذلك ما يربكه ويحدث له الاضطراب.

وقد اتخذ الرسول ﷺ أسلوباً جديداً في قتال المشركين في معركة بدر الكبرى هو أسلوب الصف الذي أثنى الله عليه بقوله: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[1]. فكان من أسباب النصر التي وفق الله رسوله ﷺ لتعاطيها.

قال محمود شيت خطاب: (أما في المعركة فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكر والفر، ولا بد لنا من بيان الفرق بين الأسلوبين لمعرفة عامل من أهم عوامل انتصار المسلمين. القتال بأسلوب الكر والفر هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو: النشابة[2] منهم والذين يقاتلون بالسيوف ويطعنون بالرماح، مشاة وفرساناً فإن صمد لهم العدو وأحسوا بالضعف نكصوا ثم أعادوا تنظيمهم وكروا وهكذا يكرون ويفرون حتى يكتب لهم النصر أو الفشل.

والقتال بأسلوب الصفوف يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة أو أكثر على حسب عددهم، وتكون الصفوف الأمامية من المسلحين بالرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من المسلحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الأعداء. وتبقى الصفوف في مواضعها بسيطرة قائدها إلى أن يفقد زخم المهاجمين بالكر والفر شدته عند ذلك تتقدم الصفوف متعاقبة للزحف على العدو، يظهر من ذلك أن أسلوب الصفوف يمتاز على أسلوب الكر والفر بأنه يؤمن الترتيب بالعمق فتبقى دائماً بيد القائد قوة احتياطية

(١) الصف: ٤.

(٢) النشابة، بفتح النون والشين المشددتين، هم الذين يرمون بالنُّشاب ـ بضم النون وفتح الشين المشددتين ـ أي السهام. راجع المادة في اللسان.

يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان، كأن يصد هجوماً مقابلاً للعدو أو يضرب كميناً لم يتوقعه أو أن يحمي الأجنحة التي يهددها العدو بفرسانه أو بمشاته، ثم يستثمر الفوز بالاحتياط من الصفوف الخلفية عند الحاجة، إن أسلوب الصفوف يؤمن السيطرة على القوة بكاملها، ويؤمن احتياطاً للطوارىء ويصلح للدفاع والهجوم في وقت واحد، أما أسلوب الكر والفر فيجعل القائد يفقد السيطرة ولا يؤمن له أي احتياط للطوارىء.

إن تطبيق الرسول ﷺ لأسلوب الصفوف في معركة بدر عامل مهم من عوامل انتصاره على المشركين)[١].

وفي غزوة الأحزاب فاجأ الرسول ﷺ المشركين بحفر الخندق الذي لم تكن العرب تعرفه قبل ذلك وكلف عليه الصلاة والسلام أصحابه حفره وكان يحفر معهم بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه كما في الفتح: (وكان الذي أشار بذلك سلمان الفارسي فيما ذكر أصحاب المغازي، منهم أبو معشر قال: قال سلمان للنبي ﷺ إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة)[٢].

وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا[٣] فقال رسول الله ﷺ: «اللهَّم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار»[٤].

وقال محمود شيت خطاب: (لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف القتال المناسب للتغلب على مثل هذا الوقف، لذلك بقي القتال مستكناً طول مدة الحصار عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخندق باءت بالفشل)[٥].

---

(١) الرسول القائد للواء الركن محمود شيث خطاب (ص ١٠٤ ـ ١٠٥).
(٢) فتح الباري (٧/٤٩٢).
(٣) جمع كتد، وهو مجتمع الكتفين، راجع المادة في اللسان.
(٤) البخاري رقم ٤٠٩٨ فتح الباري (٧/ ٣٩٢ ـ ٤٩٢).
(٥) الرسول القائد ص ٢٢٥.

الفرع السادس

التدريب على حرب الكمائن أو الفدائيين

ومن الأساليب الضرورية التي يجب تدريب المجاهدين عليها أساليب الحروب الخاطفة السريعة التي يقصد منها تحقيق هدف معين ينزل بالعدو الضرر الذي يزلزله ويحطم قوته في أسرع وقت ويكون الضرر الـذي قد يحـدث للمجاهدين أقل. وقد درب الرسول ﷺ على هذا الأسلوب أصحابه كما في قصة قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود التي رواها جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله» فقام محمد بن مسلمة فقال يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم» قال: فَأْذَنْ لي أن أقول شيئاً قال: «قل» فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وأنه قد عنانا، وإني قد أتيتك استبلغك قال: وأيضاً والله لَتَمُلُّنَّه قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين، فقال: نعم إرهنوني قال: أي شيء تريد قال: إرهنوني نساءكم، قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنوني أبناءكم قالوا: كيف نرهنك أبناءها فيسب أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة (يعني السلاح).

فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت: له إمرأته أين تخرج هذه الساعة فقال: إنما هو محمد ابن مسلمة وأخى أبو نائلة، قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم قال: إنما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه وقال: مرة ثم أشمكم فنزل إليهم متوشحاً وهو ينضح منه ريح الطيب فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً أي أطيب قال: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب، فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال:

أتأذن لي قال: نعم، فلما استمكن منه قال: دونكم فقتلوه ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه)(١).

ومثل قصة كعب بن الأشرف قصة أبي رافع عبدالله بن أبي الحقيق اليهودي الذي قتله عبدالله بن عتيك رضي الله عنه(٢).

قال الحافظ: (وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه وجواز التجسس على أهل الحرب وتَطَلُّب غرتهم والأخذ بالشدة في محاربة المشركين وجواز إبهام القول للمصلحة وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت الناعي بموته والله أعلم)(٣).

ولو أن المسلمين استمروا في التدريب والتدرب وواصلوا الجهاد في سبيل الله وأخذوا بكل وسيلة مستحدثة من وسائل الجهاد المأذون فيها شرعاً لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الذل والمهانة.

ولو أنهم أعدوا فرقاً جهادية مدربة تدريباً عسكرياً عالياً مبنياً على الإيمان الكامل والطاعة لله ولرسوله ﷺ للقضاء على رؤوس الفتنة والضلال الذين يهددون شعوبهم بالقضاء على دينهم وأخلاقهم وباغتصاب أموالهم وانتهاك أعراضهم لاستطاعوا بذلك أن يرهبوا أعداء الله في كل مكان ولأخضعوهم لحكم الله كما أخضع السلف الصالح أعداءهم بذلك الإيمان العميق وذلك التدريب المتواصل وذلك الجهاد الذي أعلى راية الإسلام وحطم أعمدة رايات الكفر والضلال في كل مكان ولقد بدت طلائع الإسلام في جميع الشعوب الإسلامية تبشر بخير وظهرت دلائل الوعي الإسلامي والإقبال إلى الله تنذر أهل الكفر بالدمار والمسلمون الآن في النصف الأخير من آخر عام يختم به القرن الرابع عشر الهجري ينتظرون بزوغ فجر أذان الجهاد وداعي النفير وعسى الله أن

(١) البخاري رقم ٤٠٣٧، فتح الباري (٣٣٦/٧) ومسلم (١٤٢٥/٣).
(٢) راجع صحيح البخاري رقم ٤٠٤٠/٤٠٣٩ فتح الباري (٣٤٠/٧).
(٣) فتح الباري (٣٤٥/٧).

يأتي به وأنه لقريب بإذنه وتوفيقه: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تُنجيكم من عذابٍ أليم تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبَكم ويدخلْكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبةً في جنات عَدْن ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشِّر المؤمنين﴾(١).

فعلى الأمة الإسلامية أن تحشد طاقاتها بالعدد والعدد لتحقق هذه التجارة وتمتثل أمر الله تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، تُرهبون به عدوَّ الله وعدوكم﴾(٢).

قال الشيخ عبدالله غوشة: (وجوب حشد طاقات الأمة وكل ما تستطيع من قوة لقتال أعدائها فيدخل في ذلك العدد الكافي من المقاتلين ويدخل فيه السلاح بجميع أنواعه.

أما عدد المقاتلة فالواجب على كل مكلف في الأمة قادر على القتال أن يستعد للقتال وأن يعد نفسه ليكون جندياً يدافع عن العقيدة والوطن والأمة لأن القتال قد يكون فرضاً عينياً في بعض الأحوال يستدعي ما يسمى بالنفير العام كما هو الحال اليوم.

وأما السلاح فإنه يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال ولئن كان السيف والرمح كافيين في القتال فيما مضى فقد كثرت أجناس السلاح وأنواعه وأصنافه في هذا الزمان فمنه البري والبحري والجوي ولكل منها مراكبه وسفائنه وطائراته وحاملاته التي تنقل الجنود والعتاد والزاد والسلاح وغير ذلك مما يدخل في قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم﴾)(٣).

(١) الصف: ١٠/١٣.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) الجهاد طريق النصر ص ١٧٥.

الفرع السابع
استغلال جميع الطاقات في إعدادها لخوض المعركة ضد العدو

ويجب أن يشمل التدريب بحده الأدنى وهو ما يتمكن به كل فرد من أفراد المسلمين من إجابة الداعي للنفير العام، أو ما يقدر به على الدفاع عن نفسه إذا هجم العدو على بلاده لفتنته عن دينه أو انتهاك عرضه أو أخذ ماله أو احتلال أرضه، وبحده الأعلى وهو تدريب من إذا قاموا بالجهاد في سبيل الله كفى عددهم سواء كان ذلك في الدفاع عن بلاد المسلمين في داخل بلادهم وعلى حدودها أو كان لغزو بلاد الكفار المحاربين لحماية الدعوة وإنقاذ المستضعفين ولقد استغل الرسول ﷺ كل الطاقات في عهده فكان الصحابة كلهم مستعدين للجهاد كل في حدود طاقته، ولذلك كان ﷺ تارة يدعو أصحابه كلهم لخوض المعركة كما فعل في تبوك حيث لم يعذر كبيراً مسناً مثل هلال بن أمية الذي قالت عنه زوجته ـ وقد استأذنت رسول الله ﷺ في أن تبقى عنده لخدمته فقال لها الرسول ﷺ: «ولكن لا يقربنك» فقالت: (أنه والله ما به من حركة إلى شيء)[١]. وكذلك كان الأمر قبل ذلك في غزوة أحد، إذ حضر الغزوة الرجال، ومنهم الشيوخ كبار السن مثل عمرو بن الجموح[٢]، ومنهم صغار السن مثل: سمرة بن جندب، ورافع بن خديج[٣]، ومنهم النساء، كعائشة، وأم سليم[٤]، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ[٥].

وكان منهم المقاتل ومنهم الممد بالسلاح، ومنهم من يقوم بنقل الجرحى ومداواتهم، وسقي المجاهدين، وهكذا يجب أن يعد جميع المسلمين القادرين إعداداً يجعلهم في وقت المعركة مع العدو كلهم قائمين بجهاده كل في حدود طاقته وما يليق به.

(١) البخاري رقم ٤٤١٨، فتح الباري (١١٣/٨) ومسلم (٢١٢٠/٤) توبة كعب بن مالك.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٩٠/٢).
(٣) نفس المصدر (٦٦/٢).
(٤) البخاري رقم ٢٨١١، فتح الباري (١٢٨/٧) ومسلم (١٤٤٢/٣).
(٥) البخاري رقم ٤٠٧٥ فتح الباري (٣٧٢/٧) ومسلم (١٤٤٣/٣).

ولقد تشعبت في هذا العصر وسائل الجهاد وأساليبه تشعباً يؤكد شمول التدريب لكل قادر في الشعوب الإسلامية على المعنى الذي يليق به ويحسن عمله حتى لا يبقى أحد قادر على أي فرع من فروع الجهاد إلا أخذ نصيبه في التدريب عليه.

ويزداد تأكيد هذا الشمول عندما يرى المسلمون أعداءهم الكافرين بجميع أصنافهم: شيوعيين ونصارى، ويهود، ووثنيين قد أحرزوا في كل المجالات العسكرية المباشرة وغير المباشرة وغير العسكرية ما صاروا به آمرين ناهين لحكام الشعوب الإسلامية المستعبدة - وإن ظهر أنها تحررت عسكرياً - لأولئك الأعداء.

وليقارن المسلم بين ما يراه من إنغماس حكام الشعوب الإسلامية وقادتها السياسيين والعسكريين في الشهوات والملذات وبين ما ينادي به فلاسفة الغرب وينصحون به حكامهم قبل البعثة النبوية بنصف قرن من الزمان ولا زالت تلك النصائح تسري في عروقهم على الرغم من أن المسلمين على حق وهم على باطل: (فعلى الأمير تبعاً لذلك ألا يسمح لأفكاره بأن تذهب بعيداً عن مراس الحرب وعليه في أيام السلم أن يكون أكثر اهتماماً بها من أيام الحرب وهذا ما يستطيعه بواسطة أحد سبيلين هما العمل والدراسة، فمن ناحية العمل يتوجب عليه بالإضافة إلى الإبقاء على جنوده في حالة من التدريب والنظام أن يشغل وقته باستمرار في الصيد وأن يعود جسمه المشاق وأن يدرس في غضون ذلك طبيعة البلاد)[١].

---

(١) كتاب الأمير لمكيا فللي ص ١٠٨.

المبحث الثاني

الجهاد بالأنفس والأموال

وفيه فرعان:

الفرع الأول: الحض على التضحية بالأنفس والأموال
الفرع الثاني: ضرورة توافر المال للجهاد في سبيل الله.

الفرع الأول
الحض على التضحية بالأنفس والأموال

الأموال والأنفس قرينان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في سياق الجهاد في سبيل الله، فهما ركنان لا يغني أحدهما عن الآخر، إذ لو وجد المجاهد المسلم المدرب على جميع وسائل الحرب بدون مال لا يستطيع أن يخوض معارك الجهاد ضد الأعداء، لأنه يحتاج إلى نفقات لأكله وشربه ولباسه وسلاحه وما يحمله ويحمل عدته ونفقات أهله الذين يخلفهم. فكيف يكون مجاهداً بدون مال؟ ولو وجد المال الوفير الذي به توجد الأسلحة والكفاية وغيرها بدون نفوس مسلمة معدة للقتال تواقة إلى الجهاد في سبيل الله لنيل إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة فماذا عسى أن يفعل ذلك المال بدون رجال؟.

لذلك كثر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ الجمع بين المال والأنفس، لأن الجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا بهما.

والنفس خلق الله وملكه، والمال خلق الله ورزقه وملكه والخالق المالك يتصرف في خلقه وملكه كما يشاء وعلى العبد المخلوق المملوك أن ينفذ أمر الخالق

المالك وبذلك يكون محققاً عبوديته لربه وتقواه له وقد خلقه ليبتليه أيشكر أم يكفر، قال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنا خلقنا الإنسان من نُطْفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾(١) وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً﴾(٢).

والذي يرزق عبده ما يشاء من المال تفضلاً منه وكرماً ومناً له أن يأمر عبده بإنفاق ذلك المال أو بعضه فيما يراه، وقد ابتلى الله عبده بماله كما ابتلاه بخلقه، ولا نجاح له في الدنيا والآخرة إلا بالفوز في ذلك الابتلاء. ومن رحمته تعالى بهذا العبد وإحسانه إليه أنه لم يطلب منه إنفاق كل ماله وإنما طلب منه بعضه، قال تعالى: ﴿ألم ذلك الكتاب لا رَيْبَ فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون﴾(٣) وقال سبحانه: ﴿إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولَهْوٌ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم، ولا يسألكم أموالكم. إن يسألكموها فيُحْفِكُم تبخلوا ويُخْرِجْ أضغانَكم﴾(٤).

ومن فضله سبحانه على عباده المؤمنين أنه ـ وهو خالقهم ومالكهم وخالق أموالهم ومالكها ورازقهم إياها ـ قد عقد صفقة معهم هم فيها البائعون وهو سبحانه المشتري والمبيع هو نفوسهم وأموالهم والثمن هو الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ينالونها ببذل نفوسهم وأموالهم تلك في سبيل الله مقاتلين أعداء الله يقتلونهم تارة ويقتلون أخرى، وهذه الصفقة ثابتة بين الله وبين عباده المؤمنين في كل جيل وفي عهد كل رسول سجلها الله في كتبه المنزلة التي ختمها بالقران العظيم، وهو سبحانه أصدق قيلاً وأوفى عهداً لأنه على كل شيء قدير فمن يرضى لنفسه أن تشذ عن هذه الصفقة وهذا العقد وهذا الثمن الذي بشر الله به البائعين في محكم كتابه: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله

---

(١) الإنسان: ١/٣.
(٢) النساء: ١.
(٣) البقرة: ١/٣.
(٤) محمد: ٣٦ ـ ٣٧.

فيَقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببَيْعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾(١).

والأمة التي تبذل أنفس أبنائها وأموالهم في سبيل الله أمة ناجحة لأنها تملك ـ مع إيمانها وقوة صلتها بربها ـ ركني البقاء في الأرض بقاء يحقق السعادة لها ولغيرها، ويمكنها من قيادة البشرية التي تفقد ذلك،هذان الركنان، هما صفة الشجاعة والكرم، الشجاعة التي من أهم علاماتها تقديم النفس التي عقد مع الله بيعها له سبحانه لإعلاء كلمته في الكون، والكرم الذي من أبرز علاماته بذل المال في سبيل الله.

والأمة التي تفقد هذين الركنين الأساسين أمة لا تستحق البقاء في الأرض بل تستحق الفناء والإضمحلال وأن يستبدل الله غيرها بها، لأن فقد هذين الركنين سببه وجود ضدهما وهما البخل والجبن وهما الـداءان القاتلان للأفراد والأمم وقتلهما للأمم أشد من قتلهما للأفراد، لأن الفرد أو الأفراد الذين يتصفون بهما في أمة يغلب فيها الكرم والشجاعة يمكن علاج الداء القليل الموجود فيهم بالدواء الكثير الموجود في أمتهم بخلاف ما إذا كان الداء غالباً في الأمة فإن علاجه عسير.

قال ابن تيمية رحمه الله: (والبخل جنس تحته أنواع: كبائر وغير كبائر قال تعالى: ﴿ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم، سيُطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾(٢) وقال: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً﴾ إلى قوله: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾(٣)... وقال: ﴿والـذين يكنِزُون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذابٍ أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾(٤) الآية. وما في القرآن مـن الأمر بالإيتاء والإعطاء وذم من ترك ذلك كله ذم للبخل. وكذلك ذمه للجبن كثير مثل قوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو

(١) التوبة: ١١١.
(٢) آل عمران: ١٨٠.
(٣) النساء: ٣٧.
(٤) سورة التوبة: ٣٤.

متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[١] وقوله عن المنافقين: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون﴾[٢].

وما في القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه وذم الناكلين عنه والتاركين له كله ذم للجبن. ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم بين سبحانه أن من تولى عن الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلّا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[٤]. وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل السابقين فقال: ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾[٥]، وقد ذكر الله الجهاد بالنفس والمال في سبيله ومدحه في غير آية من كتابه وذلك هو الشجاعة والسماحة في طاعته سبحانه فقال: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[٦] وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾)[٧].

والنصوص الواردة في الجهاد بالمال والنفس لا تحصى كثرة، مع ذم من بخل أو جبن، قال تعالى: ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استئذنك أولو الطَّوْل منهم وقالوا: ذرنا نكن مع القاعدين، رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون. لكن الرسول والذين آمنوا معه

---

(١) الأنفال: ١٦.
(٢) التوبة: ٥٦/٥٧).
(٣) التوبة: (٣٨/٣٩).
(٤) محمد: ٣٨.
(٥) الحديد: ١٠.
(٦) البقرة: ٢٤٩.
(٧) الأنفال: (٤٥/٤٦).الفتاوى (١٥٨/٢٨).

جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيـرات وأولئك هم المفلحون، أعدَّ الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾(١) وقال تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾(٢).

وليس من صفات المؤمنين الصادقين أن ينتحلوا المعاذير للتأخر عن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وإنما يفعل ذلك من فقد الإيمان بالله فزالت خشيته من قلبه، وفقد الإيمان باليوم الآخر فلم يطمع في ثواب الله ورضوانه ولم يخف من جهنم التي أعدها الله لأمثاله قال تعالى: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليمٌ بالمتقين، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يتردَّدون﴾(٣).

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أي الناس أفضل فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله» قالوا: ثم من قال: «مؤمن في شِعْب من الشِعّاب يتقي الله ويدع الناس من شره»(٤).

ويكفي المنفق ماله في سبيل الله أن الملأ الأعلى يدعون له بالمزيد من الخير كلما أنفق، بخلاف البخيل الممسك فإنهم يدعون عليه بالهلاك كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العبد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم اعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكاً تلفاً»(٥).

وحذَّر رسول الله ﷺ من الجبن والبخل أشد التحذير كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شرُّ ما في الرجل شحٌ هالع وجبن خالع»(٦).

---

(١) التوبة: ٨٦/٨٩.
(٢) التوبة: ٤١.
(٣) التوبة: ٤٤/٤٥.
(٤) البخاري رقم ٢٧٨٦ فتح الباري (٦/٦) ومسلم (١٥٠٣/٣).
(٥) البخاري رقم ١٤٤٢ فتح الباري (٣٠٤/٣) ومسلم (٧٠٠/٢).
(٦) أبو داود (٢٦/٣).

ولقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ أن الهلاك محقق في هاتين الصفتين اللتين تقعدان من اتصف بهما عن الجهاد في سبيل الله، كما جاء عن أسلم بن أبي عمران قال: غزونا من المدينة والروم قد لصقوا ظهورهم بحائط المدينة فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه مه لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال: أبو أيوب إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام قلنا هلم نقيم في أموالنا ونصلحها فأنزل الله تعالى: ﴿وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد (قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية)[1].

وبين رسول الله ﷺ أن الجهاد بالمال والنفس الذي يقتل صاحبه في سبيل الله لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة، وإذا كان كثير الخطايا محا الله بجهاده خطاياه ما لم يكن منافقاً، كما في حديث عتبة بن عبد السلمي أن رسول الله ﷺ قال: «القتلى ثلاثة رجال: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى يقتل، ذلك الشهيد الممتحن في خيمة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة. ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقى العدو قاتل حتى يقتل فتلك مصمصة[2] محت ذنوبه وخطاياه، إن السيف محاء للخطايا وأدخل من أي أبواب الجنة شاء فإن لها ثمانية أبواب ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أسفل من بعض ورجل منافق جاهد بنفسه وماله في سبيل الله (أي في ظاهر الأمر) حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل فذلك في النار إن السيف لا يمحو النفاق)[3].

ولقد أكثر ﷺ من ترغيب أصحابه ـ وأمته ـ في بذل نفوسهم وأموالهم في سبيل الله موضحاً لهم جزيل ثواب الله لهم، الذي لا يحرمه إلا الجبناء البخلاء

---

(١) أبو داود (٣/٢٧). الآية من سورة البقرة: ١٩٥.

(٢) مطهرة من دنس الخطايا.

(٣) الجهاد لابن المبارك قال المحقق: وأخرجه الدارمي (٢/٢٠٦) والطيالسي (١/٢٣٤) وابن حبا (موارد الظمآن ص ٣٨٨، والبيهقي (٩/١٦٤) ومن طريق المصنف... وأخرجه أحمد والطبراني عن عتبة ابن عبد السلمي مرفوعاً قال الهيثمي (٥/٢٩١): ورجال أحمد رجال الصحيح إلا أبا المثنى الأملوكي وهو ثقه.

وفي ذلك أعظم خسارة لهم في الدنيا والآخرة، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل»(١) وحضَّ ﷺ أمته على المشاركة في الجهاد في سبيل الله ـ إن لم يكن بالخروج المباشر بالنفس والمال وبتجهيز الغزاة بما يملك من مال فبأن يخلفهم في أهلهم بخير حتى لا يبقى مؤمن بعيداً عن الإسهام في هذا الفضل العظيم كما في حديث زيد ابن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا»(٢).

ولقد أثرت تلك التوجيهات النبوية في أصحابه رضوان الله عليهم فما كانوا يتحملون البقاء في بيوتهم وقت الغزو بين العجائز والمعذورين عذراً مقعداً أو المنافقين قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: كان علي رضي الله عنه تخلف عن النبي ﷺ في خيبر وكان به رمد فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟ فخرج علي فلحق بالنبي ﷺ فلما كان مساء الليلة التي فتحها في صباحها فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية أو قال: ليأخذن الراية غدا رجل يحبه الله ورسوله أو قال يحب الله ورسوله يفتح الله عليه، فإذا نحن بعلي، وما نرجوه، فقالوا هذا علي فأعطاه رسول الله ﷺ ففتح الله عليه»(٣).

وكان الذي يصاب بالضعف البشري فيتأخر عن رسول الله ﷺ يشعر بأن عمله غير لائق بالمؤمنين ـ غير العاجزين ـ وإن ذلك إنما هو من صفات المنافقين فيندم ويتوب ثم لا يعود كما في قصة كعب بن مالك رضي الله عنه عندما تخلف عن غزوة تبوك حيث قال: (فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول

(١) البخاري رقم ٣٦ فتح الباري (١/٩٢) ومسلم (٣/١٤٩٥).
(٢) البخاري رقم ٢٨٤٣ فتح الباري (٦/٤٩) ومسلم (٣/١٥٠٧).
(٣) البخاري رقم ٢٩٧٥ فتح الباري (٦/١٢٦) ومسلم (٤/١٨٨٢).

الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء)[١].

ولقد كانوا رضي الله عنهم إذا غلبهم العدو في معركة من المعارك التي لا طاقة لهم بها لكثرة عدد عدوهم وعدده وقلتهم، كما حصل في غزوة مؤتة لا يسقط قائد إلا تسلم الراية منه من يليه حتى ينصرهم الله، ففي حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[٢].

وتتابعت قوافلهم رضي الله عنهم نحو الشهادة لرفع راية الإسلام، وأصغ لما قاله قتادة وأنس رضي الله عنهما في الأنصار، قال قتادة: (ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أغر يوم القيامة من الأنصار، قال قتادة وحدثنا أنس ابن مالك أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون)[٣].

وكان تيار الإيمان والتربية النبوية تسري في عروق غلمان المسلمين الأحداث فلا يقنع الواحد منهم في المعركة بما دون رأس قائد الكفر الذي يحيط به جنده من كل مكان دون أن يهاب ذلك الغلام أو يتردد حتى ليعجب من شجاعته وإقدامه كبار الصحابة رضي الله عنهم، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: إني لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانها فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما، فقال: أي عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم فما حاجتك إليه يا ابن أخي قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، قال: فتعجبت

---

(١) البخاري رقم ٤٤١٨ فتح الباري (٨/١١٣) ومسلم (٤/٢١٢٠).
(٢) البخاري رقم ٣٧٥٧ فتح الباري (٧/١٠٠).
(٣) البخاري رقم ٤٠٧٨ فتح الباري (٧/٣٧٤).

لذلك قال: وغمزني الآخر فقال: لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت ألا تريان صاحبكما الذي تسألاني عنه قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فاخبراه فقال: أيكما قتله، فقال: كل واحد منهما أنا قتلته، فقال: هل مسحتما سيفيكما قالا: لا فنظر رسول الله ﷺ في السفين فقال: «كلاكما قتله». وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء(١).

وكان أشداء أصحابه رضي الله عنهم في وقت الشدة يقدمون نحورهم للموت دون نحره ﷺ، وكان حب الجهاد في سبيل الله يُخرج النساء من بيوتهن ليقمن بما يقدرن عليه، ففي حديث أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب عليه بحجفة وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، قال ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك ولقد رأيت عائشة وأم سليم وانهما المشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما. . .(٢)

وكان المجاهد من أصحابه رضي الله عنهم عندما تذكر له الجنة وهو في الصف يأكل من تمرات في يده يرى انه لو بقي حتى يفرغ من أكل تلك التمرات أن الحياة طويلة فيسرع برمي تمراته ليدخل باب الجنة في تلك اللحظة مع أهله من الحور العين، كما في حديث أنس عن قصة معركة بدر وفيه: (فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال: يقول: عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخ بخ قال: لا والله يا رسول الله إلارَجَاءَة أن أكون من

(١) البخاري رقم ٣١٤١ فتح الباري (٦/٢٤٦) ومسلم (٣/١٣٧٢).
(٢) البخاري رقم ٣٨١١، فتح الباري (٧/١٢٨) ومسلم (٣/١٤٤٣).

أهلها، قال: فإنك من أهلها قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل»[١].

وكان الواحد منهم إذا فاتته غزوة مع رسول الله ﷺ ندم ندماً شديداً على ذلك وأخذ يتطلع إلى يوم آخر من أيام الله بين جند الله وجحافل الكفر ليشفى منهم غيظه وليصل إلى مبتغاه وهو الشهادة ثم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وكان لشدة صدقه في لقاء الله ويقينه من منازل الشهداء يرسل الله إليه ريح الجنة من قبل أرض المعركة فيقسم عليها بربه مغرياً قومه كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع... فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أحد ريحها من دون أحد قال: سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع قال: أنس فوجدنا به بضعة وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل، وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال: أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه): ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾[٢].

هكذا بذل أصحاب رسول الله ﷺ نفوسهم في سبيل الله ببسالة وشجاعة لا تكون إلا لذوي الإيمان الصادق ممن تعمقت في قلوبهم تربية الإسلام تعمقاً يجعلها خالية من أي حب غير حب الله إلا أن يكون في مرضاته، وخالصة من أي خوف غير خوف الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا

---

(١) مسلم (٣/١٥٠٩) وهو في جامع الأصول (٨/١٨١).

(٢) البخاري رقم ٢٨٠٥ وفتح الباري (٦/٢١) والترمذي وهو في جامع الأصول (٨/٢٤٢). والآية من سورة الأحزاب: ٢٣.

بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون﴾(١).

ولقد سرت هذه الروح العالية التي تربى عليها أصحاب رسول الله ﷺ فيمن ربوه عليها كذلك من أتباعهم فكان النفر من المجاهدين يسقطون في المعركة وقد أثخنتهم الجراح واشتد عليهم العطش فيوتى أحدهم بالماء فيسمع أنين أخيه فيشير للساقي إليه ليشرب قبله، ثم يؤتى به للآخر فيسمع ثالثاً يئن فيشير للساقي إلى الثالث إيثاراً من كل واحد منهم لأخيه فيموتون قبل أن يشربوا جميعاً(٢).

وفي هذه المسيرة الجهادية العالية قدوة لشباب المسلمين في كل زمان، وزاد يقوي خطوهم نحو ساحات الجهاد في سبيل الله، ونور يضيء لهم الدرب الذي كاد الظلام أن يطمس معالمه: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع اخرج شطأً فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾(٣).

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبونه، أذلَّةٍ على المؤمنين، أعزَّةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾(٤).

الفرع الثاني
ضرورة توافر المال للجهاد في سبيل الله

سبق ذكر بعض النصوص التي تحث على الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس وسبق ما يثبت تسابق الصحابة رضي الله عنهم إلى ساحات الوغىٰ لرفع

---

(١) الحجرات: ١٥.
(٢) انظر الجهاد لابن المبارك ص ٩٧.
(٣) الفتح: ٢٩.
(٤) المائدة: ٥٤.

كلمة الله في الكون وتحطيم قوى الطاغوت في الأرض ونيل الشهادة التي كانوا أشد شوقاً إليها من العمر الطويل والحياة الرغدة في الدنيا ليقينهم بما وعدهم به رسول الله ﷺ من الفضل الكبير لمن لقي ربه وهو يقاتل في سبيله وهنا لا بد من تجلية كون المال ضرورة من ضرورات قيام الأمة بالخلافة التي كلفها الله إياها في حالة السلم بعمارة الأرض والقيام بنشر الدعوة إلى الله والاستعداد للجهاد في سبيل الله وإعداد المصانع، وفي حالة الحرب لخوض المعارك ضد أعداء الله.

وينقسم هذا الفرع إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

ذكر بعض النصوص الدالة على ضرورة ايجاد المسلمين المال الذي يكفيهم لإقامة دولتهم وجهادهم ضد عدوهم والحث على الإنفاق في سبيل الله.

المطلب الثاني:

بيان استجابة أصحاب رسول الله ﷺ لداعي الانفاق في سبيل الله.

المطلب الثالث:

الأمة الإسلامية بين البخل بالمال في طاعة الله، والتبذير في المحرمات أو المباحات.

المطلب الأول
ذكر بعض النصوص الدالة على ضرورة إيجاد المال الكافي والحث على إنفاقه في سبيل الله

إن وجود مال وفير للمسلمين يصرف في مصالحهم الخاصة والعامة أمر ضروري لأنه لا حياة للفرد ـ عزيزة ـ وللأمة بدون مال، فالمطعم والمشرب والمسكن والملبس والمركب والمنكح ـ الحياة الزوجية ـ أمور لا يستغني عنها أي فرد ـ في الحالة العادية ـ وهي لا يمكن الحصول عليها بدون مال.

وإقامة المدن والقرى، وشق الطرق، وبناء المساجد والمدارس والمعاهد

والجامعات وحفر الآبار وإنشاء الجسور وإيجاد المواصلات البرية والبحرية والجوية، وإقامة المصانع والشركات ونقل المؤن والذخائر وشراء ما يحتاج إليه من البضائع من البلدان الأخرى وزراعة الأرض وتصريف المياه وضخها وغير ذلك مما لا يحصيه العد لا يمكن وجوده بدون مال، فكيف تقدر أمة من الأمم أن تدافع عن نفسها أو تنشر فكرها عن طريق الدعوة التي لا يسمح أعداؤها لها بالانتشار، أو تعلن حرباً ضد أولئك الأعداء بدون مال؟ هذا دليل الواقع يثبت بأنه لا بد من المال.

لذلك وردت نصوص كثيرة في القرآن والسنة تدل على ضرورة إيجاد المال وحفظه وعدم تبذيره ووجوب إنفاقه فيما هو مشروع بخلاف المحرمات. قال تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدوَّ الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾[١].

تأمل هذه الآية الكريمة تجدها دالة على ضرورة وجود المال للجهاد في سبيل الله فهي تأمر بإعداد القوة المستطاعة ـ التي منها أرقى السلاح الموجود كالخيل في حينها ـ التي ترهب العدو الظاهر والعدو الخفي، وإعداد هذه القوة بدون مال متعذر وهي ـ كذلك ـ تصرح بالإنفاق في سبيل الله إشارة إلى هذا المعنى.

فكيف يعد المسلمون العدة المأمور بها ومن أين ينفقون إن كانوا كلهم فقراء يستجدون لقمة العيش؟.

وقال تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنة﴾[٢] فإذا كان المسلمون لا مال لهم ولا يقدرون على التحرك لقتال الأعداء بسبب عدم وجود المال ـ وهم قادرون على جمعه ولكنهم لم يجمعوه ـ فكيف تتم هذه الصفقة؟ وهل ينام طالب الجنة عن السعي في إيجاد المبيع بهذا الثمن الغالي؟

---

(١) الأنفال: ٦٠.
(٢) الآية التوبة: ١١١.

نعم إذا كان الفرد لا يجد المال وهو قادر على الجهاد بنفسه، والفرد الآخر عنده المال ولا يقدر على الجهاد بنفسه فجهز الغني الفقير فجاهد في سبيل الله فإنهما يستحقان هذه الصفقة مع الله ولكن كيف يكون ذلك إذا كان الفقر على مستوى الأمة؟

وقال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾[١].

فقد نهى سبحانه المؤمنين أن يؤتوا السفهاء أموالهم، لأن قيام معاشهم ومصالحهم لا يكون إلا على هذه الأموال، قال ابن كثير: (أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها)[٢] وقال القرطبي: (﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ أي لمعاشكم وصلاح دينكم)[٣].

وكثيراً ما يمتن الله بالمال على عباده كقوله تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربَّكم إنه كان غفّاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾[٤] وقوله: ﴿ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾[٥]. ولما كانت الأموال سبباً في قيام الأمم، فالأمة المهتدية تنفقها في رضا الله سبحانه لتثبيت الحق وتحطيم الباطل، والأمة الضالة تنفقها في سخط الله لتثبيت الباطل ومحاربة الحق لجأ نبي الله موسى إلى ربه ـ بعد أن بدا له موقف فرعون المعاند وقومه من دعوته ـ لجأ إلى ربه أن يذهب أموالهم التي أبطرتهم وأضلتهم عن سبيل الله فقال الله عنه: ﴿وقال موسى: ربَّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾[٦].

ولهذا ربى رسول الله ﷺ أصحابه على اكتساب المال بجهدهم وحذرهم من الكسل والسؤال حتى يكون كل فرد من أفرادهم مستغنياً بكسبه عن سؤال الناس وحتى ينفق الفائض عن حاجاتهم على المصالح العامة عن طواعية منهم واختيار، لا عن مصادرة وإكراه ففي حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما

---

(١) النساء: ٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٤٥٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/٣١).
(٤) نوح: ١٠/١٢.
(٥) الإسراء: ٦.
(٦) يونس: ٨٨.

قال: قال النبي ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزْعة لحم»[١] وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»[٢].

وعندما آخى رسول الله ﷺ - مقدمه المدينة - بين المهاجرين والأنصار ليتعاونوا ويتكافلوا أظهر الأنصار من الإيثار ما لا يظن أن أمة في الأرض تصل إليه غير الأمة الإسلامية، وأظهر المهاجرون من القناعة والعفة والسعي في طلب الرزق كذلك ما تشرئب إليه الأمم في كل جيل: (لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، قال لعبد الرحمن إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ثم تابع الغدو ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة فقال النبي ﷺ: مهيم قال: تزوجت قال: كم سقت إليها قال: نواة من ذهب - أو وزن نواة من ذهب)[٣].

الأنصاري يتنازل عن نصف ماله وعن احدى زوجتيه، والمهاجري ينافس أعداء الله اليهود في التجارة حتى لا يسيطروا على رؤوس الأموال للضغط بها على الناس - لا سيما أشباههم من المنافقين ليكون ضد الدعوة الإسلامية - فيصبح عبد الرحمن بن عوف من كبار تجار الصحابة الذين يمدون الدعوة والجهاد بالمال الوفير[٤].

هذا وقد يوجد الرجال المؤمنون المجاهدون الذين يحبون لقاء العدو للقاء الله وإعلاء كلمته فيحول عدم وجود المال بينهم وبين أداء واجبهم فيقل بذلك عدد المسلمين ويكثر عدد الكافرين ويحرم المسلمون من خيرة المجاهدين في الاشتراك معهم في ساح القتال ويصابون كلهم بالندم والأسف على ذلك، وها هي ذي القصة التي حصلت في عهد رسول الله ﷺ وسجلها القرآن الكريم

---

(١) البخاري رقم ١٤٧٤ فتح الباري (٣٣٨/٣) ومسلم (٧٢٠/٢).
(٢) البخاري رقم ٢٠٧٤ فتح الباري (٣٠٤/٤) ومسلم (٧٢١/٢).
(٣) البخاري رقم ٣٧٨٠ فتح الباري (١١٢/٧). (٤) الإصابة (٤٠٨/٢).

درساً للأجيال المسلمة في سائر الزمان للعبرة والحذر، قال تعالى: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألّا يجدوا ما ينفقون﴾(١).

قال ابن كثير رحمه الله: (وقال ابن إسحاق في سياق غزوة تبوك أن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاؤن وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف... فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾)(٢).

وها هم أعداء الله في هذا العصر يبذلون أموالهم فيما بينهم متعاونين ضد المسلمين الشيوعيون واليهود والنصارى والوثنيون فيغزون المسلمين في عقر دارهم ولا يجد هؤلاء المسلمون ما يدفعون به عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأوطانهم لا بل إنهم ليموتون من شدة البرد والجوع أو الحر والعطش والقذائف تمزق لحومهم وتهشم عظامهم وهم يبكون كما بكى أولئك السبعة فلا يجدون من يخاف الله من أغنياء الدول والشعوب الإسلامية فيعطيهم ما يكفيهم للدفاع عن أنفسهم.

وينبغي أن يسرع المسلمون بصدقاتهم فيسلموها لقائدهم الذي يعتاد المجاهدون طلب العون على الغزو منه، أو من يثقون به من علماء المسلمين إن لم يكن لهم قائد فقد كان الرسول ﷺ يقصده أصحابه ليحملهم فإن لم يجد شيئاً اعتذر كما في هذه القصة، وإن كان عنده شيء أعطى من استحمله كما في قصة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك، فقلت يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم فقال والله لا أحملكم على شيء ووافقته وهو غضبان ولا أشعر ورجعت حزيناً من منع النبي ﷺ ومن مخافة أن يكون قد وجد في نفسه عليّ فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال: النبي ﷺ فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي أي عبدالله بن قيس فأجبته فقال: أجب

---

(١) التوبة: ٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٨١).

رسول الله ﷺ يدعوك فلما أتيته قال: خذ هذين القَرينَين ـ لستة أبعرة ـ ابتاعهن حينئذ من سعد، فانطلق بهن إلى أصحابك فقل: إن الله يحملكم على هؤلاء فـأركبـوهن، فـانـطلقت إليهم بهن فقلت: إن النبي ﷺ يحملكم عـلى هؤلاء...(١)

قال سيد قطب رحمه الله: (والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال، ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة للقتال وزاد القتال، لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند، إنما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال، وهذا ما تصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم، إنها لا تحتاج حينئذ أن تنفق لتحمي نفسها من أهلها أو من أعدائها إنما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها ولكن كثيراً من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد والذود عن منهج الله وراية العقيدة لم يكونوا يجدون ما يزودون به أنفسهم ولا ما يتجهزون به من عدة الحرب ومركب الحرب وكانوا يجيئون إلى النبي ﷺ يطلبون أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد الذي لا يبلغ على الأقدام فإذا لم يجد ما يحملهم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون كما حكى عنهم القرآن الكريم. من أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الإنفاق في سبيل الله الإنفاق لتجهيز الغزاة وصاحبت الدعوة إلى الجهاد الدعوة إلى الإنفاق في معظم المواضع وهنا يعد عدم الإنفاق تهلكة ينهى عنها المسلمين: ﴿وانفقوا في سبيل الله...﴾ والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف وبخاصة في نظام يقوم على التطوع كما كان يقوم الإسلام)(٢).

المطلب الثاني
استجابة أصحاب رسول الله ﷺ لداعي الإنفاق في سبيل الله

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتسـابقون إلى تنفيـذ أوامره كلهـا ويتنافسون في ذلك ما داموا قادرين، لا فرق بين بذل النفس أو المال أو غيرهما.

---

(١) البخاري رقم ٤٤١٥ فتح الباري (٨/١١٠) ومسلم (٣/١٢٦٩).
(٢) في ظلال القرآن (١/١٠٣ ـ ١٥٤) الطبعة الرابعة.

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى آخر الآية: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ والآية التي في الحشر: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله﴾ تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه من صاع بره، من صاع تمرة حتى قال: ﴿ولو بشق تمرة﴾ قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده. من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غيره أن ينقص من أوزارهم شيء»(١).

قال الإمام النووي رحمه الله: (وأما سبب سروره ﷺ ففرحاً بمبادرة المسلمين إلى طاعة الله تعالى، وبذل أموالهم لله وامتثال أمر رسول الله ﷺ...)(٢)

وتأمل هذا التنافس في بذل المال في سبيل الله، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ووافق ذلك مني مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك..؟» قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً)(٣).

وتصدق عثمان بن عفان رضي الله عنه في غزوة تبوك ـ المسماة بغزوة

---

(١) مسلم (٧٠٤/٢).
(٢) شرح النووي على مسلم (١٠٣/٧).
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي، وهو في جامع الأصول (٥٩١/٨) قال المحشي وإسناده حسن صحيح وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

العسرة ـ بثلثمائة بعير مجهزة تجهيزاً كاملاً، كما قال عبد الرحمن بن خباب رضي الله عنه: (شهدت رسول الله ﷺ، وهو يحث على تجهيز جيش العسرة فقام عثمان بن عفان فقال يا رسول الله: على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: يا رسول الله على مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: على ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما فعل بعد هذه ما على عثمان ما عمل بعد هذه»[١].

وبهذا تظهر أهمية الإنفاق في سبيل الله وأنه أحد ركنيه حتى عده بعض العلماء آكد من الجهاد بالنفس، قال ابن القيم رحمه الله: (ومنها ـ أي من فقه غزوة تبوك وفوائدها ـ وجوب الجهاد بالمال كما يجب بـالنفس، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد وهي الصواب الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقرينه، بل جاء مقدماً على الجهاد بالنفس في كل موضع إلا موضعاً واحداً[٢] وهذا هو الذي يدل على أن الجهاد به أهم وأكد من الجهاد بالنفس، ولا ريب أنه أحد الجهادين، كما قال النبي ﷺ: «من جهز غازياً فقد غزا» فيجب على القادر عليه كما يجب على القادر بالبدن ولم يتم الجهاد بالبدن إلا ببذله، ولا ينتصر إلا بالعدد والعدد، فإن لم يقدر أن يكثر العدد وجب عليه أن يمد بالمال والعدة وإذا وجب الحج على العاجز بالبدن فوجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى)[٣].

وقال سيد قطب رحمه الله: (والانفاق في سبيل الله هو صنو الجهاد الذي فرضه الله على الأمة المسلمة، وهو يكلفها النهوض بأمانة الدعوة إليه وحماية المؤمنين به ودفع الشر والفساد والطغيان وتجريده من القوة التي يسطو بها على المؤمنين ويفسد بها في الأرض ويصد بها عن سبيل الله ويحرم البشرية ذلك الخير

(١) الترمذي وهو في جامع الأصول (٦٣٦/٧) وحسّنه المحشي بغيره.
(٢) هو قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ التوبة: ١١١.
(٣) زاد المعاد (١٦/٣).

العظيم الذي يحمله إليها نظام الإسلام، والذي يعد حرمانها منه جريمة فوق كل جريمة واعتداء أشد من الاعتداء على الأرواح والأموال)[(١)].

المطلب الثالث
العالم الإسلامي

بين البخل بالمال في طاعة الله، والتبذير في المحرمات أو المباحات.

الميزان الذي يسير عليه المؤمن ويزن به أعماله أصحيحة هي أم باطلة، أنافعة هي أم ضارة، أمشروعة هي أم محظورة، هو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فما كان فيهما مشروعاً اتخذه شرعاً وما كان محظوراً ابتعد عنه واعتبره غير مشروع. وكل تصرفات المؤمن يحكمها ذلك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين ﴾[(٢)].

قال في تفسير المنار: (فتذكر أيها المؤمن أن الذي يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله يتحرى الخير والصلاح والإصلاح في كل عمل من أعماله ويطلب الكمال في ذلك لنفسه ليكون قدوة في الحق والخير في الدنيا وأهلاً لرضوان ربه الأكبر في الآخرة، ثم يتحرى أن يموت ميتة مرضية لله تعالى فلا يحرص على الحياة لذاتها، ولا يخاف الموت فيمنعه الخوف من الجهاد في سبيل الله لإحقاق الحق وإبطال الباطل وإقامة ميزان العدل والأخذ على أيدي أهل الجور والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا مقتضى الدين يقوم به من يأخذه بقوة ولا يفكر فيه من يكتفون بجعله من قبل الروابط الجنسية والتقاليد الاجتماعية فأين أهل المدنية المادية من أهل الدين إذا أقاموه كما أمر الله؟ أولئك الماديون الذين لا هم لهم في حياتهم إلا التمتع بالشهوات الحيوانية والتعديات الوحشية يعدو الأقوياء منهم على الضعفاء لاستعبادهم وتسخيرهم لشهواتهم ومنافعهم)[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن (٣/٤٥) الطبعة الرابعة.

(٢) الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) تفسير المنار (٨/٢٤٤).

وهكذا يقر المؤمن لربه الذي خلق بالاختيار، فكما أنه سبحانه الخالق فما اختاره لعبده هو الحق وإن كرهت ذلك نفس هذا العبد، كما قال تعالى: ﴿وربُّك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخِيَرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾[(١)].

قال سيد قطب رحمه الله: (إنها الحقيقة كثيراً ما ينساها الناس أو ينسون بعض جوانبها إن الله يخلق ما يشاء لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئاً ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئاً ولا أن يعدل أو يبدل في خلقه شيئاً، وأنه هو الذي يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصاً ولا حادثاً ولا حركة ولا قولاً ولا فعلاً: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ لا في شأن أنفسهم ولا في شأن غيرهم، ومرد الأمر كله إلى الله في الصغير والكبير)[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم، ومن يَعْصِ اللهَ ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾[(٣)] وهي كسابقتها تثبت أن أمر المؤمن في نفسه وماله وحياته ومماته لربه يمتثل أمره ويجتنب نهيه.

فمال المؤمن لا بد أن تكون طريق كسبه مشروعة، لا يجمعه بكسب حرام، وكذلك طرق إنفاقه لا بد أن تكون مشروعة فلا ينفقه في حرام.

لذلك عندما آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، أصبح الأخ المهاجري المؤمن يرث أخاه الأنصاري المؤمن، وانتفى أن يكون لقريب الأنصاري حق في ماله حتى أعاد الله ذلك إلى القرابة مرة أخرى في محكم كتابه، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آوَوْا ونصروا، أولئك بعضُهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين

(١) القصص: ٦٨.
(٢) في ظلال القرآن (٢٠/٢٧٠٧).
(٣) الأحزاب: ٣٦.

فعليكم النصرُ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير. والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاَّ تفعلوه تَكُنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ. والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم. والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾[١] قال ابن كثير رحمه الله:

(ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي كل منهم أحق بالآخرين من كل أحد ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس..)[٢].

وسبقت قصة عبد الرحمن بن عوف المهاجري مع سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنهما، وهي تدل على بلوغهم القمة رضي الله عنهم في التنافس والتسابق إلى رضا الله وطاعته. فكانوا رضي الله عنهم ينفقون من أموالهم ما يأمرهم الله به المعلوم المحدد كالزكاة وغير المعلوم كصدقات التطوع أو الواجب الذي يطرأ وجوبه كالإنفاق من أجل الجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾[٣].

وقال: ﴿وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم﴾[٤] يحدوهم إلى ذلك أنهم مسؤلون أمام الله سبحانه وتعالى، كما في حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه

(١) الأنفال: ٧٢/٧٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٢٨).
(٣) المعارج: ٢٤/٢٥.
(٤) الذاريات: ١٩.

وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما انفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»(١).

فالمؤمنون يقيسون تصرفاتهم في أموالهم ـ وغيرها ـ بهذا المقياس، وبهذه المسؤولية فلا يمسكون إذا أمرهم الله بالإنفاق، ولا يبذرون أموالهم في المباحات ولا ينفقون شيئاً منها في المحرمات: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾(٢) حب الله ورسوله والجهاد في سبيله مقدم على حب كل شيء: القرابة والأزواج والأموال والتجارة والمساكن: ﴿قل إن كان آباؤكم، وأبناؤكم، وإخوانكم، وأزواجكم، وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارةٌ تخشون كسادها، ومساكنُ ترضونها، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾(٣).

وبهذا المقياس وهذه المسؤولية قام علم الجهاد في عهد رسول الله ﷺ، وما كان بيت مال المسلمين قادراً أن يقوم بأعباء المعارك الحربية من أول لحظة التقى فيها جند الله بأعدائه، وإنما كان الذين ينفقون على تكليفات الجهاد هم المجاهدين أنفسهم وقد سبق قريباً ما يدل على هذا كما كانوا يؤدون واجب المال من الزكاة وغيرها فينال المحتاجون من الفقراء والمساكين ما يغنيهم وهكذا كل المصالح العامة كانت تقوم على تبرعات المسلمين الذين أسلموا الله أنفسهم، وهذه هي الحالة التي يجب أن يكون عليها المسلمون في كل زمان.

أما المقياس الذي يسير عليه غير المسلم من الكافر والمنافق فهو الهوى الذي يقتضي منه أن يكون كما قال الله سبحانه: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنارُ مَثْوىً لهم﴾(٤)، وقد سبق الكلام على الهوى وأضراره ومجاهدته في: الجهاد المعنوي.

وبهذا المقياس يتصرفون في جميع أمورهم، ما اشتهته نفوسهم تعاطوه وما كرهته تركوه، وقد يكون الشيء الواحد محبوباً مرة ومكروهاً أخرى تبعاً لأهوائهم. فإذا جاء شرع الله يوجههم فيأمرهم بما يخالف هواهم خالفوا ذلك

(١) الترمذي (٦١٢/٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح وراجع تحفة الأحوذي (١٠١/٧).
(٢) الفرقان: ٦٧. (٣) التوبة: ٢٤. (٤) محمد: ١٢.

الأمر بحجة أن لهم أن يفعلوا ما يريدون، وإذا نهاهم عن شيء ترغب فيه أهواؤهم تناولوا ما نهاهم الله عنه بتلك الحجة الظالمة ومن ذلك تصرفهم في أموالهم. فشعيب عندما أمر قومه بعبادة الله وترك عبادة ما سواه، وأمرهم بإيفاء الكيل والوزن ونهاهم عن نقص الناس حقوقهم كما قال الله سبحانه: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ، ولا تَنقُصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط. ويا قومِ أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعْثَوا في الأرض مفسدين. بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾[١] عندما أمرهم بذلك أجابوه جواباً مبدؤه ذلك المقياس: التصرف المطلق حسب ما تهواه أنفسهم، لا حق لله ولا لغيره ـ غير الهوى ـ أن يأمرهم أو ينهاهم أو يعترض عليهم في تصرفاتهم: ﴿قالوا يا شعيبُ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟!، إنك لأنت الحليم الرشيد﴾[١].

وما دام الأمر كذلك فلهم أن يجمعوا الأموال من أي طريق، لا فرق بين حلال وحرام وغش وتزوير، كما أن لهم أن ينفقوها فيما أرادوا كذلك بناء على هذه القاعدة: (أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء)، إذا كالوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا الكيل والوزن، وهكذا في جميع معاملاتهم بخس الناس أشياءهم هو الأصل وإذا اكتالوا هم أو وزن لهم زادوا في الكيل والوزن: ﴿ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسرون﴾[٢].

ولهم أن يجمعوا المال للفخر والخيلاء والمكاثرة: ﴿وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثرُ منك مالاً وأعزّ نفراً﴾[٣] ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولَهْوٌ وزينة وتفاخرٌ بينكم، وتكاثرٌ في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرّاً، ثم يكون حُطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[٤].

ولهم أن يعبثوا بالأموال ويبنوا بها أبراجاً عالية في أماكن بارزة ليفخروا بها

---

(١) هود: ٨٤/٨٧.
(٢) سورة المطففين: ١/٣.
(٣) الكهف: ٣٤.
(٤) الحديد: ٢٠.

ويتحدث الناس بها، كما فعل قوم هود عليه السلام الذي نصحهم فلم يسمعوا النصيحة فلاقوا ما لاقاه غيرهم: ﴿أتبنون بكل ريع آيةً تعبثُون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلُدون. وإذا بطشتم بطشتم جبَّارين. فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذي أمدَّكم بما تعلمون أمدَّكم بأنعام وبنين وجنات وعيون. إني أخاف عليكم عذابَ يوم عظيم. قالوا سواء علينا أوعظتَ أم لم تكن من الواعظين. إن هذا إلا خلق الأولين. وما نحن بمعذَّبين. فكذَّبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهُم مؤمنين. وإن ربَّك لهو العزيز الرحيم﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله: (اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، ولهذا قال: ﴿أتبنون بكل ريع آية﴾ أي مَعْلَماً بناء مشهوراً ﴿تعبثون﴾ أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان[٢] في غير فائدة واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة)[٣]. لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر وتمتع وهوى.

ولا تنسين الأثاث الفاخر الكثير والمنتديات الفخمة ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن نَدِيّاً. وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورِئياً﴾[٤]. وإذا طلب منهم أن ينفقوا أموالهم للصد عن سبيل الله لم يترددوا: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حَسْرة ثم يُغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾[٥].

وقد تكون صورة الصد عن سبيل الله التي ينفقون أموالهم لها ظاهرها أنها طاعة لله، دهاء ومكراً من أعداء الله: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، ولَيَحْلِفُنَّ إن أردنا

(١) الشعراء: ١٢٨/١٤٠.
(٢) وتبذير للأموال أيضاً.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٤١).
(٤) مريم: ٧٣ ـ ٧٤.
(٥) الأنفال: ٣٦.

إلا الحُسْنى، والله يشهد إنهم لكاذبون﴾[١].

ولكنهم إذا دعوا إلى الإنفاق في سبيل الله ومرضاته بخلوا وشحوا: ﴿قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلاً، أشحة عليكم﴾ الآية[٢].

ذلك مقياس المؤمنين في تصرفهم في أموالهم، وهذا مقياس الكافرين ذلك بذل المؤمنين في سبيل الله، وهذا بخل الكافرين وشحهم، فأين يقف المسلمون في هذا العصر؟ أينفقون في سبيل الله أم في الصد عن سبيله؟!

الأرض لا يمكن أن تخلو من أهل الخير الذين يضحون بأنفسهم وأموالهم تحقيقاً لوعد الله تعالى على لسان رسوله ﷺ كما في حديث معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال من أمتي أمةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمرُ الله وهم على ذلك»[٣].

وحديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[٤].

وفي حديث جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يبرح هذا الدين قائماً يُقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»[٥].

وفي حديث جابر بن عبدالله: سمعت رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»[٦].

وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم»[٧].

---

(١) التوبة: ١٠٧. (٢) الأحزاب: ١٨/١٩.
(٣) البخاري رقم ٣٦٤٠ فتح الباري (٦/٦٣٢) ومسلم (٣/١٥٢٤).
(٤) البخاري رقم ٣٦٣٩ فتح الباري (٦/٦٣٢) ومسلم (٣/١٥٢٣).
(٥) مسلم (٣/١٥٢٤). (٧)نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة.

هذه الطائفة ـ وهي منتشرة في أنحاء المعمورة ـ التي تقاتل على الحق وتبذل أرواحها في سبيل الله لا بدّ أن تنفق أموالها أيضاً في سبيل الله، والمقصود بسبيل الله الجهاد بالنفس لتكون كلمة الله هي العليا وإنفاق المال كذلك لتكون كلمة الله هي العليا، لا تقصد من وراء ذلك جاهاً ولا منصباً ولا مغنماً مهما كان وإنما سبيل الله فقط، لذلك لا يمكن أن يمن من أنفق في سبيل الله بما أنفق ولا ينفق لمراءات الناس أو قصد مدحهم وثنائهم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقد أوضحت الآيات القرآنية هذا المعنى في الإنفاق تمام الإيضاح كما في هذه الآيات: ﴿مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، والله يُضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ بيَّنت الآية ما يناله من أنفق ماله في سبيل الله، ثم تلتها الآيات التي توضح الحالة التي يكون المنفق بها في سبيل الله، قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منًّاً ولا أذى لهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحـزنون. قولٌ معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غنيٌّ حليمٌ﴾ ثم تلاها ما يحذر من حبوط العمل إذا لم يكن الإنفاق في سبيل الله، كأن يتضمن مراءات الناس، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالذي ينفق ماله رئآء الناسِ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثلِ صَفْوان عليه تراب، فأصابه وابلٌ فتـركه صَلْداً، لا يقـدون عـلى شيء ممَّـا كسبـوا، والله لا يهـدي القـوم الكافرين﴾[١].

فقد قام أعداء الله من اليهود باحتلال أرض الإسراء فلسطين وتوطدت فيها أقدامهم، وكثر دعمهم من قبل اليهود في العالم والنصارى والشيوعيين والوثنيين وبعض حكام الشعوب الإسلامية[٢]، والفلسطينيون يتسكعون في الآفاق لم يجدوا من يؤويهم ولا من يربي أبناءهم من المسلمين إلا ما ندر، وبعد مشاق تكبدوها من قتل وسجن واعتقال وتشريد وتفرق في الأرض صحا بعض شباب فلسطين أو بلغ رشده فرأى تلك المآسي فأخذوا يلمون شعثهم وتلقوا

(١) راجع الآيات الكريمة من سورة البقرة من الآية ٢٦١ إلى ٢٧٤.
(٢) من أمثال شاه إيران محمد رضا بهلوي، وأشباهه.

بعض المساعدات المالية والأسلحة فأخذوا يقاومون على قلة إمكاناتهم وعدم أرض يقفون عليها وينطلقون منها، ولو أن حكام الشعوب الإسلامية صدقوا الله مع الفلسطينيين من سنة ١٩٤٨ م لما كان اليهود تمكنوا من السيطرة الكاملة على شعب فلسطين وأخذوا يهددون الدول العربية كلها وليصغ القارىء لصوت أحد الشباب الفلسطينيين المجاهد:

(واجباتنا تجاه معركة المصير، وهكذا يتصاعد العمل الفدائي ويتضح أن العون للفدائيين ولكل مجهود حربي عربي هو ليس فرض كفاية يمكن أن يقوم به البعض دون البعض، بل هو واجب حتمي على كل فرد وفي كل قطر وصقع من عالمنا العربي الكبير، ولا أعتقد ان الموضوع في حاجة إلى إقناع، فإن إسرائيل تهدف إلى تفتيت الوطن العربي وتمزيقه، وهي تعمل إلى إخضاع جزء من مصر يضم الاسكندرية والدلتا إلى سيناء تحت علمها وإلى احتلال الأجزاء الهامة من العراق وسوريا ثم احتلال الجزيرة العربية حيث تريد أن تقع المدينة المنورة وأطلال بني النضير وبني القينقاع القديمة (نسى الكاتب بني قريظة) تحت علم إسرائيل وقد صرح موسى ديان يوم دخوله القدس في السابع من يونيو الكارثة: لقد وصلنا أورشليم وما زال أمامنا يثرب وأملاك قومنا فيها. ولسنا ندري لو تم هذا ماذا بقي للعالم العربي من كيان أو كرامة أو وجود. ولا نتصور أن هذا احتمال يجب ألا يشغل الناس الآن، فإن إسرائيل نفسها كانت احتمالاً قبل عشرين عاماً، وأن احتلالها القدس كان احتمالاً قبل عام من الآن[١]. ولا نتصور أن يكون الأمر خاصاً بالعرب المجاورين لفلسطين فإن الموضوع خاص بالجميع (يعني يعم الجميع) وخطر على الجميع ولنأخذها من أولها إن السعودية يجب أن تقدم كل إمكاناتها للمعركة فإن هدف إسرائيل في أجزائها وفي مدينة الإسلام التي تعتبر السعودية حفيظة عليها لم يعد سراً يحتاج إلى إعلان، دول الخليج العربي يجب أن تقدم كل إمكاناتها فإنه لا ينتظر أن يكون لها مكان ولا كيان إذا استطاع الأعداء قهر السعودية ومدينة الإسلام فيها، إن العراق يجب أن تقدم كل إمكاناتها فإن المعنى المرسوم على باب البرلمان اليهودي «من النيل إلى الفرات وطنكم الموعود ولسنا في حاجة للحديث عن واجبات الجمهورية العربية

(١) أي في عام ١٩٦٧م، وهو يوافق ١٣٨٧ هـ، ويظهر أن المؤلف كتب هذا الكلام بعد الاحتلال بسنة، أي في عام ١٩٦٨م.

المتحدة[١] والجمهورية العربية السورية والمملكة الأردنية فإن سيف إسرائيل قد استطاع أن يعمل في أجسامهم جميعاً[٢]...) فأين ذهبت هذه الصرخة ومثيلاتها؟!.

ولو أن المسلمين احتضنوا الثورة الفلسطينية من أول يوم وقع فيه العدوان باسم الإسلام وبذلوا نفوسهم وأموالهم في إنجاحها ما كان الفلسطينيون بوضعهم الحالي جماعات متفرقة: منهم الشيوعي، ومنهم القومي، ومنهم العلماني ومنهم ومنهم وإن كان توجد فيهم فئة صالحة تؤمن بالله وبدينه وتجاهد في سبيله.

وهذه أريتريا المسلمة التي سطا عليها النصراني المتعصب هيلا سلاسي الأسود بدعم قوي من بني جنسه النصارى الغربيين البيض أشعل أبناؤها الثورة منذ عشرين عاماً وأخذوا يجوبون البلدان الإسلامية ـ ولا سيما الشعوب العربية منها يطلبون العون المادي فأغلقت دون أصواتهم الآذان وأغمضت دون رؤيتهم الأعين فتفرقوا وانقسموا منهم من أخذ يستجدي الشرق الشيوعي ومنهم من أخذ بجمع التبرعات من أفراد الشعب المسلم ويكافح وما تلقوه من المساعدات المادية شيء لا يذكر بجانب التكليفات الباهظة أمام دولة نصرانية متصعبة دول الغرب كلها تدعمها، وكذلك اليهود، ثم ذهب هيلا سلاسي النصراني فجاء الحاكم الماركسي الشيوعي ولا زال الدعم اليهودي مستمراً على الرغم من العداء الذي تحاول دولة اليهود أن تظهره للروس وأذنابهم، وكذا الدول والمؤسسات المسيحية لا تزال تدعم سلطات أثيوبيا الشيوعية ضد المسلمين وتأمل هذه المقتطفات عن بعض قادة الشعب الأريتري المسلم المجاهد: (مشكلة أريتريا تعود بعيداً في أغوار التاريخ، فمنذ أن وطئت أقدام صحابة رسول الله ﷺ مرسي «هرر» في الشاطىء الأريتري في السنة الخامسة من البعثة النبوية الشريفة وهم في طريقهم إلى الحبشة فارين بدينهم من أذى كفار قريش والإسلام بدأ ينتشر في هذه المنطقة حتى تعزز وجوده بإقامة الدولة الأموية القلاع والحصون في جزر دهلك وميناء باضع التي هي الآن مصوع حماية للمسلمين في المنطقة وتأميناً لطرق التجارة في البحر الأحمر.

(١) وعلم اليهود قد ارتفع فوق سماء القاهرة معترفاً به.
(٢) جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن لمؤلفه صالح مسعود أبي بصير ص ٥٧١.

وخلال الثلاثة عشر قرناً التي تلت لم تحكم أريتريا قوة غير إسلامية حتى جاء الاحتلال الإيطالي في عام ١٨٨٥ م منهياً الحكم العثماني... وكانت الحبشة طيلة هذه القرون تحاول احتلال الشاطىء الأريتري والصومالي دون أن تحقق نجاحاً يذكر بسبب مقاومة أهلها من جهة وبسبب وجود الدعم من الدولة الإسلامية الكبرى.

ولم تتمكن الحبشة من السيطرة على الشاطىء إلا في عام ١٩٥٢ عن طريق مؤامرات الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا وبريطانيا... ومن ذلك يتضح أن جوهر الصراع الأريتري الأثيوبي كان دينياً، وأن الثورة الأريترية إنما أنشأها المسلمون عندما حرمتهم الحبشة (١٩٥٢ - ١٩٦٢ سنوات الاتحاد الفيدرالي) من أبسط حقوقهم السياسية والثقافية والدينية ومارست ضدهم كافة أنواع الاضطهاد من قتل وتشريد وتجويع... وعلى الرغم من المساعي التي بذلت لإعطاء الصراع الأريتري الأثيوبي طابعه الوطني تحت شعار: «الدين لله والوطن للجميع» إلا أن ذلك لم ينف عن الصراع صفته الأساسية وهو الجانب الديني، إذ أنه وفي إطار الخلافات الأريترية تبدو هذه النزعة ظاهرة قوية، فنجد الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا تجمعاً طائفياً نصرانياً رغم إعلانها الماركسية، ونجد الكنائس العالمية تتعاطف معها وتمدها بمختلف المعونات... كما يتجلى هذا الصراع الديني في موقف الدول الغربية النصرانية التي لا تزال تؤازر الحبشة ضدنا وضد الصوماليين منطلقة من مبدأ الحفاظ على امبراطورية الحبشة النصرانية التي يسمونها جزيرة مسيحية، مع أن هذه الامبراطورية ٦٠٪ من المسلمين من مجموع سكانها البالغ تعدادهم نحو ٣٠ مليوناً... كما تساند إسرائيل والصهيونية الدولة الحبشية بالسلاح والخبرة والمساعي السياسية. وفي عام ١٩٧٨ صرح وزير خارجية العدو موشى ديان أمام الجالية اليهودية في جنيف بأن إسرائيل تقدم العتاد الحربي والأجهزة اللاسلكية وقطع غيار للأسلحة من منطلق عدو عدوي صديقي وهو يعني بذلك أن أريتريا المستقلة ستنضم حتماً إلى الركب العربي الإسلامي... ومن المؤسف حقاً إزاء هذا الموقف المعقد أن نجد معظم الدول العربية والإسلامية تقف موقف اللامبالاة حيال هذا الصراع الدامي الذي يخوضه هذا الشعب منذ عشرين عاماً (دون مساندة مادية فعالة إلا

القليل منها) باذلاً في سبيل عقيدته ووجوده أكثر من ١٠٠ ألف شهيد ونصف مليون لاجىء في السودان يعيشون شظف العيش وتملأ سهول السودان بمقابر أطفالهم حتى إننا نجد أحد معسكرات اللاجئين في السودان مقبرة تضم نحو خمسة آلاف من الأطفال ماتوا بسبب سوء التغذية وانعدام الدواء في وقت يموت فيه إخوان لهم في الأراضي الإسلامية يموتون شبعاً فأين الإسلام من ذلك؟!)[١].

وبجانب أريتريا منطقة الأوغادين الصومالية التي لا تزال هدفاً للغزو الحبشي الخبيث تسانده دول الشرق والغرب على السواء وإن اختلفت الأساليب، تجمعت الجيوش الشيوعية الماركسية والنصرانية لضربها وقتل كثير من أبنائها وتشريد آخرين وها هي بعض صحف الغرب تتحدث عن الوحشية التي لاقتها هذه المنطقة: (بدأت أعداد إضافية من القوات الكوبية تتدفق إلى صحراء أو جادين في أثيوبيا للقيام بهجوم موسع شامل عبر حرب سرية ضد الفدائيين التابعين لجبهة تحرير الصومال الغربي ومن المعروف أن هذه الحرب شردت ما يقرب من مليونين من المدن والقرى وقد انتهت بانسحاب القوات الصومالية إلا أن قوات الفدائيين استمرت في شن حرب العصابات ضد القوات الأثيوبية، ولقد تم إعداد حاميات مزودة بما يقرب من ستين ألف جندي أثيوبي وجنود الميليشيا الشعبية بصورة سريعة خلال الأسابيع الأخيرة ويقدر المراقبون عدد القوات الكوبية التي ستساعدهم بحوالي سبعة عشر ألفاً وقد تحرك العديد من هؤلاء من منطقة النزاع الأثيوبي مع أريتريا وقد بدأت الطائرات الميج ٢١ والتي يقودها كوبيون والمحملة بقنابل النابالم بالقيام بطلعات يومية عبر مناطق أوجادين في محاولة لدفع الثوار التابعين لجبهة تحرير الصومال الغربي والذين يسيطرون الآن على معظم المناطق الريفية... وتقوم الطائرات السوفيتية من طراز انتينوف بنقل المعدات والمؤن والجنود إلى أوجادين... ومن المعروف أن القوات الأثيوبية والكوبية تعمل تحت إشراف الجنرال بتروف الخبير السوفيتي الموجود حالياً في مدينة جيجا...)[٢] ومرة أخرى لو كان الكاتب مسلماً لقال:

(١) مجلة المجتمع الكويتية، العدد ٤٧٧ في ٧ جمادي الآخرة ١٤٠٠، والكاتب هو رئيس جبهة تحرير أريتريا عثمان صالح سبا.

(٢) ديلي تلغراف نقلاً عن جريدة الرياض في عددها ٤٢٢٠ الصادر في ١٣٩٩/٥/٢٦، ص ٥.

فأين الإسلام من ذلك؟.

وهذا رئيس تحرير جبهة مورو يتحدث عن عدد ضحايا المجاهدين الذين يتساقطون أمام ضربات الصليبي ماركوس في الفلبين ودعم جميع دول الغرب له ضدهم وكذلك اليهود يقول: والإحصاءات الرسمية ـ فقط ـ تؤكد أن عشرة آلاف مسلم مدني ـ فقط ـ ذبحوا وقتلوا على أيدي القوات الحكومية منذ انهيار اتفاق طرابلس ومفاوضات السلام بين الحكومة وجبهة مورو في سبتمبر ١٩٧٧، وبذلك يصل عدد الضحايا المسلمين إلى تسعين ألف شهيد منذ اندلاع الحرب في جنوب الفلبين عام ١٩٦٨ م[١]. وقد رفع أحد أبناء الفلبين ـ وهو طالب آنذاك بالجامعة الإسلامية ـ رفع صوته مهيباً بالمسلمين أن يتيقظوا للخطر الذي يهدد إخوانه في الفلبين فقال: وعلى كل فلا شك أن حالة مسلمي الفلبين في الوقت الحاضر هي أخطر وأكبر مما تنشره الجرائد الرسمية وتذيعه الإذاعات ولا ريب أنه أشد خطراً من حالة إخواننا الفلسطينيين ذلك لأن فلسطين تحيط بها الأقطار العربية والإسلامية.

أما مسلمو الفلبين فإنهم يقطنون في جزيرة بعيدة معزولة وسط المحيط الهادي، ومع هذا فإن عدد أعدائهم أكثر بكثير من عددهم، وعدتهم أقوى من عدتهم ويكون مصيرهم الهلاك الجماعي إن لم تهتم بهم الدول الإسلامية والعربية بعد الله تعالى...[٢] فهل اهتمت بهم الدول الإسلامية؟؟؟

وهذا أحد زعماء المجاهدين في أفغانستان ينادي بأعلى صوته العالم الإسلامي ليقف مع المجاهدين وشرح ما يعانيه المجاهدون من قلة المال والسلاح وما يتحملون من متاعب وصمود في سبيل الله: (كثير من الإخوان المجاهدين اضطروا في الأسابيع الأخيرة نتيجة لإنعدام الأغذية إلى أكل أوراق الشجر لمدة ثلاثة أيام متوالية نظراً لإنعدام الغذاء في بعض المناطق) وذكر قبل ذلك الدمار الذي تخلفه القوات الحكومية المدعمة من قبل الروس وما تقوم به الحكومة من اعتقالات وسجن وتعذيب وتشريد، ثم يصرخ منادياً العالم

---

(١) جريدة المدينة المنورة في عددها ٤٥٢٠ الصادر في ٢٢ ربيع الأول ١٣٩٩ ص ١٣.

(٢) مجلة الجامعة الإسلامية، العدد الثالث من السنة الخامية ١٣٩٣ ص ١٢٠.

الإسلامي ليقف الوقفة اللائقة به فيقول: (إننا نناشد العالم الإسلامي أن يقف من المقاومة الإسلامية في أفغانستان الموقف الذي يمليه عليه دينه وعقيدته وانتماؤه من الموقف الذي يفرضه عليه تضامنه الإسلامي نريده أن يتذكر أن الحرب في أفغانستان هي معركة بين الإسلام والشيوعية أولاً وأخيراً ولقد حملنا السلاح لأننا نريد أن يعبد الله سبحانه وتعالى في أفغانستان ولا يعلو النظام الماركسي الذي بدأ في فرض القيود على العبادة)[١].

وعلى الرغم من المساعدات المادية التي كان الشيوعيون الروس يقدمونها لحكام كابل في عهد تراقي وعلى الرغم من وجود خبرائهم في تلك الفترة وعلى الرغم من حاجة المجاهدين إلى المساعدات المادية التي بخل بها المسلمون عليهم آنذاك فإنهم كانوا يواصلون انتصاراتهم على الحكومة الماركسية حيث أخذ رئيسها يشكو ويرغى ويزبد، وتأمل هذه المقتطفات: (وأكد المجاهدون المسلمون في جماعة إسلامي وحزب إسلامي أن المجاهدين المسلمين قد بدؤوا النضال في مقاطعة لوجار التي تقع جنوبي العاصمة... وأشار الرئيس نور محمد تراقي لأول مرة منذ ثلاثة أيام إلى احتمال القيام بمغامرة عسكرية على الحدود الشرقية لأفغانستان وهو يعلن أن كابول لن تتحمل أكثر من ذلك مما سماه بالتدخلات الخارجية)[٢].

وكاد المجاهدون ينتصرون: (تفجرت الاشتباكات العنيفة صباح أمس وانتشرت إلى أجزاء أخرى في العاصمة الأفغانية... وتضيف المصادر أن مطار كابول قد أغلق...)[٣] ولقد جاب بعض أعضاء المجاهدين كثيراً من الأقطار الإسلامية ورجعوا والحسرة تقطع أكبادهم من مواقف الحكومات الإسلامية من قضيتهم فواصلوا نضالهم بإمكاناتهم المحدودة وكاد النصر يكون حليفهم في أغلب أنحاء البلاد ولما شعر أعداء الله بأن البلاد تحت سيطرتهم والشعب يؤمهم ليرفع راية الإسلام على سماء أفغانستان تآمر الشرق والغرب، ودخلت الجيوش

---

(١) جريدة المدينة المنورة عدد ٤٦١٥ في ١٣٩٩/٧/١٧ هـ ص ١٥.
(٢) جريدة المدينة المنورة عدد ٤٥٩٠ في ١٣٩٩/٦/١٨، ص ١.
(٣) جريدة المدينة المنورة عدد ٤٦٦٢ في ١٣٩٩/٩/١٣ ص ١ وانظر مجلة المجتمع الكويتية: العدد ٤٥٤ السنة العاشرة ١٣٩٩/٩/٢٩ هـ.

الشيوعية بسلاحها الكامل جواً وبراً حتى زاد عدد قوات الروس عن مائة ألف فملؤوا الجبال والوديان بدباباتهم ومصفحاتهم وملؤوا الجو بطائراتهم وأخذوا يطلقون نيران أسلحتهم على الشعب كله في المدن والقرى ولتمت الآلاف من المدنيين من الشيوخ والأطفال والنساء في سبيل أن يضمنوا إبادة المجاهدين مهما قل عددهم في المدينة أو القرية ولا زال المجاهدون صامدين إلى هذه اللحظة على رغم كل ذلك وقد شرد الملايين من المسلمين إلى دولة باكستان المجاورة، وهم الآن يموتون جوعاً، وأجسادهم عارية من الملابس والمجاهدون ينقلون ما يحصلون عليه من المؤن والذخائر على أكتفافهم في الجبال الشاهقة والطائرات تحصدهم حصداً من الجو والدبابات تدمر القرى التي يوجدون بها في الأرض وهكذا، وبعد أن قام الإنقلاب الماركسي الذي سبقه دخول الجيوش والقوات الروسية وتابعت دخولها بعده وأحس المسلمون بالخطر المحدق وبدأت دول الغرب وعلى رأسها أميركا تحتج كذباً وزوراً هنا أخذ المسلمون أو بعض زعمائهم يدعون إلى إنقاذ المسلمين في أفغانستان والحؤول بين الماركسيين الروس والمحيط الهندي أو بحر العرب ودول الخليج فاجتمع وزراء خارجية الشعوب الإسلامية في إسلام أباد بباكستان وتلا كل احتجاجه وكتبوا توصياتهم وانفضوا وساعدت بعض الدول بما تيسر من المال والغذاء، وربما السلاح ـ المجاهدين الأفغانيين ولكنها مساعدة أغرت روسيا وحليفاتها من الدول الماركسية بالعناد وزيادة القوات والمعدات الحربية وبدأت أجهزة إعلام الدول الإسلامية تهدأ رويداً رويداً حتى أصبح السامع أو القاري لا يسمع ولا يقرأ إلا القليل النادر عما يحدث من مذابح وتشريد في الشعب الأفغاني، ويكون ذلك في الغالب نقلاً عن الأجانب ومنظماتهم.

وقد كتب في إحدى الصحف ما يلي: (الأمم المتحدة ـ جنيف... أصدرت المفوضية السامية لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة بياناً أمس الأول الخميس في جنيف جاء فيه أن عدد اللاجئين الأفغان إلى باكستان يصل إلى ٧٣٦ ألفاً و٧٠٧ لاجيء)(١).

---

(١) جريدة المدينة المنورة، العدد ٤٨٩٨، السبت ١٨ جمادي الآخرة ١٤٠٠. ولكنه الآن بلغ الملايين.

ولقد كتب بعض المفكرين في إحدى المجلات الإسلامية قبل أن تدخل القوات الروسية يستصرخ المسلمين أن يقدموا للمجاهدين عوناً مالياً ضئيلاً ذكر أنه يكفي للقضاء على الحكام الذين تزعزعت كراسي حكمهم بفضل الله ثم بفضل ضربات المجاهدين وأنذر من التدخل الروسي فقال: (إن ما يحتاجه المجاهدون هو نصف مليون ريال يومياً ولمدة شهر واحد أي حوالي ١٥ مليون ريال تقريباً ما يكفي لرصف شارع من الشوارع... وأن روسيا بما تتميز به من غباء سياسي قد تدخل المعركة بثقل كامل...)[١] وفي هذه الأثناء بعث أحد زعماء المجاهدين مذكرة إلى منظمة الأمم المتحدة يناشدهم التدخل لحماية الشعب الأفغاني من السلاح الروسي الذي يشرف عليه خبراء الروس ويقتل به آلاف العزل[٢] ونشرت إحدى المجلات الإسلامية بياناً عن الحركة الإسلامية في أفغانستان وفيه: (إننا نحارب أعداء الإسلام وأعداء المسلمين لأننا جزء من الأمة الإسلامية وجزء من الوطن الإسلامي، وانتصارنا على الشيوعية هو انتصار للإسلام والمسلمين فإننا نطالب كل المسلمين بفضح النظام العميل في كابول وفضح الوجود الروسي الاستعماري وتقديم شتى المساعدات للحركة الإسلامية الأفغانية)[٣].

وبعد الانقلاب الذي قام به الجيش الروسي وقضي على تراقي وجاء بكارمل أهاب الكاتب المسلم مرة أخرى بالمسلمين منبِّهاً لهم على الخطر والمسؤولية الملقاة على أعناقهم يكفي ذكر بعض العناوين البارزة في مقاله: (تحرك عسكري روسي وسكوت إسلامي، اللاجئون يموتون جوعاً، والمجاهدون يتجمدون برداً، والمسلمون يتفرجون)[٤] قد يغضب المسلمون من هذه العبارات فيقال: لمن يغضب ماذا فعلت؟ أقدمت ما يكفي، اختصرت النفقات الكمالية، أو أحفظت الأموال من إنفاقها في الحرام وأعنت بها المجاهدين؟

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية ٩ شعبان ١٣٩٩، العدد ٤٥٢، السنة العاشرة ص ٣٢.

(٢) انظر مجلة الدعوة السعودية، العدد ٧٠٧، الاثنين ٨ شعبان ١٣٩٩ ص ١٦.

(٣) مجلة الدعوة المصرية غرة شعبان، العدد ٣٨، ١٣٩٩ هـ، ص ٤٦.

(٤) مجلة الدعوة المصرية، ربيع الآخر ١٤٠٠ ص ٨، وانظر المجلة نفسها العدد ٤٨ جمادي الآخرة ١٤٠٠ ص ٧ ـ ٩.

والسؤال بعد هذا كله هل قام المسلمون بواجبهم فأنفقوا في سبيل الله من أموالهم للمجاهدين في أي بقعة من الأرض، أو بعبارة أخرى هل أنفقوا في الجهاد في سبيل الله ما يقدرون عليه محققين بذلك أمره سبحانه ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾؟ هل تصرف المسلمون في أموالهم على الميزان الذي تصرف عليه أصحاب رسول الله ﷺ وهو صرفه في طاعة الله والجهاد في سبيله أو كان الميزان هو الهوى والشهوات؟

الجواب عن هذه الأسئلة يتضح من تتبع أحوال المسلمين في تصريف أموالهم والمراجع هي المشاهدة المحسوسة التي يعلمها عامة الناس وخاصتهم من ذلك - مثلاً - الخمور التي تباع علناً في كثير من الشعوب الإسلامية بإذن رسمي من حكومات تلك الشعوب كم من الأموال تصرف فيها، وهي محرمة بنص كتاب الله وبنصوص سنة رسول الله ﷺ.

ومن ذلك المسارح والمراقص التي تشيد بملايين الملايين في الشعوب الإسلامية من أجل إفساد أخلاق الشباب والشابات، وكذلك حفلات الغناء الفاجر التي تنفق الأموال الطائلة.

ومن ذلك أجهزة السينما وأفلامها الداعرة المفسدة التي أصبحت توجد في بيوت الأسر في كثير من الشعوب الإسلامية. كم أموالاً تنفق فيها؟ والآن جاء الفيديو ودخل كل بيت كم أموالاً تصرف فيه وفي أفلامه؟.

ومناهج أجهزة الإعلام على مستوى الدول وعلى اختلاف تلك الأجهزة كم من الأموال تصرف عليها: الإذاعية منها والتلفازية والصحفية وغالبها مما يفسد الشعوب أخلاقاً ويمسخها عقدياً ويقضي على كل شرف ورجولة فيها كم من الأموال تصرف وتنفق عليها، الملاعب الرياضية التي شيدت في كل مكان مع التفاخر بها كما تفاخر أولئك الذين أنكر الله عليهم: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ كم من الأموال تنفق على تشييدها وكم من الوقت والجهد أضاعته في غير طاعة الله وكم صرفت من الشباب عن أهدافه العليا التي ترضي الله سبحانه وتعالى ومن أهمها فروسية المسلم التي يستعد بها للجهاد في سبيل الله. لعب

القمار في الغرب والشرق كم من الأموال تصرف وتنفق في نواديه التي يجتمع فيها من المحرمات ما يكفي للإفساد وحصول غضب الله. المصايف الشيطانية التي يختلط فيها الجنسان في شرخ الشباب بإشراف من بعض الحكومات التي ابتليت بها الشعوب الإسلامية كم من الأموال تنفق من أجل مسخ ذلك الشباب فيها، الإعانات التي تمنح من بعض حكومات الشعوب الإسلامية لأعداء الله من شيوعيين يحاربون الإسلام والمسلمين وكذلك، لليهود والنصارى وأذنابهم كم هي تلك الأموال؟

الرحلات الصيفية إلى بلدان الكفر للهو والمتعة الحرام وإفساد شباب المسلمين في عقائدهم وأخلاقهم وإبعادهم عن دينهم كم من الأموال تصرف وتنفق في هذه الرحلات[١].

ثم ارجع فتأمل كيف ينفق المسلمون أموالهم في الشؤون التي هي في الأصل مباحة. كم من أنواع الأطعمة تقدم على مائدة كل أسرة وكم يأكلون منها وكم يرمون منها في القمامة كل يوم. وكم من الأموال تنفق على الألبسة ولا سيما النسائية التي قد لا تلبس المرأة بعضها إلا مرة واحدة فقط ثم ترمي ما لبسته مدة ساعة من الزمن لتلبس غيره ساعة أخرى وهكذا، وكم من الأموال تنفق في شراء أثاث المنازل الذي لا يبقى في المنزل سنة كاملة بل يرمى ويشترى غيره وأثاث المنزل الواحد يكفي لنفقات قرية يعيش أهلها عيشة نكدة في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم ومركبهم. وكم من الأموال تنفق من أجل تشييد العمارات الشاهقة التي يتنافس فيها الحفاة العراة العالة رعاء الشاء كما قال الرسول ﷺ: «ثم تقفل أبوابها فلا يسكن بها إلا الشياطين ما عدا بعض المناسبات».

وكم من الأموال تنفق في حفلات الزواج التي أصبح كثير من الناس لا يقيمها إلا في فنادق سويسرا وباريس وغيرهما من دول الغرب، وإذا أقيمت في داخل الشعوب الإسلامية فكم من الأموال تصرف في استقدام فرق الغناء

---

(١) انظر جريدة الجزيرة السعودية، عدد ٢٥٠٨ في ١٣٩٩/٧/١ هـ ص ٨ وجريدة المدينة المنورة عدد ٤٦٢٩ في ١٣٩٩/٨/٤ هـ ص ٤.

والرقص في طائرات خاصة وكم من الأموال تنفق لجلب ما يغضب الله ورسوله من بلاد أوروبا؟.

الدخان كم من المال ينفق في شرائه المسلمون في كل أنحاء الأرض - وليس هو من المباحات بل من الخبائث - وهكذا إذا تأملت في أحوال المسلمين وجدتهم ينفقون أموالهم في المحرمات أو يسرفون في المباحات ويبذرون والمبذرون إخوان الشياطين، فضلاً عن ذلك كله ترى بقية أموالهم في أيدي أعداء الله من الكفار يتصرفون فيها ويحسبون لهم قدراً من الفوائد الربوية وإذا ساءت العلاقات معهم جمدوا تلك الأموال وقد يؤممونها يوماً من الأيام، وبهذا يظهر لك أن أغلب العالم الإسلامي بخيل بالمال في طاعة الله ضالع في تبذيره في المحرمات أو المباحات.

عد بعد هذا إلى المقياس الذي اتخذه المسلمون في إنفاق أموالهم وتصرفاتهم كلها ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[1] ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ ﴿والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ وغيرها من الآيات الدالة على أن المسلم لا يتصرف إلا وفق توجيه ربه، فهل ترى أغلب المسلمين الذين هذه حالهم في إنفاق أموالهم يأمرهم الله أن ينفقوا منها في مجالات الخير، ومن أعظمها الجهاد في سبيل الله فيبخلون بها. في عداد مَنْ يستمسك بهذا المقياس؟ كلا.

ثم عد إلى المقياس الذي اتخذه غير المسلمين في تصرفاتهم - ومنها إنفاق أموالهم، وهو اتباع الهوى وتلبية داعي الشهوات والمتع: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾، ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾، وتأمل تصرف هؤلاء المسلمين أتراها تخرج عن هذا المقياس؟ والكفر شعب كما أن الإيمان شعب.

---

(١) الأنعام: ١٦٣.

قال سيد قطب رحمه الله وهو يعقب على إنكار قوم شعيب على نبيهم عليه السلام: ﴿يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ قال: (وقبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة وارتباطها معاً بالمعاملات، قبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولى وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية، بجملتها ـ بما فيها أولئك الذين يقولون أنهم يهود أو نصارى أو مسلمون فكلهم[1] يفصل بين العقيدة والشعائر والشريعة والتعامل فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ووفق أمر غيره وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله. . . إن بيننا اليوم ممن يقولون أنهم مسلمون من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق وبخاصة أخلاق المعاملات المادية، وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم يتساءلون أولاً في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي وما للإسلام والعري في الشواطىء وما للإسلام وزي المرأة في الطريق ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ما للإسلام وهذا الذي يفعله المتحضرون فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين: (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا)، وهم يتساءلون ثانياً بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد فما للدين والمعاملات الربوية وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي. . .[2] نعم والذين ينفقون أموالهم في المحرمات ويسرفون فيها ويبذرونها في كل سبيل إلا السبيل الذي يأمرهم الله بالإنفاق فيها فيبخلون هؤلاء لسان حالهم يقول كما

(١) لو قال غالبهم كان أصوب.
(٢) في ظلال القرآن (١٢/١٩١٩).

قال قوم شعيب: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾(١).

وفي هذا المقام ينبغي أن يذكر المسلم قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾(٢)، وهي - وإن كان السياق يدل على نزولها في فئة خاصة من الناس وهم اليتامى من الأطفال الذين لم يبلغوا أشدهم إلا أنها جاءت بصيغة العموم فقد وصف الله الأموال أنه جعلها قياماً للناس وسبق أن المراد من ذلك أن أمور الناس ومعايشهم تقوم على الأموال وإذا كان كذلك فما الفرق بين طفل يبذر أمواله ويتصرف فيها تصرفاً غير رشيد بل تصرف سفه، وبالغ يظهر عليه أنه عاقل ولكنه يتصرف في أمواله بل في أموال غيره من عامة الناس تصرفاً أكثر سفهاً من الأطفال.

لهذا قال محمد رشيد رضا رحمه الله: (وقد علم من تفسير المفردات معنى جعل الأموال قياماً للناس تقوم وتثبت بها منافعهم ومرافقهم ولا يمكن أن يوجد في الكلام ما يقوم مقام هذه الكلمة ويبلغ ما تصل إليه من البلاغة في الحث على الاقتصاد وبيان فائدته ومنفعته والتنفير عن الإسراف والتبذير الذي هو شأن السفهاء وبيان غائلته وسوء مغبته، فكأنه قال: إن منافعكم ومرافقكم الخاصة ومصالحكم العامة لا تزال قائمة ثابتة ما دامت أموالكم في أيدي الراشدين المقتصدين منكم الذين يحسنون تثميرها وتوفيرها ولا يتجاوزون حدود المصلحة في إنفاق ما ينفقونه منها فإذا وقعت في أيدي السفهاء المسرفين الذين يتجاوزون الحدود المشروعة والمعقولة يتداعى ما كان من تلك المنافع سالماً ويسقط ما كان من تلك المصالح قائماً فهذا الدين هو دين الاقتصاد ودين الاعتدال في الأموال كالأمور كلها، ولذلك وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً. . .﴾ فماذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحكم حتى صرنا أشد الأمم إسرافاً وتبذيراً وإضاعة للأموال وجهلاً بطرق الاقتصاد فيها وتثميرها وإقامة مصالح الأمة بها في هذا الزمن الذي لم يسبق له نظير في أزمنة التاريخ حيث توقف قيام مصالح الأمم ومرافقها

---

(١) هود: ٨٧. (٢) النساء: ٥.

وعظمة شأنها على المال حتى أن الأمم الجاهلة بطرق الاقتصاد التي ليس في أيديها مال كثير قد صارت مستذلة ومستبعدة للأمم الغنية بالبراعة في الكسب والإحسان في الاقتصاد)[١].

وهذه الآية أصل في الحجر على السفهاء الذين لا يحسنون التصرف في المال إذا وضع بأيديهم. وقد فسرها العلماء فقيل المراد الأولاد الصغار وقيل اليتامى، وقيل الجهال بالأحكام، قال القرطبي: (وقال ابن خويز منداد: وأما الحجر على السفيه، فالسفيه له أحوال، حال يحجر عليه لصغره، وحالة لعدم عقله وحالة لسوء تصرفه لنفسه في ماله)[٢].

ويظهر من هذه العبارة أن من أساء تصرفه في ماله ـ ولو كان كبيراً إنه يحجر عليه وفيه خلاف ولكن ما حكم من أساء التصرف في أموال المسلمين العامة أو يجوز لهم السكوت عليه؟ الجواب في نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنرك وقد سبقت طائفة منها.

---

(١) تفسير المنار (٤/٣٨١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٨).

المبحث الثالث

إنشاء المصانع الجهادية

قال الله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديدٌ ومنافعُ للناس، وليعلم الله من ينصره ورَسَلَه بالغيب، إن اللهَ قويٌّ عزيزٌ﴾[1].

جمع الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بين إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وبين إيجاد الحديد وخلقه الذي يقوِّم به أهل الهدى أعداء الله الذين يطغون في الأرض ويعيثون فيها فساداً، فمن استجاب لهدي الله الذي تضمنه كتابه كان من عباده المؤمنين المتقين: ﴿هُدَى للمتقين﴾[2] ومن صد عن هداه وحادَّ الله ورسوله ففي الحديد له رادع ومؤدب.

وقد ثبت من استقراء سنن الله في هذا الكون وفي تاريخ الأمم أن المبادىء وقوة السلاح لا يفترقان إذا أريد للمبادىء أن تثبت وتسيطر على غيرها وتنتشر في الأرض سواء كانت مبادىء هدى أم مبادىء ضلال، وإن الصراع بين تلك المبادىء: مبادىء الإسلام ومبادىء الكفر لا ينقطع، وأن من تأخر عن الأخذ بأسباب القوة المادية المستطاعة معرض للذلة والمهانة، وإن كان صاحب حق وهذا ابتلاء من الله لعباده المؤمنين ليبذلوا جهدهم ومقدرتهم في سبيل نصر دينه وإعلاء كلمته، ولهذا كان لا بد أن يكون السيف بجانب المصحف وإلا استهانت البشرية الضالة بالدعوة إلى الله وأهلها وقد سبق إيضاح هذا المعنى في بعض مباحث هذا الفصل.

---

(١) الحديد: ٢٥.   (٢) البقرة: ٢.

قال ابن تيمية رحمه الله: (فالمقصود أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه، وهكذا قال الله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه، ثم قال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف، وقد روى عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا ـ يعني السيف ـ من عدل عن هذا يعني المصحف)[١].

وآية الحديد هذه مع قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ وقد مضى الكلام عليها قريباً ـ وغيرها من النصوص كما سيأتي ذكر بعضها ـ توجب على المسلمين أن ينشئوا المصانع اللازمة التي تمدهم بالسلاح المرهب لأعداء الله وغيره من لوازم الجهاد في سبيل الله.

وذلك يشمل كل أنواع الأسلحة في جميع العصور، فإذا كان في العصور السابقة، كعصر الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم، إذا كان السيف وما شابهه، والخيل وما شابهها هي السلاح الذي يرهب أعداء الله وكانت هي المستطاعة في ذلك الوقت وقد أمر الله عباده المؤمنين بها، لا على أنها القوة المأمور بها بل الجزء البارز من تلك القوة إذا كان الأمر كذلك فإن القوة المأمور بها في كل عصر هي القوة البارزة التي يظهر أنها الفيصل في المعارك الحربية، ففي هذا العصر ـ مثلاً ـ القوة البارزة: الطائرات الحربية المقاتلة والناقلة والشاحنة والصواريخ والدبابات والمصفحات والمدافع والرشاشات والقنابل والبندقيات والمسدسات وأجهزة الاتصال على اختلاف أنواعها وأجهزة كشف قوة العدو الجوية والبرية والبحرية، والسفن الحربية والغواصات وحاملات الطائرات وكلما يخطر بالبال مما يوجد بيد العدو أولا يوجد وهو مستطاع عند المسلمين كل ذلك

---

(١) الفتاوي (٢٨/٢٦٣).

يجب أن يقيم له المسلمون المصانع وأن يتفوقوا في صناعته كما وكيفا على أعدائهم ما داموا قادرين على ذلك وأن يكون تدريبهم على كل أنواع السلاح أرقى وأتقن من تدريبات عدوهم.

وبهذا يظهر أن المسلمين ـ في هذا الزمان ـ آثمون كلهم لعدم، قيامهم أو قيام بعضهم بإنشاء مصانع الجهاد التي تكفي لإمدادهم بما يتطلبه الجهاد في سبيل الله لأعداء الله، وإن الذين يثبطون المسلمين عن إنشاء المصانع النافعة ـ ولا سيما الحربية منها ـ خونة لا يجوز للمسلمين الركون إليهم ولا استشارتهم، لأن في ذلك تركاً للقيام بأمر الله وطاعة لأعدائه لا يمكن أن ينصحوا المسلمين بما ينفعهم إلا إذا كان ذلك النفع غير مضر بمصالحهم.

ألا ترى أن الله سبحانه أمر نبيه نوحاً عليه السلام أن يصنع لنفسه ولأتباعه ممن آمن به سفينة تكون سبباً مادياً في نجاتهم، مع أن الله تعالى كان قادراً على أن ينجيه وقومه بدونها، وما قيمة سفينة أمام قدرة الله لولا أن الله تعالى أراد نجاة أهلها: ﴿قال ربِّ انصرني بما كذّبون. فأوحينا إليه أن اصْنَعِ الفُلْكَ بأعيننا ووَحْينا، فإذا جاء أمرنا وفار التنُّور فاسلك فيها من كل زَوْجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغْرقون. فإذا استويتَ أنت ومن معك على الفلك فقُلِ الحمدُ لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين. وقُلْ ربِّ أنزلني مُنْزَلاً مباركاً وأنت خير المُنْزِلين﴾[١].

وعلم الله سبحانه نبيه داود صناعة الأسلحة فصنعها، قال تعالى ﴿وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم لتحصنَكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون﴾[٢].

قال القرطبي: (هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء فالسبب سنة الله في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة وقد أخبر الله عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع وكان أيضاً يصنع الخوص وكان يأكل من عمل يده،

(١) المؤمنون: ٢٦/٢٩.   (٢) الأنبياء: ٨٠.

وكان آدم حراثاً ونوح نجاراً ولقمان خياطاً[١].

وإذا كان الله سبحانه قد أمد بعض أنبيائه بأسباب مادية بلا صنع منهم، كما جعل الريح طوع أمر سليمان عليه السلام ـ مثلاً ـ فإن الله تعالى قد أمد البشرية في هذا العصر بما أدهش العقول، وهو مسخر لكل عامل ومن جد وجد ومن عز بز ومن غلب استلب وها هم أعداء الله الكفار وقد استغلوا كل ما بلغته طاقتهم ووصل إليه جهدهم ولا زالوا في نشاط متواصل لاستغلال ما سخره الله. وفضل الله الدنيوي مفتوح لكل مُجِدٍّ في تحصيله لا فرق بين مسلم وكافر. ولما لم يطلب المسلمون ذلك بجد صاروا من سقط المتاع وذيلاً للأعداء مع قدرتهم المعطلة التي لو استغلوها لكانوا على غير هذا الوضع المزري.

قال سيد قطب رحمه الله: (ويحسن أن تعرف حدود التكليف بإعداد القوة فالنص يقول: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فهي حدود الطاقة إلى أقصاها بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها، كذلك يشير النص الى الغرض الأول من إعداد القوة: ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة الله هي العليا وليكون الدين كله لله، ولما كان إعداد القوة يقتضي أموالاً، وكان النظام الإسلامي يقوم على التكافل فقد اقترنت الدعوة الى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله: ﴿وما تنفقوا من شيء يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾)[٢].

وقيام المسلمين بإنشاء مصانع جهادية هو الذي يجب أن يكون ما كانوا قادرين على ذلك، لأنهم به يستغنون عن عدوهم ويحفظون أسرارهم وأموالهم والمواد التي أنعم الله بها عليهم في بلادهم، ويطورون صناعاتهم على حسب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/٣٢١).
(٢) في ظلال القرآن الكريم (١٠/١٥٤٤).

الحاجة والمصلحة ويأمنون من خيانة عدوهم الذي يشترون السلاح منه، لأنه غالباً لا يبيعهم إلا السلاح الذي لا يصلح لأن يدافعوا به عن أنفسهم ذلك العدو الذي يكون قد صنع لنفسه أسلحة متفوقة في الهجوم والدفاع وصانها من أن يطلع عليها المسلمون، مع أنه ـ أي العدو ـ عالم بخفايا أسلحة المسلمين التي بأيديهم، لأنه هو الذي صنعها لهم فيكون بذلك قادراً على حرب المفاجأة والمسلمون غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم بالأسلحة التي بين أيديهم.

وليس معنى هذا أن المسلمين لا يشترون السلاح من أعداء الله الكافرين قبل أن يستغنوا بمصانعهم التي يقيمونها هم، بل يجب أن يشتروا منهم الأسلحة عندما لا يكونون قادرين على صنعها بأنفسهم أو لا يجدونها عند بعضهم من المسلمين، ولكن يجب عليهم ـ أيضاً ـ أن يسعوا لإنشاء المصانع المستطاعة، وعندئذ يكونون ممتثلين أمر الله سبحانه في الإعداد. وعليهم أن يجتهدوا في اختيار الفئة التي يشترون منها السلاح وأن يتثبتوا لأنفسهم في جودته وأن يكون سعره مناسباً قدر الاستطاعة. فقد يكون العدو الكافر الذي يبيع المسلمين أسلحته ليس بينه وبين المسلمين حرب مباشرة بل تكون الحرب بينهم وبين كافر آخر ولكن هذا العدو المحارب يستمد مؤنه وذخائره من العدو الكافر الآخر الذي يبيع السلاح للمسلمين فعلى المسلمين أن يجتهدوا في أن يكون السلاح الذي يشترونه منه مثل السلاح الذي يبيعه لعدوهم المحارب إن لم يمكن أن يكون أقوى منه، وأن يستعملوا في سبيل الحصول على ذلك كل الوسائل المادية التي تجبر البائع على الاستجابة لطلبهم فإنه قد يكون في حاجة إلى شراء بعض المواد من المسلمين وعليهم أن يستغلوا حاجته كما يستغل هو حاجتهم.

أما العدو المحارب فإنه من الصعب على المسلمين الحصول على أسلحته إلا من طريقين الطريق الأول وقوع أسلحته في أيدي المسلمين غنيمة في ساح القتال وهذا ما كان يحصل للمسلمين في حروبهم ضد أعدائهم في كل العصور ولا زال.

الطريق الثاني الحصول عليه من قبل شركات أجنبية تبتاع منه السلاح وتبيعه وفي هذه الحال إذا ثبت للمسلمين أن في شراء هذا السلاح مصلحة

راجحة لهم ومضرة على عدوهم فعليهم أن يبتاعوه وأن يكونوا حذرين من أن يكون العدو أراد أن يخدعهم عن طريق تلك الشركة بهذا السلاح حيث يظنون أنه نافع وهو في الواقع ضار لهم.

ولا شك أن المسلمين قادرون على إنشاء المصانع لجميع ما يحتاجون إليه في حياتهم السلمية والحربية ـ وكلها حياة جهادية ـ ؛ لا سيما في هذا العصر الذي أتاح الله لهم فيه من المواد التي تقوم بها المصانع ما يكفي لإقامتها، وهم ينتشرون في الأرض على مساحات واسعة غنية بالتربة الخصبة والمياه الوفيرة والحديد والصلب والماس والبترول كما هو واضح لمن تأمل خريطة العالم الإسلامي من غرب أفريقيا إلى أندونيسيا.

نعم قد تكون بعض الشعوب الإسلامية، بحدودها الجغرافية المصطنعة وحواجزها السياسية الفاسدة وما غزاها من العصبيات الفكرية المبنية على القوميات أو المبادىء الأجنبية، قد تكون بعض هذه الشعوب يوجد بها بعض المواد والمعادن، وبعضها يوجد بها بعض المواد والمعادن الأخرى كأن يوجد الحديد ومشتقاته في بلد ولا يوجد في هذا البلد مواد الطاقة كالزيت ومشتقاته، مع أن بعضهما يكمل الآخر، وقد يوجد في بعض هذه الشعوب الخبراء في صناعات بعض المواد ولكن المواد التي يجيدون صناعتها توجد في بلد آخر لا يوجد به خبراء أو يوجد منهم من لا يكفي للقيام بصناعة تلك المواد. وهذا ما يعيق تلك الشعوب في استغلال خيراتها وخبراتها معاً.

ولكن هذه الشعوب لو هداها الله فتعاونت على استغلال تلك الخيرات والخبرات لاستطاعت في فترة غير طويلة النهوض من مرقدها واللحاق أو السبق للأمم التي جدت وتعاونت لبلوغ أهدافها المادية.

فالشعب الذي تتوافر فيه الطاقة مثل الزيت ونحوه يمد بهذه الطاقة الشعب الذي يتوافر فيه الحديد ونحوه للاشتراك في إقامة المصانع الممكنة والشعب الذي يتوافر فيه الخبراء في صناعة الزيت ومشتقاته يدفع بهؤلاء الخبراء إلى الشعب الذي يتوافر فيه الزيت ومشتقاته لإقامة المصانع المناسبة وهكذا كل شعب مسلم يتعاون مع الشعب المسلم الآخر فيما يعود عليهما بفائدة خيراتهما

وخبراتها، ويمكن أن تشترك جميع الشعوب الإسلامية في إنشاء مصانع معينة لا يقدر بعضها أن يقوم بها، ثم تكون أولوية الشراء للشعوب الإسلامية بأسعار مناسبة إن لم تكن أقل من أسعار سلع الأعداء التي يبيعونها في أسواقنا فلتكن مثلها.

ولإيضاح هذه الحقيقة يحسن أن يمثل لذلك ليكون المسلم على بينة من أمره:

السودان ـ مثلاً ـ بها أراض واسعة خصبة، تتدفق بها مياه النيلين والذي ينقصها لـزراعة تلك الأراضي واستثمارها هو المال الذي تحتاج إليه لإنفاقه في شراء الآلات وإيجاد الخبرات واستقطاب العمال الذين غادروا البلاد بحثاً عن لقمة العيش، كما تنقصها الطاقة التي تحرك بها تلك الآلات ووسائل النقل البري والبحري والجوي لاستغلال ثمار ما تزرعه وتصديره في داخل البلاد وخارجها للإتجار فيه.

ودول الخليج والجزيرة العربية، وليبيا ـ مثلاً ـ غنية بالطاقة والمال وهي تشتري الأغذية من الحبوب والحيوانات والمعلبات، ومياه الشرب من الدول الأجنبية الكافرة في الشرق والغرب بأسعار باهظة وتبيع طاقاتها وموادها بأسعار زهيدة من تلك الدول الأجنبية وتستثمر أموالها في الدول الأجنبية كذلك.

ولو أن هذه الدول الغنية بالطاقة والمال استثمرت بعض أموالها في السودان ـ وهو بلد مسلم مجاور ـ لزراعة أراضيه الصالحة وأمدته بالطاقة اللازمة والآلات لأصبح هذا البلد مصدراً لغذاء الدول العربية كلها من حبوب وخضار وفواكه ولحوم وغيرها ولأقيمت به مصانع القطن ومشتقاته وكذلك الصوف، ولما بقيت هذه البلدان تحت رحمة الدول الأجنبية تهددها بقطع لقمة عيشها التي لا تقدر على الحياة بدونها، ومثل السودان في ذلك بنغلاديش التي لا يرى الناظر فيها قطعة من الأرض غير صالحة للزراعة مع وفرة المياه فيها وغيرها كثير من بلدان العالم الإسلامي التي لو بذلت في زراعتها الجهود لأصبحت تنافس دول الشرق والغرب مجتمعة في ذلك (ولكن العالم الإسلامي يضطر إلى استيراد أنواع الحبوب كافة، إذ لا يكفيه انتاجه وذلك يعود إلى قلة المشروعات القائمة وعدم

الاهتمام اللازم بالزراعة والانتاج الزراعي، ولو أولى هذا الجانب الاهتمام وأقيمت المشروعات اللازمة للري وإحياء الموات من الأراضي لأصبح العالم الإسلامي مصدر خير لأبنائه ومركزاً لتصدير أنواع الحبوب وذلك لما في أرضه من خصوبة واتساع)[١].

هذا مثال لما يمكن أن تقوم به بعض الشعوب الإسلامية متعاونة فيغنيها عن سيطرة الأعداء عليها وإخضاعهم لها بسبب حاجتها إلى استيراد المواد الضرورية من بلادهم وتهديدها بقطع إمدادها بلقمة العيش عنها فضلاً عما سوى ذلك.

وها هي الدول الكافرة تعقد الأحلاف وتتجمع في سبيل الحصول على مصالحها السياسية والاقتصادية والحربية وتتفاوض مع غيرها مجتمعة من مركز قوة في كل شؤونها والحال أن كل دولة قادرة على تنفيذ كثير من مآربها مفردة ولكنها تشعر أنها لا تقدر على الحصول على أكبر قدر مما تريد إلا إذا تعاونت مع غيرها، وأقرب مثال لهذا التعاون السوق الأوروبية المشتركة التي تحاول بجد توحيد جهود دولها اقتصادياً وحربياً وسياسياً للوصول إلى الوحدة الأوروبية الكاملة.

والعالم الإسلامي الغني بثرواته ومعادنه وإمكاناته البشرية قادر على التنسيق والتعاون الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والعسكري، ولو تم له ذلك لاستطاع أن يقيم المصانع ويستقدم الخبراء والعلماء المسلمين الذين هاجروا إلى الدول الكافرة لعدم وجود الإمكانات المتاحة لاختصاصاتهم في البلدان الإسلامية التي هاجروا منها، ولو هيئت لهم الفرص في بلادهم لنصحوا لأمتهم واجتهدوا في تحقيق مصالحهم لا سيما المتمسكين بدينهم الراغبين في إعلاء كلمة الله في الأرض فإنهم سيسعون جادين في استغلال جميع ثروات بلادهم ومعادنها معتبرين القيام بذلك عبادة لربهم، كل في اختصاصه. وسيرى عندئذ أهل هذه البلدان انهم حرموا من جهود أبنائهم مدة طويلة من الزمن وأن أعداء الله وأعداءهم من أهل الكفر استفادوا من تلك الجهود وتلك الخبرات دونهم وإن الخسارة التي منوا بها بسبب ذلك عظيمة يتحمل وزرها من فرط فيهم وهو

(١) اقتصاديات العالم الإسلامي (ص ٧١) لمحمود شاكر.

قادر على الاستفادة منهم، وأن ذلك التفريط كان مقصوداً لإرضاء أسيادهم الكافرين بتأخر شعوب العالم الإسلامي وإتاحة الفرصة لأولئك الأعداء للإستفادة من خيرات هذا العالم وخبراته، لأن أبناء الشعوب الإسلامية لو عادوا إليها وهم قادرون على استغلال خيراتها ومكنوا من ذلك لما نال أعداء الله كل ما نالوه من مصالحها ولخضعوا لجميع مطالب المسلمين من بذل خبراتهم وبيع المعدات والآلات التي يحتاجون إليها مما لم يكن قد صنعوه لأنفسهم وأهمه الأسلحة الهجومية التي يجب توافرها عند المسلمين ليرهبوا بها عدو الله وعدوهم.

ولكن المسلمين فرَّطوا في خبرائهم - كتفريطهم في خيراتهم - وأهملوهم لا بل حالوا بينهم وبين عودتهم إلى بلادهم واستقرارهم بها وقيامهم بما يجب أن يقوموا به، واهتموا بتوطيد علاقاتهم مع الكافرين متنازلين عن كثير من حقوق شعوبهم باذلين لأولئك الكفار أضعاف أضعاف ما يستحقونه، ففتحوا لهم المجال للتنقيب عما يحتاجون إليه من الطاقة والمعادن التي لا توجد في بلادهم أو توجد بكميات ليست كافية لهم، أو أنها تكفي ولكنهم يخفونها في أرضهم ليستنزفوا ما في أرض المسلمين بأثمان زهيدة ويصنعوا من بعضه مشتقات لا تحصى فيستعملون أحسنه وأجوده وأكثره فائدة لهم ويبيعون ما لا يحتاجونه بأعلى الأسعار للشعوب الإسلامية التي استنزفوا منها تلك الخيرات، كما يبيعون كذلك المعدات والأشياء التي كانت تلك الطاقة وتلك المعادن أصلاً لصناعتها أو سبباً فيها، يبيعونها بأثمان باهظة، فيستنزفون تلك الطاقة والمعادن من جهة ويمتصون أموال الشعوب الإسلامية بتلك الصفقات الجائرة من جهة أخرى.

وما بقي من أموال المسلمين من النقود تصرفوا فيه ونالوا به أرباحاً هائلة بحجة إيداعه في بنوكهم واستثماره في بلادهم مقابل نسبة تافهة تسجل للمودعين والمستثمرين، يغلب عليها الربا والتعامل الحرام في الشريعة الإسلامية.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن أعداء الله لا يبيعون للمسلمين أي سلاح هجومي يرهبون به مقاتليهم، بل يبيعون ذلك السلاح الهجومي بكميات هائلة

من أرقى الأنواع وأحدثها لعدو المسلمين المقاتل المباشر ليرهبهم به، لأن ذلك العدو منهم ووليهم، ولأن المسلمين ـ وإن تظاهروا لهم بالصداقة الكاذبة وبذلوا لهم الوعود والعهود ـ أعداء لهم كما هم أعداء للمحاربين المباشرين، وبذلك تضاعفت خسارة المسلمين واستمر ذلهم وتأخرهم، على رغم وجود محاولات ضعيفة لإنشاء مصانع للسلاح وغيره.

والأدهى من ذلك أن المستشارين الذين يخططون لحكومات الشعوب الإسلامية المخططات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية هم من أولئك الأعداء الذين يضعون آلاف الصعاب والعقبات أمام أي مشروع يرون فيه مصلحة راجحة للشعوب الإسلامية، لا سيما المشروعات الصناعية، وبخاصة المشروعات الجهادية، فإذا قدم أي مشروع من تلك المشروعات درسوه وأخذوا يحذرون من تنفيذه معللين ذلك بعدم الإمكانات التي تجعله ناجحاً ويثبتون بالأرقام الكاذبة لذوي العقول البليدة أو الضمائر الخائنة خسارة ذلك المشروع لأنهم يعلمون أن في تنفيذه فتحاً للأبواب والمنافذ لولوج الشعوب الإسلامية في أعماق حضارتهم المادية المحتكرة المبنية ـ عندهم ـ على الكفر ـ ويعلمون أن المسلمين لو أحرزوها لبنوها على الإيمان والدين والخلق، وأن في ذلك تحطيماً لحضارتهم الغربية المبنية على الكفر والإلحاد.

وإذا لمسوا من المسلمين تصميماً على إقامة المصانع حسنوا لهم إنشاء مصانع لا تضرهم كثيراً مثل صناعة الزجاج والورق والغزل والنسيج وبعض الأواني والأثاث، وتجميع القطع المصنوعة في بلادهم لتركيبها في بلاد المسلمين كالسيارات وبعض الأسلحة الخفيفة ليخدروا المسلمين بذلك فيرضوا بالدون ويختاروا الادنى على الأعلى.

والمؤسف أن المسلمين لم ينتبهوا لهذا الكيد السافر والاستنزاف الكثير وهذا الصد عن الوصول إلى العزة والكرامة والاستغناء عنهم، بل لا زال أولئك الكفار هم بطانة كثير من حكام المسلمين والله تعالى قد حذرهم منهم في كتابه وتحذيره يتلى منذ أربعة عشر قرناً من الزمان كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من

أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾[١].

والمؤسف حقاً أن يجد المسلم من يرفع صوته في بلاد المسلمين حاضا لهم على تقليد الغرب في نبذ الإيمان بالله ورسله والوحي والخلق وفي كل تحلل وقبيح، وقد استجاب لذلك كثير من المنتسبين إلى الإسلام، بل أكثرهم وعلى رأسهم أكثر حكام الشعوب الإسلامية الذين أعلنوا عداءهم السافر للإسلام وأقصوه عن حياة المسلمين ولا يجد ـ المسلم ـ من ينادي بالتمسك بالإسلام والسعي الجاد في الاستفادة من السبق المادي الذي أحرزه أعداء الله، لإعلاء كلمة الله، إلا القليل النادر الذي لا يملك إلا النداء ـ وقد يحظر عليه النداء ـ وهو يردد قول الشاعر:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ولكن لا حياةَ لمن تُنادي
ولو ناراً نفختَ بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

ما الذي يمنع المسلمين من إنشاء المصانع واستقطاب الخبراء من علماء المسلمين وغير المسلمين ـ إذا دعت الحاجة ـ إلا ضعف الإيمان والأنانية والطواف حول الزعامات المتسلطة من أعداء الإسلام على المسلمين وخيراتهم من أبناء جلدتهم خدمة لأسيادهم الكفار، وإلا الخلافات المستحكمة بين أولئك الزعماء بسبب أغراضهم الشخصية والحفاظ على كراسي حكمهم الذي يستعينون عليه بأعداء الله الكفار الذين يدعمونهم بالسلاح الهجومي على شعوبهم ويقال عنه إنه دفاعي بالنسبة للعدو المحارب، كما يمدونهم بالخبراء والمستشارين الذين يمنونهم بطول الزعامة على تلك الشعوب المحكومة ويرسمون لهم سياسة الإنفصام النكد عن شعوبهم حتى يشعروا بأن شعوبهم ضدهم وأنه لا بد من قهرها بقوة خارجية فيبقى أولئك الزعماء خاضعين لتلك القوى الأجنبية توجههم وتخطط لهم وهم ينفذون ما يكون فيه ظلم شعوبهم وظلم أنفسهم في النهاية فهل ترى أمثال

(١) آل عمران: ١١٨/١١٩.

هؤلاء يهتمون بتقدم بلادهم وإقامة المصانع فيها وهم بهذه الحال؟

ولو أنهم إلتحموا بشعوبهم وكان تعاملهم معها مبنياً على الحب والنصح وحالوا بينهم وبين العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة وعبئوهم تعبئة جهادية بالمال والنفس لأحرزوا في وقت غير طويل ما أحرزه غيرهم في وقت أطول.

وهذه اليابان ـ وهي دولة كافرة ـ ولكن لها أخلاقها وتقاليدها التي لم ترض أن تفقدها، فجدت ـ بعد أن كاد شعبها يدمر تدميراً ـ وكابدت وبدأت من النقطة الأولى في الصناعة حتى أصبحت تنافس دول الشرق والغرب وملأت الأسواق بصناعاتها، ولو أعطيت الفرصة في صناعة الأسلحة المدمرة لفاقت غيرها من الدول الكبرى التي أصبحت خائفة تترقب من قفزاتها الهائلة.

وهذه دولة اليهود الذين احتلوا بلاد المسلمين ومسجدهم الثالث وانتهكوا حرماتهم قد أحرزت السبق في صناعة القنبلة الذرية، وأصبحت تصدر أسلحتها بعد أن ملأت مخازنها ـ إلى خارج بلادها ولم يمض على إقامة هذه الدولة اللعينة الدخيلة التي اجتمع زعماؤها من آفاق الدنيا إلا ثلاثون سنة[١]، وساسة اليهود وقادة جيوشهم وزعماء دينهم يصرحون كلهم بوجوب تمسكهم بدينهم وعقيدتهم ويسمون أسلحتهم ومواقع قتالهم بأسماء دينية عندهم.

ما سبب هذا التقدم السريع في مجال الصناعة والإدارة عند أعداء الله وما سبب هذا التأخر والموت الطويل عند المسلمين؟

أليس سبب تقدم أعداء الله: الإرادة والعمل واستغلال الطاقات ومعاملة الآخرين بالمثل مصلحة بمصلحة وضغـطا بضغط؟

وسبب تأخر المسلمين التبعية والموت الطويل الأمد والخنوع لأعداء الله الذين يأخذون منهم ولا يعطونهم؟.

وما الفائدة التي جناها المسلمون من تلك الجيوش التي هاجرت إلى الغرب باسم طلب العلم ثم عادت كاسدة في تخصصها ناقلة عفن الغرب إلى

(١) يراجع كتاب العسكرية الاسرائيلية لمحمود شيت خطاب.

بلادها، ومن نجح في عمله احتجز في الغرب ليقدم لهم ما عنده من خبرة وطاقة وحرم منه أهله وبلاده. واستمع أيها المسلم لصرخة أحد إخوانك الذين لا يملكون إلا النداء وقل بعد سماعك: هل من مجيب؟

(وأما هؤلاء الذين نعتمد عليهم في دراســة أراضينا فإن مصالحهم - مما لا شك فيه - هي المقدمة ولا غرابة في ذلك، فكل إنسان يسعى وراء مصلحته وليس هناك من يفتش على مصلحة الآخرين ويدع شأنه الذي فيه صلاح أمره. إنهم ينقبون خارج أراضيهم عن المعادن والثروات التي لا تتوفر في بلادهم، ولا يهتمون بما عدا ذلك، فالبترول الذي تذخر أراضينا فيه تتنافس الشركات في سبيل الحصول على امتيازات للتنقيب عنه وتسرع لحفر الآبار واستثمارها، بل إن السياسة الدولية لا يمكن فهمها جيداً إلا إذا وضعنا بعين الاعتبار مصالح الدول البترولية وحركة شركاتها من خلال تلك المصالح وكثير من الإنقلابات العسكرية كانت الشركات البترولية من ورائها تخطط لها وتحركها لتحقق غايتها وتؤمن أرباحها وتحصل على أوسع منطقة لامتيازاتها وبالتالي تؤمن الفوائد لدولها أما الثروات المعدنية الـدفينة الأخرى ومصادر الطاقة الثانية التي تزخر فيهـا أراضيهم فلا ينقب عنها خارج حدودهم ولا يهتمون فيها إلا من خـلال مصالحهم وما يرون من ذلك من فائدة لهم، كان يأخذوا المعلومات الكاملة عنها ويتركوها وتبقى تلك الدراسات سرية للغاية وبيد الدارسين فقط، حتى إن هذه المعلومات لتجهلها الدولة صاحبة الأرض بالذات، فالرصاص والكروم والمنغنيز والقصدير والأورانيوم لا تزال ثروات منها كبيرة مدفونة في جوف أرضنا ولا يهتم بها أحد بل لا نعرف الاحتياطي منها لأنها لم تدرس بعد ما دام الأجانب يؤمنون هذه الثروات من بلادهم وتزخر أراضيهم بها فيكتفون بما يستخرجون منها وتقنع صناعاتهم بما يحصلون عليه إذ الحاجة غير ملحة لهم بالذي في أرضنا وتبقى ذخراً يمكنهم التنقيب عنه في الوقت الذي يرون فيه ضرورة لهم ولصناعتهم إذ يرون الآن أنهم ليسوا بحاجة إلى استخراجه حتى لا تزداد ثروتنا أو تقوم لنا صناعة. وقد تكون الظروف السياسية غير مناسبة لهم لاستثمار الثروات الباطنية من منطقة من المناطق كأن يكون الوضع السياسي في غير مصلحتهم أو حتى لا تلفت المنطقة نظر بقية المؤسسات الاستعمارية والشركات الاستعمارية و. . .

وقد يستخرجون بعض الثروات ليبقى ما في بلادهم احتياطياً لهم ما دام مضموناً في أيديهم كما يعلمون أن نهوضنا سيبقى متأخراً ما دامت رقابنا في أيديهم أو نتبع إشاراتهم وهذا ما يخططون له ليبقى الوضع على حاله فيتخذون من الحراس صوراً ظاهرة وهم في الواقع من القش وسيوفهم من خشب عليهم ولكنها علينا بتارة ولتظهر كذلك على غيرنا)[١].

إن المتأمل في تصرف زعماء المسلمين بالنسبة للصناعة ـ وغيرها كذلك من مصالح شعوبهم ـ يتضح له أنهم لا يريدون القتال، بل يودون من قرارة نفوسهم أن يتركوا وشأنهم وليكن ما يكون بعد ذلك من احتلال الأعداء للأراضي الإسلامية وتشريد شعوبها وقتلهم وتعذيبهم وانتهاك حرماتهم والسيطرة على بلادهم اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً، كل ذلك لا يعنيهم في شيء ما بقوا زعماء ولو صورة، والموجه الحقيقي في تصرفاتهم هو العدو الكافر ولا يغرنك تحرك كثير من الزعماء ونداءاتهم بين حين وآخر للصمود والتصدي كما يقولون فإن ذلك صمود وتصد لشعوبهم لا لعدو شعوبهم وإنما هو من ذر الرماد في العيون. وإلا فلو أرادوا القتال حقاً لأعدوا له عدته ومنها إنشاء المصانع الجهادية، وقضوا على الترف والاسترخاء الذين فرضوهما على شعوبهم فرضا بتبديد الأموال في متع الدنيا وأثاثها وشهواتها فأماتوا بذلك الجندية والرجولة في نفوس المسلمين.

وإرادة القتال ـ كما حددها بعض المختصين: (الرغبة الأكيدة في الصمود والثبات في ميدان القتال من أجل مثل عليا وأهداف سامية وإيمان لا يتزعزع بهذه المثل والأهداف وثقة بأنها أحب وأعز وأغلى من كل شيء في الحياة، وتحمل أعباء الحرب ببذل الأموال والأنفس واستهانة بالأضرار والشدائد وصبراً في البأساء والضراء وحين البأس حتى يتم تحقيق تلك المثل العليا والأهداف السامية مهما طال الأمد وبعد الشوط وكثر العناء وازدادت المصاعب وتضاعفت التضحيات)[٢].

---

(١) اقتصاديات العالم الإسلامي (ص ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٢) إرادة القتال لمحمود شبت خطاب ص ١٦.

ولقد أخاف أعداء الله أن تتمكن إرادة القتال من نفوس المسلمين فذهبوا يتخذون كل الوسائل الممكنة للحؤول بين المسلمين وبين هذا التمكن، وأخذوا يحذر بعضهم بعضاً ويتناصحون بما يمكن أن يبعد المسلمين عن مجال إرادة القتال التي ينبني عليها الجهاد الصناعي القائم على إعلاء كلمة الله في الأرض، وتأمل هذه التحذيرات والنصائح التي وجهها أحد المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية في منتصف هذا القرن[1]: (ليست الشيوعية خطراً على أوروبا فيما يبدو لي فهي حلقة لاحقة لحلقات سابقة، وإذا كان هناك خطر فهو خطر سياسي عسكري فقط ولكنه ليس خطراً حضارياً تتعرض معه مقومات وجودنا الفكري والإنسان للزوال والفناء.

إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً عنيفاً هو الخطر الإسلامي فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة فهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة إلى الاستغراب أي دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة في الشخصية الحضارية الغربية.

فرصتهم في تحقيق أحلامهم هي في اكتساب التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب فإذا أصبح لهم علمهم وإذا تهيأت لهم أسباب الانتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الغني وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الروح الغربية ويقذفون رسالتها الى متاحف التاريخ. وقد حاولنا خلال حكمنا الطويل في الجزائر أن نتغلب على الشخصية التاريخية لشعب هذا البلد فلم نأل جهداً في صوغ شخصية غربية له فكان الإخفاق الكامل نتاج مجهودنا الضخم الكبير.

إن العالم الإسلامي يقعد اليوم فوق ثروة خيالية من الذهب الأسود والمواد الأولية الضرورية للصناعة الحديثة ولكنه في حاجة إلى الاستقلال في استغلال هذه الإمكانيات الضخمة الكامنة في بطون سهوله وجباله وصحاريه.

---

(١) القرن العشرون الميلادي.

إنه في عين التاريخ عملاق مقيد عملاق لم يكتشف نفسه بعدُ اكتشافاً تاماً فهو حائر وهو قلق كاره لماضيه في عصر الإنحطاط راغب رغبة يخالطها شيء من الكسل أو بعبارة أخرى من الفوضى في مستقبل أحسن وحرية أوفر.

فلنعط هذا العالم ما يشاء ولنقو في نفسه عدم الرغبة في الانتاج الصناعي والفني فإذا عجزنا عن تحقيق هذه الخطة وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه عن مجاراة الغرب في الانتاج فقد بؤنا بالإخفاق الذريع وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهماً يتعرض به التراث الحضاري الغربي لكارثة تاريخية ينتهي بها الغرب وتنتهي معه وظيفته القيادية)[١].

وللباحث ـ هنا ـ تنبيهات:

الأول: أن الخطر الذي يخيف الغرب هو الإسلام والمسلمون، وإن كل خطر غير الإسلام هين، ومعنى هذا أن المسلم عندما يترك إسلامه ويتحول إلى دين آخر أو مذهب غير مذهب الإسلام لا خطر منه يخافه الأعداء مهما كانت قوته المادية.

الثاني: أن الخطر الحقيقي على الغرب إنما هو من المسلمين الملتزمين بإسلامهم المستقلين عن الأمم الأخرى، أما المدعون للإسلام الذين تذوب شخصيتهم في غيرهم فإنهم غير خطرين على الغرب وحضارته.

الثالث: أن سبب خطر الإسلام والمسلمين على الغرب ما يملكه المسلمون من عقيدة إسلامية صادقة وحضارة تاريخية أصيلة ليست تقليدية للغرب أو غيره.

الرابع: أن المسلمين الذين يخافهم الغرب هم الأقوياء في إيمانهم وأخلاقهم وفي اقتصادهم وصناعاتهم وليسوا الخاملين الكسالى الذين كدسوا وسائل الترف في بلدانهم وأخلدوا إلى الأرض.

---

(١) جند الله ثقافة وأخلاقاً لسعيد حوى (ص ٢٠ / ٢١).

الخامس: أن المسلم الذي لم تنحرف فطرته عن الصراط السوي يصعب على العدو إذابة شخصيته على الرغم من المحاولات الكافرة الجادة في ذلك لا سيما المسلم الذي يقف وجهاً لوجه في حرب سافرة مع ذلك العدو الماكر.

وبهذا يظهر وجوب سعي المسلمين للحصول على السلاح الكافي من صنع أنفسهم وأنهم آثمون إذا لم يسعوا في تحقيق ذلك أو قصروا في السعي.

فإن لم يقدروا على إنشاء المصانع الكافية كان عليهم أن يسعوا إلى حصول ما يكفي عن طريق الغنيمة من جهاد العدو أو الشراء وأن يستغلوا كل إمكاناتهم في الحصول على أجود أنواع الأسلحة وأن يبقى سعيهم متواصلاً لإقامة المصانع التي تغنيهم عن عدوهم الذين لا يؤمن مكرهم وكيدهم ولا يجوز الركون إليهم[1].

نعم لم يقم الرسول ﷺ وأصحابه في أول الإسلام مصانع للسلاح لأنه لم يكن ممكناً آنذاك، ولأنهم جاهدوا الكفار بما استطاعوا إعداده فغنموا سلاحهم وعندما توسعت الفتوحات الإسلامية أصبحت أسلحة أهل البلاد المفتوحة أسلحة لعامة المسلمين وهكذا المصانع وغيرها أما الآن فالإمكانات متوافرة ولا تنقص المسلمين إلا الإرادة الجازمة المبنية على الإيمان الراسخ والطاعة الكاملة لله سبحانه.

ويحسن هنا أن تنقل فقرات من كتاب اللواء الركن محمود شيت خطاب نظهر بها المصالح التي تعود على الجيش المكتفي ذاتياً بمصانعه، والمضار التي تنزل بالجيش الذي ينتظر المدد من الخارج.

قال: (إن الجيش الذي لا يكتفي ذاتياً بما يصنعه في معامله الوطنية من سلاح وذخيرة وتجهيزات لا يستطيع أن يصمد طويلاً في الحرب، وبمعنى آخر أنه

---

(١) إن الأمة التي تستورد اللحوم التي تأكلها وقطع الغيار لسياراتها والأسلحة الخفيفة والثقيلة فضلاً عن سائر ما تركبه ومعظم ما تشتريه أو تلبسه، إن مقومات جسمها مستورد، وإن مكونات عقلها مستورد، وإنها تكاد تكون عالة على حضارة أعدائها في كل صغيرة من عالم الأشياء وفي كل كبيرة من عالم الفكر فهل تكون مثل هذه الأمة قد عرفت الجهاد، وأي جهاد ذلك الذي سرى في كيان هذه الأمة «مجلة الدعوة السعودية عدد ٧٤٣، الاثنين ١٤/٥/١٤٠٠ هـ».

لا يستطيع أن يخوض حرباً طويلة الأمد، لأن الحرب تأكل السلاح أكلاً وتبتلع الذخيرة ابتلاعاً وتحطم الدروع والطائرات والعجلات تحطيماً وتستهلك التجهيزات استهلاكاً، فإذا نفد سلاح الجيش فبماذا يقاتل وإذا نفدت ذخيرة جيش فبماذا يحارب؟

وما يقال عن السلاح والذخيرة يقال عن الدروع والطائرات والعجلات والتجهيزات العسكرية والوقود والقضايا الإدارية الأخرى والأجهزة السلكية واللاسلكية والمواد الاحتياطية للعجلات والطائرات والبواخر وكل وسائط النقل البرية والبحرية والجوية.

إن للتسليح والتجهيز أثراً حاسماً من الناحيتين المادية والمعنوية في الجيوش، إذ أن التسليح الجيد بالإضافة إلى كونه قوة مادية للجيش فهو في الوقت ذاته يزيد في معنويات ذلك الجيش، لأنه لا معنويات لجيش قليل السلاح أو فاسده أو رديئه، ولا معنويات لجيش لا يثق بسلاحه ولا يعتمد عليه، ولا معنويات لجيش يعتقد أن سلاحه محدود إذا لم ينفد اليوم فسينفد غداً. . . .

إن لاستيراد السلاح والذخيرة والتجهيزات العسكرية والأجهزة العسكرية والمواد العسكرية الأخرى من الخارج محاذير كثيرة يدركها العسكريون ويدركون أخطارها على نتيجة الحرب وقد لا تغيب عن المدنيين أيضاً، ومن أهم هذه المحاذير أن سياسة الدول تتبدل من حين إلى آخر خضوعاً لمصالحها أولاً ورضوخها لتيارات خارجية قد لا تكون في الحسبان، فإذا كانت الدولة أو الدول الأجنبية التي تستورد منها السلاح والذخيرة والتجهيزات العسكرية اليوم معك لسبب أو لآخر فقد تصبح غداً مع عدوك كما حدث ذلك في كثير من الأحيان)(١).

وقال ـ بعد ذلك ـ : (والدول التي تصدر السلاح والذخيرة والتجهيزات العسكرية تستأثر لنفسها بالجيد منها، إذ لا يمكن. وليس من المعقول أن تؤثر غيرها من الدول بالأنواع المتميزة منها، وتفضل غيرها من الجيوش على جيشها الوطني كما أن السلاح والذخيرة والتجهيزات العسكرية المصدرة تكون .

(١) الوحدة العسكرية العربية (ص ٤٦ ـ ٤٧).

اعتيادياً ـ من الأنواع المكشوف أمرها لا من الأنواع السرية. أما الأنواع غير المعروفة والسرية والمخترعات الجديدة فلا تعرض في الأسواق ولا تصدر إلى الخارج حتى لا ينكشف أمرها)(١).

ثم قال ـ مبيناً فوائد التنسيق العسكري للعرب ـ(٢) (يهدف هذا التنسيق إلى عدم إقامة معامل متشابهة تنتج سلاحاً أو ذخيرة أو تجهيزات عسكرية متشابهة دون جدوى، فإذا كان هناك مصنع ينتج سلاحاً خفيفاً وكان بمقدور هذا المصنع تسليح الجيوش العربية بهذا السلاح فليس من الاقتصاد أن يتكرر مثل هذا المصنع في بلد عربي آخر، بل يمكن إنشاء مصنع في ذلك البلد العربي ينتج سلاحاً آخر تحتاج إليه الجيوش العربية، وبذلك يتم للعرب انتاج سلاحين مختلفين بدلاً من سلاح واحد... وهذا التنسيق يهدف إلى زيادة التعاون بين البلاد العربية في ناحية التسليح والتجهيز فتكون متطلبات الجيوش العربية من السلاح والذخيرة والتجهيزات معروفة ويكون معروفاً من أين يمكن تأمين تلك المتطلبات... ويهدف التنسيق إلى عمل مخطط عربي دقيق لإنشاء المصانع الحربية بحيث تؤمن في المدى القريب والبعيد على مراحل كل حاجات العرب إلى السلاح والذخائر والتجهيزات... ويهدف هذا التنسيق إلى الإفادة من المصانع غير الحربية للأغراض الحربية، مثلاً المصانع الحربية التي تنتج الأجهزة اللاسلكية كالمرسلات والمستقبلات لسلاح الإشارة يمكن أن تنتج المذياعات من الأنواع التي تعمل بالكهرباء، ومن الأنواع التي تعمل بالنضائد، ويهدف التنسيق إلى توزيع المصانع الحربية على البلاد العربية واختيار المواضع المناسبة لها)(٣).

ثم عقب في نهاية هذا المبحث قائلاً: (وقد بذلت الجامعة العربية من جهة، وبذل قسم من الدول العربية من جهة أخرى، وبذلت القيادة العربية

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٥٠.

(٢) تخصيص العرب هنا ليس من قبيل التعصب لهم كما هو شأن دعاة القومية الذين هم أشد عداء للعرب من كفار الغرب والشرق معاً، فالكاتب من المسلمين العسكريين، وإنما خصّهم بمناسبة أن الكتاب تصدى لوحدتهم العسكرية ضد شذّاذ الآفاق الذين هزموهم، وهم أكثر عدداً وإمكانات أخرى كثيرة بسبب تفرقهم وتجمع عدوهم في الداخل والخارج على حربهم.

(٣) نفس المرجع السابق (ص ١٥٢ وما بعدها).

الموحدة من جهة ثالثة جهوداً لتنسيق الصناعات العسكرية العربية، ولكن تلك الجهود لم تثمر الثمرة اليانعة في هذا المجال لأن الوحدة العسكرية العربية لم تصبح حقيقة ملموسة وعملاً ملموساً وواقعاً ظاهراً للعيان)(١).

وكيف تصبح الوحدة العسكرية العربية حقيقة ملموسة وعملاً ملموساً وواقعاً ظاهراً للعيان، والعالم العربي منقسم في ولاءاته هذا يتبع الغرب وهذا يتبع الشرق، هذا ملحد، وهذا علماني هذا يدعو للقومية العربية وذاك يدعو للحضارة الفرعونية وهذا يبعث الوثنية الأشورية وذاك يمجد الفينيقية وكلهم لا هم لهم إلا التربع على كراسي الحكم بأي وسيلة من الوسائل يجمعهم ذلك ليقفوا ضد الإسلام الذي لا يمكن أن يتحدوا على أي مبدأ سواه؟

والمصانع القتالية شاملة لكل ما يحتاج إليه المجاهدون في سبيل الله لخوض المعركة ضد العدو في أي وقت من الأوقات: السلاح الجوي والسلاح البري والسلاح البحري، ووسائل النقل، والخبرات اللازمة كالأطباء والممرضين والمرشدين والخدم، وقطع الغيار، والملابس والأحذية، والغذاء وغير ذلك مما قد لا يدخل في الذهن الحاجة إليه يجب أن يتوافر توافراً كاملاً، أو ما يستطاع منه.

ويجب على المجاهدين ـ ولا سيما القادة المسؤولين ـ حفظ السلاح ولوازمه وعدم بعثرته هنا وهناك فلا يخرج منه شيء إلا لحاجة تدريب المقاتلين عليه أو لفرق حماية أمن المسلمين أو المجاهدين الذين يباشرون قتال العدو لأن التبذير في السلاح يعتبر سفهاً غير لائق بالمسلم، وإذا حصل التبذير فيه وقت السلم ندم على تبذيره المجاهدون وقت الحرب التي قد تطول وتظهر عندئذ الحاجة إلى أنواع السلاح كلها الخفيف والثقيل فلا يجدونه، وقد يجدونه ولكن الإمداد به يأتي متأخراً، لذلك يجب أن يحفظ المجاهدون السلاح لوقته، بل ينبغي حفظه وعدم الإسراع في استعماله في بدء المعركة مع العدو إذا لم تدع الضرورة لذلك لا سيما إذا كان سلاح المجاهدين قليلاً وسلاح العدو كثيراً وها هو رسول الله ﷺ ينصح أصحابه باستبقاء سلاحهم وعدم العجلة في استعماله حتى يلتحم الصفان ـ في معركة بدر ـ كما في حديث أبي أسيد رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ

---

(١) نفس المرجع السابق (ص ١٥٥).

يوم بدر: «إذا أكثبوكم فارموهم و استبقوا نبلكم»[١]. قال الحافظ بن حجر رحمه الله: (فالمعنى استبقوا نبلكم في الحالة التي إذا رميتم لا يصيب غالباً، وإذا صاروا إلى الحالة التي يمكن فيها الإصابة غالباً فارموا)[٢].

وإذا كان الرسول ﷺ ينصح المسلمين ألا يرموا بسلاحهم عدوهم إلا إذا أصاب غالباً، بحيث لو كانوا بعيدين عنهم يغلب على ظنهم ألا يصيبوهم به فإن التفريط في السلاح وتبذيره في غير حالة الحرب أولى بالندم.

وفي هذا دليل واضح على عدم جواز بيع السلاح للعدو من الكفار ولمن يعينهم به منهم أو ممن ينتسب إلى الإسلام، وقد نص الفقهاء على ذلك: (ولا ينبغي أن يباع السلاح من أهل الحرب ولا يجهز إليهم) قال الشارح: (وكذلك الحديد لأنه أصل السلاح)[٣].

ويظهر من هذا خيانة من يبيع السلاح أو أصله، كالحديد، وكذا البترول للعدو المحارب أو لمن يمده به، كما يظهر أنه يجب على المسلمين أن يحفظوا طاقتهم ومعادنهم ولا يبيعوا منها إلا ما دعت إليه الضرورة مما يجلب لهم نفعاً ومصلحة واضحة تنفعهم في حالة الحرب أكثر مما تنفعهم في حالة السلم وإلا فإن الأعداء سيستنزفون طاقة المسلمين ومعادنهم بأرخص الأثمان، ويستعيدون أضعاف تلك الأثمان مما يصنعونه من تلك الطاقة وتلك المعادن ويعيدونه ليباع من أهله بأغلى الأثمان، وسيأتي يوم من الأيام تنفد فيه طاقة المسلمين ومعادنهم التي يبذرونها الآن، ويكون كثير منها مخزوناً عند الأعداء بالإضافة إلى مخزون أرضهم وهنا يصبح المسلمون أسرى للأعداء لعدم وجود طاقة ومعادن عندهم ووجود ذلك عند أعدائهم وهذا ما يتمناه أعداء الإسلام والمسلمين ويسعون جاهدين لتحقيقه.

وإذا كان المسلمون آثمين في تفريطهم في صناعة الأسلحة لإرهاب الأعداء ورفع كلمة الله فإن صانع السلاح يدخل به الجنة كما يدخل المقاتل به، وكذلك ناقله ومناوله إذا قصدوا جميعاً بذلك الجهاد في سبيل الله، ففي حديث

(١) البخاري، رقم ٣٩٨٤، فتح الباري (٧/٣٠٦).
(٢) فتح الباري (٧/٣٠٧). (٣) شرح فتح القدير في الفقه الحنفي (٥/٤٦٠).

عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومُنْبله. وارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا. ليس من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله. ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها» أو قال: «كفرها»[١].

وصناعة أسلحة الجهاد في سبيل الله من خير الأعمال وأفضلها قال ابن تيمية رحمه: في سياق كلامه عن الجهاد وصناعة السلاح.

(وتعلُّم هذه الصناعات هو من الأعمال الصالحة لمن يبتغي بذلك وجه الله عز وجل فمن علم غيره ذلك كان شريكاً له في كل جهاد يجاهد به لا ينقص أحدهما من الأجر شيئاً، كالذي يقرأ القرآن ويعلم العلم)[٢].

وإذا تفوق المسلمون في الإعداد والسلاح على عدوهم فلا ينبغي لهم أن يغتروا بذلك التفوق، وعليهم أن يتواضعوا ويطلبوا النصر من الله، ألا ترى أن ناقة الرسول ﷺ كانت لا تسبق فجاء أعرابي فسبقها بناقته فشق ذلك على المسلمين فقال ﷺ: «حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»[٣]. والإعجاب بالسلاح مثل الإعجاب بالكثرة كلاهما ينافي التواضع ويضعف التوكل على الله والاعتماد عليه، قال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾[٤].

ولهذا كان للمؤمنين سلاحان ـ لا بد منهما جميعاً ـ: سلاح الإيمان بالله

---

(١) أبو داود (٣/٢٨). ومعنى قوله: «ليس من اللهو إلا ثلاث...» أنه لا يوجد لهو حق إلا هذه الثلاث وما عداها فباطل كما فسر ذلك في حديث آخر: «كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فإنهنّ من الحق» راجع حاشية (١) من أبي داود (٣/٢٨) بتعليق عزّت الدعاس.

(٢) الفتاوي (٢٨/١٣).

(٣) البخاري رقم ٢٨٧٢، فتح الباري (٦/٧٣).

(٤) التوبة: ٢٤ ـ ٢٥.

وعبادته وقوة الصلة به في كل وقت ـ لا سيما وقت المعركة ـ وسلاح القوة المادية والحذر من العدو، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بإقامة الصلاة جماعة في وقت الحرب مفصلاً لهم كيفية إقامتها التي لا يتمكن العدو معها من استغلال إنشغالهم بها للهجوم عليهم وأمرهم بأخذ سلاحهم والحذر من عدوهم الذي يتمنى غفلتهم عن السلاح لينقض عليهم مباغتاً، قال تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾[١].

قال سيد قطب رحمه الله: (وأول ما يلفت النظر الحرص على الصلاة في ساحة المعركة، ولكن هذا طبعي، بل بدهي في الاعتبار الإيماني، إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة، بل إنها السلاح، فلا بد من تنظيم استخدام هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة، ولقد كان أولئك الرجال الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح، لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ويشعرون أنه معهم في المعركة متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعاً متفوقين أيضاً في تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنساني تفوقهم في تنظيمهم الاجتماعي الناشىء من تفوق منهجهم الرباني، وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله وتذكيراً بهذا كله ومن ثم كانت سلاحاً في المعركة بل هي السلاح)[٢].

(١) النساء: ١٠٢.
(٢) في ظلال القرآن (٥٢/٥).

الفصل الثالث

بَواعِثُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ومُعَوِّقاته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بواعث الجهاد في سبيل الله

المبحث الثاني: معوِّقات الجهاد في سبيل الله

بواعث الجهاد في سبيل الله ومعوقاته

المقصود من بواعث الجهاد في سبيل الله: الأسباب التي تدفع المسلم دفعاً قوياً للعمل المتواصل من أجل رفع راية الإسلام في الأرض بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقتال أعداء الله الصادين عن دينه حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

والمقصود من معوقات الجهاد: الأسباب والحواجز التي تثبط من يدعي الإسلام عن القيام بالجهاد في سبيل الله. وإذا توافرت البواعث وانتفت الموانع والمعوقات انطلق المسلم مجاهداً في سبيل الله لرفع رايته وتحطيم رايات الكفر وإذلال أهلها من الطواغيت.

ففي هذا الفصل ـ إذن ـ مبحثان:

المبحث الأول: بواعث الجهاد.

والمبحث الثاني: معوِّقاته.

المبحث الأول

بواعث الجهاد في سبيل الله

وفيه خمسة فروع:

الفرع الأول	:	قوة الإيمان
الفرع الثاني	:	معرفة ما أعد الله للمجاهدين في دار كرامته.
الفرع الثالث	:	استمرار محاربة أعداء الله لأوليائه.
الفرع الرابع	:	إحقاق الحق وإبطال الباطل.
الفرع الخامس	:	القدوة الحسنة.

إن الإنسان لا يتحرك لتحصيل شيء إلا إذا كان مرغوباً له، ولا يستمر في هذا التحرك إلا إذا قويت رغبته في تحصيل هذا الشيء وتوافرت لديه الأدلة المقنعة بأن هذا الشيء الذي رغب في تحصيله فيه فائدة تستحق بذل الجهد، كما أنه لا يبتعد عن شيء إلا إذا كان مكروهاً له، ولا يستمر في هذا الابتعاد عن هذا الشيء إلا إذا قوي كرهه له بتوافر الأدلة المقنعة بأن مضرة هذا الأمر تستحق بذل الجهد في توقِّيها.

وإلا فقد يرغب في الشيء رغبة آنية ليست مبنية على أدلة وحجج تدعم استمرار تلك الرغبة فيعرض له ما يجعله يكره ذلك الشيء بدلاً من الرغبة فيه. وقد يكره الشيء ـ كذلك ـ كرهاً آنياً ليس مبنياً على أدلة وحجج مقنعة تدعم استمرار كرهه له فيعرض له ما يجعله يحب ذلك الشيء بدلاً من كرهه له.

وما أكثر ما ترى الإنسان يتقلب في رغائبه ومكارهه بسبب عدم وجود الأدلة والبراهين التي تجعله يثبت على حالة واحدة: إما حبه للشيء، وإما كرهه

له وقد تكون الحجج والبراهين قائمة ومقنعة ولكن الهوى يعمي عنها ويصم كما قال تعالى: ﴿ولو اتَّبع الحقُّ أهواءهم لَفَسَدتِ السمواتُ والأرضُ ومن فيهنَّ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم مُعْرِضون﴾(١).

وفي هذا المبحث خمسة فروع:

الفرع الأول: قوة الإيمان.

لهذا كان الإيمان القوي أهم الأسباب والدوافع التي تبعث المسلم للقيام بالجهاد في سبيل الله، ويكون الإيمان قوياً بأمور كثيرة يمكن اندراجها فيما يأتي: -

أولاً: أن يحصل للمؤمن اليقين بما آمن به عن بيّنة وبرهان لا عن وراثة وتقليد، فإن الإيمان اليقيني عن بيّنة وبرهان، إيمان ثابت راسخ لا يرتاب صاحبه بما اعترضه من شبهات أو غيرها وهو الإيمان الصادق الذي يثمر فعلاً دفع صاحبه إلى تصديق قوله بفعله كما قال تعالى: ﴿إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم في سبيل الله، أولئك هُمُ الصادقون﴾(٢). وأهل هذا الإيمان الصادق هم الذين يحبهم الله فلا يمقتهم - بخلاف غيرهم ممن يخالف فعلهم قولهم - كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون؟! * كَبُرَ مَقْتاً عندَ الله أن تقولوا ما لا تفعلون * إنَّ الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صَفّاً كأنَّهم بُنْيان مرصوصٌ﴾(٣).

أما المرتاب الذي أخذ الإيمان وراثة وتقليداً عن أبويه الجاهلين - مثلاً - فإن إيمانه لا يلبث أن يتبخر ويصبح صاحبه مثل الأعمى الذي ينقاد لمن أخذ بيده ولا يدري إلى أين يقوده، كما قال تعالى مفرقاً بين المؤمن الذي بنى إيمانه على العلم والحجة وبين المؤمن المقلد: ﴿أفمن يعلمُ أنما أُنزل إليك من ربِّك الحقُّ كَمَنْ هو أعمى؛ إنَّما يتذكَّر أولو الألباب﴾(٤).

---

(١) المؤمنون: ٧١.

(٢) الحجرات: ١٥.

(٣) الصف ٢/ ٤.

(٤) الرعد: ١٩.

ثانياً: أن يكون إيمانه اليقيني، مبنياً على أدلة وبراهين من الكتاب والسنة الصحيحة لكل ما آمن به من أصول الإيمان ـ الستة التي تضمنها حديث جبريل ـ وفروعه. لأن علمه بالأدلة المفصلة لكل أصل من أصول الإيمان وكل فرع من فروعه يزيد إيمانه ويقويه بخلاف من آمن بتلك الأصول والفروع إيماناً مجملاً فإن إيمانه يكون أنقص من إيمان الأول، ويضرب لذلك أمثلة توضح المقصود:

رجل آمن بوجود الله وربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته، وعلم أدلة ذلك تفصيلاً من القرآن والسنة الصحيحة وكذلك آمن بالملائكة واطلع على الأدلة الواردة في صفاتهم وأعمالهم تفصيلاً، وهكذا الكتب المنزلة، والرسل الذين اختارهم الله تعالى لدعوة الأمم إليه، واليوم الآخر في علامات الساعة وقيام القيامة والبعث والنشور والجزاء والحساب والصراط والميزان والجنة بكل أوصافها الواردة، والنار بكل ما فيها من أهوال وردت في الكتاب والسنة، كل ذلك آمن به وعلم أدلته مفصلة. هل يكون إيمان غيره المبني على أدلة إجمالية كإيمانه؟ كلا.

ثالثاً: أن يكون المؤمن مستحضراً لما آمن به في أغلب أوقاته مداوماً على التفكير فيه، فإن ذلك يدفعه باستمرار إلى الحركة الدائمة صوب ما يقتضيه إيمانه وإلى الابتعاد عما ينافي ما آمن به بخلاف من انشغل قلبه عن ذلك فإنه على قدر إنشغاله عنه تضعف دوافع حركته نحو ما يرضي ربه، ويقوي تحركه نحو ما يسخطه تعالى.

رابعاً: أن يظهر إيمانه القلبي اليقيني في سلوكه الظاهري، وذلك بأن لا يتحرك إيجاباً أو سلباً إلا حيث تكون مرضاة ربه فيطبق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ونُسُكِي ومَحْيايَ ومماتي لله ربِّ العالمينَ * لا شريكَ له وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المسلمين﴾(١).

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الإيمان الحق الصادق المبني على

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

العلم التام وما يقتضيه، كما بين الإيمان الضعيف أو الميت الذي لا يثمر شيئاً لأنه بني على التقليد، فقال: (والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً. وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه وتصور المحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أنه لم يتصوره تصوراً تاماً، ولكن قد يتصور الخبر عنه، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه، وكذلك إذا لم يكن المتصور محبوباً له ولا مكروهاً، فإن الإنسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً. وكذلك إذا أخبر بما هو محبوب له ومكروه ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه لكنَّ قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به، فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب - إلى أن قال: - فالمؤثر التام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاماً، والفعل إذا صادف محلاً قابلاً تم وإلا لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه.

وهذا كله إنما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها، وأما مع فسادها فقد يحس الإنسان باللذيذ فلا يجد له لذة، بل يؤلمه، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة، والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً)[1].

وقد عبر المودودي رحمه الله عن الإيمان القوي الصادق بما يورث صاحبه من عمل جاد مثمر، فقال: (إنه من الواجب عليكم - يخاطب الجماعة الإسلامية التي كان يقودها في باكستان - أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم وتعمر قلوبكم بالطمأنينة وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد وتستقطب عليها جهودكم وأفكاركم بحيث أن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها الامكرهين، وعليكم بالسعي ألا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم فتكون معظمها

(١) الفتاوى (٧/ ٢٣/ ٢٥).

منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم وعبر عن الإيمان التقليدي ـ قبل ذلك ـ بقوله: أما مجرد فهم الإنسان لأهداف هذه الحركة واطمئنانه بصحتها عقلاً فإنما هو خطوة بداية لسلوك هذا الطريق ولا يكاد مثل هذا التأثر يسمن ولا يغني من جوع)[(١)].

وبخلاصة هذا المعنى الذي عبر عنه المودودي عبر حسن البنا رحمه الله فقال: (والفرق بيننا وبين قومنا ـ يقصد عامة المسلمين الذين وقفوا ضد الدعوة، ولم يناصروها ـ أنه يعني الإيمان ـ عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه على حين أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين. ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين، أن نؤمن بالفكرة إيماناً يخيل للناس حين نتحدث إليهم عنها أنها ستحملنا على نسف الجبال وبذل، النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب حتى ننتصر بها أو تنتصر بنا.

حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع نسي كل إيمانه وغفل عن فكرته فهو لا يفكر في العمل لها ولا يحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد في سبيلها بل أنه قد يبالغ في هذه الغفلة وهذا النسيان حتى يعمل على ضدها وهو يشعر أو لا يشعر)[(٢)].

ويظهر مما مضى أن الإيمان القوي الصادق هو أقوى البواعث على الجهاد في سبيل الله وأن ضعف الإيمان من أهم عوامل التعويق عن الجهاد في سبيل الله.

إن الإيمان القوي لا يترك صاحبه ينام، بل يوقظه، ولا يتركه يغفل، بل يذكره، ولا يدعه يلعب ويلهو، بل يرفع أمام ناظريه راية الخطر الذي يهدد أمته في الدنيا لينهض مجداً في دفعه عنها، كما يضع أمامه صفة الصراط والجنة والنار

(١) تذكرة دعاة الإسلام، الطبعة الباكستانية ص ٤٠.
(٢) دعوتنا ص ١٤ من مجموع رسائل الإمام.

ليعلم أن الحياة ليست حياة لهو وعبث وإنما هي حياة جد وكفاح، ويقرأ له كتاب العهد الذي بينه وبين ربه والصفقة التي عقدها معه من حين قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لَهُمُ الجنَّة، يقاتلـون في سبيلِ الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون، وَعْداً عليه حقّاً في التوراةِ والانجيلِ والقرآنِ، ومن أوفَى بعهده من الله، فأستبشروا ببَيْعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوزُ العظيمُ﴾[١].

والإيمان القوي ينظر من عل لشياطين الكفر وهم يتجمعون على أولياء الله المؤمنين ويخوفونهم بقوتهم وعددهم ليثنوهم عن الجهاد في سبيلِ الله وليخضعوهم للباطل فيطلق فيهم صرخته قائلًا: ﴿الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشَوْهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حَسْبنا الله ونِعْمَ الوكيلُ﴾[٢] فينطلق المؤمن القوي الإيمان مردداً هذه الصرخة: ﴿حَسْبنا الله ونعم الوكيل﴾ متحدِّياً أهل الأرض كلهم، فإذا اشتد عليه الأمر ذكره إيمانه بحزبه الذي سلم له هذا الدين أمانة عنده لحفظها، ذلك الحزب الضارب في أعماق التاريخ الذي قال الله فيه: ﴿ولمَّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسولُه، وصَدَق الله ورسولُه، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾[٣] فسرت روح قادة حزب الله في روحه وانطلق كالمارد يحطم حصون الطواغيت في كل مكان رافعاً راية الإسلام ليستظل بها البشر الذين حال بينهم وبينها أعداء الله.

ويصاب المؤمنون فيقتل من يقتل منهم ويجرح من يجرح ويحسون بفداحة الأمر وجلل الخطب فيناديهم إيمانهم مذكراً لهم بأن عدوهم أصيب كما أصيبوا وأن درجة المؤمن لا تسمح له بالقلق والندم، لأنه الأعلى في عقيدته وسلوكه وهدفه، وأن الحرب دول وهو ـ أي المؤمن ـ الأعلى دائماً فإذا قتل في المعركة فإنما هو اصطفاء وتكريم له من ربه حيث اتخذه شهيداً يرسم الطريق لإخوانه من بعده: ﴿ولا تَهنوا ولا تَحْزنوا وأنتم الأعْلَون إن كنتم مؤمنين، إن يمسَسْكُم قَرْحٌ فقد مسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُه، وتلك الأيامُ نداولها بين الناسِ، ولِيَعْلَمَ الله الذين آمنوا ويتَّخذ منكم شهداءَ والله لا يحبُّ الظالمين﴾[٤].

(١) التوبة: ١١١.
(٢) آل عمران: ١٧٣.
(٣) الأحزاب: ٢٢.
(٤) آل عمران: ١٣٩.

والإيمان القوي يوطن صاحبه على الصبر ويحضه عل إقامة الدليل على صحة إيمانه وأنه في الصف الذي يحبه الله بريء من نفاق المنافقين ورئاء المرائين ويذكره بأن الله يبتلي المؤمنين ليمحصهم ويصفي صفوفهم من عناصر الفساد هاتفاً له بأمثال هذه الآيات: ﴿ألم أَحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون، ولقد فتنَّا الذين من قبلهم، فلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صدقوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين﴾[١].

﴿أمْ حَسِبتم أن تُتْركوا ولَمَّا يَعْلمَ الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسولِه ولا المؤمنين وَليجةً، والله خبيرٌ بما تعملون﴾[٢].

﴿ولَنَبلونَّكم حتى نعلمَ المجاهدينَ منكم والصابرينَ ونَبْلُوَ أخباركم﴾[٣].

ويكره الإيمان القوي من صاحبه أن يكون من المتثاقلين الذين تجذبهم الحياة الدنيا فيشرونها بالآخرة، وتدعوهم الشهوات والمتع فيختارونها على رضا الله، ويخاف قوي الإيمان من عذاب الله إذا هو تأخر عن تلبية ندائه: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفِروا في سبيل الله أثَّاقَلْتُم إلى الأرض؟! أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرة إلا قليلٌ، إلا تنفروا يُعَذِّبْكم عذاباً أليماً، ويَسْتَبْدلْ قوماً غيرَكم ولا تَضـرُّوه شيئاً، والله على كل شيء قديرٌ﴾[٤].

وتجتمع المغريات والشهوات فتنادي المؤمن حاضة له على الركون إليها والانصياع لها صادة له عن تحقيق رضا الله ورفع رايته في الأرض: القرابات، والأموال، والتجارة، والمساكن، فينظر إلى داعي هذه المغريات فيراه في سفح من سفوح جبال الحياة الدنيا، ويسمع هاتفاً يناديه من على قمة الفردوس الأعلى يحذره من الاستجابة لمنادي الشيطان ويحضه على الاستجابة لله الواحد وتقديم رضاه على كل الشهوات والمغريات الأخرى فترتفع نفس المؤمن القوي الإيمان فيرجح رضا الله على سواه وأن ينجو من الكون مع القوم الفاسقين: ﴿ قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتكم، وأموالٌ اقْتَرَفْتُموها، وتجارةٌ

---

(١) العنكبوت: ١/ ٣.
(٢) التوبة: ١٦.
(٣) محمد: ٣١.
(٤) التوبة: ٣٨/ ٣٩.

تَخْشَون كسادَها، ومساكنُ ترضَوْنها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

الإيمان القوي يرتفع بصاحبه إلى قمة التوكل على الله والثقة في نصره على أعداء الله ولو كانوا كثرة، ويحاول المؤمن القوي أن يرفع مدعي الإيمان الذي اضمحل إيمانه إلى تلك القمة بشتى الوسائل والأساليب فلا يجدي ذلك فتيلاً، لأن الإيمان إذا اضمحل ذَلَّ صاحبه وجبن وألف الذلة والجبن فيفضل القعود المذل على الحركة المعزة: ﴿وإذْ قال موسى لقومه يا قومِ اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً، وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين * يا قوم أدخُلوا الأرضَ المقدَّسة التي كتب الله لكم ولا ترتدُّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا: يا موسى إنَّ فيها قوماً جبّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعمَ الله عليهما: أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا: يا موسى إنّا لن ندخَلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال ربِّ إنِّي لا أملِكُ إلا نفسي وأخي، فأفْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين﴾[2].

ويدفع الإيمان القوي القلة من أهله لتقف أمام الكثرة من أعداء الله مستهينة بكثرتها، لأنها تستند إلى الذي آمنت به، ويقف الكثيرون من ضعاف الإيمان جبناء أمام أعداء الله جازمين أنهم لا قدرة عندهم على قتالهم، لأن هؤلاء ليسوا مؤهلين للشجاعة الإيمانية والتوكل على الله بخلاف تلك القلة القوية الإيمان. اقرأ هذا الحوار بين الفئتين: ﴿فلما فَصَل طالوتُ بالجنود قال: إنَّ الله مُبْتليكم بنَهَر، فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يَطْعَمْه فإنه منيً، إلاّ من اغترف غُرْفة بيده، فشربوا منه إلاَّ قليلاً منهم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقةَ لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال: الذين يظنُّون أنَّهم مُلاقُوا الله: كَمْ من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله، والله مع الصابرين * ولما برزوا

(١) التوبة: ٢٤.
(٢) المائدة: ٢٠/ ٢٥.

لجالوتَ وجنودِه قالوا: ربَّنا أفْرِغ علينا صبراً، وثبِّت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله﴾(١).

وإن في تلك العصابة المؤمنة التي حملت راية الإسلام من أصحاب رسول الله ﷺ في جهادها ومقارعتها لأعداء الله في حياته وبعد موته لأبرز شاهد وحجة على أن الإيمان القوي يصنع بأهله ما لا تصنعه عوامل أخرى بدونه مهما عظمت. فما الذي جعل الغلمان الذين لم يبلغوا سن الجهاد يتسابقون لخوض المعارك؟ وما الذي جعل الشيخ الكبير السن ينافس أبناءه الشبان لحضور ساح الوغي حتى يحتكموا إلى رسول الله ﷺ؟ وما الذي جعل الواحد من أصحاب رسول الله ﷺ يستبطىء أكل تمرات في يده فيرميهن ويخوض المعركة حتى يقتل؟ أليس هو الإيمان الذي بلغ بأصحابه القمة في تحقيق رضاء الله؟ ألا أنه هو وليس غيره. ولا داعي لضرب أمثلة ونماذج لذلك هنا، فقد مضى شيء منها وسيأتي كثير ـ كذلك ـ في ثنايا هذا الكتاب في مناسبات أخرى، وكل مناسبة لها شواهد لا تحصى من حياة المجاهدين من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان.

الفرع الثاني: معرفة ما أعد الله للمجاهدين في دار كرامته.

إن شوق المؤمن إلى لقاء الله والفوز برضاه وثوابه يدفعه دفعاً إلى العمل الذي يقربه إلى الله، وإن أقرب الأعمال الموصلة له إلى رضا ربه وأعظمها وأجلها ـ بعد الإيمان ـ الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام.

والمؤمن الذي قوي إيمانه وعلم ما أعد الله للمجاهدين ـ ولا سيما الشهداء ـ بدار كرامته لا يستقر له قرار حتى يقارع أعداء الله وينال إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة ـ وهذه أحب إليه، وهما أكثر حباً إليه.

وقد مضى ذكر كثير من النصوص في بحث: فضل الجهاد يمكن الرجوع إليها ويكفي هنا ذكر طرف يسير من الكتاب والسنة وذكر بعض الأمثلة لمن اشتد بهم الشوق إلى لقاء الله فأسرعوا إلى ساح الجهاد فلقوه فعلاً:

---

(١) البقرة: ٢٤٩/ ٢٥١.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هَلْ أدُلُّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تُؤمنون بالله ورسولِهِ، وتُجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسِكم ذلكُم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * يَغْفِرْ لكم ذنوبَكم، ويُدْخِلْكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكنَ طيبةً في جنَّاتِ عَدْنٍ ذلك الفوز العظيم * وأخرى تُحبُّونها نَصْرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ وبشِّر المؤمنين﴾[1].

فالتجارة الرابحة عند الله هي الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله وربحها: مغفرة الذنوب ودخول الجنات التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومما يترتب على الجهاد نصر الله عباده المجاهدين على أعدائهم.

وما يرجوه المؤمن المجاهد من ربه لا يرجوه عدوه الكافر ـ وإن اشتركوا في حصول الألم الحسي الناشيء عن القتال ـ ولذلك لا يليق به ـ أي المؤمن ـ أن يتأخر عن العمل الصالح ـ وفي أوله الجهاد في سبيل الله ـ الذي يقربه مما يرجوه: ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أؤلئك يَرْجون رحمت الله، والله غفور رحيم ﴾[2].

﴿ولا تَهنوا في ابتغاء القومِ، أن تكونوا تألمون فإنَّهم يألمونَ كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً﴾[3].

والأجر العظيم والدرجات العلى، والمغفرة والرحمة التي فضل الله بها المجاهد المؤمن على المؤمن غير المجاهد، ـ عندما لا يكون الجهاد فرض عين ـ تحفز المؤمن حفزاً إلى عدم القعود الذي يحرمه ذلك الفضل العظيم ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضَّرر والمجاهدونَ في سبيل الله بأموالِهم وأنفسِهم، فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسِهم على القاعدين درجةً، وكُلّاً وعد الله الحُسْنى، وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً، وكان الله غفوراً رحيماً﴾[4].

(١) الصف: ١٠/١٣.
(٢) البقرة: ٢١٨.
(٣) النساء: ١٠٤.
(٤) النساء: ٩٥/ ٩٦.

والمؤمن الذي يعلم أن الحياة الحقة تكمن في الشهادة لا ترتاح نفسه بالقعود عن مقارعة أعداء الله، بل تطير به إلى لقاء الله في المعركة: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزقون * فَرحينَ بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرونَ بالذين لم يَلْحقوا بهم من خَلْفهم، ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرونَ بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ وأنَّ الله لا يُضيعُ أجْر المؤمنين﴾[١].

وهل ترتاح نفس مؤمنة بالقعود عن الجهاد وقد آمنت بقوله ﷺ: «واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف»[٢].

لا بل أن المؤمن القوي الإيمان لا ترتاح نفسه إذا لم ينل في المعركة الشهادة التي تجعل الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا بعد دخوله الجنة لما يرى من الكرامة كما روي أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»[٣].

وهذا ما جعل الصحابي الجليل يرمي تمرات في يده استعجالاً للفوز بذلك الفضل العظيم، ففي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: (أرأيت إن قتلت فأين أنا قال: «في الجنة» فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل)[٤].

وكان المجاهد يشم رائحة الجنة، وهو في المعركة لشدة يقينه بها، فينطلق مثل السهم طالباً لها فينالها في لحظات قليلة، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع... فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون فقال: اللهم إني أعتذر

---

(١) آل عمران: ١٦٩/ ١٧١.
(٢) البخاري رقم ٣٠٢٥ فتح الباري (٦/ ١٥٦) ومسلم (٣/ ١٣٦٢).
(٣) البخاري رقم ٢٨١٧، فتح الباري (٦/ ٣٢) ومسلم (٣/ ١٤٩٨).
(٤) البخاري رقم ٤٠٤٦ فتح الباري (٧/ ٣٥٤٥) ومسلم (٣/ ١٦٠٩).

إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ (الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد) قال: سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعة وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل..)[١].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه، وهو يعظ المجاهدين ويحضهم على التقدم إلى عدوهم: (سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم، ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه في مثل هذا الموطن ألا وأن للصابرين فضلهم)[٢].

وكان المجاهد المشتاق إلى لقاء الله، وإلى مرافقة رسوله ﷺ في الجنة - بعد موته عليه السلام - يودع قائد جيشه قائلاً له: هل لك حاجة إلى رسول الله ﷺ. كما حدث في وقعة اليرموك: (ويقال: إن أول من قتل من المسلمين يومئذ رجل جاء إلى أبي عبيدة فقال: إني قد تهيأت لأمري فهل لك حاجة إلى رسول الله ﷺ قال: نعم تقرئه عني السلام وتقول: يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، قال: فتقدم الرجل حتى قتل رحمه الله)[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: (وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها، والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد، ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله فإنه كمل مراتب الجهاد وجاهد في الله حق جهاده وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل)[٤].

الفرع الثالث
استمرار محاربة أعداء الله لأوليائه

الإسلام هو منهج الله الذي أنزل به كتبه وبعث رسله ليبلغوه للناس كافة ليطبقوه في حياتهم، وهو الاستسلام الكامل لله في فعل أوامره واجتناب نواهيه،

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول، (٨/ ٢٤٢) وقال: أخرجه البخاري والترمذي.
(٢) البداية لابن كثير. (٣) البداية لابن كثير (٦/ ١٢). (٤) زاد المعاد (٢/ ٤٥).

به تحقق عبودية العباد كلهم للإله الواحد: ﴿ولقد بَعَثْنا في كلِّ أُمة رسولاً أنِ اعبُدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾(١). وانقسمت البشرية- من قديم الزمان - إلى قسمين قسم استجاب لدعوة الرسل فعبدوا الله وحده وانكروا عبادة ما سواه، وقسم استجابوا لدعوة الشيطان فعبدوا غير الله الذي هو الطاغوت وأولياء الله ملزمون بتبليغ دعوة الله إلى البشر كافة وبتطبيق منهج الله في حياتهم، وأعداء الله لا ترضى نفوسهم بتطبيق ذلك المنهج الرباني لمباينته لمناهج الطواغيت كلها، ومن هنا نشأ الصراع بين الفريقين: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إنَّ كيدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾(٢) والتاريخ قد سجل في صفحاته أنه لم تمض فترة من الزمن خالية من الصراع بين أولياء الله وبين أعدائه ولو أراد أولياء الله أن يهادنوا أعداءه - مؤقتاً - فإن أعداء الله لا يقبلون تلك المهادنة إلا إذا كانوا مضطرين أذلاء.

فقد ذكر الله سبحانه في كتابه الكريم أن أعداءه - عبدة الطاغوت - لا يقبلون من أولياء الله - وهم الرسل - إلا ترك دينهم الذي ارتضاه الله لهم والارتداد إلى عبادة الطاغوت، أو إخراجهم من الأرض التي هي أرض أولئك الرسل - كغيرهم، بل هم أولى بها - كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم: لنخرجنَّكم من أرضنا أو لتعودنَّ في مِلَّتنا﴾(٣).

هذا هو دأب الكافرين مع رسلهم عموماً (وقال الذين كفروا لرسلهم) وهو الذي حصل من الكافرين في كل عصر مع الرسول الذي أرسل إليهم: فهؤلاء قوم نوح يهددونه بالرجم: ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوحُ لتكونَنَّ من المرجومين﴾(٤) وكذلك قوم شعيب: ﴿قالوا يا شعيبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مما تقول، وإنا لنراكَ فينا ضعيفاً، ولولا رَهْطُك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾(٥). وهكذا إبراهيم يهدده أبوه بالرجم ويهدده قومه بالإحراق، بل ينفذون ما هددوه به لولا

(١) النحل: ٣٦.
(٢) النساء: ٧٦.
(٣) إبراهيم: ١٣.
(٤) الشعراء: ١١٦.
(٥) هود: ٩١.

أن الله أنجاه بفضل منه: ﴿قال أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيمُ لئن لم تَنْتَهِ لأرجمنَّك وأهجُرْني مِليّاً﴾(١).

﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾(٢). ﴿فما كان جوابُ قومه ألا أن قالوا: اقتلوه أو حرِّقوه﴾(٣) وهذا هو موقف بني إسرائيل من أنبيائهم: التكذيب أو القتل: ﴿أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوَى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذَّبتُم وفريقاً تقتُلون﴾(٤). وأقرأ ما سجله القرآن الكريم عن فرعون مع السَّحَرة الذين تمكَّن الإيمان من قلوبهم كيف هدَّدهم بالعذاب المجمل والمفصَّل فقال: ﴿فألقى السَّحرةُ سُجّداً، قالوا آمنّا بربِّ هارون وموسى، قال: آمنتُم له قبل أن آذن لكم؟! إنَّه لكبيركُم الذي علَّمكم السحرَ، فلأقطعنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خِلَافٍ ولأصلبنكُّم في جُذوع النَّخْل، ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾(٥).

وقال سبحانه عن أهل الكتاب ـ الذين كانوا أولى باتباع الحق الذي جاء به الرسول ﷺ من غيرهم ـ: ﴿ولن ترضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتَّبع ملَّتهم﴾(٦).

وقد قرر أعداء الإسلام من المشركين الحكم على الرسول ﷺ ـ وهو خاتم الأنبياء ـ بأحد أمور ثلاثة، وهي: السجن، أو القتل، أو الإخراج من بلاده التي هي أحب البقاع إليه، وقد اضطروه فعلاً أن يخرج منها مهاجراً، قال تعالى: ﴿وإذ يَمْكُر بك الذين كفروا لِيُثْبِتوك، أو يَقْتلوك، أو يُخْرجوك، ويمكرونَ ويَمْكُر الله، والله خير الماكرين﴾(٧).

ولم يهاجر ﷺ هو وأصحابه إلا بعد أن نالهم من الأذى ما هو معروف في السيرة النبوية، وكان أصحابه قد هاجروا قبل الهجرة إلى المدينة إلى أرض الحبشة مرتين فراراً بدينهم وقد قتل من قتل وعذب من عذب.

(١) مريم: ٤٦.
(٢) الأنبياء: ٦٨.
(٣) العنكبوت: ٢٤.
(٤) البقرة: ٨٧.
(٥) طه: ٧٠/ ٧١.
(٦) البقرة: ١٢٠.
(٧) الأنفال: ٣٠.

واستمر إيذاء المشركين للمسلمين وهم في المدينة وغزا المشركون المسلمين في عقر دارهم كما في غزوة أحد وغزوة الأحزاب، وكانوا إذا عقدوا عهداً مع المسلمين نقضوه ولم يفوا بعهودهم وأيمانهم ولذلك أنكر الله على المسلمين تأخرهم عن قتال المشركين الذين هذه صفاتهم: ﴿ألا تقاتلون قوماً نَكَثوا أيْمانهم، وهَمُّوا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أوَّل مرة، أتَخْشَونهم فالله أحقُّ أن تَخْشَوه إن كنتم مؤمنين﴾(١).

ولا زال أعداء الإسلام حاملين سلاحهم ضد المسلمين إلى هذه اللحظة وسيبقون كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فالشيوعيون والوثنيون واليهود والنصارى وأولياؤهم في كل مكان قد يختلفون فيما بينهم ولكنهم لا يختلفون أبداً على القضاء على المسلمين وإيذائهم وحرْبهم وصد الناس عن دين الله، بل يتعاونون ويعاضد بعضهم بعضاً إذا كانت الحرب ضد المسلمين. وإذا كان الأمر كذلك فإن المؤمن يجد من هذا العداء وهذا التربص وهذه الحرب المستمرة من قبل أعداء الله ضد أولياء الله يجد المؤمن من ذلك ما يحفز همته للبذل والتضحية والجهاد في سبيل الله. والذي لا يحفزه هذا الأمر على الجهاد في سبيل الله فإن إيمانه ميت وولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين كذاب لا سيما إذا عرف أن كثيراً من المسلمين مستضعفون ـ رجالاً ونساء وولداناً قد غصت بهم سجون أعداء الله ولاقوا ولا زالوا يلاقون أشد أنواع التعذيب، ومنهم من يقتلون ومنهم من يشردون. وما من بلد من بلدان المسلمين لا يدين حكامه بدين الإسلام ولا يحكمون شريعة الله إلا وفيه آلاف المستصرخين الذين يرددون ما تضمنته هذه الآية الكريمة عن إخوانهم السابقين: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربَّنا أخْرِجْنا من هذه القريةِ الظالمِ أهلُها، واجعل لنا من لدنك وَلِيّاً، واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾(٢).

هذا فضلاً عما يجري ضد المسلمين المستضعفين في الدول الملحدة كروسيا، أو الصليبية، كالفلبين، أو اليهودية، كما في أرض فلسطين وهلم جرا.

---

(١) التوبة: ١٣. (٢) النساء: ٧٥.

ولقد حرض الله المؤمنين وأغراهم بقتال أعدائهم الذين لا يألون جهداً في قتال المسلمين وإخراجهم من ديارهم وفتنتهم في دينهم كما أغراهم بقتالهم حتى يكون دين الله هو الغالب، قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبُّ المعتدين * واقتُلوهم حيث ثَقِفْتُموهم، وأخرجوهم من حَيْثُ أخرجوكم، والفتنةُ أشدُّ من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهَوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كلُّه لله، فإن انتهَوا فلا عدوانَ إلا على الظالمين * الشهرُ الحرام بالشهر الحرام، والحرماتُ قِصاصٌ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتَّقُوا الله، واعلموا أنَّ الله مع المتقين﴾[١].

الفرع الرابع
إحقاق الحق وإبطال الباطل

ما هو الحق: قال في القاموس: (الحق من أسماء الله تعالى أو من صفاته، والقرآن، وضد الباطل، والأمر المقضي، والعدل، والإسلام، والمال والملك، والموجود الثابت، والصدق، والموت، والحزم، وواحد الحقوق. . .)[٢].

وقال الراغب في مفرداته: (أصل الحق المطابقة والموافقة. . والحق يقال على أوجه:

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى: هو الحق، قال الله تعالى: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ وقيل بعد ذلك: ﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾[٣].

والثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله كله حق. . .).

---

(١) البقرة: ١٩٠/ ١٩٤.
(٢) القاموس المحيط (٣/ ٢٢١) للفيروزابادي.
(٣) يونس: ٣٣.

والثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق.

والرابع: (للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب، كقولنا فعلك حق وقولك حق)(١).

وقال موضحاً معنى الباطل: (الباطل نقيض الحق، وهو بالإثبات له عند الفحص عنه)، قال تعالى: ﴿ذلك بأنَّ الله هو الحقُّ، وأنَّ ما يَدْعون من دونه الباطل﴾(٢).

وقال موضحاً معنى الضلال: (الضلال العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية، قال تعالى: ﴿فمن اهتدى فإنَّما يهتدي لنفسه، ومن ضَلَّ فإنما يَضِلُّ عليها﴾ (٣).

يظهر مما مضى أن الحق لا يمكن تفسيره تفسيراً شاملاً إلا بالإسلام، لأنه يشمل الإيمان ـ وهو ما يعبر عنه بالاعتقاد ـ بالغيب كالإيمان بالله وكتبه ورسله والملائكة واليوم الآخر والقدر خيره وشره ويشمل كذلك كل أفعال الله بأنها حق والمنهج الذي ارتضاه لعباده شرعة تحكم تصرفاتهم، ونشاطهم، فالحق هو الإسلام والإسلام هو الحق.

والحق ـ في حد ذاته ـ ثابت أنه حق لا يحتاج إلى أحد يحقه ـ أي يجعله حقاً لأنه حق وكل شيء غيره فهو باطل وضلال، ولكن الحق يحتاج إلى من يظهره بأنه حق. وإذا كان كل ما عدا الحق باطلاً وضلالاً فإن الأصل الذي تقره العقول أن تتعاون البشرية كلها على إظهار الحق وهيمنته، وعلى طرد الباطل والضلال، لأن سعادة الخلق في ظهور الحق وهيمنته في الأرض وشقاءهم في ظهور الضلال والباطل وهيمنتها. ولو أن أغلب الناس ـ وليس كلهم ـ تعاونوا على إظهار الحق وطرد الباطل لذابت القلة الضالة واضمحل شرها، ولكن المؤسف أن أغلب الناس من حزب الضلال والباطل الذي يعادي الحق وأهله

(١) المفردات ص ١٢٤.
(٢) المفردات ص ٥٠ والآية في سورة الحج ٦٢.
(٣) المفردات ص ٢٩٩. والآية في سورة الإسراء ١٥.

ويحاربها دون هوادة لأنه ـ أي حزب الضلال يجهل الحق ـ ومن جهل شيئاً عاداه، وقد سبق أن الجاهل هو الذي لا يعمل بما علم أو الذي يجهل الشيء ولا يعلمه، قال تعالى: ﴿أم اتَّخذوا من دونه آلهةً، قل هاتوا بُرْهانكم، هذا ذِكْرُ من معي وذِكْرُ من قبلي، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم مُعْرِضون﴾(١) وقال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين﴾(٢).

لذلك كان الواجب على القلة المؤمنة التي من الله عليها بمعرفة الحق والاهتداء به أن تظهر هذا الحق وتحارب ما يضاده، وهو الباطل والضلال.

والمقصود بإظهار الحق حمله وتطبيقه والدعوة إليه والذود عنه والجهاد في سبيل رفع رايته في الأرض، لذلك سمى حملة الحق ومظهروه بالطائفة المنصورة كما قال الرسول ﷺ في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»(٣).

وفي حديث معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»(٤).

وفسر ﷺ الحق بأنه الدين في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه فقال: «لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»(٥).

وفي حديث معاوية المتفق عليه فسره ـ أي الحق ـ بأمر الله فقال: (لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)(٦).

وإذا ظهر الحق على الباطل ظهرت معالم الإيمان بالله تعالى وغيره من

(١) الأنبياء: ٢٤.
(٢) يوسف: ١٠٣.
(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤).
(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٦) البخاري رقم ٣٦٤١ فتح الباري (٦/ ٦٣٢) ومسلم (٣/ ١٥٢٤).

أصول الإيمان وفروعه، فعبد الله حق عبادته، وانتفى اللبس عن العقيدة الإسلامية كلها، وإلا التبس الحق بالباطل في ربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته وحكمه، وفي مقاصد كتابه ورسالة نبيه ﷺ وفي أمر اليوم الآخر بتفاصيله وظهر التحريف في كل فرع من فروع الإسلام، واستطاع أهل كل باطل أن ينشروا باطلهم بين المسلمين، لعدم ظهور الحق الذي يحصنهم من الباطل والضلال.

وبظهور الباطل تبرز الأخلاق الفاسدة وتختفي الأخلاق الفاضلة ويظهر الظلم ويختفي العدل ويتربع على كراسي الحكم قرود الفوضى من ذوي الإجرام وتنتهك الحقوق في الدماء والأموال والأعراض ويحكم الناس بالأهواء بدلاً من الحكم بما أنزل الله وفي ذلك فساد السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾(١).

وإظهار الحق على الباطل لا يحصل إلا بالقضاء على زعماء الباطل وكسر شوكتهم وذلك لا يحصل إلا بجهادهم وقتالهم كما قال ﷺ: «يقاتلون على الحق» لأن أهل الحق يقاتلون على ما اتبعوا وهو الحق وأهل الباطل ـ كذلك ـ يقاتلون على ما اتبعوا وهو الباطل: ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتَّبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتَّبعوا الحقَّ من ربِّهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم * فإذا لقيتُم الذين كفروا فضَرْب الرِّقاب حتى إذا أثْخَنْتُموهم فشُدُّوا الوَثاق، فإما مَنّاً بَعْدُ وإما فِداء حتى تضعَ الحربُ أوزارَها، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلوَ بعضَكم ببعضٍ، والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم سيهديهم ويُصْلِحُ بالهم * ويُدخلهم الجنة عرَّفها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبتْ أقدامَكم﴾(٢).

وهذا من أعظم ما يبعث المسلم على الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه وهذه

---

(١) المؤمنون ٧١. راجع السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية رحمه الله طبع دار الكاتب العربي ص ١٤٣.
(٢) محمد: ٣/ ٧.

بعض آيات معركة بدر تتسلل إلى قلوب المؤمنين الذين ترددوا عن ذات الشوكة وأحبوا غيرها، تتسلل إلى قلوبهم بإحقاق الحق وإبطال الباطل حفزاً لهممهم وباعثاً على لقاء أعداء الله مهما كثروا وعظمت عدتهم: ﴿كما أخرجك ربُّك من بيتِك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونَك في الحقِّ بعد ما تبيّنَ كأنما يُساقَون إلى الموتِ وهم ينظرون * وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودُّون أنَّ غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحقَّ الحق ويبطلَ الباطلَ ولو كره المجرمون﴾[١].

والذين ينصرون الباطل ويعارضون الحق حريون بالمجاهدة والمقاتلة إلى أن ترتفع راية الحق ويصيبهم الذل والصغار، قال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يُؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمون ما حرّم الله ورسولُه، ولا يَدِينون دينَ الحقِّ من الذين أُوتوا الكتابَ حتى يُعطوا الجزيةَ عن يَدٍ وهم صاغرون﴾[٢]. وبدون الجهاد والقتال إلى هذه الغاية فإن الذي يظهر هو الباطل لكثرة أهله واستجابة النفوس له. قال ابن تيمية رحمه الله: (فالمقصود أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه، وهكذا قال الله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه ثم قال تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس، ولِيَعْلَمَ الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾[٣] فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف، وقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا ـ يعني السيف ـ من عدل عن هذا ـ يعني المصحف))[٤].

هذا وإن الباطل في هذا القرن ـ القرن الرابع عشر الهجري الذي لم يبق لانتهائه عندما كتب هذا السطر إلا خمسة عشر يوماً، بعدها يبدأ أول يوم من أيام القرن الخامس عشر ـ إن الباطل في هذا القرن قد تمكن في الأرض وانتشر

---

(١) الأنفال: ٥/ ٨.
(٢) التوبة: ٢٩.
(٣) الحديد: ٢٥.
(٤) الفتاوى (٢٨/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

في أرجائها حتى عم الفساد، وسيطر الكفر وحكم الظلم وقوي الباغي وانطمست معالم الإسلام وغابت دولته وجفاه أبناؤه الذين رباهم أعداؤه. وإن الأرض ـ برها وبحرها، وجوها ـ لتئن من وطأة هذا الباطل الذي ضاعت فيه الحقوق حقوق الله على عباده وحقوق العباد بعضهم على بعض. ولعل هذا الباطل قد وصل إلى غايته التي ما بقي بعدها إلا سقوط رايته، واضمحلال قوته والقضاء على رؤوس الطغاة الذين يدعمونه وينصرونه ضد الحق وأهله. وأن هذه الحال التي مضت الإشارة إليها لجديرة بدفع المؤمنين الصالحين إلى القيام بواجبهم وتحمل أعباء الجهاد في سبيل الله ونصر دينه وإظهار الحق الذي قامت عليه السموات والأرض محققين بذلك طاعة ربهم الذي أمرهم بما هو خير لهم: ﴿انْفِروا خِفافاً وثِقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾[١].

الفرع الخامس
القدوة الحسنة

القدوة الحسنة تؤتي ثمارها الطيبة الحسنة، والقدوة السيئة تؤتي ثمارها السيئة، والفرد أو الجماعة، أو الشعب من الناس مولعون بالاقتداء بقادتهم وزعمائهم، فتراهم يتبعونهم في كثير من أفعالهم وصفاتهم.

وقد يكون في اتباع عامة الناس لزعمائهم مشقة في أول الأمر، ولكنهم على طول الزمن يسهل عليهم التقليد والمحاكاة ـ ولا سيما فيما تشتهيه النفوس.

ولهذا كانت الأسوة الحسنة ذات أهمية بالغة في حياة الأمة المسلمة وقد أمر الله رسوله ﷺ وهو خاتم النبيين ورسالته خاتمة الرسالات وكتابه آخر الكتب والمهيمن على ما سبقه من الكتب المنزلة وهو يهدي إلى التي هي أقوم، أمره الله تعالى أن يقتدي بهدى الأنبياء الذين سبقوه قال تعالى ـ بعد أن ذكر ثمانية عشر منهم ـ: ﴿ومن آبائِهم وذرياتِهم وإخوانهم، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم * ذلك هُدَى الله يهدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبطَ عنهم

(١) التوبة: ٤١.

ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكْمَ والنبوة، فإنْ يَكْفُر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هَدَى الله فبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أسألكم عليه أجراً؛ إن هو إلا ذِكْرى للعالمين﴾[١].

وحض الله سبحانه وتعالى أمته ـ أي أمة محمد ﷺ ـ على أخذ الأسوة الحسنة من نبي الله إبراهيم والذين معه في معاداة قومهم الكافرين حتى يؤمنوا بالله وحده، واستثنى الله تعالى استغفار إبراهيم لأبيه المشرك من ذلك فليس لهم أن يقتدوا به في ذلك قال تعالى: ﴿قد كانت لكم أُسوةٌ حَسَنةٌ في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم: إنا بُرَءاءُ منكم ومما تعبُدون من دون الله، كفرنا بكم، وبَدَا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحدَه، إلاّ قولَ إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك، وما أملكُ لك من الله من شيء، ربَّنا عليك توكَّلنا، وإليك أنَبْنا، وإليك المصير﴾[٢].

وإنك لترى الأتباع لشدة حرصهم على الاقتداء بالزعماء يحزنون حزناً شديداً إذا لم يقدروا على تحقيق ما استطاع زعيمهم تحقيقه لسهولته عنده وصعوبته عليهم، وهذان مثالان لهذا الحرص: أحدهما حرص على تحقيق القدوة الحسنة، وثانيهما حرص على القدوة السيئة.

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ حريصين كل الحرص على الاقتداء به ومحاكاته، لأن الله سبحانه أمرهم باتباعه وحثهم على الاقتداء به، كما قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حَسَنةٌ لمن كان يرجوا الله واليومَ الآخرَ وذَكَر الله كثيراً﴾[٣] وكان هو ﷺ يحثهم على ذلك بصفة عامة ويؤكده في مناسبات خاصة، كقوله ﷺ: «ما أمرتكم به فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[٤]، وقوله: «صلواكما رأيتموني أصلي»[٥] وقوله: «لتأخذوا عني مناسككم»[٦].

---

(١) الأنعام: ٨٧/ ٩٠.
(٢) الممتحنة: ٤.
(٣) الأحزاب: ٢١.
(٤) البخاري رقم ٧٢٨٨ فتح الباري (١٣/ ٢٥١)، ولفظه: ﴿فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا ما استطعتم﴾.
(٥) البخاري رقم (٦٠٠٨ فتح الباري ١٠/ ٤٣٧).
(٦) مسلم (٢/ ٩٤٣).

وقد أراد بعض أصحابه الاقتداء به في الخروج إلى الجهاد في سبيل الله ولم يكن لهم عدة الجهاد فذهبوا إليه ﷺ يطلبون منه منحهم ما يبلغهم مطلبهم فاعتذر لأنه لم يكن عنده ما يحقق رغبتهم فحزنوا حزناً شديداً وخرجوا وهم يبكون، كما قال تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما يُنفقون حَرَجٌ إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المُحْسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتَوْكَ لتحملَهم قُلْتَ لا أجدُ ما أحملكم عليه تَوَلَّوا وأعينُهم تَفِيضُ من الدمع حزَناً ألَّا يجدوا ما يُنْفقون﴾(١).

وكان قوم قارون معجبين بغناه وتمتعه بالحياة الدنيا وزينتها فتمنوا أن يكون لهم مثله، ولم يتضح لهم أنه كان قدوة سيئة إلا بعد أن وقع في عذاب الله وسخطه أمام أعينهم، قال تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارونُ، إنَّه لذو حظٍ عظيمٍ * وقال الذين أُوتوا العلمَ: وَيْلَكُم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون، فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنَّوا مكانه بالأمس يقولون: وَيْكأنَّ الله يبسط الرزق لمن شاء من عباده ويَقْـدِرُ، لولا أنْ مَنَّ الله علينا لَخَسَفَ بنا، وَيْكأنَّه لا يفلحُ الكافرون﴾(٢).

ومن هنا كان الحث على اتخاذ الجليس الصالح والتحذير من اتخاذ جليس السوء كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل جليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة»(٣).

وبهذا يظهر أن القدوة الحسنة من أعظم البواعث على الجهاد في سبيل الله وأن القدوة السيئة من أعظم المثبطات عن هذا الأمر العظيم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولذلك نعى الله على المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، نعى

(١) التوبة: ٩١ ـ ٩٢. (٢) القصص: ٧٩/ ٨١.
(٣) البخاري رقم ٥٥٣٤ فتح الباري (٩/ ٦٦٠) ومسلم (٤/ ٢٠٢٦).

عليهم أن يتخلفوا عنه وأن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه التي بذلها لربه لرفع كلمته، قال تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حَوْلَهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله، ولا يرغَبُوا بأنفسهم عن نفسه﴾...[١].

قال سيد قطب رحمه الله: (وحين يخرج رسول الله ﷺ في الحر أو البرد. في الشدة أو الرخاء في اليسر أو العسر ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها، فإنه لا يحق لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب وهم قريبون من شخص رسول الله ﷺ ولا عذر لهم في أن لا يكونوا قد علموا أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ)[٢].

وهذه بعض الأمثلة للأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ في هذا الباب - الجهاد - وإن كانت صالحة لغيره من الأبواب.

قوة توكله على ربه.

إن قوة التوكل والاعتماد على الله سبحانه تخلص القلب لخوف الله سبحانه وإذا خلص القلب لخوف الله وامتلأ به لم يخف غير الله مهما كانت قوته ومهما كان أمره وتدبيره، وقد أمر الله رسوله ﷺ بطاعته وحده ونهاه عن طاعة أعدائه من الكافرين والمنافقين، وأن يتبع ما أوحاه إليه وأمره بالتوكل عليه وطمأنه بأنه كافيه، كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي اتَّق الله ولا تُطِع الكافرين والمنافقين، إنَّ الله كان عليماً حكيماً * واتَّبِعْ ما يُوحى إليك من ربِّك إنَّ الله كان بما تعملون خبيراً * وتوكَّل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾[٣].

ولقد امتثل ﷺ أمر ربه فكان إذا خوف غيره ازداد خوفاً من الله وإيماناً به واستهانة بمن عداه سبحانه.

وها هم المشركون - بعد أن قتلوا سبعين من المسلمين في أحد، وظنوا أنهم قد ظفروا بالنصر - يحاولون أن ينزلوا الرعب في قلوب المسلمين فيبعثون من

---

(١) التوبة: ١٢٠.
(٢) في ظلال القرآن (١١/ ١٧٣٣).
(٣) الأحزاب: ١/ ٣.

يخوف رسول الله ﷺ بجمعهم فيقول: ﴿حَسْبنا الله ونعم الوكيل﴾ وينصرف أعداء الله خائبين، قال تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسولِ من بعدما أصابهم القَرْحُ، للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجرٌ عظيم * الذين قال لهم الناسُ: إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشَوْهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حَسْبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفَضْل لم يَمْسَسْهم سوءٌ، واتَّبعوا رضوانَ الله، والله ذو فضلٍ عظيمٍ﴾(١).

قال ابن كثير رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداد، فما اكترثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، وقال البخاري... عن ابن عباس: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً» وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)(٢).

وكان ﷺ أشجع الناس وأجودهم، والشجاعة والكرم ركنان لا يقوم الجهاد بغيرهما، ففي حديث أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ، وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عري وفي عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا» ثم قال: «وجدناه بحراً»(٣).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)(٤).

---

(١) آل عمران: ١٧٢/ ١٧٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٣٠).
(٣) البخاري رقم ٢٩٠٨ فتح الباري (٦/ ٩٥) ومسلم (٤/ ١٨٠٢).
(٤) البخاري رقم ٦ فتح الباري (١/ ٣٠) وملم (٤/ ١٨٠٣).

وقال البراء: (وكنا والله إذا احمر البأس نتقي به ـ أي برسول الله ﷺ ـ وأن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي ﷺ)(١).

وخرج ﷺ يوم أحد مع أصحابه، وأصيب معهم وهو يقاتل المشركين، كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أنه سئل عن جرح النبي ﷺ يوم أحد، فقال: (جرح وجه النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة عليها السلام تغسل الدم، وعلي يمسك فلما رأت أن الدم لا يزيد إلا كثرة أخذت حصيراً فأحرقته حتى صار رماداً ثم ألزقته فاستمسك الدم)(٢).

وهذه القدوة الحسنة: وجود الرسول ﷺ في المعركة واصابة وجهه الكريم ورأسه وفمه وغير ذلك وتصبب الدم منه أمام أصحابه جعلتهم يحيطون به ويسقط الواحد منهم تلو الآخر، بعد أن حصل ما حصل من الفشل والهلع في صفوفهم رضي الله عنهم، واقرأ حديث جابر رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد وولي الناس كان رسول الله ﷺ في ناحية في أثني عشر رجلاً من الأنصار، فيهم طلحة بن عبيد الله فأدركهم المشركون، فالتفت رسول الله ﷺ، فقال: «من للقوم» فقال طلحة: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «كما أنت» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فقال: «أنت» فقاتل حتى قتل، ثم التفت فإذا المشركون فقال: «من للقوم» فقال طلحة: أنا، قال: «كما أنت» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فقال: «أنت» فقاتل حتى قتل ثم لم يزل يقول ذلك، ويخرج إليهم رجل من الأنصار، فيقاتل قتال من قبله حتى بقي رسول الله ﷺ وطلحة بن عبيد الله، فقال رسول الله ﷺ: «من للقوم» فقال طلحة: أنا فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده، فقطعت أصابعه، فقال: حس فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون، ثم رد الله المشركين»(٣).

---

(١) مسلم (٣/ ١٤٠١).
(٢) البخاري رقم ٢٩١١ فتح الباري (٦/ ٩٦) ومسلم (٣/ ١٤١٦).
(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول (٨/ ٢٤٣) وقال: أخرجه النسائي.

وروى ابن المبارك (أنه ﷺ أصيب معه يوم أحد نحو من ثلاثين كلهم يجيء حتى يجثو بين يديه. .) ثم يقول: (وجهي لوجهك الوقاء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك سلام الله غير مودع)(١).

وكان ﷺ يشارك أصحابه في الإعداد للحرب، كحفر الخندق ونقل التراب وينشد معهم الشعر الحماسي ويرفع صوته بالكلمات الأخيرة فكان في ذلك من الدفع لهم والحفز لهممهم ما يفوق الوصف ففي حديث البراء ابن عازب رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ ينقل معنا التراب، وهو يقول:

والله لولا الله ما هتدينا ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّينا
فأنزِلَنْ سكينةً علينا وثَبِّت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بَغَوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبَيْنا

ويرفع بها صوته. أخرجه البخاري ومسلم:

وللبخاري: (كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه - أو أغبر - زاد في رواية: حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه وكان كثير الشعر)(٢).

وفي غزوة حنين التي أدبر فيها المسلمون ولم يبق إلا الرسول ﷺ وقليل من أصحابه، كان ﷺ يدفع بغلته إلى الأعداء دفعاً وينشد ذاكراً نسبه ووظيفته ليعلم المشركون ذلك : -

أنا النبي لا كَذِبْ أنا ابن عبد المطلب

فيعود إليه أصحابه مثل الأسود فيهزمون العدو. ففي حديث عمه العباس رضي الله عنهما قال: (شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء. . . فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسسلمون مدبرين فطفق

---

(١) كتاب الجهاد ص ٧٥.
(٢) البخاري رقم ٤١٠٦ فتح الباري (٧/ ٣٩٩) ومسلم (٣/ ١٤٣٠).

رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس ناد أصحاب السمرة» فقال عباس ـ وكان رجلاً صيتاً ـ: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة فقال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، قالوا يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار. . .) إلى أن قال: فنظر رسول الله ﷺ، وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس».

وفي رواية أنه كان ﷺ يقول:

أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب[1]

وكانت هذه الأسوة تدفعهم إلى التضحية في حياته، وإن كان ﷺ ليس معهم في المعركة، واقرأ قصة جعفر رضي الله عنه ـ أحد قادة مؤته ـ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: (أمر النبي ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال: (إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبدالله بن رواحة) قال ابن عمر: فكنت معهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفراً فوجدناه في القتلى ووجدنا فيها أقبل من جسده بضعاً وسبعين طعنة ورمية، وفي أخرى أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره أخرجه البخاري)[2].

وهكذا كان قادة الصحابة يتخذونه ﷺ أسوة بعد موته، وكان جنودهم يتخذون أولئك القادة أسوة لهم، اقرأ ما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه بجند الشيطان: مسيلمة في اليمامة.

(وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار لجبال مسيلمة، وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع، ثم وقف بين الصفين ودعا البراز، وقال: أنا ابن الوليد السعود أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى بشعار المسلمين. .

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٨).
(٢) البخاري رقم ٤٢٦٠ فتح الباري (٧/ ٥١٠).

وجعل لا يبرز لهم أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله)[١]. ثم اقرأ ما فعله أحد جنوده من إلقاء نفسه بين الأعداء وحده في حديقة الموت ومقارعته لأعداء الله حتى فتح لأصحابه باب الحديقة فكان النصر: (ولم يزالوا ـ أي المسلمون ـ يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم وولى الكفار الأدبار واتبعوهم يقتلون في أقفائهم ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاؤوا حتى ألجأوهم إلى حديقة الموت. . . وفيها عدو الله مسيلمة لعنه الله. . . وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم وأحاط بهم الصحابة وقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة فاحكموه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة لعنه الله. . . فتقدم إليه وحشي مولى جبير بن مطعم ـ قاتل حمزة ـ فرماه بحربته فأصابته وخرجت من الجانب الآخر)[٢].

ويشعر المجاهدون، وهم في المعركة أنهم في حاجة إلى قدوة يقتحم صفوف الأعداء ليتبعوه فيطلبون ممن يظنونه قدوة ذلك فيحصل ما يريدون: قال هشام بن عروة عن أبيه: «إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير يوم اليرموك: ألا تشد فنشد معك، فقال: إني إن شددت كذبتم، فقالوا: لا نفعل، فحمل عليهم حتى شق صفوفهم فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مقبلاً فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر قال عروة: كنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير»[٣].

هذا. ولقد علم رسول الله ﷺ أصحابه أن إمامهم في الصلاة ينبغي أن يكون قائدهم في المعركة لتكتمل القدوة الحسنة فيه. على خلاف ما عمله المسلمون أخيراً من فصل وظيفة العالم المسلم عن وظيفة القائد العسكري وغالباً يكون الأول متعبداً متنسكاً والثاني غير ملتزم بكثير من أحكام الإسلام وزاد هذا

---

(١) البداية لابن كثير (٦/ ٣٢٤).
(٢) البداية لابن كثير (٦/ ٣٢٥).
(٣) صحيح البخاري رقم ٣٩٧٥ فتح الباري (٧/ ٢٩٩). وأنظر البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١١).

الأمر اتساعاً حتى أصبح العالم يسمى رجل الدين الذي لا يحق له أن يتدخل في الشؤون السياسية والعسكرية، بل والاجتماعية، وأصبح الذي يقتدي به الجند - في الغالب - جاهلاً بأحكام الإسلام، أو فاسقاً لا يلتزم بها، ففقد المسلمون بذلك تلك الآداب الجهادية التي سجلها التاريخ الإسلامي عن نبي الإسلام وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وقد نبه علماء الإسلام على هذا المعنى - عندما بدأ يظهر في المسلمين - محذرين منه، قال ابن تيمية رحمه الله: (وقد كانت السنة أن الذي يصلي بالمسلمين - الجمعة والجماعة ويخطب بهم هم أمراء الحرب الذين هم نواب ذي السلطان على الأجناد، ولهذا لما قدم النبي ﷺ أبا بكر في الصلاة قدمه المسلمون في إمارة الحرب وغيرها، وكان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على حرب كان هو الذي يؤمره للصلاة بأصحابه، وكذلك إذا استعمل رجلاً على مدينة... كان نائبه هو الذي يصلي بهم، ويقيم فيهم الحدود وغيرها مما يفعله أمير الحرب، وكذلك خلفاؤه بعده، ومن بعدهم من الملوك الأمويين وبعض العباسيين، وذلك لأن أهم أمر الدين الصلاة والجهاد، ولهذا كانت أكثر الأحاديث عن النبي ﷺ في الصلاة والجهاد، وكان إذا عاد مريضاً يقول: «اللهم أشف عبدك يشهد لك صلاة وينكأ لك عدواً»[1]). هذا وإن في غياب القدوة الحسنة للمسلمين في الجهاد وفي غيره لخسارة عظيمة حلت بهم، عليهم أن يدعوا الله تعالى بأن يعيد عليهم تلك القدوة لتقودهم إلى الخير وتدفعهم إلى استعادة العزة والغلبة على أعداء الله إنه على كل شيء قدير: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾[2] وليس معنى هذ أن تسند الأعمال إلى عالم الشريعة الإسلامية، إذا كان يفقد الخبرة بتلك الأعمال، لأن أصحاب رسول الله ﷺ ما كان يسند إلى كل واحد منهم كل عمل - مهما كان - بل كان ﷺ يسند العمل إلى من هو أهله ولكنهم رضي الله عنهم كانوا يشتركون في فهم أمور دينهم وإن تفاوتوا في العلم بها، فإذا أسند إلى أحدهم قيادة الحرب لخبرته في ذلك كان عنده من العلم بالدين ما يؤهله لإمامة أصحابه في الصلاة وغيرها وقد يشكل عليه أمر من الأمور فيذاكر فيه

(١) الفتاوي (٢٨/ ٢٦٠).

(٢) الفرقان: ٧٤.

أصحابه ويستطلع ما عندهم من القرآن أو السنة فإن لم يوجد اجتهد وشاور وعمل بما ترجح له.

والخلاصة إن الأصل في القائد أن يكون أميراً عاماً في كل شيء من أمور الدين والدنيا(١)، ولكن إذا ظهر أنه لا يوجد إلا رجلان: أحدهما قوي جلد خبير بشؤون الحرب، وهو فاسق والآخر رجل أمين عالم بالشريعة الإسلامية. ولكنه ضعيف لا يقدر على تصريف شؤون الجهاد فإنه يولى القوي الخبير الفاسق، لأنه سيكون قدوة حسنة في هذا الباب بخلاف الآخر: (كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو. وأحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف مع أيهما يغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوي الفاجر، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر...»(٢)...

إلا أن هذا الفسق ـ أو هذا الفجور يجب ألا يكون مخرجاً صاحبه من دين الإسلام، فإن كان يخرجه من دين الإسلام بأن يكون خارجاً عن الملة لم يصح الركون إليه بمثل هذه الوظيفة الخطيرة، لأنه عدو للمسلمين لا يرعى مثله لهم عهداً ولا ذمة وسيكون ولاؤه لأهل دينه: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودُّوا ما عَنِتُّم، قد بَدَتِ البغضاءُ من أفواههم وما تُخْفي صدورُهم أكبر، قد بَيَنَّا لكم الآياتِ إنْ كنتم تعقلون﴾(٣).

---

(١) راجع الفتاوي لابن تيمية ت(١١/ ٥٥١).
(٢) الفتاوي (٢٨/ ٢٥٥).
(٣) آل عمران: ١١٨.

المبحث الثاني

معوقات الجهاد في سبيل الله

المطلب الأول
معنى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ

الدين الإسلامي هو الاستسلام والانقياد لله سبحانه وتعالى وطاعته في أمره ونهيه، وهو يشمل الإيمان بالغيب الذي أخبر الله سبحانه وتعالى به في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ، ويشمل كذلك العمل الصالح، وهو طاعة الله وطاعة

رسوله ﷺ عن علم وإخلاص، والأعمال الصالحة شاملة لنشاط الإنسان كله الذي يقصد به وجه الله تعالى من الواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات، وللإيمان بالغيب أصول ستة وللأعمال الصالحة أصول خمسة هي التي تضمنها حديث جبريل المشهور وعلى هذه الأصول من الإيمان والعمل الصالح ينبني الإسلام كله، سواء ما يتعلق بالشعائر التعبدية أو المعاملات، فالإسلام ليس مقصوراً على الشعائر التعبدية فقط ولا هو خاص بالآخرة بل إنه نظام كامل لحياة الإنسان، قال عبد القادر عودة رحمه الله: (والأحكام التي جاء بها الإسلام على نوعين: أحكام يراد بها إقامة الدين وهذه تشمل أحكام العقائد والعبادات، وأحكام يراد بها تنظيم الدولة والجماعة وتنظيم علاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض، وهذه تشمل أحكام المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصية والدستورية والدولية.. إلخ... فالإسلام يمزج بين الدين والدنيا وبين المسجد والدولة، فهو دين ودولة وعبادة وقيادة وكما أن الدين جزء من الإسلام فالحكومة جزؤه الثاني)[١].

ويدل على شمول الإسلام لحياة المسلم كلها نصوص كثيرة في الكتاب والسنة والواقع العملي في حياة الرسول ﷺ وحياة أصحابه رضي الله عنهم قال تعالى: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ ليعبُدون﴾[٢].

والعبادة كما قال ابن تيمية: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة)[٣] وقد فصل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي، ومَحْيايَ ومماتي، لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المسلمين﴾[٤].

وهذا هو معنى العبودية الحقة لله تعالى، وهي أن تكون حركاته وسكناته لربه، يطيعه ولا يعصيه، إذا تاقت نفسه لشيء وأراد الله غير ذلك أو إذا رغب أي أحد في أن يفعل شيئاً وأراد الله منه غيره قدم ما أراد الله على ما أراد غير الله: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قَضَى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرة

---

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه ص ٨.
(٢) الذاريات ٥٦.
(٣) الفتاوي (١٠/ ١٤٩).
(٤) الأنعام: ١٦٣.

من أمرهم، ومن يَعْصِ الله ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مُبيناً﴾(١).

ولا يكون الإنسان مسلماً إلا إذا حكم بما أنزل الله واحتكم إلى ما أنزل الله وإلا فهو الكفر والظلم والفسق: ﴿ومن لم يَحْكُم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾(٢). ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾(٣) ﴿ومن لم يَحْكُم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾(٤).

﴿فلا وربِّك لا يُؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شَجَر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تسليماً﴾(٥).

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين يَزْعمُون أنَّهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلَّهم ضلالاً بعيداً﴾(٦).

والذي يتأمل القرآن الكريم يتبين له شمول الإسلام لحياة الإنسان كلها، واقرأ ـ على سبيل المثال هذه الآيات لترى كيف جمعت في سياق واحد كل هذه الأمور وربطتها بطاعة الله وتقواه وعبرت عن فرض القصاص، وفرض الوصية، وفرض الصيام بأداة واحدة، وهي: ﴿كتب عليكم﴾ الأول في الدماء، والثاني في الأموال، والثالث في ركن من أركان الإسلام: ﴿ليس البِّر أن تولُّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب، ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليومِ الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المالَ على حبِّه ذوي القُرْبى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاةَ، وآتى الزكاة، والموفونَ بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في الباساء والضرَّاء وحين البأس، أولئك الذين صَدَقوا وأولئك هم المتقون * يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاصُ في القَتْلى: الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبدِ، والأنثى بالأنثى، فمن عَفَى له من أخيه شيء فاتِّباعٌ بالمعروف وأداء إليه بإحسان، ذلك تخفيفٌ من ربِّكم ورحمةٌ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم * ولكم في القصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلَّكم تتقون *

(١) الأحزاب: ٣٦.
(٢) المائدة: ٤٤.
(٣) المائدة: ٤٥.
(٤) المائدة: ٤٦.
(٥) النساء: ٦٥.
(٦) النساء: ٦٠.

كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إنْ ترك خَيْراً الوصيةُ للوالدَين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين * فمن بدَّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدِّلونه إن الله سميعٌ عليمٌ * فمن خاف من مُوص جَنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثمَ عليه، إنَّ الله غفورٌ رحيم * يا أيُّها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[١].

فأنت ترى أن هذه الآيات جمعت بين الاعتقاد - الإيمان بالغيب - وبين الأعمال الصالحة من إنفاق مال، وإقامة صلاة، ووفاء بعهد وصبر، وصدق وتقوى، وقصاص ووصية، وصيام: دين ومعاملة - وهي من الدين - ودنيا وآخرة وهذا هو الإسلام.

والله عز وجل الذي أوجب على الناس الدخول في الإسلام وكتب عليهم القصاص والوصية والصيام كتب أيضاً القتال وفرضه فقال: ﴿كُتب عليكم القتالُ وهو كُرْهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[٢].

ونهى المسلمين عن نكاح المشركات حتى يؤمِنَّ، كما نهى عن إنكاح المسلمة مشركاً حتى يؤمن، وأمر باعتزال النساء وقت الحيض، وهذا من الإسلام: ﴿ولا تَنْكحوا المشركاتِ حتى يُؤْمنَّ، ولأمةٌ مؤمنةٌ خيرٌ من مُشْركةٍ ولو أعجبتكم، ولا تُنْكحوا المشركين حتى يؤمنوا، ولَعَبْدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشركٍ ولو أعجبكم، أولئك يَدْعُون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه، ويبين آياتِهِ للناس لعلهم يتذكَّرون * ويسألونَك عن المحيض قُلْ هو أذىً، فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهنَّ حتى يَطْهُرْن، فإذا تطهَّرْن فأتوهن من حيث أمركم الله، إنَّ الله يحبُّ التَّوابين ويحبُّ المتطهِّرين﴾[٣].

ويصدر حكمه في الطلاق: ﴿الطلاقُ مرَّتان، فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان﴾[٤].

---

(١) البقرة: ١٧٧/ ١٨٣.
(٢) البقرة: ٢١٦.
(٣) البقرة: ٢٢١/ ٢٢٢.
(٤) البقرة: ٢٢٩.

ويأمر بكتابة الدين والإشهاد عليه: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَيْن إلى أجل مُسَمّىً فاكتبوه﴾ (١)، ﴿واستشهدوا شهيدَيْن من رجالكم، فإن لم يكونا رجلَيْن فرجلٌ وامرأتان ممَّن تَرْضَون من الشهداء﴾(١).

وينهي عن الربا: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾(٢).

وينهى عن طاعة أعدائه من أهل الكتاب مبيناً السبب في ذلك، فيقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾(٣).

ويمنح الأمة الإسلامية صفات تؤهلها لقيادة البشرية وتوجيهها فيقول: ﴿كنتُم خير أمة أُخرجتْ للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهَوْن عن المنكر، وتُؤمنون بالله﴾ (٤). الآية السابقة تحذر من طاعة أعداء الله. وهذه تحث على الأمر بطاعته واجتناب معصيته، ولم تفرق بين أولياء الله وأعدائه ممن يؤمرون وينهون.

ويقضي الله تعالى في أموال المنتقل إلى الدار الآخرة فيقسم ماله بين ورثته كما في آيات الميراث التي في سورة النساء والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذَّكَر مثلُ حظِّ الأنْثَيَيْن﴾ وتختم بقوله: ﴿تلك حدودُ الله، ومن يُطِعِ الله ورسولَه يُدْخِلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم﴾(٥).

ويأمر سبحانه بأداء الأمانات ـ وهي شاملة لكل أمانة، من مال ووظيفة وغيرهما ـ إلى أهلها، وأن يحكم بين الناس بالعدل ـ ولا يكون الحكم عدلاً إلا إذا كان حكماً بما أنزل الله ـ وأمر بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولى الأمر ـ وهم الذين يلون أمور المسلمين بالإسلام ـ فإذا حصل نزاع بين المسلمين ـ حاكمين

---

(١) البقرة: ٢٨٢.
(٢) البقرة: ٢٧٨.
(٣) آل عمران: ١٠٠.
(٤) آل عمران: ١١٠.
(٥) الآيات في سورة النساء ١١/ ١٣.

ومحكومين ـ فقد أمرهم بالتحاكم إليه وإلى رسوله ﷺ ـ إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ وذلك شرط في صحة الإيمان، قال تعالى: ﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إنَّ الله نِعِمّاً يَعِظُكم به إن الله كان سميعاً بصيراً * يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولى الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تُؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[١].

ويأمرنا بالوفاء بالعقود ـ وهي العقود التي لا تخالف الشرع ـ عموماً: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أوْفُوا بالعقود﴾[٢]. ويرد التحليل والتحريم إلى نفسه سبحانه وتعالى ولا يدع مجالاً لأحد أن يحلل أو يحرم من عند نفسه ﴿حُرِّمتْ عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير وما أُهِلَّ لغيرِ الله به والمُنْخَنقةُ والموقوذةُ والمتردِّيةُ والنَّطيحةُ وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذكيتم وما ذُبح على النُّصُبِ وأن تستقسموا بالأزلام، ذلكم فِسْقٌ، اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تَخْشَوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينَكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾[٣] (وتحليله وتحريمه عام في كل شيء في المأكولات، كما مضى)، وفي الأنكحة: ﴿حُرِّمت عليكم أمهاتُكم وبناتُكم﴾ الآيتين[٤]. وحكم على من أطاع من حلل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله بأنه قد اتخذه رباً من دونه، فقال: ﴿اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانُهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم، وما أُمروا إلَّا ليعبدوا إلَـهاً واحداً لا إلَه إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[٥].

قرن من أطاع غيره في التحليل والتحريم بمن عبد غيره من دونه وعقب ذلك بقوله: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلَهاً واحداً﴾ أي في الشعائر التعبدية والتحليل والتحريم وغيرهما ثم حكم على الفريقين بالشرك فقال: ﴿سبحانه عما يشركون﴾.

والذي يتتبع القرآن الكريم والسنة المطهرة وتنظيمهما لحياة المسلم كلها

(١) النساء: ٥٨/ ٥٩.
(٢) المائدة: ١.
(٣) المائدة: ٣.
(٤) النساء: ٢٣/ ٢٤.
(٥) التوبة: ٣١.

يوقن بأن الإسلام لا يذر شيئاً من نشاط الإنسان بدون منهج أو توجيه. وهذا ما دعا فقهاء الدين إلى القول: (فالإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية وعمل، ومصحف وسيف والقرآن الكريم ينطق بذلك كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه ويوصي بالإحسان فيه جميعه، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ، ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك﴾[1].

ولا جدال في أن القرآن الكريم والسنة النبوية ـ القولية والفعلية ـ قد اشتملت على أحكام أو تشريعات للمعاملات وللأموال بمختلف وجوهها وللأسرة وللحدود والجنايات والحرب والسلم وسياسة الحكم والمجتمع وغير ذلك.

وهذه كلها أمور اجتماعية وشؤون دنيوية من الدنيا، وهذه الأحكام هي التي تفرعت عنها ـ وعليها بنيت ـ المسائل التي تملأ مجلدات الفقه الإسلامي في قسم المعاملات، فالإسلام ـ إذن ـ يهتم كل الاهتمام بالدنيا ويشرع لها. ذلك لأن الدنيا ـ ومنها السياسة ومبادىء الحكم ـ يجب أن تكون ملتزمة بالأخلاق والعدالة وللمصلحة العامة للأمة والدين والإنسانية، لا تابعة للأهواء والشهوات والمطامع وهكذا يريدها الله ـ رب الإسلام ـ لصلاح الناس، أو صلاح الأرض والعمران)[2].

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسلموا أنفسهم له هو الآمر وهو الناهي لا أمر لغيره إلا إذا وافق أمره، ولا نهي لسواه إلا إذا كان تابعاً لنهيه، لأنه تعالى الخالق الإله السيد المطاع والناس يجب أن يكونوا كلهم عبيده لا يخضعون لغيره ولا يستعبدهم سواه فإذا فهم المسلم الإسلام بهذا المعنى الشامل وبهذه الألوهية الكاملة لله وبتلك العبودية المطلقة من قبل العبد لربه وعلم أنه يجب أن يسعى لرفع راية الإسلام في الكون فإن ذلك من أعظم البواعث له ليجاهد في سبيل الله لإقامة دين الله وشرعه والقضاء على كل طغاة

(١) رسالة المؤتمر الخامس «مجموع الرسائل» ص ١٥٣ للأستاذ البنا رحمه الله.
(٢) الإسلام والخلافة في العصر الحديث (ص ٢٤٢) للدكتور محمد ضياء الدين الريس.

الأرض الذين يريدون أن يكون الناس عبيداً لهم من دون الله، وإذا لم يستجيبوا لهم فتنوهم وعذبوهم وسجنوهم وقتلوهم وأخرجوهم من ديارهم وقد سجل التاريخ هذا الحافز العظيم على الجهاد في سبيل الله لأصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان فقد كان جوابهم عندما يسألهم أعداؤهم الذين جاؤوهم للدعوة إلى الله والجهاد في سبيله: ما الذي جاء بكم: كان جوابهم ما أجاب به رِبعـي بن عامر رستم قائد الفرس: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقـه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفْضي إلى موعد الله، قالوا: وما موعود الله، قال: (الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي..)[١].

وهذا هو الهدف الذي شرع من أجله الجهاد في سبيل الله ﴿من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله﴾[٢].

وهذا هو الدين الذي لا يقبل الله سواه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبلَ منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[٣].

المطلب الثاني
حمأة التحريف والهدف منه والفرق بين تحريف الإسلام وتحريف الأديان السابقة

التحريف هو تغيير معنى الكلام الذي قصده المتكلم، أو وضع الكلام في غير موضعه، وفي ذلك إفساد لمعنى الكلام كما هو واضح.

وإذا كان هذا هو التحريف، فإن أول حمأة فتنة انطلق منها التحريف إبليس لعنه الله، فإنه وضع الكلام في غير موضعه فأفسده فصار إماماً لكل

---

(١) البداية لابن كثير (٧/ ٣٩).
(٢) البخاري رقم ٢٨١٠ فتح الباري (٦/ ٢٧). ومسلم (٣/ ١٥١٢).
(٣) آل عمران: ٨٥.

محرف يخرج الكلام عن معناه ويفسده، وقد يكون ذلك بسبب سوء التصور، أو سوء القصد، أو بسببهما معاً.

وكان تحريف إبليس ناشئاً من سوء القصد، وقد اعترف بذلك في الدنيا وسيعترف به ـ كذلك في الآخرة ـ كما حكى الله سبحانه وتعالى عنه في كتابه، قال تعالى: ﴿ولقد خلقناكُم ثم صوّرناكُم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألَّا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خيرٌ منه خلقتَني من نار وخلقته من طين * قال فاهبِطْ منها فما يكون لك أنْ تتكبَّر فيها، فاخرج إنك من الصَّاغرين * قال أنظْرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفِهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرجْ منها مذؤماً مدحوراً لَمَنْ تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين * ويا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُك الجنة فكُلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطانُ ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتِهما، وقال ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكَين أو تكونا من الخالدين * وقاسَمَهما: إني لكما لمن الناصحين * فدلَّاهما بغُرور، فلما ذاقا الشجرةَ بَدَتْ لهما سوآتُهما، وطفقا يَخْصِفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربُّهما أَلَمْ أنْهكُما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ مبينٌ﴾[1].

فقد وضع اللعين الكلام في غير مواضعه في عدة أمور:

الأمر الأول: أنه علل عصيانه أمر الله بأن عنصره «النار» خير من عنصر آدم «الطين». فقد جعل نفسه أحكم من الله وأعرف بوضع الأمور في مواضعها فكأنه يقول ـ لعنه الله ـ: أمرك يا رب في غير مكانه لأن الذي خير ـ وهو هو في زعمه ـ أحق أن يسجد له من هو أدنى منه ـ وهو آدم في زعمه ـ وهل يوجد تحريف يتفوه به أحد أشد من هذا التحريف؟!

(١) الأعراف: ١١/ ٢٢.

الأمر الثاني: إن الله سبحانه نهى آدم وحواء عن أن يقربا الشجرة وأباح لهما الأكل من ثمار الجنة كلها وبين سبحانه أن قربهما هذه الشجرة يوقعهما في الكون من الظالمين. ولكن اللعين عارض ذلك فحضهما على أكل الشجرة وعلل ذلك بأنه يريد لهما خيراً أراد الله أن يحرمهما منه ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ فالذي جعله الله ظلماً جعله هو سبباً في العصمة «ملكين» والذي جعله الله سبباً في الخروج من الجنة جعله هو محققاً للخلود الأبدي ﴿أو تكونا من الخالدين﴾.

الأمر الثالث: أنه أكد لهما بالقسم أنه ناصح لهما في حال كونه ظالماً داعياً لهما إلى معصية الله والوقوع في سخطه ومتسبباً في إخراجهما من الجنة: ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾.

أما اعترافه بالتحريف فإنه واضح من قوله: ﴿فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم﴾ إلى قوله: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ فإنه فسر ذلك بأساليبه في الدعوة إلى المعصية كما مضى، وهذا اعتراف منه في الدنيا.

ويختصر الخبيث يوم القيامة تحريفه وخداعه وتبريه ممن أضلهم فيما حكاه الله عنه: ﴿وقال الشيطانُ لما قُضي الأمرُ: إنَّ الله وعدكم وعدَ الحق ووعدتكم فأخلفتُكم، وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلَّا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسَكم، ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِيَّ، إني كفرتُ بما أشركتموني من قبل﴾[١].

فالشيطان إذا هو أستاذ المحرفين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه مع زخرفة وتزيين وغرور.

وإنما أضل الناس بتحريفه المزخرف الذي أفسد به المعاني فجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً في نظر من استجاب له، كما قال ابن القيم رحمه الله: (ومن كيد عدو الله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان وقد أخبرنا

(١) إبراهيم: ٢٢.

الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ آل عمران: ١٧٥ . . .

ومن مكايده أن يسحر العقل دائماً حتى يكيده ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله كم فتن بهذا السحر من إنسان وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة وكم بهرج من الزيوف على الناقدين وكم روج من الزغل على العارفين فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك وألقاهم في المهالك في مهلك بعد مهلك وزين لهم عبادة الأصنام وقطيعة الأرحام ووأد البنات ونكاح الأمهات ووعدهم الفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس)[(١)].

وكان من أنجح تلامذته ومريديه اليهود لعنهم الله كما قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الرسولُ لا يَحْزُنْكَ الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبُهم، ومن الذين هادوا سَمّاعون للكذب سَمّاعون لقومٍ آخرين، لَمْ يأتوكَ يُحرِّفون الكَلِم من بعد مواضِعه يقولون: إنْ أُوتيتم هذا فخُذوه وإن لم تُؤتَوه فاحذروا، ومن يُرِدِ الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً، أولئك الذين لم يُرِدِ الله أن يطهِّر قلوبهم، لهم في الدنيا خِزْيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أفتطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرِّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾[(٣)].

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ١٣٠).
(٢) المائدة: ٤١.
(٣) البقرة: ٧٥.

وانتشر تحريف الكلم عن مواضعه في البشرية فوجد في كل أمة شياطين يجيدون هذا التحريف ويزيفون المعاني لإضلال الناس وإن كان اليهود أكثر براعة في ذلك من غيرهم. قال سيد قطب رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالَة ويريدون أن تَضلُّوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً * من الذين هادُوا يُحرِّفون الكَلِم عن مواضِعه ويقولون: سمعنا وعصينا، واسمع غير مُسْمَعٍ، وراعِنا لَيّاً بألسنتهم وطَعْناً في الدين، ولو أنَّهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانْظُرنا لكان خيراً لهم وأقْوَم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾[1]. قال رحمه الله: (لقد بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع الله عز وجل أن يحرفوا الكلام عن المقصود به... وتحريف الكلم عن المقصود به ليوافق الأهواء ظاهرة ملحوظة في كل رجال دين ينحرفون عن دينهم ويتخذونه حرفة وصناعة يوافقون بها أهواء ذوي السلطان في كل زمان، وأهواء الجماهير التي تريد التفلت من الدين. واليهود من أبرع من يصنع ذلك، وإن كان في زماننا هذا من محترفي دين المسلمين من ينافسون ـ في هذه الخصلة ـ اليهود)[2].

ويظهر مما تقدم من تحريف إبليس ومن تبعه من اليهود وغيرهم من علماء الضلال أن الهدف من التحريف هو إفساد معنى الكلام وإخراجه عما عنى به لموافقة الأهواء أهواء المتسلطين على رقاب الناس وأهواء جماهير الناس الذين يريدون التفلت من الدين كما قال سيد قطب رحمه الله.

والفرق بين تحريف المعاني الإسلامية وتحريف الأديان السابقة أن تحريف الأديان السابقة شمل أصولها وفروعها، شمل الكتب المنزلة في لفظها ومعناها فلم يبق منها كتاب واحد، بل لم تبق جملة واحدة ثابتة من تلك الكتب، وشمل كذلك الألوهية والربوبية وأسماء الله وصفاته، فلم يعد إلهاً واحداً عند أهل تلك الأديان، بل آلهة متعددة كما هو عند النصارى، ولم يعد يتصف بصفات الكمال عند اليهود الذين وصفوه بالفقر جل جلاله ووصفوا، أنفسهم بالغنى وشمل كل

---

(١) النساء: ٤٤/ ٤٦.
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٦٧٥).

فرع من فروع التشريع، وأعظم ذلك عدم وجود أصل ثابت يرجع إليه لا عند اليهود ولا عند النصارى.

أما بالنسبة للإسلام، فإن التحريف الذي يقدر عليه أعداء الإسلام فيه هو تحريف المعاني ووضع كلام الله أو كلام رسوله ﷺ في غير موضعه، أما نصوص الكتاب ـ وكذلك نصوص السنة التي قضى الله لها أن يمحصها ويذب عنها جنده المحدثون ـ فإن الله قد وعد بحفظها فلا تزال محفوظة إلى يوم الدين، كما قال سبحانه: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذِّكْرَ وإنّا له لحافظون﴾(١).

ومهما حاول أعداء الله أن يحرفوا معاني كلام الله وكلام رسوله فإن تحريفهم يكشف ويفضح بالعودة إلى كتاب الله المحفوظ وسنة رسوله ﷺ ـ كذلك ـ قال شيخنا العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿بما استُحْفِظوا من كتابِ الله وكانوا عليه شُهَداء﴾(٢) أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ الأحبار والرهبان استحفظوا كتاب الله، يعني استودعوه وطلب منهم حفظه ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفظوه أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه، ولكنه بين في مواضع آخر أنهم لم يمتثلوا الأمر ولم يحفظوا ما استحفظوه بل حرفوه وبدّلوه عمداً، كقوله: ﴿يحرِّفون الكلم عن مواضعه﴾(٣) الآية وقوله: ﴿يحرِّفون الكلم من بعد مواضعه﴾(٤) الآية وقوله: ﴿تجعلونه قراطيس تُبْدونها وتُخْفون كثيراً﴾(٥) وقوله: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾(٦) الآية وقوله جل وعلا: ﴿وإن منهم لَفَريقاً يَلْوُون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾(٧) الآية إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه:

إن قيل ما الفرق بين التوراة والقرآن فإن كلا منهما كلام الله أنزله على

(١) الحِجْر: ٩.
(٢) المائدة: ٤٤.
(٣) المائدة: ١٣.
(٤) المائدة: ٤١.
(٥) الأنعام: ٩١.
(٦) البقرة: ٧٩.
(٧) آل عمران: ٧٨.

رسول من رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والتوراة حرفت وبدلت كما بيناه آنفاً والقرآن محفوظ من التحريف والتبديل لو حرف منه أحد حرفاً فأبدله بغيره أو زاد فيه حرفاً أو نقص فيه آخر لرد عليه آلاف الأطفال من صغار المسلمين فضلاً عن كبارهم. فالجواب إن الله استحفظهم التوراة واستودعهم إياها فخانوا الأمانة ولم يحفظوها، بل ضيعوها عمداً، والقرآن العظيم لم يكل الله حفظه إلى أحد حتى يمكنه تضييعه، بل تولى حفظه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة. كما أوضحه بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1] وقوله: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ الآية إلى غير ذلك من الآيات)[2].

ولهذا جد أعداء الإسلام في كل عصر من العصور لإفساد معاني الإسلام بشتى الوسائل فوجدوا صواعق مرسلة وشهباً رامية محرقة من أهل القرآن والسنة ممن فقهوا دين الله تحرق راياتهم وتنكس أعلامهم فلله الحمد وله المنة.

المطلب الثالث
أثر تحريف الإسلام على عامة المسلمين

الإسلام الذي عناه الله وأنزل من أجله كتابه المهيمن على سائر الكتب وأرسل به رسوله الذي ختم به سائر الرسل هو ما سبق من أنه شامل لحياة المسلمين كلها، ولكن أعداء الإسلام كبر عليهم أن يُسَيِّر منهجُ الله حياة البشر ليسعد به العالم كله فأخذوا يضيقون معناه في أذهان الناس عامة وفي أذهان عامة المسلمين بصفة خاصة وأرادوا أن يفهم الناس من هدا الدين أنه نحلة من النحل التي يعتقدها طوائف الناس في الأرض، كاليهودية المحرفة، والنصرانية المحرفة والهندوكية والبوذية ونحوها، لا بل إن أعداء الله الذين لا يخجلون من الافتراء الواضح المكشوف اتهموا هذا الدين بأنه مجموعة من تلك الأديان المذكورة ليحطوا من شأنه وينفروا الناس من الاقتراب منه وإذا كان الإسلام ـ كما زعموا ـ نحلة من النحل التي هي مجموعة من المعتقدات التي لا شأن لها

---

(١) الحجر آية: ٩.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ١٠٠).

بحياة البشر فإن من تحمس له عليه أن يبشر به ويدعو إليه مقيماً عليه الحجج بالكلمة ونحوها، وليس من حقه أن يدعو إلى جهاد أعدائه الذين يقيمون السدود لصد الناس عنه لتحطيم تلك السدود وكسر شوكة طواغيتها، ولا حق له أن يرفع السلاح إلا مدافعاً عن نفسه في حدود وطنه كغيره من الناس الذين يدافعون عن أوطانهم، وليس له أن يدافع عن المظلومين أو ينصر المستضعفين في البلدان الأخرى لأنه ليس وصياً عليهم. فدينه كبقية الأديان يعتقد ما فيه بقلبه ويعبد ربه فيما بينه وبينه وإذا شاء دعا غيره إلى ما اعتقده وعبد به ربه وليس له شيء بعد ذلك وعندما يصلون إلى هذه المرحلة من التحريف لدين الله ينتقلون إلى مرحلة أخرى وهي أن هذا الدين لا حاجة له إلى القوة ولا إلى دولة ترفع رايته وتنشره أو تجاهد في سبيله وهو غير صالح ليكون منهج حياة في هذا العصر المتطور الذي تطورت فيه نظم الحكم ونظم الإدارة ونظم الاقتصاد ونظم الاجتماع وأصبح تطبيق أحكام الإسلام التي طبقت في العصور الماضية غير ممكنة التطبيق مع هذه النظم المتطورة ومن أراد تطبيقها فإنه يؤخر بذلك شعبه وأمته عن ركب الحضارة والتقدم ويحرمها من ثمرات أفكار صانعي هذه الحضارة وهذا التقدم، وقد يظهرون شيئاً من الغيرة على هذا الدين فيقولون إن إقحامه في شؤون حياة البشر يجعله يفتي سلباً أو إيجاباً فيما ليس من طبيعته وتنزيهه من ذلك أولى، وهذا ما يطلق عليه الآن فصل الدين عن الدولة واصطلح عليه بالعلمانية، حتى أن بعض العلماء الذين نصبوا أنفسهم لتحريف هذا الدين ادعوا أن الرسول ﷺ كانت رئاسته للمسلمين في عهده دينية وليست سياسية وبنوا على ذلك أن خلافة أصحابه من بعده كانت سياسية لا دينية ولذلك فإن قتال أبي بكر وأصحابه للمرتدين كان ظلماً عند هؤلاء(١).

وانبنى على تحريف الإسلام عن معناه وتفريغه من محتواه أن ابتعد الناس عن طاعة الله وارتكبوا معاصيه وخفت في نفوسهم الحماس لدينهم والدعوة إليه والجهاد في سبيله.

وهذا ما جعل دعاة الإسلام ينذرون قومهم ويحذرونهم من هذا التحريف

---

(١) راجع الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين (٢/ ٨٥/ ٩٨).

وهذا الانزلاق وذلك الخفوت والهمود، كما قال سيد قطب رحمه الله: (إن طبيعة هذا الدين واضحة لا تحتمل اللبس، صلبة لا تقبل التمييع، والذين يلحدون في هذا الدين يجدون مشقة في تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلة وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهوداً لا تكل وحملات لا تنقطع ويستخدمون في تحريفه عن وجهته وفي تمييع طبيعته كل الوسائل وكل الأجهزة وكل التجارب وهم يسحقون سحقاً وحشياً كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض. وهم يسلطون المحرفين من علماء هذا الدين عليه يحرفون الكلم عن مواضعه ويحلون ما حرم الله ويميعون ما شرعه الله ويباركون الفجور والفاحشة ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه وهم يزحلقون المخدوعين في الحضارات المادية المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها ليحاولوا زحلقة الإسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع ورفع شعاراتها أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها وهم يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً مضى ولا تمكن إعادته ويشيدون بعظمة هذا الماضي ليخدروا مشاعر المسلمين ثم ليقولوا لهم في ظل هذا التخدير: إن الإسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة لا شريعة ونظاماً وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم هذا وإلا فإن على هذا الدين أن يتطور فيصبح محكوماً بواقع البشر يبصم لهم عل كل ما يقدمونه له من تصورات وقوانين وهم يضعون للأوضاع التي يقيمونها في العالم الذي كان إسلامياً نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين لتحل محل ذلك الدين القديم وينزلون لها قرآناً يتلى ويدرس ليحل محل ذلك القرآن القديم وهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين كوسيلة أخرىٰ حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية فيحولون المجتمعات إلى فتات غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور مشغول بلقمة العيش لا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد كي لا يفيق بعد اللقمة والجنس ليستمع إلى هدى أو يفيء إلى دين)[١].

(١) في ظلال القرآن (٩/ ١٤٠٣).

وإنك إذا نظرت إلى الذين يدعون الإسلام تجد أكثرهم لا يهتمون بحلاله ولا حرامه ولا يحافظون على واجباته المعلومة في الدين بالضرورة فضلاً عن أن يتحمسوا للدعوة إليه أو الجهاد لرفع رايته وتجد القليل منهم يؤدي شعائره التعبدية. كالصلاة والصيام ونحوهما أداء بارداً تقليداً لأبائهم وأجدادهم دون أن تؤثر فيهم التأثير المطلوب، كتقوى الله التي يؤدي إليها الصيام: ﴿كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين من قبلكم لعلَّكم تتقون﴾[1]، وكالنهي عن الفحشاء والمنكر التي يؤدي إليها أداء الصلاة ﴿ إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ﴾[2] فتجد الفرد المسلم يصلي ويصوم ولكنه يتعامل بالربا وقد يشرب الخمر وقد يتعاطى الزنا وغيرها من المعاصي وتجد الأقل يحافظ على الواجبات ويترك المحرمات ولكنه لا يتحمس لحمل غيره من ذويه وأقاربه وجيرانه على ذلك وأندر من ذلك كله من تجده يحافظ على دينه ويدعو إليه ويجاهد لرفع رايته وكان هذا سبباً في بعد المسلمين عن الجهاد في سبيل الله لقصور فهمهم للإسلام الذي جاء لإخراج العباد من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق سبحانه، ولو فهم المسلمون إسلامهم على هذا الوجه وهم يريدونه حقاً لكان ذلك من أكبر الحوافز لهم على الجهاد في سبيل الله ورفع رايته في الأرض، ولم يكونوا بهذه الحالة المزرية من الذلة والمهانة والانقياد لأعداء الله.

وإن الفرق لبعيد بين من يدعي العلم، وهو يفهم أن الإسلام مجرد عقيدة في القلب لا تحدث شيئاً غير أداء بعض الشعائر الدينية التي هي جزء منه، فهو صلة بين العبد وربه ولا شأن له بحياة البشر التي يحكمها الطواغيت بغير حكم الله، وبين من فهم الإسلام على النحو الذي وضحه ابن تيمية بقوله:

(وإذا خرج ولاة الأمور عن هذا فحكموا بغير ما أنزل الله وقع بأسهم بينهم، قال النبي ﷺ: «ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم» وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول، كما جرى مثل هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا. ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره فيسلك مسلك من

---

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

أيده الله ونصره ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه فإن الله يقول في كتابه ﴿ولَيَنْصرَنَّ الله من ينصرُه، إنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ * الذين إنْ مَكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتُوا الزكاة وأمـروا بالمعـروف ونَهَوا عن المُنْكر، ولله عـاقبةُ الأمور﴾(١) فقد وعد الله بنصره من ينصره ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله)(٢).

وكذلك سيد قطب حيث قال: (إن هذا الدين إعلان عام لتحريـر «الإنسان» في الأرض من العبودية للعباد ومن العبودية لهواه ـ أيضاً ـ وهي من العبودية للعباد ـ وذلك بإعلان ألوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين. إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور، أو بتعبير آخر مرادف الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور، ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر ومصدر السلطات فيه هم البشر هو تأليه للبشر يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون فيهم مقام الأرباب ويقوم الناس منهم مقام العبيد إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض. . . والذي يدرك طبيعة هذا الدين على النحو المتقدم يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف إلى جانب الجهاد بالبيان»(٣).

رحمك الله يا سيد لقد أدركت معنى الإسلام وطبيعة هذا الدين فكانت لك تلك الوقفة الصامدة أمام طواغيت الكفر فجاهدت في سبيل هذا الإعلان العام وأعلنتها دعوة صريحة إلى نبذ عبادة العبيد إلى عبادة المعبود وحده وأغظت أولئك الطواغيت بتلك الدعوة فآذوك بكل أنواع الإيذاء وصبرت وصابرت حتى أراقوا دمك في سبيل ربك وما كان الحافز لك ولأمثالك من دعاة الإسلام إلا

(١) الحج: ٤٠/ ٤١.
(٢) الفتاوىٰ (٣٥/ ٣٨٩).
(٣) في ظلال القرآن (٩/ ١٤٣٣/ ١٤٣٥).

ذلك الفقه الحق (ومن يرد الله به خيراً يفقه في الدين). وما قعد القاعدون عن سلوك دربك إلا لجهلهم بحقيقة هذا الدين أو تحريفهم إياها متعمدين ليعبدوا غير الله بذلك التحريف من أعداء الإسلام الذين لا يحملون مؤهلاً لقيادة شعوبهم إلا باقصاء الإسلام وإبعاده عن حياة تلك الشعوب وقد يئسوا عن إقصائه بقوة الحديد والنار وحدها فلجأوا معها إلى علماء الضلال ليحرفوا لهم معاني هذا الدين ونشروا هذا التحريف بين أبنائه ليخدروهم عن نصره والجهاد في سبيل الله.

وأصل تحريف الإسلام إلى هذا المفهوم الفاسد ناشيء من مفهوم الدين عند الغربيين، كما قال المودودي رحمه الله: (لكنا إذا أنعمنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل لأجلها استجلاء حقيقة الجهاد في سبيل الله واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم لاح لنا أن مرجع هذا الخطأ إلى أمرين مهمين لم يسبروا غورهما ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة:

فالأول أنهم ظنوا في الإسلام نحلة بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة النحلة... فالنحلة على حسب الاصطلاح الشائع عندهم لا يراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر ولا جرم أن النحلة بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة شخصية فأنت حر فيما تختاره من العقيدة ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت من رضيت به رباً لنفسك وإن أبت نفسك إلا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض وتجوب بلاد الله الشاسعة داعياً إلى عقيدتك مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين مجادلاً من يخالفونك بمرهفات الألسنة واسنة الأقلام. أما السيف وآلات الحرب والقتال فما لك ولها في هذا الشأن أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك وإن كان الإسلام نحلة كنحل العالم على حسب الاصطلاح الشائع عندهم فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب كما قالوا ولو كان موقف الإسلام في نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساغ للجهاد ولم يكن من الإسلام في ورد ولا صدر لكن الأمر على خلاف ذلك كما سوف تعرفه فيما يأتي من البيان)[1].

---

(١) الجهاد (ص ١١/ ١٢).

الفرع الثاني:
تحريف معنى الأمة الإسلامية

الأمة الإسلامية هي الأمة التي بين القرآن الكريم مكانتها في البشرية وهي أن تكون في محل القيادة والأمر والنهي انطلاقاً من إيمانها بالله وعملها الصالح ودعوتها إلى الإسلام، كما قال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجتْ للنّاس، تأمرون بالمعروف، وتنهَوْن عن المنكر، وتُؤمنون بالله﴾[١].

قال السرخسي رحمه الله: (فأما بيان المعاملة مع المشركين فنقول الواجب دعاؤهم إلى الدين وقتال الممتنعين منهم من الإجابة لأن صفة هذه الأمة في الكتب المنزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبها كانوا خير الأمم قال الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أُخرجتْ للناس﴾ الآية وراس المعروف الإيمان بالله تعالى فعلى كل مؤمن أن يكون آمراً به داعياً إليه وأصل المنكر الشرك فهو أعظم ما يكون من الجهل والعناد لما فيه من إنكار الحق من غير تأويل فعلى كل مؤمن أن ينهى عنه بما يقدر عليه)[٢].

وقال سيد قطب رحمه الله: (وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها وتعرف أنها أُخرجتْ لتكون طليعة ولتكون لها القيادة بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض، ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية، إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح والتصور الصحيح والنظام الصحيح والخلق الصحيح والمعرفة الصحيحة والعلم الصحيح، هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها وتحتمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون في الطليعة دائماً وفي مركز القيادة دائماً ولهذا المركز تبعاته فهو لا يؤخذ ادعاء ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له، وهي بتصورها الاعتقادي وبنظامها الاجتماعي أهل له، فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي وبعمارتها للأرض قياماً بحق الخلافة أهلاً له كذلك ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير ويدفعها إلى السبق في كل مجال لو أنها

---

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) المبسوط: (١٠/ ٢).

تتبعه وتلتزم به وتدرك مقتضياته وتكاليفه. وفي أول مقتضيات هذا المكان أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[١].

والأمة الإسلامية ـ كما بينها القرآن ـ أمة وسط لو رجعت إليها جميع الأمم لتقتدي بها وتهتدي بهداها في كل شؤون حياتها لوجدت عندها بغيتها ومنهج حياتها. بل إن عليها هي أن تسعى جاهدة في هداية تلك الأمم وتقويم معوجها ونشر العدل بينها. قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾[٢].

وهذه الشهادة ـ وإن وردت الآثار ـ بأنها يوم القيامة حيث تشهد أمة محمد ﷺ على سائر الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم[٣] فإنها شاملة لإبلاغ أمة محمد ﷺ أمم الأرض كلها هذا الدين.

قال سيد قطب رحمه الله: (إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول هذا حق منها وهذا باطل، لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها. وهي شهيدة على الناس وفي مقام الحكم العدل بينهم. وبينما هي تشهد على الناس هكذا فإن الرسول هو الذي يشهد عليها فيقرر لها موازينها وقيمها ويحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن ما يصدر عنها ويقول فيه الكلمة الأخيرة وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها لتعرفها ولتشعر بضخامتها ولتقدر دورها حق قدره وتستعد له استعداداً لائقاً)[٤].

وقد لخص الأستاذ المودودي رحمه الله غايات الأمة الإسلامية ووظائفها في عبودية الله وحده، والحكم بقانونه في الأرض وإزالة الفساد من الأرض بقطع دابر أئمة الكفر، ولزوم الجماعة لإقامة الإمامة الربانية، فقال: (والظاهر أن

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٤٤٧).
(٢) البقرة: ١٤٣.
(٣) راجع تفسير ابن جرير الطبري (٢/ ٧).
(٤) في ظلال القرآن (٢/ ١٣٠).

أول ما يطالب به دين الله عباده أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى، ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى وجاء به الرسول الأمين الكريم ﷺ. ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد وتستأصل شأفة السيآت، والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه. وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ولا يكون من أمر اتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم يذكرون الله قابعين في زواياهم منقطعين عن الدنيا وشؤونها مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات. ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضا الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها.

ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة وتكرر من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة ولو قيد شعرة وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض وكل ذلك يتوقف على القوة الجماعية والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالاقرار بكلمة التوحيد)[١].

وإن من أهم واجبات الأمة الإسلامية، كما أشار المودودي رحمه الله لزوم الجماعة وذلك بالاعتصام بحبل الله واجتناب الفرقة وأسبابها كما قال سبحانه ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفَرّقُوا﴾[٢] وفي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (فهل بعد ذلك الخير من شر). قال: (نعم دعاة على أبواب جهنم من

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص ١٢/ ١٣.
(٢) آل عمران: ١٠٣.

أجابهم إليها قذفوه فيها) قلت يا رسول الله: صفهم لنا فقال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»[١] وما ذلك إلا لتكون الأمة الإسلامية قوية متماسكة قادرة على نصر دين الله وقيادة البشرية.

هـذا هو معنى الأمة الإسلامية المفهوم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والأمة التي تعلم أن هذه هي مكانتها، وتلك هي غايتها وأن وظيفتها تصحيح الأخطاء وإحقاق الحق وإبطال الباطل والقضاء على الفساد وإزالـة عروش الطغيان أمة لا يهدأ لها بال ولا تقفل أجفانها على نوم ولا تستلذ بمتع الحياة ونعيمها إلا إذا جاهدت في الله حق جهاده ورفعت راية الإسلام العادل لتنعم به البشرية كلها.

فتصور الأمة الإسلامية لحقيقتها من أعظم البواعث على قيامها بالجهاد في سبيل الله.

ولقد كانت الأمة الإسلامية في عصورها الأولى تعلم حقيقة نفسها وتعرف غاياتها وواجباتها وكان ذلك سبباً في رقيها المستمر وفتحها للبلدان ورفع راية الإسلام في كل صقع من أصقاع الأرض.

ولكن هذه الأمة التي استقام سلفها على هذا الفهم السليم بدأت تبتعد عنه رويداً رويداً في تصورها وفي سلوكها حتى جهلت غايتها وفقدت مكانتها فضعف إيمانها وضاقت عبوديتها لربها وقل إحساسها بوظيفتها (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وأخذت تهوي شيئاً فشيئاً من على كرسي قيادتها حتى استقر في نفسها أنها راكب من ركاب القطار، بدلاً من كونها قائدة له، ثم تأخرت حتى صارت في آخر عربة منه مع قطعان الحيوانات فاستمرأت التبعية وفقدت الثقة بنفسها فأذلها الله سبحانه ذلاً لا يخرجها منه إلا إذا عادت إليه فطلبت منه العزة ﴿ولله العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾[٢] ولم يعد مفهوماً لديها معنى الأمة الإسلامية الذي أراده الله لها لابتعادها عن منهجه وكل من ابتعد عن منهجه أذاقه الله

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٢/ ٤٨٥).
(٢) المنافقون: ٨.

عذابه وخزيه في الدنيا قبل الآخرة، كما قال سيد قطب رحمه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هو القادرُ على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحتِ أرجلِكم أو يُلْبِسكم شِيَعاً، ويُذيقَ بعضكم بأسَ بعضٍ، أنْظُر كيف نُصَرِّف الآياتِ لعلَّهم يفقهون﴾(١) قال: (ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب كلما انحرفت عن منهج الله وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم... تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور، وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقيماً وموازين من عند أنفسهم يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر والبعض الآخر يأبى ويعارض وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم فيذوق بعضهم بأس بعض.. والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد)(٢).

نعم الأرض كلها تعيش اليوم هذا العذاب البطيء المديد بسبب بعد الأمة الإسلامة عن منهج الله وتركها قيادة عجلة البشرية وتسلم طغاة الإفساد في الأرض لقيادتها. والأمة التي لا تتحقق فيها العبودية الكاملة لله تعالى تتحقق فيها عبودية غير الله بمقدار نقص عبوديته عندها، وبمقدار هذا النقص تفقد مكانتها القيادية إلى أن تصبح تابعة لغيرها تؤمر بدلاً من أن تأمر وتُنهى بدلاً من أن تَنهى وتأخذ بدلاً من أن تعطي وتطأطىء هامها لعبيد الشيطان بدلاً من عزتها وكرامتها التي وهبها الله لها بخضوعها له وبذلك تفقد ثقتها في نفسها وتأخذ تفكر في انقاذ نفسها بما يزيدها ذلا وهوناً وتتفرق كلمتها وتصبح أحزاباً وفرقاً يأكل بعضها بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً بدلاً من تعاونهم وتكاتفهم ضد عدوهم جهاداً في سبيل ربهم وخالقهم وهذا ما حصل لهذه الأمة التي ذاقت وبال بعدها عن ربها في كل فترة حصل فيها هذا البعد حتى كان آخرها سقوط رمز الخلافة الإسلامية في مطلع هذا القرن الذي انصرم ـ القرن الرابع عشر ـ فانفرط عقدها وتشتت شملها وضاع مجدها ونشأت قومياتها الجاهلية المنسوبة إلى

(١) الأنعام: ٦٥.

(٢) في ظلال القرآن (٧/ ١١٢٥).

الجنس أو إلى الوطن، هذه القومية التركية وهذه القومية العربية وتلك القومية الفارسية والقومية الإفريقية وتفرعت من القومية الواحدة قوميات متعددة توغل في الجاهلية أكثر: المصرية الفرعونية، والعراقية الكلدانية والشامية الآشورية، وأصبح كل قطيع يطلق على نفسه الأمة الفلانية مما جعل أحد الزعماء العرب من ذوي العاطفة الإسلامية ينعى على من ألّهوا هذه القوميات الضيقة والنعرات الجاهلية، ينعى عليهم جاهليتهم فقال:

(أما نحن فنؤمن بالوحدة العربية على منهاج الله وحده لا على منهاج ماركس ولينين ونيكسون وماوتسي تونج والوحدة العربية في يقيننا الذي لا يزعزع خطوة لا محيد عنها في سبيل تحقيق الإطار الأكبر وهو الاتحاد الإسلامي، ذلك لأن الأمة في مفهومنا الديني هي الأمة الإسلامية وليست العروبة إلا عنصراً من عناصر كثيرة وشعباً من شعوب كثيرة يحتويها ذلك المفهوم الكبير. وقد قرأت لوزير الخارجية المصرية آراء غريبة عجيبة في مدلول الأمة. فهو يسمي الشعب الفلسطيني الأمة الفلسطينية والشعب السوري الأمة السورية، والشعب الأردني الأمة الأردنية والشعب اللبناني الأمة اللبنانية، وهكذا يقسم الشعب العربي إلى أمم بعدد الدويلات والإمارات والمشيخات. وأكاد أقول بعدد القبائل والعشائر في دنيا العروبة وهل يريد لنا الاستعمار أو تريد لنا الصهيونية غير هذا التبدد والتمزق وغير هذا التهتك والضياع. وقرآننا الكريم حين يقول لنا: ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾(١) إنما يقصد الأمة الإسلامية لا الأمم الفلسطينية والكويتية والقطرية والعياذ بالله ولا حتى الأمة العربية بكافة تقسيماتها الجغرافية المهترئة)(٢).

وأنذر المودودي رحمه الله الأمة الإسلامية تفككها بسبب هذه القوميات البغيضة التي أدت إلى موت الشعور بالقومية الإسلامية وما ترتب على ذلك من آثار فقال: (فلنعلم أن نشوء الشعور بالقومية التركية أو الهندية أو الأفغانية أو العربية في المسلمين مستلزم بدون ما ريب لموت الشعور بالقومية الإسلامية من

(١) البقرة: ١٤٣.
(٢) الله أو الدمار (ص ٢١٧/ ٢١٨) لسعد جمعة رئيس وزراء الأردن سابقاً.

قلوبهم وزوال وحدتهم الإسلامية وهذه النتيجة ليست بمنطقية فحسب بل هي من الحقائق التي تشهد بها الحوادث التاريخية ولا تقبل الجدال والمكابرة. أليس من الحقائق التاريخية الناصعة أنه كلما نشأت في المسلمين العصبيات الوطنية أو النسلية كاد بعضهم لبعض وضيق عليه الخناق وأطال فيه يد القتل والنهب والتعذيب وأصر على إثبات صدق قول الرسول ﷺ بعمله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً بضرب بعضكم رقاب بعض» فدعاة الوطنية أو الجنسيات من المسلمين إن كانوا لا يجدون بداً من القيام بدعواتهم فالأحسن ألا يخادعوا أنفسهم ولا الدين. وليقوموا بدعواتهم على معرفة جيدة بأن الدعوة إلى الوطنية أو الجنسية مضادة لدعوة محمد رسول الله ﷺ في صميمها)(١).

وأطلق الشيخ أبو الحسن الندوي صرخته إلى العرب الذين سجل التاريخ عظمتهم بالإسلام وحده حاضا لهم على ترك هذه القوميات الضيقة والعودة إلى رحاب الأمة المجاهدة التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور فقال: (إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التي فتحتم بها العالم القديم في ميادين ضيقة محدودة وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم ـ الذي جرف بالأمس المدنيات والحكومات ـ في حدود هذا الوادي الضيق تصطرع أمواجه ويلتهم بعضها بعضاً. إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذي اختاركم الله لقيادته واجتباكم لهدايته وكانت البعثة المحمدية فاتحة هذا العهد الجديد في تاريخ أمتكم وفي تاريخ العالم جميعاً وفي مصيركم ومصير العالم جميعاً فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد وتفانوا في سبيلها وجاهدوا فيها ﴿وجاهدوا في الله حَقَّ جهاده؛ هو اجتباكم وما جعلَ عليكم في الدين من حَرَجٍ ملةَ أبيكم إبراهيم، هو سماكُم المسلمين من قَبْلُ، وفي هذا ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة، وآتُوا الزكاة، واعتصموا بالله، هو مولاكم فنِعْم المولى ونِعْم النصير﴾(٢).

(١) بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية ص ٧٢.

(٢) الحج ٧٨ وبهذه الجمل المختومة بهذه الآية ختم الأستاذ الندوي كتابه القيم: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين فليعها المسلمون ولا سيما العرب منهم.

وإن الذي ينعم النظر فيما يجري الآن بين المسلمين بسبب سوء تصرفهم وبعدهم عن دينهم وتفرقهم بسبب الدعوات العنصرية والوطنية يجد عجباً من التناقضات، فترى العربي النصراني يشترك مع العربي الشيوعي والعربي اليهودي ضد العربي المسلم وترى العربي الذي يدعي الإسلام يقف في صف النصراني غير العربي ضد المسلم غير العربي، وترى العربي المنتسب للإسلام يقف في صف من يدعي الإسلام وهو غير عربي ضد من يدعي الإسلام وهو عربي وترى المنتسب إلى الإسلام وهو غير عربي في صف النصراني أو اليهودي غير العربي ضد من ينتسب إلى الإسلام عربياً كان أو غير عربي. لأنهم كلهم لا ميزان لهم يزنون به تصرفاتهم وإنما هم عبيد أهوائهم التي تميل حيث مالت ريح الشيطان.

وقد بين بعض الكتاب سبب انحطاط المسلمين، وهو فقد ثقتهم بأنفسهم (وأساس ذلك ضعف إيمانهم بربهم وضعف صلتهم به) ومن أحسن الكتاب الذين بينوا ذلك الأمير شكيب أرسلان قال: (من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم وهو من أشد الأمراض الاجتماعية وأخبث الآفات الروحية لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء وكيف يرجو الشفاء عليل يعتقد بحق أو بباطل أن علته قاتلة وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية أن القوة المعنوية هي رأس الأدوية وأن من أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء فكيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهله يعتقدون أنهم لا يصلحون لشيء ولا يمكن أن يصلح على أيديهم شيء وأنهم اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون أن يضارعوا الأوروبيين في شيء... وهكذا أصبح المسلمون في الأعصر الأخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوربي إلا سينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه، وقر ذلك في نفوسهم وتخمر في رؤوسهم لا سيما هذه الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادقة عن الخيالات بزعمها فإنها صارت تقرر هذه القاعدة المشؤمة في كل ناد وتجعل التشاؤم المستمر والنعاب الدائم من دلائل العقل وسعة الإدراك وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة وما زالت تنفخ في بوق التثبيط وتبث في سواد الأمة

دعاية العجز إلى أن صار الاستخذاء ديدن الجميع إلا من رحم ربك وكانت روحه من أصل فطرتها قوية عزيزة)[١].

وما ذكره الأمير من فقد الأمة الإسلامية ثقتها بنفسها وتعلق آمالها بأعدائها بدلاً من تعلقها بربها، ثم بجهودها ما زال يسيطر على المسلمين إلى هذه اللحظة، فهم يشعرون بأنهم لا بقاء لهم إلا بالتوكل على إحدى الدول المسماة بالكبرى في الشرق أو في الغرب، ولا سيما حكام الشعوب الإسلامية الذين وقر في نفوسهم أن تلك الدولة قادرة على تمكين من تريد في الأرض ليبقى حاكماً لشعبه نيابة عنهم، وعلى إسقاط حكم من تريد ممن يقف معارضاً لها، فهي صاحبة العزة ـ في نظرهم ـ تؤتيها من تشاء وتنزعها ممن تشاء ـ وهذه هي العبودية المذلة التي وقع فيها كثير من المسلمين ولا سيما زعماءهم وهل يرجى من هؤلاء الذين نزلوا أنفسهم منزلة العبيد الذين يؤمرون من قبل أعدائهم فيأتمرون، وينهون من قبلهم فينتهون، هل يرجى منهم أن يصحوا من نومهم، بل أن يحيوا من مماتهم ويخرجوا من قبورهم التي حفرها لهم أعداؤهم فيحملوا راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ليرفعوها خفاقة على الأرض، يستظل بها العالم كله، وهم يعتقدون في أنفسهم أنهم من سقط المتاع وأن أعداءهم هم أسيادهم؟ كلا ثم كلا.

ولكن هذا الموت في عامة المسلمين لا يجوز أن يدخل اليأس على قلوب دعاة الخير وحداة الجهاد الذين نذروا أنفسهم لربهم وعاهدوه على السير في صراطه المستقيم الذي سلكه أولياؤه ولا زالوا يسلكونه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فمن ارتد عن دين الله أو قعد عن حمل الراية استبدل الله به غيره، وأتى بمن يخلص له عبوديته ويجاهد فيه حق جهاده ولا يخاف فيه لومة لائم يطلب عزته من الله كما يطلب منه ذلة أعدائه: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه، أذلةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين،

---

(١) لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم (ص ١٤٩/ ١٥٠).

يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[١] ﴿إلّا تنفِروا يعذِّبكم عذاباً أليماً، ويستبدلْ قوماً غيركم، ولا تضرُّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير﴾[٢].

الفرع الثالث
تحريف مفهوم دار الإسلام ودار الكفر

أحب في هذا المبحث أن أكتب خلاصة أُبين فيها معنى دار الإسلام، ومعنى دار الكفر، مما حرره فقهاء الإسلام في هذا الباب ثم أذكر بعد ذلك المفهوم المحرف في أذهان عامة المسلمين وما ترتب عليه من آثار معوقة عن الجهاد في سبيل الله. وهنا ورد إليّ السؤال الآتي: ألا يمكن العثور على آيات من القرآن الكريم يستنبط منها معنى الدارين: دار الإسلام ودار الكفر؟ وأخذت أستعرض بعض آي القرآن الكريم وأتأمل فيها أظن أنه يتضمن ما قصدت فخرجت بطائفة ـ لم أستقص غيرها ـ ظهر لي منها جلياً ما يمكن به وزن أي دار بأنها دار إسلام أو دار كفر والقاعدة العامة التي تجمع شتيت المعاني التي دلت عليها تلك الآيات أن دار الإسلام هي الأرض التي تعلو فيها كلمة الله ويظهر توحيده وطاعته ويؤمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر، وإن دار الكفر هي الأرض التي يظهر فيها الظلم، وأعظم الظلم الشرك بالله وإعطاء غيره حق التشريع والتحليل والتحريم فيها لم يأذن به، فتحارب بذلك الفضائل وأهلها ويمكن للرذائل ويكرم أهلها ويؤمر فيها بالمنكر وينهى عن المعروف. ويكفي أن يقتصر على سرد تلك الآيات والإشارة إلى ما توزن به دار الإسلام من المعاني الواردة فيها، إن كانت من هذا النوع، أو الإشارة إلى ما توزن به دار الكفر من المعاني إن كانت الآيات واردة في هذا النوع ويظهر من آيات سورة الحج التالية أنها قد جمعت بين الميزانين قال تعالى: ﴿أذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله

---

(١) المائدة: ٥٤.
(٢) التوبة: ٣٩.

على نصرهم لقديرٌ * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دَفْعُ الله الناس بعضهم ببعض لَهُدِّمت صوامعُ وبَيعٌ وصلواتٌ ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرنَّ الله من ينصره، إنَّ الله لقويٌّ عزيز * الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتُوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[١].

فقد نص الله سبحانه على المعنى العام الذي تصير به الدار دار كفر وهو الظلم ـ والمراد سيطرته لا مجرد وقوعه ـ وبين سبحانه أعظمه وهو الشرك به، وذكر بعض أجزائه، وهو إخراج المظلومين بدون حق وكذلك تهديم أماكن العبادة.

ونص سبحانه على الأصول التي تتفرع عنها المعاني التي تصير بها الدار دار إسلام، وهي إقام الصلاة وهي رمز لطاعة الله وتوحيده وقوة الصلة به، وإيتاء الزكاة وهي رمز لأداء الحقوق التي يأمر الله بأدائها، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما قاعدة الحفاظ على دين الله والذب عنه والدعوة إليه والجهاد في سبيل الله من أجل رفع كلمته.

وقال تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلونَ في سبيل الله والمستضعفينَ من الرجال والنساء والوِلْدان الذين يقولون ربَّنا أَخْرِجْنا من هذه القريةِ الظالِمِ أهلُها، واجعل لنا من لَدُنْك وليّاً، واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيراً﴾[٢].

فالأرض التي يستضعف الكفار فيها المؤمنين، بل وغير المؤمنين، الذين يبلغ بهم الأمر أن يلحوا في دعاء الله ليخرجهم منها بسبب ذلك الظلم وذلك الاستضعاف ـ وهو لا يكون كذلك إلا إذا سيطر الظلمة وأهل الكفر ونفذ حكـم غير الله في الأرض هذه الأرض أرض كفر، ولو كان الكفر غير مسيطر فيها لوجد فيها من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويدافع عن المستضعفين

(١) الحج: ٣٩/ ٤١.
(٢) النساء: ٧٥.

ولعدم وجود ذلك أمر الله المؤمنين بقتال من استضعفهم في صورة إنكار عليهم إذا لم يقاتلوا.

وقال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنَّكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في مِلَّتِنا، فأوحى إليهم ربُّهم لَنُهْلِكنَّ الظالمين﴾(١).

فالأرض التي يسعى رؤوس الكفر الذين بيدهم السلطة فيها لإجبار المسلمين على العودة إلى الشرك أو إخراجهم منها هي دار كفر وليست دار إسلام.

وقال تعالى: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنكَّ يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنَّ في مِلَّتنا، قال أوَلَوْ كنَّا كارهين﴾(٢) وهي كسابقتها.

وقال تعالى: ﴿إنَّ الذين تَوَفَّاهُم الملائكةُ ظالمي أنفسهم، قالوا: فيمَ كنتم؟ قالوا كنا مُسْتَضْعفِينَ في الأرض، قالوا ألَمْ تَكُنْ أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنَّمُ وساءت مصيراً﴾(٣).

فالأرض التي يستضعف فيها المؤمن ويجب عليه أن يهاجر منها ـ ليست دار إسلام وإنما هي دار كفر.

وقال تعالى: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتونَ الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين * إنكم لتأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم مُسْرفون * وما كان جوابُ قومه إلاّ أن قالوا: أخرجوهم من قريتكم إنَّهم أُناسٌ يتطهَّرون﴾(٤).

فالدار التي تُعلَن فيها الفاحشة ويفتخر بها وتصبح هي الممدوحة

(١) إبراهيم: ١٣.
(٢) الأعراف: ٨٨.
(٣) النساء: ٩٧.
(٤) الأعراف: ٨٠/ ٨٢.

والمدعومة، وتنتقص الفضيلة وتصبح سبباً للعقاب وإخراج أهلها من ديارهم.

والمفتخرون بالرذيلة والمنتقصون للفضيلة هم كفرة يحاربون حكم الله وأهله مع تمكنهم وسيطرتهم لا يمكن أن تكون تلك الدار دار إسلام بل هي دار كفر.

وقال تعالى: ﴿وألقي السَّحَرة ساجدين * قالوا آمنَّا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون * قال فرعونُ آمنتُم به قبل أن آذنَ لكم، إنَّ هذا لمكر مكرتُموه في المدينة لتخرجوا منها أهلَها فسوف تعلمون * لأقطِّعنَّ أيديكم وأرجلكم من خِلافٍ، ثم لأصلبنَّكم أجمعين﴾(١).

فالأرض التي يجبر نظام حاكمها أهلها على استئذانه في الإيمان بما تتيقنه قلوبها وإلا جوزوا هذا الجزاء الظالم دار كفر وليست دار إسلام.

وقال تعالى: ﴿إنَّ فرعون عَلاَ في الأرض، وجعل أهلَها شِيَعاً يستضعفُ طائفةً منهم يَذُبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهَم إنه كان من المفسدين * ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكِّن لهم في الأرض ونُرِى فرعونَ وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذَرون﴾(٢).

فالدار التي يعلو فيها شأن الكافر ويظهر فيها الفساد بإيجاد أحزاب متصارعة من أجل إضعافهم وهيمنة هذا الحاكم عليهم، ويستضعف بعض أهلها فلا يجدون ناصراً ولا آمراً بمعروف أو ناهياً عن منكر بل صاحب المنكر هو الآمر الناهي المحاد لله ولعباده المؤمنين هي دار كفر وليست دار إسلام.

وقال تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره إنِّي أخاف عليكم عذابَ يوم عظيم * قال الملأ من قومه: إنا لنراك

---

(١) الأعراف: ١٢٠/ ١٢٣.

(٢) القصص: ٤/ ٦.

في ضلال مبين * قال: يا قومي ليس بي ضلالةٌ ولكني رسولٌ من رب العالمين﴾[١].

فالدار التي يوصف فيها الداعي إلى توحيد الله وحده بأنه ضال أو سفيه والذي يصفه بذلك الوصف هم حكامها الكفرة دار كفر وليست دار إسلام ومثل ذلك قوله تعالى عن قوم هود: ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنُّك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين﴾[٢].

دار الإسلام هي الأرض التي تظهر فيها أحكام الله ولا يمكن أن تظهر فيها أحكام الله إلا إذا كان الحاكمون فيها مسلمين ملتزمين بشريعته مطبقين حكمه في أرضه، ولهذا قال الفقهاء رحمهم الله: (إن دار الكفر تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها... وإن دار الإسلام تصير دار كفر بظهور أحكام الكفر فيها)[٣].

ولكن ما معنى ظهور أحكام الإسلام، وظهور أحكام الكفر؟ الذي يظهر من الآيات القرآنية السابقة ـ وما في معناها ـ أن المقصود بظهور أحكام الإسلام أن تكون أحكام الإسلام هي الغالبة وكلمة المسلمين هي النافذة: تقام شعائر الإسلام وأركانه وتنفذ الحدود والقصاص ويؤخذ للمظلوم حقه من الظالم وترفرف راية التوحيد وتنكس أعلام الشرك ـ أي أن النظام العام الذي يحترم ويرجع إليه هو حكم الله تعالى لا حكم الكفر.

وإن المقصود بظهور أحكام الكفر عكس ذلك ـ أي أن تكون أحكام الكفر هي الغالبة وكلمة الكفار هي النافذة يستعبد الناس بعضهم بعضاً ويظلم قويهم ضعيفهم وترتفع راية الشرك وتختفي راية التوحيد ـ النظام العام الذي يحترم ويرجع إليه هو نظام الكفر أي قوانين البشر لا حكم الله تعالى.

والأمور التي ذكرت لتوضيح دار الكفر غير ظهور أحكام الكفر فيها لا

---

(١) الأعراف: ٥٩/ ٦١.
(٢) الأعراف: ٦٦/ ٦٧.
(٣) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٧٤/ ٤٣٧٥).

يكون كل واحد منها وحده، بل لا تكون مجتمعة ميزاناً يحكم به على أي بلد وجدت فيه بأنه دار كفر ولكنها ملازمة لظهور أحكام الكفر أنى وجد. أما المعاصي والفواحش فقد توجد في بلد تظهر فيه أحكام الإسلام، وتقل فيه أحكام الكفر فهذا البلد لا يحكم عليه بأنه دار كفر وإنما هو دار إسلام فيها فسوق وعصيان.

وخلاصة الكلام أن دار الإسلام هي الدار التي يظهر فيها حكم الله ويختفي حكم الكفر، وأن دار الكفر هي التي يظهر فيها حكم الكفر ويختفي حكم الإسلام.

وهذا ما سجله فقهاء الإسلام في كتبهم. ولكن يجب أن يبين هنا ما تصير به البلاد الإسلامية دار كفر والباحث يميل إلى تلك القاعدة وهي: (أن أي بلد كانت فيه القوة والسلطان للكفار الذين يطبقون أحكام الكفر ويقصون أحكام الإسلام من حياة الناس السياسية والاجتماعية والعسكرية ولا يستطيع المسلمون أن يطبقوا من أحكام الإسلام إلا ما أذن به ذوو السلطان الكفرة مما لا تعلو به كلمة الله ولا تسقط به راية الكفر فإن ذلك البلد الذي تحققت فيه هذه الأمور هو دار كفر وليس دار إسلام) ولو كان أغلب سكانه مسلمين، ولو كان حكام الكفر ينسبون أنفسهم إلى الإسلام، لأن العبرة في دار الإسلام بظهور أحكام الله فيها وكون كلمة الله هي العليا، والعبرة في دار الكفر بظهور أحكام الكفر وكون مناهج الحياة فيها هي مناهج كفر لا مناهج إسلام.

ولا يهولن القارىء إن هذه القاعدة تنطبق على بلدان أغلب سكانها مسلمون يقيمون شعائر دينهم التي أذن لهم بإقامتها حكامهم المحاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، فإن العبرة ليست بكثرة من ينتسب إلى الإسلام وإنما هي بمن يطبق أحكامه ويظهرها وينصرها، ويظهر ذلك بعكس هذه المسألة، وهو أن يغلب المسلمون على بلد أغلب سكانه كفار فيقيمون في هذا البلد أحكام الإسلام وهم أقل من سكانه فإنه يكون دار إسلام وليس دار كفر فكذلك إذا استولت شرذمة من الكفار على بلد أغلب سكانه مسلمون فأقامت تلك الشرذمة في هذا البلد أحكام الكفر فإنه يصير بلاد كفر وليس بلاد إسلام ومن أوضح

الأمثلة على ذلك ألبانيا التي لا زالت أسماء بعض حكامها أسماء مسلمين وأغلب سكانها مسلمون ولكن الزمرة الحاكمة فيها اشتطت في تطبيق أحكام أعظم كفر وجد على ظهر الأرض وهو الإلحاد الماركسي، وإذا كانت ألبانيا أصبحت دار كفر بذلك فما الفرق بينها وبين بلدان أخرى في غير أوروبا تسير في نفس هذا السبيل ويعلن للملأ حكامها بأنهم لينيون مارسكيون أو علمانيون لا يعترفون بحكم الله في أي جزئية من الجزئيات وقد يخدعون المسلمين بالإذن لهم بتطبيق بعض الأحكام التي لا يرون من تطبيقها ضرراً على حكمهم الكافر.

ولا يلزم من إطلاق اسم دار الكفر على تلك الديار كفر جميع سكانها فقد يكون منهم المسلم المغلوب على أمره ومنهم الكافر الغالب ولا عبرة بقلة أو بكثرة وقد تكون البلاد بلاد إسلام فيستولي عليها الكفار ويطبقون فيها أحكام الكفر فينقلب دار كفر كما أن بعض الديار تكون دار كفر فيستولي عليها المسلمون ويطبقون فيها أحكام الإسلام فتنقلب دار إسلام وهكذا... والدليل الواضح من الواقع وهو أن الكفرة الذين يطبقون أحكام الكفر ويستميتون في إبقائها وتثبيتها لو دعاهم داعٍ إلى الإسلام وإظهار أحكامه بدلاً من الكفر لما استجابوا له بل إنهم لينصبون له العداء ويستعدون لحربه كما يفعل الكفار في بلاد الكفر الأصلية، وإذا أراد أحد أن يسمى هذه الدار دار ردة فله ذلك ولكنه لا يغير من المعنى شيئاً فهي بلاد كفر يجب دعوة أهلها إلى الإسلام وقتالهم إن أصروا على الكفر.

وإذا كان أغلب السكان مسلمين وهو أمر قد يصعب معه تصور أن تلك الدار التي يسكنونها دار كفر فإن الذي يزيل تلك الصعوبة عن هذا التصور الإجابة عن هذه الأسئلة:

أتحكم هذه الكثرة من المسلمين بحكم ربهم أم بحكم الطواغيت المحاربة لربهم.؟

ألهذه الكثرة من المسلمين الغلبة والسيطرة على بلادهم وتصريف شؤونهم أم للكفرة الذين يحكمونهم وهم قلة.؟

أهم مستضعفون من قبل القلة الغالبة، استضعافاً يوجب عليهم الهجرة إلى بلاد أخرى يأمنون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم فيها أم لا؟

فإذا كانت الأجوبة بالترتيب: الحكم للطواغيث وليس لله والغلبة للقلة الكافرة وليست للكثرة المسلمة والاستضعاف من القلة الغالبة للكثرة المسلمة إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن إطلاق دار الإسلام على تلك البلاد والله تعالى يقول: ﴿إنَّ الذين تَوَفّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم، قالوا فيمَ كنتُم؟ قالوا: كُنَّا مُسْتَضْعفين في الأرض، قالوا ألَمْ تَكُنْ أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنَّمُ وساءت مصيراً﴾(١).

ولك أن تسميها بلاداً إسلامية تجاوزاً وحضاً للمسلمين على السعي الجاد لتطبيق أحكام الإسلام فيها: بجهاد حكامها الكفرة وإزالة عروشهم التي تسلطوا بها على المسلمين.

أما أن تسمى داراً إسلامية بمعنى أنها لا فرق بينها وبين دار الإسلام الحق فهذا هو التحريف بعينه وهذا هو السبب الذي جعل سكان تلك البلدان وغيرها يسترخون وينامون عن إعداد العدة والقيام بجهاد طغاة الكفر في بلدانهم ألا ترى أن دولاً كافرة في الغرب كأمريكا وبعض دول أوروبا تترك المسلمين أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية وفي الدعوة إلى دينهم والتذكير به وهم قلة في تلك البلدان وإن أكثر حكام البلدان التي توصف بأنها إسلامية وأغلب سكانها مسلمون يضايقون الدعاة إلى الإسلام ويسجنونهم ويخرجونهم من ديارهم وإذا لزم الأمر هدموا المساجد على رؤوسهم وحالوا بينهم وبين قول كلمة الحق.

إن حكام تلك البلدان لو ظهر في بلدانهم أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز يدعون إلى الإسلام لحاربوهم وقاتلوهم نصراً لنظام كفرهم الذي به بقوا متربعين على كراسي الحكم فكيف تكون الدار التي يحكمونها دار إسلام بمعناه الحق.

وكون الدار لا تصير دار إسلام إلا بإجراء الحاكم أحكام الإسلام فيها هو

---

(١) النساء: ٩٧.

الذي فهمه فقهاء الإسلام، قال السرخسي رحمه الله: (إن الإمام إذا فتح بلدة وصيرها دار إسلام بإجراء أحكام الإسلام فيها فإنه يجوز له أن يقسم الغنائم فيها)[(١)].

وقال عبد القادر عودة رحمه الله: (تشمل دار الإسلام البلاد التي تظهر فيها أحكام الإسلام أو يستطيع سكانها المسلمون أن يظهروا فيها أحكام الإسلام. فيدخل في دار الإسلام كل بلد سكانه كلهم أو أغلبهم مسلمون وكل بلد يتسلط عليه المسلمون ويحكمونه ولو كانت غالبية السكان من غير المسلمين ويدخل في دار الإسلام كل بلد يحكمه ويتسلط عليه غير المسلمين ما دام فيه سكان مسلمون يظهرون أحكام الإسلام أو لا يوجد لديهم ما يمنعهم من إظهار أحكام الإسلام)[(٢)] وقال عن دار الكفر: (وتشمل دار الحرب كل البلاد غير الإسلامية التي لا تدخل تحت سلطان المسلمين أولا تظهر فيها أحكام الإسلام سواءً أكانت هذه البلاد تحكمها دولة واحدة أو تحكمها دول متعددة ويستوي أن يكون بين سكانها المقيمين إقامة دائمة مسلمون أو لا يكون ما دام المسلمون عاجزين عن إظهار أحكام الإسلام)[(٣)].

هذا وينبغي أن يعلم أن ظهور أحكام الإسلام لا يمكن وجوده في بلد يحكمه كفار إلا إذا عنى به ظهور بعض الشعائر التي يأذن بها أولئك الحكام تفضلاً منهم فإن ذلك لا يجوز أن توصف البلد الذي وقع فيه بأنه دار إسلام لأن أحكام الإسلام لا بد لها من سلطان يحميها من الاعتداء على أهلها أو على إلغائها وما دام لا سلطان للمسلمين فيها يظهرون به أحكام دينهم في كل شؤونهم فإنهم معرضون للاعتداء والحول بينهم وبين إظهار أحكام الإسلام.

ولهذا قال أبو زهرة: (دار الإسلام هي الدولة التي تحكم بسلطان المسلمين وتكون المنعة والقوة فيها للمسلمين، وهذه الدار يجب على المسلمين القيام بالذود عنها، والجهاد دونها فرض كفاية)[(٤)].

---

(١) المبسوط (١٠/ ١٨) وأنظر بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٧٤) وما بعدها وكذلك حاشية رد المحتار لابن عابدين (٤/ ١٧٤/ ١٧٥).

(٢) التشريع الجنائي الإسلامي (١/ ٢٧٥).

(٣) نفس المرجع (١/ ٢٧٧).

(٤) العلاقات الدولية في الإسلام ص ٥٣.

هذا، وإن البلدان التي كانت دار إسلام ثم سيطر عليها كفار يطبقون فيها أحكام الكفر ويحاربون حكم الله لهي أولى بجهاد المسلمين لإعادة إعلاء كلمة الله فيها لا سيما إذا كان أغلب سكانها مسلمين مستضعفين.

وبهذا يظهر أن من المعاني التي حرفت وجهل المسلمون حقيقتها معنى دار الإسلام ومعنى دار الكفر وأن كثيراً من المسلمين يسيطر عليهم الكفار بإظهار حكم الكفر ويحاربون الإسلام والمسلمين وهم يظنون أن بلادهم دار إسلام بسبب ما يأذن لهم به أولئك الحكام من إقامة بعض شعائر دينهم التي يدركون أنهم لا خطر عليهم منها وإذا أدركوا أن خطراً ما سيتحقق من إقامة بعضها حظروه أو ضيقوا الخناق على أهله ولو فقه المسلمون هذا المعنى لما غفلوا عن الاستعداد للجهاد في سبيل الله وإعداد العدة له لطرد من دنسوا ديارهم بإظهار أحكام الكفر فيها وقلبوها إلى ديار كفر بعد أن كانت دار إسلام.

قال كامل سلامة الدقس: (ويظهر في تقسيم الدارين أن المعول في تمييز الدار هو وجود السلطة وسريان الأحكام، فإذا كانت إسلامية كانت دار إسلام، وإذا كانت غير إسلامية كانت الدار دار حرب وهذا واضح من تعريف الفقهاء لكل من الدارين)[١].

ومن ظنَّ أن دار الإسلام لا يمكن أن تنقلب إلى دار حرب[٢] فقد أبعد النجعة وفاته واقع الأندلس في السابق، وواقع ألبانيا وفلسطين في الحاضر، وليس الأمر مقصوراً على هذه البلدان فقط بل إن بلداناً أخرى صارت كذلك ومن فهم ما مضى حق الفهم لا يخفي عليه الأمر[٣].

---

(١) العلاقات الدولية في الإسلام على ضوء الإعجاز البياني في سورته التوبة ص ١٢٧ وراجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ١٧٨) لمحمد محمد حسين.

(٢) راجع نفس الكتاب ص ١٢٨.

(٣) هذا ما ظهر للباحث في معنى دار الكفر ودار الإسلام وقد أراد أن يطمئن إلى ما ظهر له فكاتب بعض العلماء المعاصرين في هذا الشأن فكان فضيلة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد رئيس مجلس القضاء الأعلى في المملكة العربية السعودية هو السباق إلى الإجابة، بل هو وحده الذي وافى بالرد وهذا نصه: (نفيدكم أن العبرة بمن كانت له الولاية والحل والعقد والتصرف في البلد، فإن كان =

الفرع الرابع
تحريف معنى الجهاد في سبيل الله

من أهم المعاني التي سعى أعداء الله من الكفار - من يهود ونصارى وشيوعيين - إلى تحريفها وتشويهها الجهاد في سبيل الله، ولقد سلكوا لذلك مسالك ماكرة جعلت كثيراً من المنتسبين للإسلام يسهمون في ذلك التحريف والتشويه إسهاماً واضحاً، بعضهم عن حسن قصد وسوء تصور، وبعضهم عن سوء قصد، كساداتهم الكفار الأصلاء.

مسلك أعداء الإسلام في تحريف معنى الجهاد وتشويهه لقد سلك أعداء الإسلام في تحريف معنى الجهاد وتشويهه ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: دعوى أن الإسلام إنما انتشر بالقهر والقوة وسفك الدم وأن المسلمين كانوا متوحشين يبطشون بالناس ويكرهونهم على الدخول في الإسلام: (وأشهر هذه التهم أن الإسلام قام بالسيف قال نلسون: وأخضع سيف الإسلام شعوب إفريقية وآسيا شعباً بعد شعب، ويزعم لطفي ليفونيان أن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح)[(١)].

وقال الأستاذ المودودي رحمه الله موضحاً تصوير أعداء الإسلام لمعنى الجهاد وتشويههم إياه: (لقد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة الجهاد بالحروب المقدسة إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم وقد فسروها تفسيراً منكراً وتفننوا فيه وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني المموهة الملفقة، وقد بلغ الأمر في ذلك أن أصبحت كلمة الجهاد عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق، والهمجية وسفك الدماء وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة: «الجهاد» تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة مصلتة سيوفها متقدة صدورها بنار التعصب

= ذلك للمسلمين فهي دولة إسلامية، وإن وجد بها كفار، وإن كان الحل والعقد والتصرف والولاية للكفار فتعتبر الدولة كافرة، وإن كثر فيها المسلمون) إ. هـ المقصود من رد فضيلة، وهو محفوظ في مكتبة الباحث ورقمه ٤٢٢/ ١ بتاريخ ٧/ ٣/ ١٤٠١ هـ.

(١) التبشير والاستعمار للدكتورين مصطفى خالدي، وعمر فروخ ص ٤١.

والغضب تتطاير من عيونها شرار الفتك والنهب عالية أصواتها بهتاف الله أكبر زاحفة إلى الإمام. ما أن رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه وجعلته بين أمرين إما أن يقول كلمة لا إلّه إلا الله فينجو بنفسه وإما أن يضرب عنقه فتشخب أوداجه دماء)[١].

المسلك الثاني اتهام الإسلام بالتناقض:

وزاد أعداء الإسلام على ذلك التصوير الماكر لمعنى الجهاد أن وصموا الإسلام بالتناقض، لأن القرآن نهى عن الإكراه في الدين وأمر المسلمين بالجهاد الذي وصفوه ذلك الوصف الخبيث.

قال سيد قطب رحمه الله: (إن بعض المغرضين من أعداء الإسلام يرمونه بالتناقض، فيزعمون أنه فرض بالسيف في الوقت الذي قرر فيه ألا إكراه في الدين)[٢].

المسلك الثالث: ادعاء نسخ الجهاد ورفعه وأنه لا يجوز للمسلم القيام به في هذه العصور[٣].

أثر تحريف معنى الجهاد في سبيل الله في بعض المنتسبين إلى الإسلام

ولقد ظهر أثر هذا التحريف في كثير من أبناء المسلمين فتلقفه بعضهم عن خبث وسوء قصد مقتفياً أثر أساتذته من أعداء الإسلام، بل إنه هو نفسه من أعداء الإسلام وانتسابه للإسلام قصد به هدم بناء الإسلام من داخله خدمة للكفرة من اليهود والنصارى والشيوعيين، ومن أخبث هؤلاء البهائيون، والقاديانيون الذين حاربوا الإسلام حرباً لم يقدر ساداتهم على بلوغها[٤].

---

(١) الجهاد في سبيل الله ٥/ ٦.
(٢) في ظلال القرآن (٣/ ٢٩٣).
(٣) راجع القادياني والقاديانية لأبي الحسن الندوي (ص ٩٥، ١٠١).
(٤) راجع: أجنحة المكر الثلاثة ص ٢٠٩ وما بعدها.

وأمثال هؤلاء لا حاجة إلى تسويد الصفحات في الرد على دعاواهم لأن آيات الجهاد في سبيل الله وأحاديثه وما ورد في سيرة الرسول ﷺ وعمل خلفائه الراشدين بعده وجميع أصحابه رضي الله عنهم ومن اتبعهم بإحسان تدفع هذه الدعوى الكاذبة التي لا تستند إلا على إرضاء سادات المدعين من الكفرة أمثالهم. وعلى المسلمين أن يحذروا كل الحذر من أن ينطلي عليهم هذا الزيغ والبهتان. ولا يغتربه إلا من سلك سبيل قائله فأزاغ الله قلبه وأعمى بصيرته.

ومن المسلمين من دفعه الحماس لدينه المتهم بالقسوة والتوحش والإكراه على الدخول فيه إلى الاعتذار عن هذه التهم بتحريف آخر دون أن يشعر بسبب دهشته من الحملة الخبيثة على دينه وجهله وهزيمته النفسية فكان الرد أن دين الإسلام ليس دين سيف ولا قتال ابتداء وإنما هو دين دعوة واقناع بالحجة والبيان، وإذا حمل أهله على القتال فإنما يحملهم عليه للدفاع عن أنفسهم وأوطانهم إذا اعتدى عليه معتد[1] واحتجوا لذلك ببعض نصوص القرآن مثل قوله تعالى:

﴿وقاتلوا في سبيلِ الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدين﴾[2]، وقوله: ﴿وإنْ جَنحوا لِلْسَّلْم فاجْنَحْ لها﴾[3]. وقوله: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيَّنَ الرُّشْد من الغَيِّ﴾[4].

والمعاني التي فهموها من هذه الآيات وأمثالها أن المسلمين لا يجوز لهم أن يبدؤوا بالقتال إلا من بدأهم به، وإنه إذا قامت الحرب بينهم وبين عدوهم فمال العدو إلى السلم التي هي ضد الحرب فإن عليهم - أي على المسلمين - أن يميلوا إليها ويهادنوا الكفار، وإنه لا يجوز للمسلم أن يكره غيره على الدخول في الإسلام وإذا كان كذلك فإنه لا يقاتل المسلم إلا دفاعاً عن نفسه وأرضه التي يقيم فيها[5].

---

(١) وراجع أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية الدكتور حامد سلطان ص ١٥٨ وما بعدها وكذا كتاب الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام للمستشار على علي منصور ص ٢٤٣.

(٢) البقرة: ١٩٠.

(٣) الأنفال: ٦١.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

(٥) راجع تفسير المنار (٢/ ٢٠٨).

وكون المسلمين لا يجوز لهم أن يبدأوا بالقتال إلا من بدأهم به من الكفار ليس بصحيح، لأن المسلمين مكلفون بدعوة الناس إلى الإسلام وقتال من لم يستجب حتى يسلم أو يدفع الجزية وهو صاغر ولا يجوز للمسلمين أن يقبعوا في قطعة من الأرض تاركين الطغاة الظالمين يستعبدون الناس ولذلك كانوا يجيبون من سألهم ما الذي جاء بكم؟ قائلين جئنا لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد والأمة الإسلامية أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كل معروف وكل منكر في كل الأرض ومع كل البشر) ولا يجوز لهم ترك أعداء الإسلام إلا بالإسلام أو دفع الجزية والخضوع لحكم الله الحق وهو معنى الصغار[١].

وأما الجنوح إلى السلم من قبل الكفار الذي أمر المسلمون به فهو مقيد بما مضى من الدخول في الإسلام أو دفع الجزية مع الصغار وما يردده كثير من المسلمين من الدعوة إلى السلم المذلة التي تكون السيطرة فيها لأعداء الله والذلة للمسلمين فليست هي السلم التي أمر الله بالجنوح إليها بل هي استسلام وانقياد لغير الله وذلك منهي عنه بنص كتاب الله: ﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنتم الأعْلَون والله معكم ولن يَتِرَكُم أعمالكم﴾[٢].

وأما الإكراه فإنه لا يمكن وقوعاً ولا يجوز شرعاً، ذلك لأن الإسلام يشمل الاعتقاد والعمل، وإذا أكره أحد على قول لا إله إلا الله والعمل بما تقتضيه في الظاهر فإنه لا يمكن جعل قلبه يعتقد معناها ولا العمل بمقتضاها، وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ولو شاء الله لآمن مَنْ في الأرض كلُّهم جميعاً؛ أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾[٣]. قال سيد قطب رحمه الله: (فالإيمان إذن متروك للاختيار لا يكره الرسول عليه أحداً لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجيهات الضمير)[٤] وقال سبحانه: ﴿لا إكراه في الدين﴾[٥] (نعم لا إكراه

---

(١) راجع المغنى لابن قدامة (٩/ ٢١٢) والفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ١٢٢) وما بعدها والمحلي لابن حزم (٧/ ٢٩١).
(٢) محمد: ٣٥.
(٣) يونس: ٩٩.
(٤) في ظلال القرآن (١١/ ١٨٢١).
(٥) البقرة: ٢٥٦.

في الدين) كما قال الله، ولكن نفي الله للإكراه ونهيه عنه لا يلزم منه عند من فقههم الله في دينه ما قرره القائلون بأن الجهاد في الإسلام المقصود منه الدفاع فقط: الدفاع عن الأنفس والأموال والأرض التي يقطنها مسلمون لأن الجهاد في سبيل الله شرع لرفع كلمة الله في الأرض والقضاء على طغاة البشر الذين يستعبدون الناس لأنفسهم وينشرون الظلم ويصدون عن سبيل الله أينما كانوا، ولأن المسلم مكلف بالعمل بهذا الدين والدعوة إليه والأخذ على يد الظالم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأعداء هذا الدين لا يمكن أن يهادنوه ويفتحوا لدعاته الأبواب للتبليغ والبيان والدعوة إليه، كما أنهم لا بد أن يصدوا عنه من أراد من البشر الذين لهم سلطة عليهم عنه وهذا دأبهم في كل زمان. لذلك كلف الله المسلمين إعداد العدة والجهاد في سبيله لإخراج البشر من عبادة العباد إلى عبادته وحده والقضاء على رؤوس الفتنة والضلال فإذا دان الناس لحكم الله وأصبحوا أحراراً في سماع كلمة الحق والاستجابة لهذا الذين بالدخول فيه، أو عدم الدخول فيه فإن المسلمين حينئذ لا يرفعون السيف على رقابهم وإنما يكونون مكلفين بيان الحق والدعوة إليه ونشر العدل وتثبيته في الأرض وترك الناس وعقائدهم وعباداتهم (إلا المرتد عن الإسلام فله أحكامه الخاصة وهي مبسوطة في كتب الفقه)[1].

فالقضاء على الظلمة الذين يصدون الناس عن سبيل الله وإزالة الموانع من طريق الدعاة إلى الله والاستجابة لها ليس إكراهاً في الدين والذين فهموا أن في بدء المسلمين بقتال الظلمة الذين يستعبدون الناس لأنفسهم ويصدون عن دين الله، الذين فهموا أن في ذلك إكراهاً التبس عليهم الحق بالباطل والحق في غاية الوضوح، ومثلهم كمثل شخص رأى داراً تحترق على من فيها وهم يريدون الخروج منها هرباً من النار وقد وقف أمام باب هذه الدار جنود مسلحون يمنعون من أراد الخروج منها ويمنعون فرق الإنقاذ والإسعاف من إنقاذهم وإسعافهم بإطلاق النار على من أراد الخروج أو أراد الإنقاذ والإسعاف، فجاء رجال آخرون مسلحون قادرون على إخراج أهل الدار وإعانة فرق الإنقاذ على أداء واجبهم

(١) راجع: الردة عن الإسلام وخطرها على العالم الإسلامي للباحث.

بقتل أولئك الأشرار الذين أرادوا اهلاك أهل الدار بإجبارهم على البقاء في الدار ومنعهم من الخروج منها فأخذ هذا الشخص الذي يرى هذه المناظر يصيح مشفقاً على أولئك الأشرار ومنكراً على الذين أعانوا أهل الدار على الهرب من النار وأعانوا فرق الإنقاذ على القيام بإسعاف أهل الدار زاعماً في إنكاره إن هؤلاء الذين أعانوا هؤلاء وهؤلاء اعتدوا على أهل الدار لإكراههم على الخروج منها وعلى من أرادوا لأهل الدار البقاء فيها ولإيضاح هذا المثال يقال أن الدار هي الأرض، وإن النار التي شبت في هذه الدار هي الكفر وأن الناس الذين احترقت عليهم الدار هم الذين يحال بينهم وبين سماع الحق والاستجابة له وأن فرق الإنقاذ هم الدعاة إلى الله والمسلحون الذين يمنعون أهل الدار من الهرب ويمنعون فرق الإنقاذ من الإسعاف هم الطغاة من الكفار وأن ذوي البأس والقوة الذين يتصدون لأولئك الطغاة هم جحافل الجهاد في سبيل الله وهؤلاء المجاهدون لا يكرهون أحداً على الدخول في الإسلام بعد أن يزيلوا سدود الطغاة التي صدوا بها عامة الناس عن استماع الحق والاستجابة له.

ولقد أجاد سيد قطب رحمه الله بيان هذا المعنى فقال: (إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته، ولكن الإسلام ليس مجرد عقيدة. إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان، ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحراراً بالفعل في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيداً للعباد وأن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده، ثم ليعتنق كل فرد في ظل هذا النظام العام ما يعتنقه من عقيدة، وبهذا يكون الدين كله لله أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله إن مدلول الدين أشمل من مدلول العقيدة. إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة.. وفي الإسلام يمكن أن

تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام)(١).

وهذا الفقه الذي سجله سيد قطب رحمه الله تعالى هو فقه السلف الصالح رحمهم الله وهو معنى قوله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وهو الذي دفع جحافل الجهاد في العصور المفضلة إلى بذل مهجهم ونفوسهم في سبيل الله وكان الباعث لهم إلى الإنطلاق في أرض الله شرقاً وغرباً ينشرون كلمة الله ويرفعون رايته ويحطمون عروش الطغاة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ولكن ذلك الفهم السقيم الذي وقع فيه كثير من المؤلفين المسلمين بسبب هجوم أعداء الله الكفار على دينهم واتهامه بأنه دين السيف والقتل وسفك الدم هو الذي حطم معنويات المسلمين وخذلهم وجعلهم يطأطئون رؤوسهم لأعدائهم الذين أذاقوهم الذل والهوان ولا يمكن أن ينالوا العزّة التي نالها سلفهم إلا إذا فقهوا هذا الفقه وارتفعت حماسة الجهاد في سبيل الله في نفوسهم وحملوا رايته باسم الله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وإلا فإنهم سيبقون مهزومي النفوس قاعدين عن القيام بحمل الأمانة التي كلفهم الله إياها: (ولقد كان من خطر ما كتبه هؤلاء الكتاب المسلمون من أن الجهاد في سبيل الله قد شرع لرد العدوان أو للدفاع كان من خطر ذلك أن شاع بين عديد من المسلمين في مختلف بلاد الإسلام هذا المفهوم عن الجهاد ففقدوا أرفع معنوية من المعنويات التي يغرسها الإسلام في نفوس أهله وهو الاعتزاز بأنهم أهل الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وعندما فقد المسلمون هذا الاعتزاز ماتت في نفوسهم الرغبة في مقاومة أعدائهم الغازين لهم المحتلين لأرضهم)(٢).

هذا وإذا كان الجهاد في سبيل الله شرع لرفع كلمة الله وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عباد الله ورفع الظلم عنهم فإنه لا داعي للخلاف فيه هل شرع لقتال من قاتل من الكفار أو شرع لمجرد الكفر؟ لأن رفع كلمة الله يقتضي قتال

---

(١) في ظلال القرآن (٩/ ١٤٣٥).

(٢) مع العقيدة والحركة والمنهج في خير أمة أخرجت للناس (ص ١٦١) لمؤلفه علي عبد الحليم محمود.

كل من صدّ عنه والقضاء عليه سواء كان صده بالقتال أو بالرأي أو بأي نوع من الأنواع. وأما من لم يصدّ عنه بأن دخل في دين الله أو خضع لحكمه فأدى الجزية وهو صاغر فإنه لا يقاتل ولا يُكره على الدخول في هذا الدين كما مضى. ولعل هذه الإشارة كافية إلى ما كتبه الشيخ سليمان بن عبد الرحمن بن حمدان رحمه الله في الرد على رسالة نسبت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعنوان قاعدة في قتال الكفار هل هو لأجل كفرهم أو دفاعاً عن الإسلام، وقد أنكر المؤلف نسبة هذه الرسالة لابن تيمية والذي يظهر من أسلوب الرسالة أنها له لأن أسلوبه رحمه الله واضح فيها ولكنه أنكر أن يكون القتال لمجرد الكفر وإنما لرفع كلمة الله وذلك بأن يكون الحكم الغالب هو حكم الله لا سلطان الكفار وإذا كان الكفار مغلوبين وسلطانهم منتفياً وهم يؤدون الجزية صاغرين فإنهم حينئذ لا يقاتلون لكفرهم إذ قتالهم لكفرهم يقتضي إكراههم على الدخول في الإسلام وهذا من الاعتداء الذي نهى الله عنه. ومعنى قتال المقاتلين عنده رحمه الله هو أن يقاتل من أعد نفسه لقتال المسلمين سواء باشروا القتال فعلاً أو لم يباشروا والذين لا يقاتلون هم الذين لم يعدوا أنفسهم للقتال كالرهبان والشيوخ، فأي غبار على هذه المعاني جعل المؤلف سليمان بن حمدان يرهق نفسه لإنكار نسبة هذه الرسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية؟ وإذا كانت بعض الجمل في الرسالة منكرة وقد نقلها رحمه الله عن بعض العلماء ولم يقرها لأنه قد بين رأيه في أول الرسالة وفي أثنائها فإنه لا يسوغ نفي نسبة الرسالة إليه وقد بين رحمه الله خلاصة رأيه في رسالته السياسة الشرعية عندما قال: (وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتل بقوله أو فعله وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان لكونهم ما لا للمسلمين والأول هو الصواب لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله)[١].

---

(١) الفتاوي (٢٨/ ٣٥٤).

وكلامه رحمه الله في رسالة القتال لم يخرج عن هذا المعنى وهو واضح لمن تدبره.

والخلاصة أن السلف الصالح فهموا أن مقصود الجهاد وهدفه هو إعلاء كلمة الله في الأرض كلها ليتمتع الناس كلهم بهذا الدين العالمي ولذلك جاهدوا في الله حق جهاده وأعدوا كل ما استطاعوا لرفع كلمة الله فكان منهم ما كان من فتح القلوب بالإيمان والعلم النافع ومن فتح البلدان بالقوة وإزالة كل حواجز الظلم والطغيان. وإن كثيراً من المسلمين ضاع عليهم ذلك المفهوم لمعنى الجهاد في سبيل الله بسبب هجوم أعداء الله على الإسلام بعامة وعلى الجهاد بخاصة فكان ذلك سبباً في قعودهم وتعويقهم عن القيام بواجبهم نحو البشرية فأذل الله المسلمين وجعلهم نهباً لأعدائهم وإذا أرادوا أن يعود لهم مجدهم وعزهم فعليهم بالتفقه في دين الله وفهمه على الوجه الذي أراده وتطبيق ذلك عملياً بالقدوة الحسنة والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وعندئذ تدور الدوائر على أعدائهم وينصرهم الله على كل متكبر جبار: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تنصروا الله يَنْصُرْكم، ويُثَبِّتْ أقدامَكم﴾[1].

الفرع الخامس
سوء تصور معنى الأجل ومعنى الرزق

حب الحياة الدنيا ليس مذموماً على إطلاقه، لأن الله تعالى خلق هذه الحياة، وخلق فيها البشر وسخر لهم فيها ما يتمتعون به. ويشتهونه من مأكل ومشرب ولباس ومسكن ومركب، ومنصب وجاه، وزينة وجمال وعلم وغير ذلك وجعلهم خلائف في هذه الأرض يخلف بعضهم بعضاً وأراد منهم عمارتها، ولكنه سبحانه وتعالى بين لخلقه أن هذه الحياة الدنيا حياة ابتلاء واختبار وليست حياة دوام وخلود ووضع لهم سبحانه منهجاً لحياتهم من اهتدى به فاز ومن ضل عنه هلك وأخبرهم سبحانه أن الأجل ـ أجل الأفراد وأجل الأمم ـ محدود بقدر لا يزيد ساعة ولا ينقص أخرى، وإن الرزق مقسوم لا ينال أحد منه إلا ما قدر

(١) محمد: ٧.

له ـ وإن كان حثهم على بذل الأسباب للحفاظ على الصحة وجلب الرزق ـ كما بين الله تعالى لعباده، إن هذه الحياة الدنيا بزخارفها ومفاتنها ليست شيئاً يذكر بجانب الحياة الآخرة التي أعد الله فيها للمتقين الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأعد فيها النار لأعدائه الكافرين وقودها الناس والحجارة علها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وأقام سبحانه عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب وأمرهم بإقامة دينه وتحقيق عبوديته والدعوة إليه والجهاد في سبيله، فأما المؤمنون فاستجابوا لربهم وعبدوه حق عبادته وجاهدوا فيه حق جهاده وعلموا أن جهاد أعدائه لا يقدم الأجل وأن ترك جهادهم لا يؤخره، بل لقد خافوا أن يموتوا موت القاعدين الجبناء، وعلموا كذلك أن الرزق مقدر وأن إنفاقه من مالهم في سبيل الله لا يجلب لهم فقراً كما أن إمساكه عن ذلك لا يجلب لهم غنى فكان ذلك من أعظم البواعث الدافعة للمؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله بكل ما يملكون حتى أرواحهم. وباستعراض بعض الآيات القرآنية في تقدير الأجل والرزق وإيمان المسلم بما تضمنته يظهر للقارىء أن المسلم لا يعوقه عن الجهاد في سبيل الله خوف الموت ولا خوف فوات الرزق.

فهو يعلم الأطوار التي مر بها ويعلم أنه لولا إرادة الله تعالى وقدرته لضاع في أول تلك الأطوار الذي كان فيه في أحط درجات الضعف، عندما كان نطفة تحيط بها المخاطر فالله هو الخالق وهو المحيي وهو المميت يقول للشيء كن فيكون.

﴿هو الذي خلقكم من تُراب ثم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم يخرجكم طِفْلاً ثم لِتَبْلُغوا أشدَّكم، ثم لتكونوا شيوخاً، ومنكم من يُتَوفَّى من قَبْلُ ولتبلغوا أجلاً مُسمّى ولعلكم تعقلون * هو الذي يُحيي ويُميت فإذا قَضَى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون﴾(١).

ـ وهو يعلم أنه لا يموت إلا بإذن الله وأن المهم ليس هو الموت أو الحياة وإنما المهم هو العمل الذي يجزي الله به عبده بعد الموت.

---

(١) غافر: ٦٧/ ٦٨.

﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتُم على أعقابكم، ومن يَنْقلبْ على عَقِبَيْه فلن يضرَّ الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجَّلاً، ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نؤتِه منها، ومن يُرِدْ ثواب الآخرة نُؤتِه منها، وسنجزي الشاكرين﴾(١).

﴿الذي خلق الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيُّكم أحسنُ عملاً، وهو العزيز الغفور﴾(٢).

﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ وإنَّما تُوَفَّون أجوركم يوم القيامة، فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنةَ فقد فاز، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾(٣).

﴿وما جعلنا لبشرٍ من قَبْلك الخُلْد أفإن مِتَّ فهم الخالدون * كلُّ نفس ذائقة الموتِ ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنةً وإلينا تُرجعون﴾(٤).

وهو يعلم أنه مكلف بعبادة الله وألا يخاف فيها لومة لائم لأن الله أمره بها وأرضه واسعة يستطيع أن يمشي في مناكبها ويبتغي من رزقه الذي لا سبيل إليه إلا منه، والله سبحانه ـ فوق كونه الذي يقدر الموت والحياة ويرزق من يشاء ولاراد لرزقه وفضله ـ يعد المؤمن برزق واسع كريم يدفعه إلى الجهاد في سبيل الله ليحظى بما وعده إياه: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعةٌ فإياي فاعبدون * كل نفسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا تُرجعون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوأنَّهم من الجنة غُرَفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نِعْم أجرُ العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون * وكأيِّن من دابة لا تحملُ رزقَها الله يرزقُها وإياكم وهو السميع العليم﴾(٥).

لا بل إن المؤمن ليخاف من أن يموت من موت القاعدين الجبناء خشية من أن تنبت في قلبه نابتة نفاق: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) آل عمران: ١٤٤/ ١٤٥.
(٢) الملك: ٢.
(٣) آل عمران: ١٨٥.
(٤) الأنبياء: ٣٤/ ٣٥.
(٥) العنكبوت: ٥٦/ ٦٠.

قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق»[١].

ولشدة خوفه من أن يموت نادماً على تفريطة وعدم إسراعه بطاعة الله تعالى يبادر الموت بكل ما يرضي ربه سبحانه امتثالاً لأمره إياه بذلك: ﴿وأنفقوا مّما رزقناكم من قَبْلِ أن يأتي أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَّرتني إلى أجلٍ قريبٍ فأصدَّقَ وأكنْ من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلُها، والله خبيرٌ بما تعملون﴾[٢].

وهو يحب لقاء الله وأفضل وسائل لقائه الشهادة في سبيله ﴿قال الذين يظنُّون أنَّهم ملاقوا الله: كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين * ولما برزوا لجالوتَ وجنودِه قالوا: ربَّنا أفرغْ علينا صَبْراً، وثبِّت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، فهزموهم بإذن الله﴾[٣].

ولذلك يغلب جانب محبة إحقاق الحق وإبطال الباطل ـ ولو مات في سبيل ذلك ـ على جانب كراهة الموت.

﴿كما أخرجك ربُّك من بيتِك بالحقِّ وأن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحقِّ بعدما تبينَّ كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون * وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذاتِ الشوكةِ تكون لكم، ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحقَّ الحقَّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾[٤].

والموت والحياة عند المؤمن من آيات الله التي تدفعه إلى طاعته ومنها الجهاد في سبيله ـ لا تعوقه عنها: ﴿الله يتوفَّى الأنفسَ حين موتِها * والتي لم تَمُتْ في منامها، فيمسكُ التي قضى عليها الموتُ ويرسلُ الأخرى إلى أجل مسمّى * إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكَّرون﴾[٥].

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٥٨٧).
(٢) المنافقون: ١٠/ ١١.
(٣) البقرة: ٢٤٩/ ٢٥٠.
(٤) الأنفال: ٥/ ٨.
(٥) الزمر: ٤٢.

والأمة الإسلامية ـ كالفرد المسلم ـ يدفعها إيمانها بالأجل المقدر المحتوم إلى بذل نفسها في سبيل الله دون خوف أو وجل: ﴿ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[١].

والرزق عند المؤمن كالأجل لا يخيفه ولا يعوقه عن الجهاد في سبيل الله، ولو جرت العادة أن يسوقه الله من لدى أعدائه الكافرين الذين أمر المؤمن بجهادهم ففضل الله واسع وسيأتيه ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجِد الحرامَ بعد علمهم هذا، وإن خفتُم عيلـة فسوف يُغنيكُم الله من فضله إن شاء إنَّ الله عليمٌ حكيمٌ﴾[٢].

ولقد بين رسول الله ﷺ لأمته أن الذي يجب أن تهتم به ليس الأجل ولا الرزق لأن الآجال محدودة والأرزاق مقسومة لا يتقدم شيء منها عن موعده ولا يتأخر. وإنما الذي يجب أن يهتم به هو العمل الصالح وجزاؤه كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قالت ام حبيبة زوج النبي ﷺ: (اللهم أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية) قال: فقال النبي ﷺ: «قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئاً قبل حله أو يؤخر شيئاً عن حله ولو كنتِ سألت الله أن يبعدك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل»[٣].

وهذا المعنى الذي وضحته نصوص الكتاب والسنة وقر في نفوس السلف الصالح وعلى رأسهم صحابة رسول الله ﷺ، ويـدل عليه بـذلهم نفوسهم وأموالهم في سبيل الله وما قاموا به من فتوح جهادية بهرت عقول الناس سرعتها وثمارها، وهو الذي وقر في نفوس كل مؤمن فقهه الله في دينه في جميع العصور. وهذا أحد المجاهدين في هذا العصر يغوص إليه من خلال تفيئه في ظلال كتاب الله قال: (ثم يلمس السياق القرآني مكمن الخوف من الموت في النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف عن طريق بيان الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير ومن ابتلاء للعباد وجزاء،

---

(١) الأعراف: ٣٤.
(٢) التوبة: ٢٨.
(٣) مسلم (٤/ ٢٠٥٠).

﴿وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً، ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الدنيا نؤتِه منها، ومن يُرِدْ ثواب الأخرة نؤتِه منها، وسنجزي الشاكرين﴾[١]. إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً، الخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء. والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد. بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس فتترك الاشتغال به ولا تجعله في الحساب وهي تفكر في الأداء والوفاء بالالتزامات والتكاليف الإيمانية وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته في صبر وطمأنينة وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده)[٢].

والواقع الذي يلمسه كل أحد في هذه الحياة يدل على نفس ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الآجال لا يؤخرها حرص حريص ولا جبن جبان ولا يقدمها شجاعة شجاع ولا طمع طامع في الموت وأن الأرزاق مقسومة لا يأتي بها بخل بخيل ولا يبعدها كرم كريم ومن تدبر أحوال الناس في حياتهم وموتهم وفي غناهم وفقرهم بانَ له الأمر كالشمس في كبد السماء فكم من بخيل بقي عمره كله فقيراً وهو يكدح ليلاً ونهاراً عن طريق الحلال والحرام للحصول على الغنى وكم من بخيل غني أصبح فقيراً وقد أمسى غنياً، وكم من كريم سخيٍّ يطلب الرزق بهدوء من وجه حلال وينفق الكثير مما يرزقه الله بقي غنياً طول حياته وكم من فقير أصبح غنياً وقد أمسى فقيراً. وكم من شجاع مقدام ألقى بنفسه في صفوف الموت طول حياته ثم مات على فراشه وكم من جبان حرص على رجله أن تصيبها الشوكة جاءه الموت من حيث لا يدري وكم من حذر ذي خدم وحشم وقلاع حصينة وجيوش مدججة تحرسه أتاه المقدور مخترقاً كل حصونه وخدمه وجيوشه.

وصدق الله القائل: ﴿أينما تكونوا يدرككُّم الموتُ ولو كنتم في بُروجٍ مشيّدة﴾[٣].

---

(١) آل عمران: ١٤٥.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٩٠).

(٣) النساء: ٧٨.

ويقابل هذا الفهم الرباني الواضح فهم جاهلي حالك يحرف الكلم عن مواضعه، خلاصته أن الحرص على الحياة واتخاذ أسباب الحيطة من الموت يؤخر الأجل، وقد ذكر الله سبحانه أن اليهود أشد الناس حرصاً على الحياة على الرغم من زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس كما قال تعالى: ﴿قُلْ إن كانت لكم الدارُ الآخرة عند الله خالصةً من دون الناسِ فتمنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين * ولن يتمنَّوه أبداً بما قـدَّمت أيديهم، والله عليم بالظالمين * ولتجدنَّهم أحرصَ الناس على حياةٍ ومن الذين أشركوا، يودُّ أحدُهم لو يُعَمَّر ألف سنةٍ، وما هو بمُزَحْزِحِه من العذاب أن يُعَمَّر، والله بصير بما يعملون﴾[1] لذلك كان الجبن ملازماً لليهود وهم دائماً يحاولون تكميل نقصهم بهذا الجبن بالتحصينات الثابتة والمتنقلة كما قال الله تعالى عنهم: ﴿لأنتُم أشدُّ رهبةً في صدورهم من الله، ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصّنةٍ أو من وراء جُدُرٍ، بأسهم بينهم شديدٌ، تحسبُهم جميعاً وقلوبُهم شتّى، ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون﴾[2].

ويلي اليهود تـلاميذهم المنـافقون الـذين فاقـوهم في الجبن بل إنهم ليجهدون في قذفه في نفوس الشجعان ليعوقوهم عن الجهاد في سبيل الله قال تعالى: ﴿فرح المخلّفون بمَقْعدِهم خِلافَ رسول الله، وكرهوا أن يجـاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا: لا تنفِروا في الحرِّ، قل: نارُ جهنّم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون * فإن رجَعَك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل: لن تخرجوا معي أبداً، ولن تُقـاتلوا معي عدواً، إنّكم رضيتُم بـالقعـود أولَ مـرة فـاقعـدوا مـع الخالفين﴾[3].

وإذا كانوا في هذه الآيات وأمثالها يثبطون من أراد الخروج للجهاد في سبيل الله قاذفين في نفوسهم الخوف من أتعاب الجهاد فإنهم يستغلون ما يبلغهم من قتل بعض المشتركين في القتال لإدخال الندم في نفوس أهليهم ومذكرين بأنه يجب قبول نصحهم في المستقبل بالقعود عن الجهاد الذي هو سبب تقريب

(١) البقرة: ٩٥/ ٩٦.
(٢) الحشر: ١٣/ ١٤.
(٣) التوبة: ٨١/ ٨٣.

الآجال في زعمهم قال تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن التشبه بهم في فهمهم الجاهلي وتصورهم الفاسد لمعنى الأجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير﴾[1] ثم بين سبحانه لعباده المؤمنين أنهم إذا كانت آجالهم قد حددت بوقت خروجهم في سبيل الله، فإن ما ينالونه من رحمة الله ومغفرته خير لهم من موتهم قاعدين في بيوتهم مثل أولئك المنافقين: ﴿ولئن قُتلتم في سبيل الله أو مُتّم لَمَغْفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون﴾[1].

وإذا تأمل الإنسان في أحوال المنتسبين إلى الإسلام في العصور المتأخرة وجد أن أكثرهم يفهمون فهم المنافقين والكفار من معنى الأجل ومعنى الرزق. ولا سيما قادة الشعوب الإسلامية من زعماء وتجار وعلماء. لقعودهم وتقاعسهم عن الجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم مع أن ذلك ضرورة لازمة لسيطرة الكفر وهيمنة الكفار على الأرض وكونهم أصبحوا الآمرين الناهين وأصبح المسلمون أتباعاً خاضعين أذلاء قد امتلأت قلوبهم خوفاً من أعداء الله واستقر في أذهانهم أنهم إما أن يطيعوهم في أوامرهم الظاهرة والخفية وإما أن ينزعوا منهم سلطانهم وجاههم ويفقروهم بعد أن كانوا أغنياء فأنزلوهم منزلة الخالق الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ويغني من يشاء ويفقر من يشاء.

ولهذا يرون أعداءهم يحتلون أراضيهم بلداً بعد بلد وهم لا يجرؤون على تحريك ساكن وغاية ما يفعلونه هو المؤتمرات المتتابعة والقرارات غير الجريئة. وهي حبر على ورق ـ وتقديم الشكاوى إلى رؤوس الكفر الذين هم الظالمون في مجلس الأمن الكافر يهددهم العدو باحتلال أراضيهم بل يحتلها وهم يصيحون طالبين منحهم السلم التي كان يجب أن يجنح لها العدو بعد كسر شوكته.

وبهذا يظهر أن من أكبر المعوقات عن الجهاد في سبيل الله تحريف مفهوم معنى الأجل ومعنى الرزق والرضا بالحياة الدنيا من الآخرة: ﴿يا أيها الذين آمنوا

---

(١) آل عمران: ١٥٦/ ١٥٧.

ما لكم إذا قِيلَ لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتُم إلى الأرض؟! أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة؟! فما متاعُ الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليلٌ﴾[١].

فعلى المؤمنين أن يحذروا كل الحذر من هذا التصور السيء الذي كان من آثاره ما وقعوا فيه من الجبن والخور والذل والصغار وأن يحذروا من: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: لَوْ أطاعونا ما قتلوا﴾ وأن يقولوا لهم إذا سمعوا منهم ذلك: ﴿قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾. ويرددوا مع سيد قطب هذه العبارة: (فالموت يصيب المجاهد والقاعد والشجاع والجبان ولا يرده حرص ولا حذر ولا يؤجله جبن ولا قعود والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء وهذا الواقع هو الذي يجبههم به القرآن الكريم فيرد كيدهم اللئيم ويقر الحق في نصابه ويثبت قلوب المسلمين ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين)[٢]. ويوقنوا بقول الله الحق جلّ جلاله: ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[٣].

---

(١) التوبة: ٣٨.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٥١٦) والآية من سورة آل عمران (١٦٨).

(٣) الأعراف: ٣٤.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

انتهى الجـزء الأول من كتـاب الجهـاد في سبيـل الله
ويليه الجزء الثاني وأوله صفـات المجاهـدين في سبيل الله